

القسم الأول

أوروبا الجديدة

الكتاب الأول

القرن السادس عشر

(١٤٩٢ - ١٥٩٨)

المؤسسات الجديدة

الفصل الأول

المباني الفكرية الجديدة النهضة الكبرى

مشكلة النهضة وعدها تتناول هذه الحقبة ، وفقاً لتقليد متعارف مكرور ، منذ عهد بيميد ، هذه الفترة الزمنية الواقعة بين المقد ١٤٩٠/١٥٠٠ والمقد ١٥٥٠/١٥٦٠ التي بلغت فيها النهضة الفكرية الأوج من الازدهار ، والدُرْوَة من الانتشار . ولا يتالك المؤرخ اليوم ، من الشعور بشيء من الوَجَل والقلق عندما يدهى للتحدث عن « النهضة » . فمنذ خمسة قرون ، حمل المؤرخون هذه اللفظة مدلولاً عنى هالماً من الوقائع وبجرأ من الافكار والمذاهب ، وقع عليها اختيارهم . ليس لأنها فرضت ذاتها عليهم فرضاً ، بل لانه كان لهذه الوقائع وما اليها من حدائق وماجريات ، ولهذه الافكار والمذاهب حد القدرة على تركيز نظريات فلسفية ارتضاها الناس وعلقت بها خواطرهم . فلا عجب ، والحالة هذه ، ان يقوم حول مفهوم النهضة عقدة ، وان ترتفع بصددها مشكلة لم تلبث ان استحالت الى شيء هو اقرب إلى الفوضى .

يتبنى المؤرخون اليوم صورة لعصر النهضة والانبات رسم خطوطها الكبرى المؤرخ الفرنسي ميشليه ، سنة ١٨٥٥ وبوركهاردت السويسري سنة ١٨٦٩ . فقد جعل هذا وذاك عصر النهضة ، حقبة من حلب التاريخ البشري لها خصائصها المميزة ، انطلقت عند ميشليه للفني كان يضع نصب عينيه تاريخ فرنسا ، من عهد الملك فرنسيس الاول ، بينا رأى بوركهاردت الذي أخذ من إيطاليا قاعدة لحكه ان النهضة امتدت سحابتها ، في نظره ، من سنة ١٢٥٠ الى ١٥٥٠ تقريباً . وباستثناء هذا الفارق الزمني لم يختلف المؤرخان المذكوران كثيراً في الرأي عندما راحا يحددان الخصائص المميزة لهذا العصر بالذات . فالعصر يختلف في نظرها ، اختلافاً كلياً عن عصور الاجيال الوسطى ، اذ كان يمتضن ، ولو بصورة كامنة ، الخصائص التي تفرده

للعالم الحديث وتميزه . ففي نظر بوركهات الذي بدا اكثر منهجية من زميله الفرنسي ، ان هذا العصر جاء حصيلة للوضع الفكري الذي كان عليه الشعب الايطالي بعد ان استفاق ووعى ذاته ، فهو اذا ، عصر النهضة الذي جاء حصيلة تبدل جذري في الذهنية ومناحي التفكير . فقد تميزت النهضة بطابع الطيفيان ، سمة الدولة اذ ذلك ، هذه الدولة التي قامت ، كما تقتضي الشكليات على القوة ، بجلى الفرد وبعلى استعلائه ، وبعلى فردية الانسان ، هذا الفرد الواحد ، ومن ثم استفحال مذهب الفردية التي تقوم على شهوة المجد والتطلع الى العظمة . اما المثالية الجديدة التي اطلت على العصر فتحقيقها موقوف على تمييز هذه المعطيات من الحقائق الوضعية التي تجتمعت خلال الاجيال القديمة او التاريخ القديم والتي بواسطتها فقط يستطيع الوصول الى ما هو قائم حقاً الى العالم الخارجي والى الانسان ، هذه المعطيات المفترى عليها والمزودة من قبل كتاب الاجيال الوسطى ، هذه الاجيال التي غامت بين النصوص والآيات المقدسة ، وبين ألتغاز المصطلحات ومعانيها . ومن هذا العصر اطلت علينا الرغبة في العلم واحترام الشخصية البشرية والإقبال على درس ما يميز الفرد . وهذه النظرة الجديدة الى العالم اخذت تعمل عملها في تكوين المجتمع .

فالذي يرفع من قيمة الانسان ويحمل له شأنًا ، ويقيم له وزناً بعد نبوغه وقوة الابداع فيه ، وما يتحلى به من ثقافة وما حققه له من يسر وغنى : نشاطه الخلاق ، وليس كرم الاصل الموروث وشرف الحدت وامجاد الحروب . فالطبقة المسيطرة نصفها من النبلاء والنصف الثاني من البورجوازية ، كما ان طبقة الأشراف هي التي تتألف من كبار رجال المال والاعمال ، امّا هذا النمط من الحياة الذي يجيئه هؤلاء الأشراف الذين يحترفون مهنة الحرب والخدمة العسكرية فهو مضمّنة في الالسن وموضوع ازدراء الجميع . والطبقة المتحركة التي تملئ على الطبقات الدنيا ، الصورة التي ترسمها عن العالم وتلقنها سر اذواقها في الثقافة والفنون واخلاقيتها في التصرف والسلوك المتحرر . اذ ان الفرد هو ولي امره يستن لنفسه ما يلائم مزاجه ويفذي فيه التشككية الدينية ، اذ كثيراً ما يجعل المرء عملياً من نفسه محور العالم ، ويقف ، بوصفه واحداً من هؤلاء الآلهة الصغار ، موقفاً معادياً لرجال الدين ويصبح ملحداً . هذه الذهنية الايطالية لم تلبث ان سيطرت هي نفسها على اوربا وانتشرت في جميع ارجائها .

يبدو هذا الوصف صحيحاً واقعياً في القسم الاكبر منه باستثناء ما جاء منه خاصاً بالدين . فالامور النظرية هي وحدها موضوع تحفظ وجدل . ولذا راح مؤرخون محدثون يؤكدون اليوم ان عصر الانبعاث هذا لم يكن ليتعارض في الصميم مع الاجيال الوسطى ، اذ ان الخصائص المميزة التي تطبعه هي ، بالفعل ، من بعض مخلفات الاجيال الوسطى بالذات ، وانه اذا كان لا مندوحة من الاعتراف بقيام عصر « نهضة » فالقول يصح لجهة القرن الثاني عشر ، في هذا الجزء بالذات الواقع الى ما وراء جبال الألب ، ولاسيما في فرنسا محور الدائرة وقطب الحضارة

الأوروبية . ولكن ، ماذا من الفردية ، ومن هذا الاهتمام البالغ بالروابط التي تنتظم القوة والحيرت المادية وشهوة الفنى والبخ ؟ كل هذه تفرح أوروبا وتمشعش في كل زاوية منها ، منذ نهاية الحروب الصليبية وحركة النهضة البلدية حتى ان الراهبة هيلوز معشوقة ابيلاز الاسبغ ، البائسة ، التي تميش كال الفضيلة الايطالية كما تمثلتها هي ، يمكن اعتبارها من شخصيات عصر النهضة ولو عاشت في القرن الثاني عشر . وماذا من التاريخ القديم اليوناني واللاتيني ؟ ولكن معرفة فرنسا لمكونات هذا التاريخ ولقوماته لم تكن لتقل قط عن معرفة ايطاليا لها . فلقد كان لهذا التاريخ ، في فرنسا ، من رفعة الشأن والاكبار ما تم لايطاليا منه في القرن السادس عشر . فالمدارس الفرنسية التي قامت الى جانب كاتدرائيات باريس ورييس ، وشارتر واورليان ، كانت ، في القرن الثاني عشر ، مناثر عالية للثقافة العامة ، كما ان مدرسة شارتر كانت المحور الرئيسي للدراسات اللاتينية في أوروبا جمعاء . ويمثلو الادب الكلاسيكي من شعراء وخطباء ومؤرخين ، أحبطوا فيها بكل مظاهر الاكبار والتقدير اذ نظر اليهم الناس نظرتهم الى جبايرة الفكر في التاريخ القديم لا بد من دراستهم دراسة تدبر ، لكل من تشرئب نفسه الى الرفعة والتجلى في حياة متجددة مشرقة . فالفرنسيون مطلعون كل الاطلاع ، على الآثار الفكرية والمخلفات الادبية التي عرفها فيما بعد ، عصر النهضة في ايطاليا . فاعلام الكتاب من فرجيل الى أوفيد ، الى شيشرون ، الى كونتيليانوس ، الى سنيكا فبيني القديم ، وغيرهم كثيرون ، هم موضوع عبادة الجميع يحيطونهم بكل الكرام واجلال . فاللاتينية فيها ولا اصفى ولا اقصى ، كما يصعب امرها في ايطاليا ، خلال القرن السادس عشر ، والآداب الشمية والرومانسية في هذه المنطقة انبثقت كلها عن اللاتينية . فالاهتمام بمحاورات افلاطون ومباحث ارسطو ، على اشده ، وقد ترجمت، هذه الآثار من اليونانية الى اللاتينية ترجمة دقيقة ، امينة ، بحيث لم يبق لعلماء النهضة في ايطاليا من مهمة سوى تجديد او تصويب بعض التراكيب فيها . وليس بقريب ، البتة ان تطالعك ، حتى في مثل هذا الوقت ، بعض الافكار المصرية ، كفكرة الطبيعة الخيرة المعطاء والفلسفة الطبيعية التي تؤكد ذاتية الطبيعة والعقل الفصل . فالكل متمل من الاقتناع بان الطبيعة هي عمل الله على الارض ومجلى ارادته ، جميلة ، عظيمة ، خيرة في ذاتها ، افسدتنا الخطيئة الاصلية ، ومع ذلك تبقى اداة للنعمة ومساعدة الخالق وخادمتها المطواع في كل ما يؤول الى تجديد العالم . فنعمة الله رقيقة بالطبيعة ، بارّة بها ، كما ان الطعمة هي الاخرى رقيقة ، بارّة بالنعمة . ففي الاجيال الوسطى كما نرى ، مذهب فلسفي طبيعي جعل من الطبيعة محور اهتمامه اكثر بكثير مما تصوره بوركهاردت ، وبلغ اليه ظنه .

وبمكس ذلك تماماً هنالك مؤرخون بشددون على كل ما اقتبسته النهضة الايطالية من الاجيال الوسطى وعرفت ان تنقله اليها وتصونه سالماً . ففي الرماضيات نرى الايطاليين ، في الثلث الاول من القرن السادس عشر ، يعولون كثيراً على جامعات باريس واكسفورد وتعاليمها في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، كما نراه مدينين كثيراً لهذا النابغة الباريسي العظيم

فيقولوا أوريسم الذي تم له ان يكشف ، قبل ديكارت نفسه ، عن اصول الهندسة التحليلية ، كما انه توصل للكشف عن نظرية الاستمرار ونظريات : اللانهاية بالقوة واللانهاية بالفعل ، ونظرية المتسلسلة المتنامية الصغر ، ونظرية الأسس الكبرى والتناير الوظائففي . وعن باريس صدرت دورة الشمس النهارية ونظرية تعدد العوامل ، وكلها نظريات علمية جرى بحثها والنظر فيها منذ القرن الثالث عشر . وما هو ليناردو ده فنشي ذاته ، يتملى ويتشبع من كتابات ومباحث صكار الفيزيائيين الذين علموا في جامعة باريس ، امثال البرت ده ساكس وتيمون اليهودي ، وجان بوريدان ، بعد ان طهت هذه الآثار وأعيد طبعها مراراً في ايطاليا ، منذ منتصف القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر . وعلى هذا قسم باقي الامور .

بعد هذا ، ما عسى ان يبقى من صفة التفرد التي يقصرونها على عصر النهضة ويصفونه بها ؟ بالطبع تتبخر وتتطاير هباءً . فمصر النهضة ليس سوى مرحلة من مراحل هذا التيار الجارف المتمثل في الحضارة الأوروبية ، نبعت من « اجيال الوسطى » المؤرخين ، وبلغت أشدها في « عصورم الحديثة » ، هذا التيار المتدافع باستمرار ، والمتواثب بلا انقطاع . فالمؤرخون امثال بوركهاردت راحوا فريسة الروح الوطنية الايطالية وفلسفتهم العرقية بعد ان ارمدت عيونهم من تفوق « الغالين » ، وسبقهم لهم ، فعزموا امرهم على تجاهل هذا التفوق وتناسي امره ، وضربوا صفحاً عن كل ما اقتبسوه منهم ، كارهين ان يعترفوا بأي فضل او قيمة ، الا ما لم يكن يد من الاعتراف به ، بعد ان عجزوا عن تجاهله وامهاله ، ثم راحوا ينسبون لأنفسهم سبق التجلي وحق الصدارة والتقدم . فحركة النهضة عندهم انطلقت من بترايك ، في القرن الرابع عشر ، ومن نقطة الانطلاق هذه إستمد بوركهاردت الاسس الأولى لنظريته ، نظرية النهضة الشمسية الايطالية . فقد إزدري بترايك الباريسيين . بل كل الفرنسيين ، ونظر اليهم نظره الى برابرة ، اجلاف . فالتمدين في نظره ، هو من تكلم الايطالية باصفي صيغها وانقى قوالبها ، وهو من تجمل باللاتينية مصدر القيم وينبوع الفضائل كلها . ولكن هذه اللاتينية او بالاحرى الحضارة اللاتينية توارت من العالم وزالت عام ٥٢٤ مع بوبتيوس ، وهو التاريخ الذي انتهى فيه العالم اللاتيني وبرز فيه عالم البرابرة . فالفرنسيون ، سلالة الغالين وحفدتهم لن يستطيعوا ، يوماً امتلاك اللاتينية وتجويدها . فالإيطاليون وحدهم هم الذين يحري في عروقهم الدم اللاتيني ، وهم وحدهم يستطيعون بعث اللاتينية من جديد ، مرضمة العلوم والفنون والآداب . فقسمة تاريخ البشرية الى ثلاثة ادوار ، اوسطها تغشاها الظلمات والبربرية ، ثم إنبعثت اساسه الآداب الايطالية ، ثم الاجيال القديمة ، فالنفوق الايطالي في مجالات الفكر هو العنصر المحلي . هذه هي لعمرى ، العناصر المقومة الثلاثة لفكرة النهضة . هذا هو التقسيم الذي فرض فرضاً على اوروبا وعلى المؤرخين الذين ذهبوا فريسة اسطورة من هذا الميار الضخم .

لما كنا نتناول بالبحث عهداً تداخل قسم منه ، على زعم بعض المؤرخين ، في عصر النهضة ، كان لا بد لنا من ان نشير ولو بإيجاز ، الى ام النظريات

العالم الجديد

التاريخية حول هذه النقطة مما لا يزال يحتاج به دون ان تعرض بالتفصيل لهذا الجدل . والذي يهنا هنا هو ان نعرف ما إذا كان جد من جديد في مطلع القرن السادس عشر .

نلاحظ ، باديء ذي بدء ، ان فكرة النهضة بالذات تراود ، بحق او ببطل ، وسواء اكان لها ما يسوغها ام لا ، كل الخواطر والاضائر اذ ذاك . ولعل اول من اطلق هذه اللفظة تمييزاً عن قيام مثل هذا الوضع الحضاري الذي يختلف كلياً عن وضع الاجيال الوسطى ، هو على ما نعتقد الناقد الفني جورج فاساري ، في كتابه : « سير مشاهير المهندسين والرسميين والنقاشين الايطاليين منذ سيبابو الى يومنا هذا » ، في طبعته الاولى التي صدرت في مدينة فلورنسا ، عام ١٥٥٠ ، وللمؤلف من العمر اذ ذاك ، ٣٩ سنة . وقد لخص لنا في مجال حديثه عن الفنون خواطر بترارك بهذا الشأن ولا سيما ما جاء منها بالادوار الثلاثة التي مرت تباعاً على الانسانية ، ويصور لنا جلياً ان إعراض الازواق عن الفنون وضعف اهتمام الناس بها مرتبط الى حد بعيد ، بعوامل شتى ، تتصل في الصميم ، بالقوانين والشرائع المدنية المعمول بها ، والاعراف الاجتماعية المتحكمة بالاذواق ، وما للاخلاق عند الناس من قيم ، والمستوى الحضاري المتحيز على الاجمال ، فراح على هذا الاساس يقسم عصر النهضة الى ثلاثة اقسام وهو تقسيم لا يزال مرعي الجانب تتناقله كتب النصوص ، وهي : من منتصف القرن الثالث عشر الى اواخر القرن الرابع عشر حيث اخذ الفنانون ينهجون نهج جيوتو ويسيروا على منواله ويستكشفون بالتالي ، من الاساليب الفوطية والبيزنطية ويجارونها ، ويتناول الثاني القسم الاكبر من سعباية القرن الخامس عشر حيث اخذ عدد الفنانين يكبر ويتضخم بعد ان اخذوا يتقيدون ، اكثر فاكثراً ، بالواقعية ، وان على شيء من الجفاف والفتحة في الاسلوب الفني . واخيراً هذه الفترة التي وضعت فيها صورة « العذراء على الصخور » ، من سنة ١٤٨٣ الى سنة ١٥٥٠ ، اي الى مطلع العصر الحديث في مقدمة القسم الثالث ، اي عصر الكمال والتمام . وهكذا رسم فاساري صورة موجزة لهذه التيارات الفكرية التي طلعت مع بترارك وترعرعت معه وبعده ، والتي عاشها فاساري نفسه وشب بينها الا وهي افكار اليقظة والبعث والتجدد والانتقال من الظلمة الى النور ، وهي افكار دخلت الآداب والفنون والعلوم وتغلغلت عميقاً بين رجال السيف والقلم ، ففكرة الانبعاث او النهضة .

من ايطاليا إنتقلت هذه الفكرة الى اوروربا على السنة واقلام اعلام الفكر والثقافة امثال العالم الهولاندي ايراسموس والالمانى روثلين ، باعت الدراسات العبرية في المعاهد الاوروبية . اما الفرنسيون فيكفي ، توهياً بالشعور الذي ساورهم ، ان نردد هنا ، انشودة غرغنتويا الجبار الحماسية ، عندما يكتب ، كما يقول رابليه (١٥٣٢) الى ابنه بَنْتَفَرُوِيل قائلاً . « مرت حدائتي في عصر غشاء الظلام وفاحت منه رياح البؤس واختلج بالكبائر التي اتاها القوط الذين لم يتورعوا عن ذلك معالم اطرف واطيب وامثل ماخلفته الآداب والفنون ، ولكن الله في تحننه ورحمته اعاد الكرامة والنور الى الآداب ، في عهدي . والآن بعد ان عاد الاعتبار الى العلوم ،

واللغات حلت محلها اللاتق من التقدير كاليونانية التي لا يمكن للمرء ان يعتبر علماً بدونها ،
والعبرية والكلدانية واللاتينية . وتجلى ذلك كله في هذه الطبعات المؤنفة التي رفلت فيها المؤلفات
والآثار الفكرية التي رأت السور بوحى إلهي ، .

كذلك لا يمكن ان نتجاهل واقفاً تاريخياً له امميته وهو اعتقاد رجال العصر بأنهم يعيشون
بالعمل نهضة جديدة . فان لم يكن ثمة ما يبرر تماماً مثل هذا الاعتقاد ويزكّيه فمجرد شعور
المرء انه اسان من نوع آخر وانه سليل مدنية تقع في مرحلة زمنية دعيت بالاجيال الوسطى
(وهي تسمية اطلقها اول من اطلقها ابناء هذه النهضة ، منذ النصف الثاني من القرن الخامس
عشر رغم استعمالها في القرن السادس عشر) ، ادى ولا شك ، الى سلسلة من الاعمال وتسبب في
ظهور اساليب من التصرف والسلوك والتفكير ، وساعد في ظهور نمط من التفكير وعقلية
جديدة تختلف تماماً عما تم من مثل هذا للمهد الماضي المقيت . الا ان هذا الشعور له ما يبرره
ولو بصورة جزئية . فبين العقد ١٤٨٠ / ١٤٩٠ والعقد ١٥٣٠ / ١٥٤٠ ، طلعت علينا تغييرات
جذرية ، واطلت نظم ومؤسسات لم يقم مثلها من قبل ، كما يتضح ذلك جلياً من الامثلة الثلاثة
التي نورد هنا لك . منها تحقيق المثالية الافلاطونية الحديثة وتجيئها في روما ، سنة ١٦٠٠ ،
في صوغ انسان مثالي ، تناهد على رسم قسماته كل من ميكالو انجلو ورفائيل وكستينغليوني
وبرامنت ، فبرز في خطوطه الجديدة نصف اله ؛ بما تم له من نظر ثاقب يلتقط بلحمة عين
أرجاء الهضاه والاشكال في صور وصيغ فرضت نفسها على الحضارة الاوروبية مدة استطالت
ثلاثمائة سنة ؛ من ذلك ايضاً كشف كون جديد على يد كوبرنيكوس ، عام ١٥٠٦ ،
وهي السنة التي انجز فيها وضع كتابه الفصل المعنون : « حول دوران الافلاك السهوية » ،
وخلالها طرح في التداول كتيباً بعنوان : « تعليقات » بسط فيه بايجاز الخطوط الكبرى للنظرية
الجديدة التي قال بها وعلم ، والتي لم يبلغ البلاط البابوي خبرها الا في عام ١٥٣٢ ؛
واخيراً وليس آخر ، هذه الاكتشافات الجغرافية التي تمت عام ١٤٩٢ فحطمت حدود
العالم المتوسطي ونقلتها بعيداً لتجعل منها حدوداً لكوكبنا الارضي ، وهي كشوف تمت
على يد مرده مفاشرين امثال كولمبوس وفاسكود غاما ، وألبوكرك ، وكورتيس ، فرسموا
بذلك مسبقاً اول صورة للاقتصاد العالمي ولتساقط المعادن الثمينة والسلع التجارية على اوروبا .
فان سموا هذه الحركة نهضة او انبعاثاً او شيئاً آخر ، فالامر عندنا سيان ، ويبقى بعد هذا شيء
واحد هو انه تم في بضعة عقود من السنين تحييز لعالم جديد وتركيز له .

بعد ان وضع ميكالو انجلو اثره الخالد : « الأم الحزينة *Pieta*
في روما بعد ان استغرق انجازها من سنة ١٤٧٩ الى ١٥٠١ ،
ووضع برامنت تحفته : المعبد الصغير *Tempietto* بعد

الانسان والمكون حسب
الافلاطونية الحديثة

انت قضى في عمله سنتين من ١٥٠٠ - ١٥٠٢، تحقق الحيز الامثل واطل عالم الاشكال والصيغ وظهرت الصورة المثالية فتم بذلك حلم الافلاطونية الحديثة ، الذي رآه مارسل فتشينو هذا الراهب الفلورنطي ، رئيس كهنة كاندراثية فلورنسا ، واحد اصدقاء لورنتيوس العظيم الاوفياء - روح اكااديمية كاريجي الفلورنتية وراحها - هذا الراهب الذي عاد يحر من جديد ويفكر عميقاً ، فكرة او سطوية عاشها طويلاً وطالما ارادته ، تهدف الى التجديد المسيحي وبعث المسيحية لتعود الى نقاها الاول فتمت ، من قريب بدخيلة النفس وذلك في سبيل إصلاح الإنسان والمجتمع الذي يعيش فيه . وقد أُخيل اليه وهو الفيلسوف انه أنيطت به رسالة الهية ، الا وهي تحقيق هذا الانبعاث الديني وذلك عن طريق احياء الافكار التي قالت بها الافلاطونية الحديثة بحيث تتم عملية مزج او افراغ الفكرة الدينية : الوثنية والمسيحية في قالب واحد فيتم لقاء زرادشت وهرمس وتريسميست ، وفيثاغوراس مع الديانات الاخرى ذات الاسرار ، من أفلوطين الى اوريغيانس ، الى لكتانسيوس ، الى اوصابوس ، الى اوغسطينوس ، الى توما الاكوييني ، الى دونز سكوط في ائتلاف أشمل بما يمثله افلاطون ، والخروج من ذلك كله بدورة او معاملة تغري الناس اجمع ، بشكل لا يدفع ، على اعتناق المسيحية .

فقد بدا فتشينو ، وهو الذي تتلمذ على افلاطون وتخرج في مدرسته متوهماً ان الله خالق الكائنات هو الذي اوحى ، منذ الارل بالافكار فتأتي قوالب مثالية ورسيتاً في غاية الكمال والاتقان والجمال ، بعد ان رتب الله هذه الافكار والصور والاشياء وناسب بينها في نظام اسر ياخذ بجماع القلب والعقل ، فنستق بينها على احسن ما يكون التنسيق والتبويب والتسلسل فتكتسب الحلاتو معه قيمة فنية في غاية التسامي . « فالكون اجمع ، في جزئياته وكليياته ، ينطلق في الحسن من التناغم والإيقاع كاللحن المنطلق من اوتار القيثارة الشاكبة ترتقص في لمس ناعم كمر النسيم ، بالرغم مما يطرق السمع احياناً من نشوز او شذوف . فالخلقية جاءت على شاذلة السخان حيث لا زوافل ، وفاقاً لعمل فني كل ما فيه يتناغم جسلاً مع توافق الهدف النهائي ... وهكذا فمثل جزء من اجزاء عالمنا يسهم في رسم قسبات الكون وجماليته بحيث لا يستطيع الانسان ان يطرح بميداً او يزيد عليه اي شيء . »

وهكذا يبدو لنا الله اسمى الفنانين واكملهم طراً ، بل هو الفنان الاوحد . « فالعالم ، بما له من فائدة وبما فيه من نظام بديع وحسن انتظام ، وبما يبدو عليه من حلوية وجمال ، يشهد عالياً لهذا الفنان الالهي الذي ابدعه وبراه . ففيه الدليل القاطع على ان الله هو مهندس الكون الابر . فعمله صورة عنه . « فالخالق قدر وعرف واستطاع ان يجعل عمله يشبهه الى اقصى حد . والله نفسه يملأ هذا العالم الذي ابدع لانه دائرة روحية ، قلبها في كل مكان ولا يحيط لها البتة ، فالكون كله ينطبق بمجد الله ويشهد له عالياً في ما تم له من نظام دائري وبما فيه من موهبات وملهيات . فهو يتغافل في هذا الكون باعتباره قوته المحركة فيفيض عليه الحركة

والحياة كالبنيان الهندسي بالنسبة للشكل العام ، وكينبوع الخير اللامتناهي الذي يغمر الكائنات والاشياء وكمرکز للجمال : صورة الخير وبلورته ، يشع على الكائنات والاشياء ويلؤها وسامة وملاحة كالشمس تملأ البلور بانواها .

وهذا الانسان القلق الذي لا يرى في المخلوقات كلها ما يشبع نهمه ويشفي غليله ، لا يجد سعاده الاكمل المثلي الا في ذات الله مجتمع الكمال والفضائل . وباستطاعة هذا الانسان ان يبلغ الى الله بذرائع ثلاث لا رابع لها . بالعقل اولاً ، هذا العقل الذي يريه ما تمثله الكائنات والاشياء من افكار ، وما في عوالم الافكار من فكر الله ومقاصده ، وفي مقدور الله اذا ما شاء ان يحود عليه برويته بمشاهدته ، بنفحة واحدة من انواره البهية وبمزل عن كل فكر وعن المخلوقات اجمع . واذا ذلك فقط ، تتحد النفس بذات الله لتتصهر فيه وتصبح الها ، فتستحيل بالتالي : غبطة وسعادة ، فتشعر وهي في حالة انخفاف روحي بلذة هي الغبطة الابدية . ويستطيع الانسان ، من جهة اخرى ، ان يتقرب من الله بالهبة . ان جمال الكائنات هو مجلي للجمال الالهي . فكل حب او تعلق بالجمال يفرض على الحب جمالا ، اذا ما ادر كنا جيداً وايقنا ان ما نحبه في المحبوب هو ، بالفعل ، الجمال المطلق ، الشامل ، اي الله . فالنفس البشرية تضطرم بالنور الالهي والسناء الالهي ، فتتلاصق صورته لتألؤ المرأة بالكائن الجميل ، فيجتذبه الله اليه بطريقة سرية كما يجتذب الشص السمكة المعلقة بحيث يصبح لها ، يستطيع الانسان ، بعد هذه كله ان يزداد شهباً بالله اولاً ، ثم ينسكب في ذات الله اذا ما اراد الله ان يكرمه بهذه النعمة . وذلك عن طريق الخلق . فالانسان ، كالله نفسه ، فان شامل ... « فقد أوتي هذه الانسان ادراك ما في السماوات من نظام وما في العوالم من حركات ، وما هي عليه هذه العوالم من مراتب وما بينها من ابعاد وتفاعل وتجادب . فمن يستطيع والحالة هذه ، ان ينكر ان للانسان من القدرة ما يشبه الخالق ، وان في مكنته ان يبسط السماوات وينشر العوالم اذا ما تمت له مستلزمات البسط والنشر والمادة الفلكية اللازمة ؟ . فالانسان هو « إله ، هو رب الكائنات المادية ، يجري فيها ، كيفما يشاء ، تبديلاً وتحويلاً وتغييراً . ففي الحين الذي يجري فيها تحويلاً عن طريق خلق الامر الفني وابداعه بالصورة التي ارادها ، ملتقياً بذلك مع التصميم الالهي في الصميم ، مشاركاً في تحقيق هذا التصميم وتحيزه ، يدخل ، اذ ذلك ، اكثر فاكثراً في فكرة الله ويتحد بالله اكثر فاكثراً . فالمعرفة العلمية والفلسفية تتحقق بالخلق الفني . فالمهندس والرسام والحفار والشاعر ، يمدون انفسهم عندما ينزل عليهم الرحي والالهام وكأنهم على اتصال سري مع الله . فالله يعبر عن ذاته بواسطتهم وهؤلاء الناس الالهيون هم رسل الله وموفدوه . فالفن ولا سيما الشعر هو الطريق الحق للمعرفة والاكتناه ، وهو اسمى واعلى من اي فن آخر . فما الفنون الا حالات خاصة وصور من الصلاة والتنبؤ والاتحاد الرمزي بالله .

في عهد لورنتيوس العظيم ، اعطى فتشينو ام آتاره الفكرية ، مع ان روما والافلاطونية الحديثة الكتب الاخرى التي صدرت له فيما بعد تتفق تماماً مع ترتيبنا

الزماني^(١) . فقد تخلت عنه فلورنسا وخانتها في نقطة حساسة ، اذ عجز الفنانون الفلورنسيون عن ان يعبروا ، فإجازاتهم الفنية ، عن تعاليم الفيلسوف ونظرياته وان يتمثلوها . ويتبين من رسائله العديدة انه كان على اتصال واسع مع الكثيرين من رواد النهضة في روما والبندقية والمانيا وفرنسا وبلجيكا وبولونيا وهنغاريا . فالحديقة التي اقامها في كاريجي كانت ملتقى الابداء الانسانيين ، يفدون اليها من جميع أنحاء اوروبا . فروما عاصمة المسيحية شهدت وحدها تحقيق فكرته ، بعد ان كان تورارى هو عن هذا العالم ، وذلك في اشكال رصيغ اصبحت ، لاجيال عديدة ، موضوع الهام للكثيرين في جميع أنحاء اوروبا .

فبعد موت لورنتيوس العظيم ، عام ١٤٩٢ ، والثورة التي اندلعت نيرانها في فلورنسا ، بعد ذلك بسنتين ، اي في عام ١٤٩٤ ، وقيام الحكم الشيوقراطي على يد سافونارولا ، والجمهورية الفلورنسية ، فيما بعد ، وعلى اثر قدوم عدد غفير من رجال الفن نزحوا من فلورنسا الى روما ، اصبحت هذه ، المركز الاول للافكار والنظريات الافلاطونية الحديثة التي تشبع بها الفنانون والادباء وشاعت بين الاشراف والنبلاء ورجال الكنيسة الذين وجدوا في تلاقي مشاربهم وتوافق ميولهم مع مثالية البابوات ، وسيلة لتحقيق الاحلام التي راودت خواطرهم . فمئذ عهد البابا نيقولا الخامس ، على الاقل ، في منتصف القرن الخامس عشر ، والبابوات يحملون بتشيد الكنائس والمعابد والقصور الفخمة وغير ذلك من الانجازات الفنية الجميلة ، في روما ، ليجمعوا منها بحق خليقة بناائب السيد المسيح وخليفته على الارض ، لا تنقص شيئاً عما كانت عليه في عهد القياصرة بحيث يستشعر المسيحيون في روما ، والحجاج الذين يفدون اليها من جميع اطراف الارض ، العظمة والضحامة والقوة والفنى المتمثلة بهذه المباني فيحمدوا الله على هذا كله وعلى ما تم لروما من عظمة وفخامة واهبة ، وهكذا تصبغ روما انشودة تحدث عالماً بمجد السيد المسيح ، كما انها ستذيع عالماً ، بوصفها عاصمة البابا الملك ، ما للبابوات من شأن عظيم . فقد صرح البابا سكستوس الرابع ، في رقيم له صدر عام ١٤٧٢ قائلاً : « اذا كان ثمة من مدينة في العالم تشع نظافة ، وجمالاً ، فيجب ان تكون بالطبع ، المدينة المعروفة بكونها عاصمة العالم ، ولها شرف احتواء كرسي بطرس الرسول ، مما يجعلها ولا شك ، في الصف الاول بين مدن الارض . » وعندما راح البابا جول الثاني يبرر تشييد كنيسة القديس بطرس خاطب الكرادلة بقوله : « كما ان الطوباوي بطرس هو هامة الرسل والمتقدم بينهم ، وجب ان تبرز الكنيسة التي تحمل اسمه ، كنائس روما والعالم اجمع . وبما ان الخراب يتهددها اذ انها تتداعى للسقوط ، كان من المترتب علينا توسيعها باعادة بنائها لتسلها الى الخلف عروساً تدلّ بجيهاها على جميع كنائس الارض . »

(١) منها : الرسائل (١٤٩٥) - شروح افلاطون وتعليقات عليه (١٤٥٦) ؛ قضى نحبه في ١/١٠/١٤٩٩ قبل ان يفرغ من تفسير لرسالة بولس الرسول الى اهل رومة .

فقد كان تحت تصرف البابوات موارد ماليه طائلة : كالفرائب التي كان الكرسي الرسولي يفرضها ويجبيها بكل دقة ؛ واحتكارات الملح والشب المستخرج من مناجم 'طلنغا' ، هذا الشب الذي لم يكن لاوروبا قط غنى عنه لاستعماله قاصراً في صبغ الانسجة ودباغة الجلود ؛ وما تدره الرسوم الهجاة في اوروبا جماء « كرسوم روحية » ؛ وبيع وظائف الدولة ومناصبها الرئيسية ونجاح القروض الداخلية . والى جانب الموارد الطائلة الخاصة بالبابوات لتغطية تكاليف الابنية والانشاءات الفنية التي يوصون عليها ، يجب ان نشير هنا ، الى الثروات الاسطورية والموارد الواسعة الموضوعه تحت تصرف الكرادلة اذ كانوا يقيمون لهم بطانات واسمه الى جانب البلاط البابوي ؛ والموارد التي ينعم بها اشرف الرومان ونبلاؤهم ، واصحاب المصارف الكبرى الموجودة في روما . وقد كانت الافكار والاقتراحات المقدمة او المقترحة ابعد من ان تألف واحلام البابوات ، هذه الاحلام التي لم تتحقق الا في مطلع القرن السادس عشر ، عندما قام فنانون تشبهوا بانكار الافلاطونية الحديثة ونظرياتهما يحاولون تمييزها بانشاء مبان وعمائر جاءت على نسبة المباني الرومانية القديمة وعظمة وفخامة ، تمييزاً منهم لاذواق بهرها يهرج القوة والعظمة ، هذه المباني التي اخذت تنتشر في انحاء المدينة ، في نهاية بابوية اسكندر السادس بورجيا (١٤٩٢ - ١٥٠٣) ولاسيما حبرية البابا جول الثاني (١٥٠٣ - ١٥١٣) وليون العاشر ، البابا الفلورنتيني الاصل والمديتشي المتمد (١٥٢١ - ١٥٢٣) .

فبدلاً من ان نتلمس بوصف امور مجردة وفي عدماً لاسدله من المباني والفنانين الذين اشرفوا على تصميمها او انجازها ، رأينا من الانسب ان نقوم بنظرة لحملية لبنض هذه الانجازات الفنية وامثلها .

ثلاثة من بين هؤلاء الفنانين اللامعين هم : برامنت وميكالو انجلو ورفائيل عملوا
 الابن الحديثة
 في روما لحساب البابا جول الثاني وتوصلوا ، بعد ان كشفوا عن خرائط روما الامبريالية ، الى تحديد شكل ونوع المباني والانشاءات الهندسية التي تعبر اتم تعبير عن
 مثل الافلاطونية الحديثة التي يمكن ان تفوز برضى البابا الخفيف .

عندما رغب البابا جول الثاني عسام ١٥٠٥ في ان يستبدل
 كنيسة القديس بطرس القديمة التي يعود بناؤها الى عهد
 قسطنطين بكنيسة حديثة تتوفر فيها عناصر العظمة والفخامة ، رضي كل الرضى عن التصاميم
 الهندسية التي وضعها برامنت وعهد اليه بتتبعها وتنفيذها . جاء برامنت روما متأخراً ، هام
 ١٤٩٩ ، وله من العمر اذ ذلك ، ٥٥ سنة تتقدمه شهرة واسعة كهندس معماري متمساز ، الى
 الانجازات الهندسية العظيمة التي حققها في فلورنسا . فبعد ان وقع ، في روما ، تحت تأثير
 الجمال الروماني الافلاطوني الحديث ، وبعد ان تحول تحولاً كلياً عن النهج الميلاني الذي يوجه

وحذا محذوه وانتهج نهجاً فنياً جديداً . قول تشييد مبنى المعبد الصغير *Tempietto* . فقتيد
 ورغب برامنت ان يشيد على اسم القديس بطرس وشرفه المبنى الذي سبق لما رسل فتشينو ان
 رسم تصميمه وفقاً لنظرية الانفلاطونية الحديثة ، إعلاء منه لمجد إله المسيحيين . فقد وضع ،
 اول ما وضع تصميماً لبناء ضخماً مساحته ٢٥٢٠٠ متر مربع بدلاً من ١٤٥٠٠ متر مربع
 التسمت لها كنيسة القديس بطرس القائمة اذ ذلك . وحرص على ان يوحى كل شيء في المبنى
 الجديد ، العلاقة القائمة بين الله وخلقاته ، مبنى لا يمكن الاستغناء قط عن اي جزء منه الا
 ويشمر المرء بفراغه ونقصه ، كما لا يمكن اضافة اي شيء اليه الا وتمتعض العين لهذه الزيادة .
 ولما كان كل شيء يصدر عن الله ويهود الى الله ويدور حول الله ، استقر به الرأي على ان يعتمد
 شكلاً هندسياً عاماً للمبنى شكل الصليب اليوناني . فيرى الناظر ، من الخارج صليباً ضخماً
 يذهب عالياً في الجو يرمز الى اتحاد الهيكل مع الالهية . وترتفع تحت هذا الصليب قبة ضخمة
 ترتفع فوق ركائز من الاعمدة ترمز الى الكنيسة . وفي الاسفل ، تبسط اذرع الصليب
 الاربعة المتناسقة ، في طرف كل منها قباب صغيرة نسبياً مع انها كبيرة تنتصب فوق العمدة
 قائمة امام صحن الكنيسة تجاه الخورس تماماً .

وكما ان المسيحي يتدرج من الخلائق الى ربه محمولاً على اجنحة الجمال ليصل الى الافكار التي
 تقضي به الى الالهية ، هكذا يمر الزائر بهذه السطور من الاعمدة ضمن الكنيسة الرامزة الى
 المخلوقات ليبلغ في سيرته الى النور الشفاف الهابط من القباب الصغرى . وهذا النور الحافى
 من شأنه ان يحمل النفس على المشوع بعد ان تكون انثنت على ذاتها واعتكفت لتنعم بمشاهدة
 الافكار . والمسيحي الذي يبلغ قبر هامة الرسل بعد ان يكون اجتاز الاعمدة التي ترتفع عليها
 القبة الكبرى ، في غمرة النور التي تنشا وخشعة النفس ، يسير قدماً نحو عالم زاد نقاء ليبلغ
 النور السماوي الذي يجلب الافكار وبعد ان يصل على مقربة من القبر الذي يفيض نوراً تبرز له
 القبة الجسارية التي ترتفع فوق رأسه رامزة الى الحضور الالهي والاتحاد بالالهية .

ووضع هذا التصميم الضخم « تمبيراً عن الوحدة في أندس معانيها . كل شيء ارتبط بالفكرة
 الرئيسية وفقاً لنظرية الانفلاطونية الحديثة ، هذه النظرية التي ستتحكم ، بعد قليل ، بالفن
 الكلاسيكي . فقد جاء هذا التصميم معبراً عن مشاعر المعاصرين واحاسيسهم فراحوا يتحدثون
 عنه باعجاب تجاوز كل حد ، كما راح الشعراء الذين يتغنون به ويعتبرونه اعجوبة الدنيا التامة .
 وقد ارسى البابا الحجر الاساسي نهار الاحد الجديد ، وهو الاحد الأول بعد عيد الفصح ، الواقع
 في ١٨ نيسان ١٥٠٦ ، ولما مات كان العمل انتهى من نصب الاعمدة القائمة اليوم في كنيسة
 القديس بطرس ، والتي ترتكز عليها القبة والعقود التي تحملها وقد اضطروا فيما بعد للتخلي
 عن التصميم الذي وضعه برامنت لتصميم آخر افقد همنسة الكنيسة كثيراً من عناصر
 الفخامة .

كان البابا جول الثاني تخطى عن السكنى في الجناح المعروف بجناح بورجيسا

ليقيم في جناح آخر من اجنحة الفاتيكان يقع في عدد من الغرف والصالات

اشتهر فيما بعد باسم « stanze » ، وراح منذ تشرين الاول ١٥٠٨ عدد من الرسامين يعمل في محلية هذه الشقة وتزيينها . غير ان رفايل لم يلبث ان اصبح الاول بين هذا الفريق فاخص بهذا العمل وبزر كشة هذه الغرف التي ورغب البابا جول الثاني ان يجعل منها « مرآة » عقائدية . فقد حرص رفايل على ان يجعل من غرفة التوقيعات معبداً ينطق عالياً بالافلاطونية الحديثة ، فرسم على الجدران اربعة رسوم ضخمة تصور بالمجربات والوقائع اليومية ، تبدو بينها من خلال غلالة ، الافكار الافلاطونية التي قصد الفنان التمييز عنها الا وهي : العفة والفلسفة والبرناس وحنافة القربان الأقدس . وياخذ الانسان بالانتقال تدريجياً من هذه الجهات المادية ليلبغ الافكار فتطالملك ، قبل كل شيء العقود القائمة فوق كل صورة من هذه الصور . ولدى كل غلق من أغلاق هذه العقود يطالملك طفل صغير على ظهره جناحان في كل واحد منها رمز يتألف من وعاء وحماسة وكرة ، اذ ان كل طفل هو عنصر من هذه العناصر الاربعة التي يتكون منها العالم . فالماه فوق مدرسة اثينا ، والمار فوق حنافة القربان الأقدس ، والهواء فوق البرناس ، والارض فوق الفقه . وهكذا عن طريق رد العالم الى عناصره الاربعة المكونة ، نأخذ بالارتفاع نحو الافكار . الا انه بالامكان ان نرتفع ونملو اكثر فأكثر ، عن طريق المشاهد المرسومة في وسط الدوائر القائمة في زوايا العقود . فكل مشهد من هذه المشاهد يجلبنا الى صورة العقد الذي يليه ، وهي تتوحد ابولو ، واقتصاص مرسباس من الشعر ، والخطيئة الاولى للاهوت ، وقضاء سليمان الحكيم للعدل ، وعلم العلك يربط الفللفة بالنجوم . وهكذا في كل عقد تطالعنا الحركة الدائرية حركة الكون الارلية ، احد الاسس التي قامت عليها نظريات فتشينو ، واخيراً نبلغ الافكار المجرده في عليين التي يرمز اليها في العقد بالشعر فوق البرناس ، والفلسفة فوق مدرسة اثينا ، والعدل فوق الفقه واللاهوت فوق حنافة القربان الاقدس . ويرمز الى آلهة الشعر وفقاً لافكار فتشينو كما يلي : باكليل الفار واجنحة قرية وحولها منطقة مزركشة بالنجوم وقد التمتعت عينها حماساً وحيوية . وعلى مقربة منهن جميعاً طفلان مجنحان يحملان إطاراً كتبت عليه كلمتان مستمارتان من فرجيل^(١) هما : « Numine uflatur » اي نفعة الهية تحركه . فالالوهية يجري اعلانها على لسان الشاعر ، ولذا نرى صورة الشعر في العقد ، تعدل كل العاوم النقلية : العدالة وهي معرفة الحق والتصفية ، الفلسفة وهي معرفة الطبيعة واللاهوت وهو معرفة العالم الالهي . وهكذا نرى ان كل الاجزاء المقومة لهذه الصورة هي من وحي الافلاطونية الحديثة وفيها الضمانة بايصال المسيحي ، في هذا العالم ، الى الافكار ، والافكار توصل الى الله .

ولكي يبسر للمتفرس في الصورة الوصول الى الفكرة المعلن عنها ضمناً ، ادخل رفائيل ، بضربة معلم ، فراعاً جديداً لا يلبث ان يصبح ، فيما بعد ، الفضاء المفضل في القرون الثلاثة التالية ، وهو المعروف بفضاء القرون الثلاثة في التاريخ « الحديث » ، أو فضاء المؤرخين الفرنسيين . صحيح ان الفلورنتيين اكتشفوا ، منذ عهد بعيد ، رسم المناظر وعرفوا ان يستفيدوا منه في هذه اللوح التي رسموها خطراً متتابعة بحيث تتجه جميعها الى نقطة تقع تماماً في الوسط بحيث تبدو اللوحة ، في مجملها ، كتلة هندسية . الا انهم لم يتوقفوا الى الكشف عن احسن طريقة للانتفاع ، على الوجه الاكمل ، من الشكل المنظوري . فقد فاتهم استخدامه لابرار الموضوع الاسامي في الرسم . وهكذا تاه النظر وضاع الانتباه عندما يستقر على اشخاص تاويين او على تفاصيل لا طائل تحتها . وعلى عكس ذلك تماماً ، فقد كشف رفائيل عن خير طريقة للانتفاع من رسم المناظر والحجم الهندسي ، بعد ان عرف كيف يوزع ، بفن واصول ، الاشكال التي اختارها على الرسم الذي تلتقي فيه نقطة الانسراب مع الفكرة الاساسية التي يجب ابرازها .

فلننظر ملياً هنا في رسم خناقة القربان الاقدس ، وهو رسم معروف ومشهور لكثرة ما اخذ عنه من نسخ . نجد في الاعلى الكنيسة الظاهرة ، وفي الاسفل الكنيسة المجاهدة ، ويفصل بين الاثنتين فراغ كبير يمثل السماء . ففي القسم العلوي يبرز الله الاب ، ثم يأتي بعمده السيد المسيح ، وعلى يمينه العذراء مريم ومن اليسار يوحنا المعمدان ، ومن هنا وهناك من كلا الجانبين المختارون او المصطفون بشكل سحابة نصف دائرية ، يتخللها رؤوس ملائكة تفصل بين العالم المنظور والعالم غير المنظور . وعند قدمي السيد المسيح نرى روح القدس بالشكل التقليدي المعروف ، اي بهيئة حمامة تشع منها اشعة من ذهب ، رمز النعمة . وهي اشعة تمتد الى الاسفل ، نحو الافخارستيا . وفي الاسفل ، يبرز من السماء للعيان ، شعاع القربان الاقدس وقد وضع على هيكل بسيط للغاية ، بينما نجد من كلا جانبي الهيكل ، الكنيسة المجاهدة اي : البابوات والكرادلة والاحبار والاساقفة والشمامسة ورجال الفن والعلماء . وهكذا نرى انفسنا وجهاً لوجه مع مدينة الله التي تجمع او توحد ما بين الارض والسماء ، في ما يحاكي بناء مثالياً ظاهراً على الارض ، لا يرى في السماء ، وان كان قائماً فيها بالفعل .

في هذه الصورة الجدارية ، كل شيء يتوقف على الاشعاع النوراني المنبثق من القربان الاقدس القائم على الهيكل والذي يبرز للعيان بواسطة تلاقي الابصار . ففي الاسفل تظهر خطوط التبليط ، ودرجات الهيكل وطبقات الكنيسة المجاهدة بينما تظهر ، في الملو ، السحابة نصف الدائرية والاشعة الذهبية المنطلقة من الروح القدس . والى هذا كله يطالملك ، في هذه الصورة الجدارية ، الجبارة شماع القربان الاقدس الذي اشير اليه بنقطة تكاد العين لا تلتقطها ، ومع ذلك فالانظار تتجه اليه ، الى هذا القربان الاقدس الذي يضيء على اللوحة كلها ، كل ما فيها

من معنى ومدلول . فالفراغ ، والحالة هذه ، يساعد ليس فقط على تحريك الفهم واثارة القوة
اللاحظة ، بل ان رسم الابعاد يمتزج بالرموز اليه ، وينشأ من ذلك كله رمزية تشير رأساً الى
العالم الروحاني ، وهكذا يصبح الفراغ عنصراً من العناصر المساعدة كثيراً على الفهم .

ومن جهة اخرى ، في هذا الفضاء وتحت تأثير الحرص في التركيز على ما هو اساسي ،
يجب ان تتوفر الواحدة عن طريق التعرية والاطراح جانباً كل ما لا يؤول الى الفهم او لا يترك بعمده
أزراً ، اي كل هذه التفاصيل وكل هذه المستملحات واللطائف والنكات الغريبة عن الموضوع ،
مهما كانت طريفة مغرية ، والتي من شأنها ان تشتت الانتباه ، وهي هذه الامور نفسها التي
وجدت فيها نهضة فلورنسا الفنية مسرتها . اما هنا فكل شيء يتجه الى سر القربان الاقدس
المنعكس على الفرد الذي تختلف حركاته وسكناته عن حركات وسكنات الآخرين والتي لم
تعد تُعبر الا عن ردة الفعل التي يحدثها الاقنوم الثاني من افانيم الثالوث الاقدس في كل من هذه
الشخصيات ، وهو تأثير وحيد موحد في الصميم .

أطلّ فراغ جديد كما أطلّ ايضاً نموذج جديد للانسانية يختلف اختلافاً بيناً عن هذه
الاجسام النحيلة والاعضاء الدقيقة والمرافق البارزة عظامها ، والحركات الطارئة الفسيحة ،
والمشيئة الخفيفة الحركة النطناطة ، والاشكال الفنية التي اثارها النهضة الفلورنتية ، بحيث لا
يستطيع المرء ان يتالك عن التساؤل ما اذا كان جنس بشري زال وتوارى عن الوجود لجنس
آخر جديد . وسر ذلك هو ان الافلاطونية الحديثة عادت من جهة الى فكرة المسيحية للانسان
هذا الانسان الذي هو خير ما صنع الله وبرأ ، كما حاولت ، من جهة اخرى ، ان تبرز ظهور الانسان
الجديد ، هذا النموذج الامثل الذي جاء جميع الافراد على ساكلمه ومثله ، هذا الانسان الذي
يمثل ، في ذاته الجمال الامثل والاكمل . هذا الانسان ابن الله ، والذي تجسد الله فيه ، لا يمكن
الا ويكون عظيماً قديراً ، جليلاً ، وقوراً . ولهذا نرى السيد المسيح ، في لوحة رفاثيل ، وقد
تمرّى جسمه الى نصفه وبرزت يداه وجنبه بأوضح ما يكون ، يبدو جسم رجل رياضي جميل
ملآن عافية ، تفيض اعضاؤه قوة . وعلى مثل هذا الوضوح تبرز اعناق المختارين وسواعسدم
ومناكبهم ، قوية عامرة ، ملائمة . اما وقفتمهم ، فتتّيم عن الهدوء والسكينة ، بعيدة عن كل
اصطناع ، ليس فيها اي قوتر او تشنج ، وقد ارتسمت على وجوههم وقسماتهم امارات
النبل والرضى .

وهذه الرغبة في التركيز عن طريق التجريد والتعرية ، والاستفادة الى اقصى حد ، من
الفراغ لتحقيق غرض واحد وهدف واحد الا وهو التكثيف عن طريق التشديد على بعض
الخطوط الاساسية ، سنصادفها في هذا التمارن المنهجي الذي نراه قائماً بين الانجازات الفنية
للنهضة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر .

ولكن اين التركيز ، اين الحياة الداخلية بواسطة التجربة؟

لنضرب مثلاً على ذلك ، هذا الحفر البارز في صورة لأنطونيو روسلينو ، ولنعارضه برسم آخر لميكالو انجلو يختلف عنه اختلافاً كبيراً ، هو صورة العذراء مع الطفل . نرى ان روسلينو يبرز في إطاره ، عالماً آخر وطبيعة اخرى وشعباً آخر . نرى عند حاشية النقش صفاً من الرؤوس يحيط بها أجنحة مرفرفة وفي الصف الاول العذراء مريم جاثية تضرع الى يسوع الطفل المتمدد امامها . ويأتي وراء العذراء مريم القديس يوسف غارقاً في التفكير ويده تعبت بلحيته ، ووراء القديس يوسف يأتي الاسطبل وفيه الثور والحمار . والى يمين العذراء مريم والطفل ، خط يقسم الصورة قسمين متميزين : رعاة قادمون يحملون الهدايا ، وقديلاً الى فوق بعض الاشجار ، ثم اعلى قليلاً ، السماء وما فيها من غيوم . اما في لوحة انجلو ، فلا نجد تقريباً شيئاً من هذا كله ، بل العذراء مريم جالسة وعلى ركبتيها كتاب ، والطفل يسوع واقف إزاءها لجهة اليسار ، متخدي على ركبتيها ومرفقه على الكتاب ، ثم الى الورا ، خلف كتف العذراء من على اليمين ، تقع العين على صورة غير واضحة . هذا هو المنظر كله .

في رسم روسلينو كل شيء صغير . فنه تراكم اشياء صغيرة . فالعذراء التي تبرز ، الى الامام لا تشمل الاثر من خمس اللوحة . اما الطفل يسوع ، فصغير . فالعين في حيرة من لوحظما تتجاوزها أرضية الصورة والمنظر . اما عند ميكالو انجلو فالعذراء مريم تحتل ثلاثة ارباع اللوحة حتى ان هندام شعرها يطفطف على الحاشية ، فلا تقع عين الرائي الا على العذراء وبالكاد تقع العين على الطفل . اما الشخص الثالث ، الشبح ، فيجب ان نحملق جيداً لنلاحظه . فالنظر يتجه بشكل لا يقاوم ، الى العذراء التي اصبحت ، بلا مرأه ، محور الصورة ومركز الشغل فيها .

ففي لوسه روسلينو كل شيء رسم بالتفصيل وعلى قياس صغير ، فبدا نحيفاً ، دقيقاً ، منمنماً ، فتبدو اصابع اليد واضحة الواحد جنب الآخر وقد صفف الشعر ، خصلة خصلة ، واللباس على اتمه ، لا ينقصه زر ولا شريط . هنا الحياة اليومية بكل تفاصيلها ، الحياة العائلية : فالطفل يسوع يضع سبابته على فمه .

اما عند ميكالو انجلو ، فبالاشياء تتم وتوضع جملة . فبدا العذراء بدناً كتلة تكاد لا تتميز عن المادة ، ورداؤها بذاية البساطة ثنى والتف ، وشعرها ترتب على مألوف العادة : في الوسط فرق الشعر قسمين الى جانبي الوجه ، والطفل يسوع يبدو وكأنه قطعة واحدة ، على المنحفاء خفيف لطيف ، ملاحظه الرئيسية بارزة ، توحى وتلهم .

عند روسلينو ، كل ما في لوسته الحركة : فاجنحة رؤوس الملائكة ترفرف ، والرعيات في سيرهم جادون ، والقديس يوسف يلعب بلحيته وقد بدا على وجهه التفكير وحواجه مقطبة والثور والحمار يميلان برأسيهما متناولين علفها ، ومنخارا العذراء يجنجان وقد ارتسم على شفيتها

بسمه الرضى والتسليم بينما ترتفع يداها . اما الطفل يسوع فتكاد الاذن تلتقط تفريده بينما هو يمتص طرف إصبعه بحركاته الصغيرة الصغيرتين . اما في لوحة ميكالو انجلو فالحياة تبدو وكأنها واقفة . فالاشخاص يكادون لا يتنفسون ، والعذراء جالسة بوقار عينانا مسمرتان في البعيد كأنها تحاول قراءة المستقبل الخيف واكتناه سره ، والطفل يسوع يتناول شيئاً وهو يتكلم الى امه . فالمنظر يبدو وكأنه يتحدى الزمن ، وكأن ميكالو انجلو يهتم ليس بما يجري بل بما هو باق ، مستقر الى الابد . فهو يضيف الخلود على اللحظة الهاربة .

هذا التجريد ، هذا التركيز على بعض نقاط اساسية لفتنا للانتباه وإمعاناً في التشديد ، نجده في كل مكان . فهو في صورة ميلاد يوحنا المعمدان بريشة غير لاندناخو حيث نرى الوصيفة تدخل وعلى رأسها أضفومة من الزهر . قارن هذه اللوحة بلوحة اخرى بريشة رفائيل ، في صورة الساقية او حاملة الماء . فغير لاندناخو لا يهمل شيئاً ، مهما كان طفيفاً ، عندما يرسم لنا ذراع الوصيفة اما رفائيل ، فماذا تراه يعمل ؟ فهو يشدد كثيراً على الهضل الدالي والهضل ذي الرأسين بحيث يتكوز الكتف ويتكوز الساعد ملتفاً في رسمه بشطحة ريشة ويضيف على هذا الذراع قوة باع ، وشدة ساعد ، ابن منه فن غير لاندناخو .

وهذا الفراغ الجديد ، فراغ المفهومية ، اين هو ؟ لنقارن في هذا ، الجمال ، بين صورة العذراء مع الملائكة والقديسين الستة ، بريشة بوتيتشلي ، وصورة العذراء مع القديسين الثانية بريشة أندريا دل سارتو . يفهم بوتيتشلي ، حتى الفهم ما لرسم المناظر من قيمة وشأن . ومع ذلك فهو يضع جميع شخصه على خطين . ففي الصف الاول ، نرى على سطر واحد ، ثلاثة قديسين الى اليمين وثلاثة غيرهم الى اليسار ، بينما تقع العين ، في وسط الصف الثاني على العذراء مريم والطفل على شيء ما يشبه المسطبة يحيط بها ملاكاً كان يملق احدهما ستائر بينما يقدم الثاني الزهور . خطان متوازيان لا علاقة بينهما . اما لوحة اندريا دل سارتو ، فهي عكس ذلك تماماً ، فهي تنفسيح على الابعاد وتوغل في التعميق ، فالفراغ بنفراج وينبسط : يطالملك قبل كل شيء درج وفي الاسفل ملاكاً ينظران الى الملاء حيث تطالملك شرفة عليها ، من كل جانب ، ثلاثة قديسين ، اولهما راكم والآخران واقفان ليس على صراط واحد بل الواحد خلف الآخر . والى الورا ، نجد على قاعدة ، العذراء مريم والطفل يسوع على ركبتيها . فكل خطوط اللوحة تتبعه من العذراء وابنها .

ففي لوحة بوتيتشلي ، يبدو الشخص وكأنه مسمر ويقوم بإشارات وحركات تبقى في نطاق المسطح التوازي لنظر المشاهد . اما عند اندريا دل سارتو ، فالاشارات والحركات تجري في اعماق الفراغ . وسواء أكان القديسون في موقف المتحدث أو الكاتب ، فحركاتهم تنبع دوماً على خط المشاهد ، بالنسبة للعذراء ؟

وهكذا ، فالفراغ عند بوتيتشلي يبقى لا شأن له ، بينما هو ، عند اندريا دل سارتو ، ليس

بمجرد مجال يقع فيه المشهد فحسب ، بل ان المجال ينطق عالياً ويصرخ كيف انتنا بواسطة القديسين ، صورة السيد المسيح ومثاله ، نصل الى العذراء مريم طاقمة السيد المسيح النقية وبشفاعتها الى السيد المسيح .

وهذا النموذج الجديد للانسان ، هذا البطل ، ماذا من امره ؟ لنتمل النظر ملياً ، قبل كل شيء ، في صورة « معمودية السيد » بريشة فيروكيو *Verrochio* . فالمسيح فيها يبدو على شاكلة شاب نحيل الجسم ، نحيف البنية ، نثأت عظام وجهه ونفرت عضلات جيده كالجمال ، وبررت ترقوته محدثة تجويفاً في الجلد . اما ساعدها فأكثر نحولاً مما هو عليه جسمه ، وقد جفت عضلاتها ، فظهرت تحت أديم الجلد 'عقد' ، والمرفقان نفرت عظامها واحدودبت أطرافها ، وانجرد فقاه وجفت ساقاه ، وقد تفضن وجهه وبرزت اخايديه وهو مع ذلك يشع رقعة وخشمة ، عليه مسحة من الاضطراب حتى القلق ، والمسيح وقد المنحنى وانثنى قليلاً ، الى الامام ، لتلقي العماد ، يده مضمومتان الى بعض . اما يوحنا المعمدان ، فيظهر شاحب اللون لبيادر بهيكله العظمي الى سكب الماء على رأس السيد المسيح ، متمماً بذلك ، الرسالة التي أعد لها وعهد الله بها اليه .

فلننظر الآن ، كيف ان الحفار اندريا سنسوفينو عالج الموضوع ذاته ولكن بأسلوب فني آخر . فليس في المسيح ولا في يوحنا المعمدان شيء بعد من مظاهر قنوت الزهاد المتعبين ولا شيء من هذه الحركة المصيبة التي تدفعها للعمل بشيء من القلق تنفيذاً لرغبة الله تعالى . فللمسيح في هذه اللوحة جسم رياضي جميل ، مفتول العضلات ، مستدير الاكتاف ملآن ، مرن الحركات ، تكاد خطوط الجسم وتقاطيعه تستبين للرائي على نمومة ورقة . واعضاؤه مشبعة ، ملآنة تأخذ في الصمور عند الاطراف . كل ذلك وفاقاً للجمال المثالي في الرجل . وعلى هذا فس ايضاً طمأنينة النفس . فالوجه بيضاوي الشكل ، فساته في غاية الاستواء ، ينم عن هدوء كامل ، والمسيح ، في طمأنينة هادئة ، ينتظر دونما تسرع او عصبية ، بانحناء قليل الى الامام ، في وقفة تشف عن ملاحظة وقسامة وانسجام . ويوحنا المعمدان نفسه يبدو على نحول وضور جسم اكثر ، من عليه السيد المسيح . ومع ذلك فله جسم رياضي ، ملآن مشبع هادىء ، يسكب الماء ويبدأ بينما هو في اللوحة الأخرى لوحة فيروكيو كأنه يسترق السانحة الهاربة . هنالك يهوديان تبدو عليهما امارات القلق والاضطراب بعد الذي خبراه من خشونة الجيش الروماني وفظاظته ، يفيضان رجاء بالمسيح المنتظر . اما سنسوفينو ، فيرسم لنا صورة شخصين مثاليين تنزها عن المادة ، اذ ان ما يرمي الى ابرازه هو هذه العملية المتجددة الى الابد ، التي لها قيمة ذاتية دائمة ، اذ ان عماد السيد المسيح له قيمة خالدة خلود الدهر ، لتم جميع المسيحيين الذين سيتتابعون على هذه الغاية ، حتى انقضاء العالم .

بعد هذا ، هل من موجب لمعارضة لوحة ميلاد يوحنا المعمدان من بريشة غيرلانداخو ،

بلوحة ميلاد العذراء مريم بريشة اندريا دل سارتو . فالنساء في لوحة غير لانداخو تبدين خفيفات الحركة ، يسرن وكانهن يرقصن ، يقمن بحركات متلحثة . لباسهن مشدود قصير ، لهن جيد نحيف نحيل ، ونهودهن صغيرة واعضاؤهن نحيلة ، بينما تبدو للنساء ، لدى اندريا دل سارتر ، سيدات تمشين الهويناء ، متزنة الخطى ، غير مباليات . حركاتهن مطمئنة يئننسين بلطف ورقة . اما ارديتهن فكثيرة الشبه بالتوغا الروماني ، وقد تثنت تحت معاطف فضفاضة ، وفساتين تكنس الارض باذياها المطفطة ، فتوحي قدودهن القوة والضخامة . اما رقاين ، فقصيرة ، قوية ، وبرزت نهودهن ، كما انفثلت منهن السواعد القوية وبرزت ججورهن . فليس من الصعب على القارىء بعد هذا ، ان يجد امثلة اخرى يرجع اليها .

رجل البلاط
رجل البلاط هو هذا النموذج الاتم ، الأمثل الذي يرغب ابن العصر في تحقيقه وتحيزه ، على خير ما يبدو من قوة الجسم واستدارة في الاعضاء وامتلاء ، عندما يبلغ المرء ذروة النضج والرجولة ، الى شي ، من الكبر والعظمة ، على اعتدال في التعبير عن المشاهر والاحاسيس ، ورباطة الجأش والرواء وضبط النفس ، على شيء من « الوقار المطمئن » ، باقل قدر من الحركات ، على نبيل في الحركة والرصانة ، وانسجام في الاوضاع والمواقف ، ونفس نقية ، متطهرة ، سيدة ذاتها . كل هذه المماقبية والاصاف تطالعك ايها سرت وانما تجمعت ، ولن تلبث ان تصبح الصفات المثلى التي يجب ان تتوفر لابن العصر ، وهي هذه الاوصاف التي يلهج بذكرها ويحنو على جمعها واستكالمها في النفس ، الانسان الثقيف ، المتمدين ، ورجل البلاط . ويضع رفائيل امامنا وتحت انظارنا رجلاً من هذا الطراز وعلى هذه الشاكلة في اللوحة الجميلة التي رسمها للكونت بلطازار كستغليوني احد نبلاء دوقية أوربسين (Urbin) الذي تشبع بالافلاطونية الحديثة ، والذي كثيراً ما اختلف الى البلاط البابوي اثناء ترمده على روما ، بين ١٥١٥ - ١٥١٨ ، وهي الفترة التي وضع خلالها كتابه المعروف بكتاب « رجل البلاط » هذا الكتاب الذي صدر مطبوعاً بعد ذلك بكثير ، اي عام ١٥٢٣ فقد ربطته برفائيل صداقة متينة ، بعد ان تشبع هذا الاخير هو ايضاً ، بتعاليم الافلاطونية الحديثة التي قال بها صديقه وأخدينه ، فوضع له ، عام ١٥١٦ ، لوحة فنية . فهو يريناه ما كان عليه من ظرف وكياسة واناقة ، هذه الصفات التي تحتم على كل افلاطوني حديث ، ان يتحلى بها ، انما اناقة معتدلة على وقار . تشهد لصاحبها بالاتزان والاعتدال وقهر النفس . ثيابه غائمة اللون . رداؤه اطلس الملمس وسرواله مخرجة بالابيض النقي ، وعلى رأسه قبعة خاصة هي شعار النبلاء وكبار الحكام . ويشدد رفائيل على الافلاطوني الحديث المثالي وهو الذي تمت له الثقافة الانسانية بمصاحبة كبار الكتاب وملازمتهم ، ويثق الثقة كلها بالطبيعة البشرية ، الطيبة الخيرة في الصميم ، اذ انها من صنع يد الله وتدبيره وعمله ، حر في الاساس لانه صورة الله ، هذا الرجل المثالي الذي اشتهر بدقة الظرف وعرف بالكياسة ولين العريكة وحسن التصرف مع الغير ، وتوفرت فيه : الطيبة وحب الخير ، وصنع الجميل ومكارم الاخلاق واشيراً التقى .

ولهذا حرص رفائيل الحرص كله فأضفى على لوحة كستغليوني نواظر تطفح بالذكاء والفهم وسرعة الخاطر كأنها بذلك تمكس نوراً علوياً .

كان رفائيل يعبر بريشة الفنان عن الأوصاف التي رسمها وأتى على تبيانها « رجل البلاط » . والكتاب المذكور هو سلسلة من الحوار والاحاديث تجاذب اطرافها فريق من الاصحاب على شاكلة افلاطون علماً ، اجتمعوا في بلاط دوقية أوربين ، وتحت رئاسة الدوقة نفسها واشرفها . يصف لنا كستغليوني في كتابه هذا ، المعارف والآداب التي يجب ان يتحلى بها رجل البلاط ، كالآداب اللاتينية واليونانية ، قبل كل شيء ، اذ يترقب عليه ان يكون حسن الاطلاع ، كثير اللام باثاز الشعراء والخطباء والمؤرخين ، يحسن الكتابة والتعبير جيداً عن مكنونات النفس ومرائرها ، شعراً ونثراً ، ملماً باصول الموسيقى ، يجيد الانشاء والترتيل واستعمال آلات الطرب على الوانها ، والرسم وكل صنوف الرياضة ولا سيما الفروسية ؛ وان يقوم بذلك كله على احسن وجه . ويمضي كستغليوني في تعداد ووصف ما يجب ان يتحلى به رجل البلاط من صفات خلقية : عليه بضبط النفس ورباطة الجأش وان يتشد في مشيته فيسير مقترن الخطى ، تم قسما وجهه عن الرضى والطمأنينة ، لا يظهر على محياه شيء من امازات الانفعال والتأثر يتفادى كل ما يشتم منه الفلظة والفظاظة والكلام القسذع والالفاظ النابية التي تحمر النساء لاستماعها خجلاً ، وان يتحلى بالطرف ولين الجانب والاستعداد الدائم لخدمة الغير ، ويحسن استعمال النكتة الفكاهة ويروي الحكايات التي تدخل البهجة على النفس دون ان يتمدى حدود الحشمة . وينتقل بنا ، بعد هذا الى تبيان المناقب والصفات الحميدة التي يجب ان تتم لسيدة البلاط وما يجب ان تكون عليه من وقفة هادئة ، محتشمة ، والاتزان في حركاتها وسكناتها ، والايناس واللفظ ، واخيراً استعداد طبيعي للدعة والركة تبدو معه على مستوى واحد من الفطنة والخفر والحشمة والكياسة والرصانة . طبيعي جداً ان تكون متضلة من الآداب ، تجيد الموسيقى والرسم ، وتحسن الرقص والمخاصرة وتحدث بايناس . كل هذا ليس سوى إعداد او المدخل للكتاب . اما لب الكتاب وسره ، فيأتي في الاخير ، في الخطاب الذي يضعه على لسان الانساني بيترو بيمبو *P. Bembo* كاتم سر البابا الخامس الذي اصبح ، فيما بعد ، كردينالاً : فكل ما يفعله رجل البلاط والسيدة المثل ليس سوى تطهير وتذقية وسلوك وفقاً للانلاطونية الحديثة ، لبوغي الله والوصول اليه . فلرجل البلاط وسيدته المتكاملة الصفات ان يفعل كل ما من شأنه ان يقق موقفاً حسناً في عين الآخرين وان يتحابا اذ ان الحب ليس سوى الرغبة الشديدة للاستمتة بالجمال الذي يتألف من نسبة مقدورة من تناغي العلاقات وانسجامها وفقاً لطبيعة الأشياء . والمتحابين ان يعرفا كيف يتجنب الواحد الاغضاء بالآخر وان يتبيننا ما في شخص المحبوب من الجمال ، ابي من هذا الشماع الالهي المصفي ، ليهم بالجمال المجرد الشامل الذي يقود الانسان الى هذا الجمال الملائكي والالهي ، الى محبة الله .

فالانسان اذاً هو كائن الهي ، بطل تنتظره كل الاجساد .

فرجل البلاط هذا ، البطل المعجذ ، يهوى في الادب وفي الفنون ، العنصر الجمالي كالتفهم الافلاطونية الحديثة . وقد جاء في الكتاب الذي وضعه بيبو ، عام ١٥١٣ ، بعنوان : « حول الاقتداء » ، ما يلي : « وكما يوجد في ذات الله ، شكل الهي للعسل والاعتدال وغير ذلك من الفضائل ، يوجد ايضاً شكل الهي للنموذج الكامل ، نموذج من الكمال المطلق » . فعلينا ان نحاول الاقتراب ، ما استطعنا ، من هذه الصورة المثلى والاكمل للجمال . ولذا كان علينا ان نتقدي بشيرون الذي حقق على الوجه الاكمل النموذج المنهجي ، بحلي الله وشعاعه .

قصر فارنيز ومصل تشيجي يبدو رجل البلاط ، هذا البطل المتسربل بالمجد في الصورة التي تمثلها القدامى للعالم ، اشبه ما يكون باللملم للصورة التي رسمتها المسيحية له ، وهما في الاساس واحد . فالهة التاريخ القديم « الأبالسة » الذين يضبطون حركة الكواكب في افلاكها ويشرفون بذلك على مقدرات الناس ومصائرهم . ان اخذ الناس بالنجمانية وتمويلهم عليها في معرفة طوالمهم ، عبر عنه رقائقيل ، لمن كان في آن واحد ، من أخص زبائنه ومن اوفياء اصدقائه ، الصراف اوغستينو تشيجي ، الذي اخذ على نطاق واسع ، بنظريات الافلاطونية الحديثة وتحمس لها . نرى اول ما نرى ، في قصر تشيجي او قصر فارنيز ، في هذه الصالة البديعة المشهورة بصالة غلاطية ، احدى الحوريات المشهورة في الميثولوجيا اليونانية بمغامراتها العاطفية الصاخبة . فسقف القبة تشاه رسوم بديعة لمعظم الالهة تحت اسماء الكواكب السيارة : المريخ ، والزهرة والمشتري ، السخ . فالمواقع التي لهم في القبة الزرقاء ، تتوافق وتلتهم مع جدول يشير الى مواقع هذه الكواكب السيارة وابرأجها بتاريخ اول كانون الأول ١٤٦٠ وهو اليوم الذي رأى فيه اوغستينو تشيجي بالذات النور ، وفتحت فيه عيناه على الحياة فجاءت بنيته ومزاجه وسحابة حياته وفقماً للطوالع التي تعطيها مواقع هذه الكواكب والابراج في الفلك ، من فال ومصير . وما كان تشيجي يفتح عينيه كل صباح حتى يقرأ في سقف القبة الموقع الذي كان لعطارد في اليوم الذي ولد فيه ، في الدور الأول من برج القوس مما يعني تاجراً مرحاً موفقاً ، بينما كانت الزهرة في مثل هذا اليوم ، في الدور الأول من برج الدلو مما يرمز الى تاجر واقمي يفهم الامور التجارية ويقدرها . ونرى في هذا السقف دوائر (Tondi) ترسم فيها حوريات الهواء كما نرى اخرى ترسم حوريات الماء . واذ ذلك ، تظهر غلاطية واقفة في مركبها يجرها دلفيلان جميلان تحيط بها آلهة البحر وقد جاشت فيهم الشهوة فراحوا يتخاطفون حوريات ملؤها السحر والفتنة . أما غلاطية النقية ، فهي في حالة من الذمول والانحطاف بالحب الالهي تحملى بمينيتها الدعج بسهاء الافكار .

عاش تشيجي وفقماً لطالعه ورغب في ان يقع اجله المحتوم تحت تأثير النجوم التي سيرت حياته بينما هي تتحرك وفقماً لمشيئة الله تستمد منه ما لها من حركات وما فيها من انضباط . وهذه الرغبة يبديها له صديقه الحميم ، اصبحت محور التصميم الفني الذي وضعه رقائقيل لكنيسة تشيجي المعروفة بكنيسة العذراء مريم الشعبية ، التي باشر ببنائها ، عام ١٥١٥ . فعلى القبة نرى رسوم

آلة الكواكب التي لها مثل هذا التأثير البالغ على مصائر الكائنات والمخوقات ، فإلطف الملائكة من تأثيرها ، وفي القمة ، الله الذي يضيء على الكواكب ، في الأسفل ، وهو باسط ذراعيه ، القوة التي تحركها والنظام الذي يضبط سيرها فتنظم في حركاتها وسكناتها ، كما يرتب للخليفة ادوارها واطوارها ، ويرعى قبر تشيحي القائم تجاه مدخل الكنيسة تماماً .

الكنيسة السكستينية
كل هذه الجهود والمحاولات ليست سوى توطئة لمسيحية مصفاة ، منتقاة . من يعم النظر في التيارات الفنيّة ير كيف ان العقود الاولى من القرن السادس عشر تفادت الموضوعات التي استوحتها الايقونوغرافيا في الدور الاول من عصر الانبعاث الذي يرينا الديانة اكثر اتصالاً بالحياة اليومية ، واكثر واقعية تسير مع الأرضيات وتعايش الزمنيات . فقد اعدا القرن السادس عشر الى الدين والموضوعات الدينية ، الحرمات التي يجب ان تكون لها والوقار ، وارتفع بها دفعة واحدة ، الى العلو ، الى الاسمى الذي يضيفه ما فوق الطبيعة . فلتتملّ النظر طويلاً في هذه الانجازات التي حققها رفايل عام ١٥١٦ في الكنيسة السكستينية التابعة للرهبان البندكتيين في مدينة بايزانس . ونهوضاً منه بالعاطفة الدينية التي جاشت بها نفسه بوصفه من اتباع الافلاطونية الحديثة ، فقد ادى به المطاف الفني الى مريم ام الله ، وعروس الله ، والى يسوع المسيح القادي . والذي حاول رفايل ابرازه عندما رسم صورة العذراء السكستينية هو المعنى الذي تزخر به الترتيلة المعروفة : « السلام عليك يا سلطانة » *Solve Regina* ، انت يا شفيعتنا حولي الينا انظارك التي تفيض رحمة وحناناً وأطلي علينا بمد هذه الغربة مع يسوع ثمرة احشائك المباركة . فنلاحظ في الرسم قبل كل شيء ، ستاراً مزدوجاً اثنت اطرافه من كلا الجانبين ، يكشف لنا ، من هنا وهناك ، شيئاً من تلك الدار ، دار البقاء . وفي اسفل ، اللوحة ، من جهة هذا العالم السفلي ، جاثياً مكشوف الرأس يجنب تابوت البابا سكس الرابع ، القديس سكس شفيح الاسرة البابوية ، اسرة دلا روفير واسرة البابا جول الثاني ، يبرز العذراء مريم ، للمحتضرين والاموات على هذه الأرض . ونرى امامه ، القديسة تغلا ، شفيعة ساعة الموت الاخيرة ، جاثية ، هي الاخرى . وفي العالم الباقي نرى العذراء مريم تسير فوق كرتنا الارضية تظللها سحابة تمد الطفل يسوع نحو المحتضرين والاموات ، أسيفة النظر ، قلقة المظهر اذ انها تخشى قضاء الله العادل . ويبدو الطفل يسوع نفسه في وضع جد رصين حتى حدود الجفوة والقسوة كأن به يرى بنظره الثاقب ، كل آلام البشر ماثلة امامه . هؤلاء الناس الذين لاجلهم لجموع العذابات الوانا وفي سبيلهم بذل حياته حتى الموت ، وكأنه يخشى ، هو الآخر ، قضاء الله الذي لا يرد ، والحكم الذي يصدره بوصفه الديان الأخير .

في هذه الصورة ، لا أثر البتة لماجريات يومية ، او لأي شيء ارضي آخر . كل ما فيها تسام لتبلغ العالم الآخر . وهكذا حققت الافلاطونية الحديثة تصاعدها المتسامي طالما انها وصلت الى السيد المسيح .

فهذه الافكار الرومانية ، والصورة الجديدة التي تبدت لهذا الكون ، وهذا الفراخ الذي يتحرك فيه الانسان وينشط ، كل هذا وما اليه ، لم يلبث ان عم ايطاليا كلها ومنها اتصل باوروبا فاننتشر في معظم ربوعها .

في هذا الوقت بالذات ، اطلت علينا صورة جديدة للعالم كان لها المغلانية البدوانية - ببنوازي شأن عظيم في اوروبا تجلحت في مدينة بادوا التي قامت فيها جامعة البندقية وفي غيرها من الجامعات الاخرى الواقعة تحت تأثيرها او المرتبطة بها بنهج واحد ، حيث كان يتولى التعليم والتدريس ، هنا وهناك ، نفس الاساتذة ، في مدينة بولونيا والبندقية وحيث اخذت تسيطر روح عملية يشتم منها الاتجار والتكسب والاثرة ، وروح واقعية قوامها الوطنية تردد مثل هذه الأقوال : « انا اولاً من ابناء البندقية ، ثم انا مسيحي » ، وهي شعارات تتلام تماماً مع الذهنية السائدة اذ ذاك .

وكان لا يزال قائماً في مدينة بادوا اتباع لابن رشد مفسر ارسطو وشارحه . فقد قالوا ان النفس البشرية تتألف من عنصرين : العقل السليبي الذي تصله ، عن طريق الحواس ، صورة الاشياء المرئية فينقلها بدوره الى الفهم ، هذا العقل الايجابي الذي يعالج هذه الصور ويحملها قابلة للادراك . اما العقل السليبي فهو بحاجة للحواس ولذا تراه مشدوداً الى جسم الانسان ويختفي باختفائه . ولذا ليس ثمة خلود شخصي او اجتماعي بين الناس .

يخضع الكون عندهم لجمعية آسرة ، ويوجد في كل جرم سماوي عقل في مكنثه الحاروج على نواميس الطبيعة ولذلك تجري احداث غير متوقعة البتة . فالمعجزة ، اذاً ، حادث مستمر يجب رده لتفاعل القوى الطبيعية ، ولهذا السبب فمعجزات الكتاب المقدس لم تصد بالدليل القاطع على الوحي الالهي .

قام بين البدوانيين فريق لا يمهج نهج تعاليم ابن رشد نفسه بل يتببع مذهب احد شارحيه المشهورين ، ظهر في القرن الثالث لليسلاد ، هو اسكندر الافرودياسي الذي رأى في النفس حصيلة من حصائل الجسم البشري ، وهو تعلم يستتبع القول ، بفناء الجسم البشري . فما عسى ان يكون بعد هذا ، امر الجمع والسماء والحشر والذشر والميماد ، في مثل هذا الاحتمال ؟ وبقي لكل من فلسفة ابن رشد واسكندر الافرودياسي اتباع في اوروبا حتى في القرن السادس عشر . ولعل اهم من هذه النظريات التي أماننا اليها ، النظريات الجديدة التي قال بها وعلم ببنوازي « آخر الفلاسفة المدرسين وأول علماء عصر الانوار » كما يلقبونه . فبعد ان تسليح ببنوازي بوصفه من علماء النهضة ، بنصوص دقيقة ، مؤثرة لمؤلفات ارسطو اخرجتها مطابع الناشر المشهور آلد مانوس *Aldo Manuce* في البندقية ، ضرب بمرض الحائط الشروح والتعليقات التي وضمها لوما الاكوييني وابن رشد نفسه . ففي كتابه المعنون : « حول خلود النفس » المطبوع عام ١٥١٦ ، وفي كتابه الآخر « حول اسباب ومسببات كل ما يجري في الطبيعة والسحر »

الذي وضعه عام ١٥٢٠ ، راح يدرس هذه المشكلات « بمزل عن الوحي والمعجزات ضمن حدود الطبيعة » مستعيناً بالعقل وحده الذي جعل منه ، في الاساس ، الحكم الوحيد . فهو من العقلين .

والحال ، والعقل تكتشف عن طاقة يستحيل عليها العمل بمزل عن الجسم . ولكي يعمل العقل ويتحرك وينشط فهو بحاجة ماسة للحواس ، لا يستطيع تمييز العام (المطلق) الا عن طريق الفرد وهي عملية تتم عن طريق الحواس . اذن ، فالنفس تبندى مع الجسم وتنتهي بانتهاه فلا مجال ، والحالة هذه ، للاطن مخلود النفس او القول به . ومضى ببيونازي في تقديم فكرة البطولة والفكرة المميزة التي طلعت بها الافلاطونية الحديثة عن الانسان ، المدعو ابن الله . فالانسان ، في نظر ببيونازي ، ليس كائناتاً متميزاً من كائنات الطبيعة . فهو لا يخرج عن كونه حلقة بسيطة فيها ، احد الحيوانات التي طلعت بها علينا ، حتى انه يبدو احياناً ، دون الحيوانات المتقدمة في طورها . هنالك اناس اقل خبرة ودراية من القندوس الذي اشتهر بممارته ومنهم من لا اخلاق مدنية لهم كما نجد عند النحل مثلاً ، ومنهم من تجردوا من كل اخلاق ادبية بما توفر بعضه للكلب مثلاً ، اذ نراه يأتي ليموت على قبر سيده . هنالك قلة من الناس تمت لها ملكة العقل احدى مميزات الانسان . فالانسان والحالة هذه ، ليس على صورة الله ولا هو ، بعد ، بالبطل الخلاق بكل نجد ومخر . ولن كانوا يردون عليه متهمينه بقتل الاخلاق واستباحة الآداب بعد ان انكر الايمان واهطل عقيدة المثوبة والجزاء في الحياة الاخرى ، كان يجيب ان مكافأة الفضيلة هي الفضيلة ذاتها .

فقد هدم ، في الوقت ذاته ، اسس الايمان والادلة المؤيدة له في الكتاب المقدس الناطقة بالوحي . فالمعجزة ، في نظر ببيونازي ، ليست سوى احدى النتائج المدهشة لبعض المسببات الطبيعية التي نجمل اسرارها تمام الجمل . فالاسباب الطبيعية تكفي وحدها لتفسير هذه الظاهرة ... من المضحك وايم الحق ، ومن الغرابة بمكن ، ان يضرب الانسان عرض الحائط بما يقع تحت الحس وبما يقوم العقل الطبيعي بالدليل عليه فيلجأ الى غير المنظور ويعتمد على غير المحتمل ... ومثل هذا القول يمكن اطلاقه على المعجائب التي اتاها السيد المسيح ، وهذه الخوارق التي تشهد الكنيسة بصحتها والتي سلم ببيونازي بالقول والايمان بها تجاوزاً لاحكام العقل ، وكمجرد فعل ايمان ليس ما يؤيده .

من الطبيعي ان تزدل الكنيسة مثل هذه التعاليم الكفرية الضالة ، المضلة التي راجت حوالي هام ١٥١٢ ، اي عند التثام بجمع لاتران ، اذ ان الكثرة تعلمت انه لا بد من اسباب قوية تدعو للايمان وان العقل هو من الاسس التي ينهض عليها الايمان وان كان بحاجة ماسة لمساعدة الوحي وتأييده .

ومع ذلك فقد تمتع ببيونازي بنفوذ قوي وكان له تأثير بالغ في النفوس ، اذ أمّ الوف من

الاوروبيين مدينة بادوا ليتلقوا تحصيلهم العالي في جامعتها . . وهذا ما ساعد بالفعل على نشر تعاليم مبيونازي والترويج لها في جميع أنحاء أوروبا . فمن تلاميذه النبهاء : رابليه ، وايتان . ووليه ، وجان بودين ومونتاني وغيرهم من احرار الفكر في القرن السابع عشر ومن اليهم من : فلاسفة ، عصر الانوار .

وهكذا نرى ان الافلاطونية الحديثة والفلسفة الطبيعية يتعارضان في الاساس ويقوم الواحد ضد الآخر . ومع ذلك فهي يتازجان ويحتملان بالفعل لدى الكثيرين . وعلى كل ان معظم العقليين البدوانيين قالوا بالفراغ والصور والصيغ والمواقف البشرية التي قال بها اصحاب الافلاطونية الحديثة .

المعلم ونظريته الجديدة على العالم
فتشينو وكروبرنيكوس

مهما يكن من هذه المفارقات ، فقد التقى فتشينو ومبيونازي والبدوانيون واصحاب الافلاطونية الحديثة على صعيد واحد وجمعهم محدود مشترك واحد ، الا وهو الهدف الذي وضعه الانسان نصب عينيه الا وهو السيطرة على العالم والتحكم به ؛ وذلك بما تم له من مهارة وصنعة . وقد راح فتشينو يستشهد بمثل ارخبيدس الذي في سبيل تفهمه لاسرار الطبيعة ، وإفهامه تلاميذه كيف يسير الكون ، عمد الى صنع كرات من البرونز تمثل الاجرام السماوية . فمند ما اعاد على هذا الشكل العملي تركيب الكون استطاع ان ينفذ الى اسراره ويدرك مقاسيسه وبذلك اصبح وكأنه مبدع السماوات ، وبعبارات اخرى ، شبيهاً بالله . وفي رأي فتشينو ، فالانسان ، بعد ان يجري في الكائنات من تمديدات بما يدخل عليها من تحسينات ، وباستكماله لعمل الطبيعة ، بالآلة التي يصطنعها له ، وبالانشاءات والمصانع والمسالك ومعامل الزجاج التي ينشئها ، يحدث في العالم تغييراً تاماً كالتغيير الذي يتناوله هو فيتحول معه ويتكامل . فبمعرفة لاسرار الكون وباحدائه عالماً لنفسه ، يلتقي مع تصميم الله ويصبح ، بالتالي ، شبيهاً به ، هو كله سرية والحرية البشرية هي تغيير متصل وتطور موصول . وهكذا افكرة التقدم بواسطة العلم ، وبواسطة التقنية ، اخذت تتغلغل في صلب الحضارة الاوروبية .

وهذا الشعور بقوة الانسان العظيمة التي لاحد لها ، يبدو على اتمه في هذا التبدل والتطور الذي طرأ على الرمز الذي رمزوا به تبعاً الى الحظ . فقد سبق الانسان ورمز اليه قديماً بمجمل او دولا ب يدور بسرعة يرفع الناس الى عليين طوراً ، وطوراً يهبط بهم الى أسفل السافلين ، وقد أسقط بيدم امام هذه القوة العمياء التي لا يدركون من امرها شيئاً بل انها تهزأ بهم احياناً ، وحيناً تسحقهم تحت وطأتها . . اما في زماننا ، فطريقة الرمز ، الى الحظ قد تغيرت تماماً . فالحظ اليوم كمن يشبه راكب سفينة يسك بالقلوع وينفخ فيها بينما يكون الانسان مسكاً بالدفة يوجهها ويستعمل في تسييرها ما لديه من قوة وظروف مساعدة وغير ذلك من المسعفات . وليس من باب الصدفة والتوافق قطعاً ان نرى بين الآثار الذكورية التي وصلت اليها ، نموتاً

واوصافاً مثل : « بطولي » « بطل » ، « الهي » ، « نصف الهي » وغير ذلك من نعوت التعظيم والتفخيم ، وما شاكل من الفاظ ، كعظيم وفخم وفوق البشر .

في الصورة التي اثبتها ترتاليا « Tartaglia » في صدر كتابه الموسوم « Nuova scienza » المنشور عام ١٥٣٧ ، تنويه وإيماء بصوران الطريقة التي تخيلها معاصرو ذلك العهد للنفاذ الى اسرار الطبيعة والتحكم بها . فهي تمثل ساحة تقع ضمن جدران عالية من الصعب جداً ان لم نقل من المستحيل عبورها وتخطيها . وفي آخر الساحة او الفسحة معبد قبعته فيه الفلسفة ، اذاً ؟ السبيل هو المرور من باب ضيق عبوره او اجتيازه بيد افليدس ، امير الهندسة وربها . فيفضي الهجاز بالباحث الى الساحة ليستقبله فيها عدد من العلماء يتجهون به الى باب الهيكل حيث يقف ارسطو ويسهل له الولوج ، ليجد ، في الداخل ، افلاطون واقفاً امام الفلسفة ، فيقدمه لها ويتم بذلك التعارف بينها . هذا رمز كل ما فيه واضح جلي . فالرياضيات هي مفتاح المعرفة او المدخل اليها ، والرياضي افلاطون يمارس العالم الاحيائي والاجتماعي ارسطو ، عندما راح يؤكد ان ما هو واقعي يخضع حتماً للعمليات الرياضية ، وان المعرفة الحققة هي بالفعل بناء رياضي خفي . فارسطو وما يمثل من العلوم الطبيعية والاجتماعية المعتمدة على الحواس ، يستطيع القيام بعملية مجرد للظواهر الطبيعية وتفسيرها ، والقيام بعملية تقييم اولية . يبقى ان افلاطون وحده وعلوم الرياضيات ، هم الذين سيكشفون عن اسرار المركبات وعن الحركات الفعلية التي تخفي عنا الحقيقة .

هذه الصورة الرياضية ، الكمية ، للعالم التي اخذت تحل تدريجياً محل الصورة النوعية التي رسمها ارسطو وتبرز فيزياءه النوعية ونظامه العالمي الذي يجعل من الارض محور الكائنات ، قد تم إعدادها منذ عهد بعيد . ان تغلب الفلسفة الاسمية على الفلسفة الواقعية جعل عقول الناس تسلم بثلاث معطيات اساسية : العلم التجريبي ، واقضاء ارسطو وتنحيته جانباً ، وفكرة الوظيفة الرياضية . كل من فكر قابلاً لا بد من ان يجرد نفسه بالفعل امام المشكلة التالية : ان معرفتي للعالم الخارجي ، والتفسير الذي ارتضيته يتوقفان ، الى حد بعيد ، على تفهمي لما هو واقعي ، قائم ، وللاحكام التي أتوصل اليها والاستدلالات التي اقوم بها . وهذه الاعمال الفكرية او العقلية التي اقوم بها ، هل يستطيع ان اتق بها واعول عليها ؟ نعم ، كان جواب اتباع الفلسفة الواقعية ، وفي مقدمتهم القديس توما الاكوييني . فبامكاننا ، والحق يقال ، ان نتفهم ، بصورة معقولة ، العالم . نعم ، في مقدورنا ان نتوصل بعلم ومعرفة ، الى الحقيقة بان الله موجود هو . هنالك واقع قائم متعيز ، يمكن تفهمه حتى الفهم . من رؤية الاشياء الفردية نستطيع ان نتوصل بصورة معقولة ومقبولة ، في كل فئة من هذه الفئات ، الى صورة عامة هي بالفعل ، جوهر هذه الاشياء وقوامها . وهذا ما كان افلاطون يسميه الفكر ، النمط ، النموذج المثالي . من ذلك مثلاً ان رؤية ومعرفة الناس تمكننا من ان نكوّن لانفسنا ، فكرة مقبولة عن الجنس البشري ، عن الانسان قائماً بذاته ، عن الانسانية التي تكوّن حقيقة واقعية خارجة عنا هي جوهر الانسان ، وفي نظر افلاطون : فكرة الانسان .

فكيف يعمل العقل هنا ، وما هو سبيله الى ذلك ؟ لناخذ مثلاً ، الناس الذين نعرفهم جيداً . فمن كل واحد منهم نرسم او نصوغ صورة ذهنية تحظر او تسبح في الهواء ، وهذا ما يعرف بـ « الانواع الفكرية » ، وهي صورة اخذت تتخفف كثيراً من مقوماتها المادية المحسوسة . ثم تدخل هذه الصورة الى حواسنا الخارجية لتخفف ، اكثر فأكثر بما لا يزال عالقاً بها من مادية بحيث تستطيع ولوج اجهزتنا وقوانا الداخلية فتكتسب شيئاً من اللطافة تصبح معها قادرة على دخول جهاز الخيلة ، مع الاحتفاظ ، حتى في هذا الدور ، بشيء من ماديتها . وعندئذ يستطيع العقل الفاعل ، احدى القوى العاقلة التي تملك بصورة فطرية ، المبادئ الاولى التي تقوي فينا ملكة الهاكمة العقلية والتي نستطيع معها ان نحول هذه المعلومات (تخيلات) الى انواع قابلة للادراك ، خالصة من كل مادية . وبهذا الاتصال تجرد النفس الفكرة العامة للانسانية ، والمثلة في ذات كل انسان . وهذه الصورة هي صورة كائن تتمثل ، بذات الوقت في صورة ذهنية عامة في النفس وفي صورة فرد ، في كل شخص . ولكل صورة ذهنية عامة مصطلح او كلمة تعبر عنها . وكان افلاطون يقول ان لكل فكرة ، صورة ذهنية عامة او فكر وهذه الصورة توجد بكيفية مستقلة ، في ذات الله .

فالانسان هو جوهر في ذاته . فالجوهر هو الذي يعطي المادة صورتها اي قوامها وكيانها وهو الذي يوليها ما لها من صفات محسوسة كالشكل والحرارة والعمر واللون وغير ذلك . وهذه الصفات الخفية التي لا تقع مباشرة تحت الحواس ، هي التي تولى المادة بعض اعراضها المحسوسة كالثقل والخفة ، والقوة المغنطيسية وغير ذلك . فالجوهر مع المادة يكون بشراً يختلف الواحد منهم عن الآخر ، عرضاً او خاصة ، انماهم متماثلون ، متشابهون من حيث الجوهر .

ويرى ارسطو في هذه الصفات أعراضاً يمكن ان تقوم بالفعل في ذات الجوهر ، كالليونة في اعضاء الجسم ، او ان تقوم فيها بالقوة كالشعرة البيضاء في الشيوخ . هنالك حالة ثالثة هي الحركة كلشعر الذي وخطه الشيب . فالحركة لا تقتصر على تبدل في المكان ، بل هي تحتل الاستحالة والتغير . غير ان الحركة تحدث تغييراً في الأعراض وليس في الجوهر . فسواء أشاخ الانسان او اقتطع منه عضو من اعضائه فهو يبقى انساناً ، فان كان ابيض او اسود او اصفر فهو يبقى دوماً رجلاً ، لان له جوهر الرجل . فهو من نوع الرجل ، سواء اكان من العرق الابيض او الاسود او الاصفر . فهو واحد من هذه الانسانية الواحدة .

والتعليل العلمي للاشياء يقوم ، والحالة هذه ، في المرحلة الاولى ، بالتساؤل عن النوع او الجنس الذي تنتمي اليه المخلوقات ، وهي معرفة تتم بعد درس ما لها من صفات محسوسة وما يقوم بينها من روابط وعلاقات ، وبطائفة من الاسئلة تعاون على توجيهها سقراط وافلاطون واكملها ارسطو في كتابه الموسوم « Organon » ، هذه الاسئلة التي تكون الطريقة الشاملة اللازمة للعقل البشري ، التي من شأنها ان تساعد على : التثبت من ان الشيء موجود بالفعل ،

وان لم يكن من يقع تحت الحواس ومعرفة ما اذا كان ممكن الوجود او ممتنع الوجود ، وما فيه من جوهر وعارض او دائم وزائل ، سبب ونتيجة ، والغاية منه اي الفرض من وجوده على هذه الارض ، وما هو جوهره ، اي مادته المقومة . وما هو عليه بالفعل او بالقوة او بالضرورة وغير ذلك . وعندما تتم لنا معرفة هذه الاشياء نكون توصلنا الى معرفة النموذج الخالد لهذا الكائن ، نكون توصلنا الى معرفة سره او وجوده . خذ مثلاً الحديد او المغنطيس . فعندما يكون الحديد امام المغنطيس ، يتلبس جوهره صفة خفية هي الصفة المغنطيسية التي من خصائصها المميزة ان يجتذب المغنطيس الحديد اليه . فالقوة المغنطيسية هي السبب الحقيقي او الاخير للظاهرة التي تجلت لنا . اما في الطور الثاني فباستطاعتنا ان نذهب الى ابعد من ذلك ، الى تحليل كامل ، جذري ، للكون اجمع ، وذلك بسلسلة من التراكيب الذهنية لهذه المرئيات او المرتسبات الذهنية عن طريق المصطلحات ، والكلمات التي تعبر عنها خير تعبير . وهكذا ينشأ عندنا علم كامل تام ، نصل به الى ذات الكائن وحقيقته الاولى .

وهذا النظام المنطقي يرتكز ، بدءاً ، على فكرة : الزائل المنتهي ، العالم المنتهي في الفضاء حيث الانواع تبقى هي بالرغم من التغيرات التي تطرأ على الفرد ، وحيث عدد الانواع محدود ، وهذه الانواع التي تتألف من اجناس وفوارق محدودة العدد ، وعالم مطبق ، موحد ، محدود .

وجدت الفلسفة الواقعية خصمها اللدود في الفلسفة الاسمية ممثلة خير تمثيل بشخص وليم اوكهام ، هذا الراهب الفرنسيكاني ، استاذ اللاهوت في جامعة اكسفورد ثم في جامعة باريس ، والذي عاش من ١٢٨٠ الى ١٣٤٠ ، فكان الرائد الجليل (*Venerabilis inceptor*) الذي مهد لطلوع العصر الجديد .

أنكر اوكهام ان يكون للصور الذهنية العامة وجود في الكائنات الفردية او الخاصة . فاذا كان العام قائماً او موجوداً بذاته وجب ان يكون من الوجهة العددية وحدة . فان كان وحدة ، التّف والحالة هذه ، فرداً . فكيف يستطيع الكائن الفرد ان يكون معاً وفي عدده كبير من الكائنات البشرية في البشر؟ فلو كانت البشرية شيئاً يختلف عن الافراد، اما كانت استوجبت ان يحكم عليها في آن واحد بشخص يهوذا الاسخريوطي وان تخلص في المسيح ؟ ان مثل هذا القول مضاد للعقل والمنطق وهو امر مستحيل . فالفكرة العامة اذاً لا وجود لها البتة .

فالافكار ليست سوى اشارات او علامات تدل على وجود كائنات في الخارج دون ان تمثلها على الاطلاق . فالنية التي بها اسمع الناس ليست سوى اشارة طبيعية تعني الانسان، لها كل ما للطبيعة من صفة ، كالألهة التي تتم عن المرض او الألم . فالتنهيد هو علامة او اشارة تدل على المرض ، انما لا تفيدنا شيئاً قط عن طبيعة هذا المرض ، ولا عن نوعه ، ولا تدعو للقيام بأي عملية تشخيص او حدس او تطبيب . فلكل فرد من هؤلاء الناس الذين تقع عليهم المين ، علامة او دالة ذهنية في ادراكنا تقوم مقام الفرد نفسه وتمثله في المحاكمات والتصديقات العقلية

التي نقوم بها . فاذا ما استعرضنا ذهنياً هذه الاشارات وعارضناها بهضاً ببهض ، خرجنا من هذه العملية بفكرة او صورة تعبر عن هذه الاشارات او العلامات مجتمعة ، تمثل رجلاً قائماً بذاته . فالجنس البشري ، هذه الصورة العامة ، صغناها بطريقة التجريد ، من الافراد انفسهم . ولذا فهي ليست شيئاً خارجاً ، بل كائناً عقلياً لا وجود له الا في الذهن ، ليس الا . اما الكلمات والمصطلحات فهي الاشارات التي تميز عن هذه الصور الذهنية . فهي لا قيمة لها البتة بذاتها .

وعلى هذا ، فنحن لا نعرف اية حقيقة او شيء واقعي . فنحن لا نعرف الا ظواهر الاشياء ومدلولاتها . اما الكائن ، فلا سبيل لنا الى معرفته . غير انه اذا كنا نشاهد علامات متتابعة مستمرة تقع دوماً حسب الترتيب ذاته ، امكننا ان نستنتج ، بالتالي ، انه او وجدنا علامة واحدة من هذه العلامات ، كان ذلك داعياً لظهور باقي العلامات . فهناك إذاً إمكانية علم تجريبي يتيح لنا ان نتصرف ونعمل . فلن نتوصل ابدأ الى معرفة حقيقة الاشياء الا ما اراد الله ان يعملنا لنا . فاماننا إمكانيةات لا تعتمد للعمل والتصرف .

حملت هذه الفلسفة الاسمية التي قال بها او كهام وعلم ، بعض تلاميذه على الوقوف موقف المراقب المستقل وكأنهم يرددون : لا لزوم بعد لتنتج نتج ارسطو ، ولا الأخذ بترباط الكلمات وتداعيتها قبل مراقبة الظواهر والبحث عن التراكيب المستمرة . كان هذا موقف بعض اساتذة جامعة باريس ، في القرن الرابع عشر امثال الدير ده ساكس وتيمون البيهودي وجان بوريدان في ما يتعلق بناموس الحركة . كل حركة ، تستوجب في نظر ارسطو ، فعل محرك دائم يتميز تماماً ، عن الشيء المتحرك ، كالسهم الذي انطلق من القوس مثلاً ، والذي يستمر سائراً مع انه انفصل عن محركه . فوتر القوس ، في نظر ارسطو ، سبب اضطراباً في كتلة الهواء المحيطة بالسهم ، نقلت بدورها الاضطراب او الحركة الى كتلة اخرى ملاجة بها ، وهكذا راح السهم يطير ساجماً بفضل حركة الهواء المحيط به . اما عند الفلاسفة الباريسيين ، ولا سيما عند بوريدان الذي كان يعلّم الفلسفة في باريس بين ١٢٢٧ - ١٢٥٨ ، فلواقع يماكس تماماً ، نظرية ارسطو . لناخذ مثلاً على ذلك سفينة يجرها البحارة في ترعة او قناة ثم يتركها البحارة فجأة فتسير هي لوحدها بضع خطوات بقوة الدفع . ففي نظر ارسطو هي تسير بفعل الهواء المتحرك المحيط بها ، فتسوقها حركته الى الامام بضع خطوات . فاذا ما غطينا قعر السفينة بغطاء من جلد او نسيج ونزعنا فجأة هذا الغطاء في ذات الوقت الذي يتوقف البحارة عن جر السفينة ، نكون عزلنا طبقة الهواء التي تتصل مباشرة بالسفينة المتحركة . فالسفينة تمضي ، مع ذلك ، في سيرها الى الامام ، ولو لبضعة امتار . فليس الهواء ، والحالة هذه ، هو الذي يسبب لها الحركة . فالتعليل الوحيد ، المقنع هو ان البحارة (المحرك) أولوا السفينة (الشيء المتحرك) قوة ما تحركها ، وهذه القوة هي ما نسميه الدفع *Impetus* . وراح بوريدان يضع لنا ، في هذا المضمار ، قواعد ومبادئ لا تزال ، لليوم ، اساساً لبعض اقسام الميكانيكا ، منها ان قوة الدفع توازي سرعة المحرك

ومن هنا ان الدفع معادل للخجم او للثقل النوعي . وقد ذهب في تعليقاته الى ابعاد من هذا واعمق اذ قال ان الدفع يولي الأجرام السماوية حركة دائمة ، فرسم لنا بذلك اوليات حركة الفلك على اساس مبدأ القصور الذاتي (*Inertie*) هذه المبادئ بالذات التي كشف عن نواحيها ، فيما بعد غاليليو وكبلر .

واخيراً اوجد علماء الرياضيات من الباريسيين ، ولا سيما اوريسم بينهم واضع علم الهندسة التحليلية ، بعد ان ادخلوا تحسينات ملحوظة على فكرة الدالة الرياضية ، تطوراً كبيراً على العلم التجريبي كأداة للبحث العلمي ، وبها امكن استنطاق الطبيعة وتسجيل الكثير من المعلومات التي جادت بها . وعلى شاكلة للفيلسوفين الذين عجزوا عن الانتفاع بالشكل المنظوري ، استخداماً صحيحاً ، هكذا عجز الباريسيون عن ان يكونوا لهم فكرة صحيحة عن الدور الذي يمكن ان تلعبه الرياضيات . فالفيزياء عندهم ، بقيت نوعية او كيفية لا رموز او صيغة لها تقريباً ، وانزلوا ، بالتالي ، الدفع منزلة النوع . « من المحتمل جداً ، يقول بوريدان ، ان يكون هذا الدفع صفة من طبيعتها تحريك الجسم الذي تم دفعه » . والظاهر ان من جاء بعده من علماء الرياضيات ، قنم بهذا المقدار ووقف عند هذا الحد ، الى ان فقدت مدرسة باريس نشاطها الخلاقي ، خلال حرب المائة سنة وراحت فريسة جدل بيزنطي معطل .

بقي اذاً ، شيء لا بد من تحقيقه الا وهو اعتبار الطبيعة باكملها ، قائمة على تركيب رياضي خفي ، والاهتمام ، قبل كل شيء ، بالكم او الحركة . هذا التبدل في الذهنية والتفكير ، لم يتم على ايدي البدوانيين ، لانهم آثروا البقاء الى جانب ارسطو ، ارسطو التاريخي بعد ان اعتنقوا مقالته وارتضوها ستة لهم ، ارسطو هذا الذي اكتشفه إنسانيو النهضة ، واخذوا بالتالي يهزؤون من الباريسيين ومن لاثنين العرجاء . فلو عرف الباريسيون ارسطو معرفة صحيحة لاقتنعوا بتعاليمه ، ولما كان البدوانيون من تلاميذ ارسطو الاحيائي ، راحوا ، فوق ذلك ، يملكون انه من الافضل بكثير ، التمويل على الحواس منه على القياس ، وراحوا ينتهدون الباريسيين للتحليل الدقيقة الصحيحة التي قاموا بها . فلا عجب قط الا يجري البدوانيون ، في هذا المجال ، اي تغيير او تبديل في الذهنية المسيطرة . ولعل ما هو انكى من هذا كله وأحز في النفس ، الفكرة التي وقفوا عندها والتي اوجبت عليهم الاعتقاد بالمعجائب والمعجزات ، باعتبار ان في الطبيعة قوى كثيرة لجعل كل شيء عنها . فليس ما يدعو للعجب او للدهش ، والحالة هذه ، ان تذرّف التائيل دمعاً ، او ان تنضح بالمرق او ان تنتقل ، من تلقاء نفسها وببقوتها الذاتية ، من محل الى آخر ، كما يبدو ان هذه الفكرة بالذات زادت في انتشار وباء عضال هو الاعتقاد بالنجامة والاقبال على التنجيم باوسع نطاق ، والاستسلام لمخاطبة الارواح الموهومة ، وتعاطي السحر واعمال التمزيح ، وغير ذلك .

فبمبونازي ومن وقموا تحت تأثيره المباشر ، امثال باراسلوس وفانتي وبرونو وكبانيلا ،

ساموا على اقدار متفاوتة ، في الترويج لشروح ارسطو وتفسيره تفسيراً ابطانياً *Immanentiste* . فبدلاً من «الله المتماهي، المتسامي، المتميز كلياً عن هذا العالم الذي برأه من المدم»، قالوا باله ابطاني *Immanent* متمازج مع العالم متغلغل بروحه فيه . فالطبيعة التي رأى فيها ارسطو تسلسلاً اسراً للاسباب ومسبباتها ، ومجموعاً ساكناً من الظواهر المرروفة ، تصورهما اشبه ما تكون بكائن حي يغمره الله بروحه ويفيض عليه من ذاته . وهكذا تبدت لنا ، هذه الطبيعة ، في كل لحظة ، قوة خفية مجهولة لا يمكن حصرها او كبتها كما لا يمكن التنبؤ بها . هنالك قوة متوزعة محرك الاشياء . فالطبيعة ملأى بقوى خفية ، واصبحت مجالاً للسحر والسحرة يسرحون فيه ويمرحون .

المعجزات
جماعة ذلك العصر يؤمنون كلهم بالمعجزة ويميشون ، بالاحرى ، بمعجزة دائمة ، قائمة باستمرار . أفلا تتنبأ الحيوانات ؟ ، والتائيل الان تضع عرفاً مندرية بالأحداث الجسام ؟ والمدراء مريم ام النعم لم تفتح عينها وتطبقهما ، في مدينة بريشيا ، يوم عيد المنصرة بالذات عام ١٥١٤ ؟ أو لم ير الناس ، في كنيسة القديس مكسيميس ، في مقاطعة بروفانس ، خاصة الاخوة الواعظين ، حجارة صغيرة تلتطخ بدم السيد ، بعد ان تلقفته مريم المجدلية وهي جاثية عند الصليب ؟ كان الناس يعتقدون ، وطيداً ، ان هذا الدم كان ينفصل عن هذه الحجارة ، نهار الجمعة الحزينة ، وذلك من الساعة ١٢ الى الساعة الواحدة بعد الظهر ، ويأخذ بالفليان والفوران . وفي مدينة نابولي بالذات ، اما كان دم القديس جانفیه يفور ويسيل ثلاث مرات في السنة : اما اذا سال في غير هذه الاوقات ، فلا يتم ذلك ابدأ في درجة حرارة تقل عن ١٩ درجة مئوية . وكثيراً ما استعملوا درجة الحرارة التي يسيل فيها الدم لاغراض سياسية .

النجمية
أدى بعث الفلسفة القديمة الى بعث النجمية والتنجم . فبينما اجزاء العالم في تماطف شامل يربط فيما بينها ، فمن الله يصدر روح يتصل عن طريق النجوم بالكائنات الحية . فكل جزء من اجزاء الجسم البشري ، وكل حالة من حالات النفس البشرية يرتبط ويتماطف مع الاوضاع السائدة في الفلك . فالمریخ يؤثر على الكبد ، وزحل على الرئة ، والشمس لها تأثيرها العميق على المعدة . وكل مزاج من الامزجة الاربعة : الصفراوي والدموي والبلغمي والسوداري مرتبط ، هو الآخر ، ارتباطاً وثيقاً ، باحد الاجرام السماوية . وعندما يقع القمر في قران برج الاسد او برج القوس يُستحب القيام بعملية فصد صاحب المزاج الصفراوي . فالنجمية الطبيعية جعلت من الانسان نقطة الدائرة ومركز الثقل في العالم . وهو قول اخذت به الكنيسة ورعته واحترمته .

هنالك ضرب من النجمية يُعرف بقراءة الطالع البشري ، شجبتة الكنيسة وحرمتها عام

١٥٨٥ . فالكوكب السيار الذي سينظر في السماء يضيء على الانسان الذي يولد تحته ، سمة لا تمحى . فهو يعطي المولود الجديد مزاجه الخاص ويمدد منه المصير المحتوم بشكل لا يتبدل . فليس من عجب والحالة هذه ان يقوموا بكشف الطالع يوم مولد الطفل . وفي هذا السبيل ، قسموا القبة الزرقاء مثلثات ومستطيلات حددت فيها المواقع التي تحتلها النجوم ومواقع البروج كما حددت فيها المواقع التي يجري فيها الكوكب تأثيره عندما يتفق وقوعه في المحل المعين له . وبذلك كانوا يستطلعون من خلال بعض الملامات والاشارات ، الصفات المرتقبة للشخص وما عسى ان يكون مصيره او اتجاهه ، الى التقوى ام الى الكفر ، وتاريخ الرحلات والاسفار المتوقع له ان يقوم بها ، وعدد البنين الذين سيرزق ، وغير ذلك من طوارئ الحياة المنتظرة .

كثيرون اخذوا يتعاطمون مخاطبة الأرواح ، هذه العادة التي وصلت اليهم من
مخاطبة الارواح
التقاليد اليهودية ، وهي تقاليد تغلفت ، الى حد بعيد بين اوساط عصر النهضة ومجتمعاتها . فالرموز التي تضيء على الأشياء مدلولها ، وتعين لها المراتب والمواقع ، تتكون من اشارات وقدرات . فالاسماء الواردة في التوراة كتاب الله ، وما تتألف كتابتها من احرف تتلبس قدرة خاصة . وبواسطة هذه الدلائل يظهر الله قدرته وهي دلائل يمكن لنا ضبط بعضها . فالارقام يشار اليها بالاحرف ، ولذا قامت علاقة تماطف او تداعج بين بعض الحروف وبين بعض الارقام . فاذا ما جمعنا الاعداد التي تنجم عن الحروف التي يتألف منها اسم معين ، نصل الى مثل هذا العدد الذي يخرج من جمع حروف اسم آخر ، اذ يوجد تماثل بين هذين الاسمين وبالتالي بين ما لهما من مدلول . وبواسطة الاسماء يمكن ان تؤثر الاشخاص والاشياء التي لها مدلولات خاصة بعضها ببعض .

كل الناس مؤمنون بالسحر ويستخدمون السحرة والدرافين ، فنشأت من
السحر والمجوسية
هذه الأعمال والمراهم التي كانوا يقومون بها الدعاوي امام الحاكم التي راحت تضبط الكثير من اعترافاتهم وتسجل بكل اسباب ، التفاصيل التي تصف اعرفهم واعمالهم . وكان ينظر في دعاوي السحر والسحرة ، قضاة متخصصون . فالسحرة على حسب اعتقاد الناس هم سبب كل الامراض الحفمية او المستعصية كاللثدن ، وذبول الصحة ، والعمه والحباط الصرعي ، والاضطرابات التشنجية والهستيريا . فيصفون للعشاق والمتحابين شراباً يلهب فيهم الشوق والغلة ، وينفثون في الجو ريباً خبيثاً ساحراً ، موبوءاً ينشر بين الناس الحيات والعمه والشلل والجنون ، ويستمتطرون المطر في غير اوانه والبرد وينثرون الضباب الناشف المؤذي فيسبب الجفاف والامى ويفتك بالناس كما يذرون رشوشاً مؤذية . ويتلبس السحرة ، في نظرهم اشكالاً متنوعة فيظهرون تارة بشكل يهائم مخيفة ، او عناكب وذباب وأفاع وثعابين وجراد ، وديكة وهررة وذئب متلبسة هيئة بشر . فع بقاء اجسامهم في مكان معين ، ينفثون رياحاً وطبوقاً تخترق الابواب الموصدة وتنفذ من خلال الجدران ، وتتصدى للنيام في أسرتهم ،

ويدخلون كما زعموا ، في اجسام ضحاياهم شياطين يجعلون منها مسكناً لهم ، ويجمعون ليلاً في نواد خاصة بالسحرة حيث يظهر لهم الشيطان هيئة تيس اسود يأخذ في التحدث اليهم ، ثم يحترق ويستحيل امامهم رماداً فيأخذ منه الحضور ما يساعدهم على الفتك بجيرانهم .

وكان الناس يردون هذه الظواهر كلها الى المذهب الروحاني (*Animisme*) هذا المذهب القديم الذي قال بوجود ارواح في كل الاجسام ، وعليه قامت المجوسية التعاطفية والنجمانية ومخاطبة الأرواح . وعملاً بقانون المشاكلة (الشبه يولد الشبه) يتساقط المطر اذ ما رحمت تقلد صوت المطر المتساقط بضربك اديم الماء بمقرطة فيتساقط المطر ، واذا ما نختض بآبرة شخصاً من الشمع يمثل ضحية واطلقت عليه اسم الضحية ، اصيبت نفسها بالنخس في المكان الموافق للمكان الذي تم فيه نخس تمثال الشمع . وبموجب قانون سريان القوة او استمرار الاثر ، يبقى شخصان او شيان يؤثر احدهما على الآخر ، بعد انفصالهما طالما كانا على اتصال ببعضهما ، من قبل . فاذا ما سقيت فتاة عصت الحبيب وتمردت على شريعته ، شراباً فيه شيء من اثر الحبيب ، لن تلبث هذه الفتاة ان تلتهب عاطفة نحوه وتشتعل غراماً به بعد برودتها الاولى .

وكان المعاصرون ، اذ ذاك ، يعتقدون بتأثير هذه القوة الخفية التي تدعى عندهم *Mana* ، وهي عبارة عن اثر غازي او روحي ينبعث من اجسام السحرة .

اما علماء اللاهوت ، فكانوا يسقطون من حسابهم هذه التعليقات الحرقاء ويعزونها بدورهم بالاحرى ، الى عمل ابليس الذي كان يتلاعب كما يشاء بارادة السحرة الشريرة . وقد عكس بعض هؤلاء السحرة من بعض خفاف العقول ، المراسم الدينية المعمول بها في طقوس العبادة . ساعدهم على هذا ما يقوم من شبه بين بعض طقوس الاسرار الكنسية وعادات السحرة واعرافهم من حركات وسكنات واشكال رمزية افاتوا بها قدرة على اتيان النتائج المتوخاة من هذه المراسم . فابتلاع رشوش الابالسة ، عادة عكست تناول القربان المقدس . والمناولة الشيطانية التي يحاول معها الساحر ان يحمل اعداءه او خصومه على تناول جسد الشيطان ، من شأنها ان تسبب المرض او الموت ، تشبهاً او محاكاة لتناول جسد المسيح ودمه ، فيسكب في المرء حياة النعمة غزيرة ويحفظ النفس نقية جديدة بالحياة الابدية .

كل الناس اعتقدوا بقوة السحرة وتأثيرهم البعيد بعد الذي استقر في اذهانهم من صفاتية هذه الطبيعة الساحرة المسحورة ، وراحوا يفسرون مظاهرها تفسيراً مغلوطاً . فحبات الفول تسود بعد انقضاء الصاعقة ، والهواء المؤين يكتسب رائحة كريهة كرائحة الكبريت ، مما يبعث على الاعتقاد ، وبالتالي على القول ، بان شحنة الصاعقة كانت مسحورة ، مؤذية او ان صديقي خالداً الذي كان متخفياً في الشجرة عند سقوط الصاعقة ، كان السبب الحقيقي ، مثلاً ، لهذا الحادث المؤسف . والكاب الذي كان مجولاً على عربة تراه اختفى ، بلحة طرف ، وهو بلون اسود ، فهو ساحر ولا شك ، تلبس شكل كلب ، فقد كانت رجله مجروحة ، وها هي جارتي ، مثلاً تصاب بالقرح ، فقد راحت ولا شك فريسة ساحر .

وكان السحرة، هم على مثل ما وصفنا من عقيدة واعتقاد، اناساً فسدت ضمائرهم - ترمذ العين من رؤيتهم للاذى الذي ينضحون به . وكثيراً ما كانوا مرضى لسبب من الاسباب ، تعود عليهم مسؤوليته . ومن الحالات التي تلبسها السحرة حالة من راحوا فريسة الهستيريا . وكثيراً ما راحوا بتأثير من الايماء والقضاء الذي ينظرون في الدعاوي المقامة عليهم ، والعذابات التي يسمونهم اياها، يروون، وقد اخذ العياء والضعف منهم كل مأخذ ، الغرائب والذخائب المدهشة عن تصرفاتهم ، وهي تصرفات كثيراً ما كانت بالفعل اقل بكثير مما أتوا وفعلوا . وهناك حالات كان فيها المتهمون بالسحر بالفعل ابرياء ، فيضطرون ، تفادياً منهم لما يستهدفون له في حالة اعتصامهم بالصمت والامتناع عن الاعتراف ، من عذابات يخضون لها للحلهم على الاقرار ، لاختراع اشياء لم يقترفوها قط ، او لسرد وقائم يستنبطها الخيال ، تجنباً منهم لهذه الاضرارك ينصبها لهم اعداء بيتوا لهم الشر ، فكانوا يعترفون ، وبذلك يحملون المشتكين عليهم على ملاحقة آخرين بتهمة السحر ، كان عليهم هم ايضاً ان يعترفوا بها والا استهدفوا لعذاب ألم وهكذا كان الاعتقاد بالسحر يفذي في الناس استمرار الاخذ بعادة السحرة . فالسحر ومخاطبة الارواح ، والنجامة والاعتقاد بالمذاهب الروحانية كل هذه وما شاكلها ، حالات مرضية تقرب من الجنون ، تبدو على الاجسام الضعيفة البنية او الضعيفة العقل .

لا شك ان القائلين بالافلاطونية الحديثة واقباعها هم الذين هياؤوا لظهور الروح الرياضية هذه الذهنية ، الجديدة . قد يكون مثل هذا الوضع نشأ عن تلاقي الافكار التي قال بها افلاطون ، مع تكاثر الابحاث التقنية ، التي تجرئ الاخذ بها على أنه ، في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، هذه الفترة بالذات التي انكسرت فيها الحركة الاقتصادية ولا سيما اسعار المواد وقامت فيها صعوبات عديدة في وجه المشروعات التجارية ، والصناعية . فليوناردو ده فنشي الذي اخذ بمبادئ الافلاطونية الحديثة ، تدرب في مشغل او مرسم اندره فيروكيو ، هذا المرسم الذي كان كغيره من مراسم الرسامين الفلورنتيين ، في ذلك العصر ، ضرباً من معهد للصنائع والفنون ، تدرس فيه الرياضيات وعلم المناظر ، ونحت الحجارة وتقصيبها وصب البرونز وافراغه ، وفن التخطيط الهندسي ، وتحصين المدن وبناء الطرقات ، وحفر الترع والاقنية ، تلتقي فيها الوان من طوائف الفنانين . عاش ليوناردو ده فنشي ردهاً من الزمن ، في مدينة ميلانو حيث احتشد الى جانب لودوفيك لو مور ، عدد من المهندسين يتعاطون تشييد الحصون وبناء الترع . وقد رسم بيده عدداً كبيراً من هذه الآلات التي اقتضاها القيام بهذه الاعماله . وقد ككون هذا الفريق من رجال الفن ، على اختلاف مناصبهم ، صورة عن الكون ، تختلف كلياً عن الصورة التي وضعها له الكلاسيكيون او البدوانيون . فالواقع المتحيز القائم ، هو حقيقة رياضية . « ليتتكب عن قراءة مبادئ هذه من لم يؤت روحاً رياضية » .

« فليس في العالم من معرفة موثوقة لعلم من العلوم الطبيعية ، ولا لهذه العلوم التي لا تعول

على الرياضيات»، و « ليس من بحث علمي يستحق ان يدعى علماً ان لم يقم على تجربة رياضية » .
فالنسبة لا توجد فقط بين الاعداد والمقاييس ، بل ايضاً بين الاصوات والاوزان ، والاقوات
والمواقع ، بشكل ما او على قدر ما ... فالعالم كله ، والحالة هذه ، يقوم على الحساب ،
ومسدؤه القياس والوزن ويمكن تعليقه وشرحه برده الى سلسلة من النسب الرياضية .

حاول ليوناردو ده فنشي تحطيم العالم الارسطاطاليسي فقد رفض رفضاً باتاً التسليم بالقول
ان الارض هي محور الكون « ... فالارض ليست نقطة الدائرة في نظامنا الشمسي كما انها
ليست في منتصف الكون . انها هي تقع بين هذه الاحجام المحيطة بها والمتحدة معها » . فقد
قال بمجانسة الاجرام السماوية مؤكداً ان القمر مشابه للارض وليس فرقاً الفرض منه اثاره
الأرض . وذهب الى اكثر من ذلك قائلاً : « لو قام في القمر من نظر الى الارض لوجد ان الأرض
تلعب الدور الذي يلعبه القمر بالنسبة لها ، فهي بدورها تضيئه وتثيره » . وقد يكون قال بان
الشمس هي محور الكون ، بعد ان شهد : « ان الشمس ثابتة » .

كذلك هدم ده فنشي نظرية الجواهر والنوع . فاسأله في التنكير ، اسلوب العلماء الذين
جاؤوا بعده ، امثال غاليليو ، في كل ما يتصل بالزمان والفراغ والكتلة والطاقة . فالتقل ، في
رأيه ، ليس جوهراً بل هو نتيجة الحركة . كذلك رأى انه ليس من عناصر ثقيلة او خفيفة
بذاتها . فالوزن او الثقل والحفة ليسا جوهراً ، ولا من صفات داخلية في صميم الجواهر ، بل مجرد
قوى عارضة ، سببها التجاذب او دفع العناصر بعضها لبعض . فهي نتيجة ترابط وعلاقات .
هذا هو بعينه نظر العلم الحديث اليوم .

ففي الوقت الذي كان فيه ليوناردو ده فنشي يدون شواطره العلمية هذه ، كان طالب من
اصل بولوني او الماني يدعى نيقولا كوبرنيكوس يسجل اسمه ، عام ١٤٩٧ ، في جامعة بولونيا .
لينتقل منها بعد حين ، الى روما (١٥٠٠) ثم الى فرانك (١٥٠٣) فالى بادوا ، (١٥٠٤ -
١٥٠٦) وقد عُرف عنه تبصره بعلم الهيئة بحيث تعين مساعداً تقنياً لدومنيكو ماريا ده نوفارا
استاذ القانون اذ ذلك ، والطب وعلم الفلك . وقد درس كوبرنيكوس تحت ادارته وتوجيهاته
افلاطون وقزليخ ، على الاخص ، من كتابه : طيماوس *Timaeus* حيث يتناول بالدرس الطبيعية في
مظاهرها المتنوعة . ففي الحوار الذي تدور عليه مادة الكتاب ، ترى افلاطون كما رأى الفلاسفة
الفيثاغوريون من قبل ، ان العلم هو عبارة عن اعداد ، كما ان الرياضيات في نظرهم ، ليست
سوى صيغ هندسية . فالحساب ، وهذه المعادلات النسبية التي نهر عنها اليوم بطريقة جبرية ،
تمثلها الاغريق ، من قبل ، اشكالاً هندسية . وهكذا فقد رأوا في علم الفلك ، فرعاً من فروع
الرياضيات اسوة بالميكانيكا وعلم البصريات . فالاعداد هي مقادير معينة من المدى او الفراغ . ومن
هنا أطلقت الفكرة الفيثاغورية والافلاطونية التي قالت وعلمت ان العالم بأسره يتركب من اعداد
ومعادلات وهكذا توصلوا الى النزعة الذرية الهندسية .

نجم من هذا كله امور في غاية الاهمية . ان احسن برهان لاثبات صحة قضية ما ، في نظر

المهندس ، هو ما كان في غاية البساطة اي ما يمكن التعبير عنه باصغر عدد من المقدمات ، وباقل عدد من الكلمات . ان ايسر هذه الادلة هو اجملها على الاطلاق . والحال ، فالمدى الهندسي هو ، في نظر الفيثاغوريين والافلاطونيين ، المدى الحقيقي وليس المدى المثالي او الذهني . وعلاوة على ذلك ، ان الاجسام تسقط على خط مستقيم كما ان الاشعة الضوئية ، تنتشر هي الاخرى ، بخط مستقيم . ولذا راح الفيثاغوريون والافلاطونيون يعتقدون ان الطبيعة اساسها مبدأ البساطة . كذلك نجد عند هؤلاء المفكرين جميعاً الاوليآت التالية : « الطبيعة تتبع دوماً اقصر الطرق » ، « الطبيعة لا تأتي شيئاً عبثاً » . « الطبيعة لا حشو فيها ولا نافل ، ولا هي بحاجة الى ما هو ضروري لها » . كل هذه الحقائق اثبتها بحرفيتها الفلاسفة والعلماء الطبيعيون في ما علوا وكتبوا ، كما نجدها عند اتباع الفيثاغورية الحديثة والافلاطونية الحديثة . فقد يكون نوفارا على علم بها ، كما ان كوبرنيكوس تشبعت منها ، ولا شك في ذلك .

قد يكون نوفارا لقن كوبرنيكوس نظرية الكون الفلكي الذي يسوده ويتحكم به تناسق رياضي وانسجام كلي ، اذ ان تركيب العالم انما هو تركيب رياضي ، وبين تركيبين رياضيين اصحها هو اجملها . وعن طريق نوفارا ، وصل الى كوبرنيكوس تأثير نيقولا ده كوس الذي كان كردينال مدينة بركن كما تأثر به ايضاً ليوناردو ده فنشي . ويرى نيقولا ده كوس ان نظرية الاعداد هي العنصر الاساسي لفلسفة افلاطون . فالكون كله انسجام متناسخ لا نهاية له ، للكائنات فيه نسبها الرياضية . « فالمعرفة هي ابدأ مقاييس ، والعدد هو ، في خلد الحقائق ، الصورة الاولى للكائنات » .

قد يكون كوبرنيكوس وضع خطوط نظريته العلمية ، منذ عام ١٥٠٦ ، كما يستدل على ذلك من مقدمة كتابه المنون *De Revolutionibus* اي حول دوران الفلك ، وهي رسالة وجهها الى البابا بولس الثالث ، وقد تعهدا بالتعديل والتطوير بينما كان يعمل رئيس كهنة فرونبورغ . فرغ كوبرنيكوس من وضع كتابه « حول دوران الفلك » عام ١٥٠٣ ، وخلال هذه الفترة كان كوبرنيكوس قد وضع في التداول ، بين ايدي بعض الخاصة من اصدقائه ، كراساً صغيراً بعنوان *Commentariolus* ، بسط فيه الخطوط الكبرى لنظريته العلمية . وقد بلغ خبر هذا الكراس ، مسامع البابا ، منذ عام ١٥٣٢ ، بينما كتابه *De Revolutionibus orbium Caelesitium* « حول دوران الافلاك السماوية » ، لم يظهر مطبوعاً الا سنة ١٥٤٣ .

ويروي لنا كوبرنيكوس بالحرف الواحد ، قائلاً : « اخذت اشعر بشيء من الانزعاج كيف ان الفلاسفة درسوا ، حتى درجة الاتقان ، كل ما يتصل بادق مخلوقات ارضنا ، بينما نراهم لا يعرفون شيئاً يذكر عن الحركات التي يقوم بها جهاز هذا الكون الذي ابدعه اقدر المهندسين وامثلهم طراً » . والحال « ان اجمل الامور واجدورها بمعرفتنا » أليست حقاً ، هذه العلوم التي تتعلق بحركات هذا الكون الالهي ، وبحركات النجوم السابجة في القبة الزرقاء وما لها من مقاييس وابعاد وشروق وغروب ، والاسباب الخفية التي تقوم وراء الظواهر السماوية الاخرى

فترسم لنا عنها صورة كاملة . وهل اجمل من هذه السماء التي تحتوي اجمل ما في الكون ؟ وهذا ما تعلمه عالماً اسماء السماء والأرض ، اذ تعني هذه ، النقاء والزينة ، وتلك كمال الصورة . فعلم الفلك ، هو ، والحالة هذه طليعة فنون الفكر ، وهو اخلق العلوم طراً بالرجل الحر . فهو يكاد يكون موضوع كل انواع الرياضيات : كالحساب والهندسة والبصريات وعلم هيئة الارض ومساحتها ، والميكانيكا . وكما انه من خصائص العلوم النافعة ان تؤدي بالمقل البشري الى ما هو احسن وافضل وان تجنبه الشر والرذيلة ، كذلك باستطاعة علم الهيئة ان يحقق اكثر من سواه ، كل هذا ، بالاضافة الى المتعة التي يوفرها للمقل من من الناس لعمري ، اذا ما نظر بالفكر الى هذه الامور التي جاءت على خير نظام واحسن ترتيب ، وفقاً لما رسمته العناية الالهية ودبرته ، لا يرى نفسه ، بعد مراقبتها مراقبة مستمرة ، ممولاً الى الخير ، وبعد الاتصال الطويل بها ، لا يسبغ بحمد الله ، مصدر كل خير وكل سعادة ؟

ومع هذا فبطليموس الاسكندري ، صاحب النظرية الفلسفية المشهور ، لم يستطع التحليق الى هذا العلو ، والارتفاع بفكره الى هذا النظام الالهي . فبالرغم من هذه التعميدات الغريبة التي تفضي اليها هذه الدوائر الثابته التي يرميها الكوكب الدائر على نفسه بينا محور الدائرة يبقى دائراً حول الارض قطب العالم الثابت ، فهناك حركات ودوران كشف عنها العلم منذ وفاته ، لا تتفق والنظام الذي وضعه . ففي الوقت الذي ثبت فيه ان المسالم مستدير كهذه الاجرام السماوية التي تتحرك فيه ، وان هذا الشكل هو اكمل الاشكال طراً ، اذ انه حجم لا يحتاج الى وصلة ، وبما ان الارض ، هي ولا شك في ذلك ، على هذا الشكل ، كما يظهر من وضع السفينة الآخذة بالابتعاد عن الارض ، فيرى الناظر اليها كيف انها تتوارى شيئاً فشيئاً الى ان تختفي تماماً ، كأنها غابت في اليم ، بينا « حركة الاجرام السماوية هي حركة دائرية محورية » اذ ان من خاصية الحركة التي ترسمها الكواكب المستديرة هي ان تدور على نفسها . و « بهذه الحركة بالذات ، وبينما هي تتحرك على نفسها بشكل سوي ، ترسم الشكل الذي لها ، شكل ايسر الاجسام ، حيث لا بداية ولا نهاية » مع ان هنالك على ما يبدو ، حركات تخالف ظاهراً هذه الحقائق ، لم يتوصل العلم بعد الى تحليلها وتفسيرها كما يجب . « وبالفعل ، فالشمس والقمر يبدو عليهما انها يدوران نارة ببطء اكبر ، وطوراً بسرعة اكبر . اما الكواكب السيارة الخمسة الاخرى ، فيبدو لنا منها في حركتها وكأنها تعود القهري ، وتقر بفترة توقف بين دورتين ، « هل هنالك ، لعمري اي زيغ او عدم انتظام من اي شكل في قدرتها على الحركة ، او اي تغيير ما في الكوكب المتحرك على نفسه ؟ « فالمقل يتراجع مرتعداً امام هول هذين الفرضين » لانه « ليس من اللائق قط ان نذهب بالظن الى شيء من هذا في هذه الاجرام السماوية التي جاء تكوينها على احسن ما يكون من نظام وترتيب » .

« ولذا كان لا بد ان نفترض « بان حركاتها المتساوية تبدو لنا وكأنها غير متساوية » لان
« الارض ليست محور هذه الدوائر التي ترسمها الكواكب في دوراتها » . « وهكذا ، فالكواكب

تبدو لنا احياناً، على مسافة قريبة من الارض، وطوراً على مسافة بعيدة ، وتظهر لنا حركاتها هذه على هذا الشكل عندما تكون قريبة جداً منا اكثر منها بعيدة . فالحركات المتعادلة التي نرصمها هذه الاجرام الساوية ، تظهر اذا ما نظرنا اليها من ابعاد مختلفة ، وكأنها حركات غير متساوية في اوقاتها .

ليس ما يؤكد قط ، بعد هذا ، ان الارض هي ثابتة في وسط هذا الكون، وذلك لأن كل حركة محلية ظاهرة تنجم اما عن حركة الجسم ، موضوع الرؤية ، واما عن الحركة التي يخضع لها الرائي او المشاهد او عن حركة متفاوتة لدى الطرفين .

و « الحال ، ان هذه الحركة المحورية او الدائرية تبدو لنا رؤيتها وتمثل على احسن وجه ، اذا ما نظر اليها من الارض؛ فاذا كان للارض شيء من هذه ، بدت الحركة في الاجرام الواقعة خارج الارض فتسير هي وراءها بالسرعة ذاتها ، انما باتجاه معاكس ؛ وهذه هي في الدرجة الاولى حركة الارض اليومية . وهذه الحركة تبدو وكأنها تجر معها الدنيا بكاملها ، باستثناء الارض والاجرام الواقعة على مقربة منها . والحال فلو سلطنا جدلاً ان الفلك ليس على شيء من هذه الحركة على الاطلاق، وان حركة الارض تتم من الغرب الى الشرق، واذا ما دققنا النظر ملياً في ما ينتج عن ذلك بالنسبة لما يبدو لنا من شروق الشمس ومغيبها، والقمر والكواكب الاخر ، نجد ان الامور هي على مثل هذا الوضع . وهذا هو بالذات ما ذهب اليه بالفعل ، من قبل ، الفيشاغورين ، امثال : هيراقليديس وأكفانتوس ونيكاتوس السيراقوزي .

كذلك، « اذا ما راح احدهم ينفي ان تكون الارض تحتل مركز الدائرة في هذا الكون ... وراح يعتقد، من جهة اخرى، ان حركات الكواكب تبدو وكأنها غير سوية، مع انها منتظمة غاية الانتظام بالنسبة الى محور آخر غير محور الأرض، امكنه ، والحالة هذه ، ان بأينا بتفسير لما يرى من عدم انتظام وعدم استواء هذه الحركة، لا يكون غير معقول». هذا هو رأي الفيلسوف الفيشاغوري فيولوس الذي قال بان للارض حركة رحوية لانها تدور على نفسها ، وهي بالتالي كوكب من هذه الكواكب

والحال ، فكل هذه الشواذات التي تبدو لنا في حركات النجوم يمكن تعليلها وتفسيرها بشكل اقرب الى الطبيعة تبدو معها الاشياء اكثر وضوحاً وانتظاماً وانسجاماً، اذا ما سلطنا بان الشمس هي الثابتة في وسط هذا الكون التاسع الذي يحده ، مع ذلك ، انما على ابعاد لا تقاس ، حجوم نجوم ثابتة تتسع لكل شيء كما تتسع لنفسها، «وان ابتداء من هذه الكرة الارضية هنالك اجرام تدور حول الشمس هي الكواكب السيارة» فترسم الاولى من هذه السيارات ، وهي زحل ، دورة حول الشمس تتم في ٣٠ سنة ويليه المشتري الذي يتم دورته في ١٢ سنة ، ثم المريخ في سنتين، وتأتي في المرتبة الرابعة من هذه السلسلة، الدورة السنوية التي تقع ضمنها الارض والشمس. وتأتي في المرتبة الخامسة

الزهرة التي تكمل دورتها في ٩ اشهر . والمرتبة السادسة هي لمطارد الذي يتم دورته في ٨٠ يوماً . وفي وسط كل هذه الكواكب تقوم الشمس . وبالفعل ، في هذا الهيكل البديع ، من يمكن ان يقيم او ان يركز هذا الفرق في محفل آخر اجمل من هذا الموضع الذي يمكن ان يشع بانواره الى كل مكان ويستضيء الجميع بنوره ؟ وهذه الشمس ، وكأنها ترتكز الى العرش الملوكي ، هي التي تتحكم بهذه الاسرة من الكواكب المحيطة بها ... ونجد في هذا النظام البديع ، هذا الانسجام الذي تبينه في الكون كنتيجة لهذه النسبة القائمة بين الحركة ، وحجم الكوكب ، وهي نسبة لا يمكن ان نجدها على مثل هذا النحو ، في مكان آخر ... فليس اكمل واتم لعمري ، من هذا العمل الالهي الذي خرج من يد المهندس الاكبر ، احذق المهندسين طراً ، وابرعهم .

بهذه الصورة الجمالية التي رسمها كوبرنيكوس بعد ان قال بتعاليم الافلاطونية الحديثة ، وجد نفسه مخالفاً للشعور العام ، ومتعارضاً مع حرفية التوراة ومع النظرية الجامعية التي احتضنتها الكنيسة . فبينانه هذا يرسم صورة علمية جديدة للعالم ، ويستبدل ، اينما استطاع ذلك ، صورة الجواهر بالصورة الهندسية . فالصورة الجوهر هو المبدأ او الاسل الذي يحمل من الماء ماء ، والماء الصافي سلسيلا ، وليس مجرد التقاء ذرتين من الهيدروجين مع ذرة من الاوكسجين . فقد علمت ان لكل كائن « صورة جوهري » ، مبدأ ، حيث توجد روح . فالماء له شكل جوهري يعطيه سمته المبردة . كذلك لكل من الكواكب صورته الجوهر ، هذا المبدأ الروحي الذي يجعل من الكائن ، ماهو عليه ، ويعطي كل فرد الحركة التي تحركه . والحال ، نرى كوبرنيكوس يحدثننا ، في كل لحظة ، عن « صورة » ولكن ، حيث كان تلاميذ ارسطو واتباعه يعتقدون « الصورة الجوهر » كان هو يقصد دوماً ، بهذا التعبير ، « الصورة الهندسية » . فلم تعد عنده ، طبيعة الكواكب النوعية ، ولا ما لها من مادة وهيولى ، هي التي تجعلها موضوعاً قابلاً للحركة وتوليها هذا الشكل الكروي . فالكواكب هي كرات ، وهذه الصيغة او الشكل هي اكمل الاشكال واتمها ، وهي التي تجعل الكواكب قابلة لتقبل الحركة ، اي الحركة الدائرية او المحورية . ففي الصورة التي وضعها كوبرنيكوس لنواميس الكون العامة ، نرى الكواكب تتحرك وتدور على نفسها بكل بساطة ، بفضل ما لها من شكل هندسي ، وليس بفضل ما هي عليه طبيعتها . فالاجرام السماوية هي على مثل هذا الوضع : فهي تدور وتتحرك فقط لانها كروية الشكل . كل شي يتحرك من نفسه بسبب ما له من شكل هندسي . فتفهم العالم اساسه القياس والعدد .

ولكن اذا كانت الامور كما رصفنا وقدمننا ، فلا حاجة بعد هذا ، « للمحرك الثابت » ، الذي يفرض ارسطو وجوده ، وبالتالي لله الذي يولي « الدفع » الاساسي ، هذا الدفع الذي ظن به فلاسفة جامعة باريس . فلا لزوم ، بعد هذا « لمقول الاجرام السماوية » ، وبذلك تفقد الارض الى الابد ، ما يميزها به عقل الانسان مجاناً ، من خصائص ، ولم يعد لها ، بعد هذا ، من كيان ذاتي ، مستقل ، ينتصب في وجه الاجرام السماوية ، كعالم قائم لذاته ، فلها ما للكواكب الاخرى من حركة روحية ، وتخضع مثلها للقوانين ذاتها ، فهي تواف مع الكون كلاً متجانساً . فالارض لم

تعد محور الكون ونقطة الثقل فيه ، وهذا الكون لم يعد يتحرك لها ومن اجلها . وهكذا حطمت كوبرنيكوس هذا الكون الارسطاطاليسي الذي كان يوماً ما السر المطلق كما تبدى من خلال التوراة . فبهذه الصورة الرياضية التي رسمها للكون وطلع بها على العالم ، قلب بها ظهر المهن ، لهذه التراكيب الكوسموغرافية القديمة وضرب بها عرض الحائط ، وبذلك مهد السبيل لظهور كبار علماء الفلك في العصر الحديث ، امثال : كبلر وغاليليو ونيوتن ولا بلاس ، فاطل علينا المفهوم الجديد للرياضيات . فالكون لم يعد سوى مجال هندسي فسيح الأرجاء والرياضيات مفتاحه . والشئ الوحيد الذي بقي على الانسان الكشف عنه والظفر به هو ان يتوصل الى ما « للوظيفة » من مفهوم ، فيصل منها الى نواميس الحركة .

اخضع الفلاسفة المدرسيون السياسة ، لاحكام الدين ، فسعوا السياسة ومفهومها الجديد: مكيافي جاهددين ، للوصول الى نظام سياسي حر عن طريق عالم مسيحي ، واشترخ خير القوانين الزمنية لتأمين رقي الفرد وثمان تقدمه الروحي في مدينة الله هذه ، خاضعة لناموس الانجيل ولتقتضيات اخلاقياته . اما الفلاسفة « الانسانيون » في ايطاليا ، خلال القرن الخامس عشر ، فقد جعلوا السياسة في خدمة اخلاقية تعمل لخير الانسان وتمهض بالمثل التي يتشوق اليها . فقد راحوا يبحثون عن خير الوسائل التي تمكنهم من اقامة مدينة مثالية كما تمثلها فلاسفة ذلك العصر ، قوامها العدل والمساواة ، واحترام القيم الانسانية ؛ فتنفتح امام الفرد مجال الارتقاء والتطور . وراح مكيافي « هذا الفيزيائي الضال الذي طلع به التاريخ ، يشيد السياسة على تقييم الروابط التي تشد ، بعضاً الى بعض ، القوى المادية والادبية ، والقدرة على التحكم بهذه القوى وتوجيهها ، وصولاً للسيطرة وبسط النفوذ . وهكذا اصبحت السياسة علماً ايجابياً يقوم على المادية التاريخية غير الاقتصادية .

وهذا التطور بطراً على التفكير ، نحن مدينون به لرجل أوتي القدرة على «الجمع والتوفيق بين حاضر عامر بالتجربة الحية وبين ما تم له من ثقافة معرفة من خلال مطالعته وقراءاته المتصلة» . فقد عمل مدة طويلة سكرتيراً لدائرة الشؤون الخارجية في الجمهورية الفلورنتية التي من اختصاصها الاشراف على الشؤون الادارية للموظفين والحكام المتمرسين بالوظائف العامة ، في هذه المدن الخاضعة للجمهورية منذ عام ١٥٠٨ ، كما قرى ، في هذه السنة بالذات ، سكرتيرية لجنة « حراس الحرية والسلام العشرة » المعنية بتنظيم شؤون الدفاع عن الحرية والاشراف على سفرائها وممثلها . كذلك عمل في الوقت ذاته ، منذ عام ١٥٠٠ ، سكرتيراً « للجنة الميليشيا التي تتألف من تسعة اعضاء » كما كان ، منذ عام ١٥٠٢ ، المستشار الخاص للحاكم الاول *Gonfalonnier* الذي كان يتولى سلطات رئاسة الجمهورية . جمع مكيافي في شخصه هذه الوظائف المهمة حتى سقوط الجمهورية ، عام ١٥١٢ ، ورجوع آل مديتشي الى حكم المدينة من جديد .

فبعد ان جرت تمحيته عن هذه الوظائف الرئيسية التي كان يضطلع بها ، وفرضت عليه

الاقامة الجبرية في قرية صغيرة تدعى سان كسيانو، انصرف للدرس والتأمل والمطالعة . فقرأ تاريخ تيت ليف وآثار شيشرون التي تبحث في السياسة ، وكتاب السياسة لارسطو ، وكتاب التاريخ لبوليب . وفي عزلة هذه اخذ يهيء لكتابه المشهور : « الامير » الذي انتهى من وضعه عام ١٥١٣ كما انتهى من وضع بحث آخر بعنوان : « خطبة حول المرحلة الاولى من مراحل حياة تيت ليف ». وهدف بوصفه من كبار النافعين في الروح الوطنية في ايطاليا ، الى إنشاء دولة تمثل الشعب الايطالي برمته وتتكلم باسمه وتتولى عنه شؤون الدفاع ومعالجة الشقاء الذي يتسكع فيه .

وأخذ يطيل النظر ملياً في التاريخ كما وصل الينا عبر المؤرخين . « فاذا ما راح الناس يسرون مع التيار عندما تتعلق الامور بادارة الدول ونظام الحكم فيها ، او عندما ينظر في امر تعبئة الجيوش وقضايا الدفاع ، فذلك لانهم لا يفقهون للتاريخ معنى ولا معرفة لهم باصوله كما يجاهلون تماماً اتخاذ العبر منه وتذوق طعم ما يقدم لهم من عظات بالغة (خطبة - جزء ١ ، المقدمة) . ويأخذ مكيفلي باستعراض الاسس التي تبني عليها الدول والدساتير التي تنهض عليها الممالك وتطور وتبلغ اشدها الى ان يمازها الهرم والوهن فتحاول التخلص من الضعف الذي ينخر جسمها فيفت من عضدها فتموت وتزول . واعتمد في دراسته هذه على التاريخ المقارن فأخذ يعارض ، بمنشأ ببعض ، النظم السياسية التي توالى عبر التاريخ على مر السنين وخطر الدور ، كالجهورية الرومانية والجمهوريات الاغريقية ، والمدن - الدول الايطالية التي قامت في عهده وغيرها من الدول الكبرى التي تقع منه في مآسئ العين . وفي هذا السبيل استخدم اسلوب الاستقراء التجريبي ، فعارض النتائج التي يقدمها له التاريخ القديم بالمبر التي يتخذها من المعصور الحديثة ، وذلك على ضوء تجربته في الحكم واضطلاعه بامور السياسة . فهو يولي السياسة جل اهتمامه ، هذه السياسة التي تتحكم بكل شيء وتهمين على كل شيء . وي طرح جانبا ، كل ما يتعلق بالناحية الاقتصادية والاجتماعية . ولما كان جمهورياً في الصميم ، فقد مر مرور الكرام بتجربة الامبراطورية الرومانية وبامبريالة البندقية الاستعمارية .

ولما كان قد وقع تحت تأثير جامعة بادوا واستلهم الكثير من نظرياتها التقدمية ، فقد رأى المجتمعات البشرية تخضع في الصميم ، لناموس التاريخ يعيد نفسه . فالجتمعات البشرية تتبع خطاً سوياً في تطورها الصاعد وتكاملها الملمرد . فالناس يمشون في اول امرهم ، متفرقين ، في عزلة بعضهم عن بعض . ثم يأخذون دفاعاً عن انفسهم ضد الاعداء الذين يتربسون لهم الشر ، ودرءاً منهم للمخاطر والايوثة التي تتهددهم الطييمة بها ، وهي كثر ، يلجون شعنتهم كئسلاً متراصة ، ويجمعون شملهم صفواً واحداً . واذ ذاك ، تطل عليهم مشكلة القيادة ، فيختارون من بينهم من يتولى زعامتهم وتوجيههم : اناساً اشدهاء عرفوا بالشجاعة والأقدام . وبعد ان يطلع عليهم مجتمع متكون ، يراد الازدهان منهم والحواطر قضايا العدل والظلم ، وما يتصل بهذه الاشياء من اخلاقيات وادبيات ؛ فيصدرون شرائعهم وقوانينهم لتنظيم امورهم الحياتية . وفي سبيل العمل

بهذه القوانين وتطبيقها بعدل، يختارون لهم جماعة اتصف اصحابها بمصافة الرأي والحجى وحسن التدبير . وبدلاً من رجال حرب ، يختارون لهم ملكاً يشرع لهم نظاماً ملكياً ، شورى . وما تكاد تمر بضع عقود حتى يشتط الملك فتأخذه الرغبة باستدامة الحكم في ذريته ، فيخرج على الشورى ويحيل نظام الملك نظاماً وراثياً يعمل بده ذي بده ، في سبيل خير المجموع . وبعد لأي من الزمن يتوالى على الحكم فيه بضعة اجيال يأخذ الملك بالتفكير بمصالحه الخاصة ويمضي في استغلال الرعية على ايشع وجه ، ويصبح فيها طاغية جباراً يسميها الواناً من الضغط البغيض في سبيل ابتزاز اموال الناس . واذا ذلك يشمر زعماء الاسر الكبيرة في البلاد عن ساعد الجد وقد التف الشعب حولهم ، فيملنون الثورة ويعتقدون معها النظام الديمقراطي ، فيسير هذا النظام في بده امره ، ونصب عينيه المصلحة العامة ، الا انه لا يلبث حتى يدب اليه الفساد بأسرع مما دب في النظم السياسية الاخرى التي تعاقبت على الدولة ، من قبل ، فيستحيل الى نظام ديماغوجي بغيض يضرب بحقوق الخاصة عرض الحائط . ويسخر الحكام في سبيل اشباع شهوته في الحكم، ويُعرضُ عن المصلحة العامة مؤثراً عليها مصلحته الخاصة ومنفعته الشخصية المباشرة لا يبالي بالمستقبل ولا يلوي على مصير . واذا ذلك ، تطل على الحكم شعوب الدم الحار ينبض قوياً في عروقها ، فلا تلبث ان تستأثر بالامر ، بعد ان تكون طهرت الارض بقوة السلاح ، من هذه الاشباح الخفيفة التي روعت الشعب واقلقت راحته . ولعل الوسيلة الوحيدة لايقاف الانحدار فالانهار المحتوم او أقله لتأخير ساعته ، هي في قيام رجل له من العبقرية الادارية والمقدرة ما يستطيع معه وضع حد للانزلاق القتال وذلك بإنشائه، في البلاد، نظاماً يشترك فيه دعاء الملكية وميثاق الاستوقراطية ونواب عن الشعب . والسبيل الوحيد لرد المقدور والحؤول دون غزو اجنبي للبلاد يأكل فيها الاخضر واليابس ، هو قيام رجل مبدع، خلاق ، يعيد نظام الملكية الى البلاد ، من جديد . وهكذا دواليك .

في هذه الدورة لنظم الحكم في الدول يستعرض لها مكيفلي، لا بد من الوقوف لدى وضعين متميزين ، مختلفين هما : حكومة شرعية ، وحكومة قائمة فعلاً بقوة السلاح . فالحكومة الشرعية ، هي التي تقوم على تراخي او تعاقد ضمني بين الحكام والمحكومين . يترتب على هذا النوع من نظم الحكم ، كما هي الحال في النظام الملكي الفرنسي ، ان يترك للملك ، حق استخدام القوة ، العسكرية والاعتماد على بيت المال في توطيد اسباب الأمن في البلاد . ويجب ان تُسنّ كما هي الحال في فرنسا ، مثلاً ، قوانين تجمل الملكية الشخصية والحرية الفردية بحمى القانون . كذلك يجب ان تقوم هيئة تشريعية ، كمجلس ممثلي البلاد في باريس ، يسهر على احترام تطبيق مضمون هذا العقد بروحه . ويترتب على دين الدولة الرسمي ان يَكِل الى من يعهد اليهم القيام بالخدمة الروحية من الكهنة وخدام الهيكل ، العمل لدى المواطنين لمهلهم على القيام بواجباتهم المدنية خير قيام حتى ولو طلب اليهم بذل دمائهم في سبيل الوطن . وهذه الحقوق السياسية المعترف بها لبعض الهيئات المنتخبة ، يجب ان تكون ممن نصيب فريق من الزوايا البورجوازية

ولا سيما التجار بينهم ، بحيث ، يحال دون الأثراء غير المشروع من قبل البعض فيصبحون بما لهم . نفوذ ، خطراً على النظام . كذلك يتوجب ان تقوم هيئة تتمتع بصلاحيات خاصة يُعهد اليها النظر في الجرائم التي تهدف للمس من الدستور . فاذا ما استهدفت الدولة خطر الوقوع في قبضة احزاب يمحها حل احد انصارها الى الحكم ، كان لا بد لها اذ ذاك من قيام دكتاتور يضطلع بمهمة اصلاح الدولة وفقاً لروح دستور البلاد والقوانين المعمول بها ، فيحدد بصورة واضحة ، طبيعة الدولة ، ويهيء لها الظروف المواتية للعيش السليم الكريم . اما اذا اشتدت المنازعات وتماظم شأن الفوضى واضطرب حبل الامن في الداخل ، ترتب على الهيئات المنتخبة ان تعيد الى البلاد نظام الملكية ، القادر وحده ان يفرض احترام الحريات العامة ويصون حرمة القانون .

اما انظمة الحكم التي قامت على اغتصاب السلطة قسراً وعنوة ، فعلى الملك الا يتورع قط من رد الامور الى نصابها ، مها كلفه الامر من تضحيات عزيزة ، ومها اقتضاه من ثمن غالٍ ، والا اضطرب فيما بعد لمواجهة ما هو ادهى من ذلك . عليه مع هذا ان يحترم حقوق الملكية الفردية وان يحافظ على ما للمرأة من حرمة بين المواطنين . « فالناس يهون عليهم تناسي موت آبائهم واعزازهم ولا يتناسون ضياع املاكهم الموروثة » . من الضروري اصطناع النضيلة والاعتصام بالكر . ثم ، بعد هذا كله ، هل من غضاضة قط ان يعتصم المرء ، عند الاقتضاء ، بالكذب والافتراء والخداع والحث بالقسم المغلظة ، والتجاوز عن الوعد المقطوع ؟ فالفاية وحدهما تبرر الواسطة ، ومنفعة الدولة يجب ان تأتي فوق كل شيء وقبل كل شيء . ومن هنا اخذ الفلاسفة النظريون الذين فلسفوا وضع المجتمع ، في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، فكرة مصلحة الدولة العليا . ومع ذلك ، فعلى الامير ان يعمل بما فيه خير المصلحة العامة ، والا كان طاغية ووجب التخلص منه ولو بالقتل والاعتقال . وهنا اخذ مكيا في يفضل قضية الاعتقال السياسي ويزكياها .

فالعلاقات بين الدول ، سواء اكانت شرعية او حكومات بالقوة وعلى العنف ، سداها المنافسة ولحمتها الحرب . فالحرب وضع طبيعي في المجتمع ، جد نافعة ، اذ تقضي في النهاية ، الى اختيار الافضل بين الدول ، تلك الدولة التي تقوم فيها خير النظم السياسية ، فتعمر طويلاً ، وتكتب لها الغلبة والسيطرة . فالفرس من المجتمعات البشرية هو تأمين ما يُفرضي بها الى تحقيق القوة ، اداة الفتح المثل ، والوسيلة الكبرى للتوسع ، وهي هذه الاهداف بالذات التي يترتب على السياسي ان يضعها دوماً نصب عينيه . فعلى الدولة ان تتصرف بسرعة في حروبها مع الخارج ، وان تعتمد سياسة الهجوم الرادع ، وان تتنكب عن الحياض . يجب ان تتوفر لها مجموعة من القوانين الرشيدة ، اذ ان السلام ، في الداخل ، هو شرط لا بد منه لاعداد وتأمين جيوش قوية . عليها ان تربي في المواطنين ، بطريقة منهجية ، الفضائل الحربية . فعلى رئيس الدولة ان يكون ، دوماً القائد الاعلى للجيش . على الدولة التي تخوض الحرب ان تتنكر لكل عاطفة انسانية ، وان تضرب بعرض الحائط ، الشهور بالرفق والرحمة ، فتحاول جهدها القضاء

على قوى العدو ، بكل الوسائل الممكنة لديها . ان توازن القوى منصوص عنه في العهد والمواثيق المعقودة . وعلى رؤساء الدول الا يتورعوا قط ، والا يترددوا ابداً ، بتجاهل الوعد المقطوع ، وان يلحسوا تواقيمهم اذا ما اقتضتهم مصلحة دولهم ذلك .

وهذه السياسة التي جعل منها مكيافلي علماً باصول ، تعرضت للنقد والتجريح ، ولو عمل بها وتبنى الاخذ بها كثيرون وعملوا بمقتضياتها . فالاسماء والحوادث لا تفوت احداً لكثرتها ووفرتها . وقد جاءت هذه السياسة الجديدة تكمل الذهنية او العقلية الجديدة ، وهذه التيارات الفكرية التي جالت في خواطر الناس ، وهذه الصورة الجديدة التي برزت لهم عن هذا الكون ، وتبلورت ، على أمتها في مظاهر العقل البشري على اختلاف مناحيها ، في الثلث الاول من القرن السادس عشر ، لتنتقل ، في خطوطها الكبرى ، الى اوروبا فتنشر في جميع ارجائها وتسيطر عليها فترة لا تقل عن ثلاثة قرون . وقد تم وضع هذه النظم في القوالب التي استقرت عليها ، على يد الايطالين ، قبل غيرهم ، بعد ان عوّلوا على التليد من تراث التاريخ القديم . فليس من الحماقة ، وليس من الجهالة بشيء ، بعد هذا ، ان نسمي هذا كله النهضة او عصر الانبعاث .

الاضلاع الاجتماعية نرى أنفسنا مسوقين بصورة لا تقاوم ، للخوض بحثاً في الاسباب والمجاري الفكرية الجديدة التي ادت الى ظهور مثل هذه التيارات الفكرية الجديدة . ليس بالمقصود هنا النظر في الحوافز ولا التحري عن الاسباب والدوافع التي أدت الى خلق مثل هذه الازواح . ما من ظاهرة تستطيع ان تكون سبباً لظاهرة اخرى الا اذا سبقتها وتمت قبلها ، وكان لها من التغيير والتبديل ما يتفق تماماً وطبيعة التطور الذي احدثته الظاهرة الثانية ، فجاء تأثيرهما واحداً وتم في الخط ذاته . قلما عثرنا خلال دراستنا للمجتمعات البشرية على حدوث مثل هذا الامر بحيث نستطيع التحدث بمعرفة وفهم عن اسبابه . فالبحث المزعوم عن الاسباب في التاريخ ليس ، في الغالب ، سوى عملية ابدال الاحكام والتصديقات الفلسفية ، كالحكم المثالي الذي يقول بان كل التبدلات انما تصدر عن العقل الانساني الذي يتبدل ويتلون فجأة مع الوقت ، والحكم المادي الذي يقرر ، بمعكس الاول ، ان وسائل الانتاج والصراع الطبقي كان عبر التاريخ المحرك الاول ، والدافع الاكبر . يبقى ان كل هذه الآراء هي احكام عقلية ليس الا .

ولكي نحدد المؤثرات في ايطاليا النهضة ، يجب ان نطبق على الاقتصاد والمجتمعات البشرية والنظم السياسية ، شيئاً شبيهاً بما تم في بعض حقب القرنين الرابع عشر والخامس عشر في الفنون والفلسفة والمعلوم ، هذه المقارنة المنهجية ذاتها ، بشأن هذه الانشاءات والموضوعات التي وقعت خلال العقود ١٤٨٠ - ١٤٩٠ - ١٥٣٠ - ١٥٤٠ . وقد قادتنا هذه العملية الى التأكيد بان عالماً جديداً ظهر في دنيا الافكار والحساسية . وهل يمكن التأكيد ايضاً بأنه أطل كذلك عالم جديد في الاقتصاد والاجتماع والسياسة ؟ نرى معظم المؤرخين الايطالين لا يسلمون فعلاً بهذا القول . فالذين ركزوا منهم اهتمامهم على الجانب الاقتصادي يشكرون ظهور اي طابع أصيـل او اي

تجدد من هذا القبيل ، في الثلث الاول من القرن السادس عشر ، اذ نراهم يعملون انهم لم يعثروا خلال التقصيات التي قاموا بها ، على اي طابع او اسلوب جديد . فها هو النظام الاقتصادي نفسه يستمر على وقيرة واحدة ، مع بعض فوارق كمية لا يؤبه بها . وعلى هذا يجب ان نقيس ايضا السياسة . فالمؤرخون الايطاليون يشمون في فترة واحدة كل هذه الامارات (*signorie*) التي طلعت بين ١٣١٣ او ١٣٤٣ الى ١٥١٦ وحتى الى ١٥٥٩ . وبما انهم تميزوا صفات جديدة واضحة بدت على الفن والعلم ، والصورة الجديدة التي رسموها للعالم ، وجب ان نستنتج ان هنالك فراغاً شاغراً بين هذه النشاطات على اختلاف الوانها والنشاطات الاخرى التي المعنا اليها . هذا شيء له اهميته الخاصة ، اذ ان المؤرخين يعملون على اساس شيء مسكّم به وهو ان النشاطات البشرية المختلفة تتفاعل بعضها ببعض وتنفعل معاً بحيث تؤثر الواحدة بالآخرى . فنحن مع كل هذا امام حدس اولي مسلم به ، تؤيده بعض الوقائع كما تدحضه وتنفيه وقائع اخرى ، من جهة ثانية . قد يكون وقع شيء من الانقطاع وعدم الاستمرار بين المجتمعات البشرية ، الا انه يتعذر ، مع ذلك ، اصدار حكم نهائي حتى في ما يتعلق بايطاليا نفسها ، في مطلع القرن السادس عشر ، اذ ان عملية المقارنة المنهجية هذه بين الاقتصاديات والمجتمع ، والنظم السياسية التي سادت آنذاك ، وبين ما تم منها في الماضي وما طلع منها في العصور التالية ، لم تستكمل عملياتها كل اطرافها .

فكل ما يمكن عمله الآن هو ان نكتفي بتسجيل الوقائع التي يصح اعتبارها ، بصورة معقولة ، ظاهرات رافقت هذا التبدل الحاصل في العقلية واساليب التفكير ، وان نتبين فيما اذا كانت هذه المفارقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي نشاهدها بين الممالك والامارات الايطالية ، لا تم عن تباين وفوارق في مناحي التفكير ، تنبؤ بوجودها ، هذه الانجازات التي تمت وظهرت في مجالات الفن والادب والعلم .

ففي مطلع القرن السادس عشر ، نرى روما تحمل محل فلورنسا وتأسف منها مركز الصدارة في حركة النهضة ، فتصبح محور البحث الفكري والدورق في البلاد . فالعن الروماني والانسان الروماني اصبحا الناذج التي يحتذى حذوها في ايطاليا بأسرها ، كما ان ايطاليا أصبحت بدورها الفرار الذي سارت عليه أوروبا . ومنذ ذلك الحين تصبح روما قبلة الفنانين ، وملقبي الادباء الايطاليين فيمد عليها رفائيل من مدينة اوربين ، وبييرو من البندقية ، وكستقليون من اوربين ايضاً ، وميكالو انجلو من فلورنسا ، بحيث نتكاد لا نرى بينهم فنانين وادباء طلعوا من اوربا نفسها . فما هو سبب توافدهم على مثل هذا النحو يا ترى ؟ لا شك ان الثورات المتكررة التي تضرست بها فلورنسا أدت الى اضعافها وايانها . اما السبب الاول ، فهو ولا مرأه بذلك ، التطور العظيم الذي شهدته الدولة البابوية في عهد آل بورجيا ، مع البابا جول الثاني . من هذه الدولة الحضرية ومن عاصمتها روما ، التي احاط بها من كل صرب ، امرأه مشاغبون وبلديات تسودها الفوضى ، اراد البابوات ، ولاسيما البابا جول الثاني منهم ، ان ينشئوا منها دولة اقليمية

موحدة، مطلقة الحكم، عصرية الطابع. وفي هذا السبيل، قضى البابا جول الثاني صدرأ كبيراً من حبريته يؤدب، داعياً أيام للطاعة والولاء، البسارونات الرومانيين، كما سعى لاستعادة ما اقتزعه من الممتلكات الخاضعة للدولة البابوية، سكان البندقية وميلانو وغيرهم من الامراء المحليين. وفي هذا السبيل، بذل البابا جول الثاني نشاطاً جماً لجعل ايطاليا برمتها وحدة متراسة ضد الاجنبي المحتل المغتصب لخيراتها. وليجمع الايطاليين صفاً واحداً ويوجههم منحدين ضد البرابرة. فشل مسعاه بالطبع ولم ينجح الا باخراج الفرنسيين وتوطيد نفوذ الاسبان، على كره منه. وهذه الجهود الكبيرة والمحاولة الجريئة يبذلها جول الثاني لاعطاء البابوية دوراً وطنياً شاملاً وامبريالياً، انما كانت صورة ناطقة لنشاط عارم وبذل مفضل، يبذلها البابا جول رغبة منه في ان يظهر مظهر السوبرمان، او بطلاً وطنياً. جاشت نفسه بالعظمة فراح يسعى ما وسعته الخيلة لتحقيق الفكرة التي راودت خياله يجعل البابوية الرومانية تبرز روما القديمة، روما المقياصرة، بما تم لها من عظمة وسؤدد ومهابة يضيفها عليها السيد المسيح واثبه على الارض. فهذا الجهد، وهذا البذل، وهذا التعطش للعظمة البشرية، هو من بعض ما جاشت به الافلاطونية الحديثة، التي ميزت هذه النهضة الانسانية الشاملة.

ضرب جول الثاني بتصرفه هذا تقليداً ذهب بعيداً في التقاليد الايطالية. انتقل الى هوميّ الآداب والفنون البابا ليون العاشر الذي عرف، بالعاهدة التي عقدها عام ١٥١٦، ان يبعث نشاط الملكية البابوية في الكنيسة، كما نزعت نفسه الى إقامة الحكم الالهي او حكومة ظل الله.

وفي هذا السبيل، استطاع البابا ان يستخدم كل ما في الدولة البابوية من طاقات وقدرات، هذه الدولة التي تألفت قبل كل شيء من البلاط الذي يضم نحواً من ٧٠٠ شخص، يؤمنون تصحت سلطة البابا الشخصية، المطلقة، الخدمات العامة ومسؤوليات الحكم، بما لها من منظمات وهيئات. فالى جانب اولاد اشقائه واعضاء أسرته، وكتبة سره والموظفين، هنالك طفعة من رجال الدين، والاشراف والفنانين والصناع، دوماً على استعداد كلي لتنفيذ ما يعهد اليهم من مهمات وخدمات وتعليمات. أوليست روما جنة غناء تفيض نعمى وثناء، يقصدها العديد من الاغراب النوابغ، طلباً للعيش الرغيد والثراء السريع، يتعرقون شوقاً لشرف العمل في البلاط البابوي، او تصيداً لامتيازات واعفاءات كنسية في اي صقع من اصقاع الارض؟ والعيش في هذا البلاط عيد دائم. والى هذا، فللكل كوردينال من كرادلة الكنيسة هو الآخر بطانته وحاشيته التي تتألف من عدد كبير من النبلاء والاخصاء والادباء والفنانين. فقد تألفت بطانة الكوردينال فارنيز، حوالي عام ١٥٢٦ - ١٥٢٧ من ٣٠٥ اشخاص، وحاشية الكوردينال سيزاريني من ٢٧٥ شخصاً، والكوردينال اورسيني من ٢٠٠ شخص. كذلك لكل من هؤلاء الميبارونات والاشراف الذين يرأسون مصالح الدولة ودوايرها حاشياتهم العريضة وان لم تكن على مثل هذه الضخامة من الاتباع والحشم والخدم التي توفرت للكرادلة. ومع هذا، فعاشية دو مينيكو مسمى لم تكن لتقل عن ١٧٠ شخصاً، بقطع النظر عن الضيوف الطارئين.

البابا الذي يحكم روما بواسطة الكردينال نائبه ، والذي يؤمن لها الحياة بواسطة بلاطه ، يجد في الرومانيين خير عضد لسياسة العظمة والابهة التي ينهجها . « فالشعب الروماني » هذه الفئة الصغيرة من النبلاء المسجلة اسماؤهم في سجل المجلس العام ، بعد استثناء هؤلاء الاشراف الاقطاعيين القدامى منهم ، يعتبر نفسه الوريث الشرعي لروما القديمة ، ولذا حمل كل عضو من اعضاء مجلسها البلدي « لقب قنصل » ، وعلم الدولة نفسه يحمل هذه الحروف الرمزية : *S. P. Q. R.* التي تختصر العبارة *Senatus Populusque Romanus* اي مجلس الشعب الروماني كما ان الشعب اعتبر دوماً روما « المدينة » *URBS* . فكان بالشعب اجمع يفو للملئ والعظام . والعالم المسيحي نفسه يفنذي هذا الشعور العارم ويزيده تأجيباً واضطراباً . فالهجاج والسياح وكل من جاشت نفسه من الفنانين بالطموح ، يتوافدون على روما التي تعيش على استغلال الوافدين واعتصارهم ، مدينة تحفل بالنبلاء واصحاب الوظائف الكنسية والحدم والحشم ، تكاد العين لا تقع على اي ممثل للبورجوازية بينهم .

والآثار القديمة تمثل جانباً هاماً من الدور الذي تلعبه روما . فهي من اغنى بقاع الله بالآثار والمعاديات ، ومن اوقعتها اثرأ في النفوس طراً . وقد ازداد الاهتمام البالغ بالتنقيب عن هذه الآثار منذ حبرية البابا اسكندر السادس حيث عثر المنقبون في رابية البلاتين ، على « المهرجين » *Grotesques* . وفي عهد البابا جول الثاني قامت حفريات علمية ، منهجية عثر فيها على آثار مثيرة منها تمثال « لاوكون *Laocoon* » و « زهرة » الفاتيكان ، وتمثال كليوباترا . ومنذ ذلك الحين ، اخذ الامراء الكرادلة يحرصون جهدهم ، على تكوين مجموعات أثرية لهم بلغت شهرتها ارجاء اوروبا جمعاء . وفي سنة ١٥٥٥ ، بلغ عدد هذه المجموعات الفنية ٩٥ مجموعة في روما وحدها ، توافد الفنانون من جميع الاطراف ليمتوا الانظار برويتها والتفرج عليها واستلهاهم فاذبحها .

وفي سبيل تقوية سلطانه كملك لدولة اقليمية بدلا من دولة - مدينة ، راح البنايا ينمي موارده المالية ، ويزيد من دخله . « فالرسوم الروحية » التي كان يفرضها على العالم المسيحي خفت مداخيلها جداً منذ الانفصال الكبير (١٣٧٨ - ١٤٢٩) والواردات الرئيسية التي امكن للبابا التمويل عليها ، لم تمد التبرعات التي تجود بها المسيحية جمعاء ، بل واردات الدولة البابوية . ولذا كانت الضرائب المباشرة وغير المباشرة منها تتضاعف باستمرار . واخذ البابوات يعمرون ، اكثر فأكثر ، على الرسوم التي كانوا يستوفونها من بيع وظائف الدولة ومن نظام التمويل النقدي العام . فبيع المناصب الكنسية والاعتماد على اصحاب المصارف ، ثم انشاء نظام *Monti* او القروض العامة موزعة الى حصص او أسهم مالية صغيرة يتحملها رجال المال واصحاب المصارف ، تلك كانت ام الموارد التي كانت تغذي صندوق الدولة البابوية ، الى جانب بعض الاحتكارات الرسمية كاحتكار الملح ، مثلاً والشب المستخرج من مناجم تولفا *Tolfa* الغنية ، الذي كان يستهلك على نطاق واسع كفاصر في صناعات النسيج ، في اوروبا .

الا ان الاعباء الباهظة التي اقتضاها تشييد الابنية الضخمة التي ارتفعت في روما اذذاك، ونصرة الادب وحملة الفن واصحابه ، والدفاع عن المسيحية ضد تهجمات الاثراك وتعدياتهم ، والحد من تمرد اللويزين وعصيانهم الديني ، كل هذه الامور فرضت على الدولة البابوية اعباءً مالية باهظة ارضحتها .

لعبت البندقية ، بعد روما ، الدور الاكبر ، في رعاية الفنون والعلوم والحركة الفكرية ، في جميع ارجاء ايطاليا. فدولة البندقية هي عبارة عن مدينة - دولة ، الدولة المسيطرة قوامها اصلاً ٢٠٠٠ من سراة القوم واشرفهم ، المولودين من زيجات شرعية ، كلهم اعضاء في المجلس الاعلى *Grand Conseil* الذين من بينهم ينتقى معظم الحكام وكبار الموظفين. وهؤلاء الاشراف هم من رجال الاعمال ، تجار ، في الاصل ، نظروا الى الصنائع والمهن الحرة نظرة انتقاص ، ملؤها الهزء والسخرية ، فانزلهم الناس في اوربا ، منزلة النبل والحسب والنسب . فالامراء وعظماة الارض في اوربا جماء ، سوا دوماً ليكونوا اعضاء شرف بين طبقة النبلاء في البندقية . وبالفعل فقد اقتصرت هذه الدولة على عدد اصغر من الرعايا الذين تألفوا من بضع مئات من كبار الاغنياء وأرباب القوم ، سيطروا على الوظائف الكبرى واحتكروها في صلبهم ، بعد ان آمنوا لها منافع مادية سنوية لمن كان دونهم مرتبةً في مصاف النبل. ففي نظر هؤلاء النبلاء ، غير دولتهم جمهورية البندقية ، ان تكون في الذروة من العظمة والفخامة والسلطان، بحيث تفرض احترامها على الطبقة البورجوازية وعلى هذا اللب من سواد الشعب في الداخل ، كما تفرضه على اعداء وخصوم « صاحبة الشوكة » *Sérénissime* في الخارج . من هنا هذه الحفاوة ، وهدونا الاهتمام البالغ الذي احاطت به بجالي الحياة الفكرية والعقلية . فجامعة بادوا اصبحت فعلاً ، جامعة الدولة ، بين اساتذتها اشره وألع اسماء الارستوقراطية في البندقية . ولكن رجال الاعمال ، هؤلاء التجار ذوو التفكير الواقعي ، الشغوفون بالامور العملية ، المهتمون ، قبل كل شيء آخر ، بالقوة والامور المالية ، المعروفون بفتورم الديني ، المتعززون من الكنيسة ورجالها ، الاجذون بالشك والتشكيك ، كانوا اقل اهتماماً بالافلاطونية الحديثة منهم بتعاليم ابن رشد وفلسفة بيبونازي . اما الفن ، فقد نظروا اليه نظرهم الى مصلحة عامة ، الى مرفق من مرفق الدولة يجب ان يذيع عالياً امجاد « صاحبة الشوكة » وقوتها التي لا تقاوم . ومع ان العاملين عندها في حقل الفن جاؤوا من اوربا ، فقد سيطر عليها ، مع ذلك طابع فني خاص ، هو طراز البندقية ، فن الوطن البندقي ، فن يشتمع بالانوار والالوان ، في مدينة البطائح والقياس والرياض . فالرسامون منهم يقتصرون ، في بدء الامر ، على مدينة البندقية ، فيضمون رسوماً متنوعة للدوغا ، ولظواهر الحياة العامة في الاسواق ، والمجازات والمعابر لسفن البندقية وأرصفها . اما في قصر الدوغا ، المجلس المعائدي لسياسة البندقية ، فكنت ترى الدوغا يحاول التوفيق بين البابا والامبراطور بربورسا ، وهو مشهد ، ان دل على شيء ، فعلى دخول البندقية سياسة اوربا العليا ، هذه السياسة التي اتسمت دوماً بالحفاظ على التوازن بين البابا والامبراطور .

ففي السنوات الاولى من القرن السادس عشر ، في هذه الآثار الفنية التي وضعها جيوفاني بليني ، عام ١٥١٦ ، اي في اواخر حياته ، وفي صورة « العاصفة » بريشة جيورجيوني ، وفي صورة « زهرة درسدن » تطل علينا نماذج جديدة ، للانسان المدى الجديد ، الصورة الجديدة ، « صورة المسيح » بريشة لوتيتيان في مدينة بريشيا ، وفي صورة « القيامة » التي وضعها عام ١٥٢٢ ، يطلع علينا رياضي اولمبي كأنه جوبثير طائراً . فالرسامون يعملون على الاخص للخارج ، لفريق من الامراء ، يسكنون على مقربة من البندقية ، امراء آل أستيه ، وامراء آل غونزاغا . ولعل من اخرج الازمنة التي مرت بها البندقية ، هذه الحقبة الواقعة بين ١٥٠٤ - ١٥٣٠ ، هذه الفترة التي تم فيها للبرتغاليين اكتشاف طريق الافاويه والتوابل ، طريق رأس الرجاء الصالح الى الهند . ولكن بعد سنة ١٥٣٠ ، نرى الفن يعود الى التجلي والازدهار من جديد في البندقية ، مع جاكوبو سنوفينو الذي شيده المكتبة المرقسية ، والهيكل الذي اقامه في مدرسة القديس مرقص وقصر كوريز ، ومع الحقبة التي أشع فيها لوتيتيان . فقد عرفت البندقية بالطبع ان تستغل قدوم الفنانين الرومانيين اليها ، وقد توافدوا عليها هرباً من الحصار الذي تعرضت له روما عام ١٥٢٧ ، فجاءها جاكوبو سنوفينو ، عام ١٥٣٠ ، كما جاءها ، لمدة وجيزة ، ميكالو أنجلو ، اثر الهلع الذي نزل بمدينة فلورنسا ، فزود بارشاداته وتعليماته الفنية فريقاً من الفنانين البنادقة . فقد تم للبندقية ان تتغلب على الازمة الاقتصادية التي ألمت بها ، فعرفت كيف تقيد من التوسع الذي طرأ على الاسواق الاوروبية ، فباعت اوروبا من الافاويه ، بقدر ما كانت تباعها من هذه التوابل قبل ان يكتشف فاسكو ده غاما المسالك التجارية الجديدة الى الهند والشرق الاقصى ، بجرأ ، بحيث بلغت صادراتها منها مدينتي روان وأنقرس . كذلك انشأت لها صناعات جديدة . فهي بعد أزمة ١٥٣٠ ، اغنى وافر قوة ، وامنع جانباً ، وأشد بأساً ، واطول باعاً ، منها في اواخر القرن الخامس عشر ، وان كان لحق بنفوذها بعض الغضاضة بعد ان برزت في اوروبا دول لها شأنها . وبما لا شك فيه قط ان البندقية اصبحت بعد السطو الذي تعرضت له روما ، وعلى اثر احتلال ميلانو على يد جيش شارل الخامس ، وفرض الاسبان حمايتهم على فلورنسا ، الدولة الحرة الوحيدة في كل المحاء ايطاليا ، توافد اليها كل من نجوا بانفسهم من الطغيان الاسباني الذي عانت منه المدن الايطالية الأخرى . ويروي لنا شاهد عيان من ذلك العصر : « ان البندقية برزت ، اذ ذلك ، صورة عن الجمهورية الرومانية .. ففي هذا العصر القائم الذي يكتنفه الظلام ، بقيت البندقية وحدها مشعلاً مشعلاً في كل ايطاليا ، والشاعرة الايطالية فكتوريا كولونا تصرح عالياً وتعلن للآل في في احدى منظوماتها الشعرية : « أن أسد القديس مرقص وحده يحافظ ، في كل ايطاليا على الحرية العريضة ، والامبراطورية العادلة » . فهل من عجب ، بعد هذا ، ان يعترى سكان المدينة عاطفة من الزهو وشعور بالمباهاة والافتخر ، وان تجيش في صدورهم هزة شعورية لما تم لمدينتهم من قوة ومنعة وعظمة ، تجلت في هذه الانجازات الفخمة التي تنبض بالعظمة الرومانية .

بعد روما والبندقية ، نرى دوقية فرّاره تلمب ابرز دور ، بين المدن والامارات الايطالية في مجال الآداب والفنون والعلوم . فدولة فرّاره هي الامارة التي آلت مقاليد الحكم فيها الى اسرة أستيه *Este* . فهي عبارة عن مقاطعة صغيرة اقتطعت من ممتلكات الدولة البابوية ، ووقعت ضمن الممتلكات التابعة لمدينة البندقية ، على اليابسة ، فكانت ملتقى الطرقات التي تجتاز سهل بادوا ، هذا السهل الذي اتخذت منه الجيوش الضاربة ممراً لها . فطلوع الدول وبقاؤها مرتبط بالطبع ، الى حد بعيد ، بلعبة سياسية لبقة ، لمتنها سلسلة من المصاهرات ، وسداها توازن القوى بين مملكة البابا والبندقية وميلانو ومنتشوا وحلفائهم في الخارج : كفرنسا واسبانيا والامبراطور . ولكن هذه اللعبة تنقئ ابدأ دونما اثر وتذهب هباءً منثوراً ، اذا لم تضدها قوة عاصدة ، تمثلت على خير وجه وعلى امثل صورة ، في هذه التقنيات الحربية التي عرف امراء أستيه ان يحققوها ، فعملوا منها عدة حربية هي خير ما طلع من امثالها في هذه الحقبة . فقد تم للدون الفونسو الاول (١٥٠٥ - ١٥٣٤) اقوى وادق مدفعية في كل ايطاليا ، حاول الجميع ان يستمينوا بها ويفيدوا من فعاليتها . فليس من عجب والحالة هذه ، ان تكون حرفة السلاح في فرّاره ، خير الحرف وامثل الفنون واجداها . اما الفريق الاجتماعي الذي تحكم بهذه الامارة فقد كان طبقة من النبلاء احترفوا الحرب ، عرف امراء أستيه ان يؤلجوم حولهم ، كما عرفوا ان يستدنوا منهم ، العشرات من الأُسُر والعوائل النبيلة المهتد ، ذات التقاليد العسكرية ، يحلو اعضاؤها عن الريف ليعملوا في بلاط هؤلاء الامراء . وبالإضافة الى هذا كله ، وفد الى فرّاره من جميع اطراف ايطاليا ومن غيرها من الدول الاوروبية ، عدد كبير من فتيان النبلاء يتخرجون في بلاط آل أستيه على مراسم البلاط وشؤون الحرب ، وقد زاد هذا البلاط ألقاً عندما تعين أحد ابناء هذه الامارة ، هو هيبوليت أستيه ، عام ١٤٩٣ ، كردينالاً وله من العمر ١٢ سنة ، فأخذ يؤلب حواليه مجموعة طيبة من الاحبار بين رؤساء أساقفة واساقفة ، فاذا ببلاط الأمير يضم ، عام ١٥١٦ ، اكثر من مائة نبيل يعملون كلهم في خدمته وسبيل مرضاته . وهؤلاء النبلاء المقيمون في البلاط ، هم سمرا ، الأمير ، ملازمون له يعملون في خدمته والنهوض بشؤون الامارة فيجري عليهم الارزاق إقطاعات ككنسية وامتيازات . فاذا ما عرفوا ان يلقوا حظوةً لديه ، نالوا وظائف عالية في الدوقية ، فيرقى بعضهم الى مرتبة قائد في قلعة او حاكم ولاية ، ولن يلبثوا ان يثروا اثناء تفضلهم بمهام الوظيفة ، فيشترون المقارات ويتعاون الاراضي ويسهمون في مشروعات تجارية او مالية مع فريق من اصحاب المصارف ورجال المال والاعمال ويشتركون مع اليهود باعمال الربا ، وهم على اتصال مباشر بالطبقة البورجوازية هذه الطبقة التي كثيراً ما رأوا فيها النور وطلعو من بين صفوفها .

وجامعة فرّاره هي الاداة المثلى بيد امراء أستيه والنبلاء . يتولى تعيين الاساقفة فيها لجنة خاصة تتألف من اثني عشر مستشاراً كلهم من النبلاء ، وتحدد لهم المرتبات والاجور . ازدهرت هذه الجامعة وارتفع لكلية الحقوق فيها اسم وشهرة ، معظم طلابها من ابناء النبلاء كما

اشتهرت مدرسة الفنون فيها . وعلى عكس البندقية راجت فيها التعاليم والمثل الفيثاغورية والافلاطونية . اما رجال البلاط فكانوا يستجيبون بالاحرى ، لشعارات الافلاطونية الحديثة فيما يتعلق بالانسان . كل شي ، يتغنى بأعجاد بلاط فراره . وفي فراره يزدهر على الاخص ، الشعر الفروسي ، كما نرى ذلك جيداً في ملحمة : « رولان الماشق » التي وضعها بويارده ، احد رجال البلاط ، اذ ذاك وحاكم مدينة مودينو ، وهي ملحمة تم وضعها بين ١٤٨٢ - ١٤٩٤ ، ولا سيما في المنظومة الشعرية المعصاة التي وضعها اريوست بعنوان : « رولان الثائر » *Roland furieux* التي ظهرت في نصفها الاول ، في ٢٢ نيسان ١٥١٦ . اما الشاعر ، فكان احد النبلاء التحق ببطانة هيبوليت أستيه ، منذ عام ١٥٠٣ ، كما عمل في بطانة الدوق الفونسو من سنة ١٥١٨ - ١٥٢٣ يتقنى اريوست بمثل البطولة ، كما يتغنى بأعجاد بطل القصة . يبلغ البطل النروة من البطولة عندما يقوم لوحده ، خالي الوفاض من السلاح تقريباً ، بمذبحة مريضة لفرقة المشاة الحظيرة التي تتألف من هؤلاء الصعاليك ، هو هذا البطل الذي لا بد منه في كل جيش ، هو الذي يكفيه أن يمد اليد لينزع الظفر ، والذي يفترق ، وحده ، صفوف العدو مفسحاً لرفاقه مجال العبور من الثغرة التي شقها بين صفوفهم . فجاءت هذه القصيدة الغراء ، كأداة من ادوات النضال ، تويحاً لهذه السلسلة من اعمال الزوال والمصالوة التي كثيراً ما انتهت بانتصار امراء آل أستيه ونبلائهم .

أثر بلاط فراره تأثيراً بالغاً على فن الرسم بنوع خاص ، من خلال هذه الطلبات والتواصي التي عهد بصنعها ، الى الرسامين في البندقية ، بحيث امكن تحقيق ما طالما حلم به هؤلاء الامراء ورجال بطانتهم ، وما راود خيالهم ، الا وهو تمثيل حياة آلهة الاولمب الخالدين ، وهذه الجمالية الدائمة ، هذا الشباب الباقي ، القدرة الكلية ، اللذة التي لا انقطاع لها ولا انقصاص ، هذه الحياة المادية المثل ، الوثنية . وجل ما تمتناه هؤلاء الامراء والنبلاء على الصورين رسمه لهم ، هي صورة الفونسو أستيه في ريعان شبابه الفاض ، صورة لوكريس بوجيا ، وصور كل من زوجته وممشوقته لورا ديانتي . وبعد هذا كله ، هذه المشاهد الوثنية التي تمثل لنا آلهة اليونان القدامى وآلهامهم وهكذا طلب الى الرسام جيوفاني بليني ، في كهولته ، ان يرسم ، عام ١٥١٤ ، لالفونسو أستيه ، صورة حفله من هذه الحفلات التي كانت تقام على شرف الاله باخوس يوم الاحتفال بذكراه . وكثيراً ما تمتنى على زبائنهم ان يرسموا لهم صورة الزهرق تبهرق شهوة ، تحساكي صورة « زهرة درسدن » الشهيرة او صورة « باخوس » و « اريان » و « ديانا » و « ديالوا كتيون » وغير ذلك . وعلى درجة اقل لمجد في دوقية منتوا ، في بلاط آل غوزاغا ، وفي نطاق دوقية اوربين ايضاً ، طلبات على هذا الشكل ، هي ايضاً .

اما فلورنسا ، فقد فقدت ، دونما رجعة ، حق الصدارة ، في هذه الثورة اللاهبة التي نشبت فيها عام ١٤٩٤ ، فاذا بها تصبح صورة باهتة تعكس روما من بيميد . فالآثار الوحيدة التي امتازت بشيء من الاصاله بما ظهر عندها في تلك الحقبة ، هي هذه البحوث السياسية التي

وضمها مكيافلى وغيشاردين . وهذا الوضع الذي صارت اليه وتردّت فيه ، يجب رده بالاحرى الى هذه الاضطرابات التي قامت فيها باستمرار ، والى هذه الازمة الاقتصادية التي اخذت بخناق المدينة في إثر حركة الشعب التي كانت المهرض الاكبر عليها سافونارولا ، والنظام الجمهوري الذي عاشت في ظله حتى سنة ١٥١٢ . وقد جاشت الجمهورية من جهة ثانية بروح لم نجد في كل ابطالها الاخذة باسباب الافلاطونية الحديثة ، من يستطيع التعبير عنها تعبيراً صحيحاً . وعندما راح حاكم المدينة ورئيس جمهوريتها بيرو سوديريني يعهد الى ميكالو انجلو برسم صورة الملك داوود ، كما حلا للجمهوريين في فلورنسا تخيله ، فالراعي الذي برز من بين يديه ، رهزاً لفلورنسا المستضعفة والمهينة الجناح التي لم يفارقه الا بالامل بالاستظهار يوماً على اعدائها بنضل ما رجحت من عون إلهي . فقد رأوا شهباً بالقل ، بين هذه الصورة والصورة الاخرى بريشه فيروكيو . فالعهد ولى وزال ، وراح ميكالو انجلو يضع رسماً لداوود الملك ، بعكس المقصود ، ظهر معه داوود سوبرمان ، اي جاء وفقاً للذهنية المعصر .

ويطل آل مديتشي من جديد مع اعادة الامارة اليهم ، فيشدون من امر هذه الدولة التي تحاول الانتقال من وضع مدينة - دولة الى وضع دولة اقليمية ، موحدة ، ذات نظام مطلق . ولم تلبث فلورنسا ان شعرت بتناقض قبضة الاسبان عليها ، لتقع ، بعد حين ، تحت النفوذ الروماني ، ففارقها كل نشاط فني ، لمدة طويلة ، الى ان اعاد اليها بابوات آل مديتشي ، شيئاً من النشاط ، بفضل ما ارسلوا اليها من مال وفنانين تشبعوا بالمثل الرومانية . ويبدو ان الفلورنتيين فقدوا كل قدرة لهم على الخلق والابداع ، بعد ان فقدوا نعمة الاستقلال التي رتموا فيها .

والظاهر ان ميلانو كانت تحاول ، هي الاخرى في اواخر القرن الخامس عشر السير في النهج الذي جلت فيه روما . ففي عام ١٤٩٠ ، شرع ليوناردو ده فنشي ، في نحت الجواد الخاص بفرنسوا سفورزا . وفي سنة ١٤٩٦ ، اخذ برسم صورة « العشاء السري » ، فجاء عمله هذا لتحديداً ومحاولة جريئة كتب لها ان تعرف الازدهار في روما .

من الغريب جداً ان تقع هذا المحاولة في الوقت الذي اصبح فيه لودوفيك لومور ، بعد ان اقطعه الامبراطور الولاية على هذه الدوقية ، اميراً تابعاً ، من الوجهة الاقطاعية ، للامبراطور ، يعمل بمزول عن كل تدخل من قبل الشعب في شؤون الادارة ، اميراً مطلق السلطنة له حرية التصرف ، حاكماً له كل حقوق الولاية من الآن فصاعداً في هذه الفترة التي بلغت فيها سلطته القمة من القدرة والبطش ، اذ كان يحلو له ان يتبجح قائلاً : بان الامبراطور قائده ، وان البابا كاهنه الخاص يؤمن خدمته الروحية ، وملك فرنسا ساهي بريده ، والبندقية حاجبه . في هذا الوقت بالذات ، ظهرت في بلاط لودوفيك لومور ، اولى المحاولات لهذا الفن الجديد ، فن الرجل السوبرمان ، الفن البطولي .

ومئذ ايلول ١٤٩٩ ، اصبحت ميلانو خاضعة للنفوذ الاجنبي يتوالى على حكمها تبعاً

الفرنسيون والسويسريون والاسبان. ويتلقى ليوناردوود فنشي طلبات فنية من قبل الفرنسيين. واخذ الفن الجديد يطل رويداً ويَمكُن. ولكن منذ عام ١٥٢٥ ، اخذ النفوذ الاسباني يسيطر. غير ان الاسبان كانوا دوماً في عسر مالي ، فرزحت الدوقية تحت وطأة الرسوم والضرائب التي فرضت عليها ، والحروب التي تضرست بها والازمة الاقتصادية التي اخذت بتلابيبها ، فأخذ النبلاء يتجهون بانظارهم وجهة الوظائف العامة . فالدراسات الفقهية ، وحدها ، يبدو عليها طابع الخلق والاصالة ، كما يظهر لنا ذلك من الانجازات الفنية التي وضعها ألسيات (١٤٩٢ - ١٥٦٠) .

بعد الحروب الدامية الطويلة التي وقعت بين امرة أنجو وامرة أراغون (١٣٤٣ - ١٤٤٢) ، استتب الأمر ، في مملكة نابولي ، لنظام حكومي قوامه فريق من البارونات اصحاب الاقطان الواسعة في الريف ، واصحاب الاملاك السيادية الذين كادوا يتمتعون باستقلالهم ومعظمهم يتصرف بسلطات ملكية ، ومن كبار المغامرين من رجال الحرب المعادين للملك وفي عصابات موصول ضده . فالحياة الفكرية اسم بلا مسمى ، لا ظل لها قط . والاراغونيون الذين جاء منهم ملك نابولي منذ سنة ١٤٤٢ ، كانوا قد حاولوا ان يحكموا بالاشراك مع نبلاء مدينة نابولي ، هذه الطبقة الارستوقراطية التي استأثرت بوظائف الدولة فجعلت منها احتكارات تصرفت بها على هواها . وطبقة النبلاء هذه ، كانت تشمر في داخلها انها قريبة جداً من البارونات فاولتهم ثقته وولاءها . ولهذا الاسباب راح فردينان داراغون يبذل جهداً كبيراً ليخلق بورجوازية من رجال الاعمال والصناعة ، وراح الفونس داراغون الذي خرج ، عام ١٤٤٢ ، من هذه الحرب ظافراً ، يدخل على مدينة نابولي الحياة الفكرية ، ويفرضها عليها فرضاً . وهكذا بدت طلوع النهضة الفكرية ، في البلاط ، وأخذت تتطور بسرعة لا سيبا بين الطبقة الارستوقراطية والادارية ، فاصبحت عنصراً قوياً في هذا التيار الجديد ، راحت تفتح للأدب لما رأت فيها من منافع وفوائد جمة . من ابرز رجال النهضة في اواخر القرن الخامس عشر ، في مملكة نابولي : بوتناتوس وجينارو وكاريتايو فكانوا خير من تمثلت فيهم طبقة النبلاء من اصحاب الوظائف الادارية العليا . اما لون الأدب الذي سيطر على البلاط ، اذ ذاك ، فقد كان الشعر ولا سيما الشعر الغرامي . كذلك أطل الفن التشكيلي بعدد وافر من الآثار معظمها من الدرجة الثانية .

ومنذ ١٤٩٤ نرى مملكة نابولي يتحاذيها الفرنسيون والاسبان الذين تمكنوا من الاحتفاظ بها سنة ١٥٠٣ ، واصبحت بين ١٥١٦ - ١٥١٩ ، جزءاً من امبراطورية آل هابسبورج بشخص شارل كانت أو شارل الخامس ، الذي كان يحلم بان يجعل منها اداة طيعة بين يديه في ايطاليا . ومنذ ذلك الحين اصبحت مملكة نابولي خاضعة ، مبدئياً ، لامبراطور يحكم حكماً مطلقاً . وتغلّبت طبقة البارونات على امرها وراحت تتخذ لها ، اكثر فأكثر ، موقفاً سياسياً ، تعد شرفاً لها ان تخلص معه الولاء للامبراطور وان تقوم بخدمة السلاح في جيوشه ، نازعة ، من وراء ذلك ، لتصبح طبقة تجمع بين يديها كبار قادة الجيش وضباطه الاعلى . ونزع البارونات من جهة

ثانية ، للانصار في طبقة نبلاء مدينة نابولي . فلم يكتفوا بأن قدموا الى المدينة وسكنوا فيها ، بل راحوا يبنون لهم فيها صروحاً وقصوراً شاهقة ، واخذوا يسجلون نفوسهم بين *Secliti* سكان نابولي باعتبارهم من نبلاء المدينة وشرفائها . وعلى عكس ذلك تماماً ، رأى الطبقة الارستوقراطية في المدينة ان شرفها يحتم عليها التخلي عن الوظائف الادارية والعيش ، اسوة بطبقة البارونات في البطانة لا يأتون عملاً ما . أما الامبراطور فأخذ يشدد على طبع مملكة نابولي بطابع بلاد مستعمرة ، اذ فكر بان يحمل منها سوقاً لتنفيذ المنتجات الصناعية التي كان ينتجها هذا المصلح الرباعي الذي تكون من جنوى وميلانو وفلورنسا والبندقية ، الذي كان يمد مقاطعات ايطاليا الجنوبية بمحاجاتها من المحاصيل الزراعية والحبوب والزيوت ، والحامات ، وغزول الحرير والصوف الخام . ووضع البلاد تحت تصرف ارباب الاعمال والمال الاغراب من المارت وجنوين ، بعد عام ١٥٢٦ ، وهدر هدرأ الصناعات القائمة في مملكة نابولي فنجم عليها الفقر بسراده . أسبب اخضاع هذه المملكة لاسبان وللامبراطور ، وزوال ملك كان ينعم ، بالامس الغابر ، باستقلاله الناجز ويعيش كريماً مكرماً في بلاطه وبين بطانته وحاشيته ، وهذا التفتت والانسياب ينزل طبقة النبلاء من كبار الموظفين ، اخذت الفنون ، في نابولي بالتأخر والقهرى ، واصيب سكانها بالعمم الفكري ، فيفقدون كل طاقة لهم على الخلق والابداع ، سوى بقية باقية من الشعر الركيك باللاتينية ، والايطالية ، فنجم السكون على نابولي ؟

وهكذا وفي مثل هذه الظروف والارضاع المؤاتية لطلوع آثار فكرية جديدة ، نجد دولاً مستقلة ، سيدة امرها ، تنزع للحكم المطلق والسيطرة الامبريالية ، دولاً - مدينة ، تطمح في ان تصبح دولاً اقليمية ، وامراء ذوي نزعة ظاهرة للحكم المطلق لهم بطانات يتألف بعضها من نبلاء بيدهم الادارة يؤلفون طبقة وسطى بين طبقة النبلاء الاقطاعيين وبين الطبقة البورجوازية ، دولاً بمقدورها ان تؤمن لذاتها موارد مهمة بالامكان إنماءها وتضعيفها باقامة علاقات لها مع الخارج ، واستدراج النقد عن طريق المصارف والاعمال التجارية الضخمة وتسهيل معاملات الترانزيت ، والسياحة والمغامرات الحربية ومحريك الكفاءات وتشجيعها ، دولاً تقوم الفئات الحاكمة فيها بمختلف النشاطات السياسية ، والاجتماعية ، تنطلق كلها من الاعمال الفكرية والروحية .

وهذه الصورة التقريبية التي نرسمها نستطيع ان ندين الخطوط الكبرى لهذا النهج الواجب انتهاجه في تحديد الوظائف والخدمات المنوطة بهذه المنظمات الفكرية التي أطالت علينا ، وهو لمعري نهج 'عمل به باستمرار' ، نهج يتصل اتصالاً صميماً بالعقل البشري ، هو اسلوب المقارنة للكشف عن النظم الجديدة . وفي هذا السبيل نستعين كذلك بالاحصاء والمقايسة ، اذ لا يمكن ان نحصل على معلومات دقيقة ما لم نقم بعمليات احصاء وقياسات ؛ ولا يمكن ان نطمع بالمعلم ونطمع بالحصول عليه الا اذا توصلنا للكشف عن المعادلات الرياضية . فالتقنيات والعالم

الاساسية توفر لنا ، و ايم الحق عدداً متزايداً من الاجهزة والاعتدة الحاسبة والكاشفة وبينها ما يصلح تماماً للكشف عن آثار الماضي ومخلفاته الباقية .

هذه الرؤى الجديدة التي تبينها للكون والفضاء والانسان بدت على الوان واشكال . فالصورة الافلاطونية الحديثة الكلاسيكية تركت كثيراً لجهد الانسان الحر في سيره نحو الله . ان ما تعرضت له روما عام ١٥٢٢ من اعمال النهب والاستباحة ، وبسط اسبانيا سيطرتها على ايطاليا مع الامبراطور شارل الخامس ، والدفع الذي انطلق من هذه الدول الرئيسية النازعة للوحدة والحكم المطلق مع ما تحبسه من ارهاق وارهاس للفرد ، كل ذلك وما إليه ، ساعد كثيراً على تبيين الحدود التي تحد من هذه المثالية وعلى لفت النظر ، اكثر فاكثراً ، الى ما يرسف به الانسان ، بعد ، من ضعف وعبودية ، هذا الانسان الصعلوك المتصيد الذي افتداه السيد المسيح باذلا حياته لاجله حتى عذاب الصلب . وميكالو انجلو ، هذا الافلاطوني الحديث الأتم ، كما تبدى لنا من خلال هذه الزخارف والنقوش الجدارية التي حلتى بها الكنيسة السكستينية ، والذي سيبقى دوماً هذا الافلاطوني الذي كان ، عرف ان يتجاوز بعيداً مثل الافلاطونية الحديثة ويتعداها ، اذ شدد ، اكثر فاكثراً ، على السيد المسيح ، وعلى سر فداء المسيح الذي به تبرر الإنسان . ان صورة الدينونة الاخيرة (١٥٣٣ - ١٥٤١) ، ترينا منجرفة مع دوامة الحركة الكوبرنيكية ، دائرة حول يسوع وقد ظهر بمظهر جوبيتر الصاعق ، هذه البشرية الصاخبة اللاهية الجبارة ، المتكونة من صيادين برح بهم القلق كل مبرح ، يقفون متوسلين ، مع الرسل والقديسين ، وربما العذراء مريم نفسها . والرسام لوقيتيان ، يدع جانباً المسيح الهادي ، الظافر ، ليضع تحت انظارنا التحفة الرائعة : « هوذا الرجل » التي وضعها عام ١٦٤٢ ، وقد استعان بالحركة العاصفة تلف هذه الجماهير المهتاجة ، الجياشة بالحقق والبفضاء ، تتألب على السيد المسيح ، الاله المتجسد ، الذي يرزح تحت ضغط الامبراطورية العاتية وتحت هيجان الجماهير المزمجرة ، يكفر عن خطايا البشر . وفي قبة كاتدرائية القديس بطرس في روما التي اعتيَضَ بها عن تلك التي خطط لها برامنت ، نرى ميكالو انجلو يحتفظ بالصيغ والاشكال ذاتها التي ظهرت في الدور الاول من النهضة الا انه 'يمط' في القبة باضافة التضليع ، بعد ان ركب ، في الاسفل ، مصباحاً شفافاً . وهكذا يربطنا ، من فوق الاجيال ، بالطراز الفني القوطي الذي يرمز الى اندفاع المسيحي المتحمس ، وقد شعر بضعفه متجهماً نحو الله مخلصه . فقبة ميكالو انجلو ، لم تعد تظهر كأنها تاج ، بل هي تسبح و « تطير » . فهذه الجماهير ، وهذه التجاوزات المغالية ، وهذه الاندفاعية . والمفارقات والمتناقضات ، كل هذا انما يدل على ان الناس ينزعون الى نقطة من نقطتي التوازن التي سيحوم حولها الفكر البشري ، لمدة قرون ، متأرجحاً بين هذه الانظمة الاساسية : الاتباعية الكلاسيكية ، وبين الغريب الشاذ .

الفصل الثاني

المجتمعات الدينية الجديدة

محاولات الاصلاح

الناس في هذا العصر يمشون عرفاً وقانوناً في عالم مسيحي تنقضي ايامهم حفاف الشمور الديني وفقاً لتقويم وتوقيت ومراسم دينية واعراف معينة . فمحاكم القضاء لا تستأنف جلساتها في الثالث عشر من تشرين الثاني بل في اليوم التالي لعيد السيد القديس مرتينوس ، و ايام العمل القصيرة ، لا تبتدىء ، عند اصحاب الحرف في التاسع من تشرين الاول ، بل في اليوم الذي يقع فيه عيد القديس ريمي . ونقابات اصحاب الحرف تعطل ٦٠ يوماً في السنة ، ما عدا ايام الآحاد . ويطرح من ايام العمل يوم السبت وبرامون الاعياد الكبرى لتستعمل في الاستعداد للاحتفالات الدينية التي تقام في اليوم التالي . والجامعات تجري الامتحانات ، في صحن الكنيسة على انغام الارغن ، في هذه الفترة بالذات التي تقع بين القديس وفعل الشكر . وكتب التعليم والنصوص المدرسية ، تبتدىء دوماً بالمباركة التالية : « لمد الله الخالق ومسرته » . والرصايا الارثية تحمل الترويسة : « باسم الثالث الاقدس غير المنفصل » . وكوز شراب التفاح أو النبيذ على المائدة يحمل في محل بارز منه الجملة التالية : « فكر بالموت ايها المسكين الغني » . وفي اخريات القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر ، يفتش الارض ، وقد تكاثرت عدد السكان ، العديد من الكنائس والمعابد والمزارات الدينية القائمة منفردة عند بعض عطفات الطرقات . كذلك يطل علينا فيض من الكتب التقوية : ككتاب القديس والفرض وكتب عجائب العذراء والقديسين وكتاب الصلوات ، وكلمات يسوع الخالدة ، وكتب السواعيات ، وافراح السيد المسيح بعدد لا يحصى من النسخ .

غير ان هذه الروح الدينية المتأصلة في النفوس المخلصه الصادقة تبقى مظهرأ جامداً من هذه المظاهر التي ارتقدتها او تكشفت عنها طقوس العبادة والاحتفالات الدينية . فالنفوس لم تكن

لتميش هذه الطقوس في صميم حياتها الداخلية، ولا أثر لها في أعمال الناس وتصرفاتهم وسكناتهم وحركاتهم ، اذ الكل غافل ، لاه عماله طابع مكرس او مقدس . فيتجاهلون هذا كله ولا تتنزى ماجريات الحياة اليومية بشيء من العاطفة الدينية . قد يكون سبب هذا الوضع الحاجة الشديدة الى رجال الدين وخدام الكنائس الفيورين . كم من الكهنة والعاملين في خدمة الدين والنفوس ، زرعوا الشك والتشكك في النفوس لعدم امتثالهم للطاعة المتوجبة عليهم نحو الكنيسة ولرؤسائهم ، ولفظاظه تصرفاتهم المقيته . فكهنة كاتدرائية نوتردام القانونيون ، في باريس يتبجحون انهم معفون من الخضوع للسلطة القانونية التي يتبعون لها . اي لرئيس اساقفة سانس ، المطران تريستان ده سالازار . وبتاريخ الثاني من شباط ١٤٩٢ ، بعد ان فرغ رئيس الاساقفة من الاحتفال بالقداس بحضور الملك شارل الثامن ، وبينما هو يهيم في الانصراف وهو يبارك الشعب يتقدمه الصليب ، اذ بكاهنين قانونيين ، ينقضان على حامل الصليب وعلى شماسه المطران يشبعانهم لكما وضرباً ، زاعمين ان الاسقف خفض من جانبها وحط من قدرها وانتقص من كرامتها اثناء قيامه بالطقوس الدينية ، ثم يأخذان بشعر احد خدام المطران ، وعندما هم الاسقف بالتدخل في الامر . لكه احدهما في بطنه ، بينما نزع الثاني قبعته الاسقفية وطرحها ارضاً . ولم يكن من النادر قط وقوع حوادث من هذا النوع .

وهذا الفتور الديني كان الطابع الذي ميز ، على الاجمال ، رجال الدين ، اذ كان مهمم ، في الدرجة الاولى ، السهر على مصالح المادية . وجماعة الكهنة القانونيين في كنيسة نوتردام ، كانت تنتخب اعضاءها من بين الطبقة العليا في البورجوازية ، وبين طبقة الاشراف . كما كانت تنتقيهم من بين مشاهير رجال اللاهوت والحق القانوني . وكان يهيم ان يشر الناس بانها مهمة بادارة املاك الكنيسة ، وانها تحرص على الدفاع عن حقوقها وامتيازاتها . فلا عجب ان يحذو حذوها كهنة الرعايا في باريس . وعلى هذا قس رجال الاكليروس في المدن الواقعة في الاوساط الريفية الذين كان يهيمهم ، في الدرجة الاولى ، تأمين مصالحهم المادية ، واستيفاء الرسوم المعاندة لهم وتحصيل التذور .

اما الكهنة المكلفون بخدمة الرعويات في الارياف ، وهم على الغالب من ابناء القرويين الطيبين ، فكانوا يقومون بالخدمة الروحية . فقد كانت مرتباتهم ضئلي للغاية تكاد لا تقوم بأوادم لو لم يكن يردمهم من عوائد الخدمة الروحية شيء زهيد . ولذا وجدوا انفسهم في جدال مستمر واختلاف مزمن مع ملتزم الوقف لعلهم يتلون منه بعض درجيات ، بما كانوا يدخلون مع رعاياهم في مجادلات لا تنتهي حول حقوقهم المكتسبة بضمير من الحصيد او اجرة قداس ، او الرسوم المستحقة لهم من عقود الزواج والقيام بمراسم العهاد والجنائز . فلا عجب ، ان نراهم يديرون ، احياناً ، بمساعدة احد اعضاء الاسرة ، دكاناً او نزلاً صغيراً ، او يقبلون بوظيفة « خولي » عند احد نبلاء المقاطعة او كبار الاقطاعيين فيها ، يؤمنون له جباية الرسوم المتوجبة على المزارعين والمرايعين وهم ، في ذلك كله ، حريصون على الاخذ بالاعراف والمادات

المرعية ، يحافظون عليها ويستمسكون بها بشدة ، فيتلهون احياناً باللعب والنرد كما اعتادوا معاقرة الخمر ، وكثيراً ما استعملوا سواعدهم ، وكالوا اللكم والضرب و احياناً استعمال الدبوس والنبوت ، كما كانوا يجيدون ترغيب ربات البيوت بالرقص ايام الاعياد .

من يدقق في السجلات الرسمية والصكوك والوثائق والاضابير الكنسية ، اذ ذاك ، تعتز به الدهشة لكثرة ما تقع منه العين على الدعاوى والقضايا المقامة على رجال الدين لاخلابهم الفاسدة وتصرفاتهم السيئة . فالسكر والمريدة يأتي في مقدمة هذه الموبقات . وضرب السكين والخنجر لم يكن نادراً قط . وكمن الاحكام صدرت على كهنة او رجال من الاكليروس لاستخدامهم فتيات او شابات مشكوك بفضائلهن ! أفلم يحكم على مدير مدرسة ثانوية تابعة لبلدية باريس بالسرقة ؟

والرهبان لم يكن وضعهم باحسن حال من وضع الكهنة العلمانيين اذ كثيراً ما نراهم يتركون الحياة والمعيشة المشتركة ، ويتحللون تماماً من عادة تناول الطعام او النوم في قاعات مشتركة ، المترتبة عليهم ، فاصبح لكل منهم حجرة خاصة يستقبل فيها الراهب ، دوغما حسيب او رقيب . اصدقاءه واقاربه . ونذر الفقر ، والاحوال المشتركة ، كل هذا وما اليه ، اصبح اثراً بعد عين . لكل راهب كيسه الخاص ومدخراته الخاصة وحاجياته المنزلية الخاصة . وحياة العزلة والانفراد . في الدير ، لم يبق من يكثرث لها . هنالك رهبان يقطمون اوقات فراغهم يتمخضرون في الازقة والشوارع ، او الساحات العامة ، او يتلهون بالتفرج على اعمال المخرقين ، او البصصة عى بنات الهوى . والراهبات كم اثرن من الشكوك حولهن بما آتين من فظاظات ومويقات ؟

هذا الوصف لا يقتصر على ناحية أو منطقة خاصة فهو يطبق على جميع انحاء اوربا المسيحية .

الوضع العام - الفلسفة والدين
هذا الوضع الذي تسكع فيه الاكليروس وبعض رجال الدين ، يجب رده ، في كثير من مظاهره ، لأسباب سياسية ، فقد احتفظ ، البابا ، في اماكن وحالات كثيرة ، بحق اختيار المطارنة وتعيين الاساقفة واصحاب الوظائف الكنسية . وكثيراً ما وقع اختياره لملء هذه المراكز والوظائف على ايطاليين او اناس خبراء قد يكونون احياناً ، خليقين بكل تقدير واحترام ، كما كانت هذه الوظائف والمراتب تذهب لمن يتقدم من الادارة الرومانية ، بأحسن الاسعار ، أو لمن يتنازل بعضهم لهم عما ينعمون به من اعفاءات وامتيازات لقاء مبالغ طائلة . وكثيراً ما كان اصحاب هذه الوظائف لا يستقرون في مراكز وظائفهم ، فتبقى هذه المراكز من اسقفيات واديار ، بلا رئيس أو مدبّر ، ولا ادارة ، فتذهب امورها و وارداتها فريسة للفوضى ، يستغلها من أوتي الحدق والشطارة . وكان من حق الملوك وبعض الامراء ان يعينوا ، هم أيضاً ، اساقفة ورؤساء اديار ، كما انهم كثيراً ما تدخلوا في عملية انتخاب المرشحين لملء هذه الوظائف ، لمصلحة المرشحين من

رجالهم وازلامهم وخاصتهم ، أو من لقوا حظوة عندهم ، وهم في غالب الاحيان من رجال بطانتهم أو من عمال الملك أو الامير من عهد اليهم تدير الامور المتعلقة بإدارتهم أو مصالحهم ، فاذا بهذا الفريق من أصحاب الحظوظ ، من كبار رجال الدين دون أن يأنسوا بأي ميل أو نزعة داخلية ، لهذه الخدمة ، أو أن يسيأوا لها بشكل من الاشكال . وهكذا أخذنا نرى أساقفة ورؤساء أديار يحسنون امور الدنيا ، ينهجون في عيشتهم نهج الامراء فينصرفون لاعمال الصيد والقنص ، ويستسلمون للهو والقصف ولصيد الغواني ، أو يكونون من نصراء العلم والفنون فيؤلبون حولهم الابداء والفنانين والشعراء . اما نظرتهم الى ما تحت إياهم من مطرانيات واسقفيات وديارات ، فنظرتهم الى اقطاعات وموارد رزق يجب ان تدر عليهم الاعطيات والمداخيل الطيبة والثراء الوافر ، لا يهمهم قط ان يكثر فيها أو أن يقيموا بين ظهرانيها أو ان يقوموا بما تقتضيه الواجبات الدينية التي يضطلعون بها من وعظ وارشاد ، وتعلم الدين المسيحي ، واعداد كهنة لائقين وخدمة للهيكل محترمين ، والحفاظ على الآداب والأخلاق الكنسية .

لهذا الفتور في الدين ، ولهذا النشور في الاخلاق في من يجب ان يكونوا حفاظاً عليها ومثالاً يحتذى بها ، يمكن ان نجد اسباباً أعمق وابعد تكن في سيطرة الفلسفة الاسمية وتحكمها اذ ذلك ، بعد او كهام ، في العقول والاذهان . فاذا ما أخذنا باقوال الفلسفة الواقعية ، اصبحت العقائد المسيحية ، لا اقول ، اوضح واظهر ، اذ انها سلسلة من الاسرار المغلقة ، الغامضة ، متصلة الحلقات ، أوحى بها الله تعالى ، وكشف عنها هو نفسه ، بل امتست هذه العقائد أكثر قابلية للتفهم والافهام ، اقله من الوجوه المجازية او الرمزية . فقد اصبح لله مفهوماً او مدلولاً يستطيع الفهم البشري محاولة تفهمه ، ولو بصورة مجتزأة ، غير كاملة انما اكيدة ، ثابتة . وبما ان نفس الانسان ، لا مادية هي ، وتستطيع ان تفهم « الكليات » بثقة ، اصبح في مقدورها ، اذ ذلك ، ان تستخلص مما في هذه الكليات من حقائق اولية عدداً من المفاهيم والمدلولات المسلسلة ، المترابطة ، منها مثلاً : مفهوم اللامتناهي ، ومفهوم العلم الكلي ، ومفهوم الجوهر او الذات الكلي ، وغير ذلك . فاذا ما استعانت افهامنا بالمجاز ، استطاعت ان تصل الى مفهوم لله : الكائن الخالد ، الازلي ، السرمدى ، اللامتناهي ، المالى الكلى ، الكلى القدرة الكلى العلم ، الكامل .

كذلك في مقدورنا الآن ان نعرف معرفة مرضية ، لماذا كل الناس يولدون ملطخين بالخطيئة الاصلية ، خطيئة ابيهم آدم ، لان ما لطخه آدم في ذاته ، هو المفهوم العام للانسان ، هو الجنس البشري ، الانسانية جمعاء ، هذه الانسانية التي احتواها كاملة كما يحتويها كل انسان ، ومنذ ذلك الحين فصاعداً كل الناس يحملون في ذواتهم هذه اللطخة او اللوثة ، لانهم يحملون في ذواتهم المفهوم العام للانسان .

وعلى هذه ، قس ايضاً ، الاستعالة . فعلى المسيحي ان يؤمن انه عندما يلفظ الكاهن ، على

الخبز والخمر ، الكلمات ذاتها التي قالها السيد المسيح في عشائه السري الأخير : « هذا هو جسدي » ، هذا هو دمي » ، فالمسيح يحل فعلاً وحقيقة في القربان ويوجد فيه تحت الاعراض الحسية . وهناك ما هو اكثر من ذلك . فتحت هذه الاعراض ، تحت ظواهر الخبز والخمر ، يوجد بالفعل جوهر جسد المسيح ودمه ، مع بقاء الاعراض الحسية على ما هي من مظهر ملموس . والى هذا ، فالمسيح يجلس ، بمجد ، على عرشه السماوي بعد قيامته وصعوده ، عن يمين الله الآب . نحن امام سبعة من الاسرار المطبقة ، وهي ، مع ذلك ، اسرار يمكن تفهيمها اذا تصورنا ان ما هو موجود في الوقت ذاته في السماء وفي هذه البرشانات التي لاحد لها ، منتشرة بين اطراف العالم اجمع ، ليس جسداً او جسماً خاصاً ، بل جوهر الجسد ، اي المفهوم العام لنوع الجسد ، متحيز وقائم في عدد لا يحصى من الافراد ، يمكن ان يوجد تحت اعراض مشتركة مع جواهر اخرى . كل هذا ليس بالواضح قط ، ولا بالجلي . فن غير المعقول والقبول ان ما يخص الله الخالق ، القادر على كل شيء ، يستطيع الانسان ان يفهمه او يدركه ، هذا الانسان المخلق ، العاجز المستضعف ، يبدو على الاقل ، ان هنالك تعليلاً او تفسيراً ، مع العلم ان الايمان ، اذا لم يكن تحت الفهم ، فهو لا يصدمه .

وعلى عكس ذلك ، فاذا ما تجاهلنا الفلسفة الاسمية ، واذا ما انكرنا وجود فكرة الكلي ، واذا لم يبق لنا سوى رموز مادية تخفي وراها حقيقة صعبة المنال ، عدمنا كل وسيلة تساعدنا على تقريب الدين من أفهامنا . فكيف نستطيع ان نفهم او ندرك سر استحالة الخبز والخمر الى جسد ودم السيد المسيح ؟ هذا شيء محال . فالامر يعني في نظر اصحاب الفلسفة الاسمية ، ان جسد المسيح مع ما له من محسوسية وتحيز ، يحل محل الخبز المحسوس المتحيز ، دون ان تتغير منه الاعراض . هذا شيء مصاد للعقل ، منافٍ للمنطق فكيف لنا ان نفهم الخطيئة الأصلية ؟ هذا شيء غير ممكن . فاذا لم يكن سوى افراد نسهم بهذه العلاقة او الاسم : الانسان ، فاي مسؤولية علينا من خطيئة فرد ، هذا الفرد المسمى آدم ؟ ، أو ليس من الحيف والظلم ان نؤخذ بجريرته هو ؟ فكيف نفهم الله ؟ . هذا شيء محال . نحن ندرك الاشياء بواسطة هذه الاحكام العقلية التي نجربها على معطيات الحواس . وهذه العمليات الفكرية لا تقضي بنا الى تجريدات سهلة ، ليست بالفعل سوى علامات مادية تشير الى شيء لا يرى ، خفي ، لا يمكن ادراكه او تفهمه ، فكيف نستطيع ، مع ذلك ، الصعود او الارتفاع من الاشياء المحسوسة الى الله ؟ فكل حقائق الايمان تستحيل احاجي والغازأ لا تدرك ولا لها حل بالنظر للفلسفة الاسمية .

فكانت على اتباع هذه الفلسفة وعلى الآخذين بمقالتها ان يفصلوا او يقطعوا بين العقل والدين ، وبين التصريح بوجود الايمان والاعتقاد ببناء لتعاليم الكنيسة وشهادتها ، القيمة على الكتب المقدسة والمفسرة لها ، وتبني الاقوال والاعمال التي تفرض الكتب المقدسة والكنيسة معاً ، ترددها والقول بها دون اي امل قط بان نفهم يوماً ، او نصل الى الله ، الله المحتجب عن كل حقيقة اخرى واكثر من اي حقيقة اخرى ، وراء حجب لا يمكن شقها والنفوذ منها . ولكن

ماذا يبقى من الدين ، بعد هذا ، في نظر الكثيرين من الكهنة والمؤمنين ؟ سلسلة من الطقوس الآلية والصلوات الشفهية ومزامير ، واصطلاحات وعبارات بردها آلياً ، ميكانيكياً ، ونحن موقنون . عن طيب نية وحسن قصد ، ان لهذه الرموز قيمة في ذاتها ، دون اي اكرثات او اهتمام بوجود اله لا يُدرك ، ودون ان نحبي او نعيش هذه الحقائق الايمانية في نفوسنا ، ودون ان تحمل معها شيئاً الى القلب ، ودون ان تحرك منا النفس او ان تصبح حافظاً لنا على العيش والحياة عيشاً وحياء مسيحية حقة . فالديانة اصبحت جافة ، يابسة ، جامدة ، كما اصبحت النفوس شبه ميتة .

روح الاملاح
كان هنالك جماعة استحال عليها قبول هذا الوضع او تعذر عليهم النقاش معه ، قوم تحسسوا في دواخلهم ، الحاجة الى حياة اسمي تتمثل في الحب الروحاني ، هفت نفوسهم ترقوا الى هذه العذوبة السهاوية التي تلف النفس لفاً والى هذا الفيض من الحب الروحي الجياش . وراح هذا الفريق من المتصوفة والانسانيين يحاولون الوصول الى الله بالرغم من هذه الصعاب التي لاثرتها امامهم الفلسفة الاسمية . وهذا الجهد الجاهد ، وهذا الشوق المبرح تمثل على احسن ما يكون ، في هذه المحاولات التي تمت للقيام باصلاح ديني ، جذري ، كان المطلب الاكبر والقصد الاعظم الذي جاشت به نفوس الجميع ، اذ ذاك . وقد بدت للجميع الأخطار التي تهدد الكنيسة بشر مستطير . وكان الناس يرددون ما يسمعون من حكاية ظهور علامات وامرات لا يمكن ان تخدع احداً لما علقوا عليها من دلالة . أفلم يشاهد الناس يوماً ، عام ١٤٩٩ ، ثلاث شمس ظهرت معاً وفي وقت واحد ، كما شاهدوا في احدى الليالي ، ثلاثة اقمار معاً ؟ أفلم تمطر السماء دماً ؟ وفي بلاد الاغريق ، أم يشاهد الناس ، سيوفاً نارية تتلألأ في القبة الزرقاء ؟ وفي ٢٩ حزيران ، ألم تستط الصاعقة ، نار السماء ، على الفاتيكان نفسه ؟ والبابا اسكندر السادس ألم يقع ويشج رأسه . كل هذه الغرائب علائم تنذر بشر مستطير ، كما يحلو لجان اوتون ان يعلق عليها شارحاً ، متيقظاً في كتابه : « تاريخ ولاية الملك لويس الثاني عشر » . « هكذا بدا حال الراعي الصالح وعلى هذا الشكل كان وضعه ؛ افلا يكون ذلك نذيراً بتشتت الغنم او بما سيستهدف له القطيع من مآسي واضطهادات ؟ » ومن جهة ثانية فقد تطورت قوة الانسان المادية تطوراً مخيفاً . فقد استطاع الملك شارل الثامن ان يدك ، بما تم له من مدفعية ، قوية ، القلاع والحصون الايطالية . وهذه القوة الهدامة هل يجوز للانسان استخدامها للشر والحرب ؟ كذلك ، ان الفتور الديني الذي سيطر على الانسان ، واندفاع الناس وراء البذخ واشباع شهواتهم ، وهذه المرطقات التي طلعت على الناس فمزقتهم كل ممزق ، كفلسفة ابن رشد ، تملأ القلب خوفاً وهلمأ . والى هذا ، راح الناس يتحدثون عن بلاد اصحابها كفترة ، تقع ما وراء المحيطات ، يجب حمل بشارة الانجيل اليها .

لوفيفر ديتابل
ففي هذه الظروف بالذات ، وفي مثل هذا الجو العابق بمثل هذه الهواجس والاضغاث ، وفي مثل هذه الذهنيات التي عشعشت فيها مثل هذه الترهات ،

طلعت علينا ، في غرة القرن السادس عشر ، المثلث التي جاش بها الفارس المسيحي - جندي المسيح *Miles Christi* ، المستعد دوماً للجهاد الروحي . عدته المثلث ، الصلاة وهذه الانسانية التي صقلتها ثقافة العصر ، وكل العلوم التي خلفتها لنا العصور الخوالي ، بعد ان تُفِض عنها غبار النسيان وارتكضت في جنباتها الحياة ناشطة زاخرة ، وفوق هذا كله روح الله الحقّة . ولكي يتوفر لهذا الفارس المسيحي ما يلزم من عدة وعتاد في ما اخذ به النفس من مجاهدة ، قام الفرنسي لوفيفر ديتابل ، المولود عام ١٥٤٠ ، وأحد اساتذة كلية الكردينال لوموان ، يبحث ويتحرّى عن هذه الفِكر والافكار القديمة التي جاء بها كل من ارسطو وافلاطون والمتصوفون . فقد حاول الافلات او التملص من هذا الطوق ، من هذه البراهين والاقيسة الدقيقة ، التي طلعت بها الفلسفة الاسمية . فقد جاء في المقدمة التي وطأ بها لكتابة « المدخل الى المنطق » المنشور عام ١٤٩٦ ، بالحرف الواحد : « تَبَيَّنَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ انَّ الحَدِثِيَّاتِ ، وهذه الاستقراءات والحصرات ، والاستثناءات والمجازات والالغاز ، التي لا حل لها ، كلها امور لا طائل تحتها ، ولا خير منها ولا فائدة لها ، تكاد لا يؤبه لها ، وان الاحكام التي تبني عليها لا تمت بصلة قط للمنطق الحقيقي او الفلسفة الحقّة » . يجب ان نكف عن اقتطاع بعض نتف من ارسطو والاجتزاء ببعض مختارات او مقتطفات من آثاره لنتخذ منها دون النص الكامل ، اساساً لنظام او مذهب فلسفي . علينا ان نطالع هذه الآثار مطالعة كاملة وان نقرأها قراءة تدبر وتفهم ، بنصها وفصها ، وان نستخلص منها المعنى الحرفي ، قبل كل شيء . ان مؤلفات ارسطو وافلاطون هي خير الوسائل التي تقضي بنا عن طريق تفهم الاشياء الواهية والزائلة في هذا العالم الحسي ، الى الامور الالهية . فالله عز وعلا ، اقام من هؤلاء الفلاسفة ، كهنة له وجعل منهم انبياء وجعل منهم مشاعل تهدينا الصراط القويم . لا شك بان الله الذي ينير كل انسان وارد الى هذا العالم ، لم يكن بعد ، أعلن ذاته للبشر ، انما أطلّ عليهم من عليائه لانه النور الساطع الذي لا حد لاشعاعه ولا نهاية ، والذي تضيء انواره الاجيال كلها . فاذا ما اخذنا تُنعم النظر في هذا كله وجدنا ان ارسطو ، بما وضع من نظريات كلية وبما فلفسف مكونات الاشياء وجوهر الكائنات ، واكثر منه افلاطون الذي رأى في الكلبيات وما لها من مفهوم عام صورة او نموذجاً او المثال الاعلى الذي يتحيز ، ليس فقط في الكائنات الفردية ، بل على حدة ، مستقلاً في الله ، فقلل بذلك من الصعوبات التي نلاقها في شرح العقيدة المسيحية وتفسيرها . يعد هذا كم يخفف الغموض الذي يحفّ بمقيدة ا لحيئة الاصلية ، اذ ان ما لطخه آدم في ذاته هو فكرة الانسان نفسه . هذا المثالي النموذجي ، الخالد الذي مر في خلد الله وخاطره ، والذي على شاكلته ومثاله جاء البشر اجمع . الا ان المعرفة الحقّة العميقة الغور ، البعيدة الجذر ، تتعدى بكثير ، قدرتنا على تفهم الامور ، كما تجاوز كثيراً طاقة العقل البشري . فالمعرفة تحصل باكتناه الشمرء ، باكتناه الله في هذه الشطحات الصوفية والنخطافهم الروحي . وفي هذا السبيل هبط لوفيفر ديتابل ايطاليا عام ١٤٩١ و ١٤٩٢ حيث تم له الاتصال بارسل فثينو وارهولا

بربارو الذي كان أخذ على نفسه ان يكشف عن حقيقة تعاليم ارسطو ، عندما راح يهاجم اتباع
فلسفة ابن رشد . وتردد لوفيفر ديتابل ، بين ١٤٩٩ و ١٥٠١ ، على الصحاف المشهور ألد
مانوس ، في البندقية وصاحب اكبر دار نشر فيها ، واشهر هذه الدور طراً ، في جميع أنحاء
اوربا بمطبوعاتها . وقصد عام ١٥١٠ ، المانيا الرينانية ، جاء مدينة كولوني ، موطن المتصوفة
ومعقلهم الاكبر ، ونزل ضيفاً على جمعية اخوة الحياة المشتركة ، فزودوه بكتب وبحاث تبحث
في التصوف والمتصوفين . نشر بين ١٤٩٤ - ١٥١٥ شارحاً ومعلقاً ، مؤلفات نقولا دو كوس ،
والمؤلفات الرمزية التي وضعها تريسميجيست *Trismégiste* ودينيس الارويياجسي ، والقديسة
اليسابات . كذلك نشر عام ١٥٠٩ ، الطبعة التي اعددها لسفر الزامير كما نشر عام ١٥١٢
كتابه : «افراح رويسبروك الروحية ، والطبعة التي اعددها لرسائل القديس بولس مع شرحها
وهكذا اسم فعلاً في إيقاظ روح التقوى ، في النفوس .

ابراسموس
وقد جاءت اعتمق اثرأ وابعد مدى ، الآثار الفكرية التي وضمها الفيلسوف
والكاتب الهولوندي ابراسموس ، هذا الراهب والكاهن الذي ولد عام ١٤٦٦ .
والذي تخرج من جامعة باريس حيث اقام من سنة ١٤٩٥ - ١٥٠٠ . فقد كان من رواد النهضة
الانسانية . ومن اضلع رجال العصر معرفة باللغة اللاتينية ، بحيث كان يחדس اذنه ما يسمعه
ويشاهده من هذه اللاتينية المكسرة التي وردت على اقلام الكتاب السكولاستيكيين . جاء
انكلترا عام ١٥٠٠ ، واقام في جامعة اكسفورد حيث لقي جون كوليت ، اثر رجوعه من إيطاليا
وهو على اشد ما يكون اعجاباً بشيشرون وافلاطون ، والذي التحق ، عام ١٤٩٦ بكلية
المجدلية ، فكان اول من طبق ، في دراسة رسائل القديس بولس ، مناهج النقد الحديث التي
طبقتها العلماء الايطاليون ، في درس مخلفات قدامى الاغريق الفكرية ، هذا النهج الذي كان
لوفيفر ديتابل بالذات شرع بتطبيقه في دراسة ارسطو . وراح كوليت ، يشرح رسائل بولس
ويفسرها كما يفسر ويشرح اي رسائل وجهها كاتب ما لاصدقائه ، محاولاً ان يلتقط في بساطتها
الاولى الكلام الذي تقوه به القديس بولس ، دون ان يبالي قط بمذاهب الفلاسفة الاسميين
وتجريداتهم . فأفاض كوليت من انواره على ابراسموس الذي كان وقع تحت تأثير جان فتربيه ،
رئيس دير الاخوة المرشدين في سانت او مير ، بفرنسا . فقد حفظ هذا الاخير عن ظهر قلبه ،
رسائل بولس الرسول وخرج منها بصورة جلية واضحة ، متحررة تماماً بالروح والحق ، ضارباً
بعرض الحائط ، هذه الاحتفالات وهذه المراسم والطقوس النافلة التي لا طائل تحتها .

نشر ابراسموس ، عام ١٥٠٠ كتابه : « الامثال ، وهي حكم وأمثال انتقاها من الكتاب
القدامى ومأثور كلامهم وشوارد الحكمة التي تساعدنا على تفهم المقاصد الالهية . كذلك نشر
كتاب شيشرون : « حول الوظائف » . فالمتال البشري الذي رسمه الاقدمون يساعد على توجيه
الانسانية نحو أهدافها السامية ، غير ان يسوع وحده هو الذي يحقق فينا المتال الاسمي والاكمل

وراح ايراسموس ينشر عام ١٥٠٣ ، كتابه المشهور المعنون : « رفيق المناضل المسيحي - *Enchiridion militis christiani* وهو كتاب صغير الحجم كتب بلغة لاتينية ناصعة ، جزلة ، اراده صاحبه سلاحاً للروح ، شبيهاً بالخنجر سلاح الجسد .

واخذ ايراسموس يقنع قارئه بأنه مسيحي كاذب لأنه لا يتصرف كالمسيحي الحقيقي . « ترى قريبك تتحالف عليه الآلام والاصاب فلا تهتم لامره ولا تكترث لوضعه ؛ كل ما همك انت ، ان يسلم رأسك ، لا تأخذك فيه شفقة ولا رأفة ، فالامر لديك سيان . هل تستطيع ان تقول لي لماذا لا تشعر نفسك نحوه باي عاطفة ؟ الجواب بسيط للغاية ، يا اخي ، فانت لا تشعر بشيء نحوه لأن نفسك ميتة فيك - نعم ميتة هي - لانها لا تنتم بالحياة الحقيقية التي هي الله ، اذ حيث يكون الله تكون الهبة ، لأن الله محبة هو . »

ولكن تتجدد فيك الحياة المسيحية ، حياة النعمة ، لا تذهب للرهبان ، اذ انهم قوم إستسلموا للخرافات ، فهم قوم ظلام ، قساة ، خطفة حقودون ، نمامون ، نفساؤون ، همهم الشجار والنكيات لانهم يعتقدون في انفسهم انهم على حق ، يتباهون بما تم لهم من خير ، يستنكفون ان يفهموا او يتفهموا الامور ، يخيل اليهم انهم على صلاح لأنهم لا يقتلون ولا يسرقون ، فهم مراؤون ، ومسيحيون زائفون اذ لا همهم الا ان يلعوا ، او ان يبزوا سوامهم في مجادلاتهم الدينية . اما العون الذي انت بحاجة اليه ، فسأتيك من المسيح نفسه ، اذ يعلمنا بولس الرسول ان المسيحيين يؤلفون جسداً واحداً ، المسيحيون الاعضاء والمسيح منه الرأس . فالجسد يجييه المسيح ، في كل لحظة بدمه الذي بذله على الصليب وبنعمة الروح القدس . نحن بذاتنا ضعفاء ، ولكن بوصفنا اعضاء في جسد السيد المسيح السري ، نستطيع ان نعمل كل شيء . وبصفتنا اعضاء في جسد المسيح ، هو يحررنا من الخطيئة ويعطينا الحرية الحقيقية ، ويسكب علينا الاطمئنان والرجاء والفرح ، على شرط ان نخصه بمحبة ونقف هذا الحب عليه وحده . كل شيء حسن : المعرفة والصحة والقوة حتى والمال ، اذا ما ساعدنا على الازدياء حباً وتملقاً بالسيد المسيح . والذي يبعدنا عنه هو الشر والاثم . فاذا كنت تتصرف بالمال تصرف الخازن أو امين الصندوق ، فيمر بين يديه برافاً في طريقه نحو الفقراء والمساكين ، فتصرفك حسن هو ، ويمكنك في مثل هذه الحدود ان تعمل على كسبه وتسعى الى تحصيله . اما اذا كنت تحتزن المال لذاته ، فالواقن ان تطرح به الى البحر اذ يبعدك عن السيد المسيح ويسبب هلاكك . كل مناسك العبادة ومراسم الطقوس الدينية ، هي حسنة بمجد ذاتها ، اذا كانت تعبر فعلاً عن الهبة ، وإلا فشر هي ووبال . انت تصوم لتكون الى جنب السيد المسيح على الصليب ولتتألم معه بعض الشيء . هذا شيء حسن جداً . اما ان تصوم لان غيرك يصوم ، فعمل يعمل المرأون ، وعليك وحدك وزره . تتوجه بصلاتك نحو القديس خريستوف او القديس روكس أو القديسة بربارة . فاذا كنت تقصد بعملك هذا تكريم صورة السيد المسيح التي يحملونها في نفوسهم والحصول بشفاعتهم على نعمة التشبه بهم والسير على نهجهم لتصل الى محبة يسوع ، 'عد' عملك هذا برأ وصلحاً ، اما ان كنت تستشفهم ليعرسوك من كل ضير واذى

او ليردوا عنك المخاطر أو لينصروك على اعدائك او ليردوا عنك الموت ، فانت فريسة خرافات خرقاء جوفاء . فالصلاة الحقيقية هي ان تطلب الاتحاد بالله والاقتران بالسيد المسيح . ان الله يجب ان نعبده بالروح والحق ، والقلب الطاهر والاستقامة . أما ما يبغضه الله فهو هذه الحركات والتصرفات التي لا تتم قط عن شعور حقيقي ولا تفيد شيئاً مما هو الله . ما معنى السجود والركوع في الكنيسة ، والقلب يعج بالحق ويغلي ضغينة . ومسا نفع انشاد المزامير والتسابيح ، والفكر تائه مشلت . المهم هو تنقية القلب وتطهيره من كل رجس . المطلوب تحقيقه هو ما جاء في خطاب السيد المسيح على الجبل ، اي ان تحول خدك الايسر لمن ضربك على خدك الايمن ، اذ ردة الفعل المثل في المسيحي هي ان تحمل الشرير على رمي سلاحه وطرحه بعيداً لشدة ما يرى من كرم نفسك وطول اناك .

ولكي نساعد السيد المسيح ليبنى فينا الحياة الداخلية علينا ان نعتصم بالتأمل ، صلاة القلب الحقيقية . خمس كلمات تنبجر من اعماق القلب خير من عشرة آلاف كلمة تخرج على طرف اللسان وتذهب في الهواء هباء ، « الشوق الشديد الذي تجيش به اعماق النفس هو الذي يجعل الله يصيخ باذنه الينا » اتمحيط بمثل موسى النبي : فهو لا ينبت ببنت شفة وهو في حضرة الله العلي ، اما قلبة فيلجج صارخاً : لماذا دعوتني يارب؟

اما الوسيلة الثانية فهي معرفة شريعة الله ، « غذائنا الروحي » . ثق يا اخي الحبيب ، أنه ليس من تجربة ، مها اشتدت وطأتها ومها خطر شأنها الا وتستطيع ان تتغلب عليها بقراءة الكتاب المقدس قراءة تدبر وتفهم . علينا ان نفلس عن الروح تحت الحرف ، عند هؤلاء المعلمين الرمزيين الكبار ، امثال : بولس الرسول ودينيس الاروباجي ، والقديس اوغسطينس واوريجينيس ، وان نستعد لفهم هذه الامور بالاستعانة بمؤلفات دنوية كتلك التي وضعها افلاطون . علينا ان نربي فينا قوة التمييز ، وان ننمي في ذواتنا ملكة المحاكمة العقلية ، وان نحكم على الاشياء بانفسنا ، اذ يتحتم علينا الا نحدد مبادئ سلوكنا على المؤلف من أعراف الناس وعاداتهم حتى ولو لقبنا استحسان البابا وحازت على موافقة الملوك ، بل علينا ان نزن هذه الاعراف ونقيسها وفقاً لتعاليم السيد المسيح . وهل من ضر علينا اذا ما كان قليلاً عديداً او كنا فئة صغيرة ؟ ويكفي ان تنال قضية ما أو ان تحوز رضی العدد الاكبر حتى تصبح موضوع ظنه وارتياح . كانوا ابدأ فلة وسيكونون دوماً فئة صغيرة ، هؤلاء الذين سيحافظون على نقاء القلب والضمير ، ويتحلون بالسذاجة والفقر الروحي والتجرد ، ونكران الذات ، ويستمسكون بالحقيقة التي علمها السيد المسيح . وهكذا نرى كيف ان الامر ينتهي عند ايراسموس الى حرية الفكر ، والى فردية المرء التي اكثر ما تليق بالحركة الانسانية ، وبالاحرى ، حركة « الانسانية الانجيلية » .

فلا تسأل ، بعد هذا عن الدوي الذي احده كتابه « رفيق المناضل » الذي اتبعه ، عام

١٥١١ ، بكتاب آخر عنوانه : « تفریط الجنون الذي جاء صورة عن الاول ، انما بأسلوب تهمكي ، لاذع . فاشتهر بذلك اسم ايراسموس وامتد صيته في كل من ايطاليا واسبانيا ، والبلاد الواطئة ، وراح يعلم في جامعة كمبريدج ، في انكلترا ، في كلية كريسقي ، حيث اخذ يعد طبعة جديدة للمهد الجديد ، باليونانية نشرها في مدينة بال ، عام ١٥١٦ ، في دار النشر المعروفة بدار فروبن *Froben* . وقدم لهذه الطبعة بخطبة حث فيها الناس على درس الفلسفة ، المسيحية ، عنوانها « *Paraclésis ad philosophiae christianae studium* » « دعوة الى دراسة الفلسفة المسيحية » . يجب الا يجهل احد بعد « فلسفة المسيح » ، المعلم الوحيد المرسل من السماء ، هذه الفلسفة التي هي في متناول الجميع ، لان في مقدور اي كان ان يردّ وردّ هذا المعين الصافي ، في بضعة كتب سهلة المأخذ : كالنجيل القديس يوحنا وبعض رسائل القديس بولس الرسول ونبؤة اشعيا النبي ، اذ باستطاعة اي كان ان يتفهم جيداً « لأن العقول تقبّس والنفس تستسيغ بيسر ما يتلاءم مع الطبيعة » . والحال ان فلسفة السيد المسيح ، هذه الفلسفة التي يسميها هو نفسه الميلاد الثاني ، هي تجدد الطبيعة البشرية التي خلقت طيبة . وسيصادف القاريء ، باسرع ما يمكن ، معلماً ومرشداً هو الروح القدس الذي يحل بكل مسرة ، في النفوس الساذجة . « فالشمس التي تشرق علينا ليست باكثر التصاقاً بالناس ولا ايسر تناولاً من تعاليم السيد المسيح ... واني لآتمنى من الصميم ان تتمكن ان توضع السيدات من قراءة الانجيل ، ومن قراءة رسائل القديس بولس . وعسى ان تجود السماء بمن يقوم بترجمة الكتب المقدسة الى جميع لغات الارض بحيث تصبح في متناول الجميع وتيسر مطالعتها ليس فقط لسكان اسكتلندا ، وايرلندا ، بل ايضاً للعجم والعرب . صحيح ان البعض سيمدون لها طرف اللسان هازئين ولكن لا بد من ان يقع البعض تحت اسرها . وعسى ان يقيم الله من بين الزراعين والفلاحين من يردد آيات الكتاب المقدس ويلهج بها ، ويده على المحراث ، وان يطلع من بين الحاكة والنساجين من يتغنّى ببعض نصوص الكتاب المقدس بينما تتعاور يدها الوشيعة ذهاباً وإياباً ، وان يجد المسافر في عزلة ما فيه سلواه وتمزيته في سيره الرتيب ، بحيث يصبح الكتاب المقدس موضوع احاديثهم وحديث سمرهم » . وهكذا نرى المسيحية تغذي جميع نشاطات الانسان وتسيطر على كل علاقاته الاجتماعية ، وتملأ كل حياته « فاللاهوتي الحق » ، ليس هذا الذي يمضي في استخلاص البراهيين والادلة ويسوقها حججاً متصلة الحلقات ، آسره في بلاغتها دامغة في مدلولها ، بل اللاهوتي الحق هو هذا الذي يعلم ويرشد بكل ما فيه من اقتناع وايمان حي ، وحسن سلوك ، وحياة مثالية ، ويحتقر الماديات ويعرض عنها .. هو الذي امتلأ من روح المسيح ، ويعلم تعاليمه وينشر مبادئه .. هو هذا الذي يحرص على غرس هذه التعاليم في قريبه ويحرضه على العمل بها ، ويأخذ بيده الى مرابض الايمان . هذا هو اللاهوتي الحق ، سواء اكانت يده على المحراث أو وراء منسجه » .

كل هذا يتفق كل الاتفاق وتعاليم الكنيسة . فايراسموس هو هنا ، في صميم الصراط القويم ، في صميم الارثوذكسية المستقيمة الرأي . فالقول بالطبيعة البشرية ، التي لطختها الخطيئة الاصلية

ودنستها دون ان تقسدها كلياً ، هو تعليم الكنيسة الكاثوليكية نفسها . ومع ذلك ، فكتابه « *paraclesis* » مليء بالمواد السريعة الانفجار . فاذا ما راح قارئه يمضي ، مثلاً في استخلاص النتائج المترتبة على القول ان الروح القدس هو المعلم ، ومضى في استنتاجه هذا الى الحد الأقصى ، انتهى حتماً الى وضع ، اضطر معه امام المنطق الآسر ان يسلم بان أقل رتبة منزل واية مسكينة ، تطالع الكتاب المقدس ، مستضيئة بأوار الروح القدس ، قد تطلع برأي او تفسير ، يناقض تماماً جميع قرارات الجامع المسكونية السابقة . واذا مضى القارئ على مثل هذا النحو ، وبيده مثل هذا القياس ، انتهى الى التسليم بان اللاهوتي الحق هو هذا الفلاح ، أو هذا الحائك الذي يمثل في سيرته وسريرته ، قول السيد المسيح : أفلا ينتهي به المطاف الى استنتاج آخر ، الى نكران كل صفة كهنوتية في الكاهن ، فيضرب بعرض الحائط ، السلطة في تسلسلها المترابط ، وينكر بالتالي الكنيسة ؟

بعد نشر كتابه الاخير الذي اشرنا اليه أعلاه ، اصبح ايراسموس زعيم الانسانيين الانجيليين ، في جميع أنحاء أوروبا . فنشر ، بالاتفاق مع الراهب الدومنيكي جان فابر ، في خريف عام ١٥٢٠ ، رسالة طالب فيها بوجوب عقد مجمع مسكوني . وبما لبثت النظر في هذا الامر ويدعو الى شيء من الغرابة والدهش ، هو اشتراك هذا الراهب الدومنيكي باعداد هذه الرسالة ونشرها بالتعاون مع ايراسموس ، في الوقت الذي سبق للبابا فيه واصدر بتاريخ ١٥ حزيران السابق براءته المشهورة *Exsurge* الذي حرم فيها الراهب المتمرد لوثير وقطعه من عضوية الكنيسة وشراكتها ، حتى ان اللوثيريين الالمان استهولوا الامر ، وراحوا يقترحون بوضع انفسهم تحت تصرف ايراسموس ، حتى ان لوثير نفسه عرض عليه ، عام ١٥١٩ ، رأس الحركة الانتفاضة التي قام بها ، فرفض . وقد نُحِيت للجمع . بين ١٥١٦ - ١٥٢١ ، ات الكنيسة ستقوم ، هي نفسها باصلاح نفسها ، وذلك باتفاق على نصوص معينة يتفق عليها الاطراف المعنية ، يُقره مجمع مسكوني يُعقد لهذا الغرض ، اساسه مسيحية تتمتع بجرية واسعة بعد تحديد القضايا اليمانية الاساسية ، وفاناً للنهج الذي فصله ايراسموس في رسالة له الى بول فولز ، رئيس دير هوغشوفن ، مؤرخة ١٤ آب ١٥١٨ ، هذه الرسالة التي جاءت مقدمة للطبعة الثانية لكتابه : « رفيق الفارس المسيحي » التي ضمنها الامور التالية : صرف النظر عن أي جدل او مناقشة مع اتباع الفلسفة الاسمية ، الاقتداء بالسيد المسيح ، تحديد بعض قضايا الايمان والآداب بكلمات مقتضبة ، الكمال المسيحي حسبما يستطيع المسيحي تحقيقه في حياته الخاصة ، لان « الكمال المسيحي يتمثل ، قبل كل شيء في ما يحتاج في النفس من احساس ومشاعر وليس في نهج الحياة » ؛ إذا الغاء طفمة الرهبان بالتالي ، ونسخ الفرائض التي الزموا الناس الاخذ بها .

ما كادت هذه الانتفاضة الدينية على الكنيسة ان طلعت حتى ظهرت اختلافات
لوثير ومفارقات اساسية بين المؤازرين لها والناهضين بها ، لم يكن من السهل قط حلها

او كتبها ، فأدت بالتالي الى التباعد بين لوثير وايراسموس والانفصال عنه ولا سيما عندما اثبتت قضية التوفيق بين قدرة الله السكلية وبين الحرية التي يتمتع بها الانسان في ارادته . فبينما كانت لوثير يسعى بكل قواه ، ولكن دونما جدوى ، ان يكيف نفسه ، وهو بعد راهب تابع للرهبنة الاوغسطينية ، ليسير حسب مشيئة الله وان يتصرف بما فيه مسرته تعالى ، ظهر له ، والام يحز في نفسه ، ان الانسان اعجز من ان يتم وصايا الله واعجز من ان ينال ، بالتالي ، مشوبة عنده . فقد شعر ، في الصميم ، هذه الشهوة التي تلازم طبيعة الانسان وتمطى بين ضلوعه وتتغلغل في ثنايا كيانه فتحمله حملاً الى الشر ، الى الاثم والرذيلة ، الى الشره ، الى السيطرة على الآخرين ، بحيث يصبح الانسان غارقاً في خضم الخطيئة . فقد عاش لوثير بنفسه ، هذه الحالات التي تُخَيِّل اليه فيها ان الانسان يتملكه فجأة ، شعور عارم لا يقاوم يطيح امامه كالسيل الجارف ، بمقاصده ونواياه ، ويفرق ضميره ، ويسير به الى دوامة تجره الى الشر . كثيراً ما فكر بهذا الاشمزاز يحسه نحو الاعمال الحسنة ، هذه الاعمال التي ، مهما تجاهل الانسان الخطيئة وتعامى عنها ، تخالطها ، في احسن الحالات التي يكون فيها الانسان صادق العزم والارادة ، افكار دينية ، واهية ، رجسة ، تنتزى بالأثرة والمنفعة الخاصة ، وحب الظهور والمجد الباطل ، بحيث يشمر المرء ان كل ما يأتيه او يصدر عنه او يفعله ، لا يمكن ان يكون صالحاً ، او حسناً او خيراً . فقد كخبره وهذه الحالات النادرة جداً ، التي يشمر الانسان فيها وكأن قوة تهبط عليه فجأة من فوق ، من العلو ، فيرى نفسه محمولاً الى الامام ، نحو العمل الخير ، البار ، فتنبض نفسه ، بصورة غامضة ، لا يرتقي اليها الشك ، بشعور نقي طاهر . ومن هذه التجربة الشخصية التي عاشها نشأ عنده الاقتناع التام بمعجز الارادة البشرية ، الجذري ، الذي لا حيلة فيه ، وبقوة النعمة الالهية التي لا تقاوم . وعلى هذا اليقين الذي رسخ فيه ، نهض تفسيره للكتاب المقدس وشرحه له .

وقد توضحت افكاره وتبلورت خواطره بهذا الشأن منذ ان وضع شروحه على رسائل بولس الى اهل روما ، عام ١٥١٥ - ١٥١٦ ، ووضع مبادئه العامة في وتنبغ ؛ ونقده للاهوت السكولستيكيين وتفنيده له ، عام ١٥١٧ . « فالطبيعة البشرية ، بحكم جوهرها ، فاسدة هي وعاطلة بشكل لا حيلة فيه ولا مرد . « فحرية الارادة فسدت من جراء خطيئة آدم . وبواسطة الخطيئة الاصلية ، يرى الانسان نفسه مسوقاً الى الشر بصورة لا معدى له عنها . فلا يمكن للانسان ان يريد او يرغب غير الاثم والشر ، ولا يمكنه ان يصنع الا الاثم . غير ان الله القادر على كل شيء ، والذي يعرف منذ الازل ، بما له من سابق علم ، من م الخالصون ومن هم المالكون ، يرسل بمعطف الهي منه ، نعمته وأيده السهاوي ، لمن اختارهم واصطفاهم لابنه يسوع المسيح ، الى هؤلاء المعدن ، منذ الازل ، الذين اقتداهم السيد المسيح بدمه وبذل لاجلهم آخر نقطة مسمرأ على الصليب . فالله يعطي هؤلاء ، مجاناً ، دونما اي استحقاق منهم ، الايمان بيسوع المسيح ، هذا الايمان الذي به وحده يتم الخلاص ، كما يزرع فيهم ويسكب عليهم حب يسوع ، والخضوع لارادة الله . والنعمة الالهية هي التي تجعل الانسان يرغب في الخير ويسعى اليه ، بعد ان كان زهد فيه واعرض عنه وتكر

له ، فتحمله حملاً وتقصره قسراً على الزرع اليه . فالإنسان هو العوبة بيد الله . « نحن لسنا اسبياد عملنا ، انما نحن عبيد من المهد الى اللحد ، من البداية الى النهاية » . و « نحن لا نتبرق قط ، مهما كان سلوكنا باراً ، و اذا كنا نعمل اعمالاً بارّة ، فلأننا تزكينا بنعمة الله » (١١) . فالنعمة ، والحالة هذه ، لا تشفي الخاطيء ، فهي تدعه دَنَساً ، رجساً ، غير طاهر ، غير ان الله ، بنعمة منه مجانية ، ينجيهِ من هذا الفساد ويخلصه من هذا النَّتْن الذي يملأ كيانه ، وذلك بفضل استحقاقات السيد المسيح التي يجرها على الخاطيء ، بالايمان بيسوع المسيح ، هذا الايمان الذي تقيضه النعمة عليه . ولذا كانت اعمالنا وتصرفاتنا لا شأن لها ولا قيمة البتة لعمل الخلاص . فالايان وحده ، اولى النعم ، هو الذي يُخلِّص . فالاعمال البارة ليست سوى الدليل على النعمة . فاذا كانت النعمة تملأنا اوحي الله لنا بهذا ، بواسطة الروح القدس الذي يأتي الينا ويطمئننا بان خطايانا قد غفرت لنا ، مهما كانت اعمالنا وتصرفاتنا . وترجو رجاء وطيدياً انها تُسبِّر الله ، مع انك تدرك جيداً بانك لا شيء امام الله ، باعمالك هذه ، حتى ولو كانت مرضية بارّة ، حتى ولو عملتها بروح الطاعة ؛ اذ لست انت الذي تعمل الاعمال الشريرة . فالله هو الذي يعمل كل شيء بدون ان يسبهم الانسان بشيء . وهكذا نرى ان حرية الارادة وهم هي وخيال .

من هو الذي أدخل في روعنا واقنعنا ان باستطاعة ارادتنا ان تعمل شيئاً ، وان في مكنتنا ان نكسب أجراً ومثوبة امام الله ؟ هم الفلاسفة القدامى الذين بواسطتهم استطاع اصحاب الفلسفة المدرسية ان يفسدوا الكتب المقدسة . فما الذي يعلمه لاهوتيو الفلسفة الكلامية ؟ انهم يرون في من لا يحسن المنطق من رجال اللاهوت هرطوقياً خَطِيراً ، هذه العبارة التي ينعتها لوثير بكونها هرطوقية مخيفة . وما الذي يعلمه اللاهوتيون من اصحاب الفلسفة الكلامية ؟ هم يرون انه بدون معرفة ارسطو لا يمكن لانسان ما ان يصبح لاهوتياً . أما لوثير ، فيؤكّد عكس ذلك تماماً ، فهو يعلم ان الانسان لا يصبح لاهوتياً الا اذا ابتعد عن هوميروس وتجاهله تماماً ، « وان نسبة ارسطو للاهوت هي نسبة الظلام الى النور » . « كل ما جاء به ارسطو عن الاخلاق هو عدو النعمة ومضاد لها » فقد وقف لوثير من الفلاسفة الكلاميين موقفاً عكسياً ، مناقضاً لهم كل التناقض ، كما انه يبعد كل البعد عن الانسانية الانجيلية .

التصادم بين الانسانية الانجيلية والاصلاح وقع هذا الاصطدام عندما راح ايراسموس ينشر عام ١٥٢٤ ، كتابه : « حول حرية الارادة » . فحرية الارادة ، في نظر ايراسموس ، هي ملكة من ملكات الحرية البشرية ، وصفة من صفاتها الملازمة ، بها يستطيع الانسان ان يأتي كل ما يقضي به الى الخلاص او الى الهلاك الابدي . وفي هذا السبيل ، ونهوضاً منسبه بهذا الهول ، راح ايراسموس يجمع النصوص الكتابية التي تشير او تُلمِّح الى حرية الانسان باختيار الخير أو الشر على هواه . فتولى بالتدقيق والتمحيص بعض النصوص التي يبدو عليها انها تعني عكس ذلك ،

(١) من كتابه : مناقشة لاهوت السكولمستيكيين - القضية ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ و ٤٢ .

وأخذ يدلل انها ضرب من المجاز ألحقَ بعض الغموض وأدخل شيئاً من اللبس على المعنى الحقيقي لهذه النصوص التي تعني حقيقة ، حرية الارادة في الانسان . وهكذا ، فالنفس البشرية لها القدرة على ان تحكم وتقضي وتقرر ، كما لها القدرة على الاختيار . صحيح ان الخطيئة الاصلية ألحقت بعض الغموض بهذه كما سببت بعض الضعف في تلك ، انما لم تقض عليهما البتة . ولما كانت الخطيئة قد رُفعت عن الانسان بنعمة الله وتحننه ، فقد عادت الى هذه القوى حريتها بسلك الصراط المستقيم والمضي في غراره ، بمؤازرة النعمة الالهية ومساعدتها .

حتى بدون النعمة ، بقيت حرية الارادة فينا ، قائمة ، ولو ان الخطيئة اضعفتها . بدون النعمة الالهية ، كان باستطاعتنا ان نتجه من الخير والصلاح ، وان نأتي ، اعمالاً صالحة بارة نستحق بها نعمة الله المبررة . فاذا لم يكن للانسان حريته ، لأتفتت عنه بالتالي كل مسؤولية . فما الفائدة ، والحالة هذه من عدل الله ورحمته ؟ ان الواقع فعلاً هو ان نعمة الله و ارادة الانسان تعملان معاً بالتعاون : فالنعمة تطهر حرية الارادة وتنقيها بما علق بها من شوائب ، كما ان حرية الارادة تعمل هي الاخرى من جبتها .

جاشت حفيظة لوثير لهذه التعاليم ، وراح يرد على ايراسموس بكتابه « *De Servo arbitrio* » - حول عبودية الارادة ، الذي نشره عام ١٥٢٥ ، والذي جمع فيه زبدة تعاليمه بهذا الشأن ، كما راح يقذف ايراسموس باقذع الكلام ، ويدعوه : « خنزيراً » و « نفاقاً للسموم » كما رأى في كتابه الاخير : « قيامة اوساخ » ومطرح « الاحوال والقادورات » . واذ ذاك ، أخذ لوثير يهاجمه بهذا القياس ذي الحدين : اما ان تكون لحرية الارادة القدرة على السير بنا الى الخلاص ، فتصبح النعمة ، اذ ذاك ، لا طائل تحتها البتة ، ويصبح من التجديف على الله نكران القدرة الالهية ، واما ان لا تكون لحرية الارادة اي قوة او فعالية ، فلا تستطيع بالتالي ان تأتي اي عمل او ان تنتج شيئاً ، واذ ذاك تصبح كلاماً مكروراً باطلاً وهباء منشوراً . والحال فانت تقرر وتعترف بأن حرية الارادة كثيراً ما تحتاج للنعمة ، في كل تصرفاتها وسكنتها ، وبذلك تعترف ضمناً انها لا شيء قط . وراح لوثير ، بوصفه تلميذاً للفيلسوف الاسمي بييل ، يفكر ويعلم ان جل ما يمكن لنا ان نتوقه من مصير هو ان نبقي ، الى الابد ، مغمورين ، نكرة ، ليس فينا ما يستحق الذكر او يلفت النظر . فحيث لا توجد ظواهر تم عن شيء ما ، فليس هنالك شيء قط . ما عساك ان تقول لو اني استخدمت اقوالك وتأكيداتك بوجود حرية الارادة ، فاثبت لك منها ان لا وجود لهذه الحرية البتة ؟ فأنت تعترف لحرية الارادة ، بقوة هزيلة ، وان هذه القوة تبقى عاجزة ، لا تأتي شيئاً بدون نعمة الله . والحال ، فاذا ما غابت نعمة الله عن هذه القوة التي لا أثر لها ولا حول ، أو اذا لم تبلغها نعمة الله وتتصل بها ، فما يمكنها ان تفعل؟ ستقول ، ولا شك ، انها لا تعمل شيئاً صالحاً اذ لا تأثير لها . اذ هي لا تفعل ما يريد الله او نعمته ان تفعل... وما لا يتم بنعمة الله ، وما لا تعمله نعمة الله ، لا خير فيه . ومن هنا يستنتج ان الارادة لا حرية لها البتة بدون نعمة الله ، بل انها تبقى ، ابد الدهر ، اسيرة للشر وعبدة له ، اذ تبقى

عاجزة عن الاتجاه وحدها نحو الخير .. وما عسى ان تكون هذه القوة التي لا تأثير لها سوى انها قوة لا وجود لها ؟ ولهذا ، فالقول ان حرية الارادة موجودة ، وان لها قوة ، انما هي قوة لا تأثير لها ولا فعالية ، اشبه بالقول ان حرية الارادة موجودة لانها لا توجد بالفعل ، وكأنك بذلك تقول : « النار الباردة » . فالارادة البشرية تقع ، والحالة هذه ، بين الله والشيطان ، وهي ، كالحصان ، تترك أمرها لمن يقودها ويدفعها الى الامام . فاذا كان الله هو الذي يوجهها ، اتجهت هي الاتجاه الذي يريد لها ، وحسبما يريد لها . واذا كان الشيطان هو الذي يتحكم بها ، ذهبت هذه الارادة حيث يريد لها الشيطان ، وسارت كيفما يريد . والحال ، فالارادة البشرية ، في هذا كله ، ليست حرة قط ، باختيار سيد لها . فهي ستتبع من من الفارسين المتصارعين ، او من من القوتين المتصادمتين ، يتغلب على الثاني ، . وهنا نرى ان لوثير اشتط كثيراً وذهب بعيداً ، اذ وجد نفسه وجهاً لوجه مع مبدأ أي الخير والشر اللذين كانا يتنازعان السيطرة على العالم . اي انه لامس مرطقة الماوية باعتناقه مقالتهن فلا عجب ان يتهمه ايراسموس رسمياً بالهرطقة ، بين ١٥٢٦ - ١٥٢٧ .

هذا الجدل الفلسفي بين لوثير وايراسموس كان الفاصل بينهما والقطيعة بين الاصلاح والانسانية الانجيلية بل كان ابعد من ذلك ، اذ اصبح القطيعة بين الاصلاح البروتستانتي وعصر النهضة . ففي « الحوار » الذي نشره سنة ١٥٢٤ ، تصور ايراسموس ، شيشرون كأنه شخص ملهم من الله ، فراح احد الذين شاركوا في هذا الحوار وشهدوه يصرح قائلاً : تغلبت على نفسي بكل صعوبة لأنمنا من ان نتطلق بالصراخ : « يا قديس سقراط ، صل لاجلنا » . اما لوثير فانه حكم بالهلاك الابدي لسقراط كما انه سفه كل كبار العقول الذين لمعوا في عهد الوثنية ، بعد ان رأى في فضائلهم سفاهات ، وفي اعمالهم الخيرة الصالحة خطايا ، لانهم عطلوا الله ، في نظره ، من القدرة على ان يؤمن لوحده خلاصنا . « فقد انحدروا الى ادنى دركات الحقارة وانحطوا الى اقصى درجات البغضاء ، في بلوغ فضائلهم الذرورة من التسامي » ، لأنهم نزعوا ، على ايشع صورة من السرقة والاختلاس ، مجد الله ليتباهوا هم به .

وهذه الخصومة العنيفة بين المذهبين الدينيين الجديدين ، برزت على أشدها ، هي ايضاً ، بين النظم الكنسية الاخرى . آثر ايراسموس ان يبقى ضمن الكنيسة الكاثوليكية ، بعد تحررها واصلاحها . ففي الحين الذي اشتد فيه الجدل وحمي وطيس النقاش ، برزت لوجود كنائس لوثيرية اخرى . فعمد لوثير ، بين ١٥٢٠ - ١٥٢٨ ، الى تنظيم كنيسة ساكس البروتستانتية ، فجاء تنظيمها نموذجاً نسجت على منواله الكنائس الانجيلية الاخرى التي قامت في مقاطعات : هس وبروسيا وأسوج والداغارك . فقد رأى لوثير ، معتمداً في ذلك على بولس الرسول ، في رسالته الى الرومانيين (اصحاح ١٣ العدد الاول) وعلى رسالة بطرس الثانية (اصحاح ١٣) ان السلطة هي رسالة الهيمنة « تقوم على خدمة الله » ، وعلى المسيحي ان يخضع لهذه السلطة . فالأمير أو الملك ، بقطع النظر عما له من سلطة مدنية مطلقة ، يراقب ، بما له من حق الهي

معطى له ، الكنيسة ويتولى ادارتها . فالاملاك والوقفات الكنسية التي جاءت هبات من جماعة المسيحيين ، تخضع للسلطة التي عهد الله اليها بتدبير امورها ، للامراء والحكام . فالامراء اللوثريون ، هم مدعوون ، والحالة هذه ، لان مخلفوا البابا في ما له من سلطة اديسية ، وبذلك يزيدون ، بواسطة مصادر الاوقاف الكنسية ، ما تم لهم من ثروة وسلطان . فصاحب السلطة هو الذي يختار الوعاظ وشيوخ الكنيسة ويمين المراقبين الماليين الذين يتولون مراقبة الكنائس ويحرصون على بقاء نقاء مراسم العبادة والطقوس . باستطاعة رعاة الكنائس ان يتزوجوا . الله وحده قدوس هو ، فلا موجب بعد ولا داع ، لعبادة مريم العذراء ولتكريم القديسين وتكريم صورهم المرسومة باليد او المنقوشة في الخشب او الحجر . اما الاسرار فلم يبق منها الا السران اللذان رسمهما السيد المسيح صراحة ، وهما : سر العباد وسر الافخارستيا . ولكن تعاليم لوثير عن المسيح طلعت علينا بالكثير من الاسرار . فقد راح ، رغبة منه في تعظيم السيد المسيح ، يشدد ليس على وحدة الابن فحسب ، بل ايضاً على طبيعة المسيح الالهية بحيث أوشك ان يلامس الهرطقة القديمة التي قالت بطبيعة واحدة في السيد المسيح . فقد رأى ان الطبيعة الالهية في السيد المسيح أضفت على الطبيعة البشرية فيه شيئاً من خصائصها وملكات الجوهرية ، ولا سيما ، خاصية الوجود في كل مكان او خاصية كلية الحضور . فالسيح الله هو في كل مكان ، والمسيح الله يمكن ان يوجد في كل مكان . فالسيح يوجد بالفعل في الخبز والخمر بعد ان يتم تقديسها ، اذا ما توفرت لمتناولها ، الشروط اللازمة . فقد رفض لوثير الاعتراف او الايمان بالاستحالة الجوهرية التي يستحيل فهمها من وجهة نظر الفلسفة الاسمية ، غير انه يؤمن بالحضور الجوهري . فالعبادة على هذا النحو من المفهوم يمكن تبسيطها ، اذ تقتصر ، في ايام الاسبوع العادية ، على التعلم والوعظ وترتيل الزمائم . أما يوم الأحد فيُحتفل فيه بالقداس . فالمنذبح والشموع والالبسة الكهنوتية ، يمكن ان يحتفظ بها . فالكاهن يقرأ ، بالألمانية ، الرسائل والانجيل ، وجهور المؤمنين يتلو بالألمانية ايضاً ، قانون الايمان ، كما ان الكاهن يشرح موضوع انجيل النهار ويفسره ، ويتلو بالألمانية كلام التقديس ، ويوزع القربان تحت اعراض الخبز والخمر . اما الاعتراف فليس بضروري ولا ما يوجب له . وفي ظل كنيسة الدولة الرسمية ينطلق كل جدل ديني ، ويُقَطَّع من شراكتها المخالفون لها بالرأي ، كما ان للكنيسة الحق بالحد من حرية الفكر ، وتفرض على الجميع . الطاعة السلبية . فبين هذه الصورة والصورة الاخرى التي تمثلها ايراسموس للكنيسة ، طرفا النقيض .

ففي الوقت الذي كانت فيه لوثير يقطع كل علاقة له مع الانسانية الانجيلية ، كان البعض من أتباعه يقطعون معه كل علاقة .

لم يلبث القول بحرية الضمير ، وحرية الاعتقاد والفردية ان اعطى كل نتائجه المنطقية . فالراهب السويسري زونكلي الذي كان يخدم منذ عام ١٥١٨ ، الكنيسة الكهبرى في مدينة زوريخ والذي عُرف عنه اولاً ميله الظاهر الى ايراسموس والتعاطف معه ، ثم أخذ يقع ، اكثر

فاكثر ، تحت تأثير لوثير ، لم يلبث ان تعداه سنة ١٥٢٢ ، وتجاوز بعيداً تعاليمه ، فزحل حق فكرة الاسرار التي حافظ لوثير على بعضها . فالعماد والمعمد ، السري ليسا سوى رمز . فالمناولة لم تعد سوى رمز لرابطة روحية مع روح المسيح ، ليس الا . والمعمد اقتصر على قراءة التوراة والموعظة الدينية والاشراك . فالشعب او جمهور المؤمنين هو الذي يقرر بنفسه تفسير الآية وكيفية فهمها ، كما انه هو الذي يحكم على درجة سلامة موقف كل مؤمن من بين الجماعة ، من هذا التفسير ، اما الكنيسة فليست سوى ديموقراطية تذوب في الدولة الديموقراطية . وفي سنة ١٥٣٤ ، تبنى المجلس البلدي في زوريخ ، رسمياً ، هذه الحركة الاصلاحية التي لم تلبث ان امتدت منها الى مدينة بال ، ثم الى مدينة برن . وقد شعر الكثيرون ان الله بعهد كل البعد عنهم ، في نطاق المفهوم الذي أعطاه للاسرار الكنسية .

كذلك راح احد تلاميذ لوثير واتباعه هو موزر يؤسس ، عام ١٥٢١ ، في اللاه ممدانيون بلدة زويكان ، من اعمال ساكس ، حركة ، دينية اصلاحية ، جديدة ، عرفت بحركة منكري المعمودية او المطالبين باعادة المعمودية . انطلق في حركته هذه من المبدأ الذي قال به لوثير وعلم ان ما يجعل للسر قيمة هو الايمان الذي ينتقل الى المتعمد عند اقتباله سر العماد . اذا فمعمودية الاطفال لا تحدث فيهم اي تبرير قط ، ولذا كان من المتوقع إعادة عماد هؤلاء الاشخاص عندما يبلغون سن المراهقة ، اذ يصبح في مقدورهم ، اذ ذلك ، ان يقوموا بعمل الايمان المطلوب . كذلك علمتهم موزر ان كل انسان يتسلم الى الالهام من الروح القدس مباشرة اذا ما تبنى ذلك ، هو نفسه ، كما يتلقى منه معرفة اية حقيقة حتى انه يتلقى منه اوامر ونواهي خاصة . بعد هذا ، لا لزوم بالطبع ، للكنيسة ولا لطقوس العبادة ، ولا للقوانين والشرائع ، ولا لاي سلطة مهما كان شكلها . فالروح القدس يخلق عند كل من نزل عليهم الالهام مساواة كاملة : « فالكل هم ملوك وكنهة » . فلا حاجة بعد لاي نظام اجتماعي ولا لاي منظمة او هيئة من هذا النوع ، اذ كان من الواجب العودة بالحياة الى ما كانت جماعة المؤمنين الارلى ، في مطلع الكنيسة ، من بساطة ، حيث كان كل شيء مشتركاً بين المؤمنين . وهكذا نرى ان التلميم الجديد كان من شأنه ان يقضي حتماً الى الشيوعية . وانتشر دعاء هذا المذهب الديني الجديد في جميع ارجاء المانيا الجنوبية ، ومورافيا وبولونيا ، ولم يهتموا ان انشقوا على انفسهم طائفتين ، متباينتين : طائفة المسالمين منهم ، وطائفة المنادين منهم بالهتف والشدة التي انضم اليها موزر . فقامت بينها حروب شديدة دامية ، طاحنة عرفت بحروب الفلاحين (١٥٢٤ - ١٥٢٦)

الحلم الذي راود ليلا ، خيال ايراسموس بطولوع كنيسة جمعساء
 الاصلاح الكاثوليكي .. البابا
 'تجدد من شبابها وتصلح من شأنها على يد مجمع مسكوني ، هذا
 الحلم الذي حاول الامبراطور شارل الخامس طيلة حكمه ، تحقيقه والخروج به الى حيز الواقع ، تبخر وراح هباءً منثوراً . وشرعت الكنيسة الكاثوليكية تعمل من جهتها على تثبيت تنظيمها

وتقوية كل ما من شأنه ان يباعد بين الكتلركة وجماعة الانسانيين الانجيليين ، والاصلاح البروتستانتي . وقد بوشر بالاصلاح الكاثوليكي في الوقت الذي تتتابع فيه مساعي الانجيليين والاصلاحيين للقيام بعمل مزدوج ، مشترك تساهم فيه السلطة الشرعية : البابا والكنيسة من جهة ، ومن جهة ثانية ، النفوس المشبعة بروح الدين الحق ، السلطة الكنسية التي راحت تتقصى الهراطقة ، وتلاحقهم ، وتحدد قضايا الايمان ، والرهبان ورجال الاكليروس والعلمانيين الذين يقومون بمناسك العبادة ، ويميون في نفوسهم حقيقة ايمانهم .

فالبابا قد تخلص نهائياً من النتائج والمقررات الاخيرة التي افضى اليها مجمع كونستانس وبال. فعقد البابا ليون العاشر اتفاق الكونكورداو مع الملك فرنسوا الاول ، أقره ووافق عليه مجمع لاتران ، عام ١٥١٦ . فقد أمملت هذه المعاهدة في نصها النهائي ، الفصلين الاولين من الاتفاقية الدينية التي عقدها الملك شارل السابع ، عام ١٤٣٩ ، مع الكنيسة والتي تعرف بـ : *La Pragmatic Sanction de Bourge* ، هذه الاتفاقية التي ضمت بين ما تضمنته من نصوص ، قرارات مجمع كونستانس التي نصت على وجوب انقضاء فترة عشر سنوات ، بين عقد مجمع مسكوني وآخر ، كما نصت على ان سلطة المجمع المسكوني هي فوق سلطة البابا . ومن جهة ثانية ، فابرام البابا لهذه المعاهدة الدينية جاء دليلاً على سلطته العليا ، كما انه باصداره البراءة « الراعي الابدي *Pastor æternis* » عام ١٥١٦ ، ألغى ، من تلقاء نفسه ، معاهدة بورج الدينية معللاً عمله هذا : « بانه من الضروري جداً للخلاص ان يخضع جميع المسيحيين لرئيس الاحبار الروماني » ، كما جدد دستور الكنيسة حسباً وضعه البابا بونيفاسيو الثامن في براءته : « *Unam Sanctam* » . فالكنيسة لها رئيس واحد هو السيد المسيح ، ويمثل المسيح على الارض ، خليفة القديس بطرس . فالكنيسة تجتمع في يدها السيفين : الروحي والزميني . فالبابا يحتفظ بالسيف الروحي (السلطة) ويعهد بالسيف الزميني الى الملوكة الذين لا يجوز لهم استعماله الا وفاقاً لارادة البابا ، الذي يقرر سلوكهم لما فيه خير الكنيسة . وهكذا فالجدل الذي وقع لاستبدال رئاسة مار بطرس برئاسه مجاس استشاري ، فشلت تهاماً ومات بتراجع ملك فرنسا ، كما ان البابا جعل من الكنيسة نظاماً ملكياً ينزع الى الحكم المطلق .

علماء اللاهوت
اصدر البابا ، عام ١٥٢١ ، حرماً ضد لوثير وحمل الامبراطور ، في مؤتمر وورمس على اصدار امره بالقاء الحجر عليه . ومن جهة ثانية ، فاذا كانت تعاليم ايراسموس نالت بعض الحظوة في البلاط البابوي ، فقد وجد علماء اللاهوت الكاثوليكي ان دفاع ايراسموس عن حرية الارادة وتعاليمه حول هذا الموضوع ، ليس واهياً ولا يفي بالفرض ، فحسب ، بل ايضاً فيه الكثير من الشوائب التي تعتوره والمغالط التي تشوه وجه الحقيقة . فراحوا يجرحونه وينقدونه في سلسلة من الرسائل والردود المفحمة ، منها الرسالة التي وضعها الاسباني سبولفيدا ، عام ١٥٢٦ ، بهذا العنوان *De fato et libero arbitrio adversus Lutherum* « حول القدر وحرية الارادة رداً على لوثير » . فقد أخذ علماء اللاهوت ، على

ايراسموس الغاية الاولى التي وضعها نصب عينيه ، الا وهي معطيات الوحي ، اي الكتاب المقدس ، وهي النقطة التي انطلق منها اللاهوتيون ، بالذات . فقد رغب ايراسموس ، وفي هذا قناعته واقتناعه ، ان يشدد ، من الوجهة التاريخية ، على ما في معطيات الوحي ، من القيم الروحية والادبية في الكتاب المقدس ، مما لفت نظره ووقف عنده ، ليجعل منها محور الحياة الروحية الداخلية . كان من الممكن ان يتم ، لو أخذ برأيه ، تجربة دينية شخصية ليس من ينكر قيمتها ، وهي تجربة لم يكن لتجيز التفاضل او التنكر لطريقة اخرى ، كرستها الاجيال للوصول الى المعرفة ، هي علم اللاهوت ، كانت تبرز الاولى سمواً وتوقها تمايلاً الى حد بعيد ، فلم اللاهوت ، لم يكن ليرضى فعلاً ، بالتوقف عند هذا الحد ، بل اراد ان ينطلق من معطيات الوحي ، من الكتاب المقدس ، ليصل عن طريق العقل والاستعانة به ، الى تفهم اكبر لهذه المعطيات . وللقيام بهذه العملية ، رأى علماء اللاهوت ان لهم كل الحق ان يأخذوا من كل فلسفة او نظام فلسفي ، ما تضمنه من تعاليم شاملة ، كلية ، يصح تطبيقها في كل زمان ومكان ، ويمكن الاخذ بها في كل أٍين . وان يتبنتوها وان يحوّلوها ويخصّصوها ، على اضواء الايمان ، في مجهود تعاوني مشترك يتصف بالواقعية والعلم ، يسمو بكثير ويتعالى ، دوناً قياس ، فوق كل تجربة ذاتية ، فردية ، داخلية ، ولا يدع مجالاً ، بشكل من الاشكال ، لانتهاج الكنيسة المسيحية ، بالانزلاق نحو الفكر الوثني او التعويل عليه بنقل شيء منه . وهذا القول يصح بالطبع ، ضد لوثير نفسه .

وبما أخذ علماء اللاهوت على ايراسموس انزلاقه هو وانحداره الى نصف الهرطقة البيلاجيانية ، فاتهموه انه اقترّب كثيراً ، ان لم يكن شارك ، من مقالة بيلاج الذي علم انه عندما تسقط الخطيئة عن الانسان ، بنعمة الله ، ويصبح حراً بالتالي ، فهو لا يعود بحاجة الى نعمة جديدة ، فيستطيع ان يؤمن خلاصه بما فيه من قوى كامنة ضمن ارادته الحرة . فايراسموس يقوم بتنازلات كثيرة للحرية البشرية وللارادة البشرية . فقد كانت زلة ايراسموس وغلطته الكبرى ان يضع ، على مستوى واحد ، ارادة الانسان وارادة الله ، كأنها شخصان يحرران معاً سفينة في وقت واحد . ففي وضع كهذا ، اذا ما شدّ احدهما اكثر من الآخر قليلاً ، جذب السفينة اليه اكثر من الثاني . فاذا ما تصور المرء نشاط الله ونشاط الانسان وفعالية كل منهما على مثل هذا النحو او الشكل ، كان التسليم لواحد دون الآخر ، اكثر من اللازم ، فيه انتقاص من عمل الثاني . فيجب الا يغرب عن البال قط ان الله تعالى هو العلة الاولى ، وان ارادة الانسان هي في مرتبة الاسباب الثانوية او المساعدة . فالاسباب الثانوية تؤثر ولها مسبباتها بفضل العلة الاولى او السبب الاول الذي يحركها او يدهمها بالحركة . فالله هو الذي يحرك الارادة في الانسان ، ولكن دون ان ينتزع شيئاً من حريته ، اذاً ، ما الذي خلقه الله ؟ هو بالذات ارادة حرة ، ارادة شاءها حرة وعندما يولبها بنعمته ، حركة او دفعاً ، فهي تصح اكثر حرية لانه هو يعطي الحركة للدافعة لهذه الحرية . وهكذا شجب علماء ، اللاهوت تعاليم ايراسموس وردلوا مقالته ، لانه اعطى

الانسان اكثر مما يجب ، بينما جرّده لوثير ، من كل شيء .

أخذ علماء اللاهوت على ايراسموس ايضاً عدم تفهمه الحياة الرهبانية ، هذه الحياة التي ترمي الى مشاركة الله عن طريق التشبه به . أفليست النذور التي يقطعها الراهب على نفسه ، بالدليل القاطم على اختصاصه بالله وحده والعمل في سبيل مرضاته . فالتقيّد باحكام هذه النذور وشروطها اعلان عنها وعن فوائدها امام الناس . فالنذور ومظاهر التقيد بها هي اصدق الوسائل وأمثلا لمن ينقطع كلياً الى الله ، عند من أنس ميلاً لهذه الدعوة واستجاب لها . فقد تجاهل ايراسموس الدعوة الكهنوتية واسقط من حسابها النعمة التي ترسخها في نفس من استجاب لها .

سبق لكلية اللاهوت ، في باريس ، وهي أكبر سلطة دينية في العالم المسيحي الجامع بعد سلطة البابا ، ان شجبت ، عام ١٥٢١ ، تعاليم لوثير وحكمت عليها بالزيغ والفساد . والمجمع المعروف بمجمع « سانس » التأم في باريس ، عام ١٥٢٨ « بقصد شجب تعاليم اللوثيريين الهرطوقية ولإصلاح الكنيسة » . فقد كان هذا المجمع بالفعل ، مجمعاً اقليمياً ترأسه الكردينال انطوان دوبرا ، مستشار فرنسا ورئيس اساقفة سانس ، ورئيس اساقفة غاليا وجرمانيا ، كما تضمنت القرارات التي اتخذها واعلنها فيما بعد ، المجمع التريدينتي ، كمحقات ايمانية تتعلق بالكنيسة جمعا . فالمجمع قام يناضل في المجال ذاته الذي يناضل فيه ، الانسانيون الانجيليون وجماعة الإصلاح ، اي الكتاب المقدس نفسه . وضد ادعاء المصلحين هؤلاء الذين يزعمون انهم يعتمدون نصوص الكتاب لا غير ويرفضون التقليد الكنسي باعتباره من وضع بشري ، قرر المجمع وجوب الاعتقاد بقضية ما من قضايا الايمان بمجرد ما تؤكد ذلك الكنيسة الكاثوليكية ، حتى ولو لم يرد عنها نص صريح في الكتب المقدسة . وعندما راح يؤكد ان اشياء كثيرة لم تدون في الكتاب المقدس ، انما وصلت اليها بالتقليد المتواتر عبر الاجيال ، كان المجمع يعتمد في موقفه هذا على ما جاء في خاتمة القديس يوحنا وفي رسالة القديس بولس الى أهل تسالونيكي . ومع هذا كله ، ألم يقل السيد المسيح ان الروح القدس سيأتي فيما بعد ليتم استنارة الرسل ويكمل اعلان الوحي الالهي؟ . والروح القدس يكمل الوحي على مر الاجيال .

وقد اعلن المجمع حرية الارادة . اما عمل النعمة فيتم على مرحلتين . فالارادة البشرية ، اذا تكون تحركت بمراحم الله ، تحاول تنفيذ ارادة الله ، واذ ذلك ، يمطيها الله نعمته الفاعلة ، فاذا ما استجاب الانسان ، كما يجب ، لهذه المبادرة وقام بالاعمال الصالحة التي يترتب عليه القيام بها ، استحق بعمله هذا ، ما يؤهله للحياة الابدية . والنعمة هي ضرورية ، وهي لا تلحق اي اذى او اي ضعف بحرية الارادة . فهي ليست ملازمة او قاسرة (لوقا ، اصحاح ١٣ ، عدد ٣٤ - ومتى اصحاح ٢٧ ، عدد ٣٧) . « فانه » ، كما يصرح المجمع ، « يقف امام الباب ويقرع ، فاذا ما فتحوا له الباب دخل على صاحب الدار وتناول معه الطعام » .

سبق للوثير ولزونكلي واعلنا : ان بالايمان وحده يخلص الانسان ، يؤكد الجمع . ولكن ، حذار من إلحاق اي تَعَسُف بنصوص الكتاب المقدس . فنحن نخلص بالرجاء والمحبة . فاسمع ما يقوله القديس بولس في رسالته الاولى الى اهل كورنثس (اصحاح ١٣ ، عدد ٢) : « اذا كان لي كل الايمان الذي ينقل الجبال ولم تكن لي المحبة ، فأنا لست شيئاً . وقد غفر كثيراً لمريم المجدلية لانها احبت كثيراً ، فالاب والابن يأتيان لدى الانسان ويقمان عنده ، اذا ما احب السيد المسيح (يوحنا ، اصحاح ١٥ ، عدد ٣٣) . من هنا نستنتج ضرورة الاعمال لان الحب والصلاح لا يظهران الا بالاعمال (انجيل يوحنا ، اصحاح ١٤ ، عدد ٢١ - وانجيل متى ، اصحاح ٧ ، عدد ٢١) ، هي الاعمال التي تحسب على الانسان والله يجازي كلاً بحسب اعماله . سنُدان على اعمال الخير التي عملناها ، وعلى الطريقة التي نكون اسرعنا معها لاطعام الجياع وإرواء العطاش ، وبذل الكساء لمن كان عرياناً (متى ، اصحاح ٢٥ ، عدد ٣١ - ٤٦) .

وعلى هذا المنوال ، اتخذ الجمع ، موقفاً مضاداً للوثير ولزونكلي ، وفي حالات كثيرة ، ضد ايراسموس نفسه ، في ما علم حول اسرار الكنيسة ، وذبيحة القديس ، والمطهر ، وتكريم القديسين ، وعدم زواج الكهنة ، والصوم الذي تفرضه الكنيسة ، وغير ذلك من القضايا .

الصلاة الباطنية - القديس اغناطيوس ده لويولا
كان لا بد من هذه التحديدات وابرازها للعيان وللذهان . الا انه كان يُخشى ان تبقى حرفاً ميتاً لو اقتصر عليها فقط . فلكي ينتقل المؤمن الى العمل ، وجب ان تتحرك نفسه بمواطف قوية ، كمحبة الله ، وكره الخطيئة . يجب ان نحب يسوع المسيح . « والمقياس الوحيد لمحبة الله هو ان نحبه فوق كل قياس » ، ولكي نحرك فينا هذا الحب اللامتناهي بعد الذي قاساه وعانى من جفاف الفلسفة الاسمية ، راح اخوة الحياة المشتركة ، منذ القرن الرابع عشر ، في البلاد الواطية ورهبان دير وندشاهيم ، يحاولون صرف حياتهم ، في اقتداء السيد المسيح ، في عشرة موصولة مع الله ، وذلك باعتماد النهج ذاته الذي سار عليه المتصوفة ، امثال رويزبروك وطولر ، وادخال تحسينات على وسائل التأمل والصلاة الداخلية .

سنة ١٤٩٤ ، نشر جان ميمبرت كتابه الموسوم :

« *Rosetum de exercitiis spiritualum et sacrarum meditatione* » - روضة التمارين والتأملات الروحية ، الذي ، اعيد طبعه مراراً . وهو عبارة عن مجموعة من التمارين المعمول بها لدى اخوة الحياة المشتركة وكهنة دير وندشاهيم القانونيين لترويض النفس على التأمل والتجريد لكل يوم من ايام الاسبوع . وراح غارسيا ده سيسنروس يستوحي الكثير مما جاء في هذه المجموعة عندما وضع كتابه : « تمارين الحياة الروحية » الذي نشره مطبوعاً عام ١٥٠٠ ، متخذاً منه اداة لاصلاح رهبان مونتسرات . وعلى هذا الكتاب عول اغناطيوس ده لويولا عندما وضع كتابه : « الرياضة الروحية » ، الذي ابتدأ بكتابته عندما اقام في بلدة مفرز من اعمال اسبانيا ،

عام ١٥٢٢. وهكذا نرى ترابطاً متسلسلاً بين رمزي الاجيال الوسطى حتى القديس اغناطيوس ده لويولا ، وهو ترابط يشابه ، الى حد بعيد ، هذا التفاعل الذي قام بين الفنانين الفلورنتيين ، في عصر النهضة في القرن الخامس عشر وبيده فناني القرن السادس ، مشاهير في الكثير من خطوطه ، للترابط الذي قام بين علماء الطبيعة الباريسيين في القرن الرابع عشر ، والعلماء الايطاليين في مطلع القرن السادس عشر . فالانجازات التي تحققت في السنوات الثلاثين الاولى من هذا القرن أوفت على التام ، بحيث اصبح في مقدورنا التأكيد بان شيئاً جديداً ، وان نظاماً جديداً ، قد أطل علينا . فكل المحاولات التي ظهرت قبل اغناطيوس ده لويولا تحاكي ، من بعيد ، كتابه « الرياضة الروحية » . ويرى مؤرخو الرهبنة اليسوعية ان هذا الكتاب انما هو من عمل الروح القدس اذ ان اغناطيوس باشر بوضعه ، وهو في بلدة منزليز ، قبل اي عمل ادبي آخر صدر له . فجاءت هذه الرياضة وما فيها من تمارين روحية ، إشرافاً للنبوغ الخلاق .

بعيد وصول ده لويولا الى باريس بقليل ، عام ١٥٢٨ ليتابع فيها دراسته ، تولى تدريس الفنون ، عام ١٥٣٤ ثم ادخل على تمارينه الروحية ، اللغات الاخيرة ، واخذ يوجه بنجاح عظيم اساتذة العلوم وداكترة جامعة باريس . ان الرياضة الروحية تؤلف ، بمجد ذاتها ، كتاباً صغيراً جافاً ، بشكل قانون عسكري ، يجيب الى النائب المنقطع عن العالم ، ترويض نفسه ترويضاً روحياً ويحمله على اهتمامه مرشداً له طوال الشهر الذي ينقطع فيه للارتياض الروحي . فالتأملات موزعة فيه على أربعة اسابيع . تدور تمارين الاسبوع الاولى على التأملات الاساسية : الله هو الذي خلقنا ، وخلقنا لخدمته ونمعبده - وخلق العالم لخدمتنا . ولذا وجب علينا ان نكرس حياتنا لله وان نستعين بالعالم لما يؤول لمجد الله الاعلى . ثم على المتروض ان يتأمل في الخطيئة ، وفي جهنم ليثير في نفسه الندامة والاسف واستنكار الماضي من حياته ، والسخط على هذا العالم ، عالم الخطيئة . هذا هو الطريق « المطهر » او المنقّي . اما في الاسبوع الثاني ، فعلى النائب المنسحق القلب ان يسلك الطريق « الاشراقي » . عليه ان يتأمل بحياة السيد المسيح في تأنسه ، وتقديمه الى الهبكل ، وغير ذلك من وقائع حياة السيد المسيح . اما في اليوم الرابع ، فعليه ان يقوم بالتأمل الاساسي الثاني ، هذا التأمل الخاص باللواتين . في هذا التأمل يُطلب اليه ان يختار فيه بين زعيمين أو رئيسين : المسيح والشيطان . اما الاسبوع الثالث ، فهو اسبوع الطريق الاتحادي ، اي المحاد النفس بالله ، طريق آلام السيد المسيح . واخيراً الاسبوع الرابع ، المخصص للتأمل ، في قيامة المسيح من القبر ، وفي محبة الله .

فهني كل يوم . على النائب ان يقوم بخمسة تأملات ، مدة الواحدة ساعة على الاقل ، مبتدئاً تأمله الاول عند منتصف الليل ، ففي الاسبوع الأول ، يجري تأمل واحد ، حول الخطيئة الاولى والثانية والثالثة ، هذه الخطايا الموجهة ضد الله رأساً ، أي الوصايا الثلاث الاولى من وصايا الله المشر ، ثم تأمل آخر حول الخطايا السبع الاخرى ، هذه الخطايا الخاصة الموجهة ضد الذات ، والتأمل الثالث هو تكرار الاول والثاني . اما التأمل الرابع فهو بمثابة اعادة للتأمل . اما الخامس

هو التأمل الخاص بهمهم فيجب ان يتم قبل مغيب الشمس .

يختلف اسلوب التأمل عند اغناطيوس ده لويولا ، عنه بما لدى غيره من الاساليب الاخرى ويتميز بخمس ميزات . تقوم الاولى منها في تركيز الانتباه وحصره في نقطة واحدة معينة ، بعد ان يقن ده لويولا انه يترتب على التائب ان يحصر انتباهه في موضوع واحد الى ان تتم له النتيجة المتوخاة . ولذا كان على التائب ان يقوم برياضته الروحية لمدة شهر كامل ينقطع معه عن كل مشاغله ويعرض عن كل مصالحه بحيث يحصر انتباهه بهذه القضية : « قضية علاقتي مع الله » . ثم يترتب عليه ان يهتم بنقطة واحدة في كل تأمل ، ولا يترك موضوع تأمله هذا الا بعد ان يكون انتج وثمر ما يرجى منه ، اي عندما ما يكون ايظف فيه العاطفة المطلوبة والشعور المرتجى بحيث تصبح هذه العاطفة لا تقاوم ولا تغلب . فلكي يصل الى الله عليه اولاً بالتوبة ، وان يشعر في صميم نفسه بالاسف والحزن العميقين ، ويشعر بتأنيب ضميره لما بدر منه في حياته السالفة من المعاصي . ولذا كان عليه ان يتأمل لمدة اسبوع ، والنوافذ مغلقة ، في عزلة تامة ، تكتنفه الظلمة ، بحيث يدور تأمله على الخطيئة وجهنم . ونلاحظ هنا اختلافاً بيناً بينه وبين سيسنروس الذي يوصي بان يكون لكل يوم موضوع خاص يختلف عن الآخر ، بحيث يكون التأمل لمدة شهر ، في الصباح ، الموت والدينونة الاخيرة ، وغير ذلك ، وفي المساء ، صنيع الله نحونا ، بحيث تغمرنا ، في الصباح ، مشاعر الحزن والاسى ، بينما نشعر في المساء بالبهجة والفرح ملاً قلوبنا ، فتتقاسم نفوسنا في النهار عواطف تختلف تماماً .

اما الميزة الثانية ، لتأملات اغناطيوس ده لويولا فتقوم في البحث عن النور الفكري او الذهني ، اي ان نعي وعباً تامة كل قضية من قضايا الدين والايمان بحيث نجري على كل قضية من هذه القضايا ، تباعاً : الذاكرة والفهم والارادة . فاذا ما اخذنا نتأمل خطيئة الملائكة ، مثلاً ، علينا ان نستعرض في خواطرننا ، كيف ان الله تعالى خلقهم على صورته ومثاله ، في حالتي البرارة والسعادة ، وجعلهم خداماً له يكونون على مقربة منه ، وكيف فضّلوا ، على خدمة الله وطاعته ، التمرد والعصيان على اوامره ، ثم كيف زج بهم من عليين في اسافل الجحيم . فاذا ما فكرنا ملياً بهذه الامور ادركنا على نور العقل ، بصورة جلية واضحة ، محور هذه المخاوف التي خصها الله بهذه الامتيازات الخارقة ، والمصير الذي آل امرهم اليه ، وهو مصير لا حول فيه ولا حيلة ، اذ انه حكم عليهم بالهلاك الابدي ، لمجرد اقتراهم خطيئة واحدة ؛ واخيراً الاخطار الحقة بنا من كل جانب وتهديدنا باستمرار ، وتحزن الله علينا ورحمته لنا ، اذ بالرغم مما اقترفنا في حقه من الوف الذنوب والخطايا ، نراه يهيء لنا دوماً الوسائل التي تساعدنا على الخلاص . واذا ذلك فقط ، وبعد ان تكون النفس شعرت بهول الخطيئة وببشاعتها ، واثارت فينا عاطفة الشكر لله ومحبته نعزم ، بقصد ثابت ، الانصياع لاوامره والامتثال لمشيئته تعالى . ولكي نصل الى ما نرجو من وضوح وجلاء ، يترتب علينا ان ننهي كل تأمل برربع ساعة ، نفحص فيها ضميرنا حول الطريقة التي اتبعناها في تأملنا هذا ، والخطايا او الزلات التي قد نكون

اقتربناها خلال التأمل . وهذا الجهد يبذله الضمير ، كان من شأنه ان يفوز برضى الانجلييين من اتباع ايراسموس .

والميزة الثالثة التي تميز كتاب « الرياضة الروحية » هي ان مؤلفه القديس اغناطيوس ده لويولا ، يستنجد بكل ما في الانسان من شعور كريم واحساس نبيل . هو يرغب في تحريك اعماق النفس البشرية ليصل الى نزعات الكائن الصميمة . كل الحواس يجب ان تعمل للوصول بنا الى هذه النتيجة : فكل تأمل يتدبىء بمقدمة او استهلال يستعرض التائب خلالها ، في ذهنه : المكان ، والاشخاص في أقوالهم وحركاتهم وسكناتهم . ويجب ان نخصص تأملاً واحداً كل يوم على الاقل ، لتوجيه الحواس : النظر والسمع ، واللمس والحس وفقاً لموضوع التأمل ، الى يسوع والعذراء مريم ، والرسول . وعندما يتأمل التائب في جهنم ، عليه ان يرى النفوس تتضور ألماً وتتلظى لهيباً في النار المتأججة ، وان يشم رائحة الكبريت المتصاعدة ورائحة اللحم الذي يحترق ، ويشعر في نفسه بألم الحريق ، ويلبس قضم دودة الضمير بحيث يستحيل الخوف هلعاً بفضل المتروض معه كل شيء على النار .

والميزة الرابعة لهذه التأملات هي الاهتمام بارادة الانسان ولا سيما ما يعود منها إلى حرية الارادة . فالتمهيد الثاني في التأمل يرمي الى تساؤل المتروض : « ما الذي أريد الحصول عليه من الله ، وبعبارة اخرى ، ما هو الشيء الذي يريده هو *Id quo vobis* . كل تأمل يجب ان يفضي الى مقاصد معينة يتحتم تنفيذها في اليوم ذاته . وتنتهي الرياضة باختيار نهج معين أو مسلك معين للحياة . فما من قصد من هذه المقاصد المنبثقة عن هذه العواطف والمشاعر التي اثرت خلال الرياضة يجوز ان يذهب جزافاً ، بل يجب ان يتحول كل شيء الى قرارات واضحة تنتظم حياة المتروض اليومية والتي يترتب عليه العمل بموجبها .

والصفة الخامسة لهذه التأملات هي التشديد على الاخذ بكل العادات ومراسم الطقوس والاعراف التي تقوم بها الكنيسة من : تكريم القديسين ، والحياة الروحية ، والتبرك بزيارة الأماكن المقدسة والحج اليها ، وذخائر القديسين ، والنذور ، وغير ذلك .

فكيف يحافظ المؤمنون على الاخذ بالرياضات الروحية بعد انقضاء الثلاثين يوماً ؟ قبل كل شيء بالصلاة المستمرة طيلة النهار . فالؤمن يرى الله الاب ويسوع المسيح متمثلين في كل المخلوقات وفي هذه الكائنات المحيطة به ، والأشياء الواقعة على مقربة منه ، بحيث ان كل ما تقع عليه العين يذكره بالله ، أو انه يشاهد الله فيه .

ثم بالصلاة الصباحية ، اليومية ، المنظمة . فقد كان القديس اغناطيوس يصرف ساعتين كل يوم في الصلاة ، بلا انقطاع . كما كان تلاميذه يصرفون ساعة في الصلاة على الاقل .

ثم عن طريق فحص الضمير فحماً عاماً وفحصاً خاصاً ؛ ثلاثة فحوصات خاصة للضمير ، كل

يوم ، حول الخطيئة الرئيسية التي يرغب المؤمن في استئصال شأفتها من نفسه ، احدهما صباحاً فيجدد المؤمن مقاصده ونياته الحسنة ويستمرض الظروف التي قد يتعرض فيها للسقوط في الخطيئة ، بحيث يتمكن من تفاديها ، وآخر عند الظهر محاسباً نفسه عما فعلت في الصباح ، والآخر في المساء يستمرض معه حوادث بعد الظهر ، مع الحرص على ان يدون في مفكرة الخطايا التي اقترفها . وعندما ينصرف للنوم مساء ، يقوم بفحص عام للضمير يستعرض فيه اعمال النهار وتصرفاته بالنسبة لوصايا الله والخطايا الاخرى .

واخيراً يمكن للانسان ان يصلي طوال النهار . وهنا يقترح اغناطيوس ان يتلو المرء الصلاة الربانية « ابانا الذي » بتأمل فينظر ملياً عند كل كلمة من كلماتها ليتشبع جيداً من معناها ومدلولها ، او انه يصلي كما يصلي المسلم: كلمة بعد كل تنفس بحيث يعي تماماً مدلول الصلاة ، فينفذ من كلمات « ابانا » كل ما لها من معنى . وهكذا يصرف اسابيع في التأمل بمعاني الصلاة الربانية ، او « السلام المريمي » او قانون القديس ، والمزامير واستخلاص ما فيها من هدوية المعنى .

وهذه الطريقة المثلى في استجلاء الامور ، وتحديد المعاني واشاعة الافكار النافعة ، والحواطر المفيدة في الضمير وتحريك العواطف الكريمة في القلب ، وتوجيه كل نشاط فينا للعمل المثمر ، جاءت باطيب واشهى النتائج ، اذا انها ساعدت كثيراً على اعادة عدد كبير من المسيحيين الى حضن الكنيسة .

وهكذا تبخر هباء هذا الامل المسول الذي راود ، حوالي عام ١٥٣٠ ، خيال الانسانية الانجيلية . والذي بدا تحقيقه وشيك الوقوع لاصحاب هذا الرأي ، بين ١٥١٦ - ١٥٢١ . كان لابد من الاختيار بين الانسانية الانجيلية والاصلاح البروتستانتي والكنيسة المتجددة . فقد عاد عدد كبير من الانسانيين الانجيليين الى الكنيسة او انحازوا الى الدعوة التي نهض بها زونكلي مفضلين هذا على الدعوة التي قام بها لوثير . وانتهى كل شيء مع لوفيفر ديتابل ومع ابراسموس ، حوالي عام ١٥٣٦ ، بعد ما اقترب الاول كثيراً من تعاليم زونكلي بينما بقي ابراسموس اميناً لنظرياته واراته ، وقد تحلى عنه مريدوه والمعجبون به واصبح لا شأن له . وهكذا فحوالي العقد الرابع من القرن السادس عشر اي من سنة ١٥٣٠ - ١٥٤٠ ، كانت طلعت علينا ام النظم والمذاهب الدينية الجديدة التي كان من شأنها ان تتقاسم العالم الحديث في الغرب . هنا في امور الدين ، وهناك في عالم العلم وفي عالم الفنون ، هذه المجالات التي برز فيها العمل البشري ولحمت لنا صوراً جديدة للانسان والكون - فقد طلعت علينا السنوات الثلاثون الاولى من القرن السادس عشر بعالم جديد .

على مثل هذه الصورة التي رسمنا كانت الاوضاع قد برزت واتضعت وقبولت .
كسفين
غير ان التيار الاصلاحى ، هذه الحركة التي اصبحت في مقدورها الان ، منذ عام ١٥٢٩ بان نسميها الحركة البروتستانتية لم تتوقف عن التطور والتحول . ففي سنة ١٥٣٣ ،

صدر الملك هنري الثامن ، ملك انكلترا : « قانون السلطة العليا » فوضع بذلك الاسس التي قامت عليها كنيسة قومية وطنية ، في انكلترا ، هي الكنيسة الانكليكانية . فالملك هو الرئيس الاعلى الاوحد لهذه الكنيسة مع كل ما يستتبع ذلك من سلطة روحية . وقد بدا لهؤلاء القوم الذين رأوا انهم يستطيعون الاستمرار في الكاثوليكية ان لوثير وزونكيلي لم يعودا بكافيين : كذلك بدا لبعضهم ، ان لوثير انتقص ، بشكل من الاشكال ، من سلطة الله المطلقة ، عندما راح يُعلم بانه يبدو وكأن علم الله الكلي حتم عليه إعداد مختاربه منذ الازل ، وهكذا حدثت فيه سبحانه وتعالى ، حريته وسيادته . كذلك سلم لوثير ان الطبيعة الالهية ، في السيد المسيح ، أضفت على الطبيعة البشرية فيه مما له من كلبة الحضور والوجود ، محافظة منه على حضوره في القربان . فاذا ما تم شيء من هذا التفاعل او التواصل بين هاتين الطبيعتين ، أفليس بإمكان الطبيعة البشرية ان تؤثر ، بشكل ما ، على الطبيعة الالهية ، فتنقص بالتالي منها؟ وهكذا لاس لوثير الهرطقة المونوفيزية ، هذه الهرطقة التي قالت بوجود طبيعة واحدة في السيد المسيح ، وهو قول لا يمكن لاحد ان يطيقه او يقبل به .

أما زونكيلي ، فقد عرف ان يتفادى المشكلة بنكرانه الحضور الحقيقي في القربان المقدس ، فالسر عنده ، هو مجرد رمز لا غير أو احياء ذكرى « هو صورة مجازية جوفاء ، خواء . ولكن الا يقضي هذا القول والتسلم به الى ديانة باردة جافة ؟ اذ ان مجرد تناول خبز التقدمة وشرب خمر الكأس فيه تعبير عن ايمان المرء وعقيدته ، ولكن دون ان يتم بينه وبين الله اي اتصال أو تماس . والله يبقى نائياً ، بعيداً ، ضائعاً في سمائه . هذا ، لعمرى ، كلام مؤلم ، موجه ، يحز في النفس ، ويصعب سماعه على القلب والاذن . وبالإضافة الى ذلك ، راح زونكيلي يُنزل الخطيئة الاصلية منزلة مرض موروث وبذلك هوّن كثيراً من تبعية الحاطىء ومسؤولياته ، هذه المسؤوليات التي ارادها الغير المتشددون ، كاملة غير منقوصة إظهاراً منه لفعل النعمة . واخيراً راح زونكيلي يعزو ما قد يكون لدى الوثنيين من الفضائل ، الى موهبة خاصة من الله . ففضائلهم ، في نظره ، فضائل حقيقية ، وهو قول يُشتم منه مقالة الانسانيين الانجلييين .

ومن جهة اخرى ، شمر بعض البروتستانت ، بشيء من القلق من جراء المحاولات الايرينية *Irénisme* التي بذلت بكثرة بين ١٥٣٣ - ١٥٣٥ ، للتقريب بين الكاثوليك واللوثيريين بالرغم من كل الفوارق التي تباعد بينهم ، بشأن القداس ، هذه المحاولات التي بدت للمتشددين المفاين منهم ، لا تحتمل ولا تطاق . وكان البروتستانت يتبرمون جداً ويستشيطنون غيظاً ضد من ينزلهم منزلة اللامعديانيين الذين نظروا اليهم نظرم الى فوضويين اجتماعيين . ولكي يقطعوا الطريق على كل التباس ويحددوا اقصى ما يمكن ان تصل اليه تنازلاتهم بهذا الشأن ، وضعوا بشكل نهائي ، وثيقتين بروتستانتيتين هما : « الاهاجي *Les Placards* » ، التي ظهرت عام ١٥٣٤ ، و « المؤسسة المسيحية » التي هي من وضع كلفين نفسه ١٥٣٦ .

اما « الاهاجي » التي أعدها فريق من الفرنسيين البروتستانت لجأوا الى مدينة نيوشاتل ،

في سويسرا ، فهي تلتزى بتعاليم زونكلي ونظرياته . فقد رموا دوماً ، الى ما يشير الشكوك ويزيد من القطيعة ، وذلك بمهاجرتهم قطب العبادة لدى الكاثوليك : القديس الالهي . « بذل يسوع المسيح جسده وروحه وحياته ودمه لاجل تقديسنا في ذبيحة كاملة ، نهائية ، لا يمكن ان تماد او تتمثل بذبيحة حية اخرى » . فالزعم بتجديد ذبيحة السيد المسيح كل يوم ، كما يدعي الكاثوليك ، هو التجديف بعينه على السيد المسيح ، وهو زعم لا يختلف بشيء عن القول بوجود اضافة شيء ما على ذبيحته . والزعم الكاثوليكي بالقول ان يسوع المسيح موجود فعلاً ، حقيقة ، ذاتياً وشخصياً ، يجسده ودمه ، تحت اعراض الخبز والحمر ، هو كفر فاضح وخديعة علنية ، ومخالفة نكراه للكتاب المقدس ، لأن السيد المسيح بعد قيامته من بين الاموات ، صعد الى السماء وجلس عن يمين الله الآب . و« يستنتج من هذا القول انه اذا كان المسيح موجوداً يجسده في السماء ، فلا يمكن له ان يكون ، في الوقت ذاته ، على الارض ؛ واذا كان موجوداً على الارض ، فلا يكون موجوداً في السماء ، اذ انه من الثابت ان جسداً حقيقياً لا يحتمل الا حيزاً واحداً ، ولمرة واحدة » . وعلى هذا قس كلامهم حول الاستحالة الجوهرية ، وحول رجال الكليروس ، وغير ذلك من القضايا . وهذه « الالهجي » تمثل نصاً اساسياً فقط ، املته روح القطيعة البغيض ، مما اثار بالفعل شكوكاً هائلة . ولعل اروع وانكى من هذا كله ، هو هذه الروح العقلانية التي جاشت فيها . والثابت ان كل البروتستانت ، في هذه الحقبة كانوا يتنكرون لهذه العقلانية ، لأن العقل ، بعد ان افسدته الخطيئة الاصلية ، اصبح عاجزاً عن الوصول الى اية حقيقة . وبما يلفت النظر بالاكتر ويحدث مثل هذا الدهش ، هو ان نلاحظ كيف ان الذين قامو بوضع هذا النصوص ، رفضوا القول بالحضور الحقيقي ، لمناقضته ، في رأيهم ، مبدأ الذاتية ، كما يناقض الظواهر الحسية الملموسة القابلة للقياس ، اذ يخلط خلط عشواء ، بين ما هو للروح وبين ما هو للمادة . نص كل ما فيه يتنزى بالروح الديكارتية ، روح هذا العصر .

اما كلفين الذي كان في صفره ، سادناً لاحدى الكنائس وله من العمر اذ ذلك ١٢ سنة ، والذي سيم كاهناً وهو ابن ١٨ سنة ، فقد اثار من جديد ، ومن الاساس ، مطالب الاصلاح البروتستانتي ، مزيداً عليها ما رغب في اضافته من نظريات جديدة ، بعد ان عرف كيف يتجافى على الاخص ، المساوىء التي وقع فيها كل من لوثير وزونكلي . كان هم الاول والاخير الحفاظ على سلطان الله وسيادته . وراح بوصفه من اتباع الفلسفة الاسمية ، يؤكد ان الله تتمذر معرفته ، كما انه يستحيل على العقل البشري تفهمه وادراكه ، حتى ولو بالمجاز . فالصورة التي نقيمها له وننحتها عنه في ضمائرنا ، حماقة هي ، لا اكثر ولا اقل ، فالكتاب المقدس وحده ، يوحي لنا ، على قدر ما نستطيع ان نفهم ونستوعب ، بما يتوجب علينا معرفته ، وما فيه الكفاية ليشير فينا الخوف والمحبة . وبواسطة الكتاب المقدس وحده ، نتعرف الى الله ، عن طريق يسوع المسيح وبيسوع المسيح ، مرآة الله ، ولكن أنى لنا ان نعرف الله نفسه معرفة حقيقية . ولكي نفهم الكتاب المقدس حق الفهم يجب الاستعانة بالروح القدس . وعندما نشعر

بذواتنا بشهادة الروح القدس الحي فينا ، يرسل هذا الروح الحياة في الكتاب المقدس ويجعله مفهوماً ، سهل التناول ، ويشهد فينا عالياً بصحتها ، دون ان يحذف من الكتاب المقدس أو يزيد عليه حرفاً واحداً . وهكذا نرى كلفين ينكر التقليد الكنسي . من الأساس .

لا بد من التَّوَهُيَّة الابن اساساً للايمان به . ولذا كان لا بدّ من التسليم بالقول ان الخليقة هي من عمل الثالوث الأقدس كله ، اي هي على السواء من فعل الابن ، كلمة الله الذي يطبق عليه كل ما جاء عن الله في العهد القديم . فالثالوث الأقدس يخلق العالم في كل ثانية ويتدخل بخلقه ، في كل لحظة . هذه هي العناية الربانية التي هي علة او سبب اختيار الله لمن اصطفاهم ، منذ الازل . « فالله هو الذي يدبر المؤمنين ، يعيش فيهم ويملك عليهم بواسطة الروح القدس » . فكل ما يأتيه المؤمنون يأتيه الله هو نفسه فيهم . فالله هو الذي يتصرف في الانسان ، وهو الذي يفكر في الانسان ، وهو الذي يتكلم بلسان الانسان ، هذا الانسان الذي لا يفعل شيئاً ، بمصر المعنى ، من نفسه . ففي قضائه الحر الذي اتخذته ارادة حرة موجودة منذ الازل ، يتصرف الله في مختاره ، كيفما يشاء ليؤمن لهم الخلاص الابدي . فبقضاء حر أصدره منذ الازل ، أعدّ الله مصير كل انسان . وهكذا فسلطانه كامل ، مطلق هو .

فآدم الذي يمثل البشرية جمعاء في شخصه ، قد لطم بخطيئته كل البشر . فالخطيئة الأصلية ، عطلت الى الأبد ، كل ما في الانسان من مواهب فائقة الطبيعة بالايمان ، ومحبة الله والقريب ، والتتوق إلى القداسة . والمواهب الطبيعية نفسها اصيبت هي الاخرى ، في الصميم ، بحيث لا يستطيع الانسان الا ان يُريد الشر . فاذا ما اراد الشر ورغب فيه ، فهو يتحمل كل مسؤولية ارادته ، ولذا استوجب القصاص المترتب على معصيته . ومع ذلك ، فتحنتنا من الله وعطفاً منه عليه ، أعطاه الله الناموس ، هذا المرئي ، المرشد الذي يقود الانسان الى الله . وعطفاً من الله وبمجرد نعمته الالهية ، تذلل الله وتجسّد وصار انساناً وأخذ جسد آدم . وبوصفه انساناً تاماً ، كفر عن خطيئة آدم كما كفر عن خطايا جميع البشر . وبوصفه الاله الحقيقي ، فقد قدم مرضاة وكفارة خليقة بالله العملي ، كل هذا والله يبقى نقياً ، منزهاً عن كل عيب ، في عظمتيه الالهية . والطبيعتان تلبثان متميزتين الواحدة عن الاخرى ، ليس في الطبيعة البشرية ما يلطخ او ما يحط من كرامة الله . والحال فاذا لم تستطع الطبيعة البشرية ان تلبس صفة الوجود الكلي التي للطبيعة الالهية ، فجسد السيد المسيح لا يمكن ، والحالة هذه ، ان يوجد في الافخارستيا ، وبالتالي ليس من حضور ذاتي في القربان المقدس .

باستحقاقات السيد المسيح ، تأمن الخلاص لبني البشر واصبح هذا الخلاص في متناول كل واحد منا بواسطة « المناولة الروحية » رمز الاتحاد مع المسيح بالايمان ، بواسطة الروح القدس ، الذي ارسله المسيح وأعطاه مجاناً ، للمختارين . « بالايمان جرى تطميننا بمجد المسيح » . وهكذا تم لنا الايمان الحقيقي ، والرجاء والثقة ، بارادة الله الخيرة ، تجاه كل واحد منا . فالمسيح يأتي ويسكن في قلب من اختارهم الله ، وفيه يعمل الروح القدس . والمسيح يتجدد في قلب كل من

اختارهم ، كما انه يُجَدِّد في قلب كل مختاره ، صورة الله التي افسدتها الخطيئة الاصلية وشوهتها؛ فيجعل فينا الانسان الجديد ويأخذ في محاربة الانسان القديم القائم في قلب كل واحد منا، انسان آدم الذي افسدته الخطيئة ، ويخرجه خارجاً ، وتحمل محله ، هذه الحرب التي ستطول فينا وتستمر في داخلنا ما امتد فينا أمد الحياة . هذا التجدد الذي لن يتم باكماله الا في السماء بعد الموت . اما علامة او دليل الاصطفاء هذه ، فهي الحرب الداخلية ، هذه القوة التي تحملنا على احترام وصايا الله ، والامتثال لها بالرغم من جميع الاوصاب والآلام التي سنتغلب عليها في نهاية الامر ، بالرغم من تكرار عثراتنا وسقطاتنا في الخطيئة . هذه العلامة التي تشير الى عمل الروح القدس في كل واحد من مختاره .

فالاعمال التي يفعلها المختار تأتي مطابقة لناмос الله ، ولكن هذا لناмос لا يولي المختار اي استحقاق قط ، لان هذه الاعمال لسنا نحن الذين نعملها ونأتيها ، انا الله هو الذي يعملها فينا .

وفي الوقت ذاته يغفر الله للمختار خطاياها ويُسرِّبها بسرِّبها بالبر المسيح الذي يؤلف معه شخصاً واحداً . فالمختار ليس باراً ولكن الله يراه باراً ، لان المسيح دخل الى قلبه بواسطة الايمان به .

وقد اعطى الله ، في تمنحه للبشر ، الكنيسة . فالكنيسة الحقيقية لا تقع تحت البصر . فهي شراكة كل الذين يعمل المسيح في وسطهم والذي يُجري فيهم روح القدس نعمته ، هي شراكة المدين منذ الازل ، « لاننا لا نستطيع النفاذ الى دخائل الناس للتعرف الى حقيقة ضمائرهم، ولن نعرف ابدأ ، ونحن على هذه الارض، من هم الذين يعمل فيهم الروح القدس عمله الخلاصي .

اما الكنيسة المنظورة فتتمثل في اجتماع المسيحيين في مكان معين ، هؤلاء الذين يؤلفون رغبة واحدة تحت ادارة القس او الواعظ . وتضم الكنيسة المنظورة ، في الحين ذاته ، المختارين والمدين منذ الازل ، مجتمعين ، بعضاً الى بعض في التقاء الحنطة والزوان . فالكنيسة تقوم ، في كل مكان ، بكراسة كلام الله ، وتصيخ اليه في كل مكان تُعطى فيه الاسرار وتوزع فيه وفقاً لما رسمه يسوع المسيح .

والكنيسة يفرض وجودها وقيامها نظاماً معيناً، فتحول بذلك دون عمل الهراطقة والمنفصلين عنها وتأثيرهم على المؤمنين ، وتمنع انتشار الاخلاق الرديئة . فهي تقوم باربع وظائف أو خدمات رئيسية ، منها اعمال المحبة . اما الوعظ وخدمة الاسرار ، فينطأ امرها بالقسيس ؛ اما التعليم ، فامرته متروك لمعلمي الايمان ، والمحافظة على النظام يقوم به الشيوخ ، والقيام باعمال المحبة يؤمنه الشمامسة . كل هؤلاء يجري تقديمهم بواسطة القسس والقضاة الذين يقومون بالوظائف الموكولة اليهم ، ويتم انتخابهم من قبل جماعة المؤمنين . والحقيقة ، فتعنين الجميع انما يجري من قِبَل الروح القدس وفقاً للواهب التي أعطيت لهم .

على الكنيسة ان تتقيّد ، حرفياً ، بالكتاب المقدس الذي هو وحده معصوم عن النلظ .
يجب الفصل تماماً بين الكنيسة والدولة ، يكفي الكنيسة عملاً ، تفسير كلام الله وشرحه للقضاة ،
وعلى هؤلاء ان يحرصوا على تطبيقه وفقاً للشرائع والقوانين المدنية . اما القاضي فواجبه يقوم
بالدفاع عن الكنيسة وتأمين حرية الكرازة بالانجيل .

فالله هو المعطي الكنيسة الاسرار . أما السر فهو علامة أو طابع خاص بيسم الله به
نفوسنا ، اشارة منه للنعم والمواهب التي جادت بها علينا مراحمه . . . وخلافاً لتعاليم زونكلي ،
حافظ كلفين على الاسرار بعد ان رأى فيها ليس مجرد ذكرى او تذكّار ، بل شهادة حق على
نعمة الله . وعلى عكس الكاثوليك ، هو يرفض التسليم بالقول ان السر يعمل من ذاته ، اي
بدون تدخل مباشر من قبل الله ، كما ان السر يضيف شيئاً جديداً على عمل الله . فالله له كل
سلطان وسيادة . فهو يستخدم الاسرار كأداة اخرى ؛ دون ان يوليتها شيئاً من قدرته .

اما الافخارستيا أو العشاء السري ، فكلفين يرفض التسليم هنا أيضاً ، بالحضور الحقيقي في
القربان المقدس ، كما يرفض التسليم بالطبع ، باستحالة الجوهر . . . وخلافاً لزونكلي ، فهو
يقر ويعترف ان جسد المسيح ودمه يوزعان تحت اعراض الخبز والخمر ، وكل الاشياء تجري
عندما نتناول الخبز والخمر كان المسيح حاضر فعلاً انما بشكل سري ، لا يرى ، وكان المسيح
يضم جسده ودمه الى جسده ودمنا ، ويسكب علينا روحه ونعمه السماوية . وهكذا نرى
كلفين يقرب المؤمن من الله يسوع الذي يفيض محبة للانسان القريب منه ، يسمع ويشعر به ،
ويذاق ويوزع على المؤمنين ، مع بقائه متميزاً عنه ، متميزاً تماماً متماسياً فوقه بكثير ، حسبما
توجبه طبيعته الالهية . وما يشهد على هذا النجاح يصيبه كلفين هو ان القرار الذي اصدره
برلمان باريس ، بتاريخ ١ تموز ١٥٤٢ ، بصدد الكتب والمنشورات التي تعمل على بث ونشر
المذاهب والتعاليم الدينية الجديدة ، ان الكتاب الوحيد بين هذه المطبوعات الذي جيء على
ذكر اسمه وعنوانه هو كتاب : « المؤسسة المسيحية » الذي وضعه جان كلفين .

وفي سنة ١٥٣٩ ، اعيد طبع كتاب « المؤسسة المسيحية » باللاتينية . اما اول طبعة فرنسية له ،
فقد ظهرت عام ١٥٤١ ومنذ هذا التاريخ توالت طبعات الكتاب ، مزيدة ، ومنقحة ، طبعة بعد
طبعة ، بالفرنسية ، وباللاتينية . وقد جعل كلفين من مدينة جنيف ، منذ عام ١٥٤١ ، « روما
الكلفينية » وانتشرت كتب كلفين بين القرى ، منتقلة من قرية الى اخرى بواسطة الباعة
المتجولين . وقد عرف المرسلون الذين ارسلهم للتبشير بدعوته ، بالنشاط الجهم ، اذ استطاعوا
ان يتسللوا الى كل مكان ، حاملين معهم علماً وثقافة ونشاطاً ، واستعداداً ليجودوا بدمائهم شهداء
ايمانهم . وكانت رسائله تحمل التشجيع والنصح لكل الكنائس الجديدة التي تنشأ في البلاد .
وهكذا دخلت الكلفينية اسكتلاندا وبوهيميا وهنغاريا وبولونيا والبلاد الواطية وفرنسا .

ديوان التفتيش والرهبنة اليسوعية في هذا الوقت بالذات توفر للبابا كتيبة دينيسة جديدة ، هي الرهبنة اليسوعية . نشأت هذه الرهبنة في ١٥ آب ١٥٣٤ ،

على مقربة من باريس في هضبة مونترتر ، في كنيسة القديس دنيس ، شفيح ملوك فرنسا ، على يد اغناطيوس ده لويولا ورفاقه الستة . وفي خلال صوم ١٥٣٩ ، وضع مؤسس هذه الرهبنة نظامها النهائي : رئيس منتخب مدى الحياة ، يتمتع بسلطات لاحدها ، يقطع اعضاؤها من الرهبان نذراً خاصاً هو الطاعة التامة لاوامر البابا، وينتظم هذه الرهبنة نظام عسكري مسلسل السلطة ، وتتمتع بروح انضباطية مجرية . فاليسوعي يطيع الاوامر الصادرة اليه ولو في الامتثال لها هلاكه وموته ، كما يمتاز اعضاؤها بثقافة شاملة ، مُعَرِّقَة . وفي ٢٧ ايلول ١٥٤٠ اقر البابا بولس الثالث بالبراءة البابوية التي اصدرها بعنوان « *Regimini militantis* » - الفرقة المحاربة نظام هذه الرهبنة وقانونها الاساسي . وفي سنة ١٥٤١ ، تم انتخاب اغناطيوس ده لويولا رئيساً عاماً للرهبنة اليسوعية ، واقسم بين الولاء بين يدي البابا . ومنذ ذلك الحين ، باشر اليسوعيون حريهم المتصلة وجهادهم المرير ضد جماعة الاصلاح ، في كل من ايطاليا واسبانيا، وفرنسا والمانيا . وكان البابا ، في الوقت ذاته ، يمت من جديد ، الى الوجود ، ديوان التفتيش ، باسم جديد « ديوان المقدس » ، وذلك بموجب البراءة التي أصدرها بتاريخ ٢١ تموز ١٥٤٢ ، بعنوان « *Licet ab initio* » ، ارتبطت ادارته رأساً بالأب الاقدس . وبعد ان أعدت عدته على هذا الشكل وأوتر قوسه على هذا النحو، امر البابا ، بتاريخ ٢٢ أيار ١٥٤٢ ، بالتنام الجمع المسكوني الذي اجتمع في مدينة تريدانتي ، وانتهت اعماله عام ١٥٦٣ ، بذات الروح التي تجلّت ، عام ١٥٢٨ ، في مجمع سانس .

مراطفة وملحدون خاض الكاثوليك والبروتستانت ضد بعضهم البعض حروباً شديدة رأوا انفسهم معها مضطرين ليخوضوا بحماس لا يقل شدة ، حروباً ضد جملة من الهرطقات والحركات المضادة للمسيحية او للدين بصورة عامة ، استشاطت في هذه الفترة بالذات ، الواقعة بين ١٥٣٦ و ١٥٤٥ . وقد جاء ظهور هذه الحركات الدينية بمثابة ردة فعل طبيعية ضد رسوخ موقف الكاثوليك والبروتستانت . ونحج ان نرى في قيام هذه الحركات ، بالاحرى ، نتيجة طبيعية ، لحرية الضمير والفكر ولهذا العقلانية الكامنة ، في حركة الجماعات التي سارت مع تيار الاصلاح والتي ساعد على نشرها والترويج لها ، هذه المهادلات الدينية ، التي شجرت اذ ذلك وتصادمت فيما بينها . فبمدان رأى هؤلاء الناس كيف عبثوا بالتقاليد وهزقوا من قضايا الايمان المتوارثة جيلاً بعد جيل ، وسخروا من الطقوس الدينية ومراسم العبادة ، راحوا يقيسون كل شيء ويحكون على كل شيء بمقاييسهم الخاصة ومداركهم ، متوهمين ان لهم من الفهم والمقل ما يمكنهم من الحكم على كل شيء . وقد رأينا تطل علينا في رأد الضحى حركة هؤلاء الذين اطلق عليهم كلفين ، عام ١٥٤٥ وصفاً سار في الناس ، اذ دعاهم « الدعار » او خالمي المذار . فنذ سنة ١٥٤٢ ، دخلت اللغات اللاتينية ،

واليونانية والفرنسية ، مصطلحات جديدة امثال : « ملحد » *Athée* و « ناكر المسيح » *Achrista* ، كما ان خريجي جامعة بادوا القدامى (ومعظمهم حكام ومن رجال الدين) التفوا فيما بينهم جمعية ، اشبه ما تكون بجمعية البنائين الاحرار (الماسون) لاقانون اساسي لها، تعمل على نشر الرُشدية (فلسفة ابن رشد) التي جرى توطين تدريسها ، في جامعة باريس ، بين المحاضرين الملكيين الذين تألف منهم ، فيما بعد المعهد المسمى ، كوليغ ده فرانس ، امثال الايطالي فيكومير كاتو، الذي نشر بحثه الاول عام ١٥٤٣ . وقد أطل من جديد فجور ذهني إنبنجس من تعاليم فرنسوا سكوُت أريجين أحد مفكري القرن التاسع للميلاد ، او من الالمانى أكارُت في القرن الثالث عشر . كان البعض من هذا الفريق حلولين ، على المكشوف ، فعلموا ان الله الكائن الاوحد ، لا شخصية له ، ولا وجودية له في ذاته بل هو مختلط بالمالم يمتزج به ، وان روح الانسان ليست سوى فيض خالد من الله لا تنفصم عنه . فالحياة الدينية عندم ليست سوى عملية تأمل وتجريد ، القصد منها التعرف الى ذات النفس الفردية ، مع الككل الاعظم . اذ ذاك تلمى الشخصية البشرية تماماً ، اذ يذوب الانسان وتسهو ذاته في الله . اما الباقون من هؤلاء الدعاتر ، فقد سلموا بوجود الثالوث الاقدس ، انما كانوا يقولون بوجود مسيحين : مسيح حسب الجسد ، يمثل الانسان على الارض ونموذجه الاكمل ، هذا المسيح التاريخي الذي عاش مع الرسل وعاشهم ، والمسيح الحقيقي ، مخلص الانسان الذي لم يكن غير الروح القدس نفسه اما الروح القدس فكان يحمل في شخص التأمل ، بروح الايمان ويؤله . وقد اعترف الحلوليون ومن لف لفهم ، للانسان ، بالذات الالهية ، وجعلوه بمنزل عن كل اثم ، وبمناى عن كل خطيئة . فهو لا يزل ولا يغلظ . فكل ما يشعر به في ذاته من غرائز وشهوات ورغائب ، هو مظهر من مظاهر الله . ولذا كانت كل نوازع الانسان خيرة ، جيدة حتى ما ادى منها الى التسق والرذيلة . وبما ان للانسان وحدة الذات مع الله ، فهو حر تماماً من كل نير او عبودية . والروحيون كانوا يوصون بالاتحاد الحر والشيعوية المطلقة . وقد انتشرت تعاليمهم منذ عام ١٥٣٠ ، ولا سببا بين الطبقات الاجتماعية الدنيا ، في مقاطعة الفلاندر ومدينة لياج والمانيا السفلى . وفي سنة ١٥٣٤ ، قام احد الطبيعيين من مقاطعة هينو ، يدعى كوانتين ، بادخالها الى فرنسا حيث تكاثر عدد اتباعه ، في مقاطعة نورمنديا . وفي سنة ١٥٤٧ ، راح احدهم من خلماو الثوب الرهباني يكرز بهذه التعاليم في مدينة روان . اما كوانتين فقد حكم عليه بالموت في مدينة تورنيه ، عام ١٥٤٦ ، لانه حرص بعض المحصنات على خلع المذار والاستسلام للرذيلة .

كان عدد من الانسانيين قد تأثروا بالكتاب القدامى . فالكتاب اليوناني لوقيانوس لم يفتر يوماً عن الهزم بالدين والتهمك على رجاله . ويرى الابيقوري لوكريس في كتابه : « حول طبيعة الاشياء والعرافة *De natura rerum et de divinatione* » ان النفس البشرية تتألف اصلاً من ذرات تتفتت في وقت ما وتتناثر، لتختفي من الوجود لانها مائة كالجسد. اما شيشرون فيضع على لسان شخصه ، في « محاوراته » ، وفي كتابه : « طبيعة الالهة والعرافة » اقوالاً

وخواطر زعموا فيها ان الله ، اذا صح وجوده ، تتمم معرفته كما يستعمل ادراكه ، وان الخلق فكرة خواء ، باطلة ، لا تركز على شيء ، اذ لو كانت الله موجوداً وخالداً ، فلماذا نراه فجأه يشعر بالحاجة الى الخلق والابداع . ويرى آخرون ان الالهة ليسوا سوى رجال عظام ، ألهمهم الناس لمآتهم وصنائعهم : فالدين هو من صنع السياسيين جاؤوا به ذريعة تمكنهم من التحكم بالناس كما يرغبون . . ويذهب آخرون الى نكران المعجائب والمعجزات ، وهذه الاعمال التي تثير الدهش والاستغراب مما ينسبون فعله الى القدرة الالهية التي يجهلونها : « كل ما يحدث هو مسبب عن علة طبيعية ، والذي يبدو عليه انه وراء النواميس العادية ، لا يمكن له ان يتم او ان يقع بعيداً عن الطبيعة » (المرافقة ، كتاب ٢ : ٢٢) وفي كتاب « التاريخ الطبيعى » الذي وضعه بليني والذي يؤلف وحده شبه موسوعة في العلوم الطبيعية ، في عصر مؤلفه ، نرى صاحبه يخلط خلط عشواء والعالم المادي . قاله هو « العالم الواسع ، الشاسع ، الخالد ، الذي لا بداية له ولا نهاية » . فهو ينكر العناية الربانية : من غير اللاتق قط ان نتصور الله معنياً بنا ، مهتماً بشؤوننا البشرية الحقيرة . ليس في الانسان نفس خالدة : « كل الناس سيان هم . فهم سواء في يومهم الاخير وقبل يومهم الاول . بعد الموت : لا شعور ولا احساس ، لا في الجسد ولا في الروح ، تماماً كما كان وضعهم قبل ان يولدوا ، » (كتاب ٧ : ٥٦) .

كل من الادباء المثقفين اطلع على الردود البليغة التي وضعها اوريجينس والقديس كيرلس ، وهي ردود طبعت مراراً وتكراراً ، وقعوا منها على اقوال وتعاليم بعض مشاهير الكتاب القدامى من خصوم الكنيسة واعدائها ، امثال سلس^(١) ويوليانوس الجاحد ، فاسمع ما يقوله سلس بهذا الصدد : اي شيء عمله يسوع المسيح هذا ؟ - فقد ضلل بعض المساكين البائسين وشفى بعض المرضى . ولكن ، أسكولاب والسحرة المصريون عملوا اكثر من ذلك - تجسد ؟ - هذه فكرة شعراء الاغريق . أفلم يرسل جو بتير ، عطار الى الاثينيين ، والى اللقذومونيين (السبرطين) ؟ - قيامته ؟ أفلم يبلغكم ان عشرين يونانياً اقاموا الموتى قبله ، على اساس من الصحة يقل او ينقص ، لا يتوفر له ؟ - موته ، ولكن أبكتيتس ، ولكن اناكسارخوس ، قاسا اكثر منه واحسن منه ، العذابات المبرحة . فقد 'رض' اناكسارخوس رضاً في جرن ، ومع ذلك سمعوه يردد لجلالديه : « حطّموا ، كسّروا غنّد اناكسارخوس ، فستبقون عاجزين عن ان تمسوه بأذى ، او ان تنالوا منه شيئاً » . هذه عظمة خليقة بالالهة ، بينا نرى هذا المسكين يسوع ينتحب قائلاً : « ايلي ايلي ، لم تركتني » ، ثم راح يخرج صارخاً : « انا عطشان » ، ثم يتنهد من الاعماق متمتماً : « كل شيء قد تم » . وهكذا انتهى نهاية اقل الناس قدراً وشأناً . والذي كان من العسير جداً على سلس ان يدركه ان يفقه سره هذا الفرق بين رجل يمجد بحياته مؤدياً واجبه بكل بساطة ، وبين مهرج ممخرق . الا انه كان على استعداد كلي ليأخذ

(١) فيلسوف افلاطوني المذهب عاش في روما في عهد الاسرة الانطونية ، في القرن الاول للميلاد . عرف بخصومته المسيحية ومهاجته لها .

بهذه الترهات التي طالما ردها اعداء المسيح من اليهود ، بان يسوع هو ابن طبيعي لجندي جلف هو بنثيروس ، الذي قضى حياته في شطف الجندي ، وانه ابن بغي طردها زوجها ، ذهب الى مصر حيث أتبع له ان يطلع على فن صنع المحرقات ثم استعان بما تم له من هذا الفنون ومن هذه الصنعة ، ليصنع ، فيما بعد المعائب ، وليتزعج فيما بعد وهو في الجليل واليهودية ، عصابة لصوص من فجاج الآفاق ، عددهم ١٢ ، خانه احدهم وسله تسليم اليد الى اعدائه .

حملت هذه التيارات الدينية في عباها الصاحب ، هرطقات وتعاليم مغايرة كما حملت في ثناياها نفيًا للمسيحية ونكراناً لها . فالصحاف والناشر الانساني الذائع الصيت اتيان دوليه ، قاده الجعري الفكري ، اذ ذاك ، الى مذهب الطبيعيين ، الاعلى انه احتفظ بمقيدة خلود النفس . غير ان معاصريه نظروا اليه نظرم الى ملحد معطل كافر ، ولذا صدر الامر باحراقه حياً في ميدان مويرت - في باريس . ويونافتورا ده برييه ردد في كتابه «صنوج العالم ، الذي صدر له ، عام ١٥٣٧ أو ١٥٣٨ ، بطريقة فكهة ، هذه الالهاجي والطعون التي وجهها سلس ضد ألوهية السيد المسيح وضد الوحي الالهي للانجيل . والاسباني ميشال سرفيه هاجم عقيدة الثالث الأقدس سنة ١٥٣١ ، وذلك في كتابه الموسوم : « مغالط الثالث » ، ولا سيما في كتابه الآخر الضخم : « العودة بالمسيحية الى جذورها الاولى » الذي وضعه عام ١٥٤١ ونشره مطبوعاً عام ١٥٥٣ . فقد رأى في الاقنوم الثلاثة : الاب والابن والروح القدس : ثلاثة مظاهر مختلفة للنشاط الالهي . وليس ثلاثة اقنوم متميز الواحد منها عن الآخر . فيسوع ، صاحب الانجيل ، ليس سوى انسان ، هو ابن الله حقاً ، مولود من الاب بالروح القدس ، ومموج من الله . ولكن يسوع هذا ليس بالكلمة الابدی ، الخالد ، الاقنوم الثاني ، من الثالث الاقدس . وإلا وجب التسليم ، ان صح القول ، ان يكون الاب ولد له ولدان ، وهو ظن أو قول مناقض للكتاب الذي يذكر : ابن الله الوحيد ، ثم ان السيد المسيح نفسه يقول عن نفسه انه ابن الانسان ، وليس الله بالذات . وهكذا نفت سرفيه نفوثة في محنطات الهرطقات القديمة المضادة للثالوث الأقدس ، فبعثها حية ، ولو الى حين ، كالاربوسية . وقد لاقى اتباعاً له بين الكاثوليك ، واكثر منهم بين البروتستانت . ولذا لاحقه كلفين امام القضاء الكاثوليكي الفرنسي ، ففر سرفيه وقدم لاجساً الى جنيف حيث جرى توقيفه بامر من كلفين ، وجرت محاكمته وحكم عليه بالموت حرقاً ، عام ١٥٥٣ .

وفي الاتجاه الذي سار فيه سرفيه ، سارا ايضاً فقيه سيني ، هو لايوس سوسين ، المولود عام ١٥٢٥ . فقد علم هو ايضاً ان الله واحد هو ، وان الكلمة والروح القدس ليسا سوى مظهرين من مظاهر نشاطات الله ، وان السيد المسيح هو انسان لا غير ، ابن الله ، انما لا طبيعية الهية له ، وان المسيح افتدانا بكرازته وتعاليمه بوصفه حاملاً لكلام الله ، وان لا اسرار في الكنيسة قط ، وان العشاء الفسري ليس سوى تذكرنا بذكرنا بموت السيد المسيح ، وان لا فائدة من النعمة وليس لها اي جدوى ، وان الانسان يتمتع تماماً بحريته واستقلاله ، يملك في ذاته الدوافع التي تحفزه

للامتنال لارادة الله . وقام لاليوس سوسين ينشر تعاليمه هو نفسه منذ عام ١٥٤٧ ، في زوريخ وجنيف ، وحلها الى بولونيا ، بعد عام ١٥٥٦ ، ثم صارت رسالته الى ابن اخيه ، كما صارت اليه مخطوطات الكتب التي كان وضعها ، ومذكراته ومفكراته ، كما انتقل اليه نشاط عمه الداعية . وتكاثر عدد السوسينيين في بولونيا ومنها أشعوا في الجاهات عدة .

فالهرطقات وما هو انكى منها وأشق : نكران خلود النفس وربما نكران الله نفسه ، كل هذه التعاليم المتطرفة وما اليها تغلغلت عميقاً بين الاوساط الشعبية . وحدث يوماً ان قامت سيدة من نيوشاتل ، من طبقة الشعب ، تنكر بين ١٥٣٨ - ١٥٤٢ ، قيامة السيد المسيح ، وبالتالي ، قيامة الموتى ، مدعية : « ان نفس الانسان توت بموت الجسد ، وانه لا يعود من فرق قط بين روح حيوان ونفس انسان » . وقد بلغ من شدة قلق القوم واضطرابهم لهذه التعاليم ان قام القسيس بجملته شمواء يداقمون ، بألسنتهم واقلامهم ، عن عقيدة خلود النفس وقيامة الموتى . وقد ظن لوسيان فيفر ان في القرن السادس عشر ، عصر الايمان الحي ، لا يمكن ان يظهر فيه ملحدون حقيقيون . واخذ يسرد النصوص التي لا تعني فيها كلمة « ملحد » - *Athée* ما يفهم منه : « لا اله » بل « لا دين » ، او « من لا يعرف الاله الحقيقي » . فبعد ان عول في هذا الموضوع على كشف ضم بيان المصطلحات والتعابير التي شاعت على ألسنة رجال القرن السادس عشر ، راح يلاحظ ان هؤلاء الناس لم تتوفر لهم ، اذ ذلك ، مصطلحات واوضاع علمية تتيح لهم الاخذ بالاحتمية العلمية ، وبالمادية ، وهي كلمات دخلت المعجمية في القرن الثامن عشر ، من خلال كتاب امثال فولتير وكنت . أما هنري بوسون ، فقد رجح ظهور ملحدين في القرن السادس عشر ، وبروزهم هو ظاهرة اجتماعية تجلت في كل العصور . واتخذوا برهاناً على ذلك ، رهبان الاجيال الوسطى الذين ، بالرغم مما عرف من تقواهم وخشوعهم ، انكروا فجأة ، الايمان بوجود الله ، فوجدوا بذلك ، انفسهم في فراغ مُطَبَّق وصمت مطلق ، وجهاً لوجه مع عالم ميت عديم القدرة على الايمان بالله . فالكفر أو الجحود بالايمان علة أو داء نحمله في اجسادنا كما نحمل تماماً ، التدرن الرئوي . « فهو في حالة كمون في معظم الناس » . وقد توصل الناس قملًا ، في القرن السادس عشر الى اشكال أو صيغ متعددة من الفكر المادي ، والاحتمية ، والمقلائية ، والرشدية (فلسفة ابن رشد) ، ونظرية بيبونازي لم تحكون ، بالفعل ، فلسفة مادية وحتمية ، لأن الصيغتين الاخيرتين كانتا تفتقران كلياً ، وفي الصميم ، الى إقامة الحد بين الروح والمادة ، كما افتقرتا ، في الاساس ، الى صورة ذهنية لعالم ، يتألف اصلاً ، من مادة جامدة متحركة . فاذا كان التمييز قائماً ، بصورة غافية ، في تعاليم الزونكلية والكلفينية المتعلقة بالحضور الذاتي ، فالفكرة لم تتضح وتبرز بجلاء ، الا مع ظهور ديكرات . ومنذ ديكرات توفر للعالم المعاصر صورة تامة ، مترابطة ، للحتمية وللمادية ولكن ، كل فلسفة مادية غير مترابطة ، ألبست لعمري ، بعد هذا ، يا ترى ، فلسفة مادية ؟ فاي شيء كانت فكرة سيدة نيوشاتل لعمري ؟ من المحتمل جداً ان تكون فكرة نكرانها خلود النفس ، ارتبطت في ذهنها ، بفكرة نكران الله ،

مع ان الفرق واضح بين الفكرتين ، ولكن ، أنى لنا ان نعرف تماماً ، ماذا عنت ، وماذا ارادت . وهكذا سيبقى الجدال والبحث حول الموضوع قائماً ، لما فيه فرحة المؤرخين ومسرّتهم مع انه من المحتمل جداً ان يكون ظهر ، في القرن السادس عشر ، ملحدون حقيقيون . ومهما يكن من الامر ، فالظواهر الرئيسية الاخرى التي طلعت علينا في القرون المعاصرة ، للمقلانية وللالمسيحية ، والمهرطقة ، بنوع عام ، كان سبق لها وتبلورت مسن قبل ، وبرزت واضحة للعينات .

الارواح الاجتماعية التي احاطت
بالنظم الدينية الجديدة

قام مؤرخون عديدون يتساءلون ، بحق ، عما اذا كانت هذه التيارات الفكرية والمجاري الدينية التي استعرضنا لها هنا ، لم تجد دافعاً لها ، وحافزاً عليها ، في هذه الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تحمكت بالتطور الحضاري ، في ذلك العصر . وقد طلعت علينا بهذا الصدد ثلاث نظريات متباينة النزعة . فقد خيل لبعضهم ان الحركة البروتستانتية لم تكن ، في الصميم ، سوى ثورة قام بها الامراء وطبقة النبلاء ضد سلطة البابا والامبراطور والملوك . وهذه النظرية اخذ بها في عهدنا المؤرخ الفرنسي ميشليه . وقد خطر لبعض هؤلاء الذين فلسفوا التاريخ ، ان يروا فيها محاولة قام بها ابناء الطبقة الدنيا ومعمو النقابات المهنية ، ونظار الرُش ، والفلاحون وكل من عانى من اضطهاد الامراء وضغط رجال المال والاعمال . وهي نظرية راجت في عهود هوسر وقد ظن لوسيان فيجر يوماً ان حركة الاصلاح الديني جاءت تعبيراً عن الحاجات التي جاشت بها البورجوازية الرأسمالية . ففي التاريخ وقائع تؤيد كلاً من هذه الحدسيات . كل الناس يذكرون اليوم ، موقف الامراء اللوثريين ، في المانيا ، حكام مقاطعات : هس وساكس ، والرئيس الاعلى لفرقة التيوتونيين : البرت ده براند بورج ، وغيرهم كثيرين ، ومصادراتهم الاوقاف وعيشهم بالاملاك الكنسية ، وخصومتهم مع شارل الخامس ، كما يتذكرون قصة الملك هنري الثامن في انكلترا ، والدور الذي لعبه ، في فرنسا امراء من الاسرة الملكية ، وبعض كبار الامراء ، في الاقبال على الحركات الجديدة وتبني الآراء والتعاليم الجديدة ، ونصرتهم لها والدفاع عنها ، والاستقبال الحار الذي لقيه لدى شقيقة الملك بالذات نارغريت ، دنغولم التي اصبحت ، فيما بعد ، ملكة نافار في نيراك ، مفكرون امثال لوفيفر ديتابل ، عام ١٥٢٩ ، والانجلي الجديد العهد جيرار روسيل الذي رسمته اسفلاً لمدينة أولسرون ، والدور الذي لعبه فرنسوا ده كوليني في مقاطعة بريتانيا ، وفي ايطاليا بالذات ، الدور الذي مثلته رينه ده فرانس التي اصبحت فيما بعد ، دوقة ، فراره ، التي ساندت مساندة ظاهرة حركة الاصلاح ؛ كما يذكر الككل قواطع بعض المطارنة ، من ذوي الحسب والنسب ، وغضهم الطرف عن التعاليم الجديدة ، وتسامحهم عنها . أما المؤيدون للنظرية اللثافية ، فهم يشددون على ثورة الفلاحين الالمان في مقاطعة الغابة السوداء ، وفي النمسا ، عام ١٥٢٤ - ١٥٢٥ ، كما يشددون على ظهور جمهورية اللامعمدانيين الشيوعية التي أعلنت في مونستر ، كما يلجظون ، بالتباه كلي ، هذا العدد الضخم من اهل الحرف والندافين ، والنساجين ، والقصارين

والاسكافين والزجاجين والمجلدين وغيرهم كثيرين من ترددت اسمائهم وجيء على ذكرهم في هذه الدعاوى المقامة على الهراطقة الذين صدرت بحكم احكام قضائية، في فرنسا ، ولاسيا في مدينة بوه بين ١٥٤٥ - ١٥٤٦ ، وفي باريس ، سنة ١٥٥٧ . والنظرية الثالثة يؤيدها ما نرى وما نفس من الاقبال على حركة الاصلاح ، هذا العدد العديد من التجار ورجال الاعمال في كل من : افقرس وبيروج وروان ، وليون وفي غيرها من المراكز التجارية الكبرى في اوروبا ، لما لاقوه من التشجيع الادبي في اللوثرية والكلفينية ، في مشروعاتهم الاستتارية .

كل هذه الحوادث وقائسح حية ، عاشها الناس ، اذ ذاك وتصلح كل واحدة منها ، بالرغم مما بينها من مفارقات ، حجة لكل من هذه النظريات ، ودليلاً لها . فلننظر الى ما هو ابعد من ذلك واعمق لئرى ماذا من حقيقة الامر .

لعله من المفيد ، ان نقيم ، بادىء ذي بدء ، الحد بين ظهور او نشأة الاصلاح البروتستانتي وبين الترويج لمبادئه ، والدعاية لها والعمل على نشرها . انطلقت الحركة كقضية دينية من هذه القضايا الكنسية . فقد ود رينودو الا يكون انطلق الاصلاح البروتستانتي من حادث اختلاف بين الرهبان . وماذا يضير الامر ؟ أفلا نرى الرهبان ورجال الدين عند منطلق هذه الحركة وانفجارها ؟ ألم يكن ايراسموس ولوثير رهباناً وكهنة ، كما كان لوفيفر ديتابل وكلفين هما ايضاً من رجال الدين ؟ فما هي لعمري الدوافع الدفينة لهذه الحركة التي قاموا بها ؟ بالطبع حوافز دينية بحجة . علينا ان نقبل وان نسلّم بان هنالك أساساً يرون ان علاقتنا بالله هي قضية رئيسية ، مصيرية او بالاحرى هي القضية الكبرى في هذه الحياة .

وفي الترويج لمبادئه هذا الاصلاح والعمل على نشرها بين الملأ ، من أخذ المبادرة وقام بالجهد الأكبر ؟ الرهبان اولاً ورعاة الكنائس ، فيما بعد ، ورؤساء الماهد والمنظمات التربوية (ككلهم رهبان ، اذ ذاك) ، ومعلمو المدارس . كل هؤلاء لعبوا الدور الأكبر في نشر هذه النظريات الدينية الجديدة . ثم ، من هم الذين حملوم على اعتناق مقالتهم ؟ - رجالاً ونساء من كل لون وجنس وطبقة من طبقات المجتمع الانساني : اشراف ، ومحامون ، وقضاة ، وموظفون في خدمة الملك ، ومن رجال المال والاعمال في التجارة والصرافة ، ومعلمو الحرف واصحاب المهن الحرة ، وسكان الريف ، من مختلف المستويات . هنالك من يمترض ان السواد الأكبر من أتباع الاصلاح البروتستانتي كانوا من السوقة . صحيح هذا ، والاصح منه ان السوقة ألقوا السواد الاعظم من المجتمع . والمهم اثباته هنا هو ان نعرف بشيء من الدقة ، ما اذا كان عددهم يؤلف ، نسبياً ، العدد الاوفى من هذه الطبقات التي تألف منها المجتمع ، اذ ذاك . الا اننا نرى ، مع الاسف الشديد ان دراسة تركيب المجتمع في ذلك العصر ليست بعد من التقدم بحيث يمكن اعتمادها حجة ودليلاً . وقد لا تأتي نتائجها - لو صح الركون اليها - قاطمة ، جازمة ، باقة . علينا ان نحسب حساب المجتمعات القومية الجانب ، والافراد الذين يتمتعون بنفوذ قوي ، الذين يفرضون على الغير مثلهم ووجهة نظرهم في الحياة . ففي الوضع الاجتماعي القائم ، اذ ذاك ، يستحيل علينا

ان نرد كل محاولة اصلاح ، أو حركة اصلاحية ، الى طبقة اجتماعية معينة ، أو الى فئة اجتماعية خاصة ، مهما كان لها من حول وطول . ولما كان الدين يغمر الفرد بأكمله ، في معاشه ، فليس من يمتدق ان المشاعر الدينية التي حملها القوم ، في الثلث الاول من القرن السادس عشر ، لم تتأثر بما جاشت به نفوس الناس من عواطف ولواعيج ، وخواطر ، ومصالح شخصية ، ومادية . ولكل وضع من هذه الاوضاع والحالات دوافع ونوازع خاصة ، ومسببات تشدها بعضا الى بعض . فالاصلاح هو قبل كل شيء - كان قصة دين وحكاية ديانة .

عن بعضهم ان يرى في الاصلاح سبباً من الاسباب التي هيأت لطولع
 الاصلاح والرأسماليين
 الرأسمالية . ان الكنيسة شجبت بالفعل وتشجبت باستمرار ، الربا على اشكاله والوانه . فمجمع اللاتران الذي انعقد عام ١٥١٥ ، وكلية اللاهوت في باريس ، جددا ، نزولاً عند اقتراح ابداء عام ١٥٣٢ ، تجار اسبانيون في انفرنس ، الحرم الذي صدر من قبل بحق الربا . ففي نظر اللاهوتيين المدرسين : « سادة الانسان الاتم لا تم الا بمشاهدة الذات الالهية » فمقتنيات هذه الارض ليست سوى ذرائع أو ادوات يجب ان تساعدنا على العيش بحيث نعيش حياة روحية تؤهلنا بدورها للحياة الابدية . فالسعي وراء هذه الخيرات الارضية والعمل على توفيرها ، يجب ان يتم باعتدال كلي . فالملكية شرّاً لا بدمنه ، والشيعوية قد تكون افضل الحلول . والسعي الدؤوب ، المتكالب على ادخار المال وجمع الثروة خطيئة هو . فالمعمل في هذا السبيل يجب ان يستهدف ، قبل كل شيء ، تلبية حاجاتنا الضرورية . فالانتاج ضروري ، وهو محمود للغاية . والتجارة أمر لازم ، وان كانت لا تخلو من خطر . فالتقد قد يسي مفسدة للاخلاق والآداب ، ومحط من شأن الانسان . فمن اشترى للتصنيع والبيع عمل جيداً . ومن يشترى ليبيع ما اشترى في سبيل تأمين بعض الربح يسيء التصرف . يجب ان يتم البيع بشئ عدل يساعد على تأمين حاجات المنتج . الذين يجب ان يكون بلا بدل ، بدون فائدة . على مثل هذه المبادئ قامت النظرية التي تتلاءم مع نظام زراعي يتفق مع صناعة ضعيفة في مجتمع يتألف من فلاحين ومزارعين ومعلمي 'حرّف . والمعروف ان النظام الرأسمالي نشأ قبل الاصلاح بزمن طويل ، فهو نظام 'عمل به منذ القرن الثالث عشر ، في ايطاليا والبلاد الرواطية ، وفي مدن فلورنسا والبندقية ، وبروج ولياج و غننت . فاصحاب البيوتات المالية الكبرى ، في ذلك العصر من ايطاليين والمان ، كانوا يقومون بمضاربات مالية قبل ان ينشر لوثير تعاليمه . والمعروف ان كبار اصحاب هذه البيوتات المالية امثال جر وولزر وهوشتر ، كانوا من أعدّ خصوم لوثير والاصلاح الديني الذي قام به . قال : « لثاوثليكية نفسها كانت تبرر تشغيل رؤوس الاموال عندما يكون الدائن نفسه مساهماً في » ارة المشروعات ، هذا إن لم يكن يتحمل هو وحده نتائج كل خطر ينجم عن هذه المشروعات ، كما انها كانت تجيز قيام شركات مساهمة للمضاربات المالية . كذلك أجازت تسليف مبلغ من المال لقاء ربح دائم بفائدة صغيرة . والفلاسفة انفسهم من اتباع مدرسة توما الاكوييني استجابوا ، بشيء من التعاطف ، لمقتضيات النظام الرأسمالي .

فالل هو من هذه الوسائل المشروعة في خدمة الله .

اما لوثير ، فقد ناصب رأس المال العداء العنيف لانه من عمل ابليس . فاسمعه يقول :

« اكبر مصيبة نزلت بالامة الالمانية ، هي ، لا شك بذلك ، المضاربات المالية التي هي من اختراع الشيطان والبابا لتأييدها هذه الاعمال التي جرت على العالم ويلات لا يمكن حصرها ولا تصورهما . فالالتجار مع الخارج في سبيل استيراد المحاصيل من كالكيوت ومن الهند واماكن نائية اخرى ، تسبب أذى للبلاذ بقترب تقدمها الى الخارج . ومثل هذه التجارة لم يكن من الجائز السماح بها . عندي الكثير عن هذه الشركات التجارية حيث لا تقع العين الا على الجشع وعلى امور مخالفة لا بسط قواعد العدالة » .

وهاهو كلفين يتبنى مثالية بولس الرسول في الفقر ، هذا الشرط الاسامي لكل حياة مسيحية حقة : « يكفينا ان تتوفر لنا وسائل العيش واللبس .. »
فاذا كان لوثير وكلفين لم يكونا وراء ظهور نظام الرأسمالية ، فقد ساعدا ، من حيث لا يدريان ، على الترويج له والتمكين لاصوله .

شجبت لوثير الرأسمالية ، ونظام المضاربات المالية . وقد نصح بالدين الهباني ، بل أوصى به ، والبيع بسعر منخفض يؤمن مع ذلك اسباب العيش للبائع . الا انه امتنع عن سن اي قانون أو تشريع ، رغبة منه في اطلاق الحرية الكاملة أمام الناس ، في هذا المجال .

فعلى التاجر ان يرجع ، في ذلك ، الى ما جاء في الانجيل والى صوت ضميره ، على اننا نرى اكثر الناس يتصرفون بحرية تامة ليكسروا من حدة توصيات اللاهوتيين المدرسين . فاللوثيرية ، ادت ، بالرغم من لوثير ، الى انتشار الرأسمالية ، تدعيماً منها للحكم المطلق ونظام الاستبداد .

اما كلفين الذي كان اصغر سناً من لوثير ، فقد نشر تعاليمه في اوساط تتعامل كثيراً بالنقد بعد ان جعل مقره الدائم في مدينة جنيف التي اصبحت ، اثر انهيار مدينة ليون الاقتصادي في اعقاب الحروب الالهية الدينية ، مركزاً مالياً كبيراً ، وذلك بوصفه زعيماً لحركة مدينة ساعد على نشرها عمال مهاجرون وتجار . فهو اكثر تحرراً من لوثير في ما يتعلق بالربا . ومن جهة اخرى ، لم يتقاعس قط بوصفه رجلاً فقيهاً متشرعاً ، عن فرض نظام شديد بعد ان اقتنع في الصمم ، بضرورة ضبط الامور لاستتباب الامر .

فهو يرى : « ان الله هباً الاشياء لتأتي وفاقاً لما حددته ارادته الالهية » . فالرأس المال ، اذا والاعتماد المالي ، والمصرف ، وحركة الاعمال التجارية ، والنقد كل ذلك وماليه ، هو من ترتيبات الله ، ويجب بالتالي مراعاتها والعمل بموجبها ، واحترامها احترامنا لحق العامل باجره ، ودفع ايجار عقار مستثمر ، ودفع فائدة عن مبلغ جرى تسليفه يكون متناسباً مع المبلغ المدفوع عن قطعة ارض تستغل بالحصه . فالله أعد كل واحد منا لدعوة خاصة يؤول الاضطلاع بها الى تمجيده تعالى . فالتاجر الذي يسعى لتأمين ربح له يقتضيه نجاح مشروعه ومتجره على قدر ما يأتيه من جهد وقناعة واقتصاد ونظام ، يتفق تماماً مع مقاصد الله ،

ويساعد على تقديس العالم بالجهد المبذول ، فيتصف عمله هذا بالقداسة . « فالعامل هو اكثر ما يكون شهماً بالله » . « فالرجل الذي يرفض ان يعمل يجب ألا يأكل » . قد يكون فقر المرء ناجماً عن الكسل وهذا يعتبر اهانة موجبة ضد الله تعالى . أما الصدقات فيجب ان تعطى بتحفظ كلي ، بمد روية ونظر .

نرى مما تقدم ، ان كلفين وقف الى جانب الاعراف والتقاليد البورجوازية يؤيدها ويشد من ازرها ، وهذا ما يفسر النجاح الذي صادفته دعوته لدى هذه الطبقة التي كان ابناؤها ينصرفون عادة لاعمال التجارة والصناعة ، في أنفوس ولندن وامستردام ، وهم واقفون انهم انما يعملون وفقاً للترتيب الالهي ويسيرون على النهج الذي رسمه الله لهم ، ولذا قست قلوب ابناء هذه الطبقة قسوة الحديد لا تعرف الشفقة الى قلوبهم سيلاً .

اصلاح والدرلة
سارت حركة الاصلاح النزعات القومية وماشتها ، فالعقيدة الدينية مسن شأنها ان توحد الشعوب وان تلهب مُهلها القومية المشتركة ، وتُوصِّف صفوفها لتقف كالبنيان المرصوص ضد الاجنبي ، فتنتصب في وجه ملك لا يشاطرها ايمانها . فهل من عجب ان تصبح اللوثرية ، في السويد مثلاً ، رمزاً للقومية السويدية تحمل السويديين على امتشاق الحسام وعلان الثورة في وجه المستعمر الدانماركي (١٥٢٣ - ١٥٢٩) . اما في الامبراطورية ، فالانضمام الى اللوثرية بدا مظهرأ من مظاهر صراع الامارات الصغيرة للحد من اطماع الامبراطور ومنعه من التحول الى نظام ملكي مستبد ، مطلق التصرف ، وبذلك يصونون الحريات التي كانوا يتمتعون بها ويحققون الاستقلال . التام الذي طالما راود خواطرم . اما الكلفينية ، فقد ساعدت من جهتها على تكوين دولة جديدة هي الولايات المتحدة التي اصبحت الحخير الذي حتر عجين الامة الاسكتلاندية .

اصلاح والتسامح
بالنظر لتعذر اجبار رجال الاصلاح والمعتنقين لحركته على الارتداد أو استئصال شأفتهم من الارض بقوة السلاح ، فقد رأى من بيدم الامر ان يعتصموا بالتسامح وحل الامور بالتي هي احسن ، عن طريق عقد اتفاقات او معاهدات دينية ، تكاثر عددها في هذه الحقبة بالذات . ومن ابرز هذه المعاهدات وأيسرها ذكراً ، معاهدة او اعتراف اوغسبورج ، التي أبرمت عام ١٥٥٥ . وفرمان فانن ، الذي اصدره الملك هنري الرابع في فرنسا ، عام ١٥٩٨ . ففي معاهدة اوغسبورج ، اضطر الامبراطور شارل الخامس للاعتراف رسمياً باللوثرية ، كما اعترف للامراء الذين اعتنقوا الاصلاح وثاروا عليه ان يختاروا الايمان او الديانة التي يرغبون في اتباعها ، مع الحق باجبار رعاياهم على اعتناق دين الامير عملاً بالقول المأثور : الناس على دين ملوكهم *Cujus regioeius religio* . كذلك سلم الامبراطور بالاقرار بشرعية مصادرات الاوقاف والاملاك الكنسية التي سبقت عام ١٥٥٢ ، شرط ان يلزم كل من يرغب ، من الآن فصاعداً ، في الانضمام ، من الامراء ، الى اللوثرية ، بارجاع الاملاك التي

يكون صادرها ، الى الكنيسة . وعلى هذا الاساس استتب السلام . فالاتفاقات المعقودة في اوغسبورج عنت اللوثيريين وحدهم دون الكلفينيين ، كما ان هذه الاتفاقات سرى مفهومها على الامراء وليس على الافراد . اما هنري الرابع ، فقد ذهب الى ابعاد من ذلك بكثير ، كما نص عليه منطوق فرمان نانت ، اذ عرف ان يتخذ من التدابير والوسائل ما سهل التمايش السلمي ، في قلب الدولة الواحدة ، لرعايا اختلفوا عقيدة وتباينوا ايمانا ، وربما كانوا على مستويات حضارية متفاوتة ايضا . فالديانة الكاثوليكية كانت الديانة الرسمية . اما الكلفينيون ، فقد نموا ، هم ايضا بحريتهم الدينية وبحرية العبادة ، مقتصرين على المقاطعة التي يوجد فيها بروتستانت وعلى عدد من المدن والقرى . وتمتع اتباع الاصلاح بحريات عريضة ، فكان لهم محاكم مختلطة ومدن ملاجئ محصنة يقيمون فيها حاميات لهم . وتمن المسؤولون في فرنسا من الحد من انتشار البروتستانتية بالحد من حرية العبادة . وخلافا لصلح اوغسبورج ، اعترف فرمان نانت رسمياً ، ولاول مرة في التاريخ ، بوجود ديانتين وبتساوي الحقوق تقريبا بين اتباعها رعايا الدولة الواحدة تحت حكم ملك واحد ادارة واحدة .

الفصل الثالث

النظم الاقتصادية الجديدة

قد تكون دنيا الاقتصاد المجال الاكبر الذي تصارعت فيه النظم الجديدة التي طلعت علينا في عصر النهضة . فالرأسمالية التجارية التي قامت على اساس الاعتماد المالي والسفينة ظهرت في أواخر القرن الثالث عشر ، في فلورنسا والبندقية وجنوى ، وان الاساليب او النظم التجارية على اختلاف انواعها : كالمضاربات المالية وتحويل المدفوعات وكتب الاعتماد ، وهو المحور الذي استقطب حوله بالاكثـر المعاملات التجارية والتبادل الدولي ، ليس ما يدل انها تطورت كثيراً خلال القرن السادس عشر . علينا ان نلاحظ هنا ، قبل كل شيء ، ان أي تقدم يطرأ في المجال التقني ، يحمل بين طياته نتائج لا تقدر ، وان لم تترد الوثائق التاريخية التي وصلتنا من ذلك العصر ، أي صدى بارز لها . مثال ذلك ، فرنسا ، مثلاً ، حيث نجد ان الايراد أو الدخل لم يكن ليعتبر فيها من وسائل الاعتماد المالي . فالربح الناشء عن مبلغ من المال ، يصلح بيعه من دائن لقاء مبلغ يقرضه او يسلفه ، على ان يستوفي دينه تبعاً من ايجار عقار معين ، بموجب عقد يعتبر المعاملة بيعاً نهائياً بحيث لا يعود من المتوجب على المدين ان يدفع . ففي الربح الدائم لا يستطيع الدائن ، ان يسترجع عيناً المال الذي دفعه نقداً وعداً . وقد حاول بعض الخاصة ان ينزلوا ، بصفة عفوية وبالرغم من معارضة القضاء ، الايراد الدائم او الربح ، منزلة الدين ففأثمة . فمئذ أواخر القرن الخامس عشر حاول المتعاقدون ، في باريس ، ان يدخلوا على العقود شرطاً إضافياً يُخضع بموجبه كل املاك المدين ومقتنياته . كما ادخلوا بين ١٥٢٠ - ١٥٤٠ ، شرطاً اضافياً آخر يحدد بصورة واضحة حق الدائن باستيفاء جميع حقوقه ، من جميع املاك المدين ، ان لم يسدد هذا الاخير ما تبقى عليه من حساب ، غير مكثف ببيع العقار المرتهن لديه والذي كان يستوفي ريعه . وهكذا فالربح اصبح الزاماً شخصياً مع رهن ، وهي معاملة تقرب جداً من التسليف بفائدة ويمكن ان تكون أداة طيعة في التحويل المالي . اما معرفة ما اذا كان هذا النظام قد أدى عمله بالفعل ، فأمر آخر . فهل بعد هذا ، نحن مقتنعون

باننا كشفنا النقاب عن كل التغييرات التي عرفتها المعاملات المصرفية والتجارية ؟

ومهما يكن من الامر ، فانتساع مجال الحركة التجارية وانقشاع مداها ، وازدياد الكميات الضخمة التي يجري تسويقها ، كل ذلك يعتبر بحق تغييراً أساسياً في النظام الاقتصادي . فبامتداد الحركة التجارية الى العالم الاسباني ، في العالم الجديد والى المحيط الهندي البرتغالي ، ادخل على الحركة الاقتصادية تغييرات جذرية . فالفترة الاخيرة من القرن الخامس عشر ، تنفق مع ما يسميه فرنسوا سمياند بطور « B » ، اي نهاية الحقبة التي قَلَّت فيها المعادن الثمينة وندرت للفاية وهبطت فيها الاسعار هبوطاً عظيماً ، وانكسرت فيها المبادلات التجارية كما صُوِّلت فيها حركة الانتاج . فالصعوبات التي اصطدمت بها الحركة الاقتصادية العالمية شجعت الناس على البحث للخروج من الازمة وراح جيل جديد من التقنيين ورجال الاعمال المغامرين يحاول ابتداع شيء جديد . فالدقة التي حققوها في بناء سفينة الكرافيل هذا النوع من السفن الذي عوّل عليه المستكشفون الجغرافيون والتي يمكن بحركة بسيطة في قلوبها ان تصبح بمستوى الدرجة ٦٥ من خط السير لتسير مع تيار الريح الذي يهب من جهة اليمين ، ثم الاتجاه في طريق بحري يرسم زاوية معينة ، مع الابرة المغنطيسية ، وتحديد الموقع الجغرافي للسفينة ، بالاعتماد على زيج الزوايا ، للرجوع الى الخط والاتجاه السوي ، اذ ما حادت عنه السفينة ، ومقدرة البحارة على الاتجاه بالسفينة في الصدد المطلوب ، كل هذه التحسينات الفنية ادت الى تطور عظيم في وسائل النقل البحري . فالثورة التي تمت في المجال الجغرافي ، وتسهيل ايصال التوابل والافاويه الى الاسواق الانكليزية والفرنسية والفلنكية والالمانية ، وتحويل سبائك الفضة المستخرجة من المناجم الالمانية باتجاه البندقية ومنها الى انفرنس ولشبونة ، ووصول المواد الصباغية ، من الهند وخليج كباي ومقاطعة بينو ، او من البرازيل ، كالبقم والقرمز والنيلة ، والانقلاب المفاجيء في صناعة النسيج من جراء ورود القطن من السوس ومن جزر الرأس الاخضر ، والبرازيل والهند ، وتطور صناعة السكر في كل من جزر ماديرا والازور والجزر الخالدات ، على اثر اختراع مطاحن السكر ، وبروز صناعة صيد الاسماك على شواطئ جزيرة الارض الجديدة ، واشتداد الطلب ، بالمقابل ، على مقاطعات البلطيق واوروبا الغربية ، لاستيراد ما تنتج من منسوجات صوفية واجواخ وغير ذلك من مصنوعات الحديد والنحاس ، والزئبق ، والمدافع ، وانسجة القلوع ، والبأرود ، وتصدير هذه المواد نحو لشبونة وأشبيلية ، كل هذه المحاري التجارية ، وهذه الاسواق الجديدة ، ساعدت على طلوع عالم رأسمالي ، وتسببت في ارتفاع مستمر في الاسعار ، وفي ازدياد الانتاج والمبادلات التجارية . هذا الوضع كله حلّ في مرتبه « A » من نظام سمياند .

فالحركة التجارية التي نشطت وازدهرت بين أشبيلية ومرافئ اميركا الاسبانية ، فكانت المحور الرئيسي لهذه الحركة الاقتصادية التي جاءت بها اوروبا ، اذ ذلك ، ملأ نشاطها الحقبة الواقعة بين ١٥٠٤ و١٦٠٨/١٦١٠ . وقد ارتفعت حركة النقل البحري ذهاباً واياباً ،

بين الطرفين ، من ١٥٦٨٠ برميلا ، سعة البرميل الواحد ٢٤٨ متر مكعب ، في فترة السنوات الخمس ١٥٠٦ - ١٥١٠ ، الى ٢٣٧٥٣٠ برميلا في فترة السنوات الخمس ١٦٠٦ - ١٦١٠ . وهكذا نرى ان معدل الزيادة في حركة النقل ارتفعت من ١ - ٢٠ . وقد مرت حركة النقل خلال هذه الحقبة الممتدة بين الحدود المذكورة بتقلبات عديدة تناوحت بين صعود وهبوط ، وتقدم وتأخر ، تنفق ، الى حد بعيد ، مع هذه الدورات الزمنية التي عرفتها الحركة الاقتصادية ، ومر بها الرأسمال الدولي ، في القرنين التاسع عشر والعشرين ، والتي راح يحدد ميزات كل منها والخصائص التي تلبستها ، كبار علماء الاقتصاد وخبرائهم . وهذه الدورات الزمنية يختلف مداها بحسب آراء ، هؤلاء الخبراء ؛ فهي قدوم من ٥٠ - ٦٠ سنة في نظر كوندراييف ، او من ٧ - ١١ سنة في نظر جوكلر ، او من ٣ - ٤ سنوات في نظر ركتشين . أليست دورة كوندراييف ، توازي تلك الدورة التي ابتدأت في اواخر القرن الخامس عشر فتميزت بهذا النشاط العارم تزخر به حركة الاعمال التجارية والنقل اثر الاكتشافات الجغرافية وطرق المواصلات المحيطية الجديدة ، وانتهت هذه الازمة التي اشتدت بين ١٥٥٠ - ١٥٥٩ بعد ان ظهرت بوادرها عام ١٥٤٧ / ١٥٤٨ ، والتي عاد اليها ريس من النشاط ، حوالي عام ١٥٦٢ - ١٥٦٣ ؟ فاذا ما حسبنا معدل سعة البرميل ٢٤٨ متر مكعب ، واذا ما أخذنا اساساً لتقديرنا ، فترة خمس سنوات ، في هذه الازمة المالية الكبرى ، بلغ وزن البضاعة التي تم نقلها من اسبيلية الى اميركا ، في نصف المقدم من السنين ١٥٤١ - ١٥٤٦ ، ما قيمته ٦٥٦٢٥ برميلا . ارتفع هذا المعدل في الفترة ١٥٤٥ - ١٥٥٠ ، الى ٩٥٤٠٠ ثم هبط الى ٦٧٧٢٥ برميلا خلال الفترة ١٥٥٦ - ١٥٦٠ .

وقد حدث في الفترة الواقعة بين ١٥٤٧ - ١٥٦٠ هزة مالية شديدة تأثرت من جرائها اشهر البيوتات التجارية التي عرفت في النصف الاول من هذا القرن ، لدى الفلورنتيين ولدى اسرة فوجر « Fugger » . فقد ارغمت الحروب التي وقعت اذ ذاك ، الملوك على استلاف مبالغ طائلة وجدوا انفسهم عاجزين ، فيما بعد ، عن ايفائها ، كما استعملت مبالغ ضخمة في مشروعات غير مجدية ، كان مع ذلك ، لا بد من القيام بها ، هي هذه المبالغ الخاصة بالحروب وتكاليف حياة البذخ في بلاطات الملوك . ونشأ من جراء ذلك أزمة مالية حادة هزت اوروبا بين ١٥٥٧ - ١٥٥٩ ، ووقعت اسرة هيسبورج نفسها في عجز مالي يتراوح بين ١٣ - ٢٠ مليون دوقا بما اضطرها لاعلان افلاسها ، وفي سنة ١٥٥٧ توقفوا عن الدفع وحظروا اخراج الذهب من البلاد ، ولا سيما مبلغ ٥٧٠٠٠٠٠ تمود لمحللات فوجر في انفرس ، وحولوا ما لديهم من *juros* بسعر يتراوح بين ٥٠ - ٤٠ من قيمته الاسمية ، الى سندات على الدولة بفائدة ٥٪ لم تلبث ان فقدت قيمتها الاسمية ، في البورصة . ولما كانت لمحللات فوجر استحقاقات على اسبانيا بقيمة مليون دوقا ، اي ما يوازي ضعف رأسمالهم التجاري ، فقد اشترى ، عام ١٥٦٣ ، اسهما لم تلبث ان هبطت ٥٠ - ٤٠ بالمائة من قيمتها الاسمية . وملك فرنسا نفسه بعد انكساره في موقعة سان -

كنتين في ١٠ آب ١٥٥٧ ، لم يستطع ان يدفع سوى قسم ضئيل من أصل الفوائد المستحقة عليه للمبالغ التي سبق واقرضها ، وعندما توفي عام ١٥٤٧ ، خلف وراءه ديناً يتراوح بين ٣٦-٤٤ مليون ليرة في الوقت الذي خسرت عملة الدوقا التي اصدرها ٥٠ - ٤٠ بالمائة من قيمتها الاسمية . وهكذا نرى ان كل البيوتات المالية التي كانت تتولى الاعمال المصرفية ، والتمويل ، وجدت نفسها مهتزة . فلاعجب ، والحالة هذه ، ان تتكاثر الافلاسات في انفرنس والمانيا الجنوبية . وانهارت مؤسسة فوجر نفسها بعد ان فاقت الديون المستحقة عليها ، موجوداتها ، وذلك اثر فقدانها حرية الاتجار بالمضاربات التجارية ، الامر الذي اضطرر منه بعض اعضاء الاسرة ، للانسحاب من الشركة .

وقد ظن بعضهم ان هذه الازمة التي استحكمت حلقاتها في منتصف القرن السادس عشر ، مهدت السبيل لازمة مالية اخرى اُمتت بالرأسال وضمضته طيلة النصف الثاني من القرن السادس عشر ، فمنذ سنة ١٥٦٢/١٥٦٣ التي عقدت فيها معاهدة كاتو-كبريس فاعادت السلام الى اوروبا ، راحت الحركة التجارية تسجل نشاطاً جديداً ، فارتفع معدل الرحلات التجارية بين اشبيلية واميركا ، وارتفعت نسبة المشحونات التي 'صدرت' ، في الفترة ١٥٦٦ - ١٥٧٠ الى ١٠٤٤٢٥ برميلاً . ومدينة لاروشيل التي لم يسجل مرفؤها سوى ١٨ سفينة عام ١٥٦٣ ، و ٥٥ سفن عام ١٥٥٨ غادرت ميناءها ، اذ بها تسجل ٦١ سفينة عام ١٥٦٣ ، و ٩١ سفينة سنة ١٥٦٤ . ومدينة فينترية من اعمال فرنسا ، صدرت وحدها ، بالرغم من الحروب الدينية التي خلخلت حركة الاعمال والاشغال ، ٧٣٢،٦٦٢ ذراعاً من المنسوجات كمعدل سنوي للتصدير ، كما سجلت حركة التصدير فيها ١،١٥٢،٨٩٠ ذراعاً كمعدل وسط للسنوات ١٥٧٥ - ١٥٧٥ ، و ٤٠٠،٣٤٥ ذراعاً ، عام ١٥٧٥ - ١٥٨٠ . فاذا ما تدهورت بيوتات تجارية ومصرفية كبيرة كمحلات فوجر وغيرها ، فقد حلت محلها بيوتات مالية ضخمة ، في جنوى ، نتيجة للحرب التي وقعت بين الملك فيليب الثاني وبين البلاد الواطية وانكلترا ، والاضطرابات التي وقعت في فرنسا وانقطاع المواصلات المحيطية ، وطرق المواصلات الفرنسية ، كما يعود ذلك للموقع الممتاز الذي تحتله جنوى اذ انها واسطة المقدم وعقدة المواصلات الكبرى التي تمر بها المعادن الثمينة في طريقها من اسبانيا الى البلاد الواطية عبر ممرات جبال الألب ومجازاتها . فاذا ما سببت حركة ارتفاع الاسعار تأخر بيوتات مالية خاصة ، فقد نشأت مصارف وطنية تباعاً في كل من باليرمو وجنوى (١٥٨٦) وفي البندقية (١٥٨٧) وميلانو وروما (١٥٩٣) وتولت هذه المصارف القيام بعمليات تسليم على المكشوف دون ايداع سندات قنطية موازية لها ، وتستعمل عملات ورق تتضمن للمودع دفع دراهمه بالعملة ذاتها التي دفعها كما تكفل المبالغ المودعة فيها ضد اي هبوط يطرأ على النقد . وهكذا نرى ان المبالغ الضخمة التي استخدمت في القرن السادس عشر جاءت دليلاً يشهد عالياً على ما كان لرأس المال ، اذ ذلك ، من تأثير بين . هنالك عنصر هام نهض بهذه الحركة التجارية يتمثل على أتمه في هذه المعادن الثمينة .



شكل ١ - الواردات الاسبانية من المعادن الثمينة وحركة الاسعار في اسبانيا بين ١٥٠٠ - ١٦٥٠ (عن ماملتون)

المعادن الثمينة وارتفاع الاسعار اشتدت في النصف الثاني من القرن السادس عشر حاجة أوروبا الى المعادن الثمينة . فالنقد المتداول ، لم يكن بالقدر الرافى بحيث يشجع الاقدام على المقايضات التجارية ، كما ان ندرة النقد . من جهة اخرى ، وقفت حائلاً ذون الانتاج وتطوره . والرغبة في توفير مقادير اكبر من المعادن الثمينة كانت من هذه الحوافز الشديدة التي ادت الى تحقيق الكشوف الجغرافية في المحيطات الكبرى . وقد امكن توفير بعض هذه المعادن الكريمة عن طريق استئجار مناجم الفضة في أوروبا بعد ان تم تجهيز المدنين بالمعدات الفنية والعتاد اللازم فادخل على الاستثمار تحسينات ملموسة . وقد كانت هذه الناحية موضوع اهتمام اصحاب المصارف بنوع خاص لما كان لهذا المعدن من قوة شرائية عالية جعلت من عملية استثمار مناجم الفضة عملية رابحة . فقد سدّت الفضة المستخرجة من المناجم الالمانية بين ١٤٧٠-١٥٤٠ حاجة أوروبا منه . ودخل هذا المعدن الكريم الى البلدان المجاورة للبحر الابيض المتوسط يحمل فيها تدريجياً محل الذهب المستورد من السودان لصعوبة الحصول عليه . وبلغ استثمار مناجم الفضة في المانيا الذروة ، بين ١٥٢٦ - ١٥٣٥ .

ومنذ ان احتلت اسبانيا جزر الانتيل ، اخذ الذهب الاميركي يجرى كالنهر ، نحو اسبانيا ويليه معدن الفضة . وازدادت الكميات المستوردة من هذه المعادن الثمينة بعد ان تم فتح المكسيك ، على يد فرناندو كورتيس (١٥١٩ - ١٥٢٢) والبيرو على يد الفاتح بيزار (١٥٣٢ - ١٥٣٥) ، واخيراً بعد ان اكتشفت ، عام ١٥٤٥ ، مناجم الفضة الغنية في بوتوزي ، في جبال البيرو ، على أثر استثمارهم ، بين ١٥٥٢ - ١٥٥٤ ، الزئبق في استخراج الفضة من مناجمها . واذ ذلك ، اخذ هذه المعدن الثمين يجرى كالنهر ، نحو اسبانيا (١١) .

فهذه القناطر المنقطرة من المعادن الثمينة ، ما لبثت ان خرجت من اسبانيا بسرعة ، ثمناً لما استوردته من الحبوب والتمور والمعادن والبارود والمدافع ، من فرنسا وايطاليا والبلاد الواطية ومانيا وانكلترا ، وللمضاربات التي قام بها رجال المال واصحاب المصارف من الالمان والاطالين فيها ، والعديد من الصناعات المهرة الذين توافدوا عليها للعمل فيها ، من فرنسيين والمان وايطاليين ، فنشروا هذه المعادن الثمينة ووزعوها في جميع أنحاء أوروبا .

فهذه المعادن الثمينة ، سواء منها ما استخرج من مناجم أوروبا الوسطى او ما جاء من اميركا ، تسببت في ارتفاع باهظ للاسعار . ومع ذلك فلم تكن بالسبب الوحيد . فبلاطات

واردات المعادن الثمينة من اميركا الى اسبانيا بالبيزوس من عيار ٤٥٠ مارافادس	(١) الانتاج العالمي من الفضة والذهب بالكيلو		
	الفترة	ذهب	فضة
منذ ١٥٠٣ - ٣٣٧٦٠٠٤٠	٥٨٠٠	٤٧٠٠٠٠	
١٥٢١ - ١٥٤٤ - ١١١٦٦٠١٧٣٥	٧٦٦٠	٩٠٠٠٠٠	
١٥٤٥ - ١٥٦٠ - ٢٣٠٣٦٨٠٢٤٠	٨٥١٠	٣١١٦٠٠	

عن هاملتون

الملوك ، ونفقات الجيوش ، وارتفاع مستوى العيش ، وازدياد عدد السكان ، كل هذه المرافق زادت من الطلب . فاحتكارات التجار ، والحروب التي انفجرت تبعاً في كل من ايطاليا وفرنسا والبلاد الواطية والمانيا ، والحرب ضد الاتراك ، خففت احياناً من المرض . فالتحويل المتزايد على نظام الاعتماد المالي ، مع انه ضاعف من وسائل الدفع ويسر لها ، لم يبق ، مع ذلك بدون تأثير على حركة ارتفاع الاسعار . الا ان ازدياد كمية المعادن الثمينة في الاسواق بقى السبب الاقوى لهذا الارتفاع . واخذت حركة ارتفاع الاسعار تمتد الى جميع انحاء اوروبامندواخر القرن الخامس عشر . وانطلقت حركة الارتفاع من مقاطعة الاندلس حيث كانت تصل الى اشيلية الشحنت المتتابعة من اميركا ، ومن الاندلس امتدت الى باقي بلدان اوروباعلى نسبة ماتتصل باسبانيا .

لم يدرك المعاصرون سر حركة ارتفاع الاسعار هذه ، فراح اعضاء الكورتيس ، في اسبانيا ، ينمون عام ١٥٢٥ هـ الدروة ، ثلاثية المعجول التي ذبحت ، والرسوم الباهظة التي فرضت عام ١٥٣٧ ، على حق استعمال المراعي وعلى تصدير البضائع الى اميركا ، كما نعو ، عام ١٥٥١ ، المضاربات التي يقوم بها الاجانب في الاراضي الاسبانية . وتخفيفاً من حدة الارتفاع ، اخذت الحكومات والبلديات تفرض الرسوم ، وتحظر التلاعب بالاسعار ، وتصادر البضائع : زجراً للتجار وتاديباً لهم انما بدون نتيجة محسوسة . والظاهر ان الفرنسي جان بودين أدرك وحده الاسباب الكامنة وراء ارتفاع الاسعار ، وراح يشرح الاسباب الدافعة الى ذلك ، كل هذا لم يأت بنتيجة حتي اواخر القرن . فقد فاتته ان يذكر سبباً آخر لهذا الارتفاع تبينه جيداً بعض موظفي غرفة التجارة ، في باريس ، اذ ذاك ، ولا سيما السيد ماستروا من بينهم . وكان ارتفاع الاسعار يشهد اكثر فاكثراً ، بالنسبة لقيمة النقد الفعلية ، التي كان الجمهور يضيفها على العملات المعدة للتحويل . وقد سبب هذا الامر المضاربات على العملات وفقاً لاوزانها وعياراتها في مختلف البلدان وبنسبة الفرق الرسمي بين الذهب والفضة . فقد حمل تجار اجانب معهم الى البلدان التي دخلوها ، عملات اجنبية قيمتها ، وزناً وعياراً ، دون قيمة النقد القوي في البلاد . وكثروا يتقدمون لشراء هذه العملات القوية ويدفعون فيها اسماراً تزيد على سعرها الرسمي بالتحويل ، ثم يعمدون الى تحويل هذه العملات الى سبائك من الذهب ، اذ كان سعرها اعلى بكثير مما دفعوا ثمنها للعملة الذهبية بالنقد الاجنبي الذي حملوه معهم . وهكذا كانوا يسترون العملات العينية اعلى من العملات الرق المعدة للتداول والتي كان سعرها الاسمي في نزول مستمر بينما اسعار الحاجيات في ارتفاع دائم . وهناك طرق ووسائل اخرى يتبعونها لتخفيض اسعار النقد المدد للتحويل ، انما النتيجة النهائية كانت دوماً واحدة هي ارتفاع مستمر بالاسعار نتيجة محتومة لازدياد كميات المعادن الثمينة في الاسواق .

وهذا الارتفاع سبب ارتباكاً للمعاصرين بسبب المشاكل والصعوبات التي أثارها في الدول ، وبسبب هذه الاضطرابات الاجتماعية التي حركها فيها . فقد رأوا فيه شراً لم يكونوا مطمئنين اليه . ومن جهة ثانية ، كان لا بد من ارتفاع وازدياد كمية النقد المتداول لتأمين التبادل التجاري ،

بالتالي لتشجيع الانتاج وتقويته . الا ان الاسعار ارتفعت ، بين ١٥٠١ - ١٦٠١ ، اربعة ضعاف . وقد كتب للقرن العشرين ان يرى ويشهد ما هو أدمى وأشد من هذا بكثير . وقد رفعت الاسعار ، في اسبانيا ، بين ١٥٠١ - ١٥٢٥ ، خمسين بالمائة ، وبلغ معدل هذا الارتفاع ، بين ١٥٢٥ - ١٥٥٠ حوالي ٣٧٪ ، وهي زيادة لم تحصل لعمري ، بسرعة كبيرة جداً حتى ولو اخذنا بعين الاعتبار ، اقل امكانية عرضت في ذلك العصر لمضاعفة الانتاج . واخيراً وليس آخراً ليس ما يشير قط الى ان هذا الارتفاع بدا مترجحاً أو متأرجحاً ، وقد كان على الاجمال ، حافظاً اكبر على زيادة الانتاج منه سبباً للاضطراب الاقتصادي ، وذلك طمعاً او استهواء لربح متزايد .

أدى النشاط المتزايد في الاعمال التجارية وحركة المبادلات الى بعث النشاط الاقتصادي في جميع انحاء اوروبا ، كما يظهر من الارقام التي نضعها هنا تحت الانظار . فشحونات الخور من مرفأ نانت فقط باتجاه مقاطعة بريتانيسا وشمالى المملكة الفرنسية ، وانكلترا وايكوسيا ، والولايات المتحدة ، والبلاد الواطية ، ومناطق البلطيق ، واسبانيا والبرتغال احياناً ، بلغ معدلها ١٣٤٧ برميلاً بين ١٤٤٧ - ١٤٤٨ ، وارتفع هذا المعدل الى ١٠٠٧٧٨ برميلاً ، بين ١٥٥٦ - ١٥٥٧ ، اي ابان الازمة المالية التي استحكمت حلقاتها اذ ذاك . وقد حافظت حركة التصدير على هذا المعدل لمدة ثلاثة قرون ، مع العلم ان حركة الشحن بلغت الذروة في القرن الثامن عشر اذ ان الكمية التي صدرت عنها اذ ذاك ، بلغت ٤٤٠ ، ١٣٥ برميلاً . وقد استمار هوسر كلمة « البعث الاقتصادي » للتعبير عن النشاط الاقتصادي الذي ميز السنوات الاربعين الاولى من القرن السادس عشر . بعد هذا حان لنا ان نتكلم عن العالم الجديد .

ان اشتداد الطلب ، في كل من اسبانيا والبرتغال على الانتاج الصناعي وعلى المواد الغذائية ، من كل اوروبا ، تلبية منها للطلبات الملحة الواردة من اصقاع ما وراء المحيط ، ساعد كثيراً على تطوير وسائل الانتاج واساليبه ، والتركيز التجاري الصناعي عمت حركته مناطق واسعة . وهنالك بوادر تم بوضوح على ظهور رأسمالية صناعية حتى في صناعات النسيج ، حيث كانوا يعتمدون بالاكتر على الصناع اليدويين ، فيجدون لهم فيها مورد رزق اكثر مما كان يتوفر لهم لو عملوا في المناجم والمطابع ودور النشر . فاذا كنا نجد دوماً في مراكز صناعة النسيج : حلاجين وندافين ، وحاك وقصارين ، ومعلمي كار ، واصحاب ورش لهم عتادهم الفني واعتدتهم يملون لحسابهم الخاص ، وعدداً اكبر منه بكثير يملون لحساب كبار التجار ويؤمنون لهم كل وسائل العمل وأدواته الضرورية ، وما يلزمهم من عدة وعتاد ، والباعة المتجولين الذين يملون على تنفيذ الانتاج ، نرى ، من جهة ثانية ، ترتفع في طول البلاد وعرضها ، اكثر فاكتر ، معامل ومصانع لنسج الاصنواف والاجواخ . يبنشؤونها في منازلهم وبيوت سكانهم بعد ان يجهزوا بكل ما تحتاج اليه صناعة النسيج من أدوات ، ويستخدم فيها ٨ او ١٠ ، او ١٨ حتى و ١٩ عمالاً ، اضافيين . وبعض اصحاب هؤلاء المصانع ، حولوا منازلهم الى معامل « توج بالناس وتبيع بالحركة » كما جاء في احدي الوثائق البلدية ، اذ كنا نرى الندافين والحلاجين يمشطون الصوف في

غرف المنزل وحجراته ، ويركب الفساجون مفازلهم وانوالهم في مستودعات المونة ، ورى الحاكة والغازلات في كل الغرف ، يعملون على مقربة من غرفة نوم ربة المنزل ، الى جانب العمال يقضون لياليهم في المنزل . حركة موصولة من عمال يفدون ويروحون ، صباحاً وأصيلاً ، من قصّارين ودباغين وصبّاغين، أنهما أو في سبيل الانتهاء من اعمال أو اشغال عهد بها اليهم في بيوتهم أو يعيدون ما انتهوا من مجازة ليستعملوا غيره من الاعمال .

والمدن تتضخم وتكبر وتتسع اكثر فاكثر ، وتلحف في طلب المواد الغذائية والحامات التي تحتاج اليها من الريف ، مما سبب انقلاباً في نشاط الفلاحين والمزارعين وسكان الريف ، حتى في هذه المناطق المعزولة حيث تحف الحركة وتتعثّر المواصلات ان لم تتمتع . وحرري بالملاحظة هنا ما نشاهده مثلاً ، في بعض الحما ولاية بواتو من توبه كتم تكثر فيها الفياض والمستنقعات . فقد كانت الارض القابلة للزراعة ، في اواخر القرن الخامس عشر ، موزعة الى قطع صغيرة ، يعزقها الفلاحون بايديهم ، أو يكتريها مرابعون ، مالوا حق استثمار الارض والانتفاع بثمارها ، بينما تبقى ملكية الارض لصاحبها الذي يبقى له عليها حق فرض الرسوم واستيفاء بعض المداخيل والغلال وتأمين بعض الخدمات الاخرى ، وهو وضع ، لم يكن بالطبع ، ليؤمن لسيد الارض ، مردوداً يذكر . ولذا راح اسباد الارض يحاولون شراء هذه القطع الصغيرة الملاصقة أو المجاورة لاراضيهم فيجمعون منها وحدات ضخمة تصلح للاستثمار على نطاق اوسع ، تؤلف في مجموعها مزارع تتراوح مساحة الواحدة منها بين ١٥ - ٥٠ هكتاراً ، لم تعد تمزق أو تحرق تربتها باليد ، كما كانت من قبل ، بل بالمحراث واقدنة من البقر . وقد جهزت كل مزرعة من هذه المزارع باربعة أو خمسة فدادين كما جهزت باربعة الى ستة محارث ، وكان بوسع صاحب المزرعة ان يعنى بتربية الابقار الحلوب والغنم ، وبذلك تتوفر للمزرعة ، اكثر فاكثر ، امكانات اكبر للاستثمار ، وتسميد الارض ، وانتاج اوفر ، ولم يعد بحاجة الى اكثر من ٨ - ١٠ اشخاص لتأمين الاعمال ، يؤلفون عادة ، اسرة المزارع ، بينما كان يعمل في هذه القطع قبل توحيدها من ٧ - ١٠ اسر يتراوح عدد افرادها بين ٣٠ - ٣٥ شخصاً . وهكذا استطاعت الارض ان تعطي غلة اوفر ، بلغ معدداً احياناً ٩ قناطير من الحبوب في الهكتار الواحد ، وصار في امكان المزارع ان يبيع في السنة ، زوجاً من البقر المسمنة وزوجاً من الثيران الصغيرة وزوجاً من العجول ودينونة من رؤوس الغنم . كذلك صار باستطاعته ان يورد الى القرى والمدن المجاورة محصول مزرعته من الصوف الضروري في حياكة الاصواف والاجواخ التي تصدّر للخارج . وهكذا رأينا ان حياة المزرعة ونشاطها يتوقفان ، الى حد بعيد ، على الطلبات التي تنهال عليها من القرى والمدن التي تحرم الحرس كله على تلبية العروض المغرية التي تردا من الخارج وتلي بالتالي ، مطلب التجارة الدولية . وهكذا لرى ان تطور طرق استثمار الارض ، وتغيير مظهر الريف ، بتوفير المراعي الخضراء للماشية ، واقامة ما تحتاج اليه السائمة من صيّر وسياجات وزرائب ومقروسات وحدائق وغير ذلك مما يضمن على الارض حلة سندسية ، كل هذا اقتضى بالطبع رأسمالاً كبيراً

لتأمين نفقاته والنهوض به . وقد تمت هذه التغييرات على يد اسياذ الارض ، والاشراف والبورجوازيين والتجار بفضل حركة تسليف زراعي ناشطة ، استندت الى رأس مال كبير اقتضاه القيام باعمال واشغال متنوعة : من توسيع المزارع وتجهيزها ، وصيانة المباني الموضوعية تحت تصرف الشركاء والمرابعين العاملين في استثمار الارض ، والمخازن ، ونقب الارض وعزقها واحياؤها وتقديم البزار ، واحياناً توفير نصف ثمن حيوانات الجر . وهكذا تمكن المزارع من تأمين غلة اوفر ، من هذه الاستثمارات التي اخذ يقوم بها بافية وتقنية اكبر . فبين العقد الاخير من القرن الخامس عشر (١٤٩٠ - ١٥٠٠) وبين العقد الرابع من القرن السادس عشر (١٥٣٠ - ١٥٤٠) اطلت علينا في خطوطها الكبرى ، هذه المساحات الشاسعة الواقعة وراء المحيط ، في العالم الجديد ، التي اصبحت مجالاً واسعاً لحركة تجارية عارمة ، واسواقاً تجارية جديدة لتصريف منتوجات جديدة ، وبقيت هذه الاوضاع التي اطلت علينا ، هي هي تقريباً ، في خطوطها الرئيسية ، حتى منتصف القرن الثامن عشر . كذلك اطل علينا ؛ في المجال الاقتصادي ، في اقل من ٥٠ سنة ، ولا سيما في الثلث الاول من القرن السادس عشر ، عالم جديد احتل محله البارز في النشاط البشري .

فلننظر الآن ما عسى ان تكون عليه الخصائص المميزة لهذا الوضع العام .

ازدهار حركة الاعمال
التجارية الضخمة

سجل النظام الرأسمالي تطوراً عظيماً اثر بروز التجارة البعيدة المدى . ان انشاء البلاطات الملكية وما كان لها من أثر بالغ في اشاعة البذخ والترف في مختلف طبقات المجتمع ، وقيام هذه الجيوش الضخمة من المرتزقة ، ونمو المدن الكبرى السريع ، وازدياد السكان ، وتوفر الفنى والثروة في جميع أنحاء اوربوا ، وكلها عوامل انفعلت وتفاعلت بعضها ببعض بحيث اصبحت ممأ ، اسباباً ومسببات ، كل هذا وما اليه ، زاد كثيراً ليس من معدل استهلاك المواد النادرة الغالية الثمن فحسب ، بل ايضاً المواد العادية اللازمة للاستهلاك اليومي . وقد دخل في التداول التجاري الدولي عدد كبير من المحاصيل والمنتوجات كما اصبحت هذه الفلال والمحاصيل مجالاً جديداً لتشغيل واستثمار مبالغ طائلة من الاموال الدولية ، منها مثلاً : الحرير والمصنوعات الفنية الايطالية الصنع ، واصواف البلدان الواطية ، وفرنسا وانكلترا ، والمصنوعات المدنية واعمال التعدين في المانيا ، وصنوف الخمر والكحول في فرنسا ، والحبوب والكتان والقنب ، وخشب البناء ، والماشية في البلدان المحيطة بالبحر البلطقي ، وروسيا وهنغاريا . واصبحت هذه المواد المجال الاكبر والحقل الاوسع الذي تجلت فيه التجارة بالجملة منذ ان انفتحت أمامها طرق المواصلات المحيطة الكبرى التي تقضي بسالكها الى آسيا واميركا .

ورأت اوربوا نفسها بحاجة الى عدد كبير من المحاصيل الآسيوية منها ، في الدرجة الاولى ، للتوابل والافاقويه التي دخلت اواع كثيرة منها ، في صناعة الاقرايازين وتركيب العلاجات ،

أو كانت تستهلك، بمقادير طائلة في المطبخ ، وفي وقت وظروف كانت فيها النباتات العلفية والمراعي الاصطناعية ، تضطر الاهلين ، في اواخر فصل الخريف ، الى ذبح جانب كبير من الماشية يحفظون لحومها ، لفصل الشتاء البارد ، بين سافين من الملح ، كما كان يقتضي حفظها واستهلاكها بمقادير طائلة من التوابل ، في وقت لم تكن توفرت له بعد ، مثل هذه القائمة الطويلة من الخمر والمشروبات المشهية التي يحفل بها عصرنا اليوم ، فتطلعت فيه الاذواق الى 'مقبّلات ومشهيات جديدة . فاللفل الاسود الذي تغلته سواحل الملابار في الهند وجزيرة سرنديب (فيستخدّم تابلًا أو لبخةً أو لصوقًا أو لموقًا) ، وزنجبيل الهند أو الجزيرة العربية ، وجوز الطيب من جزر موليسك (الصنع المرقّ المقبلّ وتطبيب اوجاع وامراض المعدة) ، والقرفة من الصين أو من جزيرة سرنديب (علاج مقوّ ، أو مقبل أو قابض) ، وكبش القرنفل (لتمطير الاطعمة وتطرية المشروبات الروحية) كل هذه المواد ، اشتد الطلب عليها بعد ان سعى اليها القوم باحثين عنها . ونزلت منزلة التوابل ، هذه الملتفتات والمسلمات التي طالما جيء على ذكرها ووصفها في طريقة معالجة جالينوس الطبية : اهلليج الهند ، وراوند الصين أو الهند ، وسمقونيا أو الحمودة من سوريا ، وطارد الديدان المستورد من بلاد اليهودية أو من بلاد فارس ، واصناف كثيرة من الاعاشيب والحشائش ذات مفاعيل وخصائص مختلفة ، كالكاפור من صومطرة والصين (يستعمل منشطًا أو ضد التشنج) وجوز العنص من الصين ، (قابض) ، وشلش غالنفا المستورد من الصين (ضد حفر الاسنان) والافيون من وادي النطرون ، وصمغ الكثيراء لسد الجيوب ، وتوتياء الهند والصين (للآمء والكحل ، والقطرة) ، وسكر سوريا أو مصر أو الهند ، والى قائمة التوابل ، يجب ان نضيف الاصباغ الضرورية لصباغ الانسجة والملبوسات: كالأحمر القاني والقرمز من أرمينيا ، والقوة من جزيرة العرب ، والخشب من البرازيل أو من الهند ، والازرق والنيل من بغداد أو من البنغال ، والاصفر كالصفران من الشرق الادنى أو من الهند ، والحناء من الجزيرة العربية ، والمطور والطيوب ، كالمسك من التيبب أو من الصين ، والعنبر الاسمر من عمان ، والتاردين من الهند ، والنباتات النسيجية ذات الالياف ، كالقطن من مصر ، والحريز من المعجم والمراق وسوريا ، والاقمشة والمصنوعات الزجاجية ، والاسلحة السورية ، والياقوت الاحمر من الخليج الفارسي ، والماس من الهند ، (النوع المعروف اذ ذاك من انواع الماس) والياقوت والجدع من سرنديب ، وغير ذلك .

كانت هذا الاصناف والمواد تصل الى اوروبا عن طريق بلدان البحر الابيض المتوسط . الا ان الفتوحات المغانية لم تمد ترك للتجار الفريبيين القادمين من البندقية ، او من جنوى او من مقاطعتي البروفانس واللانغدوق ان يتسوقوا هذه المواد الا من مرفساي بيروت والاسكندرية حيث كانت تصل الافاويه قادمة من الخليج الفارسي والبحر الاحمر . اما المواد والاصناف التي كانت تصل من الموانئ الواقعة الى الشمال من البحر الابيض المتوسط ، قادمة من آسيا ، فكانت تتقل برأ لتبلغ مدينة ليون والبلاد الواطية ، او تمر عبر جبال الالب لينتهي بها المطاف الى

المدن الالمانية ، الجنوبية ، مثل : اوغسبورج ونورمبرغ اللتان ازدهرتا بفضل هذه التجارة ، ومنها تصل الى البلاد الواطية ومدينة بروج حتى مدن الهانس ولا سيبا ستاتين ولوبيك ، وكانت سفن البندقية تحمل جانباً من هذه المواد الى المدن الشمالية ولا سيبا الى مدينة بروج . ومن هذه المراكز التجارية واسواقها كانت توزع فتبلغ جميع انحاء اوروبا . وبالمقابل ، كان التجار الالمان وتجار بلدان البحر الابيض المتوسط ينقلون معهم كميات كبيرة من النقود والعملات والمعادن والمصنوعات ، كالاوجاخ الخفيفة المصنوعة في انكلترا ، والاصواف والسجاد واقمشة بلاد الفلاندر ، والنحاس والفضة من اوروبا الوسطى .

احدثت الاكتشافات الجغرافية الكبرى انقلاباً عظيماً . فقد استطاع البحار البرتغالي فاسكوده غاما ، بعد ان دار حول رأس الرجاء الصالح في جنوبي افريقيا ، عام ١٤٩٨ ، ان يصل الى مدينة كلكتوت في الهند . واستطاع البرتغاليون ان يسيطروا تماماً على تجارة التوابل في المحيط الهندي وان يضربوا حول التعامل بها ونقلها الى اوروبا شبه احتكار ، لا ينازهم فيه منازع . وفي سنة ١٥٠٤ ، اضطرت سفن البندقية ان تعود خاوية الوفاض من مرافئ بيروت والاسكندرية . وقد اصبحت لشبونة ، السوق الاكبر والأهم لتجارة الافاويه . وفي سنة ١٤٩٢ تم تخريستوف كولوموس بلوغ جزر البحر الكاريبي والنزول في هذه الجزيرة التي سماها « اسبانيولا » ، وراح الاسبانيون ، من بعده ، يستكفون عمليات الاستكشاف والفتح ، فعثروا على قناطير من الذهب والفضة ، واضطروا الى تمويل مستعمراتهم الجديدة بما يحتاج اليه الاهلون فيها من وسائل الغذاء والكساء . ومنذ ذلك الحين اصبحت اشيلية المرفأ الاساسي لتمتين الصلات وشد اواصر الاتصالات بين اسبانيا والعالم الجديد . وهكذا انفتح امام التجارة العالمية مجال جديد وحلبة جديدة ، هما مجال وحلبة المحيط ، الذي حل محل البحر الابيض المتوسط ، بعد ان بقي الوفاً من السنين ، المحور الاساسي للتجارة العالمية في التاريخ القديم .

الا انه لم يكن للبرتغاليين من وسائل النقل ما يسمح لهم بنشر التوابل في اوروبا ، ولا كانت لهم القدرة او الطاقة لتجهيز عمارات السفن اللازمة للنهوض بهذا النشاط ، ولا لتأمين حاجة البلدان الاسيوية من البضائع التي كانوا يرغبون فيها ولا التعويض على السودان لقاء مسحوق الذهب ، كانوا ينقلونه الى بلدان آسيا .

اما الاسبان ، فقد توفرت لهم ، بعكس البرتغاليين ، صناعات فاهضة من الاجواخ والحرائر والاسلحة ، ولكن لم تكن من الوفرة وسعة الانتاج بحيث تفي بحاجة البلدان الجديدة التي يشرفون عليها . ولذا توافد عدد من التجار قدموا من البلاد الواطية والمانيا وفرنسا لشراء محاصيل آسيا واميركا من اسواق اشيلية ولشبونة التي زخرت بها ، وذلك لغناء ما يحملونه معهم من انسجة القلوع ومصنوعات النحاس ، والقنابل والمدافع والخمراوات ، والقمح والسمك والحمور والنحاس ، وغير ذلك من المواد الضرورية . وقد تحولت مدينتا اوغسبورج ونورمبرغ عن البندقية ووجهتا نشاطهما التجاري شطر المحيط الاطلسي مما زادها ثراء وازدهاراً . الا ان

المركز الرئيسي للتجارة الأوروبية تمثل في مدينة أنفرس على مصب نهر الاسكو، وهي النقطة التي انتهت إليها مجاري نهري الرين والموز، مستشرفة بحار الشمال الضيقة، والتي اغدق عليها الامبراطور مكسيمليان، عام ١٤٨٨، لاسباب سياسية لا محل لذكرها هنا، الامتيازات والاهفاءات الملكية، التي تمتت بها مدينة بروج، من قبل. ولم يلبث ان نقل البرتغاليون والاسبانيون والامان والايطاليون والانكليز وكالاتهم التجارية الى انفرس التي اصبحت، بالفعل، بندر أوروبا الاكبر، كما اصبحت مع منافستها مدينة ليون في الجنوب، اكبر مركز مالي في أوروبا جمعاء.

وهكذا رأيت القواعد الإيطالية للتجارة ومحاورها الكبرى نفسها من يبزها نشاطاً ويتجاوزها حركة، دون ان يلم بها بالفعل اي ومن او ان تسجل اي هبوط. فقد عرفت حركة الانتاج والمبادلات التجارية في المدن الإيطالية الكبرى ان تحافظ على مستواها من حيث الكم والنوع أو من حيث الحجم والقيمة، وذلك بعد ان ضربت نوعاً من الاحتكار على التوابل الموجودة في اسواق لشبونة لتبقى اسعارها مرتفعة. واستطاعت البندقية ان تبعث النشاط من جديد في حركة الاعمال والتجارة، اذ تمكنت من استيراد الافاويه عن الطرق القديمة المألوفة، وبأرباح منشطة، بالرغم من الوسطاء العديدين الذين عولت عليهم واعتمدتهم في عمليات الشراء والتنفيق والترويج، مما أدى الى رفع الرسوم والتكاليف، فاللفل الذي استوردته رأساً لم يكن له من الجودة ما للجنس الممتاز الذي توفر في اسواق البرتغاليين، ومع ذلك فقد راجت تجارته في الاسواق. ومن جهة ثانية، عرّف البنادقة والفلورنتيون والجنويون والميلانيون ان يفيدوا كثيراً مما تم لهم من قبل، من خبرة وتجربة عريضتين من تقاليدهم المرعية. ومن سبقهم التنفي والفني، فالتجربوا بالاكتر، الى الاعمال المصرفية وصناعة ادوات الترفيه، والبذخ، ولا سيما صناعة الحرائر منها التي لم يكن يد منها لمن ينخرط في حياة البلاط او يعيش بصحبة الملوك وبرفقة الامراء، كما قاقت نفوسهم وشرعت الى صنائع المرمر واللوحات الفنية والرسوم الجميلة باقلام كبار رجال الفن والنقوش الجدارية التي تحملي قصورهم وصروحهم. فعرفت إيطاليا، بذلك ان تحافظ على ازدهارها وان قام في الغرب من بزها وتقدمها في مجالي رأس المال والتجارة الدولية.

وهذه الحركة التجارية التي استشرت على نطاق واسع بعد ان قامت اركانها على نظام رأسمالي ضخم، عرفت ان تتغلغل عن طريق عدد كبير من التجار المغامرين، فسرت سريان النار في الهشيم حتى بلغت هذه المجتمعات الريفية التي تعمل في الزراعة، وراح الفلاح الثري يرتدي، ايام الاحاد والاعياد، ألباس الفنية التي يرتديها ابناء المدينة، فنشطت الحركة الانتاجية وحركة الاشغال والاعمال. الا ان الاقتصاد بقي على طابعه الخاص المدني الاقليمي. واخذت مدن كبيرة باسباب النمو والتطور والتوسع على حساب مدن اقل شأناً منها، تقع في جوارها. هنالك العديد من المدن كالبندقية، وفلورنسا، وانفرس وباريس، وليون

ولندن ، ونورمبرج واوغسبورج ، ولوينك ، زاد عدد سكانها فتراوح بين ٤٠ - ٥٠ ألفاً حتى بلغ في بعضها مائة ألف . وقد كانت هذه المدن محوراً لصناعات عديدة كما كانت مراكز هامة للاستهلاك المحلي والمواصلات والتوزيع ، اقتضاهما الكثير من الحركة كما احتاجت لمقادير هائلة من المواد الغذائية والحامات عرفت ان تؤمنها في المنطقة او الاقليم نفسه . وهناك بعض الاصناف اللازمة لن يحويها حياة الترف والبذخ ، وغيرها من المواد الضرورية ، كالشيب مثلاً الذي لا بد منه لصبغ الاجواح ولدباغة الجلود ، ولا يبرز الاوان الزاهية ، وغير ذلك من هذه المواد التي تشتد عليها الحاجة بصورة استثنائية ، كما لو حدثت مجاعة مثلاً او وقع جفاف في الامطار اهلك الزرع والضرع ، وكلها مواد وخامات كان يمول في استيرادها ، على الاسواق الدولية او الاسواق الاقليمية . واخذت هذه الدول الكبرى التي برزت حتى الآن واستكملت فيها عناصر السيادة والاستقلال كفرنسا واسبانيا وانكلترا ، تنزع في الصمم ، الى تكوين ممالك ، لها أطرها الاقتصادية الثابتة . ولكننا امام نزعة لا غير . أما الوحدة الاقتصادية المستكملة العدة المتينة الاركان ، فهي المدينة الكبرى : حواضر البلاد الرئيسية وقواعدها المحورية . فالمملكة ليست بعد سوى عدد من الولايات والمدن المتواضعة ، تحلم بان يتم لها يوماً استقلال اقتصادي محكم المطلقات ، متراص المرافق .

الراسلية والملكية المطلقة لا بد من التنويه عالياً هنا بأهمية العرى الوثيقة التي شدت ما بين كبار رجال المال ، اذ ذاك ، والملكيات المطلقة ذات الحكم المستبد . ان تأمين أوّد الجيوش المرتوقة ومقتضيات العيش الكريم الرفيه في البلاطات الملكية والانبرية وكبار القادة والموظفين ، حمل الملوك على فرض ضرائب ورسوم جديدة لتأمين ما يلزمهم من الموظفين الاكفاء . ومن جهة ثانية فالمشاريع والانشاءات الدولية ، كثيراً ما اقتضى تحقيقها المقاجيء ، مبالغ طائلة لم يكن بمقدور الضرائب تغطيتها أو مواجهتها الا ببطء كلي . ولذا راح الملوك يعتمدون ، لتوفير ما هم بحاجة ماسة لتوفيره من نقد ، على كبار رجال المال الذين يقومون بالاعمال المصرفية وعمليات التسليف على نطاق واسع ، فيأتمونهم جباية الضرائب ، ويعطونهم مهم قروضاً ويدفعون لهم بالمقابل فوائد باهظة ، متنازلين لهم عن حق استثمار الاملاك الملكية الخاصة ، ولا سيما المناجم ، ويحسونهم من القوانين الكنسية ومن انتفاضات الرأي العام الذي كان يابى التسليم او القبول بمبدأ الدين بفائدة ، مهما كانت طفيفة ، او الانخراط في المضاربات المالية .

ولعل الدور الكبير في هذا المجال هو الدور الذي لعبه كبار رجال المال من الايطاليين ، في فلورنسا وجنوى ، ومن الالمان في مدينتي اوغسبورج ونورمبرج . ومن هؤلاء المتمولين الكبار ، امضاء اسرة فوجر ، في اوغسبورج ، الذين صار اسمهم مرادفاً للربا الفاحش ، ولذا نعت للناس كلمة « Fuggerei » ، يعبرون فيها عن المرابين ، وكان يضرب بهم المثل في جميع أنحاء اوروبا . فبعد ان أنزوا من الانحجار بالحري والتوابل والاصواف عن طريق البندقية ،

ربطوا مصيرهم بمجدة اسرة هسبورج الامبراطورية وبمصيرها . وبفضل السفلات المايلية التي قدموها للامبراطور مكسميليان ، للنهوض بحروب ايطاليا ، بين ١٥٠٨ - ١٥١٧ ، ومصارمة الاسرة المالكة في هنغاريا ، عام ١٥١٥ ، وبفضل نفوذهم المريض ، آمنوا انتخاب شارل الخامس امبراطوراً ، عام ١٥١٩ ، ضد خصمه فرنسوا الاول ، وتحملوا نفقات الحرب التي خاضها ضد فرنسا ، وحرب سمالكالد ضد البروتستانت ، سنة ١٥٤٦ ، ومحاصرة مدينة متر ، عام ١٥٥٢ ، كذلك عضدت اسرة فوجر ، العكرسي الرسولي مالياً ، فلسفته مبالغ طائلة ، فهدد بالقبال ، الى اعضائها ، بحيازة الرسوم البابوية ، في كل من هنغاريا ، وبولونيا ، والمانيا والبلاد الرواطية . كذلك عهد اليهم ببيع « الففرانات » في ألمانيا .

مقابل خدماتهم المالية المتنوعة هذه ، عهد اليهم الامبراطور مكسميليان باستئجار مناجم الفضة والنحاس التابعة له ، كما انهم استثمروا ، باسمه ، ملاحات التيرول . كذلك ، آمن لهم شارل الخامس مرافق مهمة في املاك التاج في نابولي والبلاد الرواطية وعهد اليهم ، بحيازة ريع املاك التاج ، في اسبانيا ، وعهد اليهم باستئجار معادن الزئبق في مدينة « المادن » ، ومناجم الفضة في وادي القنال . وخوّلهم حق انشاء اتحادات تجارية من متمولين : المان وايطاليين ، وان يحتكروا باسمهم تجارة البهارات والنحاس والفضة في انقرس ، وان يبيعوا من الملوك والامراء ، باثمان مرتفعة جداً ، ما كانوا بحاجة اليه من المعادن الضرورية لسك عملاتهم ولتجهيزاتهم الحربية .

وقد سلمهم الامبراطوران المذكوران « فرمانات ملكية » ، ترفع عنهم كل مسؤولية عندما يظنون ، بصورة غير شرعية او غير قانونية ، العقود التي تخوّلهم حق اقامة الاحتكارات . وكان في مقدورهم ان يبطلوا مفعول الملاحقات القضائية التي يستهدفون لها ، ويقترحون هم انفسهم اصدار القوانين التي يرغبون فيها كالفانون الذي صدر عام ١٥٢٥ (في مدريد وتوليدو) مثلاً ، هذا القانون الذي يترك بالفعل ، لهؤلاء المتمولين الكبار ، كل حرية في المضاربات التي يقومون بها .

فهل من عجب ، بعد هذا ، ان يتمتع ، آل فوجر بنفوذ سياسي عظيم ؟ فهم يظلمون اطلاقاً وثيقاً على الوضع السياسي في اوربا عامة ، بفضل ما كان لهم من عيون وارصاد مبنوثة ، ورسل ومفوضون ومتمددون واصدقاء ومحاسيب ، بين طبقة النبلاء ، يفرقونهم بالهدايا والأعطيات من كل نوع ولون : من خواتم ذهب ، وحلى ومجوهرات ، وعقود ، والاقشة للمزركشة الفاخرة كالديباج . فهم وراء كل المغامرات التي قام بها آل هسبورج .

اما ملوك فرنسا ، فكنا نرى الى جانبهم ، جملة من كبار رجال المال الايطاليين يقيمون في ليون ، ولهم وكالات وفروع في باريس وممثلون معتمدون لدى البلاط الملكي في فرنسا ، امثال : سايبي ، وغواداني ، وألبيزي وسلفياني ، وسوام من كبار المتمولين الالماني في

نورمبرغ ، امثال هانز كليبرجر الذي طالما عمل وسيطاً بين الرأس المال الالماني في نورمبرغ ، وبين الملك فرنسوا الاول ، فلبعوا جميعاً الدور ذاته الذي لعبه آل فوجر ، لدى الاباطرة الالماني .

وهذا النشاط يجيش في صدر ارباب المال ممن ذكرنا، وكان من شأنه ان يدر عليهم بالطبع ، ارباحاً طائلة ، تقصر عن تأمين مثلها او بعضها ، الاعمال والنشاطات التجارية البحتة . ابتداء آل فوجر ، عام ١٥٢٧ ، برأس مال قدره ٩٩١ ، ١٩٦ فلورين ، فاستطاعوا في مدة ١٧ سنة ان يجعلوا رأس مالهم ٤١١ ، ٨٢٤ فلورين ، اي انه زاد بنسبة ٥٤٥ ٪ في السنة الواحدة ، بينما لم يستطع منافسوم من آل فيلرز الذي انصرفوا ، هم ، بالاحرى للتجارة وامتنعوا عن القيام بعمليات التسليف ، ان يؤمنوا ربحاً غير ٩٥ ٪ في السنة .

وهكذا نرى ان الملكية المطلقة ورأس المال هما عون للواحد مع الآخر . فالملكية المطلقة ، بنا لها من ممتلكات طائلة خاصة ، وبما تفرضه من رسوم على الزراعة وبما تقيمه من احتكارات تجارية واسعة ، أصبحت وكأنها ورشة رأسمالية ، الفنيون فيها والمسامون والمتمهدون هم رجال المال أنفسهم .

هنالك عنصر هام أو عامل كبير كان له ، ولا شك ، تأثير الدفع الديموغرافي او السكاني
ظاهر على النظام الرأسمالي واستفحل شأنه ، هو ازدياد عدد السكان في اوربا ، وهو نمو كان من بعض نتائجه العميقة توفير اليد العاملة اللازمة للنهوض بالمشروعات الجديدة والعمل في ما يؤمن أود عدد اكبر من المستهلكين . وهذا النمو في عدد السكان كان من نتائجه أيضاً تضخم الاسواق وتنشيط الاعمال التجارية ، كما نشهد ذلك واضحاً في البلدان المحيطة بالبحر الابيض المتوسط في اواخر القرن ، اذ أدى توالي سوء المواسم الزراعية ونمو السكان في المدن ، الى توافد قوافل من تجار الانكليز والهولنديين ، حاملين معهم قمح البلطيق ، والاستعداد لتقوية الروابط التجارية مع الاصقاع الشبالية .

اما النتيجة العكسية التي تنط للعين فهي عجز المواد الغذائية عن الوفاء بمحاجة السكان فينشأ عن هذا التقصير مجاعات دورية تروح ضحيتها مناطق برمتها بين فيها من سكان وبما فيها من زرع وضرع . فالجماعة التي نشبت عام ١٥٢١ ، زرعت الرعب والهول بين سكان المدن والارياف ، في فشتيلية والبرنتال . فالجماعة التي نشبت عام ١٥٢٥ ، سمرّ الهلع في قلوب الناس في كل أرجاء الاندلس ، والجماعة التي نزلت بايطاليا ، عام ١٥٨٣ ، حصد فيها منجل الموت الناس حصداً .

وهذه الجماعات العاشمة ، كثيراً ما حملت في طياتها الوبئة على انواعها ، وجرت وراها وافدة الطاعون الذي يجرف الناس جرفاً بالعشرات والمئات ، فيذهب بربع سكان المدينة أو

بثلثهم احياناً . فقد فقدت مدينة راغوز ، في سنة واحدة ٢٠٠٠٠ نسمة ، وفقدت البندقية ما بين ١٥٧٥ - ١٥٧٧ ، اكثر من خمسين الفاً .

وهذه الشوارع والممرات التي افترشها موات الناس في المدن ، وهذه الجثث الملقاة على جوانب الطرقات باعداد لا تحصى وبكيات هائلة ، كان دفنها ومواراتها الثرى يكون مشكلة حادة ، وهذه العربات تتكدس فوقها رمم الموتى يفتح منها النتن والفساد ، زرعت في القلوب الهلع والفرع ، فاضطربت الخواطر وقلقت القلوب . ألم يبلغ مسامع الجميع ان ثمانية اعشار سكان مدينة روما و نابولي حصدم منجل الموت حصداً ، عام ١٥٢٥ وان مدينة مرسليليا لم تعد بعد ، عام ١٥٨١ ، سوى خمسة آلاف نسمة لاغير ؟ وهل بعد هذا وجهه للاستغراب ، اذا ما راح الجار يقتل جاره ، انتزاعاً منه لرغيف يلتهمه ، يسد هو به رمق الحياة ؟

في كل مكان وزمان ، كان فجاج الآفاق يحوبون البلاد يسرحون ويمرحون حائمين ، منهم من ينقطع للعبث والعبث والصخب ، بينهم : المستعطي واللشال ، وساري الليل ، والمتصيد والمغامر ، وقاطع الطريق ، والهائم على وجهه لا يلوى الا على مهابط الرذيلة ، فيزرعون الهول في قلب المدينة التي كانت تقوم عبثاً من حين الى آخر ، بعملية تنظيف وتطهير ، تجتث منها بالطرد والنفي ، والاجلاء والابعاد والسجن ، هذه الهوام البشرية التي لن تعدم فتعود الى ما شبت عليه ورسخت عليه من غل الطباع وفساده . اما الاماكن المعزولة في الجبال ، أو في مناطق الحدود ، فكانت مسرحاً لمصائب من شذاذ الآفاق واهل الحطف والسطو ، فتنهب ما طاب لها من اطيب الغلال ونتاج الارض ، وتقطع الطريق على السابلة ، وتقتل المسافرين الذين قدر لهم حظهم المائر ، ان يقموا بين ايديهم ، أو انهم ينتهكون حرمة المابد والكنائس فيدنسوها بموبقاتهم ، او يهاجمون القصور والبسروج ، ويفزون القرى الآمنة والداكر الهادئة والمدن المغرية ، يشجمهم احياناً في ايطاليا واسبانيا ، نصراء لهم من عليه القوم وبعض السراة .

ولعله من حسن الطالع واليُمن مما ان نشهد تجديداً مستمراً بين السكان وحركة تبادل لا تنقطع بين قوم قابعين مستقرين واقوام قادمين .

لم يسكن رأس المال اذ ذاك ، يتخصص بمشاريع معينة ، محددة . فهذا شركات ودور البورصة المتمول يتعاطى هو نفسه التجارة او اي شكل او لون من اشكال الحركة التجارية والصناعية واعمال الصرافة . فالتاجر الحق هو من قام بشيء من النشاط في هذا كله . نجد قبل كل شيء شركات عائلية ، اي قائمة ضمن افراد الاسرة الواحدة ، اذ ينهض احد افرادها المعروف بنشاطه ، كالأب او المم مثلاً ، ويؤلف رأس مال يشترك جميع افراد الاسرة بتقدمه . ويتولى ادارة الشركة ويفتح لها فروعاً ووكلات في اماكن عدة ، في اورواپيه بنشاطاتها للابناء او لافراد الاسرة كمثلين وعملاء ، على مثل هذا النهج سارت الشركات

الالمانية ، من آل فوجر وآل ولزر ، والشركات الإيطالية ، من آل أفيتاتي وغويتشيارديني ، والشركات الاسبانية من آل بيريس وآل لوبيز . ولما كان يعقوب فوجر لم يعقب فقد أشرك معه أولاد اخوته : ابرونيموس واولريخ وريمون وانطون ، وعملت الشركة بالعنوان التجاري : « يعقوب فوجر وابناء اخوته » (١٤٧٣ - ١٥٢٥) . وعندما جاءت منيته أوصى بأن يخلفه في ادارة الشركة ، اصغر ابناء اخيه انطون . وقد اشرك انطون تباعاً معه ابناء اخوته واشقائه : هوس ويعقوب ، وجورج ، وخريستوف وريمون . الى ان وافاه الأجل المحتوم عام ١٥٦٠ .

وتكاثرت الشركات من نوع شركة توصية *Commundite* وهي شركة تجارية برئاسة تاجر يستودعها بعض الافراد قسماً من رأسمالهم شريطة ان يتقاسموا الارباح فيما بينهم كل بحسب سهمه .

وهناك شركات مساهمة : *Compagnie* تحمل اسم تاجر معين ، مضاف اليه : « وشركاه » . وهي عبارة عن جمعية او شركة من التجار ، ترمي الى الحصول على احتكار صنف معين كالشركة التي تألفت من البيوتات التجارية الكبرى ، في اوغسبورج عام ١٤٩٨ ، بحيث تحتكر الاتجار بالنحاس (في البندقية) او كالشركة التي تشكلت من ايطاليين ولمان ، في لشبونة لاحتكار تجارة التوابل ، او شركة من هذه الشركات التي تتجر بمادة دقيقة ، خطيرة ، منها مثلاً الشركة الانكليزية ، المعروفة بـ « التجار المغامرون » ، او « الشركة الشرقية » (١٥٧٩) او « الشركة التركية » (١٥٨١) ، او « التجار المسكوب » . وهذا النوع الاخير من الشركات عرف انتشاراً كبيراً بعد عام ١٥٦٠ .

ونجد في آخر المطاف ، احتكارات ملكية برتغالية واسبانية . من هذه الاحتكارات مثلاً ، ان ملك البرتغال احتكر لنفسه تجارة الافاويه والتوابل . فكان وكيله او مثله في أنقرس يفاهض باسمه ، نقابة رجال المال التي تألفت من ممثلين عن شركات ولزر وأفيتاتي وغوالسيروتي الذين يشتركون ، في مسواق واحد ، او صفقة واحدة ، كل ما لديه من شحنات التوابل ومخزونها لقاء ٥٠٠ او ٦٠٠ قنطار من معدن النحاس والزئبق والزنجفر ، وكلها مواد لازمة لسفن البرتغال التي تتجر مع الهند فكان ملك البرتغال يدفع قيمة الفواتير المسحوبة عليه ، كميات من التوابل ، كما كان يقترح مثلاً ، ان يدفع بهذه العملة ما يوازي ثمنه بائنة شقيقته . وبالإضافة الى هذا ، فقد كانت لشبونة المركز الام ، او السوق الاوحد لكل البضائع والاصناف المستوردة من الهند ، حيث كنت ترى مثلاً : وكالة الهند *Casa India* ووكالة الغينية *Casa da Guinée* يشرف عليها ويتولى تصريف ما فيها من بضائع مراقبون ملكيون ، بعد ان يستوفوا ما يترتب على البضاعة من رسوم ومكوس وضرائب ملكية ، وبعد ان يحددوا ، منها الاسعار . كذلك كان للملك اسبانيا ، هو الآخر في مدينة اشبيلية ، مركز خاص او دائرة خاصة بعماله التجارية ، هي « مصلحة العقود التجارية » . وهذه المصلحة تستوفي ما يعود للعرش الاسباني ، من رسوم وعوائد على المصارف الثمينة ، المستوردة من اميركا ، كالذهب والفضة والحجارة الكريمة ، كما ان الامبراطور شارل الخامس فرض رسماً

جديداً سباه : رسم البضائع المستوردة من الهند ، كانت الرسوم المجابة عليها تستخدم في تسليح الاساطيل ومراقبة حركة التصدير والاستيراد .

وفي سبيل تشجيع المقايضات والحركة التجارية على جميع نشاطاتها قامت دوماً معارض واسواق لهذه الغاية بالذات . فقد اقيمت اسواق خاصة للبضائع والاسهم عرفت باسم « مصفّق » او « بورصة » ، لم تلبث هذه الاسواق ان لعبت دوراً هاماً في المضاربات المالية والتجارية . ولعل اهم هذه المصافق او الاسواق المالية هي مصفّق أنفريس الذي انشيء عام ١٤٠٠ ، واعيد تجديد هذه السوق سنة ١٥٣١ . فقد كان عبارة عن مبنى فخم مستطيل قائم الزوايا ، تقوم من الداخل أروقة مرتقمة على اعمدة عالية ، تطل على فناء او ساحة فيسحة الارجاء حيث كانت تجري المناوضات والمداولات التمهيديّة لمعد الصفقات التجارية ابتداء من الساعة ١١ صباحاً . وكان محظوراً القيام باللعب او السباح لتجار المبادل والمفروشات المتبقية ، الدخول الى المصفّق ، كما حظر الدخول اليه ايضاً على باعة الكتب المتجولين ، ومنعت الجماهير من الاحتشاد او التجمهر في الاسواق والاحياء المجاورة . وبالرغم من هذه الاحتياطات كلها ، كثيراً ما شجرت المشاحنات وقامت الحناقات بين الانكليز والاسبان ، يتضاربون ويقتتلون بعضهم مع بعض . وكثيراً ما كان المتخاصمون يهاجمون بعضهم بعضاً بالسيف الطويلة ويتبادلون الطعن بالخنجر ، او يتربصون لبعضهم البعض في المنطفات ، وكحدث من المارك استمان بها كلا الفريقين ، بما عندهم من خدم وحشم وأتباع . وكان الدم الذي يغلي في المروق كثيراً ما تحدر في هؤلاء التجار من دم اشراف او قدامى الجنود او المبارزين .

بين السندات والاعتادات المالية من المتبّع ومألوف العادة عند القوم ، ان تعقد الصفقات التجارية امام كاتب العدل ، بعد ان يهد لها ساسرة وعملاء . من المعروف ايضاً ان الكنيسة كانت تحظر الدين بفائدة . فمن وجد نفسه بحاجة الى مبلغ ما ، عمد الى شراء المبلغ الذي هو بحاجة اليه بعد تقديم ضمانه او كفالة تتألف من ربيع دائم ، على شاكلة ما كان يجري مثلاً عند شراء عقار بضمان دخل دائم ، وهو ترتيب تعارف عليه الناس ونهجوا على منواله . وهذا النوع من الدين بفائدة كان تدبيراً عملياً عندما يكون الامر متعلقاً بمبالغ صغيرة يستعملها المزارع او الصناعي مثلاً ، لشراء ما هو بحاجة اليه من بزار وتقاوى وعتاد وخامات ومواد غذائية له ولزراعته او مصنعه . ولكن الصعوبة كل الصعوبة عندما كان الدائن يريد استيفاء رأس مال وضعه تحت تصرف الغير الى امد طويل ، لقاء شروط وضوابط معينة الامر الذي جعل المعاملات في غاية التعقيد ، ولذا لجأ التاجر الى المعاملات التي تؤخذ بصدده شركة توصية ، فيما لو كان احد الدائنين سلفه مبلغاً من المال لتشغيله في عملية تجارية معينة على مسؤوليته ، اي انه يتحمل ما في العملية من مخاطر واحتمالات . الا ان الذين لم يجكوا يرضون الاستهداف ، لاي خطر محتمل ، راحوا يدورون حول القانون ويداورون

بانتهاج طريقة عرفت عندهم بـ *trinus contractus* ، وهي طريقة لقيت رواجاً عظيماً في ألمانيا الجنوبية ، والتي شجعتها الكنيسة بالبراءة الرسولية : « *Detestabilis* » التي اصدرها البابا سنة ١٥٨٦ . والطريقة المذكورة تقوم بان يقرض دائن تاجراً مبلغاً من المال على شرط ان يقاسمه جزءاً من الارباح قد يبلغ احياناً ١٥ ٪ من المبلغ الذي سلفه اياه ؛ ثم يعقد مع التاجر المذكور عقد ضمان ينص على ان يتخلى له الدائن عن ثلث المبلغ العائد له من الارباح المرتقبة اذا ما رضي التاجر ان يبيع المبلغ الذي اقترضه كاملاً ، حتى في حال خسارة رأس مال الشركة ، ثم يعقد معه اتفاقاً ثالثاً يبيع بموجبه من التاجر ربحه المرجح لقاء فائدة ٥ ٪ من المال المقرض او المسلف ، وهي فائدة مضمونة ملازمة مهما كان مصير العملة التجارية . فشركة التوصية استعالت ، في مثل هذا الوضع ، ديناً بفائدة بسيطة ، بمعدل ٥ ٪ تصبح بالطريقة التي أقرت بها ، بأمن من تدخل القانون . ثم كان هنالك عدد كبير من الدائنين يسلفون بفائدة بحرية تامة ، دونما وجل او خجل ، بالرغم مما يستهدفون له من ملاحقات قانونية امام المحاكم ، اذا ما رأى المدين ان يرفع ظلامته امام القضاء . مثال ذلك ، ان المتمول الالماني امبروسوس هوشتتر من مدينة اوغسبورج ، رغب يوماً في احتكار الخشب والحرير والحبوب والنحاس والزئبق ، فعمد حوالي سنة ١٥٢٦ الى الدين بفائدة ٥ ٪ يستلف بهذا المعدل من الامراء والنبله والكوتية واصحاب الطبقة البورجوازية والحداام والخدامات . وبينما هو في وهمه غارق يعتقد انه يتصرف لوحده بصنف الزئبق ، اذ بمناجم الزئبق التي ظهرت في مدينة المادن الاسبانية ، التي دخلت تحت احتكار آل فوجر ، تسبب له الافلاس ، وهي هزة دوتت بعيداً في كل ارجاء اوربا . وهذا الافلاس الداوي كان يجب ان يلقي فيه كل مضارب درساً له وعظة ، ولكن انى من يرعوي ويتعظ .

وراحت الدول تعتمد في معاملاتها التجارية نظام الاعتماد المالي أو السند ، اعتماداً كلياً ، مما عاد على هذه الطريقة بالازدهار فانتظمت اسسه واستقرت على وجه دقيق نظم . فقد اصدر الامبراطور شارل الخامس ، سندات أو اسهماً على الخزينة بقيمة اسمية تتراوح بين ٧ - ١٠ بالمائة . وفي سنة ١٥٢٢ ، باع الملك فرنسوا الاول مدينة باريس ربيعاً له قدره ٢٠٠،٠٠٠ ليرة ذهب ، يعود عليه من رأس مال ، تبلغ قيمته ٢٠٠،٠٠٠ ليرة . وراحت بلدية مدينة باريس تستدين هذا المبلغ من احد البورجوازيين ، ثم راحت توزع على سكان الهمة التي يوجد فيها هذا الريع ، سندات بالقيمة المذكورة . وهكذا ظهرت السندات الدائمة المترتبة على المجلس البلدي في باريس . وقد راح البورجوازيون يبيعون ما لديهم من اواني موائد الطعام الفضية لوفاء قيمة هذه السندات . وكانت مدينة ليون المركز للرئيسي ، مع مدينة انفرس ، للتجار بالفضة . وفي سنة ١٥٤٢ - ١٥٤٣ ، راح الكردينال ده نورنون ، حاكم المدينة اذ ذاك ، يستعمل الطرق والاساليب ذاتها التي ربحها هوشتتر ، وألف ، بالاتفاق مع صياقة ايطاليين ، اتحاداً من كبار التمويلين تولى ادارته هاتز كليبرجر ، وراح يستدين بفائدة ١٠ ٪ واحياناً ١٦ ٪ من فرنسا

والمانيا وايطاليا ، ومن الارامل واولياء اليتامى ، حتى ان ملك اسبانيا كان يتعذر عليه وجود من يقرضه أو يسلفه ما هو بحاجة اليه . وفي سنة ١٥٥٥ ، اعاد ده تورنون الكرة باسم « حزب ليون الكبير » ، هذه المرة ، وراح الخدم يقدمون له المبالغ الصغيرة التي وفروها ، حتى ان النساء بمن حليهن ومجوهراتهن وسرت المدى وشاعت بين الناس ، وراح السويسريون والالمان والباشوات والتجار الاتراك يدينون بفائدة .

تلبست الحركة التجارية في المراكز التجارية الكبرى ، امثال انفرس وليون المضاربات وجنوى ، الوانا واشكالا من المضاربات اقتربت كثيراً من المراهنات والعباب الحظ . فقد كانت البضائع مجالاً تعقد حولها اتفاقات وعقود محددة الآجال . مثال ذلك ان يشتري تاجر ما ، كمية من التوابل يستلمها بعد ثلاثة اشهر من تاريخ العقد بسعر البضاعة يوم الاستلام . فاذا ما كان سعر البضاعة يوم الاستلام اعلى من سعرها يوم البيع ، يكون حقيق ربحاً . اما اذا ما قصر السعر يوم الاستلام عن سعر البضاعة يوم الشراء يكون البائع هو الربح . وهكذا تبدو المعاملة اشبه ما تكون رهاناً ، على شيء من التأمين او الضمان . ويسلم البائع او المشتري ، عقداً موقفاً منه ، يتعهد له فيه بتسليمه كمية معينة من صنف معين من التوابل بمواصفاته ، في مدة يجري تحديدها بين الطرفين المتعاقدين . وللمشتري ، مثلاً ، ملء الحق ببيع هذا الصك أو السند ، من شخص آخر ، وهذا من شخص ثالث ، وهكذا دواليك ، الى ان يحين الاستحقاق وهكذا وجد التجار انفسهم امام معاملات وتعهدات اساسها الصك أو سند التعهد ، فتنبوه في الصفقات التي عقدها ، اذ يجنيهم متاعب ومضايقات كلوا بغنى عنها كالاهتمام بالبضاعة مثلاً ، ويخفف عنهم اعباء الانشغال بها .

ومنذ ذلك الحين جرى التعامل بهذا الصك سنة بين الناس لقيمتها المالية وسهولة تداوله . هب ان تاجرأ من تجار ليون يترقب عليه دفع مبلغ يستحق عليه لعميل له في انفرس ، ولم يكن له على احد من تجار انفرس او رجال المال فيها ، اى تحويل أو سند . فقد كان من السهل عنده ان يشتري تحويلاً مالياً لتاجر من تجار ليون على تاجر من تجار انفرس بدلاً من ان يرسل لعميله في هذه المدينة المال عيناً . وعلى هذا قس ايضاً تاجرأ من تجار انفرس يرغب في تحويل دراهم لعميل له في مدينة ليون ، فيشتري محلياً من تاجر انفرس تحويلاً يرسله لدائنه في ليون وفاءً لدينه بدلاً من ان يرسل له المبلغ عيناً . وقد انتشرت عادة استعمال هذه السندات او الصكوك الورقية بمد ان اصبحت نوعاً من العملات لها قيمتها المعينة ، وهي قيحة تتأرجح صعوداً أو هبوطاً وفقاً لناموس العرض والطلب في سوق المضاربات او المصفق (البورصة) . وكثيراً ما كانت هذه السندات موضوع صفقات مالية لاجل معين أو نوعاً من الرهان على قيمتها الفعلية ، في المستقبل ، وهي سندات كثيراً ما تكاثرت قيمتها بالحوادث السياسية والقضايا الدولية . فاذا ما دخلت الجيوش الفرنسية ، مثلاً ، ايطاليا الشمالية ، المنخفض بالتالي في البورصة ، سعر السندات

الصادرة عن البيوتات المالية في المنطقة . اما اذا لم تقم الجيوش الفرنسية ، كما حدث معها قبل معركة بافي ، بأعمال السلب والنهب ، كانت قيمة السندات وسعرها يرتفع . وقد راحت الشوائع والاخبار المصطنعة او الملققة تفعل فعلها للتأثير على قيمة سندات معينة لاجبارها على الهبوط والنزول ، فيقبل الناس على بيعها أو شرائها ، حسبما تكون الاوضاع ، حتى اذا ما بان بطلان الخبر وانكشف التلغيق ارتفعت اسعارها ، فيربح الناس .

وبناء لقانون الطلب والعرض ، كانت هذه السندات ، حتى العملة النقدية نفسها ، تختلف قيمتها باختلاف الأمكنة وتبدل الظروف . هب مثلاً ان الذهب قلّ وجوده في انفرنس ، بينما توفرت منه في ليون كميات كبيرة ، فيرى المضاربون ، في مثل هذا الظرف بالذات فرصة أمامهم للقيام بالمضاربات ، اذ يسارعون لشراء الذهب المتوفر في اسواق ليون لبيعوه في اسواق انفرنس بأرباح طيبة . ومضاربات من هذا النوع يمكن ان تتناول سندات الـ *Juros* التي اصدرها الامبراطور شارل الخامس ، في اسبانيا ، كما تتناول اي نوع آخر من السندات المالية . وكَم من مرة عمدوا احياناً الى خلق ازمة نقدية في مكان ما ، وذلك عن طريق جمع او لمّ كل السندات والاستحقاقات والتقدم فجأة بطلب استيفاء المستحق منها . وقد اختصت مدينة انفرنس بهذا النوع من التلاعب بالاسهم والمضاربات ، في الفترة الواقعة بين ١٥٤٢ - ١٥٥١ . وهذه المضاربات تفرد بالقيام بها عميل البلاط المالي غسبار دوتشي ، من هؤلاء المتمولين الدوليين الذي لم يكن يتورع من تسليم الملك فرنسوا الاول حاجته من المال ، وهو يعرف انه الخضم الازرق والمدور اللدود لسيدته ورئيسه المباشر شارل الخامس .

والاقبال على المراهات ساعد كثيراً على التأمين ضد أخطار البحر والملاحة ، هذه الاخطار التي تهدد مشحونات البضائع ، او التي تقوم في تعرض القرصان في عرض البحر ، للسفن ، او تكن في احتمال مصادررة السفينة ، من قبل الملوك والامراء ، والسرقه والفرق وغير ذلك من المخاطر التي تستهدف لها الاسفار البحرية ، اذ ذلك . وقد راح بعضهم يؤمن على سفنهم ، عدة مرات او عند شركات مختلفة ، ثم يفتعلون الحوادث بحيث يقبضون مبالغ طائلة تعويضاً لسفنهم عما ألمّ بها من معاطب واضرار وعوار .

وراحوا يؤمنون على الحياة ضد الحوادث والاطار ، فكنت ترى شيوخاً يؤمنون عليهم بدون علمهم ، ثم يجري اختطافهم من حيث لا يدرون ويسومونهم الواناً من المذابات حتى اذا ما فقدوا الحياة قبض المؤمنون عليهم قيمة التأمين . كذلك راح الناس يراهنون على وقوع الحرب ومصير المارك القائمة كما يراهنون على جنس الولد المنتظر ، وينظمون اعمال يانصيب ، والكل اقبل على اللعب واعمال الرهان .

وكان التجار يستملون مسك الدفاتر واعمال المحاسبة المكتبة ، وهي طريقة قديمة استنبطها لوقا فانشيولي ونقلت طريقته هذه الى الفلمنكية ، ثم الى الفرنسية عام ١٥٤٣ ، إلى الانكليزية ، عام

٢٥٤٧ ، والى الالمانية عام ١٥٥٠ ، عاها الجردة ودقت اليومية ، والجورنال والدقت الكبير .

ادى التطور العظيم الذي أدخِل على تداول النقد بفضل مؤازرة الملوك ، الى
المواصلات
ازدهار التجارة الدولية . فقد توطدت اسباب الأمن واستتب النظام في البلاد ،
بنوع الاجال ، ومع ذلك فقد أوجب بُعد النظر وحسن الفطن الا يسافر التجار عزلاً من
الصلاح ، ومن الاسلم لهم ولما يحملون من نقود ان يسافروا بصحبة فريق من الناس . وقد نظم
التجار ، بسبب لا يصال الاخبار والرسائل ، نوهاً من البريد الخاص الذي كان يقطع المسافة بين
بروكسل وباريس ، عام ١٥١٦ في ٣٦ ساعة صيفاً و ٤٠ ساعة شتاء ، كما استغرقت الرحلة بين
بروكسل وليون ، ثلاثة ايام ونصف او اربعة ايام ، ومن بروكسل الى روما ، عشرة ايام
ونصف أو اثني عشر يوماً . وكان في مقدورهم ان يستعينوا ، في فرنسا ، بالبريد الملكي وفي
ممتلكات الامبراطور ببريد امرة نابولي الملكية الذي اصبح بريداً حكومياً ، منذ سنة ١٥٠٥ .
وهذا البريد كان يقطع المسافة ، بين ايطاليا وبروكسل ، مروراً بالتيرون وإيفل بخمسة ايام
ونصف ، بمعدل سير ١٣٥ كيلومتراً في اليوم . أما المسافة بين بروكسل ومدريد ، مروراً
بفرنسا ، فيقتضي لها ١٥ يوماً .

كانت البضائع والشحنات ، تنقل ، برأ بعربات تقطع من ٣٠ - ٤٠ كلم . في اليوم ، تسير
بالبحرى مع مجاري الأنهر . وقد قامت البلديات ، في هذا المجال ، ببعض الأشغال لتحسين
المسالك والمابر الصعبة المرتقى بالتعاون مع الشركات التجارية او بمساعدة الملوك
والقضاء الملكي . واعيد بناء الجسور والطرقات ، كما ادخلت تحسينات على بعض المسالك
النهرية ، وبذلك تبادت التجارة دفع رسوم معينة ، والقيام باجراءات وترتيبات فرضها من
قبل اسباب المقاطعات دون اني مبرر لها سوى ابتزاز المال ، فالغيت .

اما في البحر ، فقد كانت سفن مدينة البندقية حتى عام ١٥٢٥ ، تصل الى انفرس ، الا ان
المجدلين كانوا يتقاضون اجوراً عالية ، كما ان الشحن كان عرضة لمخاطر عديدة على سفن من نوع
الـ galère. ظهرها مع سطح الماء تقريباً . اما في المحيطات ، ولا سيما في البحر الابيض المتوسط ،
فقد استميتض اكثر فاكثر ، عن السفن الخامة بالمجاديف ، بسفن تعمل على القلوع والشراع ،
كسفينة الكراهيل التي لها عدة صوار كما ان حافتها تعلو جداً فوق سطح البحر ، وسعتها كبيرة
لتسبح لـ ٢٠٠ - ٥٠٠ برميل ، وهي سفن سريعة السير انما سريعة العطب ، كان عليها ان
تقضي فصل الشتاء في الموانئ التي ترسو فيها . ومن انواع السفن المستعملة اذ ذاك سفينة hulques
وهي سفينة مفلطحة ، فطساء ، ثقيلة ، بطيئة ، الا انها اقوى من الاولى ، لها عدة قلوع ، صالحة
لركوب البحر في كل الفصول ، تحمل من ٤٥ - ١٠ اطنان ويأتي بمد هذا النوع ، نوع آخر من
السفن يدعى galions ، وهي سفن ضخمة ، ملوومة ، تحمل في مؤخرها برجاً كبيراً ،
قلية السرعة ، تستطيع ان تحمل عدداً اكبر من الركاب ووسقاً كبيراً ، كثيراً ما استعملها

الاسبان في شحنهم المعادن الثمينة من ممتلكاتهم في اميركا عبر الاطلسي . وبقيت المواصلات بطيئة ، تحف بها المخاطر لقة الخرائط الجغرافية الدقيقة الرسم ، ولافتقار الملاحة البحرية للمعلومات التقنية الدقيقة وللربانسة ذوي الخبرات الواسعة . وكانت سرعة سير السفينة في انفرس بمعدل ميل واحد في الساعة ، وكان المسافر يقطع المسافة من انفرس الى لشبونة ، في احسن الحالات ، بجمسة عشر يوماً . اما في البحر الابيض المتوسط ، فالاستثناءات ، وعدم الاطراد ، كان القاعدة ، في الغالب ، اذ ان المسافة بين البندقية والقسطنطينية كانت تستغرق من ٢٩ يوماً الى ٧٢ يوماً ومن البندقية الى يافا ، من ٤٠ - ٥٠ يوماً ، ومن تونس الى ليفورنو ، من ٦ - ٢٠ يوماً . فالبعد المتوسط كان له من الاتساع ، في نظر الانسان ، اذ ذاك ، ما لدنيا الاقتصاد منه اليوم . والعالم كان اوسع ، في نظر الانسان ، اذ ذاك ، منه في القرن العشرين . وهذا ما يفسر لنا تفوق الاقتصاد المدني او بالاحرى المدني .

كثيراً ما يجد التاجر الذي يهبط بلداً ثانياً ، زبائن عديدين هم على النظام الرأسمالي والصناعة استعداد كلي لا يتبايع ما يجمعه من محاصيل ومنتجات ، يتوقون لرفع مستوى حياتهم ، كما كانوا على اتم استعداد ايضاً لشراء محاصيل من اصناف اذنى على ان تكون حسنة المظهر وارخص سعراً . والحال ، فقد كانت قوانين نقابات الحرف وجميعياتها في المدن القديمة امثال : بروج وغنت وبروكسل وروان ، تحظر على مهني تجهيز مصنوعاتهم بمقادير كافية ومن النوع المحدد . ولذا امّ التجار القرى والمدن الصغيرة في الارياف يشترون منها الحامات التي يرغبون في الحصول عليها والادوات الصناعية اللازمة لهم والنماذج او العينات التي تروقههم ، كما كانوا يقبلون على شراء المحاصيل ونتاج الصناعة ويعملون على تنفيذها . وهكذا ادخلوا على المهنة عدة ادوات صناعية واصناف جديدة رفضت النقابات قبولها والتسليم بها ، كالمكابس لضغط الاجواخ بدلاً من ضغطها بالقدم ، وهي طريقة كانت تخفض الكلفة وتضاعف الانتاج ، وان جاء الصنف اقل جودة اذ كانت عملية ضغط ثوب جوخ واحد تقتضي من ٤ - ٥ ايام بينما يضغط المكبس في المدة ذاتها من ٩ - ١٠ قطع ، والمغزل الذي يدور بحركة الرجل بينما تبقى اليدان حرتين تعمل في الغزل ، والآلة الناسخة التي اخترعها ، عام ١٥٨٩ ، الراهب وليم لي والتي لم تلبث ان عم استعمالها في جميع المحام انكلترا ، فزادت سرعة النسيج من ١٠ - ١٥ ضعفاً من ناسخة باليد ، ويمكن لولد عمره ١٢ سنة ، ان يديرها بسهولة . واذا لم يعد الصناعي مالكا لأدوات الانتاج واجهزته ، فقد تحول تدريجياً من معلم حرفه الى عامل . وهكذا رأينا مراكز صغيرة للصناعة تقوم وتنتشر في المحام عدة من البلاد الا انها كانت تتركز تجارياً وادارياً بيد بعض المولدين الذين يتمهدون الاشغال . وكان الوضع على مثل هذا الشكل في مقاطمة الفلاندر . مثلاً حيث راح بعض رجال المال الذين يرغبون في الصمود في وجه الاجواخ الانكليزية الخفيفة ، المدة للاستهلاك اليومي وباسعار معتدلة ، يفتشون لهم معامل نسيج ، من هذا النوع ، في مدن إيبر وبيتول ، في ضواحي بروكسل وليل ، وفي بلدة هندشوت وأرمنديار ، وعلى الأثر

توافد على هذه المعامل الجديدة المحتاجون للعمل والعاطلون الذين لا عمل معين لهم ، ولم تلبث هذه القرى ان اصبحت مدناً ، وراجت بها المنسوجات الخفيفة التي تخرجها فباركها وتغلب على الاجواخ الانكليزية الصنع . وقد عرفت مناطق اخرى مثل هذا التطور السريع ، منها - مثلاً: منطقتا روان واللانفدوق ، وبورج وبيري ، ومدن وادي نهر اللوار ، ولانكشير وغيرها . وهكذا اضطرت النقابات المهنية القديمة ان تؤمن تموين المدن والارض الواقعة في نطاقها . ورغبة منها في الاحتفاظ بزبائنها ، رأت نفسها مضطرة لتعديل قوانينها الدقيقة بحيث تستطيع الصمود في وجه المنافسة التي تقوم بين معلمي الحرف ، وهي رتبة لا يستحقها الا من توفرت لإلحازاته الفنية بعض المواصفات والشروط الدقيقة : كإلحاز اشغال عالية الكلفة تعد روائع صناعية بما تقتضيه من فن ومهارة ، وبين عدد قليل من المهنيين الناشئين ، وتحصص أضيقت ، واساليب فنية ، اساسها نماذج محددة اوصافها بكل دقة ، وقام العمال حيث لا تقوم مثل هذه النقابات المهنية ، يسعون لإنشائها فيلتمسون من الملك الترخيص لهم بذلك ، تسيباً لهم حول مصلحتهم من المنافسة الشديدة التي يتعرضون لها من قبل عمال طارئین او دخلاء او من قبل زملاء قدامى لهم راحوا يعملون احراراً لحسابهم الخاص . ولعل ما هو اهم من هذه التدابير بكثير ، فساعد على بقاء هذه النقابات ، هو هذا النمو السريع الذي طرأ على المدن فأدى الى تطورها تطوراً عظيماً ، وهي ظاهرة جاءت نتيجة للنظام الرأسمالي الذي وفر للعمال زبائن اخذ عددهم يزداد شأنها يوماً بعد يوم .

قام التجار بتجميع او تركيز صناعي في الانشاءات والمشاريع الصناعية الكبرى اذ ان ازدياد الطلبات ، واحياناً، طبيعة هذه الطلبات بالذات قضت من نفسها الاخذ باسباب التصنيع: كالطباعة وتوضيب المادن وصناعة التعدين ، وصناعة المدافع ، وغير ذلك . وقد تمت رغبتهم هذه بالتعاون التام لانسجامها مع رغبة الملوك والامراء الذين تنازلوا لهم عن احتكاراتهم . وقد اصطدموا احياناً بمنافسة الرؤساء البلجانيين او رجال الاكليروس الذين شغلوا اموالهم في بعض المشاريع الانشائية . وهذا امر اصبح عادة مرعية في جميع أنحاء المانيا والبلاد الواطية ، منذ عام ١٥٤٠ ، وثورة الاديان وفي انكلترا ، حيث بلغت الحركة حدود ثورة صناعية . فبدلاً من الاكتفاء بالنزول الى عمق بضعة امتار في المناجم ، اقتضى الاتجاه الجديد النزول الى ٢٥ واحياناً الى ٥٠ متراً ، مما اضطروا معه الى فتح خنادق ودهاليز وسرايب تحت الارض . وهي اعمال استغرقت وتستغرق صيانتها نفقات طائلة تتجاوز احياناً عشرات الالوف من الليرات ، كما تستنفذ دخل بارونية فرنسية لمدة بضع سنوات . وقد تعرضت هذه الانشاءات احياناً الى فيضانات اغرقت المنجم أو سببت انفجاراً للغاز ، كما اقتضى مضاعفة العتاد والاجهزة ومعظمها من الخشب ، وتدعيمها بوصلات حديد او تركيب محاور او مصاريع أو صفائح من المعدن عندما تحتك هذه القطع بعضها ببعض ، وهي اجهزة تحرك باليد أو بمحوانات جر او بغير ذلك من القوى الطبيعية ، وتركيب اجهزة لنضح الماء المتسرب الى الداخل ، وسلاسل لا تنتهي من

القواديس ، وبراغ من نوع براغي ارنجيدس ، ومضخات جاذبة ذات كباس . وأخذوا ، منذ عام ١٥٤٦ ، ينشلون في المناجم العميقة سلسلة عمودية من المضخات الجاذبة ، والاحواض المتراكبة الواحد منها فوق الآخر ، وهي مضخات تحركها عجلات ضخمة يسير عليها رجال أو يتساقط عليها شلال الماء من حوض ، واجهزة للتهوية كهذه المفاتيح الضخمة ، وهذه البراميل المجهزة بفتحات مثقوبة في الوسط يخترقها الهواء ، وتنتهي بماسورة او انبوب لتفريغ الهواء ، ومراوح كبيرة يدخل منها الهواء بشدة في انبوب للتهوية ركبت في طرفه شفرات ضخمة يجرها جناح مطعنة هواء ، فركبوا ، لجهلهم تاموس القوة المبددة عن المركز ، الانبوب عند طرف الطبقة بدلاً من ان يكون قريباً من المركز ، وبكرات ضخمة لرفع الاثقال الكبيرة تأتيها الحركة من محرك يدور على عجلة ، على وجهي الارض ، بواسطة اسطوانة شاقولية الوضع ، طويطة ومسننة من الخشب ، وكسارات ضخمة مجهزة بمطرقة تتحرك بقوة الماء لتكسير فلزات المعادن ، ومصاهر ضخمة للحديد تعمل على فحم الحطب ، تم اختراعها في المانيا ، ثم دخل استعمالها مقاطعة سوسكس ، في انكلترا ، في اواخر القرن ، ومنها شع استعمالها في كل مكان حوالي ١٥٥٠ . وقبل اختراع هذه المصاهر ، كانوا يحصلون على الحديد المشغول من الفلزات هينها بواسطة كور حدادة صغير . وكان زهاء ١٢ ملتماً أو متصفاً يخرجون نحواً من ٢٥ طناً في السنة . ومنذ سنة ١٥٤٠ ، انشئت مصاهر للحديد علو الواحد منها ٣٠ قدماً ، بمرض ٢٠ قدماً مريماً من تحت ، مع منافخ من الجلد ، علو الواحد منها ٢٠ قدماً يجرها دولاب يعمل بالماء يأتيه من سد قريب بواسطة انايب من الخشب ، ينتج في السنة كلها من ١٠٠ - ٥٠٠ طن من الصب . وكانوا يستعملون في تطريق الحديد والنحاس والقصدير مطارق ضخمة تتحرك على عجلات ركزوها في بنايات كبيرة يعمل فيها عشرات من العمال . ولتوفير ما يلزم من الملح ، لجأوا ، في انكلترا ، الى تبخير ماء البحر ، وهكذا استفنوا عن فريق من العمال كانوا يستخدمون من ٦ - ١٢ دستاً صغيراً ، بينا ركب بعض التمولين ، في ابنية كبيرة وعلى وجاقات ضخمة ، خلاقين سمة الواحدة ٢٠ قدماً مريماً وعمقها نحواً من ٦ أقدام . ونرى في سنة ١٥٨٠ ، احد رجال المال يستعمل نحواً من ٣٠٠ عامل ، وينفق في هذا السبيل اكثر من ٦٠٠٠ ليرة انكليزية ذهب ، في تجهيز ورشة له . فاشتد من جراء ذلك الطلب على معلمي الحرف والصناع المهرة يفتدون من الفلاندر لصنع الاجواخ ، كما كانوا يستقدمون ، من المانيا ، معدنين للعمل في استخراج فلزات الحديد وشغل الحديد .

تقلل النظام الرأسمالي في حياة الريف على اثر ظهور النظام الرأسمالي والحياة في الريف الاسواق الدولية ، وطولوع عصر الصناعة في اورربا ، وتزايد عدد السكان في المدن ، واخذهم اكثر فأكثر ، باسباب الحضارة ، فوجد في هذا كله مرافق للاستهلاك والانفاق . ففي اواسط انكلترا ، راح اصحاب الاقطان يستخلصون اراضيهم من مستأجرها ومكثريها ويدمجون بها الاراضي الصالحة للفلاحة من المشاعات البلدية ، وتحويلها

الى مراعي خضراء تنتجها قطمان الغنم طمعاً بصوفها الذي يذهب لمصانع النسيج الانكليزية ، كما ان قسماً منه كان يُصدر للخارج . وفي هذه المدة بالذات أخذت تظهر طلائع حركة اقامة السياجات حول الاراضي والمزارع ، هذه الحركة التي استعالت انقلاباً وارتدت شكل ثورة عارمة في القرن الثامن عشر . وانتقل استثمار الارض من مرابعين الى أبدي مزارعين تحت تصرفهم ما يلزم من المال الكافي لاستقلالها بروح بورجوازية يفيدون من نتائجها وغلاها في مقايضاتهم التجارية .

اما في فرنسا ، فقد كان جانب كبير من الاراضي الزراعية بيد مرابعين ومزارعين توارثوا استثمارها اباً عن جد ، كان من الصعب جداً على مالك الارض الاصيل انتزاع هذا الحق منهم ، وكانت حصته من الغلال التي حددت قيمتها ، لمرة واحدة ، يبلغ من المال يضؤل على مر السنين لارتفاع الاسعار المستمر ، ولكن منذ ان وضعت حرب المائة سنة اوزارها بعد ان افقرت الارض ، وانجذبت بها وحرمتها من اليد العاملة ، راح بعض الممولين من البورجوازيين ، في المدن المجاورة ، يتعهدون الاراضي الزراعية بعد توسيعها فيؤجرون ، من ضمنهم ، لفلاح او مزارع او مرابع ، شقة منها ، يدفع ما يترتب عليها من عوائد ورسوم ، نقداً وعداً ، وفقاً لمعقود ايجار قابلة للتعديل في انتهاء الاجل المضروب ، او يتناول قسماً من غلة الارض ، وما تبقى يكون حصة المزارع ، يتصرف به وفقاً للاسعار الدارجة ، اذ ذاك . اما البورجوازيون ، فكان بعضهم يؤثر اراضيه الحرة لسيد الارض او يعمدون الى شراء الاراضي ، اذا ما توفرت لهم اسباب الثراء ، من لهم عليها حق السيادة ، ثم يؤجرون القسم الاوفى من هذه الاراضي لمربعين يستغلونها وفقاً لشروط محددة . وسار على نهج البورجوازيين عدد كبير من اصحاب الاملاك ، فكان الواحد منهم يعمل على استثمار اراضيه ويراقب بنفسه اعمال مزرعته باذلا أقصى جهده لتحسين ريعها . وقد برز في هذه الحقبة هذا النموذج من الفلاحين الذين عرفوا قيمة التعاون مع الغير ، فيتولون ، هو بنفسه ، يبيع بقرة ، ويشرف على بناء ما تحتاجه ارضه من اسوار وسياجات ، ويراقب عملية قطع الحشيش وقطاف العنب ، وهو ، في الغالب ، من ذراري أحد البورجوازيين . وكثيراً ما كان أسياد الارض يشتررون من الفلاح ، بعد ان يكون هذا الاخير ، ارفقه الدين ، اثر بوار المواسم او لتفنيه عنها للخدمة العسكرية ، أو لمجزه عن ايفاء ما تبقى عليه من متأخر دينه ، أو مطالبته فجأةً بالمتأخر المتراكم من عدة سنين ، بعد ان يكون تناسى امرها . وكثيراً ما يكون عرف هؤلاء البورجوازيون الذين حرصوا على شراء الاملاك السيادية ، او هؤلاء الملاكين الذين تطبعوا بطباع البورجوازيين ، ان يراقبوا ، بعين يقظة ، وضع الاسواق التجارية ، وان يحتفظوا ، في منازلهم ، ببعض المحاصيل المنخرة ، بانتظار الفرصة المناسبة ، ليبيعوا ما احتفظوا به من غلال ، بأسعار مرتفعة . وقد اعتنوا ، على الاخص بالاصناف الصالحة للاعمال او المضاربات التجارية ، كالقمح والجر ، وفي مقاطعات بروفانس كشجرة الزيتون والفتوة ، وفي مقاطعة اللانغدوق بنبات العظم المستعمل في الصباغة ، وشجرة

الزيتون وشجرة التوت وهكذا نرى ان حياة الريف تغيرت كثيراً وتطورت مظاهر الحياة فيها : فاستعت القرى ونمت ، واكتظت بالسكان والمال والصناع ، وباليد العاملة من دباغين وبيطريين ، وزجاجين ، وصانعي القرميد والبلاط ، والحبالين ، والعاملين في صب الحديد ، وغيرهم . ويأخذ السيد ببناء مكبس هوائي لضغط الجوخ وكبسه ، ومدقة آلية تتحرك بواسطة دولاب جرش فلزات المعادن ، دون ان يشعر المرء دائماً ما اذا كان المعمل يعمل لخير المنطقة او انه يعمل لتاجر يقوم بنشاط صناعي .

وقد وقع مثل هذا التطور في بلدان اخرى : في الفلاندر والمانيا الغربية والجنوبية ، وفي ايطاليا .

اما في البلدان الواقعة الى ما وراء نهر الايلب كألمانيا الشرقية وبولونيا ، فقد حمل اشتداد الطلب على القمح ، من قبل التجار التابعين لاتحاد الهانز ، والبلاد الواطية لشحنه الى بلدان البحر الابيض المتوسط ، اصحاب الاراضي ومالكها ، على استخلاصها بالقوة من ايدي المربعين او المستثمرين لها ، فيكوتون منها مزارع استثمار ، ويجبرون الفلاحين على تأمين الخدمات اللازمة مجاناً ، دون مقابل ، وهكذا يصبح هو نفسه منتجاً للقمح ومنتجراً به . ان الاتساع المتزايد لهذه المزارع واعطائها كمية صغيرة نسبياً من الحبوب اللازمة للتجارة ، ساعد كثيراً على دمج نظام الاسترقاق في النظام الرأسمالي ، في هذه المناطق الواقعة على أطراف الحضارة الاوروبية .

فالتقنيات الزراعية فيها لم تتغير ، ولم تتبدل كثيراً . وعلينا ان نتنظر نهاية القرن ، لنشهد في البلاد الواطية ، دفعاً جديداً نحو الزراعة ، على نطاق واسع .

الناتج الاجتماعي للنظام الرأسمالي ان ازدهار النظام الرأسمالي وارتفاع الاسعار ، ساعدا كثيراً على التقريب بين الطبقة البورجوازية والطبقة المتملكة للارض ، وابرار الفوارق بين هاتين الطبقتين وبين الطبقات الشمية وقتبتها الى طبقات فرعية ثانوية .

اضطر عدد من الاسياد ، عرفوا بامهالهم وعدم درايتهم ، او افقرتهم حياة البذخ التي عاشوها ، وارتفاع الاسعار المتتابع ، ان يبيعوا اراضيهم وملكاتهم ، فآل امرها الى فريق يعمل في التجارة ، فشيّدوا لهم فيها نزولا ومساكن جميلة ، واقاموا لهم صلات مع الانسانيين ، فنهجوا نهج السراة . وبفضل النمط الجديد لحياتهم هذه ، ولتمرسهم بالوظائف العمامة التي عرفوا ان يستأثروا بها ، تحولت أسرم تدريجياً ، الى طبقة النبلاء وأصبحت بدورها ارومة لطبقة جديدة من الاشراف ، لمع ابناءؤها من رجال الدين والدنيا ، عملوا في الجيش او موظفين كباراً في خدمة البلاط . الا ان أهل الحسب والنسب لم ينزلوهم منهم منزلة العيرق الاصيل .

ويليهم منزلة ومرقبة ، هذا الجانب من البورجوازيين يتمثل برؤساء الحرف والمهن الذين كانوا يعدون ، من قبل ، زهرة هذه الطبقة ، فاذا بهم ، المحددوا اليوم ، الى المرتبة الثانية ان

لم نقل الى ما هو ادنى . اما رؤساء نقابات الحرف ، ذات الشأن كالجواخين . والجزارين والمطارين ، والبزازين والبقالين ، فقد عرفوا ان يحافظوا على ما حققوا من مستوى محترم ، بفضل ازدهار حياة المدن ، وعمرانها وازدياد عدد السكان فيها . واستطاع فريق منهم ان يوجهوا أبناءهم شطر المهن الحرة أو الوظائف العليا . الا ان دخيلة هذه الطبقة او بالاحرى . هذه الفئة ، ما زال يعتلج بالحقد ويتنزى بالبغيض ضد طبقة التجار .

وبلى هذه الفئة درجة ، معلو الحرف الدنيا : كالاسكافي وتاجر الامال والثياب العتيقة وغيرهم ممن يشغلون بعض الصنائع العادية او يديرون دكان بقالة .

وجاء في الدرك الاسفل من السلم الاجتماعي ، طبقة البروليتاريا وهي طبقة اعتاد افرادها ان يعيشوا من عمل يديوي ، ماجورين يوماً فيوماً ، او عمالاً احراراً يعملون عندما يحلو لهم العمل او يعملون في ورش يشرف عليها احد رجال المال ، او يلتزمون الى حرف منتظمة نقابات ، مشدودين ابدأ الى اوضاعهم ، الا ما تندر ، في بعض الحالات ، اذ ان رؤساء الحرف كلوا يحتفظون بوظائفهم لاولادهم او لاصهرتهم ، وكانت اجورهم الاسمية لاترتفع او لاتزداد الا ببطء ، وذلك بالنظر لما يلاقونه من مقاومة لدى ممثلي الطبقة البرجوازية ، الاقوياء الجانب لاعتمادهم على مؤازرة الامراء ونصرتهم . اما اجورهم الفعلية فكانت تهبط باستمرار ، وفي هذا ما فيه من برادر الصراع الطبقي . وانباء المهنة الواحدة يؤلفون جمعيات خاصة بهم تولى فيها بينها التبادلات عامة ، لها رئيسها الاعلى ، وصندوق مشترك ، يتسلحون بالسيوف والخنجر ويقومون باضرابات وحركات تمرد ، كما حدث مثلاً في مدينة أرفسورت ، عام ١٥٠٩ ، وفي مدينة ، أولم وكولوني ، عام ١٥١٣ ، وفي مدينتي ليون وباريس ، عام ١٥٢٩ ، و ١٥٢٩ .

اما في الريف ، فاذا ما ألّف المزارعون فيه طبقة على شيء من اليسر المادي وعقلية بورجوازية ارفع من عقلية المرابعين ، فهناك ، مع ذلك ، فئة من الفلاحين والكادحين في الارض لامال عند اصحابها 'يحتسبون به من احوالهم واوضاعهم ، رضخوا يائسين للعيش على ما يحفت بهم من وضع زري ، عجزوا او جهلوا ان يبيعوا ، في الفرصة السانحة ، محصولهم ، وهم يرون اوضاعهم تسوء وتدهور امام ارتفاع الاسعار المستمر . فقام بين الفلاحين ثورة لم تكن دوماً من عمل الصماليك بينهم ، اذ كثيراً ما نفخ في نارها فلاحون ومزارعون ميسورون ، هالمهم استمرار ارتفاع ثمن المواد والبضائع المستوردة ، كما هالمهم ، من جهة ثانية . توسع الملكية الرأسمالية واستبطار الحقوق الاقطاعية .

وهكذا شهدنا المزيد من الفوارق التي تميز الطبقات بعضها عن بعض وتباعد بينها ، بما ادى الى صراع طبقي عنيف كان له نتائج ديبلة وسياسية خطيرة .

جاءت الثورة الرأسمالية نتيجة منطقية لمسلك جيل او فريق من الناس
البرجوازي الرأسمالي ضلع بهم كبير بالتهضة الانسانية يتمثل ، خير تمثيل ، بهذا البورجوازي

الرأسمالي الذي عرف ان يعبر عما 'طبيع' عليه من فردية مميزة ، وما جاش في نفسه من رغبة السيطرة وتوق الى السلطان ، وما تزعت اليه نفسه من تفتيح وإشراق ، سواء في العمل او في الخلق والابداع ، والتطلع الى حياة متفتحة ، رغبة ، باذخة ، والضلوع بهذه المشاريع وانشاءات الاقتصادية من نوع معين .

حاول البورجوازي المتمول ان يطفىء ما في قرارة نفسه وسويداء قلبه من شهوة صاخبة للربح والكسب جعلته يتهاوت بل يتكالب على جمع المال ، مستمينا على ذلك بما 'ركّز فيه من إدراك واقعي ، عقلائي ، لاصول المغامرات المالية والمجازفات الاقتصادية .

فقد أوتي ، قبل كل شيء ، حب المغامرة ، وتذوق الجرأة في المخاطرة واشربت نفسه الى الفتح والخلق . فهو رجل اداري يعرف من اين تؤتى الامور ، وكيف ينظم ويوجه فريقاً من الناس ادرك بما فيه من زكّانة ، ما م عليه من 'خلس' واستعداد معين لتدبير امر معين ، فيعهد الى كل واحد منهم بالعمل الذي هيء له ، فينسق ويناسب بين اعمالهم وتصرفاتهم بحيث يحصل على اكبر قدر من الفعالية والطاقة . فهو مفاوض لبق ، ساهر الحركات والنظرات والايامه ، يعرف اصول البحث ويحدد المناقشة ويأتي الامور من ابوابها ليفضي منها الى خارجها الطبيعية ، أعطي موهبة عظيمة على الایحاء والاقناع وحمل الآخرين على اتخاذ القرار النهائي الذي يريده فيأتي وكأنه على السجية . كل هذه الصفات تجلّي بها البورجوازي الثري تركت في نفسه شيئاً من الانطباع واليقين ان شيئاً من الاشراف انتهى اليه ، وان 'نسيات' من هؤلاء العسكريين او رجال الحرب الذين تمسوا باعمال الحرب وما اليها من صنوف السلب وأوان النهب ، بمن تركوا اعمال القرصنة ، استقر في نفسه ، واستشرى في عروقه في وقت كانت روح الفروسية بعد هي المثال الافضل للمجتمع الامثل . وهل نجيب ، بعد ، كيف ان بعض الانكليز والايطاليين بمن نبضت في نفوسهم روح الفروسية قاموا ، في صميم القرن السادس عشر يمارسون بالفعل اعمال القرصنة ، فيكل اليهم كثير من ارباء القوم ، يجانب من اموالهم المدخرة لاستثمارها في هذه المغامرات التي يحلو لهم القيام بها ؟ أفلم تتضاعف اولى الاسفار الطويلة عبر المحيطات وأولى الشركات التجارية ، الكبرى التي قامت ، بمغامرات مسلحة من الكر والفر كان لهم الحظ فيها نصيراً ؟

وقد يبدو على هذا البورجوازي الرأسمالي ، بما امتاز به من روح التنظيم وروح والاقتصاد انه قدّ على شاكلة معلمي الحرف والمهن القدامى . وهذا بالفعل ما لفت الانتظار الى هذه الروح التي نبضت فيه ، وهي روح منافسة ، في الصمم ، لهذا الشريف . فيدنا نراه يرغب صادقاً ان يصير هو الى مثله ، نراه يوضح ، نفسه كما يستدل من المدونات وسجلات التجارة ، اذ ذاك ما يباعد بينه وبين هذا الشريف الذي لايهمه من الحياة الا الظهور بظهر الحر الباذخ : « ان اقتصدت غنيت ، فمن انفق قليلاً لن يلبث ان يصبح غنياً ، فالاقتصاد هو اولى الفضائل واولى المددسات . » وهي ملكة يجب ان تم وتنتشر لتملأ القدرات والاقوات والأزمنة ، على ان يستعملها الانسان بشكل منطقي ، معقول بما فيه نفعه وربحه . علينا ان نهرب من البطالة وان نحسن توزيع

أوقاتنا على الوجه الاكمل ، كما يترتب علينا ان نتفادى الاعياء ، ونبتعد ، ما امكن ، عن الملاهي ، والصيد والقنص والقصف والولائم ومضيعة الوقت بالاستقبالات الفارغة وان نحاسب انفسنا في المساء حساباً عسيراً على وجوه استمالة ساعات النهار . علينا ان ننظم حياتنا تنظيمياً منطقياً لتأمين المنافع التي تؤمنها لنا التجارة . ولهذا البورجوازي ناموسه او قانونه الاخلاقي الا وهو المحافظة ، قبل كل شيء ، على المهود المقطوعة والاتفاقات التي ابرمها ببلء حرية ، كما عليه ان يحافظ على المظاهر الخارجية ، وان يراعي ما يعود عليه بطيب الاحدوفة وان يعيش عيشاً نظيماً ، بعيداً عن الخمر والميسر والتسري ، كما عليه بحضور القداس بانتظام والاستماع الى الوعظ والارشاد ، وان يحتفظ بوقاره ومشيته المترزة .

للبورجوازي الرأسمالي عقلانية نموذجية ، منهجية . كل شيء عنده يجري ار يجب ان يجري بدقة الحساب . وكل ما يأتيه هو تمبير بالارقام لهذا النشاط البشري الذي يبش فيه ، هذه الارقام التي تضبط كل حساباته من مدخول ومصروف . فالقلم دوماً بيده ليضع على الورقة ويدون تفاصيل مفاوضاته ومعاملاته ، وكل ما يتوصل الى عقده من ارتباكات واتفاقات ، وما يأتيه من شاردة واردة . فالرأسمالية اسوة بالفيشاغورية الحديثة ، تحمل الكثير من طبيعة الذهنية الكمية .

وهذا البورجوازي الرأسمالي وقع تحت تأثير الانسانيين فهو ينتقي من الحكم ، ويختار من الكلم المأثور مما جاء في كتب الاقدمين من أقوال الفلاسفة الكليبيين وفينوفون وكاتون وكولوميل ، ما يبدي قسبات الصورة المثالية التي هام بها . فقد ربط نفسه بمجلة الانسانيين امثال : بوتنجر ، أحد رجال الفكر في مدينة اوغسبورج ، الذين يدافعون بقلمهم ولسانهم ، عن شرعية وجدوى المشروعات التي تضطلع بها الرأسمالية ، وعن شرعية الدين بفائدة .

فكبار المفكرين ، في هذا العصر ، لا يختلف تفكيرهم بشيء عن تفكير روكفلر وكارلجي وكروب وتيسن ، في زماننا هذا . فقد هاموا بالتطور وراحوا يترسمونه ويحاولون تحميظه ، الى اقصى حد ، في هذه القصور والصروح ومعارض الوحوش التي انشاؤها ، وهذه الجماهير الفنية التي لا تثمن من الانسجة والاقمشة والديباج ، والسجاجيد والطنافس والجوهرات ، والحلي والآثار القديمة ، التي وفق الى جمعها ، وهذه التواصي الفنية التي اوصى عليها لدى مشاهير الرسامين وكبار الفنانين ، في رعايته للادباء ونصرته للانسانيين صانعي الرأي العام . كل هذه الوسائل والذرائع ادوات بين يديه حققت له الكثيرين من الأصدقاء والزبائن . الا ان معظم رجال المال وذوي الثراء نظروا دوماً الى الفن نظراً الى وسية تساعد على العيش الكريم الرغيد والرفه في الحياة ، فكانوا يلطفون من حدة نشاطهم بالاستمتاع بالراحة والاستجمام . وكان عدد كبير منهم انضوى تحت لواء الانسانية والمخترط بين اتباع الابيعورية جزلوا للمفاكسة والمباسة ، والحبث . ولذا كانوا يندمجون باكرأ من العمل لينصرفوا لاملاكهم ومقتنياتهم يرحونها تامين بما تم لهم من ثروة هريضة ونحس بعيد .

الفصل الرابع

الدولة ونظمها الاقتصادية

بين دول كبيرة وصغيرة
اوروبا حضارة هي وليست وحدة سياسية . فالصورة التي راودت
خيال الناس ، في الاجيال الوسطى ، والحلم الذي جال في خاطرهم
بان يروا جمهورية مسيحية يتولى زمنياتها الامبراطور والروحانيات فيها البابا ، في تعاون بينها ،
نزيه ، متبادل ، بقيت ترقص في الازهان ، وان أعوزتها القوة وخلت من قوام وكيان . فالبابا
يتجاهل سلطته الكثير من الناس وبعضهم مهاجها ، حتى في الدول الكاثوليكية بالذات ، وينكر
عليها حق الاهتمام بالدين وضوابطه . أما الامبراطور فسلطته مقصورة على الامبراطورية الرومانية
الجرمانية المقدسة ، لا وجود لها ولا لها اي وزن الا في هذه الامارات التي يشرف عليها بوصفه
الرئيس الاعلى أو الماهل . وهذه الفردية ، التي طبعت عصر النهضة تتجلى ، في المجال السياسي ،
بهذه الدول أو الدويلات التي انتظمت سلك اوروبا ، فجاء ظهورها تمييزاً عن هذه القوميات
المختلفة التي جاشت بها القارة على شيء من التوازن . وفكرة المساواة في الحقوق التي اعتلجت
بها هذه الدول والافراد الاحرار ، فيما يتعلق بالاخلاق والمثل الواحدة المتشابهة ، حملت محل
مبدأ السلطة المسلسلة الذي ارتضته الاجيال الوسطى لها قاسماً مشتركاً ، بالرغم مما باعد بين
هذه الدول من انقسامات حادة ومنافسات وخصومات .

والنزعة التي جاشت في الضائمر بانشاء دول كبرى ، تبنت حركة ترمي الى اعادة تشكيل
اوروبا وفقاً لهذه الصورة التي تبلورت في الاجيال الوسطى والتي أوشكت ان تتحقق وتتحيز
بالفعل على اساس من التوازن النسبي . واستطاعت بعض الدول كفرنسا مثلاً ان تفرض سلطة
الملك وحده ، على هذه الامارات المربطة بالتاج بالولاء له ، والتي حاولت ان تنشيء من ذاتها
قوميات مستقلة ، كدوقية بورغونيا ودوقية برينانيا ، فاعلنت اولهما اندماجها بالتاج عام ١٤٩٣ ،
والثانية عام ١٥٣٢ . وهنالك يحوار فرنسا ، دول كاسبانيا مثلاً انجزت وحدتها القومية بضم
مالكها بعضاً الى بعض ، كملكة اراغون وفشتيليه ، اثر زواج فرديناند وايزابيل عام ١٤٦٩ ،
ومن بعدها في عهد شارل الكبير الذي سيُعرف ، في المستقبل ، باسم شارل الخامس ، عام

١٥١٦ ، وفي الجزر البريطانية حيث انضمت امارة ويلز الى انكلترا فنخضعتا معاً ، منذ عام ١٥٣٦ ، لحكم واحد وادارة واحدة . اما في الامبراطورية المقدسة فقد حوّل الامراء فيها اماراتهم الى دول فعلية . بينما بقيت ايطاليا منقسمة على ذاتها ، الى دويلات قوية الدعائم . متحررة من كل كعبية أو من كل رابطة ولاء الواحدة نحو الاخرى ، على اساس من توازن القوى فيما بينها ، قبل ان تجرفها من الوجود الضرورة القاضية بانشاء دولة كبرى فيها ، اسوةً بغيرها من البلدان المجاورة .

الجغرافية السياسية ودرال المدينة - الدولة
هذه الدول الكبرى وهي في الغالب اصغر مساحة منها اليوم ^(١) تبدو ، بالفعل ، اكبر ايضاً اذا ما اخذنا بعين الاعتبار ، بطء المواصلات وضعف كثافة السكان . وتبدو شاسعة جداً ، اذ تتألف من مدن ومنطقها المجاورة ، او من مدن منعزلة تنعم بضاحية ، خصبة ، مكتظة بالسكان ، تفصل بينها مسافات شبه صحراوية ، وغابات واراضي برّاح . وضمن الولايات وهذه الدول نرى حدوداً ونحوماً منتصبة مميزة ، امثال فرانش كونتية وسويسرا ، وغابات الصنوبر الكبيرة المؤبدة وهؤلاء المعمّرون في مقاطعة فرانش كونتية ، قدموا من الشمال ، متدثرين بجلود الحيوانات يحرثون الارض بأيديهم ليخلقوا منها اراضي مزروعة بالقمح ، المتزوج مع النسيم . ويأخذ سكان مقاطعة فو بقطع الاحراش لتوسيع المناطق الزراعية باتجاه جيرانهم ، يقيمون فيها المزارع والداكر ، الى ان يقع التصادم بين الفريقين . وهو صدام عنيف استعمل فيه الطرفان الغزو والنهب والسلب ونصب الشباك والاحاييل ، امعاناً في الوقيعة ، كما استمانوا بالختاجر يعمنون طعناً عجزت عن ان تضع حداً له ، هذه الاتفاقات المقودة ، ولا تحديد التخوم وتعيين المدى الجيوي بين الفريقين .

وهذه الجغرافية السياسية التي جاءت صورة حتمية لهذا التاريخ البشري ، بدت على دويلاتها مع ذلك ، نزعة تفاروت قدراً ونسبة ، نحو الاندماج والانصهار ، وان بدت غامضة ، غائمة . فالولايات التي انصهرت حديثاً مع املاك التاج في فرنسا ، اعترفت بمبدأ الولاء والتبعية للملك ، وفقاً لمهود نصت من جهة ثانية ، على احترام اعرافها وعاداتها وتقاليدها المرعية ، وعلى حقها بان يتولى الادارة فيها موظفون مغليون من سكانها وتربته . وفي اسبانيا ، احتفظت مملكة اراغون بمؤسساتها ونظمها وبما لها من شخصية مفردة . وهذه الدول الكبرى ، تستطيع ، وحدها ، بما تم لها من اتساع الرقعة وانبساط المدى ، ان تتحمل اي صدمة حربية تتعرض لها دون ان تعصب حساباً لاي احتمال تصدع او تفكك ، بعد ان امتنت ما هي بحاجة اليه من عدة وعتاد ، ومن موارد تقي بأورد الحرب ونفقاتها المرهقة . وهكذا شهد القرن السادس عشر ، زوال هذه الدول او الكيانات الدولية المتوسطة التي نستطيع ان نسميها

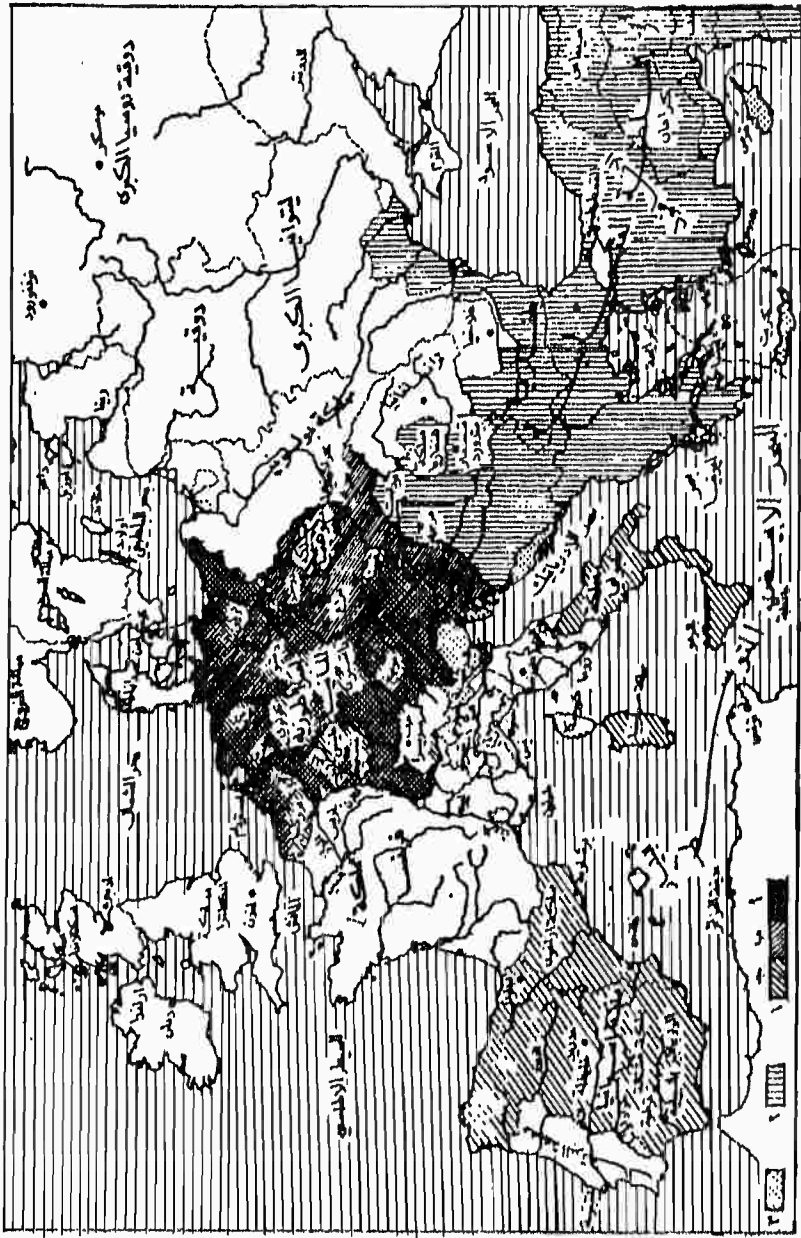
(١) كانت مساحة فرنسا عام ١٤٩٢ نحواً من ٤٨٠٠٠٠٠ كلم^٢ . بينما هي اليوم (١٩٥٠) ٥٦٠٠٠٠٠ كلم^٢

بالنسبة للدول الاخرى ، دولا اقليمية او محلية ، منها مثلا : الفرائش كوتية ، او هذه الدول التي كانت نواتها الاولى او قام مجورها الاساسي ، على مدن تجارية ، كالبندقية ، مثلا التي تصح تسميتها بالدول - المدن ، وهي هذه الدول التي تكون فيها المدينة ، هي الحاكمة والمضطلعة بالادارة عن طريق ابنائها . وهذه الدويلات صار امرها الى كيانات لا شأن لها ، او انها راحت فريسة فتح اجنبي فاندمجت مع دولة كبيرة ، كما حدث للقسنطينية عام ١٤٥٣ وكما حدث لنوفورود الكبرى عام ١٤٧٨ ، ولقرنطة ، عام ١٤٩٢ . ومن الطبيعي جداً الا ترضى بمثل هذا المصير المشؤوم وان تتنكر له في هذه الثورات والانتفاضات التي قامت بها . ولم ينج من هذا المصير سوى البندقية التي لاتزال تلعب بعد ، دوراً بارزاً في الحروب الايطالية ، ولا سيما في الحرب ضد الاتراك العثمانيين ، مع انها مجلت هبوطاً نسبياً في الميزان الدولي ، اذذاك .

١ - تطور الملكية المطلقة : اوضاعها

معظم هذه الدول تتجه في تطورها وفي تطورها الى التكامل ، نحو الملكية المطلقة او الحكم الاستبدادي . ويكون النظام الملكي مطلقاً او مستبداً ، عندما يحتمس الملك ، في شخصه ، المثلث الوطنية ويتمتع ، قانوناً وفعلاً ، بكل مؤهلات السلطة العليا ومقوماتها وصلاحياتها : كحق التشريع وامن القوانين ، وحق اقامة العدل واشاعته بين الناس ، وفرض الضرائب وجبايتها ، وتجييش الجيوش وتكتيب الكتائب الحربية ، وتعيين الموظفين ، وازال القصاص الصارم بمن يتطاولون على المصلحة العامة ، ولا سيما من يتعرض منهم للسلطة الملكية وذلك بفضل ما يتمتع به من ولاية وصلاحية ، صادرين عن سلطانه كقاضي اعلى . وقد جاءت فكرة الملكية المطلقة ترفد دون ان تمسها او تنتقص منها بشيء ، مفهوم الموائيق والاعراف التي تحدد الزوابط التي شددت اصحاب الاقطاعات ورعاياهم الى الملك .

حب الوطن وهذه الدول الكبرى تجيش بحب الوطن الذي يبعث فيها الحيوية والنشاط ويحملها على تحقيق وحدتها . وهذا الحب مصدره التعلق بالاقليم او المنطقة ، والولاء للملك صاحب السلطة الاولى في البلاد . ويشعد الروح الوطنية في النفس الجهاد ضد الاجنبي الغازي ، المستبغ ، فيعمل على ايقاظ النفوس ، وعلى الاهتمام بالمصالح العامة المشتركة ، وذلك بفضل ما للموظفين الملكيين من تأثير وتوحيد في هذا المجال ، والروابط الاقتصادية المشتركة التي تشد الاهلين بعضاً الى بعض ، ولا سيما بفضل تأثير الانسانيين على رجال البلاط والحاشية الملكية ، وعلى كبار ممثلي الطبقة البورجوازية الذين يشار اليهم بالبنان او يسير الناس في خطاهم . فالحرية تبعث في الانسان هذا الشعور الذي يصدر عن اعماق النفس ، كما انها وجه من تجارب الانسان مع محيطه ، وكلها عوامل وحوافز اضافية تزيد هذا الشعور جلاء ووضوحاً ، ودقة ، وتوليه بالتالي مزيداً من القوة والدفع يشتمل معه غليوم بوديه *G. Budé* في



- شكل ٢ - أوروبا في عهد شارل الخامس والسلطان سليمان القانوني
- ١ - إيلدان الخاصة لسلطان آل ميسبورج :
 - أ - الإمبراطورية القسمة ، ب - ممتلكات فريديان ، شقيق شارل الخامس ج - ممتلكات شارل الخامس في الترتوسط
 - ٢ - ممتلكات سليمان القانوني .
 - ٣ - ممتلكات لينينغية .

قرارة نفسه بان روحاً مشتركة واحدة ، كأما تجيش في صدر فرنسا وتضفي عليها شخصية واحدة . ولهذا السبب بعينه راح يقدم كتابه : *De Asse* الى « شيطان فرنسا ، اي الى التبوغ الفرنسي .. والانسانيون الفرنسيون يعلنون عالياً ، وعلى الملأ الاكبر ، أولوية فرنسا . وهامو غاغن *Gaguin* يدافع عن الوطن ، هذا الام الحنون ، فيمدد لنا الفضائل والمناقب التي يتحل بها هذا الوطن : شجاعة الفرسان ، حب العمل والاستمسالك بروح الاقتصاد وهناء العيش الرغيد ، وهذه الانسانية في الاخلاق السامية . ويحلول *Valerun de Valerannes* ان يرى ، في فرنسا ، الدولة الرائدة ، الزعيمة . ألم يفتح الغاليون اليونان ومقاطعة إونيا ، ومقدونيا ؟ أو لم يستولوا على روما ، ويمحوا الحضارة الى ما وراء الالب ؟ أو لم يفتح سحفدتهم جرمانيا ، وينقذوا الكروسي الرسولي ، ويستخلصوا الشرق من قبضة المسلمين ؟ وفي هذه الفتوحات العريضة التي قامت بها فرنسا ناشرة معها الافكار الجديدة ، ألم تبق أمانة لما اتسم به نبوغها الخلاق من تجرد ومثالية ؟ (١٥٠٨) ويتغنى دانغلتير بالانتصار الباهر لفرانسوا شارل ده مارتل على العرب والمسلمين ، هذا النصر المبين الذي جاء خيراً هدية من فرنسا لاوروبا جمعاء ، اذا آمن لها الحرية ، هذه الحرية التي لا تقدر بثمن . ويتشبع الفرنسيون من هذه المسآتي والانجازات التي جـاءت التاريخ يحلوها على مثل هذا النمو من سطوح الصورة وسناثها ، في هذه المشاعر العميقة التي تمور في احمق النفس ، حيث تستحيل حباً للوطن ، على مثال الافدمين ، هذه المثالية التي وضعها الفارس المسيحي نصب عينيه . وعندما راح الملك فرانسوا الاول يحمل الى قائده العام غاليو ده جنويالك . نبأ مقتل ابنه واستشهاده في معركة سريزول ، صرخ غاليو هاتفاً بكل بساطة : « شكراً لك يا الهي ، هذا الولد الذي وجدت به علي في لحنانك الالهي ، قد راق في عينيك ان تأخذك اليك ، ثم التفت الى الملك وقال : « اني لسعيد ، مولاي ان يكن لي ولد على هذا الشكل يهود بنفسه ويبدل دماه فداه للملك وللوطن . . وهل من عجب ، بعد ، اذا ما عرفنا ان غاليو أولع بالثقافة القديمة ، وانه كان عين لابنه ، مذهباً انسانياً من بين ادباء النهضة ؟ ولم يكن سكان قشبيلية والانكليز والفلمنك ليؤلموا عن الفرنسيين تملقاً باوطانهم وهياماً بحبها . ففي ايطاليا المنقسمة على نفسها دويلات وجمهوريات تلتاحر فيما بينها ، كانت دويلاتها مثلة بالبندقية وفلورنسا ونابولي ، وبفريق الانسانيين فيها بن فبهم مكيا فيلبي يتمنون ، بالسنتهم واقلامهم ، ان يروا ايطاليا ، تنم بوحدها واستقلالها الناجز التام . وهذه الامم والشعوب التي جاشت في قلب الامبراطورية المقدسة ، وكل فريق الانسانيين فيها ، امثال ويمفلينج من سكان ستراسبورج ، كانت صدورهم تلهج بالوحدة الالمانية . وهذه الروح الوطنية لم تكن لتقل بشيء عن الروح القومية .

وهذا التطور شخصت له الملكية المطلقة او الحكم الاستبدادي لم يكن الفضل فيه اساساً ، لهذه الرغبة الطبيعية التي جاشت في صدور الملوك بحيث

عبادة البطل

يزدادون سلطاناً وسودداً . فالحق الروماني هو الذي طلع علينا ، في القرن الثالث عشر ، بفكرة الملك المستبد الذي يجمع في شخصه كل السلطات ، هذا الملك الذي كانت مشيئته هي القانون . ان اقبال القرن السادس عشر على احياء التاريخ القديم ، اضى على الحق الروماني قوة جديدة بالنظرة الجديدة التي نظر بها الى الملك « البطل » ، هذا النصف الاله المسيطر الخيّر . فليس الأمر مجرد صورة ذهنية او فكرية تستبد بالفرد او تمثت به وتحفز به الى العمل والتصرف . فالحق الروماني مدين بالنجاح الذي لقيه ، لهذه الاصطلاحات والتعبيرات السهلة التي عبرت عن خلجات الناس ونزعاتهم الدينية واحاسيسهم الدينية في هذا العصر الذي وضع فيه . فالبطل هو النموذج الذي ترغب الشعوب باحتذائه ، والنسج على منواله . فنظرية الحكم المطلق او المستبد تعبر تماماً عن هذه النزعات الفيّاضة التي تجيش بها هذه المجتمعات فكانت تعبيراً صادقاً عن رغبات المجتمع البشري .

فالحاجة الى سلطان قوي ، هي من هذه المتطلبات التي يقتضيها صراع الامم .
 صراع الامم
 فمن بروز الدول الكبرى التي لها من القوة والبطش ما يجعل ملوكها يسيطرون على المنازعات الداخلية ويجزمون امرهم لبطش سيطرتهم في الخارج ، ومن هذه النجاحات التي سجلتها الدول المذكورة في سبيل تحقيق وحدتها الاقتصادية ، انطلقت هذه الحروب العظيمة ، الطويلة الأمد التي خاضتها في سبيل توطيد تفوقها الاقتصادي والسياسي . فالحرب تستدعي حتماً تقوية السلطة وتميزها ، وتتطلب حكومة قوية تأخذ بمنتهى السرعة قرارات يسهر على تنفيذها الجميع ، انى وايها كانوا .

قيام سلطة قوية في الدولة هو من مقتضيات الامم ومتطلبات كيانها .
 النزعات الاقليمية
 فالامم هي عبارة عن مجتمعات جغرافية قائمة جنباً الى جنب ، كهذه الولايات والمقاطعات والبلديات والهيئات والمؤسسات البلدية والقروية ، والمنظمات المعترف بها المثلة بهذه الطبقات الثلاث الاكثيوس ، والنبل والشعب ، وهياة موظفي الدولة ، والجامعات والنقابات المهنية . وقد قام بين هذه الممالك وبين هذه المجتمعات ، على اختلاف مسياتها ، عقود وعهود ، اعترفت رسمياً لكل منها بما لها من ممتلكات ورثاسات وممثلين بحيث تتألف من هذا المجموع ، وحدة تتمتع بقوة وسلطان . وقد انتصبت هذه الهيئات والمنظمات في وجه بعضها البعض ، لتضارب المصالح وتباين المشارب والاهداف . ولذا كان لا بد من ان يكون جانب الملك قوياً ليقضي في اختلافاتها ، على السواء ، لا تأخذه في الحق لومة لائم ، بحيث يؤمن الانسجام التام بين اعمالها وقصر فاتها ، لما فيه الخير العام . وكثيراً ما رأى من مصلحة التاج ان يفيد من هذه الانقسامات بما فيه خير البلاد والامة جماء .

على هذا ، قم ايضاً المناقسات التي شجرت بين ممثلي البيوات الكبيرة من
 المناقسات السيادية
 آل ابولي ، وأب ، في اسبانيا ، وآل شالون ، وآل فرجيز ، وآل هورن .
 وآل اغمونت ، في البلاد الراطية ، وفي الفرانش كونتينيه ، وآل شالون ، وآل بوريون ،

وآل مونتورنسي وآل ده غيز ، وآل كونديه ، في فرنسا ، وغيرهم كثيرين . وفي هذه المنافسات ما فيها من مخاطر لانها تجيش باعراف الاجيال الوسطى وعاداتها . وقد شدها بعضا الى بعض : وشائج الدم ، واواصر التبعية ، وروابط المصاهرات والتزواج ومن التف لِقْشَم من الخدم والحشَم ، والازلام والاتباع ، والفدائيين والمتعشين ، من يبذل دمه ويستعد لارتكاب العظائم لاجلهم . وقد بلغ من حدة المنافسة بين هذه العوائل ومثانة الروابط التي جمعت بينها انه لو اتفق لاحدم واقترن بنسيبة سيد من هؤلاء الاسياد السنْد ، مهما كانت القرابة بميْدة بينها ، فيكون الصهر الجديد قد أمن لنفسه حماية هذا السيد الكبير وتمتع بمطغه وحايته ، بينما يقطع الصهر الجديد على نفسه عهداً بالذود عنه والتجند لخدمته ، ولو ضد الملك بالذات . وكثيراً ما كان الملك يمد في بطانة هؤلاء الامراء وفي معيتهم ، اتباعاً له وانصاراً ومريدينهم على اتم اعتماد لشد ازره اذا ما حدثت احدم النفس الامارة بالسوء ، بالعصيان والتمرد ، كما كان واثقاً من جهة اخرى ، من ولاء خصوم هؤلاء الامراء له .

ساعد على تمكين الحكم الاستبدادي والترسيخ له في القلوب والنفوس ، هذا الصراع الطبقي الذي تجلّى على اتمه بين الطبقات ، ولا سيما بين البورجوازية منها والتبلاء . فالملك الذي كان يشعر عميقاً بمحاجته للطبقة البورجوازية التي كانت بالفعل ، عماد الدولة بما فيها من اموال طائلة ، وبما تقدمه للإدارة الملكية من موظفين وعمال ، وبموقفها المعارض ضد الاقطاعيين ، كان من السهل عليه جداً تأمين ولائها ومساندتها لقضايا التاج . فالسلطة الملكية ساعدت كثيراً على تيسير الاثراء وانماء الثروة لدى التجار البورجوازيين بما استلقتهم منهم من قروض وبما رهنته لديهم من ممتلكات لقاء سلفات ، وبما عهدت اليهم من تكليف جباية الرسوم والعوائد الملكية ، وبما اولتهم من حقوق فرض الاحتكارات ، وبمجاينتها لهم من مفعول القوانين الكنسية ضد الربا ، وبوقفهم الى جانبها ضد العراقل والمصاعب التي كثيراً ما اثارها الامراء في وجه الملك ، وضد موقفهم المتشكر للذقابات المالية . كذلك ، انقذت السلطة الملكية رؤساء الحرف وسيجّت حولهم باعترافها بها وبقرارها للانظمة والقوانين الاساسية التي سنتها لنفسها ، وبما اتمته لها من حماية قانونية تمدتهم بالتالي الى زبانتهم ، كما صانت ارباحهم من جشع المتمولين وكبار الاغنياء . وقد عطفت السلطة الملكية على البورجوازيين العاملين في القطاع التجاري او في المهن والحرف وحثهم ضد تعدييات البروليتاريا الجديدة . وبذلك هيأت لهم الظروف التي تساعدهم على الاثراء ، وان يحققوا ما حلموا به من ان يكونوا ، يوماً من اصحاب اليسار . فالملك وحده يستطيع ان يحقق لهم هذه الاحلام التي راودتهم وهذا الرقي الاجتماعي ، وذلك بايلائهم الوظائف العامة التي في قولها شرف لهم ، وبايلائهم اقطاعات لا تُعطى الا للتبلاء . وهكذا ارتفع كثيرون من بين البورجوازيين الى طبقة التبلاء . الا ان هؤلاء البورجوازيين المتأتلين عرفوا ان يحافظوا ، مع ذلك ، على الكثير من أعرافهم وعاداتهم ، وعلى ما عُرفوا به من روح الفطنة والاعتدال والتروي . فالسيد برنو ، كونت ده غرانفيل ، اسقف اراس ، ومستشار

الامبراطورية، يرسل بتعليماته ونصائحه ، حتى في احلك الظروف وأقسى الحالات التي مرت بها سياستها ، لما فيه خير الامبراطور ومنفعته الخاصة . ونراه يعلق على ما يرده ، في البريد ، من تقارير يبعث بها اليه مفتشوه ، بشأن موسم القمح وحالة الاسواق ، ويقرر بنفسه الظروف الملائمة للبيع باحسن الاسعار وأطيبها ، ويخطط للامور باحسن ما يفعل العاملون على خدمته ، ويرسل بتحارير ورسائل من اربع صفحات يحشوها بالنصح والارشادات يحث فيها عملاءه على ان يتخلوا لاحد ، عن أي رهن ، مهما كان طفيفاً ، ويرجهم بان يرفعوا اليه التقارير المفصلة عن فرائه ، ويشكر الله على انها خالية من كل ما يبعث بها ويبعث فيها ، ويشدد عليهم بالألا يفرطوا باي كمية من الزبدة بدون اذن خاص منه . وهكذا نرى كيف ان الارستقراطية تطبعت بطبائع البورجوازية . ومع ذلك ، فاذا ما أخذ بعض النبلاء من أصحاب الحسب والنسب والمحدث الرفيع بهذه الطبايع ، واذا ما تسربت بعض هذه الاعراف الى أسر نبيلة عن طريق زواجهم ونسائهم من الطبقة البرجوازية ، فما زلنا نجد ، مع ذلك ، نوعين او صنفين من النبلاء : نبلاء النسب القدامى ، المزهونين بشموخ وترف ، والنبلاء الحديثي العهد الذين ارتقوا الى هذه المرتبة ، بعد جهد وجهود مريرة ، وبعد ان احترف عدد كبير من اعضاء الاسرة ، مهنة السلاح والحرب ، فعدوا « جديرين » بهذا الشرف الاثيل .

ولم يكن في وسع طبقة النبلاء ان تتحامي من استعلاء الطبقة البورجوازية ، الا اذا لقيت حظوة في عين الملك . ولما كانت ترى ، في نهاية الامر ان ليس من مهنة ارفع واسمى واشرف من مهنة السلاح ، فقد املت العناية بملكاتها ، وبحقوقها الاقطاعية . ومن جهة أخرى ، فان هبوط قيمة النقد الثرائية ، احدث هبوطاً ذريعاً في قيمة عائداتها النقدية . فبإمكانها ان تعيش عيشاً كريماً على ممتلكاتها مكثفية وارداتها ومداخيلها العينية وبالخدمات التي يؤمنها لها ما عندها من خدم وحشم . إلا ان 'مقرريات العيش في البلاط الملكي والدلّ بالقها واورسحتها في الايها والمجتمعات ، والاستقبالات في المدن ، والاشراك في التجريدات الحربية البعيدة ، كل هذا يجتذنها ويستغويها . ولذا تراها تمن في انهاك نفسها وتتهالك ، اكثر فأكثر ، على هذا كله . فحياة البذخ هي من مستلزمات حياة النبل والشرف . فالجود والكرم والسخاء هدف بعض اخلاقية النبيل ، لا يمكن اغفالها او التخلي عنها ، بيتا الرقي البورجوازي يقتضي له ، اكثر فأكثر ، وفقاً للشعور النبيل ، ان يمسكوا الى فضائل ، عورات الاشراف ومسائهم ، تمييزاً لهم عن البورجوازيين . فقصور النبلاء تمور بجيش من الخدم والحشم ، والاعياد والحفلات الرائعة التي تقام بمناسبة الاعراس تفتح المجال واسماً للراقص واعمال الفروسية ، والمسارح ، ومراسم الجنائز تقتضي المئات من القداديس ، ومن للشموع المضاءة ، ومن ارجال الفقراء والارامل مرقدن ثياب الحداد ، حاملين الشموع ، ومبالغ طائلة 'توزع' صدقات وحسنات ، كل هذا يستهلك مدخول اسرة بورجوازية محترمة لمدة سنة . ففي حفلة رقص ومغاصرة يقضيها البلاط ، مثلاً ، يرقدني النبيل الذي يحضرها - ولا بد له من حضورها - بزة ، يتمثل فوق

كواهل، ثن قطيع كامل. وهكذا يرى هذا النبيل نفسه مضطراً ليضع ذاته بخدمة الملك ، وان يلتبس منه ، وفقاً لمرتبته في سلم النبل والشرف ، وظيفة حاكم في ولاية أو مقاطعة أو ناحية ، أو وظيفة قائد موقع في قلعة حصينة ، أو رتبة زعيم في الجيش ، أو عريفاً بسيطاً في فرقة صغيرة أو في الحرس الملكي ، أو ريعاً ثابتاً أو بائناً لابنه المتزوج ، أو رئاسة دير ، أو درجة اسقف أو حبر لابنائهم الآخرين . وهو لا يستطيع ان يقف بوجه البورجوازي ويحافظ على مركزه في المجتمع ، الا بوضع نفسه تحت جناح الملك . فقد خف والحق يقال ، كثيراً شأن هذه الاقطاعات التي قامت الى الغرب من نهر الايلب وجبال الألب الدينارية ، كما نجد أكثر فأكثر ، من جهة ثانية ، النبلاء ، وعدد أقل من الأسياد ، يستخدمون ما لهم من سلطة وسلطان في اقطاعاتهم ، مع ولايتهم للرئيس الاعلى ، كما نرى ، أكثر فأكثر ، هيئات ومنظمات اجتماعية ، يضفي عليها رئيس الدولة ، بصفة وراثية ، ولقاء خدمات يؤديها له أصحابها. في الحرب أو في الادارة ، مرتبة أعلى ، وألقاباً مسلسلّة مثل : دوق ، وماركيز ، وكونت ، وبارون ، وغير ذلك من الالقب العريضة كما يوليها : أوسمة وشارات شرفيّة ، ويفتقد عليها من مقومات الميش الكريم ، وغير ذلك من النعم ، وهو مرتبط بالدولة وحدها وما هو متوقف على ادارة ملكها العليا .

ولعل هذا الصراع الطبقي هو اهم عامل يساعد على تطوير الملكيات المستبدّة .

ومع ذلك فقد كانت القوة الفعلية لهذه الملكية المستبدّة اقل تأثيراً على حدود السلطة المطلقة سيرة الحياة اليومية لرعاياها مما تتمّ منها للحكومات الديمقراطية التي طلعت في القرن التاسع عشر . فالشريعة الالهية المسيحية ، والقوانين الاساسية التي قام عليها النظام الملكي والتي حددت الارض السياسية لكيان الملكية ووجودها ، وقانون الحق العام الذي نص على حق التملك ، ووضعت حدوداً للحريات الفرد والجماعات وبيّن ما لها من حقوق وواجبات والتزامات ، وأعراف وعادات ، كل هذه العوامل وما إليها ، جاءت لتحّد من سلطة الملك وسلطانه . كذلك يحد من طاقة هذه السلطة ، هذا العدد الضئيل من الموظفين وصعوبة المواصلات ونسبة وسائلها . فاذا اقتصرت على الموظفين المدنيين وحدهم في فرنسا ، وفيها اذ ذلك أكبر هيئة للموظفين في اية دولة من دول أوروبا ، جماء ، نرى ان عددهم لم يكن ليتجاوز ، حوالي عام ١٥٠٥ ، بضعة عشر الف موظف في دولة تضم زهاء ١٥ مليون نسمة ، وبلغت مساحتها نحو ٤٨٠,٠٠٠ كلم^٢ ، اي بمعدل ١ لكل ٢٥٠ نسمة ، وبنسبة او بمعدل موظف واحد لكل ٤٠ كلم^٢ (ففي سنة ١٩٣٤ وفي مجتمع اكثر تعقيداً وقد اختلف في تركيبه وتنظيمه ، كانت النسبة بمعدل موظف واحد لكل ٧٠ شخصاً ، و ٥٦ موظفاً لسجل ٤٠ كلم^٢) اما نفوذ الادارة المركزية وتأثيرها ، فكان ، بالطبع ، اقل بروزاً واستمراراً وفعالية منه اليوم . فالامراء والهيئات المنتظمة والمؤسسات كانت تقوم كلها ، تحت اشراف الملك ورعايته ، بمهام كثيرة هي اليوم من اختصاص الدولة وصلحياتها الاساسية .

أتاح مبدأ السلطة المطلقة بالفعل ، لهذه الهيئات والمنظمات التي تشكلت من فرقاء متباينين ، أصلاً وفصلاً وأوضاعاً ، ان تعمل معاً في هذه العطفة من التاريخ ، يتوقف عليها مسألة موتها أو حياتها . فقد أتاح هذا المبدأ ، عملاً بداعي الترابط والاعراف ، ان يحقق ، بعد ان عرف كيف يتفادى التطرف والمغالاة التي تجنح اليها نظام ثيودوسيوس ويوستينيانوس ، هذا التوازن الذي نراه ، بالرغم مما أحاق به من عوامل قومية ومؤثرات مختلفة ساعدت على التشتيت والانقسام ، وان يحافظ في وسط هذا المصطرح ، على بقاء هذه الملكيات ، ويؤمن عوامل رقيها وتطورها الصاعد نحو دولة نموذجية ، أكثر مركزية وأكثر وحدة ، لا بد منها لتأمين الازدهار والنجاح .

٢ - الملكية الفرنسية أكثر هذه النماذج تطوراً

حققت فرنسا أكثر من أي ملكية أخرى في أوروبا ، شروط الملكية المطلقة ، ولذا كان شارل الثامن عشر (١٤٨٣ - ١٤٩٨) ولويس الثاني عشر (١٤٩٨ - ١٥١٥) وفرنسوا الاول (١٥١٥ - ١٥٤٧) وهنري الثاني (١٥٤٧ - ١٥٥٩) من هؤلاء الملوك الذين قبضوا بيد من حديد ، على السلطة في البلاد . فالسلطة المطلقة التي تمتع بها ملك فرنسا ، اعتُرف له بها قانوناً . فهي هبة من حق الهي . ولذا كان الملك مسؤولاً أمام الله وحده ، ويتمتع بالتالي ، وحده بكل السلطات العليا والصلاحيات ، كحق اعلان الحرب ، وعقد المعاهدات التي تعيد السلام الى البلاد ، ويفرض ارادته على رعاياه . فهو وحده يملك سلطة التشريع واصدار القوانين لانه هو منحه القانون الهي ؟ وهو وحده الذي يقضي ، لانه وحده القاضي الاعلى ، والحكم الذي يصدره لا يقبل أية مراجعة او نظر من اي مرجع آخر . عليه ، مع ذلك ، ان يحترم المواثيق ويراعي الاعراف والمعاداة المرعية الاجراء ، وقوانين البلاد الاساسية التي ينص او لها على ان يتوارث الملك احد افراد اسرة هونغ كابت ، ماجدٌ عن ماجدٍ ممثل بالابن البكر في الاسرة ، دون ان يكون للملك اي حق بان يوصي بخلاف ذلك او ان يقرر ما يتعارض مع العرف والتقليد المتبع ، كما يترتب عليه ان يحترم القسم الذي اذاه يوم تكريسه ، هذا القسم الذي يلقي عليه مسؤولية الدفاع عن الكنيسة ضد الهرطقة .

لنجد الفصل الذي آل اليه عام ١٤٨٤ ، اجتمع البرلمان (ممثلي وسائل المصل الثائرة الملك الطبقات) ، ليس من حريات عامة او خاصة هناك في وسعها الوقوف بوجه الملك او الحد من سلطته . فهو السيد المطلق في البلاد ، المتصرف بالضرائب على هواه ، حتى في هذه الولايات التي تحددها فيها المجالس العامة (البرلمان) هذه الضرائب كولاية بورغونيا ، ولورمنديا وبروفانس . فتمحيدتها لها ليس بحق تتمتع به ، بل مجرد هبة او انعام او تسامح من صاحب الجلالة ، يمكن له الغاؤه عندما يريد . وهذا الانعام ، لا تتعدى حدوده ، حرية المناقشة لقيمة الضريبة ومبلغها النهائي .

فالملك هو رأس القضاء الاعلى . فالجالس التمثيلية ، البرلمان ، التي كان فيها ممثلو الطبقات الثلاث يحفون بمثل الملك عملاً بالاعراف المتبعة ، حل محلها المجلس القضائي الذي يترأسه قاض اعلى او ناظر العدلية او من ينوب عنهما ، مع عدد من المستشارين الملكيين . وقد جرى إلغاء هذه البرلمانات او المجالس العامة ، بعد فرنسوا الاول . وللملك جيش دائم ، 'محترف ، لجب' ، يرتفع عدده الى ٨٠٠٠٠ كما حصل سنة ١٥١٣ ، 'تدفع مرتبات افراده وضباطه من خزينة الملك . كما تدفع لهؤلاء الضباط والقادة المشرفين على امن البلاد . وتوزع وحدات الجيش على ٣٠٠ مركز او قلعة حصينة : بين مدينة او حصن . وللملك موظفوه ، يزداد عددهم ويرتفع ، سنة بعد سنة ، وفقاً لحاجة الادارة . فكل خدمة عامة هي وظيفة ، وكل وظيفة هي هبة من لدن الملك . فكل المأمورين العاملين في الخدمة العامة يعملون بوصفهم ممثلين للملك . اما عددهم فيتراوح بين ١٠-١٢ الف موظف يؤلفون اكبر هيئة ادارية تمتت للملك في اوربا ، يسهرون على تنفيذ رغبات الملك وارادته السنية . ويقوم حول الملك مجلس صغير من المستشارين ضم بين اعضائه بعض الخاصة الجريين ، يبذلون له النصح الملعل ويساعدونه بأرائهم ، على اتخاذ القرارات السياسية ، كما يوجد مجلس أوسع يضم فيمن يضمهم ، مستشار التاج ، وصاحب الالتماسات للنظر في ما خص امور القضاء والادارة . وهناك مجلس اعلى للعدل ينظر ، باسم الملك ، في مراجعة القضايا ، والقضايا المحفوظة ، للملك . ويقوم في باريس ، وفي هذه الولايات التي جرى دمجها حديثاً مع املاك التاج يقوم برلمان او مجلس ممثلين يتألف من قضاة يعملون في اعداد القوانين ووضمها وتهيئة القرارات التي يجب اتخاذها ، كما انه يقضي في الناس ويتولى النظر في الامور الادارية . وعلى رأس الولايات حكام عامون يتمتعون بصلاحيات وسلطات واسعة . وكان الملك يتحسب كثيراً لتصرف هؤلاء الحكام الذين كثيراً ما وقفوا الى جانب مجلس التمثيل ، وهذا ما حله في سنة ١٥٤٥ على اصدار رسوم بالغاء وظيفة حاكم الولاية ، الا في هذه الولايات الواقعة على الحدود . وبلي المجلس التمثيلي او البرلمان شأناً ، القاضي او ناظر العدل *Senéchal* او من اليهم في المجلس ، لهم صلاحيات القضاء والنظر في امور الناس . اما امور المملكة المالية ، فكانت من اختصاص مجلس مستشاري الملك ويتولى امر مراقبتها مجلس المحاسبة الذي ادخل عليه الملك فرنسوا الاول ، عام ١٥٢٣ ، تعديلات جديدة حسنت كثيراً من فعاليتها ، وذلك بإنشائه صندوق التوفير ، وهو صندوق يمثل الادارة المركزية ويشرف على واردات الدولة ومصروفاتها . ويشرف المفتشون الماليون على صناديق بيت المال في الولايات . وفي سنة ١٥٤٣ ، انشئ في البلاد ١٦ مركزاً عاماً للمحاسبة المالية في طول البلاد وعرضها . وهكذا كان يتسع نطاق العمل وتشمب الادارة الملكية في كل مرفق من مرفق البلاد الرئيسية .

الحكم المطلق والملكية
استطاعت الملكية ، بفضل ما تم لها من وسائل العمل
والتصرف ، ان تسيطر بالفعل على الكنيسة . فالاساقفة
ورؤساء الاديان مازمون بالولاء للملك والطاعة له وبالدفاع عنه . فالملك هو الرئيس الزمني

للكنيسة ، وهو الذي يقرر ما تصدره الكنيسة من قوانين وتتخذ من اجراءات . وللملك وحده الحق بدعوة الجماع السكونية للانقاد، وعليه تقع مهمة المحافظة على الوقف واملاك الكنيسة . وهذه المعاهدة الكنسية التي عقدها ملك فرنسا عام ١٥١٦ ، تترف له بحق اقتضاب الاساقفة ورؤساء الاديار على ان تتم سيامتهم ، من قبل البابا ، وفقاً للمراسم المنبئة ، فجاء هذا الحق فريضة بين يديه ، لاجتذاب ولاء الاسر النبيلة ، طمعاً منها بالاحتفاظ للصفار من ابنائها، بالمناصب الكنسية الفنية الموارد . وباستطاعة الملك ان يرغم الكنيسة ورجال الدين على المساهمة ، كلا ضمن طاقته ، بالضرائب التي يفرضها . وبموجب الحق الملكي الذي كان يدعيه لنفسه ، كان الملك يتقاضى ريع الاسقفيات والاديار الشاغرة ، لعدم وجود رئيس شرعي لها . وكان مجلس الملك يشرف على ادارة الكنيسة كما ان مجالس الممثلين الملكيين كانوا يخضمون رجال الاكليروس لاختصاص المحاكم الملكية ، كما كان من حقهم ان يجرّدوا الكنيسة من حق النظر في معظم القضايا التي يتقدم بها الشاكرون ، مع العلم ان برلمان باريس كان يتولى ضبط الامن ويتمهد النظام في الكنيسة

الحكم المطلق ونظام الاقطاع
 الملك هو السيد السند لجميع اصحاب الاقطاعات . ففي المملكة ليس سوى اتباع للملك . فكل الامارات هي اقطاعات ترتبط بالملك ، كما ان كل سيد او آمر ، مرجعه الاول والاخير هو الملك . فلا يستطيع الامير ان يقيم مجالس للعدل او ان يشيد له قصرأ في الامارة او الولاية او ان يبدل او يغير من اسمه بدون ان يعرض نفسه للملاحقات القانونية او للمصادرة . فالقطاعيون ليسوا سوى رعايا الملك الذي يفرض ارادته على الامارة . كذلك يفرض الرسوم ويعين الضرائب المترتبة على اتباع الامير او السيد ، ويخولهم حق استيفاء رسوم خاصة بهم . لكل رعايا الدولة الحق بان يميزوا الاحكام الصادرة عليهم من محاكم الامارة الى قضاء الملك . وهناك عدد كبير من القضايا يُحفظ النظر فيها ، لمحاكم الملك وحدها . ولدى اي شبهة ، يحسق للقاضي الملكي ان يطلب الاطلاع على سير اي دعوى او قضية تجري امام محاكم الامارة ، لاشتباهه في امر ما ، او سوء ظن ، او لارتباب بعدم اختصاص المحكمة للنظر في القضية . وقد عرف الملك ان يضع حداً للحروب الاقطاعية ، وآخر حرب من هذا النوع هي الحرب التي خاضها امراء آل فوا *Fois* (١٤٨٤ - ١٥١٢) . ويرفع الامراء اختلافاتهم ومشاجراتهم للتحكيم امام قضاة الملك . وهكذا انتهت ، دونما رجعة ، السيادة الاقطاعية . وفي سنة ١٥٢٥ ، ضم فرنسوا الاول ، الى املاكه ، دوقية بوربون واملاكها السيادية بعد ان تم التشهير بصاحبها ونودي به خائناً ، متمرداً على الملك . وفي سنة ١٥٣٢ ، تم عقد اتفاق ، ضمت بموجبه مقاطعة بريتانبا الى التاج ، هي الاخرى . وهكذا لم يبق في الجنوب يتمتع بشيء من السيادة الا امارة آل ألبريه .

الحكم المطلق والمنتميات المحلية
 فالملك هو السيد في الولايات والامارات المؤتلفة ، وهي هذه المجتمعات القديمة التي تتألف من البلديات والمدن القنصلية ،

له الحق ان يعيد النظر في هذه الاتفاقات التي ربطت الولاية بالتاج ، وذلك بما فيه خير المصلحة العامة كما له الحق ان يحول مجلس القضاء فيها الى برلمان ، ورئيس الادارة فيها الى حاكم عام ، وان يمدد بالوظائف الكبرى الى موظفين من خارج الولاية ، وان يمدد برئاسة المجلس والهيئات القائمة فيها الى موظفين يمينهم مباشرة . كذلك يضع تحت مراقبته عمليات الانتخابات البلدية ، ويراقب اعمال المجلس والهيئات المنتخبة ، ويوزع ما لها من صلاحيات قضائية ومالية حسب اراء مناسباً . كذلك يضع انظمة ومراتب سلسلة للثقافات ويشكل للصناع ولمثلي الطبقات السفلى في المدن ، هيئات سلسلة السلطة ، تحت ادارة موظفين ملكيين يأخذون على عهدتهم تنظيم المهن الحرة .

الحكم المطلق والحياة الاقتصادية يحاول الملك ، من جهة ، ان يوجه حياة البلاد الاقتصادية تاهجاً في المجال الاقتصادي سياسة قومية او مصالحة تعود بالخير العميق على الجميع ، وذلك بتحقيق الاكتفاء الذاتي في الاقتصاد وتوفير المدين ثلثين « عصب الشعب وقوته » كما يحلو للمستشار دوبرات (١٥١٧) ان يعلنه ، وذلك عن طريق قوانين « تحيد من الاسراف في الانفاق » كما تقيّد حركة اخراج العملة الى الخارج ، بدلاً من فرض رسوم على الاستيراد لا تتوفر للملك الوسائل القمينة يجبايتها على الوجه الاكمل . وهكذا تنعم كل طبقات الشعب بموارف الملك يوزعها بسخاء على رعاياه كل بحسب استحقاقه ، ولا سيما تلك التي تضفي على حاملها الاحترام ، تؤمن لهم النفع : كالتعميمات والاعطيات ، والإنعامات والاعفاءات او الاوسمة الفخرية وألقاب الشرف والنبيل ، او غير ذلك . والبلاط ، هذه الهيئة الجديدة او الجهاز الجديد الذي خلقه الحكم المطلق على صورته ومثله ، اصبح الآن مسلحاً او منهجاً مسلسلاً يحمل الكثير من عوامل الاغراء والجذب .

وهكذا فطبقات الشعب الثلاث ، تعمل جميعها على توطيد نظام الحكم المستبد ، بالرغم مما يميز الواحدة عن الاخرى من الامتيازات ، وما تنعم به من إعفاءات واستثناءات وغير ذلك من الروابط التي تشدها الى الملك باوق او اصر الولاء ، اذ في منافساتها الواحدة للآخرى ما يكبح من جماحها .

حدود الملكية المطلقة في فرنسا وهذه السلطة الواسعة التي يتمتع بها الملك لها بالفعل ، ما يحيد منها ويقيدها . فاذا كانت مشيئة الملك ورغبته هي التي تفوز في نهاية الامر وتنتصر ، فقلة عدد الموظفين نسبياً ، وبطء المواصلات لا يسمحان لها بالتدخل دوماً وفي كل مكان ، بالشكل المرجحى . فالسلطات المحلية لا تزال تتمتع بعد ، بشيء من المبادرة ، في حياة الولاية ونشاطها . ومن جهة اخرى ، فهذا الاضطراب او القلق الفكري الذي ران على الوضع القائم ، اذ ذاك ، جعل المؤسسات العامة تبدو وكأنها بالفعل ، اوضاع وحالات متباينة كثيراً بعضها عن بعض ، تلفها حركة متصلة من التبدل والتحول والتنوير .

فالوظائف ليست بالحقيقة سوى اوضاع او حالات يعمل فيها فرد او عدة افراد لا تخصص لهم ولا مهارات عندهم ، يتمتعون بحقوق وصلاحيات ويقومون بنشاطات تختلف نوعاً وتوزع بدداً بين العديد من السادات والبلديات والمصالح والمؤسسات الكنسية ، من الصعب ، ان لم نقل من المستحيل ، تحديد نطاق اختصاصاتها .

بيع الوظائف العامة والاتجار بها ساعد مسلك الموظفين انفسهم وتصرفاتهم ، اذ ذاك ، على التخفيف او التحلل من ربة سلطة الملك . فقد جرى العرف ، منذ عهد بعيد ، ان يقدم طلاب الوظائف ، مكافآت مالية لمن من موظفي المعية ومستشاري الملك وغيرهم من ذوي الربط والحل ، يساعد على الحصول على وظيفة ، وقد راح الملوك انفسهم يستشعرون هذا العرف ، فيبيعون ، لقاء دين لا يستوفى ابدأ ، بعض الوظائف التابعة للادارة المالية ، او للقضاء . وقد استطاع الملك فرنسوا الاول ، منذ عام ١٥٢٥ ، ان يؤمن له ريعاً او دخلاً خاصاً من بيع وظائف كلارنته غير ملحوظة . فكان عمله هذا كمن يفتح دكاناً لتصريف مثل هذه البضائع ، . كذلك اخذ بعض الملوك يسمح لبعض الموظفين ان يبيعوا ، لقاء مبلغ معين ، الوظائف التي لهم ، لشخص آخر او يحتفظون بها ، ضمن شروط ورسوم معينة ، لاولادهم وبنينهم . وقد اتسمت هذه الاعراف وانتظم العمل بها على مر السنين . بحيث أصبحت تقليداً مكرساً وامراً معترفاً به . فقد كان من بعض نتائج هذه العادة ان رحبت من نطاق ملاك الوظائف العامة ، وان تخلق ، ضمن الادارة ، هيئة خاصة من الموظفين ، بهتت مسؤولياتهم وغامت صلاحياتهم ، فاستموا مع ذلك في الدفاع عنها والتسيج حولها ، لما كانت تمثله لاصحابها ولذويهم ، من مورد رزق لا ينضب معينه . وقد اصبح هؤلاء الموظفون اصحاب حق في الوظائف التي يضطلعون بها ، لا يستطيع الملك انتزاعها منهم الا في حالات خاصة ، او اذا دفع لاصحابها تعويضاً لائقاً عنها او بعد مراجعات قضائية طويلة . وهكذا اصبح الموظفون طبقة رابعة ، في الدولة ، تراخي عراها اكثر فاكثراً ، مع الملك . ولهذا رأى العاهل نفسه مضطراً ، لا سيما بعد عام ١٥٥٠ ، للجوء الى تعيين مفوضين او ممثلين له ، يعزلهم عندما يريد ، يهد اليهم السهر على تنفيذ قراراته ووضعها موضع العمل بها .

الحروب الدينية ان وفاة هنري الثاني المبكرة على اثر اصابته بطعنة قاتلة في الالعب الرياضية . ترك مصير فرنسا بيد ملوك قاصرين م : فرنسوا الثاني وشارل التاسع اللذين ملكا تحت وصاية امها كاترين ده مديتشي . وراح بعض زعماء الارستوقراطية من آل ده غيز وآل ده بوربون ، يتنافسون على الاستئثار بالنفوذ ، ويعتمد الفريق الاول على الكاثوليك كما يعتمد الفريق الثاني على البروتستانت . انطلقت شرارة الحرب الدينية من مذبحنة البروتستانت على يد الكاثوليك ، يوم عيد القديس برثلماوس (٢٤ آب ١٥٧٢) فحملت في ثناياها خطراً كبيراً على الملكية في فرنسا . وراح جميع المغالين والمطرفين ، من اي لون

كانوا، يهاجون الملك. وفي عهد الملك هنري الثالث حاولت العصبة الكاثوليكية ان تعيد ، عام ١٥٧٦ ، الى اصحاب الامارات والاقطاعات الكبيرة ، السلطة التي كانوا يتمتعون بها من قبل ، كما حاولوا الرجوع الى التقسيات الادارية المعمول بها قبلاً . وقد سرى بين اعضاء هذه العصبة ، عام ١٥٨٥ ، نزعات ديموقراطية ، اذ بدا ليمض المفكرين من البروتستانت ان يتحدثوا من سلطة الملك بواسطة مجالس وهيئات انتخابية اعضاءها من ممثلي الشعب أخذاً بالتقاليد والاعراف المرعية. (هوقان في كتابه: « فرنسا الغالِيَّة ») وعلا منهم بمنطوق العقد الاجتماعي *Vindictas contra Tyranos* كما ان مجالس ممثلي الطبقات (برلمان) دعيت مراراً للاجتماع . وقد كان لاستحكام الفوضى في البلاد ، وللسياسة الاسبانية الزعرة التي انتهجها اعضاء العصبة الكاثوليكية ، المضادة تماماً لمصالح القومية الفرنسية العليا ، ان جاءت بنتائج تستخدم مصلحة هنري الرابع الذي احتل العرش ، اذ قتل هنري الثالث على يد راهب متمصب يدعى رافيناك (١٥٨٩) ويعد ان جعلد للبروتستانتية (٢٥ شباط ١٥٩٤) واعاد السلام والهدوء الى البلاد ، بوضع حد نهائي لهذه الحروب الدينية والاجنبية التي زرعت البلاد خراباً ودماراً ، وذلك بإصداره « فرمان فانت » (١٥٩٥) وعقدته معاهدة فيرفين (١٥٩٨) .

وهذه الحروب الطويلة ، الدامية ، أدت بالطبع الى تميز الحكم المطلق في البلاد . وعلى عكس ما تم في انكلترا ، فقد حدث من تطور البلاد في مرافقها التجارية والصناعية كما حدث من تطور الحركة البورجوازية فيها . فقد هاجر من البلاد ، عدد كبير من اصحاب الصنائع والحرف والفنون ، الى انكلترا ، حاملين معهم اسرار صناعات كثيرة . كذلك حدث من تطور البلاد الاقتصادي بمد ان عمها الخراب وجف فيها الزرع والضرع . واستطاعت الحكومة ، مع ذلك ، ان تضي قدماً في توجيه الحياة الصناعية في البلاد ، عن طريق الموظفين الذين استمروا في تطبيق القوانين ، في المناطق التي انكش فيها ظل الملك ، محاولين بذلك ، مضاعفة نفوذهم فالمراسم التي صدرت عام ١٥٨١ ، و ١٥٧٩ ، بصدد النقابات العمالية والانظمة الخاصة التي وضعت في هذه الحقبة بالذات ، حدثت كثيراً من عدد العمال المتدربين ، كما حددت بالتالي مدة التدريب وأعاقت ، الى درجة كبيرة ، الانشاءات والمشروعات الكبرى في البلاد . والضرائب التي فرضها الملك من جهة ، والثوار من جهة ثانية ، في المناطق والاقاليم التي سيطروا عليها ، حالت دون تكوين رؤوس اموال ضخمة في البلاد . والتطور الذي سجلته الطبقة البورجوازية العليا جاء ادنى بكثير من امثاله في كل من انكلترا والولايات المتحدة ، بينما لم تقطع طبقة الاشراف ، في هذا المجال ، الشوط الذي قطعه البورجوازية ، في هذه الحقبة . فلم تستبدل اوضاع الحكم المطلق فيها باوضاع الملكية المعتدلة او الجمهورية البورجوازية .

الملكيات الأوروبية على شاكة الملكية الفرنسية هنالك في أوروبا ، دول عديدة ، جاء الحكم فيها والظروف المهيمنة به ، شبيهاً من جميع الوجوه ، ان لم نقل مماثلاً

لما توافر من ظروف الحكم و اوضاعه في فرنسا . من هذه الدول ، مثلا ، اسبانيا التي نُظر اليها كدولة اخذت ، اذ ذاك ، بالتهقر الاقتصادي . كان الحكم فيها استبدادياً في عهد ملوكها : شارل الخامس (١٥١٦ - ١٥٥٥) و عهد ابنه فيليب الثاني (١٥٥٥ - ١٥٩٨) ، وبعض الدول الايطالية ، كنبولي التي وقعت ضمن الممتلكات الاسبانية ، ودولة سافوي ، بيامونت ، وبعض الدريبات الالمانية القائمة في قلب الامبراطورية المقدسة ، التي استعالت ملكيات مستبدة ، مطلقة ، ومستقلة بالفعل ، بفضل ما تم لها من تنظيم عسكري وجيوش جديدة ، وبفضل تأثير الحق الروماني الذي أخذ به و عمل بمنطوقه من جديد ، وذلك بالرغم من الجهود والمحاولات التي بذلها شارل الخامس لتوحيد الامبراطورية وجعلها اكثر مركزية .

٣ - الملكيات المعتدلة والجمهوريات البورجوازية

هنالك ، مع ذلك ، دول يختلف نظام الحكم فيها ويتباين تبايناً كبيراً . فقد برز في البلدان التي اشتد فيها ساعد الرأسمالية والبورجوازية اكثر مما اشتد في فرنسا ، ملكية معتدلة او جمهورية بورجوازية جاءت على نسبة تطور البورجوازية فيها . اما في البلدان الاخرى التي لم يتم للبورجوازية فيها مثل هذا الشأن ولم تبلغ مثل هذا الشأ في تطورها ، فقد قامت نظم ملكية على اساس إقطاعي ذات طابع ارسوقراطي . فاختصاراً للوقت ، نضرب في ما يلي بعض الامثلة على ذلك .

انكلترا انكلترا ، بالفعل ، خلال القرن السادس عشر ، نظام الحكم المطلق ، وهو نظام بعث في البلاد تطوراً اجتماعياً سريعاً ، اذ ما كادت تأذن شمس القرن للمغيب ، حتى كان هذا النظام قد فات ومضى قبل ان يسجل قيامه رسمياً .

مبادئ الدستور الانكليزي ففي الحقبة الاولى من عهد هنري الثامن (١٤٨٥ - ١٥٠٩) نجد بالفعل عدداً من المبادئ فرضها النبلاء على الملكية والزموها الاخذ بها والعمل بموجبها ، خلال فترة طويلة سابقة من التطور يحلو للفقهاء تنسها بدقة . وقد خلقت هذه المبادئ صورة ذهنية ، جماعية تبلورت واستقرت نهائياً وتم الاخذ بها في الظروف القائمة اذ ذاك . فقد علم الفقهاء بأن القانون الاساسي او الدستور هو اول ما يرثه الملك ، لانه لم يصبح ملكاً الا بفضل هذا القانون ، وباسمه ، ولولا وجود هذا القانون لما صار اليه الملك صاغراً . فالقانون هو اذاً ، فوق الملك . وهنالك قوانين اخرى تمش في اذهان الناس وخواطرم وان لم تكتب او يجر تطبيقها باستمرار . فليس باستطاعة الملك ان يفرض على البلاد ، وان يمثل العباد ، من رعاياه ضرائب جديدة ، كما انه ليس باستطاعته ان يسن قانوناً جديداً او ان يضع تشريعاً جديداً دون موافقة البرلمان وهو مجلس يتألف من ممثلين عن الاكليسوس والنبلاء فيؤلفون معاً مجلس اللوردات ، ومن ممثلين لاصحاب الاراضي الاحرار ، وللبورجوازيين الذين يؤلفون مجلس العموم . لا يمكن سجن اي كان بدون مذكرة

توقيف تبين نوع المخالفة التي استوجبت توقيفه ، وبدون ان تجري محاكمته بالسرعة المطلوبة .
فجريدة المظنون عليه او براءته بفررها حكم صادر عن هيئة محكمين تضم ١٢ عضواً . يمكن
ملاحقة الموظفين قضائياً امام المحاكم لمخالفات أئوها اثناء الوظيفة ، كذلك يمكن ملاحقة وزراء
الملك من قبل مجلس العموم .

لدى الملك عدد ضئيل نسبياً من الموظفين ، فالجانب الاكبر من القضاء والادارة ، كان
يؤمنسه ، باسم الملك ، عدد من الاعيان يعهد اليهم بهذه المهام . اما انكلترا فقد قسمت
ادارياً ، الى مقاطعات (كونتات) يمثل الملك فيها لورد نائب يُعين من بين نبلاء المقاطعة
ويتولى قيادة الميليشيا ، يساعده مأمور أمن (شريف) وقضاة صلح ، يجري انتقاؤم من بين
طبقة الاشراف الوسطى (*Squires*) او من بين النبلاء اصحاب العقارات ، او من بين ملاكين
اغنياء (*Gentry*) يتولون امور القضاء واصدار احكام العدل . فليس للملك عليهم السلطة
التي له على الموظفين المحترفين ، الغرباء عن مقاطعاتهم الاصلية . اما في هذا القسم الجبلي الواقع
الى الشمال من البلاد ، فالمقاطعات تشكلت الادارة فيها على الوجه التالي : فالحكام يمارسون فعلا
سلطتهم كاملة . وهذا التقسيم لم يعمل به في بلاد الغال حتى عام ١٥٣٦ . كل هذا التنظيم كان
من شأنه ان يؤمن للطبقة الارستوقراطية ولبعض المدن الانكليزية التقدم المطرد وحق الصدارة .

الحكم المطلق القائم بالفعل
ومع هذا وذاك ، فالملك هنري السابع تصرف تصرف ملك
مطلق ، مستبد ، وعلى خطاه سار خلفه هنري الثامن (١٥٠٩ -
١٥٤٧) واكسثر ، ادوارد السادس (١٥٤٧ - ١٥٥٣) وماري تيدور . وفي آخر المطاف
بلغ الحكم الاستبدادي الذروة مع الملكة اليصابات (١٥٥٩ - ١٦٠٣) . عندما اعتلى هنري
السابع العرش ، وجد الملكة فريسة حرب أهلية ضروس ، تآقت من مله جوارحها ، الى
الهدوء والسلام وقيام سلطة تثبت وجودها في البلاد . فقد ذهبت حرب الوردتين بزهرة النبلاء
وخيرة الاشراف في البلاد . فالواصلون حديثاً منهم هذه المرتبة ، دانوا للملك وحده ، بهذا
الفضل والشرف يوليه اياهم . اما البرلمان ، فقد كان طوع بنان الملك . والشعور القوي الذي
بمته في النفوس حرب المائة سنة ، والحقد الذي جاشت به صدور الانكليز ضد فرنسا ، والخوف
الذي سمرته في قلوبهم ، كل ذلك جاء ظهيراً للملك معزراً للسلطة الملكية المستبدة . كذلك
عرف العرش البريطاني ان يفيد كثيراً ، من الافكار التقدمية الجديدة والمرئيات الذهنية التي
طلمت بها النهضة الأوروبية الثقافية ، والفنية والتي تغلغت في جميع انحاء أوروبا باسكراً
وانتشرت فيها ايما أنتشار . ولم يلبث الانكليز ان غرقوا الى ما فوق انوفهم في القضايا الدينية
وما اثارته في البلاد من جدل ومناقشات ومشاحنات ، فزهدوا معها بالامور السياسية وتركوا
امر الحكم للملك يتدبر شؤونه كما يريد . وقد حملتهم الروح القومية التي استمرت في نفوسهم
اذ ذلك ، على الوقوف موقفاً ، مهادياً للبابا ، كما حملت على الوقوف مثل هذا الموقف الصلب

الحسن من البابا ، كلاً من الملك هنري الثامن ، وادوارد السادس ، واليصابات ، فزادهم شعبية في البلاد كما حل الشعب على التعلق بهم . ثم جاء الازدهار الاقتصادي الذي لعبت الملكية في تحقيقه ، دوراً حاسماً ، فساعد من جانبه على تقوية الطبقة البورجوازية التي شمرت بحاجنة ماسة لسلطة الملك ورعايته .

تألف قوام الشعب البريطاني ، حتى أواخر القرن الخامس عشر ، في الدرجة الاولى ، من مزارعين ورعاة . وقد كان الانكليز قد أخذوا بتحويل الصوف الذي تنتجه بلادهم الى منسوجات واقمشة خفيفة ، ارخص سغراً بكثير من الاجواخ التي كانت تنتجها مقاطعة الفلاندر ، فراحوا ينافسونها في أسواق القارة حتى وفي بلدان الشرق الادنى . وقد عرف الملك هنري السابع ان يحمي الصناعة في البلاد بفرضه رسوماً على الصوف الخام المصدر للخارج مما زاد في اسعار هذا الصوف وبالتالي ، في أسعار الاجواخ التي يبيعها سكان الفلاندر من الصوف الانكليزي . ونفخ هنري الثامن بدوره الحماس وأدخل النشاط على الاقتصاد الانكليزي ، عندما راح يطرح في التداول ، بين ١٥٣٦ - ١٥٣٩ ، ممتلكات الاديار والاقواف . وحدث في البلاد ، بفضل هذا الدفع الجديد للرأس المال ، ثورة اقتصادية حقيقية تغطت في جميع جنبات انكلترا اذ انه ما كاد يطل النصف الثاني من القرن السادس عشر حتى اصبحت انكلترا مركز كبيراً للتجارة البحرية وللصناعة الضخمة المتمركزة كان لا بد من حمايتها . وراحت طبقة بورجوازية ثرية تقبل على شراء الاراضي كما أخذت طبقة النبلاء القديمة تتهافت على الوظائف المحلية ، فظهرت بين الفينة والاخرى بوادر صراع طبقي في البلاد ، الا انه صراع اقل عنفاً مما نرى من امثاله في الممالك التي قامت الى الجنوب الشرقي من انكلترا حيث كان صغار النبلاء يعملون في الزراعة المرتكزة على رأس المال ، أو في الاعمال التجارية الكبرى ، وهو صراع عرف شيئاً من الشدة والحدة في بعض المناطق الانكليزية بحيث ان بعض كبار ممثلي الاقطاعية امثال كونت نورمبرلاند وكونت وستمورلاند قاموا ، عام ١٥٦٩ ، بثورة مسلحة ضد الملكة اليصابات ، رمت من جهة ، للحد من حركة الوصولين الجدد ، ومن جهة اخرى ، للدفاع عن الكتلكة في شخص ممثلها ماري ستيوارت . انتصرت الملكة في نهاية الامر وجاء فوزها هذا ، انتصاراً للطبقة الاجتماعية الرأسمالية الجديدة .

على عكس ذلك تماماً ، اضطرت الملكية ان تكبح من جراح البروليتاريا الجديدة التي ثارت عام ١٥٤٩ ، وهي طبقة تألفت من مزارعين يستثمرون الاراضي التي استأجروها او اكتروها من مالكيها ، فراح هؤلاء ينتزعونها منهم بالقوة والمنف ويحولونها الى مراعي خضراء ترتادها قطعان الغنم طمعاً باصوافها . وهكذا نرى كيف ان احتياجات رجال المال وصراع الطبقات بعضها مع بعض ساعد كثيراً على تقوية جانب الملكية وبالتالي على ترسيخ الحكم المطلق في البلاد .

تمكن هنري الثامن وخلفاؤه من تأمين موارد لهم يفرض قروض الزامية على السكان وحملهم على التبرع لحزينة الدولة ، او بفرض رسوم جمركية جديدة وذلك باصدارهم قرارات جديدة اصبحت ملزمة بمجرد اعلانها ، وهي طريقة حازت قبول البرلمان فاقرها واعترف بقانونيتها الدستورية ، بين ١٥٣٩ - ١٥٤٩ ، وفرضت بمراسيم اتحدت في مجلس الملك . وارغم الفرع القضائي التابع لهذا المجلس ، والمعروف بالمجلس المرصع بالنجوم ، الذي اعيد تنظيمه عام ١٤١٧ ثم المستشار وولسي بعده ، عام ١٥١٧ ، كل من تجرأ على الانتقاص من الامتيازات الملكية ، كمديري الأمن وقضاة الصلح واي انجليزي آخر على الخضوع للملك وعلى الامتثال لارادته السنية . وقد ساعد مجلس الملك الخاص ، بعد ان تم تركيزه نهائياً عام ١٥٤٠ ، على تركيز الوحدة الوطنية ، باشرافه على المجالس والهيئات الخاصة الاخرى وتوجيهها . والبرلمانات التي قلما دعيت للاجتماع ، كانت دوماً طوع البنان ، بعد ان اخذ الملك يُعيّن ، هو نفسه ، اسماء المرشحين لانتخابات مجلس العموم ، اما مجلس الاعيان او اللوردات ، فقد حل محل رؤساء الاديار الذين كانوا اعضاء فيه ، الاساقفة الذين يجري تعيينهم من قبل الملك .

بلغ الحكم الاستبدادي ذروته في انكلترا ، في عهد الملكة اليصابات التي احسنت الى اقصى حد ، هذه الاساليب بالذات التي أتينا على وصفها . فقد راحت محكمة العدل العليا (١٥٨٣) تحكم وتصدر احكامها دون اللجوء الى محكمين ، على كل من يحاول الانتقاص من سلطة الملكة السامية او من حق ولايتها (قانون ١٥٥٩) . ونظار الدولة اصبحت بالفعل وزراء . منهم مثلاً ولم تسلم الذي عين عام ١٥٧١ ، لورد بورلاي ، وقام اذ ذلك بدور فعال . وراحت الحكومة الملكية تنهج سياسة تجارية فتتدخل باستمرار بحياة البلاد الاقتصادية ، تشجيعاً منها للنشاطات الفردية . ولما كانت الدولة تمشي تحت كابوس الغزو الاسباني المدام ، فقد اخذت الحكومة تنمي ، الى اقصى حد ، مواردها العامة ووسائل دفاعها ، كالبحرية والصناعات الحربية التي يقتضيها النهوض بآلة الحرب . فالجوائز التشجيعية التي خصصت لبناء السفن الجديدة ، والقوانين التي ألزمت الناس التمويل ، في معيشتهم ، على استهلاك السمك ، وقانون الملاحة الذي صدر عام ١٥٥٩ ، والرسوم الجمركية الجديدة التي اصابت البضائع المستوردة على سفن اجنبية ، وانشاء شركات تجارية ذات طابع احتكاري ، والمنافسة الشديدة ضد المحامهانزا ، كل هذه التدابير والاجراءات ، كان من شأنها ان تؤمن للبلاد حاجتها من السفن والبحارة والتجارة . فقد أدى الرسوم الذي صدر عام ١٥٦٣ بصدد العمل والعمل ، الى تأمين الاستقرار في اليد العاملة ، وساعد كثيراً على توسيع التدريب المهني والمسلكي للبحارة ووضع الحدود التي تميز بين معلمي الحرف والرأسماليين . ان انشاء الاجتكرات والشركات التجارية الجديدة ، والعمل على توطين جاليات اجنبية دخلت البلاد هرباً من الضغط الديني الذي تعرضت في القارة ، بعد ان اغدقت عليها الاعفاءات والانعامات المشجعة ، كل ذلك ساعد كثيراً على انشاء صناعات جديدة ، بينها ، في الدرجة الاولى ، تلك التي تؤمن للبلاد حاجاتها الملحة من

المدافع والبارود ، والحديد والقصدير ، والرصاص والكبريت ، وملح البارود ، ثم في الدرجة الثانية ، صناعة الحياكة والنسيج كالأقمشة الصوفية الخفيفة ، والقطن المستورد الى منشتر ومن انفرس ، وغير ذلك من الحامات . ومنذ عام ١٥٧١ ، جرى تطبيق النظام الذي وضع عام ١٥٤٥ ، هذا النظام الذي اجاز الذين بفائدة . والاصلاح النقدي الذي تم في البلاد واعطى انكلترا اقوى تقد في اوروبا على الاطلاق ، واثبته ، واخيراً وليس آخراً ، السماح بتصدير القمح بشروط وابقاء اسعاره في الداخل ممثلة ، كل هذا ادى الى ازدهار الزراعة في البلاد .

وهذا النمو الاقتصادي الذي جاء نتيجة للحكم المطلق افضى الى قيام معارضة الحكم المطلق
معارضة للحد من طغيان هذا الحكم . فمنذ حوالي عام ١٥٧٥ ، ازداد عدد كبار التجار زيادة كبيرة كما ازداد عدد الصناعيين واصحاب الصناعة الضخمة المتمركزة . فقد اخذ هذا الفريق من الناس يعون ما تم لهم من قوة وطاقه كما شعروا بالحاجة للزبدن حرية التصرف في اعمالهم التجارية . ولذا راحوا يقابلون بعداء كل تدبير يراد به الحد من حرية التصرف . ويبدو انهم اخذوا يشمرون بشيء من الحفيظة نحو السلطة الاستبدادية التي تصدر عنها هذه القوانين . وفي الوقت ذاته تكاثر عدد فرقة « المظهرون » Puritains من البروتستانت كما ازداد عداؤهم نحو الكنيسة الانكليكانية التي فرضتها الملكة فرضاً ، فراحوا يطالبون امسا بنظام كنيسة مشيخية تقوم على تنظيم فوري لجماعة المؤمنين اساسه انتخاب القسس والوعاظ ، واما الاستقلال التام والاستغناء بالكلية عن كل ما اسمه كنيسة .

مع ذلك ، لم يسبق قط للبداءى والاعراف التي قامت عليها الحريات الانكليزية ان سقطت وغابت عن الأنظار وتوسى امرها لمرور الزمن . فكثيراً ما ابدى هنري الثامن نفسه احترامه لها . وعندما كان البرلمان يرضخ للامر ويسلم بقبول قضية يُطلب اليه اقرارها والتصديق عليها ، كان يحرص مع الامتثال ، على التنويه بحقوقه المبدئية ، واي محاولة لتبديل او تغيير في الشعور العام والرأي السائد في المجتمع كان يكفي لجعل الحكم الاستبدادي بغيضاً ، وبالتالي لا يمكن الاطمئنان له . فقد ساعد خطر الغزو الاسباني على كبت عواطف المعارضين . غير ان الموقف تغير والوضع تبدل ، عام ١٦٠٣ ، عندما راح البرلمان يجهز الملكة اليبابات على التمهيد بالرجوع عن الاحتكارات التي فرضتها . وهكذا شجر الخلاف وانطلق الصراع بين الحكم الاستبدادي والحريات البورجوازية .

البلاد الواطية : النهضة البورجوازية
والحكم المطلق الفعلي
البلاد الواطية مجموعة من الولايات ، يحتفظ حكامها ، على درجات متفاوتة ، بولايتهم الأمير واحد ، من بينهم دوق براينت وكونت ده فلاندر وغيرهما . فقد حاول الامبراطور مكسمليان وابنه فيليب الجميل ان يكونا من هذه المقاطعات والولايات وحدة متماسكة تخضع لحكمها الاستبدادي ، فاصطدما بما قام فيها من نزعات محلية او اقليمية ، وبما جاش في صدور

حكامها ومدنها من رغبة شديدة وتوق ظاهر للاستقلال الناجز . وبفضل حماية أولي الامر فيها للتجار من عداء النقابات المهنية ومعلمي الحرف ، انتصر فيها النظام الرأسمالي واستعلت . فتفوقت أنقرس على مدينة بروج وتمكنت من إنشاء شبه وحدة اقتصادية من البلاد الواطية بعد ان عرفت كيف تجعل من سكان هذه المقاطعات ، في الوقت نفسه متمهدها وزبائن لها . فقامت فيها بروجوازية رأسمالية شغفت بحرية التجارة ونبضت بروح الفردية الاقتصادية . وبالتالي اعتنقت مبدأ المركزية الملكية ضد هذه النزعات والمطالب المحلية ، فتغلبت بذلك ، على بروجوازية النقابات في المدن . وقامت في وجه هؤلاء البورجوازيين ذوي التأثير البعيد الذين يحيون حياة الرفاه والبذخ ، طبقة النبلاء التي ، رغبة منها في التميز عنهم ، وحرصاً منها على الاحتفاظ بتساميها الاجتماعي ، راحت تحتفظ لنفسها بالوظائف العامة وبهذه الشارات المميزة والاروسمة الشرفية التي يفدقها الامير . ومن جهة اخرى ، فالازدهار الذي عرفته النهضة الانسانية والذنية في هذه البلاد بعد الازدهار الاقتصادي الذي تجلّى فيها وعم جميع المرافق ، شجع كثيراً الروح الفردية والرغبة في التحكم بهذه الفئات المحلية والنزعات المتضاربة التي تجيش فيها ، وهي مطالب ونزعات لا يمكن تحقيقها الا على يد امير قوي الجانب ، شديد الشكيمة . ان اقتباسهم لمبادئ الحق الروماني وتقديسهم لها جعل نفوساً كثيرة تتشبع بمبادئ الحكم المطلق . فراح شارل ده غنت ، اذ ذلك ، الذي عرف فيما بعد باسم شارل الخامس والذي كان حاكماً عاماً على البلاد عام ١٥١٦ ، يحاول التمكين للعناصر والعوامل التي من شأنها ان تساعد على ترسيخ اسباب الحكم المطلق في البلاد . فقد عين في كل ولاية ممثلين مباشرين للملك ، منهم حاكم عام لاصلاحيات محددة له ، ومجلس للقضاء او مجلس عدل ، وفي بعض الاحيان ، مجلس معاسبة ، كما عين في المدن والبلديات ، قضاة كثيراً ما حاولوا إدخال اصلاحات على المجالس البلدية وملأ الوظائف البلدية بموظفين اخذهم من بين كبار البورجوازيين ، لهم من تربيتهم ومن مصالحتهم الشخصية ما يجعلهم متجانسين مع حاكم الولاية . واخذ الامير شارل ، اذ ذلك ، يحاول ربط الولاية بالحكومة المركزية لتولي الحكم في البلاد ، وصية على العرش ، يساعدها في الادارة مجلس لم يلبث ان تشعب وانقسم كما حدث في فرنسا ، الى ثلاث شعب كل شعبة تخصصت بناحية : مجلس شورى الدولة للنظر في الامور السياسية ، اعضاؤه من النبلاء ، المجلس الخاص او مجلس المعية ، والمجلس المالي ، اعضاؤه من رجال الفقه والقانون يؤتى بهم من الطبقة البورجوازية او من بين صفار النبلاء ، يتولون اعمال القضاء والادارة (١٥٣١) ثم الزم الامير شارل الولايات بارسال ممثلين عنها للمجالس العامة . واخيراً شكل عام ١٥٤٧ ، جيشاً دائماً ، ملاكه من النبلاء ، يتعهد مرتباتهم ويعترفون له بالولاء . ويتدخل موظفوه في كل مظاهر الحياة الاجتماعية ، فينظمون اعمال المظاهرات المالية والبورصة ، والمستودعات الملكية والاسعاف العام ، ويسجلون الاعراف والمعادات والتقاليد المرعية ، ويمكرون العدل وفقاً لاحكام القانون الروماني . وهكذا جعلت هذه التشريعات المشتركة ، من هذه الولايات السبع عشرة ، وحدة متماسكة لم تلبث ان جاشت فيها الروح القومية .

ولكن هنالك حكماً استبدادياً قائم بالفعل، ولكن لا وجود قانوني له . فلم يتمكن شارل من فرض رسوم وضرائب مستقرة كما يشاء ويرغب ، يستعمل ريعها بعد جبايتها ، كما يحلو له . غير ان المجالس التمثيلية محرض دوماً على اثبات حقها باقرارها ، مع العلم ان فرض الضرائب هو مفتاح النظام السياسي . ولم يعضِ طويل وقت حتى جعلت البورجوازية ، بعد الازدهار الذي عرفته ، للحكم الاستبدادي لا يحتمل . ففترة الحكم المطلق التي وقعت بين عهد الاقطاع وعهد البورجوازية ، جاءت هنا ، قصيرة للغاية . فنظام الحكم المطلق لم يستطع ان يمتد جذوره قانوناً .

الامة ضد الملك حزم الملك فيليب الثاني (١٥٥٥-١٥٩٨) ابن شارل الخامس وخليفته على عرش اسبانيا ، امره على ان يجعل من البلاد الواطية مملكة اساس الادارة فيها ، الحكم المطلق شرعاً ، تتيح له بما تتمتع به من موقع جغرافي ممتاز وما لها من موارد طبيعية غنية ان يسيطر منها على اوروبا جمعاء . فبات محاولته هذه بالفشل . فقد آذت الحكومة الاسبانية هذه البلاد ، والحقت بها الضرر ، عندما راحت تحاول تنظيم مراقبتها الاقتصادية لما فيه مصلحتها الخاصة ، ويخدم امنها في الدرجة الاولى . وفي هذا السبيل اصدرت فيما اصدرت من قرارات امراً بمضاعفة البحارة في السفن ، مما ادت الى ارتفاع كلفة البضائع . وقد زادت هذه التدابير فداحة ، إثر الافلاس الذي اصاب الحكومة الاسبانية عام ١٥٥٧ ، فتضرتس منه الجميع على السواء . فمن الطبيعي جداً ان تسمم ازمة اقتصادية على هذا النطاق ، الخواطر ضد الحكومة ، وتحمل الجميع على ان يتبينوا بالمحسوس مساوىء الحكم وان يحرصوا على الادارة اسباب الشكوى التي يتذمرون منها .

فقد أثار فيليب الثاني ذاته المعارضة ، وأهاجها عندما عبث بالتوازن القائم بين طبقة النبلاء والطبقة البورجوازية لحساب الاخيرة . فقد عين ، قبل مغادرته البلاد الى اسبانيا ، الى جاناب الوصية على العرش مارغريت ده بارم ، لجنة تتألف من ثلاثة بورجوازيين بينهم غرانفيل من مقاطعة فرانكس كونتية . فما كان من هذه اللجنة شبه الرسمية إلا ، ان قامت تحتكر كل الاشغال والمشروعات المهمة بعد ان ألغت مجلس شورى الدولة ، مما انتقص كثيراً من شأن النبلاء ، وحط من قدرهم بعد الذي قاسوه من عقابيل الازمة الاقتصادية ، ونتائجها الوخيمة عندما راحوا يستفلون اهلاكهم على الطريقة التي انتهجها الرأسماليون ويقومون بمضاربات مالية في البورصة ويتطبعون بطباع البورجوازية ، بالرغم من الاحتقار الذي يحملونه في صدورهم لهذه البورجوازية ، وقد رفضوا ان يجلسوا في مجلس شورى الدولة ، مع غرانفيل الذي كان عضواً فيه معهم . فانطلقت الثورة وعلى رأسهم كبار النبلاء .

فلم يمتنع البورجوازيون قضية الملك فيليب بل تخلوا عنه بالاجماع . فالملك لم يعد يمثل ، في نظرهم ، المثل الوطنية ولا المطالب القومية . وبالرغم من انه اسباني ، فقد بدا ، في اعينهم ،

غريباً عنهم وعن بلادهم ، يستخدم الرسوم التي يجيبها من اهل البلاد لاغراض لا تمت لاهلها ولصالح البلاد بسبب . فالحاميات الإنسانية ، وهذه الحكومة الارهابية التي حكمت البلاد بالسوط ، بين ١٥٦٧ - ١٥٧٣ ، برئاسة دوق ألبا ، زادت الاهلين نفوراً من شموخ الاسبان بانوفهم وبمعرفتهم وقسوتهم وفضاظتهم ، ومن مظاهر هذه التقوى المصطنعة وفساد اخلاقهم . ثم ان السياسة الدينية التي سار عليها الملك وجعلته يخضع كل شيء لمصلحة الدين ، اقلقت خواطر الكاثوليك في هذه البلاد ، بالرغم مما كانوا عليه وما عرفوا به من فتور ديني ، وتسامح واغضاء وتجاوز ، في بلاد تعيش في سعة ويحيش اهلها بمثل النهضة ، كان من مصلحتهم الاولى ان يحسنوا وفادة الوافدين عليهم ، مها كان لوتهم او دينهم . ومن جهة اخرى ، فقد حلم الكلفينيون الذين اشتد ساعدهم في البلاد منذ عام ١٥٤٣ ان يؤسسوا فيها دولة بروتستانتية ، وبرهنوا ، بالمحسوس ، على انهم ثوريون ، وانهم اعداء ألداء للملك الكاثوليكي . وقد راح دوق ألبا يسدد للبلاد ضربته الاخيرة عندما حاول تطبيق الحكم المطلق الاكمل بفرضه ضرائب ثابتة على كل المعاملات التجارية (١٥٧١) كما اوقع الشلل في حركة الاعمال وأريكها . فاشتد البؤس في البلاد ، وقامت فيها حرب اهلية سارت فيها الثورة سيرها الطبيعي ، للانتقال بالبلاد من حكم مطلق ، مستبد ، مرهق ، الى نظام بورجوازي . فبعد ثورة النبلاء ، قامت ثورة البورجوازيين ، ثم تلتها الثورة الديموقراطية التي اعقبها ردة فعل بورجوازية .

خلقت الثورة ، في البلاد الواطية ، في اول الامر ، دولة
 الدتورية والاتحادية المتحررة
 بورجوازية ، دستورية ، اتحادية ، متحررة . فمذ ١٥٧٢ ،
 شكّل الكلفينيون فيها دولة كلفينية ، تعزلها من الشمال دلنا هولندا وزيلاندا ، وانتخب
 رئيساً لها الامير غليوم دورانج . واضى الكلفينيون الفرنسيون الذين التجأوا الى جوار
 الامير عليها صبغة خاصة كما انهم مهروها بطابع سياسي خاص ، اذ راحوا يعلمون ان
 السلطة يعطيها الله الشعب الذي يمهده بدوره بهذه السلطة الى ملك ، يحتفظ بالملك ان هو احسن
 السياسة وامثل لاحكام الشريعة الوضعية والطبيعية على السواء ، والاجرته الشعب من هذه
 الكرامة التي أعطيت له ، ونزع عنه ما أوتيته من سلطة وسلطان ، ان لم يكن بطريقة مباشرة
 فبواسطة حكامه وقضاته وقد اتقنوا ، في البلاد الواطية ، تحريك مجالس التمثيل ، ودفعوها
 للعمل ، ان هذه البلاد لم تعد مجرد ولايات متراففة الواحدة منها مع الاخرى ، بل دولة واحدة
 موحدة . وهكذا حلت نظرية الحقوق الطبيعية العقلانية ، محل التقاليد والاعراف والحقوق
 التاريخية المكتسبة والانعامات والاعفاءات التي أقسم الملك على نفسه باحترامها ، والتي كانت
 تعبيراً او تبريراً لهذه النتائج التي أفضى اليها التطور الذي بعثته في البلاد كل من الرأسمالية
 والملكية المستبدة . فبورجوازية المستنيرين التي تعالت من الموظفين والحامين لقيت قبولاً في
 الازمان . وفي ١٩ تشرين الاول ١٥٧٦ ، تشكل في البلاد ، مجلس الممثلين واتخذ له صفة
 الملك ، واعلن بقرار اتخذه ، يعرف بقرار التهدة ، صدر في مدينة غنت ، ظهور دولة جديدة

تقوم على هذه المبادئ والاسس .

الدكتاورية الشمية الكلفينية
الا ان المحاولات والاتصالات التي تمت للوصول الى تفاهم ،
بين الكاثوليك والملك فيليب ، اقلقت بال امير غليوم
دورانج وخواطر الكلفينيين معاً ، فراحوا يستغلون البؤس الذي تسكع فيه العمال ورجال
الصناعات اليدوية في بلد دهكتها الحروب وجرت عليها الخراب والدمار . فراحوا ينشرون على
الناس نشرات تثير حفاظ الشعب وتذكي حقدته ضد كل سلطة ، ولا سيما ضد سلطة الكنيسة
بعد ان رمتها بكل قريّة ، وما اخذت عليها من مؤاخذات في ما تم لها من ثراء وغنى ، وضد
سياسة الملك الكاثوليكي التي شجبتها . وبما ان الله هو الذي يستودع الشعب السلطة ، فقد
عرف هذا الاخير ان يستغل ما في هذا المبدأ من نتائج . وفي آب ١٥٧٧ ، تألفت لجنة الثمانية
عشر عضواً ، في بروكسل وقررت انشاء حكومة ديموقراطية استبدادية ، فرضت دكتاورية ،
الشعب على المجلس التمثيلي . وهكذا تلبس الشعب حلة دكتاتور في شخص امير دورانج الذي
أطلق على الناس وم رُكع ، سجد ، يشهقون فرحاً وغبطة كأن الله نفسه يجتاز شوارع
المدينة . . واخذ هذا النظام الديموقراطي يسري بين الناس ويمتد من مدينة الى اخرى ، في
الوسط من البلاد الواطية وجنوبها .

وكان من فظاظة التمديات على الملكية ان أثارت الرعب والهلع في قلوب البورجوازيين
والنبلاء ، على السواء ، فتمنوا ، ان يقوم في البلاد ، سلطة قوية ، يعمد الذي رأوا ما رأوه
من سلب الكنائس وانتهاج الاديار والتمديات السافرة على الكهنة والرهبان مما أثار الحفاظ
وايقظ المشاعر الدينية في النفوس ، وفتح الباب واسماً امام اليسوعيين للقيام بمحملة وعظ
وارشاد وتوعية وايفاظ ، واحتل الاهتمام بالكتلكة ومصيرها المحل الاول من اهتمام الناس ،
بعد ان عم الخراب البلاد من جراء الحرب ومن نهب مدينة أنفوس بالذات (١٥٧٦) والحصار
البحري الذي فرضه الثوار في الشمال ، على مصب نهر الاسكو ، ومنافسة كل من هولندا
وزيلاندا ، ومعظم سكانها من التجار الكلفينيين الذين فرّوا من الجنوب ، واخذ النشاط التجاري
في هاتين المقاطعتين ، يحل تدريجياً محل انفوس .

انشقت البلاد الواطية على نفسها دولتين . وفجأة اخذ النبلاء
القطيعة بين الشمال والجنوب
والبورجوازيون ، في المقاطعات الجنوبية يتخلصون من
الديموقراطيين ، فألفوا ، عام ١٥٧٩ ، اتحاد أراس ، بينا ألف الكلفينيون ، في الشمال :
« اتحاد اوترميخت » . واستطاع الحاكم العام فارنيز ان يوفق بين اتحاد اراس وملك اسبانيا الذي
تخلّس ، ولو بصورة مؤقتة ، عن سياسته الاستبدادية ، وهكذا تمكن من ان يسترجع ، تدريجياً
الولايات العشر الواقعة في الجنوب والتي يتألف القسم الوسط منها من سهول رسوبية ، فكانت
مجازاً او ممراً ممتازاً للجبوش المتحاربة في مناوراتها وما تقوم به من حركات الكر والفر . اما

في الشمال ، فقد ألقت الولايات الواقعة عند الدلتا كياناً مستقلاً بعد ان اطمانت الى ما يؤمن مصيرها من جهة الجنوب ، في هذه الترع والخلجان والقنوات النهرية التي تعزلها عن الجنوب وما ليها من غياض وبطائح ومستنقعات تؤلف شبكة صعبة الاجتياز ، وامكانية اغراق البلاد عند اول خطر مداهم يطل في الافق ، وسيطرتها على البحر . فالاختلاف في الدين ، والدمار الذي انزلته بالبلاد الجيوش المتحاربة ، والمنافسة الاقتصادية ، كل ذلك ، زاد في شقة الخلاف بين القوميتين وبعاد بينها .

حاول فيليب الثاني ، عام ١٥٩٨ ، ان يعيد الوحدة الى البلاد ويؤلف بين الشطرين المنقسمين . وفي هذا السبيل ، منح البلاد الواطية ولو ظاهرياً ، استقلالاً ادارياً ، تحت ادارة الارشيدوق البرت وازابيل اللذين استقبلها الجنوب واحسن وفادتها واعترف بسلطتها . اما الشمال ، فانجه الوجهة التي يقتضيها مصير الدولة البورجوازية الانجليزية ، الاتحادية ، المتحررة التي قامت فيه . ولم يتم الجنوب ان استحاله قطراً يخضع للاستبداد .

٤ - ملكيات القرون الوسطى

خلافاً لهذه البلدان التي استعرضنا لها ، بقيت الممالك التي لم تبرز منها طبقة بورجوازية قوية الجانب ، في وضع ادنى بكثير من الوضع الذي تم للملكيات المستبدة .

اعلنت بولونيا نفسها جمهورية ارستوقراطية برئاسة ملك ، في عهد آخر بولونيا ملوك دولة يابلثون ، جان البير الاول (١٤٩٢ - ١٥٠١) واسكندر الاول (١٥٠١ - ١٥٠٦) وسجسموند الاول (١٥٠٦ - ١٥٤٨) وسجسموند الثاني اوغسطس (١٥٤٨ - ١٥٧٢) ثم في عهد هنري ده فالوا الذي سيصبح ، فيما بعد ، ملكاً على فرنسا ، باسم هنري الثالث (ايار ١٥٧٣ - حزيران ١٥٧٤) ، ثم اسطفان باثوري (١٥٧٦ - ١٥٨٦) وسجسموند الثالث فاسا .

وبولونيا دولة تباينت فيها العناصر والعروق والاجناس التي تشكلت منها ، ومن الحكومة وعجزها وهي عناصر يمكن ردها الى اربعة رئيسية : المملكة وهي منها النواة المستقطبة ، وليتوانيا ، وبروسيا الملكية وبروسيا الدوقية ، وهي عناصر تألفت منها وحدة هشة تحت سلطة ملك مشترك . كان هذا الملك يُنتخب انتخاباً ، كثيراً ما ادت عملية انتخابه الى حروب ومناوشات ، كما حدث ، مثلاً ، عام ١٥٨٧ ، على اثر وفاة الملك اسطفان باثوري . فالجالس التمثيلية (الدييت) التي لم تكن غير طبقة النبلاء ممثلة فيها ، كانت الهيئة القانونية التي تقر القوانين الجديدة ، وتحدد الضرائب ، التي لا بد منها لتغطية نفقات الجيش ، ومثل هذه القرارات يجب ان تؤخذ بالاجماع . فليس تحت تصرف الملك جيش ولا بيت مال ولا عنده اية حياة ادارية . فهو يعيش من ريع املاكه السيادية ويدفع من وارداتها نفقات الدولة . فخير ما يقال فيه انه الاول بين الاسياد . فهذا

النظام الملكي الموسوم بطابع الاجيال الوسطى ، لم يكتب له ان يرتقي ويتطور الى نظام ملكي مطلق ، مستبد .

وسر ذلك ان البورجوازية لم تظهر في بولونيا ، باستثناء بعض الامانات تسلط الارستوقراطية الذين كانوا يقيمون في عدد من مدنها الرئيسية . والنشاط التجاري الحري بالملاحظة في هذه البلاد الواقعة على اطراف اوربا الرأسمالية ، قام على تصدير القمح . فطلب الحبوب من الغرب ، لم يكن في مقدور احد ان يلبيه ، سوى كبار الارستوقراطيين لما لهم من الاطيان والاملاك الواسعة . فبدلاً من رؤوس الاموال التي اقتنروا اليها ، راحوا يستخرون اليد العاملة ، وليزيدوا من غلالهم ومحاصيلهم الزراعية ، اخذوا يعولون ، اكثر فأكثر ، على الفلاحين العاملين عندهم . وامعانا منهم في تسخير هؤلاء الفلاحين ، ورغبة منهم في اتمام المحاصيل راحوا يحدون من سلطة الملك ومن صلاحياته كما ضحوا بالطبقات الاجتماعية الاخرى . فانتخاب الملك الذي كان يفرض على المرشحين التزامات وقودا ، وعجز المملك على مجابهة كبار الارستوقراطية لهؤلاء النبلاء الفقراء الذين لم يكن لهم ما للبورجوازية ، في الغرب ، من شكيمة وطول باع ، كل ذلك ساعد على توطيد المشاريع والخطط التي يضعها كبار الاشراف في البلاد .

فمنذ ان اعتلى جان الاول البير العرش ، صدرت قوانين عام ١٤٩٣ - ١٤٩٦ ، تحد جداً من حرية المزارعين والفلاحين على التنقل ، وأعطى للسيد الحق بالاحتفاظ بهم في املكه وارضيه واجبارهم على العمل فيها . فهو يمثلهم في القضاء وهو مرجعهم الاول في اقضيتهم ، ولذا كانت يحول بينهم وبين القضاء الملكي الذي لم يكن يطالهم بشيء . فهو سيد هؤلاء الناس ورئيسهم المطلق . وفي سنة ١٥٢٠ - ١٥٢١ ، قرر مجلس الدييت ، ربط الفلاحين بالارض واجبارهم على الشغل فيها وحرثها ، كما خول الاسياد حق استملاك الهياث الريفية . والبلديات فقدت ما كانت تتمتع به من استقلال اداري وقضائي ، فأخضعت لقضاء الاشراف والنبلاء الذي اصبحوا أسياداً لهم مطلق السلطة على اراضيهم ومن عليها .

وفي سنة ١٤٩٣ ، و ١٤٩٦ ، تقرر اعفاء النبلاء من الرسوم الجركية ومن الفوائد الخاصة ببيت المال . وتحظر على البورجوازيين دخول الوظائف العسكرية ، كما سدت في وجوههم ابواب المراكز الدينية العليا التي اصبحت وفقاً على النبلاء وحدهم . وفي عهد الملك سجموند اوغسطس ، ولكي يتمكن النبلاء من الحصول ، بارخص الاسعار ، على ادوات البذخ المصنوعة في الخارج ، اعلنوا ، بعد عام ١٥٦٤ ، مبدأ حرية التبادل التجاري المطلق . ولم تقوَ الصناعة الوطنية على الوقوف بثبات في وجه المنافسة التي تتعرض لها من الخارج ، فذبلت وماتت . وأرغم التجار على التقيد بالسعر الاعلى ، وحظرت عليهم الانتقال للخارج للاستبضاع والامتياز ، اذ فضل النبلاء الحصول على ما يرغبون فيه ، من متهمدين أجنب يقدون على البلاد لشراء الحنطة

وغير ذلك من محاصيل الارض . ان احتلال الاتراك العثمانيين للقسطنطينية ، عام ١٤٥٣ ، والتنازل للقاطعات المطلة على البحر الاسود ، قطع على البولونيين الطرق التجارية المؤدية الى الجنوب ، وسدت في وجوههم ، من هذه الناحية أبواب الرزق . وهكذا قامت المراقيل في وجه التجارة البولونية من كل صوب . فلا عجب ، بعد هذا الا تستطيع البورجوازية ان تنمو وتزدهر بعد ان ضيق عليها النبلاء الانفاس على مثل هذا النحو .

وفي السنوات ١٤٩٣ و ١٤٩٦ ، نال النبلاء حق تشكيل مجالس اقليمية (*dioceses*) لتحديد الضرائب التي يجب جبايتها في حال قيام الحرب . فاصدرت هذه المجالس تعليماتها المشددة لممثلها في مجلس الدييت للوقوف الموقف الذي تليه عليهم مصلحة المقاطعة . فبقى هي حرة في رفض او قبول القرارات التي تصدر عنها . وهكذا رجعت المصلحة المحلية والمنفعة الآنية على المصلحة العامة . والانعام الذي اصدره ميالنيك (١٥٠١) زاد كثيراً من سلطة مجلس الشيوخ او مجلس الملك الذي تألف من اساقفة ومن كبار الموظفين الاشراف . وقد كان على الملك ان يترسم ارشاداتهم وان يتقيد بتوجيهاتهم وان يقضي في العدل كما يشاؤون والا رأوا انفسهم في حل من قسم الولاء الذي أقسموا . فمجلس الشيوخ يحتفظ بالتاج وبالشارات الملكية ويصدر الى الحكام التعليمات . والقانون الاساسي الذي صدر عام ١٥٠٥ ، بعنوان : « ليس من جديد *Nihil novi* » حظّر على الملك اتخاذ أي قرار او تدبير جديد دون موافقة مجلس الشيوخ ويمثلي الملحقات . ففي عهد الملك سيجسموند الاول نص الدستور *Laesae Majestatis* التمدي على ذات الجلالة ، على وجوب احترام حرمة اعضاء مجلس الشيوخ ونواب الامة في الدييت . فمجلس الشيوخ يمارس سلطات الملك . فالملك هو بالفعل معتزل الحكم ، وفي سنة ١٥٧٣ ، صدر القانون *Pacta Conventa* الذي حظر على الملك هنري ده فالوا ، اعلان الحرب أو عقد السلام بدون موافقة مجلس الشيوخ او اصدار أمر بحشد الجيش وفرض التبعة بدون موافقة مجلس الدييت ، وأن يستعين ، في الادارة والحكم ، بمجلس من ١٦ عضواً من اعضاء مجلس الشيوخ ، وان يدعو مجلس الدييت للاجتماع كل سنتين . فاذا ما خالف هذه الشروط كان رعاياه في حلّ من كل طاعة وولاء . وفي سنة ١٥٩٢ ، اخضعت لجنة تحقيق خاصة ، شخص الملك بالذات والقرارات التي يصدرها ، لتحقيق دقيق .

وفي الوقت ذاته ضعف الشعور بالخطر الخارجي فرفض مجلس الدييت ،
اضاف الامة
مراراً ، سنة ١٥١٢ ، و ١٥١٤ ، و ١٥٢٧ ، فرض ضرائب في سبيل انشاء جيش دائم ، مكثفياً من ذلك بحشد عام للنبلاء . وترك الملك الحرية التامة لالبرت براندنبورغ الرئيس الاعلى للفرسان التيوتون ان يتعمّقن ويتخلى عن الحياة الرهبانية ، ويعتق البروتستانتية ويعلم نفسه أميراً وراثياً لبروسيا خاضعاً للتبعية البولونية (١٥٢٩) . وهكذا اطلت بروسيا على الحياة واحتلت موضعها تحت الشمس . وفي ١٥٢٦ ، وضعت النمسا يدها على هنغاريا وعلى بوهيميا كما راحت دوقية موسكو تتوسّع من نطاقها وتتحصن ، فلم يعد للملك

بولونيا ، في هذه المنطقة محل من الاعراب ، وفقد كل شأن بين المسيحيين . وبالرغم من إرسال بروسيا الملكية من يمثلها في مجلس الدييت البولوني ، وبالرغم من ان ليتوانيا حذت حذوها مع احتفاظها بموظفيها وماليتها وجيشها المستقل ، ومع ان بروسيا الدوقية كانت تجدد من ولائها وتستمر على تبعيةها لها ، فقد امتست بولونيا دولة ضعيفة الجانب ، لا حصون لها ولا قلاع ، ولا جيش لها تقريباً يتولى الدفاع عنها ، فقد اختنقت وماتت من فرط الحرية .

ولعل من يقوم ويحتج على هذا القول ، بموقف روسيا . هذه الدولة النصف مرسوفيا الآسيوية التي لها من العرق المسيطر فيها ، ومن الديانة الارثوذكسية التي عليها سواد الشعب الاعظم ، والعمداء الازرق الذي تجيش به ضد الكفرة ما جعلها احدى دول اورميا . فقد اصارها التطور الذي مرت به في القرن السادس عشر ، بملكة مستبدة الحكم ، مطلقة السلطان ، مع ان البورجوازية فيها كانت مستضعفة الجانب ، عاجزة تماماً عن الوقوف بوجه طبقة النبلاء دون ان تبالي للامر قيد شعرة .

فاذا ما قام هنا من شدة عن القاعدة التي اتخذناها قاسماً مشتركاً للظروف التي أحاطت بظهور الملكة المستبدة والحكم المطلق افلا يكون ذلك دليلاً على بطلان القضية وعدم صحتها فتسقط من نفسها ؟ .

في عهد ايفان الثالث (١٤٦٢-١٥٠٥) برزت روسيا دولة معزولة ، روسيا بلد ريفي منززل لا تطل مباشرة على اي بحر من بحار اوروبا ، باستثناء البحار الشمالية المتجمدة ، حشرت رقمتها حشراً بين اعدائها التتار من جهة ، وبين جيران اوروبيين من الغرب ، عرفوا هم ايضاً بعدائهم لها ، من جهة ثانية . قبولونيا وليتوانيا ومدن اتحاد الهانزا (ريفيل وريفا) كلها تقف سداً لتعرقل حركة دخول البضائع والفنيين الاوروبيين اليها ، فعالوا عمداً ، دون اقتباس الروس ، الذين أنزلوا منزلة اعداء تقليديين لكل الدول الحرة ، لوسائل التسليح المعروفة في الغرب او تسهيل نقل افانينهم الحربية اليها .

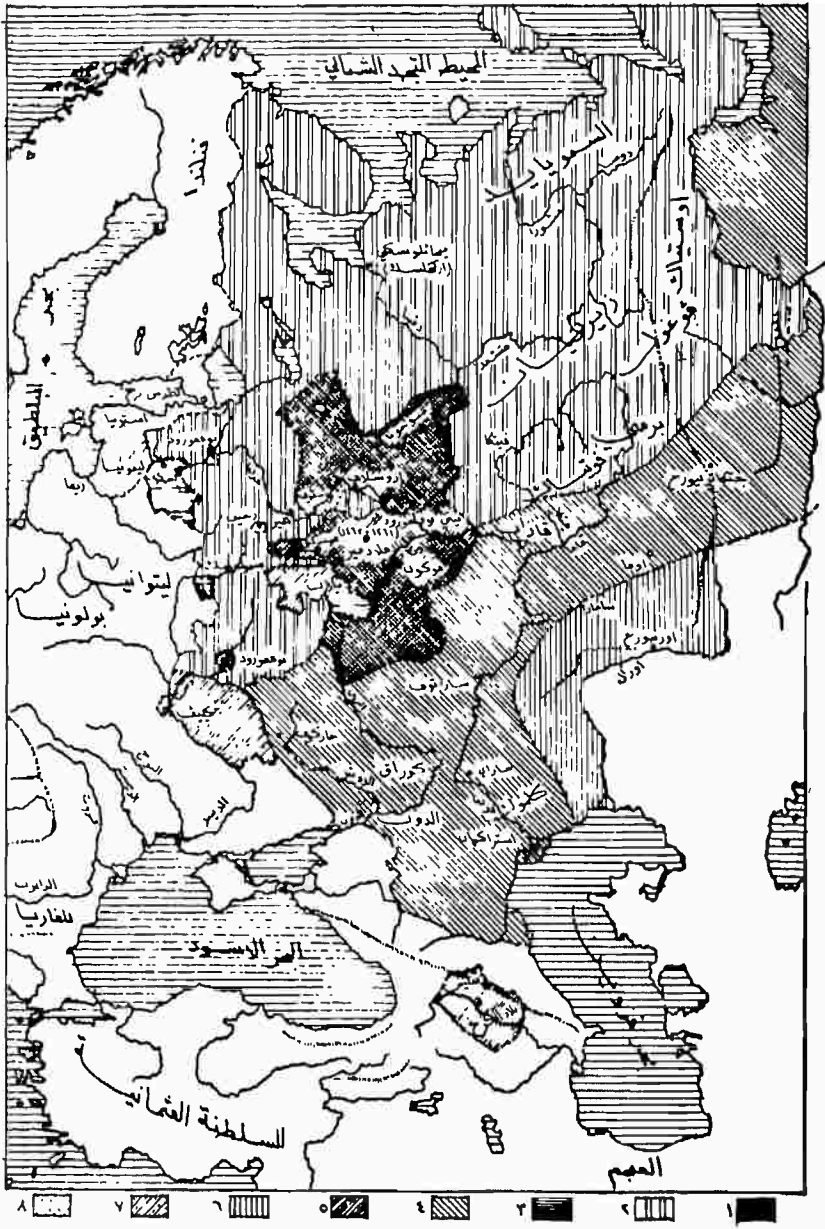
روسيا بلاد زراعية في الصميم ، ينصرف فيها الفلاحون ، وعددهم فيها نادر قليل ، ومعظمهم يقيمون جماعات في قرى وديساكر من ١٠ - ٤٠ منزلاً ويستلمون لزراعة الحبوب على نطاق ضيق يتفق ووسائلهم البدائية . فقد ساروا في فلاحتهم وزراعتهم على نظام التحويل الثلاثي بحيث تستريح الارض سنتين قبل ان تزرع في الثالثة ، او انهم اعتمدون نظام الغابات المعروفة فيتاح لهم استثمار الارض التي انكشفت تربتها بعد احتراق شجرها . فالمحاصيل الزراعية والفلال فيها ضعيفة . اما المدن وعددها لم يكن ليتجاوز الستين ، سنة ١٤٩٧ ، فهي عبارة عن مجتمعات مسورة ، واسواق تجارية ريفية الطابع ، في وسطها مراعي خضراء ومروج . اما التجارة فضيقة ، تقوم اساساً على الترانزيت ، اي المقايضة بمحاصيل نادرة وغالية الثمن بكميات

محدودة ، كالأحجار الثمينة ، واسلاك الذهب والابرز وعقاقير طبية وتوابل يؤتى بها من الشرق ، وفراء ، وعسل وشمع في طريقها الى الغرب ، واجواخ ثمينة وقصدير من انقرس ، ودانتيللا والاسلعة على انواعها ، في طريقها نحو الشرق . والمراكز القلبية فيها هي مدن مستقلة امثال نوفغورود الكبرى ، احدى المدن الداخلة في اتحاد الهانزا التجاري ، ومدينة بسكوف . اما التجارة ، فنشاطها محصور ضمن دكاكين صغيرة ، ومعظم الصناعيين يعملون فرادى والبورجوازيون فيها قلة هم ، فقراء ، لا حول لهم ولا طول ولا قوة .

هذه المدن والقرى تقوم ، على الغالب ، في وسط املاك كبار الملاكين ، علمانيين كانوا أم اكليريكيين من رجال الكنيسة ، تناثرت حباتها كلسلك النظيم ، على مجاري الانهر او على معالم الطرق . فتعلق الانسان بها واستقراره فيها ، واه ، بعد ان كان لصاحب الارض السلطة المطلقة على ارضه وعلى من اراد ما قام فيها او عليها . ومعظم هذه الاملاك تنعم باعفاءات واسعة ، وهي يأمن من تدخل موظفي الامارة ، لا ضرائب ترهقها ولا خدمات تؤذيها للأمير . وهكذا حل كبار الملاكين محل موظفي الامير وهم قلة صغيرة . ففي حالة عدم توفر الناس والموارد اللازمة للدولة ، كان كبار الملاكين يارسون قسماً من صلاحيات الامير لقاء إسقاط ما يستحق له عليهم من فوائد ورسوم .

وكل اماراة تتألف من املاك الامير ، ومن اسياد الارض وارض ذات «تربة سوداء» اختصها الامير لنفسه ، ومهد لها وسائل الاتصال بها والنقل ، اقامت فيها جماعات حرة تساهم بامور الدفاع بما تقدمه للأمير من عوائد وخدمات . ويقوم بتمثيل الامير ، خارج املاكه ، في المدن ، ممثلون يعرفون بـ *Namestniki* ، وفي المقاطعات الريفية عرفوا بـ *Volosteli* . وكلا الفريقين يجري انتقاؤهم من بين اتباع الملك ، وهم رجال حرب ، اعترفوا بولائهم له بالجثو امامه . كانت معظم اشراف من اصحاب الاراضي او سراة ضعاف الجانب ، او من طبقات دنيا مالوا لمهنة الحرب . وهؤلاء الاتباع لهم من الحقوق وعليهم من الواجبات ما قام منها على امثالهم ، في الغرب . وهم يتطلعون بحرية اكبر على خدمة السيد الذي اختارهم لخدمته والعمل في ارضه .

الامير الاول في روسيا هو بالطبع ، كبير الامراء في موسكو النجاح الذي اسابه امير موسكو هذه المدينة الواقعة في منأى من الطرقات التي يتبها الغزاة ، تحميها وتخفيها عن العيون غابات ظليلة تمزحها عن الانظار ، وتقع عند مفترق الطرق . وهي ملتقى المزارعين ورفاق السلاح يؤمونها منذ عهد بعيد . فهي عاصمة البلاد الدينية منذ سنة ١٣٢٧ ، ويتمتع كبير امراء موسكو ، منذ عام ١٣٥٣ وفقاً للبراءة المعطاة له من خسان القبيلة الذهبية *Horde d'or* الذي كان سيد روسيا الاسمي ، بلقب صاحب السلطة القضائية . فهو يرفل بالفنى وله نفوذ عريض .



شكل ٣ - تطور الامبراطورية الروسية

- | | |
|---|--------------------------------|
| ١ - الاراضي الروسية عند اعتلاء ايفان الثالث العرش | ٥ - فتوحات بيدر وبوريس غودونوف |
| ٢ - فتوحات ايفان الثالث | ٦ - فتوحات ميخائيل رومانوف |
| ٣ - فتوحات باسيل الثالث | ٧ - فتوحات الكسي ميخائيلوفتش |
| ٤ - فتوحات ايفان الرابع المربع | ٨ - فتوحات بطرس الاكبر |

ويتطور إيفان الثالث من أمير متجول ، الى رئيس دولة . وبما انه اقوى الامراء وأندم بأياً على الاطلاق ، نرى الفلاحين العاملين في خدمة الامراء في الريف يفدون عليه بالجملة ليدخلوا في خدمته ويعملوا تحت رعايته ، الامر الذي يحرم الضعف على هؤلاء الامراء فيضطرون للتخلي عما يتمتعون به من استقلال . ولم يبق في البلاد ، بالطبع سوى عدد قليل من الامارات التي تنعم بشيء من الاستقلال الذاتي . فلم تلبث ان حقت البلاد وحدتها . وبسلسلة من الحروب شنها امير موسكو ، عام ١٤٩٢ ، و ١٥٠٠ - ١٥٠٣ ضد امير ليتوانيا ، اضطر هذا الاخير للتنازل له عن هذه المقاطعات التاسعة الواقعة ما وراء نهري الدينير والدونا ، كما اعترف له بلقب : حاكم روسيا جماء . واذ أنس إيفان الانحلال يدب في جسم دولة القبيلة الذهبية ، رفض ان يدفع للتنازل اية جزية بعد الآن ، محتفظاً بها لنفسه ؛ ثم ينادي بنفسه حاكماً مطافاً مستقلاً عن كل ملك اجني . فهو يجسد في نظر الروس اجمع المقاومة المسيحية والوطنية ضد المحتل الاجني الذي يعيث بالبلاد ويعيث فيها فساداً ، هذا الاجنبي عميل ابليس وزبانية وسيفه المصلت على روسيا .

الايديولوجيا الامبريالية
البيزنطية رسالة روسيا
حيأت النجاحات الداوية التي حققها ، والايان المستقيم الرأي
الذي كان عليه إيفان ، زواجه من الاميرة صوفيا بالبولوغ ابنة
شقيق آخر امبراطور في بيزنطية . وقد رأى المعاصرون في عقد هذا الزواج رمزاً سياسياً
وحتاوه معنى خاصاً . فالكنيسة تصوغ الافكار التي تفرض ذاتها على عقول الناس وقلوبهم
(الخطاب الفصحي الجديد لمتروبوليت سوزيم ، رسالة الراهب فيلوثي لباسيل الثالث ، نظرية
جوزيف الدينية حول اخضاع السلطة الروحية للسلطة الزمنية ، ودير فولوك) . فروسيا التي
اعتنقت وحدها الايمان المستقيم هي بلاد مقدسة (روسيا المقدسة) والشعب الروسي و اسرائيل
الجديد ، هو الشعب الذي اختاره الله ليتولى رئاسة جميع الشعوب المسيحية ، وليؤمن الفوز
النهائي لمملكة المسيح . فالدولة المسكوبية ستبقى الى منتهى الدهور ، وستسيطر على جميع
شعوب العالم وموسكو هي « روما الثالثة » هي العاصمة الوحيدة والاخيرة للعالم المسيحي . وقد
ورث ملك روسيا الصفة الالهية التي كانت للباطرة البيزنطيين ، وبصفته مسيح الله فهو لا يؤدي
حساباً عن اعماله الا لله . فالوقوف في وجهه او ضد ارادته ، خطيئة . فالكل مازمون له
بالطاعة العمياء والولاء الاعلى ، حتى الكنيسة ورئيسها ، فليس للفرد اية حرية تصرف بذاته .
وقد عم الاقتناع سواد الناس واستقر في يقينهم لدرجة الايمان ان على الملك ان يؤمن الخلاص لكل
فرد بالزامة الجميع على احترام الطقوس الكنسية ومناسك العبادة ، والتسليم بان كل كلمة من
الكتاب المقدس هي موحى بها من الله . وشجب كل فكرة متحررة ، قفزي الى الهرطقة .
ومنذ ذلك الحين ، تبتسى إيفان الثالث الشارات الجديدة ، التي ترمز الى سلطته المطلقة المسلمة
اليه من الله ، وهي النسر ذو الرأسين ، والصولجان والكرة والعرش . كذلك تحلى تماماً عن النهج
الذي كانت انتججه حتى الآن بوصفه من اصحاب الاملاك الواسعة ، ليمتصم برسم البلاط

البيزنطي ، في عزلة من شعبه ، بوصفه كائناً فوق البشر ليس باستطاعة الناس الاقتراب منه الا مُطأِطِي الرأس .

وايفان الثالث هو القائد الاعلى ، المطلق ، برأس حملة الدولة العسكرية الروسية المطلقة صليبية ضد التتار و ضد الغريين الهراطقة . عليه ان يصد بهذا العدد الضئيل من السكان ، هجمات التتار التي تنهش بصورة لا تنقطع ، حدود الدوقية التي لا نهاية لها . وقد انشأ بمساعدة مدربين استقدمهم من الغرب ، اولى مفرزاته الحربية من جيش المرتزقة سلتحها بالبنادق والمدافع ودرها على الاساليب الحربية المتبعة في الغرب . كذلك كان عليه ان يواجه هذه المشكلات الحادة التي أثارها في وجهه صعوبات مالية . فلم يكن بمستغرب قط ان يطلع ايفان الثالث بفكرة دولة موسكوبية منظمة على شاكلة معسكر حربي خضع لنظام حديدي ، ليس للحرية الفردية فيه ظل او شبه ظل .

وهذا السيد المطلق يفتر جذرياً ، الى وسائل التنفيذ . طبقة النبلاء التي تعمل في خدمته ليست سهلة الانقياد . وهؤلاء الامراء الذين قدموا خضوعهم له أُرغموا على ذلك بقوة السلاح ، فعملوا معهم ما كان تحت تصرفهم ، من قبل ، من كتائب وطواير ، يستخدمونها عند ما تدعو الحاجة ، يقومون بالمهام التي يُعهد بها اليهم ، ويجلسون الى جانب نبلاء الروس في الهيئات والمجالس الرسمية ، بعد ان احتفظوا باستقلالهم الداخلي في اماراتهم المتوارثة . وتطلع على روسيا ، الفينة بعد الفينة ، محالفات ارستوقراطية ، فلنبلاء الحق ، دوماً ، باختيار الامير الذي يرغبون بالانضواء تحت لوائه . وهذا الامير قد يكون مثلاً رئيس امراء ليتوانيا ، او ملك بولونيا .

وقد راح ايفان الثالث يحارب هؤلاء الارستوقراطيين بسلاح الطبقات . فاستخدم ، في هذا السبيل ارستوقراطية متوسطة الحال ، لها ماضٍ وضيع ، تألفت في معظمها من كتبة وسكرتيرية ، كما استعان بطبقة عسكرية دنيا قوامها جماعة من المسلحين ، عملوا في البلاطات الاميرية قبل ان تجري تصفيتها ، ومن صفار الملاكين الذين تحرروا بعد ان استخلصت منهم أراضيهم ، ومن لميم من الفلاحين وجوابي الآفاق . فقد تطوعوا في خدمته كرجال خدمة لمدى الحياة ، فاقطعهم مكافأة لهم واجتذاباً لولائهم ، قطعة ارض *Pomestia* ومنها جاءت كلمة *Pomietchuks* التي اطلقت على هؤلاء الملاكين الصماليك ، وقد انشأ من خيار هذه الكتائب ، طبقة نبلاء خدمة ، هم مسدينون له بكل شيء ، لم تلبث ان فُتِحَتْ امامهم عضوية المجلس ، فكلوا له عوناً على تطويق وترويض طبقة النبلاء القديمة وإجبارهم على الخضوع والامتثال له . وهكذا جال دون مروق اي تابيع من قوايمه حديثه نفسه الامارة بالسوء اللجوء الى امير آخر ، وبذلك اصبحوا من رعاياه وأجبروا على الخدمة العسكرية دفاعاً عن البلاد .

وراح ايفان الثالث ، من ناحية ثانية ، يضع وجهاً لوجه الفلاحين وطبقة النبلاء ، ومنع تسرب المعدن الثمين وتهزيبه الى الخارج لئلا يقع بين يدي أهدائه التتار ، مما أدى الى تقوية

العملة النقدية في البلاد ونهوض الاقتصاد . وهذه العوائد التي كانت تدفع له عيناً ما لبثت ان ان حل محلها عوائد تُدفع عدداً ونقداً . والضرائب الاميرية اشتدت وطأتها مع تكاثر الحروب ، فاضطر الفلاح الى بيع غلته بسرعة مما عاد بالربح على التجار ، ليتمكن من تسديد دينه بعد ان كان يستلف من سيده ، بفائدة عالية لاقل حادث طارئ ، يتعرض له . ولما كان ، كثيراً ما ، عاجزاً عن تسديد دينه ، فقد رأى نفسه مضطراً للعمل في خدمة سيده ، على حساب حريته . وقد رأى نفسه مشدوداً شداً الى الارض لقاء الدين الذي لسيدته في عنقه . وهكذا اصبح المزارع المديون ، شبه المشدود الى ملك سيده ، يذهب مع الارض سلعة مربوطة بها اذا ما باع سيد الارض ارضه . ولذا حاول عدد كبير من المزارعين الهرب والنجاة بأنفسهم الى حيث تشتد الحاجة لليد العاملة ، وكثيراً ما كانت تسنح له مناسبة الهرب . وهكذا أسقط بيد اسياذ الارض وبهؤلاء المرابعين ، اذ لم يعد في مقدورهم ان يفوا بتعهداتهم تجاه الملك . ولذا وقف الملك الى جانبهم ضد الفلاحين المارقين فشرع يحظر على هؤلاء الفلاحين ، مغادرة املاك السيد ، وان يعمد الى بعض هؤلاء الفلاحين ، ممن كانوا أحراراً من قبل ، بقطع من الارض ، تربتها سوداء ، شعروا معها انهم اصبحوا مشدودين الى الارض ومضطرين بالتالي ، للخضوع الى اسياذهم . وهكذا آمن الصراع الطبقي لايفان الثالث طبقة من النبلاء سهلة الخضوع والاقبياد .

وازدراءً منه لنظام الخلافة المتوارثة - وهو امر لم يكن احد من ملوك فرنسا الذين عرفوا باستبدادهم يجرؤ على اثباته - فقد جرّد من حق الخلافة بالارث ، الذكور الابكار الذين يلدون من اول زواج . ثم عين له شريكاً في الحكم والسلطان باسيل ، ابنه من صوفيا ، الوريثة الشرعية للامبراطورية البيزنطية .

ايفان الرابع الخيف قائد الصليبية
 سار باسيل الثالث (١٥٠٣ - ١٥٣٣) ، على خطى ابيه
 وسلفه ونهض على الوجه الاكمل بالسياسة التي كان اختطها
 ايفان الثالث . اما الانجازات العظيمة ، فقد تمت على يد حفيده ايفان الرابع الخيف او المرعب
 (١٥٣٣ - ١٥٨٤) . ففي سنة ١٥٤٧ ، جرى تتويجه وله من العمر ، اذ ذاك ، ١٦ سنة .
 وأخذ لأول مرة ، في تاريخ روسيا ، لقب قيصر ، وبذلك اعلن نفسه خليفة القيصرية ووارثهم
 بعد ان تبنى كلياً المبادئ الاساسية التي قالت بها اليوسفية (١) .

أصلى التتار سلسلة من الحروب كانت بمثابة صليبية روسية ، ووجهها وجهة من كان يرغب
 صادقاً في تأمين السيطرة الكلية ، على طرق المواصلات التجارية . ففتح ، عام ١٥٥٢ ، خانة
 قازان ، ثم احتلت جيوشه مدينة استراكخان ، وبذلك اصبح مجرى نهر الفولغا تحت اشرافه
 وسيطرته . وهكذا اصبحت استراكخان ، بين اوروبا وآسيا ، نقطة التلاقي للتجار القادمين

(١) نسبة الى الامبراطور جبريولوف ، او يوسف احدباطرة الامبراطورية الرومانية الجرمانية ، الذي حاول اخضاع الكنيسة وسلطتها الدينية ، للسلطة الزمنية ، في كل شيء .
 الناشر

من القوقاز والتركستان والمعجم . وبتنصاره على خانة سيبريا ، عام ١٥٨٢ ، نشر السيطرة الروسية حتى مشارف نهر اليانسيي وجبال الالتي ، فأطل على « كاليفورينا الفراء » . ثم اتجه ايفان الرابع شطر البحر البلطقي ، موجهاً ضرباته ضد هراطقة الغرب الذين كانوا يحاولون عزل روسيا . ففتح ، بين ١٥٥٨ - ١٥٦٠ ، مقاطعة ليفونيا ، بما حمل السويد والدانمارك وليتوانيا وبولونيا على التدخل فاستطالت الحرب ، بين كروف ، حتى عام ١٥٨٢ ، فاضطر في نهاية الامر صرف النظر عن هذه المقاطعة .

ان ثلاثين سنة من الحروب الدامية والجهاد المستميت قلبت المجتمع المسكوبي وما اليه من نظم ومؤسسات ظهراً لبطن ورأساً على عقب . ارتفعت خلالها ، نفقات الدولة ارتقاعاً عظيماً واضطر ايفان الى تقوية فرقة الرماة *Strélitz* وتسليحهم بالبنادق ، كما قوّى كثيراً من فرقة المدفعية ، وفرقة الهندسة وجيش المرتزقة ، ووسع فرقة الخيالة في الجيش ، كما انشأ على طول الحدود الآخذة دوماً بالامتداد والمط والانتساع ، سلسلة من المدن الجديدة المحصنة ، والقلاع والحصون ولذا كان لا بد من اخذ الناس بنظام حديدي آسر ، وفرض الضرائب وجبايتها بشدة تأميناً لموارد طائلة تقتضيها صناعة الحرب .

تطور الاقتصاد القدي
اما التجارة فقد عرفت نشاطاً متزايداً فسّهل اسبابها ووسّع من
حريتها التحالف مع خان القرم الذي سهل الاتصال مع اوروبا
الغربية عن طريق البحر الاسود ، فتوافد على البلاد ، مواكب التجار ومعلمو المهن والحرف والصنائع ، من المانيا وايطاليا وهنغاريا ، فدخلوها عن طريق القرم . ومنذ الرحلة التي قام بها الرحالة الانكليزي تشانسلا عام ١٥٥٣ الذي استكشف معها البحر الابيض الواقع الى الشمال من البلاد ، راح الانكليز يتغلغلون في مجاهل روسيا وآسيا ، سالكين الطرق الملتوية التي تنطلق من الرأس الشمالي والبحر الابيض والمحيط المتجمد الشمالي . ونالت الشركة الانكليزية المسكوبية ، منذ عام ١٥٦٧ ، الترخيص لها بالتجارة في جميع انحاء روسيا وغشيان اسواق قازان واستراخان ، والعبور منها الى بلاد فارس والى جزيرة ياغري الواقعة عند مصب نهر الدفين في الشمال ، وانشاء مستودعات ومعامل لها في معظم المدن الروسية . وجاء بعد الانكليز الهولنديون وتجار انفرنس وبروكسل ، كما قدم اليها ، بعد موت ايفان الرابع ، الفرنسيون عام ١٥٨٦ ، وفي الفترة الواقعة بين ١٥٥٨ - ١٥٨١ ، وقع مرفأ نارفان تحت تصرفهم ، فقد أمته ٧٠ سفينة انكليزية سنة ١٥٦٧ الا ان السويديين تمكنوا ، من استرجاع هذا المرفأ ، عام ١٥٨١ ، واذ ذلك ، قام ايفان بتأسيس مرفأ أر كنجلسك سنة ١٥٨٤ .

واستطاع التجار الانكليز والهولنديون من التغلغل داخل الولايات الروسية النائية ، والتعامل رأساً مع التجار المحليين ، يتبادلون معهم ويتقاوضون السلع ، فبعثوا النشاط في الحركة التجارية في الداخل ، فزاد النقد في التداول . والى جانب الاتجار بادوات البفخ والزينة راجت تجارة المحاصيل

والفلال الزراعية ، كالمح والكتان والقنب ، اللحم والجلود والقار والزفت والسك . وقد عرفت مدن كثيرة كموسكو وقازان ويسكوف تجاراً كباراً ، بلغ عدد مخازن الواحد منهم عشرة مخازن وأكثر ، ومع ذلك بقيت نسبة البورجوازية في البلاد ضئيلة لاسباب عديدة ، منها منافسة المؤسسات الكنسية والتجار الاجانب ، وكلا الفريقين ينعم باعفاءات وامتيازات عديدة ، لا سيما الضرائب والرسوم الجمركية والاحتكارات القيصريية للمشروبات الروحية ، او التبغ والكافيار ، وعدد الاسواق التجارية المحدود بحيث يتاح للموري الجمارك والمكوس القليلي العدد ، ان يراقبوا الاعمال والصفقات المالية والتجارية ، واخيراً الضرائب الثقيلة التي رزح تحتها الشعب .

ازمة المجتمع الروسي عرف القيصر ان يفيد الى اكثر حد من ازدياد النقد المتداول بحيث أمّن دفع مرتبات افراد فرقة المرتزة العاملة في خدمته . واستطاع ان يعهد الى الاغنياء من التجار بهام ومشروعات قبلوا القيام بها على مسؤولياتهم الخاصة ، لقاء بعض انعامات جاد بها عليهم كالساح لهم بفرض بعض الرسوم على التجار ، واستثمار بعض الاحتكارات الحكومية . كذلك ، عرف ان يستغل الى اقصى حد ، الأزمة الاقتصادية التي نزلت بالبلاد من جراء الحروب الدامية المرهقة التي اقتضتها الفتوحات الواسعة التي قام بها . فالاراضي كانت تستصرخ من هيبّة للعمل فيها . وقد اقطعت الحكومة الكنيسة وبعض الاسر الروسية ، من اسحاب الاعمال ، كآل ستروغانوف ، اراضي واسعة ، تقع في حوض نهر الفولغا الوسط والاسفل ، وفي نهر الكاما ، يسهل منها الاتصال بمقاطعة الاورال ، هذه المقاطعة التي كانت مضرب الامثال بغنى مواردها الطبيعية . واشتد الطلب على الفلاحين ، وارتفعت ، فوق الارض ، كالفطر ، مدن جديدة واديار كثيرة ، منها اوفاسمارا (١٥٨٦) وسارانوف (١٥٠٩) ، واسبس بعض جوايي الآفاق ، الى الجنوب من أوكا ، في قلب السهل الفسيح ، شركات حرة من القوزاق ، والرجال المحترفين القنص والصيد ، ومن شذاذ الآفاق . وجاء في ازمم مزارعون استقروا في تلك السهول وراحوا يتعهدونها بالحرث والزرع ، ومن ورائهم مدن جديدة تشد ازمم ، امثال يانسك (١٥١٠) واورييل (١٥٦٤) وفورنيخ ولغني (١٥٨٦) وغيرها كثير .

واشتدت الحاجة الى اليد العاملة . بعد ان اقفرت السهول الواقعة في وسط البلاد ، واخذ الفلاحون المرهقون بالديون او الراضون تحت وطأة الضرائب والرسوم ، يهربون ، بحيث ان ٧٦ - ٩٠ ٪ من الاراضي الواقعة في منطقة موسكو ، امست بوراً ، كما ان القرى هجرها أهلها ، فتعذر على المزارعين النهوض بالاعمال الزراعية المترتبة عليهم ، كما اصبح من المستحيل على اسهاد البلاد ان يؤديوا ما عليهم من عوائد ورسوم للخزينة . وهكذا فقدت الدولة كل اشراف على دافعي الضرائب ونضب بيت المال . واخذ كبار الملاكين والمزارعون يتزاحون على

الفلاحين والمرابطين في حركة من التجاذب والتراشق لا نهاية لها ما لم تتدخل السلطة المركزية لتضع حلاً للامر

الانتقال من الادارة
السيادية الى الادارة الحكومية
لم يرَ ايفان الرابع ، اذ ذلك ، بدأ من ردف الادارة السيادية
القديمة بادارة حكومية . فقد قام تحت القيصر ومجلسه
الخاص ، بمنزل او وكيل عام له يدعى *Bazrujad* اصبح الوسيط بين القيصر والادارات الحكومية
الاخري : كبيت المال الخاص بالدولة ، وبيت المال الخاص بالقيصر ، ودائرة الاختام
(*Prikus*) ودائرة الالتباسات ، ودائرة البوليس ومصلحة المدفعية ، والجنود المرتزقة ،
و قصر قازان ، الذي انشئ عام ١٥٥٨ ، وهو اشبه ما يكون اذ ذلك بوزارة المستعمرات ،
للنظر في امر الاراضي والمقاطعات التي ضُمَّت بعد الفتح ، ومصلحة العلاقات الخارجية (١٥٤٩)
ومصلحة التمثيل الدبلوماسي او مصلحة السفراء (١٥٦٤) .

وقد نظم المرسوم القيصري الذي صدر عام ١٥٢٦ المصلحة الخاصة بالـ *Pomicetchicks*
او اصحاب الاملاك الذين لم يكن عددهم ليتجاوز ٢٠.٠٠٠ ، ففرض عليهم ان يجهزوا خيالا
(فارساً) بكل ما يلزمه من عدة وعتاد ، عن كل ٥٠ هكتاراً من الاراضي التي يملكها . وقد
كان الواحد منهم يملك من ١٤٠ - ٢٣٠ هكتاراً . وقد كان بينهم من ملك ٣٠٠ او ١٠٠٠ ،
او ١٣٠٠ هكتار . وقد جرى تثبيتهم في ملكيتهم لهذه الاملاك مدى الحياة واعترف لهم
القانون بحق توريثها ، الا انه حظّر عليهم ان يخرجوا من خدمة القيصر او من دائرة ولائه
ليعملوا ، توابع ، لأمر آخر او ليعملوا في خدمته . وكانت غلال الارض ضعيفة جداً . فقد
أرهق تسليح الفرسان ، هؤلاء الملاكين ، فراحوا بدورهم يرهقون الفلاحين العاملين في اراضيهم
ويبتزونها بابسح الطرق ، مما حملهم على الحرب .

اصبحت الخدمة العسكرية ملازمة لكل اصحاب الاملاك ، لهم الحق ان يدفعوا بديلاً عن
الخدمة في الجيش مبلغاً محددأ . وقد استغني عن المهندسين الذين كان يترتب على الاتباع تقديمهم
كما تم توحيد الجيش وانظّمته . وفي سبيل تأمين أود هذا الجيش ، كان القيصر يفرض ، على هواه ،
رسوماً خاصة تصيب مثلاً ملح البارود ورسوم حملة البنادق ، وغير ذلك ، ومنذ عام ١٥٥٤
لم تصدر في روسيا أية براءة اعفاء او استثناء حتى ان الاعفاءات القديمة ، جرى تخفيضها كثيراً
كما القي عام ١٥٨٠ ، اعفاء الاكليروس ورجال الدين من الرسوم .

الدولة البوليسية
القديمة . ففي سنة ١٥٦٥ ، انشأ القيصر ايفان الرابع فرقة
Opritchnina وهي فرقة الحرس القيصري ، معظم رجالها من الفدائيين ، عهد اليهم بالسر
على أمن القيصر ، وتصفية كل من تحدث نفسه بالخيانة والفدر ، دخلها بعض افراد طبقة النبلاء
القدامى ممن حط بهم الدهر . وقد أقطع كل واحد من اعضاء هذه الفرقة فدانة من الارض في

قلب روسيا . شهدت البلاد ، اذ ذاك ، حركة واسعة في انتقال ملكية الارض . فالامراء الاقطاعيون اضطروا للتخلي عن ممتلكاتهم السيادية المتوارثة لقاء التعويض عليهم بعقارات تقم على اطراف البلاد او على حدود هذه المقاطعات *Zemtchina* التي تم فتحها منذ عهد قريب . وهكذا انفصمت هذه العرى التي كانت تشد من سكان البلاد حيث كانت تقع ممتلكاتهم ، فوجدوا انفسهم بين اقوام لا يعرفون عنهم شيئاً كبيراً ، كثيراً ما تعرضوا للمصيان من قبل هذه الجماعات ، كما تعرضوا كثيراً للهجوم من وراء الحدود ، لا يرد عنهم غائلة الموت الا مبادرة القيصر لنجدتهم . وقد عهد القيصر الى اعضاء فرقة حرسه بمراقبة هؤلاء الامراء المبعدين بعد ان حامت حولهم الظنون وارتاب القيصر بهم متبهماً ايامم بالتخلي عن الولاء نحوه . وقد جرت تصفية عدد كبير من زعماء هذه الاسر حتى ان اسراً كثيرة ابيدت برمتها . ففي سنة ١٥٧٠ ، جرى نهب مدينة نوفغورود الكبرى . وقد فاضت مياه النهر من كثرة ما ، ألقوا فيه من جثث الموتى .

ومساعدة منهم لهؤلاء *Opritchniks , Pomietchiks* ، راح القيصر يهتم بتوفير ما هم بحاجة اليه من الفلاحين والمرايعين الذين استحالوا ، فيما بعد ، عبيداً مشدودين الى الارض . فقد نص القانون الصادر عام ١٥٥٠ ، على ان المدين العاجز عن ايفاء دينه يجري تسليمه للدائن الذي يفرض عليه العمل في ارضه حتى وفاء الدين المترتب عليه . وفي سنة ١٥٧٤ ، فرض القيصر على كل فلاح ، يعمل في التربة السوداء ، ان يزرع لحساب الدولة ، اربعة هكتارات في السنة ، وذلك على سبيل التخفيف من حدة الطلب على اليد العاملة بعد فرار المزارعين وهربهم . وفي سنة ١٥٨٠ حظّر القيصر على المزارع جحود سيده وألزم الفلاح على الاتّ بتغيب عن ارضه الا باذن خاص من سيده . اما الفلاحون الهاربون فكانوا يستهدفون لعقوبات زاجرة .

وهكذا قامت بصورة لا تدع مجالاً للشك ، ملكية بين الملكية المسكوبية ، والملكيات الغربية مطلقاً مستبدة في روسيا . فالقيصر يتمتع ، قانوناً وبالفعل ، بكل صلاحيات السيادة وخصائصها المميزة : سلطة تشريعية ، وسلطة تنفيذية ، وسلطة قضائية ، وله كل سلطان لفرض الضرائب وتعبئة جيش قائم باستمرار ، وموظفون يتولى هو نفسه تعيينهم . ويختلف النظام الملكي المسكوبي المطلق عن مثيله في الغرب باتساع الحقوق الملكية المسكوبية وبتساع صلاحياتها . فليس ما يدل قط على انه قام في البلاد قانون اساسي جد من سلطة الامير المطلقة ، في ما يتمتع مثلاً بحقوق خلافة العرش ، او وجود اي حق للفرد ، او للمؤسسات والهيئات القائمة ضمن الدولة كحق التملك . وعلى عكس هذا ، هنالك ما يشير الى او يدل على وجود حدود لهذا السلطان ، من مثل الظروف والاحوال المسيطرة ، وهذه الاعفاءات القائمة ، وعدم وجود بورجوازية رأسمالية باستطاعتها ان تجابه الطبقات الاخرى او ان تصد من طغيانها ، فالملكية المسكوبية المطلقة ، شكلت نوعاً في جنس الملكية المطلقة ، فهي اقرب لعمرى من نوع الملكيات الآسيوية المطلقة التي جاءت وليدة مجتمعات خاصة

تميزت بضعف الروح الرأسمالية فيها . ولهذه الملكية ذات المميزات الاساسية التي اتصفت بها الملكية المطلقة في اوروبا الغربية في القرن السادس عشر : مثالية قومية جاءت نتيجة بمث ايدولوجيا قديمة جرى تكييفها وفقاً للحاجات الجديدة ، وايمان شعب بكامله يعتقد يقيناً انه مدعو لرسالة خاصة ، وطموح فردي جاشت به امة مهيمنة ، غلبة تقمص مَلِك هو صورة الله على الارض ، بطل قومي مظفر ، عهد اليه القيام بحرب مستمرة ضد الاجنبي دارت على حدود اعتبرت دوماً في خطر ، واقتصاد نقدي آخذ بالتطور . الى هذه المثالية القومية صراع طبقي يختلف في بعض وجوهه ، عما قام من امثاله في الغرب . فنحن هنا لسنا امام صراع بين بورجوازية وطبقة نبلاء ، بل صراع قام بين طبقتين متجانستين ، بين طبقتين من النبلاء متشابهتين تقريباً ، صراع بين ما هو رئاسة سيادية ممثلة في طبقة نبلاء من هذا النوع او ذلك ، وبين فلاح او مزارع امضى سلاحاً ، هنا في روسيا ، منه في الغرب ، لما يتوفر له من امضاء ومسافات تنبسط امامه ، وامكانية الهرب والتمص ، والمساومة او المفاضلة بين سيدين او اميرين يتجاذبان . والصراع الطبقي اعطى دوماً بوصفه صراعاً ، النتائج ذاتها والمعطيات ذاتها : الدولة فيه هي الحَكَم وهي السيد . ولذا راحت هذه الدولة ، هنا في روسيا كما في الغرب ، تشهد من حدة هذا الصراع الطبقي وتنفتح في اواره . فالظروف الاساسية واحدة هي ، فقيام الملكية المطلقة له ما يبرره وما يركبه .

النظم الجديدة التي طبعت السياسة الخارجية

ليس من جديد في هذه النظم الا ما طلع منها خارج ايطاليا . فالجديد فيها هو نقل طبيعة هذه العلاقات التي ربطت الدول الايطالية كما كرتسها صلح لودي، المقود عام ١٤٥٤ ، الى جميع دول اوروبا، إثر الحملة التي قام بها شارل الثامن على ايطاليا بقصد فتحها وضما . فقد وعتت الدول الايطالية ان هذه العلاقات التي شدتها بمضاً الى بعض لم تكن تتوقف على هذه الروابط العديدة التي جمعت فيما بينها ، ولا جاءت نتيجة لتجاورها او تلاصقها فحسب ، بل ايضاً نتيجة لهذا الشمو المشترك والتعسس العميق بأن القوى والعوامل التي تتأثر بها جميعاً اولتها الحق المتبادل في التدخل والاهتمام جدياً بهذه الاحداث التي تقع بعيداً عنها، ولو لم تكن لتعنيها في الظاهر كثيراً، وذلك لما محدثه هذه الشؤون والاحداث من تأثير على توازن القوى، اذ ان اي خلل او اختلال يلحق بهذا التوازن، كان لا يخلو من خطر على دولة أو على مجموعة من هذه الدول . وهكذا نرى ان الايطاليين ، ارتقى بهم التفكير بحيث راحوا يعملون على قيام شبكة من الدول كل واحدة منها معنية بالمحافظة على هذا التوازن . ولتحقيق هذه الفلسفة والعمل بمبادئها ، كان لا بد من قيام علاقات مستمرة بين هذه الدول ترتكز على قوانين وانظمة تشكل ما يعرف اليوم بالقانون او الحق الدولي . ولكي لا تتجرأ دولة ما ان تحاول الاخلال بهذا التوازن لمصلحتها الخاصة ، اعترفت بمبدأ حق التدخل وجعلت منه مبدأ سياسياً سارت عليه . فلكل دولة الحق بالتدخل لدى دولة اخرى مبررة تدخلها بمحج مختلفة ومتدرعة بطل شتى ، منها الديني ، مثلاً ، كأن تدعي حماية ابناء دينها الرسمي ، ومنها السياسي كصيانة الحرية والمحافظة عليها . وهذا التوازن لم يكن سوى وسيلة للحؤول دون اي دولة محدثها نفسها بزيادة قوتها وبسط سيطرتها وسلطانها على حساب دولة اخرى . فهو لا يقوم على تقام خميني يرمي لتحقيق عمل مشترك . فهو مجرد فكرة سلبية ، او مكبح يجمع من الشهوة ، ويحد منها . ففي ٣١ اذار ١٤٩٥ ، بدا اول مظهر لهذه السياسة الجديدة ، سياسة التوازن بين دول اوروبا،

وذلك في حلف البندقية ، الذي تألف للوقوف بوجه فرنسا معارضة لتدخلها في إيطاليا . وقد تشكل هذا الحلف من البندقية ، وملك أسبانيا ودوق ميلانو ، والبابا . واللغة الدبلوماسية الأوروبية استعملت في هذا السبيل عبارات واصطلاحات مستمدة من الحياة السياسية في إيطاليا ، منها : « توازن الدول » و « القوى المتقابلة » وغير ذلك من الالفاظ والاصطلاحات . اما التعابير والمجازات التي عمل بها من قبل ، أمثال : « الكتلة المسيحية » و « الجمهورية المسيحية » فقد بطل استعمالها . واخذت المصطلحات : التوازن الأوروبي ، والدبلوماسية المعمول بها ، والقانون الدولي ، وحق التدخل ، تطبع السياسة الأوروبية ، حتى حلول معاهدة فيينا (١٨١٥) وما بعد .

١ - الظروف العامة

كان لا بدّ ، والحالة هذه ، من وسائل عمل تقني بالفرض . فقد تبنت دول الدبلوماسية الثابتة أوروبا ، على شاكلة الدول الإيطالية في القرن الخامس عشر ، نهجاً جديداً هو الدبلوماسية الثابتة . فقد كانت اقتصرت هذه الدول حتى اواخر القرن الخامس عشر ، على سفارات او وفادات احتفالية احيطت بكل مظاهر الأبهة ، برئاسة امراء او كرادلة او وزراء أحيطوا بكل مظاهر التجلّة كُلفوا معالجة قضية ما حتى اذا تمت تسويتها ، رجعوا من حيث أتوا . وقد استمر العمل بهذا الاسلوب خلال القرن السادس عشر ، في كل ما يتعلق بامور المواليذ والزواج والمآتم الرسمية وحفلات تنصيب الملوك العرش ، او لاقرار المعاهدات والمواثيق المعقودة ، وهي مهات محدودة ، كما ترى ، قلما أروت ظمناً الطرف الثاني للزود من المعلومات التي يرغب في الاطلاع عليها او التي متى النفس بالوصول اليها .

فند ١٤٩٥ ، وهو تاريخ الحلف الكبير الذي قام للحد من اطماع شارل الثامن وتفشيل حملته على إيطاليا ، اقتضت الضرورة القيام باتصالات مستمرة ، ثابتة بين الحلفاء او بين من هم على الحياد او بين من قد يصبحون خصوم القد ، كان لا بد لانجاحها ، من وجود ممثلين يقون بصورة مستمرة في عاصمة الدولة . وقد حذا الجميع حذو البندقية ، في هذا المجال . وفي هذا السبيل حرصت أسر كثيرة ، على الاحتفاظ ، ابا عن جد ، بهذه المناصب التمثيلية ، بعد ان قرس اعضاؤها بهذا العمل و قدربوا على اساليبه طويلاً . فقد راح ممثلون او وكلاء سفراء ، من رجال القانون او من صفار النبلاء ، او من رجال الاكليروس ، يساعدهم احياناً موظفون إضافيون من كبار الاشراف كان وجودهم مجرد مظاهر خارجية على الغالب ، يفاوضون محلياً وهيئون شروط الاتفاقات التي يرغبون في الوصول اليها ، او نصوص المواثيق التي مهم عقدها ، كما كان مهم الاكبر ان يزودوا حكوماتهم بكل ما تحتاج اليه من معلومات وما ترغب في الاطلاع عليه من اوضاع معينة وظروف قائمة . ولذا حذقوا التفرس في الناس والنظر الى الاشياء بتبصر ، كما اتقنوا

الاصغاء والتحرري عن كل شيء ، وتفننوا في تزويد رؤوساهم بكل ما وقعت عليه ايديهم من كل فن وخبر او ما وقفوا عليه من روايات واقاويل مع اي ربح وصلتهم ، او من اي مصدر استقوا او من اي وردي ووردوا . فالسفير الدائم ليس بالفعل سوى جاسوس يتمتع ببعض الامتيازات ، تحت تصرفه شبكة ممتازة من وسائل الاعلام والرصد والتسجيل . وبصفته ممثلاً دبلوماسياً لبلاده ، فهو يتصل ، ولا حرج عليه ، بكل من يمكن ان يستفيد منه بدأ ، مهما كان لبوسه : خائناً او مارقاً او متصيذاً فيوزع بلباقة وفطنة ، الأعطيات والمرتبات والجهالات ويتصل دونما تورع ، بمستشاري الدولة ، وبالخطباء الكنسيين والمرشدين والوعاظ ، وبوجوه المجتمع والشخصيات البارزة والمنظمات والهيئات القائمة في الدولة . فقد مثل الملك فرنسوا الاول في البندقية ، السفير بليسيه الذي امتد نفوذه حتى الشرق الادنى . وقد برهن بعض الاسبان ، في عهد ملكهم فيليب الثاني ، عن مقدرة خارقة في هذا المضمار ، ولا يزال التاريخ يحفظ لنا ، لليوم ، اسماء لما شهرتها في عالم التجسس ، امثال دوق ألبيا ، في فرنسا ، بعد معاهدة كاتو - كبريس . ومثل هذه المهمة نهض بها الى الأوج ، توماس برنوده سانتوناي ، شقيق الكردينال ده غرانفيل الذي عمل سفيراً لبلاده ، من آب ١٥٥٩ الى شباط ١٥٦٤ ، والسفير الاسباني الفارود ده لاكوادرا مطران أكيليا الذي احسن حبهك شبكة من التجسس في انكلترا ، في هذه الفترة بالذات . غير ان مهنة السفير كانت مهنة شاقة لم تكن لتدر كثيراً على صاحبها ، كما ان الحصانة الهشة التي يتمتع بها السفير ، اذ ذاك ، لم تكن لتجعله دوماً بناءً من المفاجآت غير السارة ، ناهيك عن ان بطء المواصلات وصعوبتها كان يجعل مغامراته لا تخلو قط من خطر عليه .

وقد استعمل الملوك من فرنسوا الاول ، الى شارل الخامس ، الى الملك فيليب الثاني ، باستثناء السفراء ، عدداً من العملاء السريين والمغامرين من فرسان واعطاء ، ممن أنسوا فيهم المقدرة على الاضطلاع ، بتفوق ، بمفاوضات سرية ، كما انهم استعملوا بعض الوسطاء الضماف الذين لم يكونوا يتورعون من اللجوء الى علاقات ملتوية او مشبوهة ، ما يكاد يفضح امرها حتى يبادر الملك الى شجبها والتبرؤ منها .

تنهج الدبلوماسية طرقاتاً واساليب واقعية . ومهاً يكن ، فالنتيجة وحدها هي التي يُعتمدُ بها . فالاهتبارات والمبادئ الخلقية ، تأتي بميدة بمراحل ، في عملية الوزن والتقييم ، بعد حساب القوى . أليست الدبلوماسية حربياً من نوع آخر غير التراشق بالنسابل والمدافع ، سلاحها المعروف : الكذب ، والمخاتلة ، والغش والخداع . فعلى السفير ان يكون على إلمام كبير واطلاع واسع باحداث التاريخ وما فيها من عظات ودروس ، هذا التاريخه معلم الكذب والغش والخداع والحسب بالمواثيق ، كما يقول كوتمين . عليه ان يتظاهر بأنه رجل يرّو صلاح ، صريح مخلص ، حمز الفكر ، بحيث يكسب ثقة محدثيه حتى يتمكن بالتالي من بلغهم عندما تحين الفرصة السانحة (مكياجلي) ، عليه ان يرحي جيداً بأنه يرغب صادقاً أمراً ما ، بينما هو يقصد بالفعل شيئاً آخر بمكسه تماماً . هذه الطرقت والاساليب ، لم تلبث ان اصبحت اموراً مقررة ، متعارفة ، ولم تعتم ان تصبح مهنة او نهجاً يعلم واصول وقواعد . ولكي يُطمئن حليفة

لمقابلة او مفاوضة لم يكن مقررأ ان تشترك بها بلاده ، يأخذ السفير بالتأكيد بان حكومته لا ناقة لها ولاجل في الامر ، وان المقابلة او أمر التفاوض دعت اليه ، الجهة المعارضة حباً بالسلام ، وفي سبيل ترسيخ اسبابه لا غير . ولكي يثير الغيرة والحماسة في نفس محدثه يروح يُزَيِّن له بان النية او الافكار تتجه الى صرف النظر عنه ، وتفضيل فريق آخر عليه ، وان مليكه لعلى استعداد كلي لتوقيع مشروع اتفاق معروض عليه ، ولكي يُحدِث في نفس محدثه التأثير الذي يرغب فيه ويحمّله على التسليم بوجهة نظره ، يتظاهر السفير برغبته بقطع المفاوضات ويُخرج مرافقيه من البلاد كمن يودّ الانسحاب والتراجع ، وغير ذلك من وجوه التناور .

ففي المفاوضات الرسمية ، يتولى الكلام باسم الوفد المفاوض شخص واحد ، وباللغة اللاتينية ، وعندما يفرغ من عرض القضية ويبسط وجهة نظره ، ينسحب الفريق المتفاوض الثاني للمذاكرة وتبادل الرأي ، قبل ان يعهدوا الى واحد منهم بالرد على المقترحات المعروضة . يتبادل السفراء مراسلاتهم مع اجهزة خاصة في الدولة كالملك او مجلس الملك الخاص ، وتباعاً مع امناء السر . وكان على سفراء البندقية ان يرفعوا ، الى رؤسائهم ، تقريراً عن وفادتهم ، لدى رجوعهم الى البلاد ، عن المهمة التي انتدبوا لها . ويتلى التقرير علانية على اعضاء مجلس الشيوخ ، بحضور التوغا ، ثم يُحفظ في قسم السفراء ، المحفوظات السرية . وتؤلف مجموعة تقارير السفراء في حكومة البندقية ، معيناً لا ينضب ، من المعلومات التاريخية .

العارة التجارية : بين في القرن السادس عشر انتقلت نقطة الثقل في المواصلات البحرية ، الثلاثية والمركب الشراعي من البحر الابيض المتوسط ، الى المحيط والاقيانوس . فبعد ان اقتصر نشاط الحضارة ، في اوربا ، من قبل ، على البحر الابيض المتوسط والبحار الشمالية (البلطيق والبحر الشمالي وخليج المانش) ، اذ بهذا النشاط بصطبغ ، اكثر فاكثر ، بعد النصف الثاني من القرن السادس عشر بطابع أسوي بارز . وقامت على الاثر مناقسة قوية بين السفينة الثلاثية الصفوف من المجاذيف التي كانت ، اداة النشاط البحري في المتوسط وبين السفينة الشراعية ، او المركب ، وهو الاسم العام المشترك الذي يمكن اطلاقه على الكرافيل وغيرها من انواع السفن الشراعية التي اتخذت عدة للاسفار البحرية في المحيطات . ولم يلبث ان كبر شأن السفينة في كل ما يتصل بالحرب والمعارك البحرية ، وما ان مالت شمس القرن للمغيب حتى كانت أفضليتها تبرز الثلاثية بكثير .

الثلاثية ، المركب ، الريح والبحر كانت الثلاثية ، تفضل السفينة الشراعية عندما يكون الطقس هادئاً ، والهواء ساكناً مع نسيم خفيف . اما اذا ما هاج البحر واضطرب اديمه فالأفضلية ، تعود للسفينة الشراعية او المركب . فالثلاثية ، ظهرها واطر يكاد يلامس سطح الماء ، فهي ، في الصميم ، قارب مكشوف الظهر ، يعلوها درابزون يطفطف من كلا الجانبين ، يفصل بين صف وصف آخر من المجدفين ، ممر ضيق ،

ويعلو ظهرها أرضية من الواح الخشب ، تستدير اطرافه لمريضق يسلكه الجند . وكنا نرى سفناً شرعية كبيرة كالتى تستعملها البندقية لتأمين علاقاتها التجارية مع مقاطعة الفلاندر (طولها ٤١ متراً ، بمرض ٣،٤٦ متراً في الاسفل و٦،٠٦ متراً على الظهر ، و٢،٧ م ، في القلب من الداخل) ، اما صفاتها وميزاتها فهي لم تتغير . فاذا ما احتاج البحر وازيد تعرضت السفينة الثلاثية للفرق . اما المركب ، فيؤلف هيكله بناية عائمة . فالظهر يعلو علو رجلين او ثلاثة رجال ، عن سطح الماء . ويقوم فوقه ، من الامام ومن الورا على السواء ، برجان او قلمتان ، فترى المياه تتساقط من على جانبيه بينما يبقى الظهر ناشفاً جافاً . فقدم السفينة المدبب ، يشق أديم الماء شقاً عندما يكون البحر هادئاً ، احسن بكثير من المقدم الافطس في المركب ، وتسير بسرعة اكبر منه اما عندما يكون البحر هائجاً او تتأرجح السفينة ، بين المقدمة والمؤخرة ، يفوص مقدم السفينة في اليم ، بحيث يمر الموج فوق ظهرها عندما يشق العباب . اما المقدم الافطس في المركب ، فلا يفوص عميقاً بخلاف مقدم الثلاثية ، ويعلو فوق الموج ، وتزيد سرعته على سرعة الثلاثية . وتزود الثلاثية بمجاذيف طول الواحد منها ١٢ متراً ، يعالج المجذاف الواحد خمسة 'مجدّفين' ، كلهم من الارقاء او من المحكوم عليهم بحبس اللومان ، عند انطلاقة الصفير ، يلهب السوط اجسامهم عند اقل تمهل او تأخر في الحركة ، فيولون السفينة دفماً الى الامام ، عندما يكون البحر ساكناً ، اما عندما يأخذ الريح بالهبوب ، تعود الى المركب أفضليته . وللثلاثية صار واحد او صاربان ، وعدد من الاشرعة تبلغ مساحتها مجتمعة ٥٠٠ متر مربع . اما المركب فعدد الصواري فيه يتراوح بين ٢ و٤ صوار و تزيد مساحة اشرعته اربعة او خمسة اضعاف ، مساحة اشرعة الثلاثية . كذلك تجهز المراكب باشرعة مربعة عليا ، تساعد على السير الى الورا عندما ينفخ الهواء بعكس السير . فالركب يجهز باربعة او خمسة انواع من الاشرعة ، من مقاييس مختلفة ، بينما لا يحمل الصاري سوى شرع واحد يجهز بدقل ضخّم ، بينما عارضة الصاري مستديرة وتتحرك بصووية كلية ، اما المركب فاشرعته اكثر توزعاً بحيث تزيد او تخفض من مساحة الشرع المعرضة للهواء . ولكل من الصواري الرئيسية اشرعتها ، مع أدقال مربعة .

الثلاثية والمركب والمناخ والرحلات البحرية
والسفينة الثلاثية معدّة للعمل في الاقاليم الهادئة نسبياً ، وللقيام برحلات قصيرة . فعندما ترسو سفينة يمكن نصب خيمة وايقاد المشاعل . فالجهدّفون ومساجين اللوماق المحكوم عليهم بالعمل في التجذيف ، يلتحفون القبة الزرقاء ، فهم يلبسون قميصاً وسروالاً من النسيج الاسمر الخشن ، حفاة ، لا شيء في ارجلهم ، صيفاً شتاءً ، والبستهم دائماً مبللة ، فالغسيل عملية تغطيس البدلة من فوق حافة السفينة . فهم مشدودون دوماً الى مقاعدهم ليلاً . ولم تتخذ السفينة اى تدبير ولو بدائي للتخلص من الازساخ ، وقد حشا الضباط انوفهم تبقاً قوي الريحة . فلا تسل ، والحالة هذه ، عن تكاثر الهوام كالقمل والبراغيث . فاذا ما امتدت الاسفار وطال

امدها ، تلتصت الامراض بين الجماعة وهددهم بالفناء . اما ربان السفينة فيرتدي ثياباً حسنة ويقنات جيداً ويستطيع ان يستسلم للراحة في اماكن خاصة معزولة ، جافة ومدفأة . اما المركب فباستطاعته ان يعمل في كل الاحوال المناخية . فهو يضطر للسير مع الشاطئ ، تأميناً لبعض الراحة ووسائل التدفئة والتغذية ، وتأمين أود العيش من المرافىء القريبة اذ يتعذر على السفينة الشراعية ان تتمون من هذا كله لأمد طويل . ولذا نرى الدول البحرية تنشيء لها ، على طول شواطئ البحر المتوسط ، سلسلة متماسكة الاطراف من المرافىء الحربية . فالمركب الذي في مكنته ان يتزود بكميات اكبر من المواد الغذائية ، يرى امامه مجالاً اوسع للعمل وارضح .

السفينة الثلاثية والمركب في زمن الحرب
وظيفة السفينة الثلاثية هي جلب الجنود للهجوم وتسهيل وسائل الاشتباك لهم بالأيدي . فهي لا مهام لها ولا يمكن ان تجهز بشيء من هذا . فهي متماسكة الاطراف ، من الوسط وان كانت تفتقر للمتانة والصلابة في طولها ، فقدمها الطويل ، الغرض منه التلطيف من حدة الصدمة والدفع عند الرسو ، والمدفعية التي تحملها فوق متنها ، صغيرة هي . ففي المقدمة مدفع كبير ، تركز في المحور ، واربع قطع خفيفة لتسديد الضربة على مدى قريب ، ممهدة الطريق لفرقة الهجوم . فالمعركة بين الثلاثيات هي معركة بين المشاة او الرجاله ، يتحول الاشتباك فيها الى صراع فردي بين افراد الجند من كل الفريقين فيعمدون الى الخنجر او امتشاق الحسام ، فيهب امراء البحر انفسهم يطلب الواحد مناخزة الآخر للمبارزة ، فالاساطيل المتلاحمة تقوم بسباق الزوارق بحيث ينفسح امامها مجال العمل والمزيد من النور والشمس ، ثم يطبق الجانبان بعضها على بعض ، ويتخذ كل العوامل الحاسمة ، كالاندفاع الحاسي والشجاعة والمهارة الشخصية . والضباط العاملون في هذه السفن هم من ذراري الاسر الارستوقراطية الكبرى ينظرون بشموخ وترفع الى غيرهم من الضباط العاملين تحت امرتهم . فاذا ما استهدف المركب لعملية اصطدام كان مصيره الهلاك ، وقد يكون له من القوة احياناً ما يستطيع ان يتحمل الصدمة ويحطم بدوره ، بقدومه اية ثلاثية تكون لحقتها ورشاقتها اكثر استعداداً للعطب السريع ، بينما يتميز المركب بالصلابة . وقد جرت عادة تقوية جوانبه بشبكة متعارضة من عوارض الخشب بمددعيمها عمودياً . فالامواج ترتطم بهذا الحاجز الخارجي وتتكسر عليه فتتطاير رذاذاً في الهواء لا يلبث ان يتساقط كالطرر باستمرار فوق ظهر السفينة . وللمركب من المتانة ما يتيح له استعمال الخطافات او المهاز في المعركة فهو يشكل بطارية مدفعية عاتمة مكلفة بتحطيم السفينة الشراعية عن بعد . ويقوم على الخط الدائري ، على مستوى سطح الماء ، عدة بطاريات ، كما يقوم من النوع الحقييف منها عدده فوق الظهر . وقد ركبت فوق حصون المركب مدافع سددت فوهاتنا نحو السفن العدو ، ويتراوح تسليح مركب من الحجم الوسط ، بين ٣٨ - ٤٠ قطعة مدفوع .

تطور الثلاثة والمركب يبدو ان الثلاثيات وما اليها من هذه الانواع لم يطرأ عليها اي تحسين يذكر ، في القرن السادس عشر ، بعد ان بلغ هذا التطور حده من قبل . اما المركب فقد خضع هو باستمرار للتطور والتحسين ، فالنصف الاول من القرن السادس عشر كان بمثابة حقبة تجارب واختبار وتحسين الاساليب التقنية . فقد امر فرنسوا الاول ببناء سفينة الفرنسواز الكبرى ، في مدينة الهافر ، وهي سفينة استغرق بناؤها من ١٥٢١-١٥٣٣ ، جهزت بخمسة صواريخ ، واتسعت ل ١٥٠٠ راكب ، انشئت فيها كنيسة وملعب للتنس ، وكور للحدادة ، وفرن ومطحنة هوائية . الا ان هذه المدينة العائمة لم تنزل قط الى البحر . ونقل جان لاسكاريس الى شارل الخامس ، سر بناء سفينة تجارية تعمل على عجلات لها قواديس ، جرى تصميمها في ايطاليا . وجرى محاولة بناء هذه السفينة ، في مرفأ برشلونة بنجاح تام . وقد جهل الناس كيف كانت تتحرك ، ربما بواسطة جهاز يدعى *Eolypile* من اختراع العالم اليوناني الاسكندردي هيرون . وفي سنة ١٥٧٥ ، صمم الهولنديون سفينة جبارة تسير بعجلات تتحرك بدفع المهاديف ، وقد اتسعت فيها مساحة الاشرعة وتوزعت . فالصواري القائمة في الاطراف تزداد ضخامة وتفرش بالقلوع ويسهل بالتالي تدويرها من جهة الى اخرى . فالطوابق العليا في البرج القائم عند مؤخرة السفينة لم تعد تصل الى طرف الصاري ، وتناقص طولها كلما خف علوها بما يزيد في قوة الاستمرار ، اما المؤخرة ، فقد اصبحت مربعة بعد ان كانت مقعرة . وفي اواخر هذا القرن ظهرت السفن من نوع *Faisseau* . وقد تبين البحارة ببطء كلي الامكانات الطائلة الكامنة في المركب . وقد بقيت فكرة مهاجمة السفينة تتحكم بالافكار والخواطر . وعندما حاول الملك فرنسوا الاول القيام بحملة نزول في انكلترا وغزوها بحرأ ، عام ١٥٤٥ ، اردف اسطوله بخمس وعشرين سفينة شرعية كانت تعمل في مياه البحر المتوسط . اما الفشل المريع الذي اصاب به اسطول الارمادا الذي لا يقهر بعد ان اعده فيليب الثاني لغزو انكلترا عام ١٥٨٨ ، فقد فتح عيون الناس على ما في هذا الاسلوب من نواقص وسيئات . فاضطرت سفن فيليب الشرعية ان تبقى على مقربة من شواطئ اسبانيا الشمالية بالنظر لهيجان البحر . اما المراكب الاخرى التي تألف منها اسطول الغزو ، فقد عرف الانكليز ان ينقلبوا عليها بسهولة كلية بعد ان عرفوا كيف يتفادوا خطر المهاجمة ، وبعد ان راحت تقذف الجند الاسبان من بعيد ، بقنابل المدافع وفتكت بهم وشردهم كل مشرد . والانتصار البحري العظيم الذي حققه اسطول الدول المسيحية ، على الاسطول العثماني في معركة ليبانت ، عام ١٥٧١ ، استحال في النهاية الى اشتباك او عراقك بالايدي ، بعد ان امنت فرقة الرماة البحرية ، الافضلية للمسيحيين وفي سنة ١٥٧٢ ، عرف المسيحيون ان يعبثوا سفنهم ضد اسطول اولغ علي ، وذلك بوضع مراكبهم في الطليعة . وهكذا بدت خطوطهم الامامية لا تقهر على ايدي الثلاثيات . وفي سنة ١٥٩٠ ، التقى اسطول صقلية المؤلف من ثلاثيات شرعية ، باربعة مراكب انكليزية وحاول ايقافها ، فما كان من العارة الانكليزية الا ان افنت

على قلتها ، اسطول صقلية . وهكذا زال الى الابد عصر الثلاثيات من السفن واطلت علينا سفينة خط النار الاول .

الجيش : جيش شارل الثامن
ولعل خير مثال لتمبئة الجيش ، في مطلع الحروب الايطالية ، هي التمبئة التي تمت للجيش الفرنسي في عهد شارل الثامن ، عام ١٤٩٤ . تألف جيشه ، اذ ذاك ، من كتائب تشكلت وحداتها من افراد مجهزين بأسلحة الرماية ، القصد منها التهيئة للهجوم بزحزحة صفوف العدو ، والتأثير على معنوياتها وإضعافها . وقد جهز كل فرد من افراد الجيش بأسلحة يدوية ، وأحسن تدريبه بحيث يتمكن من خرق خطوط العدو من اول هجوم او يقوى على كسر حدة هجوم العدو بواسطة فرقة الفنفذ ، وهي فرقة خاصة من المغاوير ، والفرق المسلحة تسليحاً خفيفاً للقيام بمهام الاستطلاع والاستكشاف او للقيام بحروب المناوشات ومطاردة العدو ، لاستغلال النصر الى اقصى حد ، وفرق من الضابطية والياوران لابسى زرد الحديد مزودة افرادها برماح كبيرة ، الى جانبهم حملة الخناجر ورماة النبال ، وفرقة المشاة ، اكثر من نصف وحداتها يحملون رماحاً طويلة بينما جرى تسليح الآخرين بالحراب ، وعُشر فرقة المشاة يحملون البنادق الكبيرة وقد ركزت على مرماة ، وهي عبارة عن مدفع صغير يُحمل باليد ، ورماة النبال على خيولهم أو مشاة . اما المدفعية فكانت تتألف من ١٤٠ مدفعاً من البرونز تجري تمبئتها من الفم .

جيش المرتزقة
فرقة تألفت من جنود احترقوا الحرب واتخذوها مهنة لهم ومسلحاً ، فخضعوا لتدريب عسكري شديد ، ولتأرين وحركات ومناورات ثققتهم تحت ادارة واشراف اخصائيين فاصبحوا وكأنهم آلات ميكانيكية تتحرك بالايام والاشارة ، ضمن أطر وملاكات من الضباط ، جرى اختيارهم من بين الاشراف يتحدر بعضهم احياناً من اجد واعرق الاسر الارستوقراطية ، يدفع الملك مرتباتهم ، فيخلصون له الولاء والطاعة . ويؤلف جيش المرتزقة فرقة منتقاة ، مختارة ، لها دفع لا يقاوم ، وتكون عنصر القوة الاساسية في الجيش . فالقسم الاكبر من فرقة المشاة يتألف من السويسريين جيء بهم من سفوح جبال سويسرا او من المقاطعات الالمانية ، او من صفار البورجوازيين او الفلاحين اليسورين ، يتسلحون على حسابهم الخاص تحت إشراف حكمة البنادق ، كتبوا كتائب تحت ادارة واشراف ضباط عملوا متمهدين حربيين ، نالوا من الامبراطور ، او من الملك ، او الامير ، براءة تشهد بكفاءتهم في فن الحشد والتبئة . وقد ألفت مجموعهم فرقة قوية ، تقوى على الصمود ، انما لا تبض باية فكرة او اقدام . وتتألف فرقة المشاة الخفيفة من فرنسيين جيء بهم من شمالي فرنسا ومن بين سكان غسكونيا الذين عرفوا بنشاطهم وشجاعتهم ، ومرونة اجسامهم وبما يجيش فيهم من روح الاقدام ، انما كانوا اقل صلاحية من السويسريين ، وحمة البنادق .

كان من الطبيعي جداً ان تكلف تمبئة الجيوش غالباً . وهي نفقات لم يكن يتحملها الا

الدول الغوية والملوك الذين باستطاعتهم ان يتصرفوا بموارد الممالك والمقاطعات الواسعة الفنية التابعة لهم .

قد تمتد الحرب طويلا لان المعركة لا تبتدىء الا برضى الفريقين المتحاربين .
فن الحرب والجيش لا يمكن ان يخوض معركة حربية قبل ان مجري تمبته فتحتشد كتابه في ساحة الحرب حسب نوع اسلحتها لتحتل مواقعها في المينة والميسرة ، والقلب والمؤخرة والطليمة . ولم تكن الوسائل قد توفرت بمد لتتحول بالسرعة اللازمة من طابور في طريقه الى الحرب لطابور مهيأ لخوض المعركة . ولذا كان لا بد من التوقف بعيداً عن نطاق العدو ، وتعبئة الجيش وتعيين مواقع الكراديس قبل الشروع بالتقدم الى الامام ، ببطء واحتراز كلي ، محافظة على النظام من جهة ، ومحسباً لكل طارئ مفاجيء بحيث تصبح فرق الجيش ادنى من قاب قوسين من العدو فيبدأ بالهجوم . وفي هذه المدة يكون امام العدو الوقت الكافي ليأخذ عدته للامر : فيستأنف سيره او يتخذ مواقفه المقررة . ولا سبيل لاجبار العدو على التوقف وقبول المعركة لان الاسلحة النارية هي بطيئة للغاية ولا فعالية كافية لها . ولذا كان لا بد من اللجوء الى ستراتيجية الوسائل الثانوية او الاضافية ، كالاستيلاء على مدن العدو الكبرى الواحدة بعد الاخرى ، وعلى مراكز تموينه ، واستباحة الريف وغزوه وسلب القرى والمزارع لارغام العدو على القاء سلاحه لقلعة الميرة لديه . فاذا ما رضى العدو خوض المعركة ليتفادى نهب مدنه ، كان عليه ان يعول ، في الدرجة الاولى ، على فرقة الحيلة وهي الفرقة التي كانت تقرر مصير المعركة بهجوم جانبي مفاجيء .

ادت الحروب الايطالية الى تطورات عظيمة ، اذ كان باستطاعة المدفعية الفرنسية ان تطلق ، في ساعة واحدة ، من طلقات المدافع ، اكثر مما تستطيعه المدفعية الايطالية ، في يوم بكامله .
ولذا لم تستطع اية مدينة محصنة في ايطاليا ان تصمد اكثر من ٣٦ ساعة ، وكانت المدفعية تدك المعادل دكا فتهاوى جدرانها وتساقت الى الارض . ولذا كان لا بد من « تسوير » المدن وتشبيد اكوام من التراب عند الاسوار وفي مؤخرتها بحيث اذا تساقطت قنابل المدافع واخرقتها لا تحدث في السور اي خلخلة في الجدران ولا تصدع . ولذا اصبح الدفاع عن المدينة اسهل من قبل . فكان لا بد ان يقوم المحاصرون باعمال واتخاذ وسائل اخرى تسهل لهم الاقتراب من الحصون . عن طريق اقامة خنادق ودهاليز وممرات سرية والاستعانة بأكياس الرمل .

والمدفعية هذا السلاح الذي احتفظوا بفعاليتها حتى الآن لحصار المدن والقلاع ، راحوا يستعملونه ، اكثر فأكثر ، في ساحات الحرب ، بلاشتراك مع انواع اخرى من السلاح . فقد ارغمت المدفعية الفرنسية ، في معركة أغناديل (١٥٠٩) ورافينا (١٥١٠) العدو على ان يتخلى عن تحصيناته والخنادق التي كان يمتصم داخلها ، الى اراضي مكشوفة كانت تصلح لقيام

المشاة الفرنسيين بهجومهم على الوجه الاكل . ففي معركة مارينيان (١٥١٥) راحت المدفعية الفرنسية بعد ان امنت الاسلحة الاخرى حمايتها ، تمحصد صفوف العدو ووحداته حصداً ، بحيث كانت « اجسام الجنود السويسريين تتطاير في الجو مع البارود » . وهكذا كسبت المعركة . فمعركة مارينيان هي اولى المعارك الكبرى في التاريخ الحديث ، تم تحقيقها بفضل هذا التناسق العظيم الذي تم بين الاسلحة الكبرى الثلاث : المدفعية والخيالة والمشاة .

وقد راح المتحاربون يقلدون نظم التهيئة الاصلاح جدوى وفعالية : فيكتسون كتاب المشاة ويعبئون المدفعية على الطريقة الفرنسية ، والمشاة على الطريقة الالمانية في القرن الخامس عشر ، والخيالة الخفيفة على الطريقة الالبانية ، وكلها اساليب ومناهج تعبت اصبحت وسائل شائعة ومعروفة لدى الجميع . والبندقية التي استعملها الالمان سلاحاً رهيباً بعد ان ادخلوا عليها ما ادخلوا من تحسينات فنية ، جاءت ثمرة مهارتهم في شغل الحديد ، عم استعمالها وانتشر على نطاق واسع ، بعد ان اصبحت اسهل استعمالاً واهون اخذاً وتناولاً من القوس والنشاب ، وبرهنت عن فعالية حاسمة في تهيئة الهجوم والقيام به . ولم يلبث القوس والنشاب ان خف استعمالها تدريجياً حتى انتسخ العمل بها بالكلية .

أتاح مزج هذه الاساليب الحربية وافرغها لغونزالفو القرطبي ، من فلاسفة الاستراتيجية الحديثة ورجال الحرب في ايطاليا ، ان يدخل على الجيش الاسباني تحسينات جديدة على مناهج التهيئة واساليب الحرب افضت بها الى طلوع فرقة الـ *Tercio* ، هذه الفرقة الاجنبية التي انشئت في الجيش الاسباني عام ١٩٢٠ . واول اصلاح ادخله غونزالفو ، تم سنة ١٥٠٣ من وادى الى انشاء الفرقة ذات الجناحين ، كل واحد منهما يتألف من ٦٠٠٠ من المشاة و ٨٠٠ من الشرطة ، و ٨٠٠ من فرسان الخيالة الخفيفة و ٢٢ مدفعاً . وهكذا نجد تحت تصرف القائد او اللواء كل العناصر اللازمة لتوجيه المعركة نحو النصر الاخير ، فقد شدد كثيراً ، على الدور المنوط بفرقة المشاة ، هذه الفرقة التي تستطيع ان تناور وان تقوم بالحركات العسكرية في كل المجالات بالدقة المرجوة . وقد ضاعف فيها من عدد كحمة البنادق بحيث اصبحت نسبتهم خمس سلاح المشاة . وقد جهز كل جنديين من اصل خمسة من المشاة بسيف قصير ومزراق ، بحيث يستطيعون التغلغل بين افواج السويسريين وجندهم ويأخذون بطونهم في بطونهم . وقد عبأهم ثلاثة صفوف متراصة ، متتالية ، مع الاحتفاظ بقسم احتياطي للقيام بتناورات وحركات اذا ما دعت الحاجة الى ذلك ، بعد تهيئة الافواج سرّيات تأتي الواحدة منها بمستوى السرية التي تسبقها من جهة اليمين لتشكّل الطليعة ، وقد يسهل نظام التهيئة هذا ، على الطاوور السائر في طريقه ، ان يتحول ، في الحال ، الى طاوور محارب ، ويُدرب هؤلاء الجنود على النظام والتقيّد بالانتظام ، ويشبّوا على احترام الذات والشموخ بالكرامة والعزة الوطنية والتحمس

الاصلاح الحربي
الذي قام به غونزالفو القرطبي

بالشعور الديني الحفي . وبذلك جعل من المشاة الاسبان سلاحاً مخيفاً ، مما جعل الالمان ، بعد ان خبروا بأس هذه الفرقة وجربوها ، يصرحون قائلين : « انهم لم يجاربوا بشراً بل ابالسة » .

اما الاسبان ، فالكابوس الجاثم على صدورهم ، كان الجندي الفرنسي ، وليس من النادر قط ان تقع عين الباحث في الوثائق التاريخية التي تعود للاعمال الحربية التي قام بها الاسبان في اميركا وكتبها على الغالب ، كتأب من قدامى رجال الحرب في اوروبا ، على عبارات كهذه : « فقد رَفَعْنَا في وجه العدو حاجزاً بلغ من متانته ما لا يقبل للفرنسيين ان يأتوا معه شيئاً » .

من البندقية الى الطنبجة
هذا الصراع الدامي ، الطويل المدى ، الذي قام بين ملوك فرنسا وملوك النمسا ، اتاح ادخال تحسينات جديدة على صناعة الحرب وادواتها . ادخل الاسبان ، حوالي عام ١٥٢٠ ، تحسيناً على البندقية ، فقد نُقِيت حَقَّة الاشمال الى جهة اليمين من مدفع البندقية بحيث يصل الثقب بعلبة البارود ، بعد ان وضعوا لها غطاءً يمنع تسرب الماء والهواء والمطر والاهترزاز اليها ، بحيث يستطيع الجندي ان يسير والبندقية معبأة ومحمولة ، فيتم اطلاق العيار الناري بواسطة الكبس على انبوب يتصل بالزناد فيسقط القنبل ويتصل بالبارود . فباستطاعة الجندي ان يشد على البندقية بكلتا يديه مما يزيد كثيراً في دقة التسديد . وهكذا امكن التخفيف من ثقل البندقية ، وراح الجندي يطلق النار والبندقية مسندة الى مشجب . وارتفعت نسبة حمولة هذا السلاح في فرقة المشاة بعد ان راحوا يدعونها تارة *Arquebuse* وطوراً *Mousquet* بحيث بلغ عددهم الثلث واحياناً النصف في فرقة المشاة . وقد بلغ من فعالية هذا السلاح ما حدا بالامبراطور شارل الخامس الى التصريح قائلاً : « ان مصير الحرب والمبارك التي خطت غمارها ، انما توقف ، الى حد بعيد ، على فتيلة بنادق الاسبان » .

وحوالي ١٥٢٥ ، اخترع الماني البندقية ذات الدولاب ، ربط به حجر صوان يتحرك بواسطة نابض (زنبرك) يستعمل كزناد ، يقده شرراً عندما يتحرك فيشعل البارود . فاستغناء عن الفتيل جعل فرسان الخيالة يعولون ، اكثر فأكثر على هذا السلاح . ولكي يسهلوا لهم استعماله صنعوا بنادق خفيفة يمكن استعمالها بيد واحدة ، هي الطنبجة . وفي اواسط القرن السادس عشر ، اخذ فرسان الخيالة الالمان يطلقون اثناء هجومهم العيارات النارية من طبنجاتهم مما اضطر معه قسم الخيالة ، في الجيوش الاخرى على احتذاء حذوهم واعتماد هذا السلاح الجديد ، حتى الشرطة منهم ، مع ان تأثيرهم كان قد تضاعف جداً .

كان الجندي السويسري يكلف غالباً بينما جندي المشاة الالمان في حالة سكر دائم . ولم تلبث فرقة المشاة ان اصبحت سلاحاً وطنياً وراح الفرنسيون يحنون طواوير من المشاة اكثر افرادها من الفرنسيين وفي عام ١٥٣٥ ، راح فرنسوا الاول يؤسس كتائب اقليمية يؤخذ افرادها من ابناء الولاية او المقاطعة .

المدفعية ادخلت تحسينات اساسية على سلاح المدفعية ، أهمها تبسيط الحركات والاكتفاء ببعض انواع رجعت فعاليتها بعد ان تكاثرت انواع المدافع التي كانت قيد الاستعمال ، مما وقف حائلاً دون تجهيز الفرقة بحاجتها من العتاد والمسدد ، وبذلك وضعوا حداً لهذه الفوضى . فمنذ عام ١٥٤٤ ، اقتصر المدفعية ، في جيش شارل الخامس ، على بعض المدافع من عيار مجرب . وحذا حذوه ، سلاح المدفعية عند الفرنسيين بعد ان توقفت نتائج المعارك على هذا النوع من السلاح ، ففي الحصار مثلاً ، عولوا بالاكتر ، على مدافع الهاون التي لم تتم ان اصبحت غير صالحة للاستعمال ، بمد اطلاق ٥-٦ طلقات ، لسبب ما يحدث المدفع من ردة الى الورا . ولذا اخذوا يستعملون رفاصات تُلطَف من حدة الارتجاج . وتمكن الالمان من اختراع الصاروخ ، للقنابل المدعة للانفجار واشمال الحرائق . ودخل في تركيب المتفجرة عناصر مختلفة كالزرنينخ والزفت والقار . كذلك اعتمدوا قنابل يدوية (رممات) تبقى مشتملة في الماء ، كما استعملوا اسهماً ملتهبة تطلق من البنادق ومنغططات صنعت من المشاقة والكبريت ، لامطار الحارين باللهب النارية . كذلك اخترعوا نوعاً من الرشاشات وهي كناية عن عدد من البنادق صفت جنباً الى جنب ، تُعمل بها حتى عام ١٥٧٠ .

التحصينات الحربية كثيراً ما ذهبت الرطوبة بطلاء الاسوار ، فافقدتها ما عليها من الاتربة المختلفة ولذا اخذوا يستبدلونها باسوار قليلة السكاكة بحيث تحترقها القنابل بسهولة دون ان تحدث فيها تصدعاً يذكر او خلخلة وتدخل في التراب حيث تفقد قوتها . وعند الزوايا التي تتألف من حائط منحرف يصل بين جدارين ، اخذوا ، حوالي عام ١٥٦٠ ، بينون ، بدلاً من الابراج ، شرفات حصنها بالتراب والاغصان ينصبون على جوانبها ، من هنا وهناك ، المدافع . ولكي يحولوا دون نفس الجدران بالالغام الناسفة ، حرصوا على اقامة خندق أجروا فيه قناة من الماء ، بعد ان دعموا جانبيه من جهة الارض ، بحائط قوي ، وبعد ان اقاموا ، في القمة ، مراً خفياً يسهل المرور لمن يريد الخروج .

الانحطاط والتدهور بطبع نهاية القرن احدثت الحروب الدينية تأخراً ظاهراً في فرنسا . فقد اشتدت فيها اعمال الكمين وحوالوا على اعمال التبييت والترصد اكثر من تعويلهم على العمليات الحربية الكبرى . وكذلك اعتمدوا ، اكثر فاكثر ، على المتفجرات والمفرقات لنسف ابواب المدن (كاهور ، عام ١٥٨٠) وراحوا في البلاد الواطية يمتدنون اكثر فاكثر في دفاعهم عن البلاد ، على ما يقوم فيها من شبكات الفياض والقدران والمستنقعات والبطائح لتقوية اعمال الدفاع . ومنذ موقعة ، غير ترويدمبرج (١٥٩٣) تبنى موريس ده ناسو ، اساليب التعبئة التي جاء بها غوزالفو ، عندما استعمل الجند كرواد او طلائع في الجيش . ولما كان جيشه جيش حصار وليس جيش هجوم ، فقد

دريج على ان يقيم حول محمسه اسواراً من الاوتاد بحط به خندق ماء ، وقد تفنن كثيراً في توفير اسباب الاقتاب من المدن المحاصرة ، بواسطة قفف عشوة ترابساً ، في ارض يكفي ان يحضر الجندي قليلا في تربتها ليعثر على الماء . كذلك تفنن في حركات الكر والفر ، بحيث ان جيشه هذا اصبح مدرسة انتشرت مبادئها في جميع انحاء أوروبا .

ومع ذلك نشهد تناقص عدد الجيوش ، بعد عام ١٥٧٠ ، كما ان هذه الجيوش اصبحت اقل تجهيزاً وعتاداً حربيّاً . فالازمة التي نزلت بالاسمالية ، وارتفاع الاسعار ، والعراقيل التي حدثت من الانتاج بسبب كثرة الحروب الاهلية ، وانقسام أوروبا ، اكثر فاكثراً ، الى دول واحزاب واحلاف ، كل ذلك اضعف كثيراً من طاقات الجميع . فقد انتهى القرن وغربت شمسُه في شبه تأخر عام .

الحرب الاقتصادية والمالية
والحرب ليست كلها اقتتال وتراشق بالنار والقنابل ، فهي حرب مال واقتصاد . ان طرح رؤوس الاموال المجهدة في التداول وتحويل الاعتمادات المخصصة لمقاطع اخرى ، للنهوض بالحرب وتاجج ضرامها ، كل هذا وما اليه ، أتاح للملوك تجهيز جيوش جرارة بعد ان توفرت للدولة وارادات طائلة من جباية الرسوم والضرائب المفروضة . ولذا كان من الهمية بمكان ان يحاول الخصم تعسير تموين العدو ، وقطع اسباب الميرة عنه لاجراجه مالياً واقتصادياً بتضييق الخناق عليه . فالابتكارات التي وضعها الكردينال ده ثورون ، حاكم مدينة ليون ، كتشكيل اتحاد المصارف الذي رمى منه الى تجميد الاموال المدة للاستثمار ، واجتذاب رؤوس الاموال الى فرنسا من اي جهة كان ، واختزانها بقصد حجبها عن العدو والمؤول دونه للاستفادة منها ، ولا سيما التدابير والاجراءات التي اتخذت ، في هذا السبيل ، عام ١٥٤٢/١٥٤٣ / ١٥٥٤/١٥٥٣ ، وتاليف «اتحاد ليون الكبير» الذي جرى تشكيله عام ١٥٥٥ ، كل هذه التدابير كان القصد منها ضرب حصار مالي ضد اسبانيا وتوفير الاعتمادات المالية اللازمة لفرنسا الاول وهنري الثاني ، فاعطت النتائج المرجوة .

والحرب كذلك لها وجهها الاقتصادي . ولذا فكثيراً ما راح الملوك يشيرون بين رعاياهم الروح القومية الاقتصادية ، هذه السياسة الوطنية التي عبروا عنها بكلمة *Mercantilisme* وهو تعبير يبدو لنا اليوم ضيق المدلول ، غائم المفهوم . اما الغرض من هذه السياسة فهو ان تؤمن الدولة نوعاً من الاكتفاء الذاتي في الاقتصاد ، اي ان تكفي نفسها بنفسها على اكبر قدر ممكن ، ولا سيما من المواد الالوية والحامات الضرورية للنهوض بالحرب وتأمين ما يلزم لها من عدة وعتاد وعتدي وعتدد ، وغير ذلك من المعادن وملح البارود والكبريت ، وتوفير كل هذه المواد محلياً . كذلك رمت هذه السياسة ، من ناحية اخرى ، الى اجتذاب النقد النادر او الثمين من الذهب والفضة واختزانه في البلاد والاحتفاظ به لليوم العصيب ، بما لا بد منه لحياة البلاد الاقتصادية ولدفع مرتبات الجند وتأمين نفقات الجيوش الطائلة ، وما تحتاج اليه من ذخيرة

وميرة ، ولا سيما لدعم سياستها العليا . فالدول قلما تعتمد ، في هذا المجال ، على الحماية الجمركية مع العلم ان الرسوم الجمركية على البضائع المستوردة من الخارج ، او على المواد الاولية التي تصدرها البلاد ، جرى تطبيقها والعمل بها ، في بعض الاحيان . فلم يكن ليتوفر لدى الدول ما يلزم من الموظفين الاكفاء ولا من العمال الاكفاء ما يلزم لاقامة مراكز تفتيش وجباية على طول الحدود ، لاستيفاء المتوجب من العوائد والرسوم ، كما ان الدولة لم تكن تمت لها بعد الخبرة الكاملة لفرض نظام من الحماية الجمركية ، او الاخذ بنظام اقتصادي موجه . وراحوا يحظرون استيراد مصنوعات اجنبية ، ويمنعون خروج بعض المواد من البلاد ، كما راحوا يصدرون ما يلزم من القوانين ويتخذون ما يجب من التدابير التي تمنع تهريب النقد للخارج ، او تحد من ارتفاع اسعار الحاجيات ، ويعمدون الى اقامة الاحتكارات . وكان رعاياهم ، ولا سيما التجار منهم في المدن يفضلون بالاكثـر ، ان تعتمد حكوماتهم سياسة التجارة الحرة . وكان لا بد مع ذلك من ظهور ازمت مالية حادة : ازمة هبوط او ازمة ارتفاع ، وظهور اخطار في الخارج تجمل الناس يرضخون او يطالبون بهذه الروح القومية في حياة البلاد الاقتصادية ، اسوة بما حدث في عهد الملكة اليبسات ، قبل عام ١٥٨٨ ، اذ كان يحتم على صدر البلاد كابوس الارمادا التي لا تقهر ، وكما حدث في فرنسا بالذات ، عندما اجتمع ممثلو الامة ، عام ١٥٧٦ . فالقومية الاقتصادية ، هي ، قبل كل شيء ، سلاح بيد الحكومات ، في ما تعاني من اضطراع سياسي مع الخارج .

٢ - امبراطوريات وقيصريات

سبق للسيد المسيح ان تمنى على الله : « ان يكونوا واحداً كما نحن واحد » وهو طلب تمنى معه ان تؤلف جميع الامم والشعوب حكومة واحدة تحت سلطة واحدة وقانون واحد . وبقيت هذه الأمنية حية تنبض في قلوب الناس حتى القرن السادس عشر ، يتبلور صداها على الاخص في شخص رئيسين نزع كل من جهته ، الى اقامة سلطان اعلى وسلطة اسمى ، هما البابا والامبراطور .

البابا ادعى البابا لنفسه سلطة شاملة مسكونية ، كما ادعى الحق بحمل رعايا الملوك اجمع من قسم الولاء والطاعة الذي يقيدهم ، وحق اسقاط الملوك ، وتكريس الامبراطور ومسحه ، وتوجيه الملوك وارشادهم . غير ان نفوذه لم يكن بالفعل مما يُعتمد به او يؤبه له . فها هو يدعو عبثاً ، لحلة صليبية جديدة فتذهب صرخته في وادٍ ، وعيشاً يقضي في الاختلافات بين الملوك حَسْكَاً ، اذا ما رأى هؤلاء مصلحة لهم في العبث باحكامه والغض من افضيته . وعندما راحت اسبانيا والبرتغال لتتقاسمان ، عام ١٤٩٤ ، في بلدة تورديسيلاس ، الاراضي الجديدة التي صارت اليهم في العالم الجديد ، لم يتورعا قط من ان يجرىا تعديلاً في أحكام البراءة البابوية *Inter Caeteras* ضاربتين بمرض الحائط ، ادعاء البابا ، ملء

السلطان ، بعد ان اعلنتا على الملأ ان ليس في مقدوره قط ، ان يرفع ، من تلقاء نفسه وببجرد مشيئته ، المسؤوليات المترتبة عليها . وفي سنة ١٥٤٠ ، اعترف الملك فرنسوا الاول واقر ان للبابوات سلطة روحية ، ولكن لا حق لهم البتة بان يتصرفوا بالارض فيوزعوها على هوام . ثم ان علمنة السياسة وحركة الاصلاح الديني أقصرا كثيراً من نفوذ البابا الزمني ، وخفضا مما تبقى له من سلطة وسلطان حتى على الدولة البابوية بوصفه زعيماً سياسياً .

الامبراطور
من مزاعمه المتوارثة انه الوريث الشرعي للباطرة الرومانيين ، تَلَقَّى سلطته من الله نفسه ، وانه بالتالي ، الرئيس الاعلى والقاضي ، والوسيط ، والحكْم النهائي والاخير ، في الامور الزمنية ، وان له السيادة والتقدم على أصحاب العروش والتيجان ، وان الملوك والامراء كلهم تبَّع له ، مقيدون تجاهه بالروابط التي تفرضها النظم الاقطاعية وله وحده الحق بان يلقب صاحب الجلالة ، وله وحده الحق بان يسن القوانين ، وان يقيم جميع الملوك نواباً امبراطوريين ، وانه أعطي وحده الحق بتدبير شؤون المسيحية جماعاً ، ولا سيما السلطان لتأديب الكفرة والمارقين ، والمراطقة والجاحدين . فهو القائد الاعلى لكل صليبية .

اوروبا والقيصريات
القول بسلطة عليا في العالم ، نظرية تجاوبت اصدائها في النفوس وارتكضت بها المشاعر الحية التي تنبض في كل الشعوب ، ولم يكن أحد ليجرؤ للتعرض لها على المكشوف . وقد أخذت هذه الافكار والمشاعر تتطور بالفعل دون ان يلحظ المسؤولون شيئاً من هذا ، او ان ينتبهوا الى ما هو جار . ففكرة الامبراطورية او السلطة الشاملة اخذت بالرغم من احترامها للقوميات المختلفة ، باعتبارها اداة اتحاد بين الشعوب الاشقاء ، تتغير وتتحول خفية لتحل محلها فكرة القيصرية ، او تسلط امة فاتحة غلابية ، تمتص دونما انقطاع او توقف ، الممالك والشعوب مرغمة الآخرين من ليسوا من توابعها ، على احترام ارادتها .

القيصرية الالمانية
هنالك بالفعل ، قيصرية ألمانية . فالامبراطورية لم تكن ، من حيث اشتقاق اللفظ ، من حق اي شعب من شعوب الارض . فهي فوق الشعوب والمنطق يقضي بانتقالها من ملك الى ملك ومن شعب الى شعب . اما الالمان ، فقد اعتبروا انها من حقهم وحدهم دون سواهم . أفليس ملكهم الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة؟ وهي امبراطورية تشمل كل الاراضي الجرمانية . فهي تُدعى حتى في اواخر القرن الخامس عشر : الامبراطورية المقدسة تقتصر على القومية الالمانية . وعندما تقدم الملك فرنسوا الاول وشارل الخامس يرشحان نفسيهما ، عام ١٥١٨ ، لانتخاب الامبراطور ، قام ومثقلين يعيد نشر بحث قديم ينص على وجوب انتقال منصب الامبراطورية الى الالمان ، وبالاتّ قول لا الى فرنسي او بورغوني ، بل الى الماني ، من العرق الالمني . فالامبراطورية ، هي ، في نظر الالمان ، سمة التفوق

والتسامي واداة سيطرة الشعب الالماني على باقي الشعوب فهي أداتهم المثلى لاقامة قيصريتهم .
الا ان تطور الممالك والامارات الالمانية ضمن الامبراطورية الرومانية المقدسة ، ونزعات رؤسائها
وملوكها للاستقلال بالانفصال عن الامبراطورية ، والاصلاح الديني الذي غذى هذه النزعات
وابرزها ، كل ذلك جزءاً ألمانيا ، وحال دون بروز هذه القيصرية .

هنالك ايضاً - وماذا يمنع ؟ - قيصرية فرنسية ، فقد سبق للفرنسيين واعلنوها
للقيصرية الفرنسية عالياً ، مراراً وتكراراً ، انه ليس ما يربطهم بالامبراطورية قط . و فالملك
هو الامبراطور في مملكته . وها هو شارل الثامن يهبط ايطاليا ، ويتوغل بعيداً نحو الشرق ،
مترسماً صليبية ، ويتزود بما يؤيد خلافته لامبراطور القسطنطينية . فها هو يدخل نابولي
حاملاً على هامته تاجاً من الذهب ، ممكاً بيده الصولجان الامبراطوري والكرة الارضية ،
والشعب يتف له بجل جوارحه . « ليعش الامبراطور صاحب الجلالة » . فاذا بالهلع يدب في
قلوب الالمان ، وراحوا يفسرون مخاوفهم انه انما يسمى وراء لقب امبراطور الامبراطورية
الرومانية الجرمانية المقدسة . وهذه القيصرية الفرنسية التي تبلورت في رغبة الفرنسيين السيطرة
على ايطاليا بترشيح الملك فرنسوا الاول نفسه لانتخابات الامبراطور عام ١٥١٩ ، حل محلها ،
بعد فوز شارل الخامس بها ، سياسة دفاعية تجاه آل هبسبورج .

القيصرية البورغونية
قيصرية آل هبسبورج تجلبت لبوسين مختلفين : شارل الخامس ، هو وريث
العائلة الملكية في النمسا وهو الوريث لامراء بورغونيا واملاكلهم الطائلة ،
كما هو صاحب تاج اراغون وقشتالة ، الذي اصبح ، عام ١٥١٩ ، امبراطوراً على الامبراطورية
الرومانية الجرمانية المقدسة . هو اولاً ، وقبل اي شيء آخر ، شارل العظيم ، شارل الكبير ،
البورغوني الاصل والملتد ، يحمل في نفسه نزعة بورغونية قوية الى القيصرية تسيطر عليه
وتتملكه . فمطلبه الاغر وهدفه الاول هو استرجاع تركة شارل الجسور ، من ملوك فرنسا ولا
سيا استخلاص دوقية بورغونيا وعاصمتها ديجون ، وديز رهبان شارتر في شانول ، حيث يرقد
بالرب ، ابؤوه واجداده ، ثم انشاء دولة بورغونية ، مهيبة الجانب ، تهيمن على الغرب وتقود
منه الحطى . هذا هو حلمه الاكبر ، وفي سينل هذا الحلم الممسول ، يحلوه ان يسخر الممالك
والدوقيات والكوتتات والامبراطورية نفسها . فقد صارت خطته هذه الى فشل ذريع اذ ان
معاهدة كيريه التي عقدها مع فرنسوا الاول ، عام ١٥٢٩ ، كرست نهائياً ، اقتسام تركة
شارل الجسور .

القيصرية القشتالية
وهذه القيصرية التي جاش بها آل هبسبورج ، زارها تتقمص من جديد في
شخص شارل الخامس لتبرز قيصرية اسبانية ، قشتالية . اخذ شارل
الخامس يتطبع ، شيئاً بطباع آل قشتالة . أليست قشتالة هي خير من تفهم احلامه وتبناها ،

وخير من امتثل له وخير من أمده بالاصفر الرنان والجيش الحرارة ؟ فهو يزعم اسبانيا وبقودها للسيطرة على ايطاليا . فصقلية قد اسبانيا بالقمح الذي لا يتوفر لها بالقدر الكافي . وتأميناً للاعتمادات التي تؤمنها له المصارف الالمانية ، رهن املاك التاج في نابولي . ودوقية ميلانو هي المرحلة الاولى والعلمة التي تُفرضي اليها مجازات جبال الالب .

والانتصارات التي يحققها في ايطاليا تضع تحت تصرفه خزائن رجال المال في جنوى وفلورنسا ، الى ان يتم له ، بعد لأي قصير ، طرد الفرنسيين من ايطاليا .

وها هو يقود اسبانيا للسيطرة على الامبراطورية . فالجيش الاسباني يؤمن له النصر في موهلبرغ (١٥٤٧) وينتصر على البروتستانت الالمان وعلى حلف شمالكلاند . والحاميات الاسبانية تتحكم بكل ألمانيا . فشارل الخامس يرغب من كل قواه ويتوق في العزم ، الى تزويج ابنه فيليب ملكاً رومانياً ، بالرغم من جنسيته الاسبانية ، ويجعل منه الامبراطور المتيد . فظنون الالمان وهو اجسهم لها ما يبررها : فهم امام محاولة لبسط سيطرة اسبانيا عليهم . « فاذا كان لا حق لاي ولش ان يتحكم بنا ، فكم بالاحرى ، لاي اسباني » . فراح السواد الاعظم من الالمان يمتفون على شقيقه فردينان وعلى ابنه مكسميليان . فمنذ عام ١٥٢٢ ، تخلى شارل الخامس لاختيه ، عن ممتلكات آل هبسبورج في النمسا وفي المانيا . كما اختاره ليكون نائبه العام في هذه الاخيرة . فمنذ عام ١٥٣١ ، اصبح فردينان ملك الرومان . والمقاومة التي اظهرها هو وابنه ، لاختيه شارل الخامس ، حملت هذا الاخير على التراجع ، وفي سنة ١٥٥١ ، اضطر الى ان يسحب من جميع المحاء المانيا ، والحاميات والكتائب الاسبانية المرابطة فيها ، بعد الذي شاهده من احتياج الالمان وبفضهم لها . ولذا لم يكن بدّ من التسليم بانسحاب الاسبان ومن اقتسام تركة آل هبسبورج . وفي سنة ١٥٥٨ ، تنازل شارل الخامس عن لقب امبراطور المانيا الذي كان يحمله منذ عام ١٥١٩ ، وعلى الاثر ، تم انتخاب فردينان امبراطوراً وصارت اليه جميع املاك آل هبسبورج المتوارثة ، كما صارت اليه المسالك المؤدية الى مجازات الالب والمداخل الموصلة الى قلب اوروبا . الا ان الانقسامات التي قامت في ايطاليا ، والحظر التركي الجاثم بالقرب منها ، جعلت هذه القيصرية لا توحى باي خطر .

احتفظ فيليب الثاني بالممتلكات الاسبانية فاقتصرت القيصرية التي جاش بها على غربي اوروبا . فكما ان والده سخر فكرة بسط سيطرته في خدمة القيصرية المتتابة ، سخر فيليب الثاني ، عن حسن نية منه ، الفكرة الدينية التي مثلها ، في خدمة للقيصرية الاسبانية : فقد برز المدافع الاول عن الكاثلكة ضد المرطقة . حاول ان يخضع لسيطرته ، البلاد الواطية ليجعل منها قاعدته الكبرى لتوجيه ضرباته ايضاً شاء . فقد حاول ان يسيطر على انكلترا وان يبسط سلطانه على البحار الضيقة بزواجه من اليسانبات ثم محاولته غزو انكلترا ، عام ١٥٨٨ ، بواسطة اسطول الارمادا الذي لا يقهر . وبعد ان مني بالفشل ، وجه جهوده نحو فرنسا ولا سيما ضد هنري ده نافار المرطوق المطالب بالعرش ، وهياً جميع الاسباب ليرشح نفسه لعرش فرنسا ،

ثم رشح له ابنته ايزابيل . فشلت خطته تلك ، فاضطر معها الى عقد معاهدة فرفين (١٥٩٨) التي جاء عقدها تكريساً لهذا الفشل . فقد اصطدمت القيصرية الاسبانية ، ابنا ظهرت ، بالروح القومية ، والشعور الوطني . فالقيصرة التي جاءت أصلاً ، ربيبة الروح القومية ، وجدت في القوميات المهذبة ، حداً لآمالها ، وصدأ لآمانها .

هل يجوز بعد هذا ، التحدث عن قيصرية انكليزية ؟ فالسياسة الانكليزية القيصريات البحرية استهدفت دوماً التوازن الدولي . وقد حرص الانكليز على ان يحتفظوا دوماً بمدينتي بولوني وكاليه ، وبذلك يؤمنون السيطرة على المسالك والمرور من بحر المانش الى البحر الشمالي ، وعلى ملتقى المحيط الاطلسي بالبحار الشمالية ، ومنافذ البحر الابيض المتوسط الى البلدان المحيطة بالبحر البلطقي . وقد بقيت السيطرة ، على هذه المواقع ، في نهاية الامر ، بيد الفرنسيين .

مثلت الاجيال الوسطى الحقبة التي كانت فيها حرية البحار مطلوقة للجميع . ولكن ما كادت بعض الدول تطل على العصر الحديث حتى نزعت نفسها للسيطرة على بحر او عدة بحار ، فالبنديقية هددت ، منذ القرن الثالث عشر ، للسيطرة على البحر الادرياتيكي ، كما هدفت ، جنوى من جهتها ، منذ القرن الرابع عشر ، للسيطرة على البحر الليغوري ، والدانمارك على البلطيق ، والنرويج على المحيط الاطلسي حتى مشارف اسلندا وغرينلاند . والدولة الاستعمارية كثيراً ما رغبت في اقامة نوع من الاحتكارات والى فرض الرسوم وجبايتها ، لقاء حرية الصيادين والتجار ولتأمين سلامة السفن التي ترفع علمها .

كثيراً ما جاءت القيصرية البرية نتيجة للسيطرة على البحار . فالقيصرية قيصرية البحر المتوسط الاسبانية لا يمكن تصورها الا بعد تأمين سلامة وامن الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط حيث قامت ام الممتلكات الاسبانية . فالحرب البحرية رمت دوماً للسيطرة على بعض القواعد المهمة الواقعة على سيف البحر . فالعواصف الشديدة والارياح المزججة ، وصغر السفن وسرعة عطبها ، اجبرت الملاحة على السير بالقرب من السواحل البحرية ، واوجبت عليها إقامة شبكة ، من المرافئ تؤمن لها حاجتها من المؤن والذخائر ، فقد كان من السهل احتلال بعض هذه الموانئ ، وقطع المواصلات البحرية ، بعد ان أُلِف الاتراك كل سنة تقريباً ارسال عمارة من سفنهم ، للقيام باعمال القرصنة في البحر وسلب المناطق المحيطة به . وكَم من مرة هب الفرنسيون لمساندتهم ومعاضدتهم ، وذلك بوضع القواعد التي كان الاتراك بحاجة اليها (طولون سنة ١٥٤٤) . ولحسن حظ الاسبان ، انه لم يخطر يوماً للاتراك في البال - وجبل مهمم من القرصنة النهب والسلب والاستباحة - ان يذهبوا بيمدأ في قرصنتهم ، او ان تحدتهم النفس ، باغلاق البوابة القائمة بين نابولي وميسينا . فبعد وفاة هنري الثاني ، اختفت من مياه البحر المتوسط ، السفن الفرنسية التي كانت تقوم فيه باعمال القرصنة ، وعزف الاتراك عن

مغامراتهم الحربية في هذه المناطق ، بعد ان سُدت في وجههم القواعد الفرنسية ، اذ ان حروبهم مع الفرس والامبراطور اضطرتهم للتوقف عن هذه الاعمال العدوانية ، كما كان لهم من مشاغلهم الداخلية كأمور الخلافة ، والقضايا الاقتصادية ما أثار في وجههم المراقيل والمصاعب . فقد تم للحلف المسيحي المقدس النصر على الاتراك العثمانيين ، في معركة ليبانت (١٥٧١) . وهكذا تم طرد الاتراك من حوض البحر المتوسط الغربي . ثم ان الاتراك والاسبان اتجهوا ، بانظارهم نحو المحيطات واصبح البحر المتوسط ، بنأى من الطرقات البحرية الكبرى ، واصبح بالتالي في المرتبة الثانية من النشاط والحركة التجارية ، بعد ان كان ، من قبل ، قطب الحركة ومحورها الرئيسي . وهكذا اخذ مجال السيطرة يتجه الى المحيطات .

البيصريات المحيطية وهكذا لم تلبث القيصرية القارية مرتبطة ، الى حد بعيد ، بالسيطرة الاوروبية على المحيطات . فلم يكتف البرتغاليون والاسبانيون بتأسيس امبراطوريات واسعة لهم ، بل راحو يعتقدون يقيناً ان الله اختصهم دون سواهم بتملك الاراضي المكتشفة او التي ستكتشف في المستقبل . وظهرت براءات باوية عديدة تؤيد وتقر المواثيق التي توصل الطرفان الى عقدها ، بهذا الصدد ، وتحدد مناطق نفوذ كل دولة منها محاولتين ان تقصي عنها او ان تحرم منها ، الدول الاخرى . واهم المواثيق التي عقدت بين الاسبان والبرتغاليين ، في هذا المجال هي معاهدة تورديسيلاس (١٤٩٤) التي أقامت الحدود الفاصلة بين ممتلكات الطرفين عبر المحيط الاطلسي ، عند خط يمتد ١٧٠ فرسخاً الى الغرب من جزر الرأس الاخضر ، كما حددت معاهدة سرغسطة (١٥٢٩) الخط الفاصل بين املاك الطرفين في المحيط الهادي ، على بعد ١٧٢ درجة الى الشرق من جزر المولوسك .

فالاسبان والبرتغاليون تشبعوا من فكرة قدسية هذه النصوص التي كرسحت احتكاراتهم لهذه الكشوف الارضية ولملكيتهم لهذه البلدان التي ظهرت لهم . فالناهضون لها او المتجرئون على مخالفتها يستهدفون للحرم . فقد نظروا الى كل حملة او تجريدة تجارية ، او الى اية محاولة استثمارية يقوم بها الغير ، نظروا الى عمل قرصنة موجه ضدهم ، ولذا استهدف كل من تحدته نفسه باتيان سيء من هذا ، للقتل والعذاب والتشهير ، مصير كل خائن مارق .

والحال ، فقد اصبحت هذه الامبراطوريات الاستعمارية ، عاملاً هاماً في السياسة الاوروبية بما امنته لدول اوروبا ولامراتها من المعادن الثمينة ، وصلتها ، في بدء الامر ، بمقادير ضئيلة محدودة ، لم تلبث ان ارتدت اهمية كبرى ، لدى شارل الخامس ، بعد ان تم له فتح المكسيك على يد ممثله كورتيس (١٥٢٠-١٥٢٢) ، وفتح البيرو ، على يد بيزارو (١٥٣١-١٥٣٦) ، واخيراً بعد ان تم اكتشاف مناجم الفضة الغنية ، الواقعة في مدينة بولتوزي ، عام ١٥٤٥ . فالامبراطورية البرتغالية مثلت ، مدة طويلة ، دوراً كبيراً ، في المجال الاقتصادي ، اذا ما قيس بالدور السياسي الضئيل الذي لمبته في المجال السياسي ، بالنظر لصغر حجم البلد الأم .

الا ان هيلدب الثاني ، تمكن ، عام ١٥٨٠ ، من فتح البرتغال ، والاستيلاء على البلاد ، وحل البرتغاليين . عام ١٥٨٢ ، على الاعتراف بسلطانه وسلطته ، فاضاف بهذا الفتح ، الى ممتلكاته الواسعة ، ما كان من امثاله للبرتغاليين من مستعمرات شاسعة الارحاء ، وصرف كل همه اذ ذاك ، لرعاية هذه الامبراطورية العالمية الشاملة . وهذه الحروب التي خاضها في السنوات الاخيرة من عهده ضد انكلترا وهولندا وفرنسا ، لم تكن لترمي ، في نظره ، الا لتأمين سيطرته على المواصلات في المحيط الاطلسي . فالحرب ضد الاتراك جعلته ينصرف عن البحر المتوسط ويهمل امره فيه ليولي كل همه الى المحيط الهندي ، تأميناً منه السيطرة على مناجم الذهب في صوفالا .

من ينظر الى خارطة العالم ، اذ ذاك ، يخيل اليه انه اذا كان شارل الخامس وابنه فيليب الثاني ، قد غلبا على امرهما في اوربا ، فقد حققا ، في اماكن اخرى ، نجاحات عظيمة ، وان ام ممتلكاتهما هي المحيط الاطلسي وامبراطوريتهما تزامت من حدود هذه الامبراطورية ، في اوربا ، الى اميركا ، في الغرب . كل هذا وهم في وهم . فواردات اميركا لم تكن لتمثل سنة ١٥٥٤ ، سوى ١١٪ من مالية الدولة ، ثم ارتفعت الى ٢٥٪ عام ١٥٨٥ ، فقوة شارل الخامس وفيليب الثاني تبقى في اسبانيا وفي ايطاليا . فامبراطوريتهما هي قارية ، قبل كل شيء ، مع فروع لها بالطبع ، عبر الاوقيانوسات .

التوازن الدولي
هذه القيصرات التي استمرضا لاهما في بحثنا هذا ، حملت على التصدي لها ، والوقوف بوجهها والصمود امامها ، هذه الدول الاخرى التي تمثل نزعات ومصالح القوميات التي تألفت منها . فقد حاولت مجتمعة ، منع اقواها واشدها ، اذ ذاك ، من تحقيق اهدافها ، وراحت تتحالف لاقامة توازن بين الدول ، اي اقامة ميزان او قسطاس لهذه القوى . وهذه النظرية لم تلبث ان اصبحت القاعدة التي سار عليها مبدأ التوازن بين الدول الاوروبية ، والفكرة التي سلت بها الاجيال الوسطى بوجود تدرج مسلسل بين الممالك حلت محلها نظرية : دول حرة متساوية . وفكرة التوازن الدولي هذه عرفتها ايطاليا من قبل ، وطبقتهما منذ منتصف القرن الخامس عشر ، وما خلف البندقية ، (مارس ١٤٩٥) الذي ألب ضد شارل الثامن : البابا والبندقية ، وميلانو وآل هسبورج وآراغنون وقشتالة ، الا ايداناً بانتقال مبدأ التوازن الدولي ، من ايطاليا الى اوربا والعمل بموجبه كقاعدة اساسية للسياسة الاوروبية . وقد اصبحت انكلترا روح هذه السياسة وباحتها ، مع انها اشتطت مراراً في تطبيقها وجارت ، بدافع الحق التقليدي الذي تحمله ضد فرنسا . ومبدأ التوازن هذا ، ادتى الى عقد عدة احلاف ، منها مثلاً : الحلف المقدس الذي عقد عام ١٥١١ ، وحلف كونياك المعقود عام ١٥٢٦ ، وغيرهما ، بعد ان ضربنا صفعاً عن عدد كبير من المواثيق المتذبذبة .

اما المحيطات فلم يتحقق بشأنها اي توازن ، انما طلعت علينا نظرية حرية البحار ، ونظرية الاحتلال الفعلي او الواقعي . ففي سنة ١٥٢٣ ، قال فرنسوا الاول ، من البابا اقليمس السابع ،

تفسيراً لهذه البراءات البابوية التي صدرت عام ١٤٩٣ والتي استثنت نصوصها القارات المعروفة قبل عام ١٤٩٣ ، وليس الأراضي الجديدة التي يمكن اكتشافها فيما بعد ، على يد الدول الأخرى .
وذهب فرنسوا الأول الى أبعد من ذلك ، عام ١٥٤٠ ، فاسمعه يقول : « ان الشمس تشرق له كما تشرق لغيره ، ويتوق كثيراً لو يستطيع الاطلاع على الوصية التي تركها ابونا آدم وقسم الارض بموجبها بين ذريته » .

وصرح بأن احتلال الارض وحده يولي حق التملك ، وبأن اكتحال العين بمراًى الارض التي تلوح للناظر من بعيد ، او مجرد عبورها ، لا يعطي قط حجة بتملكها ولا يقيم سند تملك ، وبأنه يعتبر مملوكة : « الاماكن المأهولة والتي جرى تحصينها » . فنحن هنا امام الاسس التي قام عليها الاستعمار الحديث .

السياسة الایمابیة
تنهض السياسة ، قبل كل شيء على وزن القوى القائمة وتقييم العناصر التي تتألف منها بالنسبة بعضها لبعض . فالقانون او العامل الاخير هو المصلحة المتفهمة حق الفهم ، والقاعدة الوحيدة هي الفعالية او النجاح . وكثيراً ما اقسوا بالله وامتشهدوا بالاخلاق الادبية ، وهي امور لم يعد احد ليهتم بها او ليحکثرت لها . فبايات تلك الحقبة ، هم انفسهم أعطوا المثل على احتقار الكلام المقطوع . فاذا كان لهم حق الربط والحل ، فقد كانت بوسمهم ، طبعاً ، ان يحتلوا انفسهم : فلم يشعروا يوماً ، باي التزام يقيدهم ، لانهم ذيلوا او وقعوا وثيقة او صكاً حرروه . فقد نسفوا من الاساس الاخلاقية الشريفة التي كانت توصي باحترام الكلام المقطوع ، واوراص الشرف ، وهذه المثل النبيلة التي كانت الباعث او الدافع لمكارم الاخلاق . وعلى هذا دشنت البابوات عهداً جديداً وسياسة جديدة ، في العلاقات الدولية .

مسيحيون وخواارج
غامت فكرة الصليبية في الازمان مع انه لا يزال هنالك من يثير هذا الموضوع ويلجج به . فقامت ، في هذا السبيل ، عدة المحادثات ضد الاتراك (١٥٠٨ و ١٥١٨) كانت مظاهر ومناورات اكثر منها وقائع جدية . فالبابا جول الثاني نفسه اعطى المثل على طسها . فقد اقتطع قدراً من المبالغ المجموعة لاغراض الصليبية لاستكمال بناء كاتدرائية القديس بطرس . والبابا اينوشنتيوس الثامن تقاضى من السلطان بايزيد جمالة دسمة لقاء احتمازه ، في روما ، شقيق السلطان ، المدعو دجم سلطان الذي كان منافساً لآخيه على عرش السلطنة . كذلك ، استقبل البابا استقبالا مهيباً سفير السلطان بايزيد بحضور مجلس الكرادلة ويمثلي الدول المسيحية في روما . وفرنسوا الاول ، عقد حلفاً مع الاتراك لانهم يستطيعون ان يهاجروا الامبراطور من السوراء ، في اوربوا الوسطى فيقطمون ، على شارل الخامس ، خطوط مواصلاته في البحر المتوسط ، وهي اعمال تتفق تماماً وسياسته الوطنية . ومنذ عام ١٥٣٤ ، عقد على المكشوف معاهدة مع المسلمين ، كما وقع ، عام ١٥٣٦ ، اول معاهدة تكرس سيطرة فرنسا التجارية في بلدان الشرق الأدنى . وشارل الخامس نفسه توصل في نهاية الامر ، الى عقد اتفاق مع

المسلمين في تلسان وفي تونس ، كما ان اخاه فردينان دخل في مفاوضات مع الاتراك ، ودفع لهم الجزية .

شجبت الرأي العام المفاوضات التي اجراها الملوك المسيحيون مع المسلمين . رأي عام ردعارة وكان واضحاً ان هؤلاء الملوك لا يستطيعون الاضطلاع باعباء الحكم الا اذا عرفوا ان يؤمنوا عطف الرأي العام ، خوفاً من قيام معارضة في وجههم . ولذا قاموا ينظمون الدعاوة . ففي عام ١٥٣٦ ، فرض شارل الخامس على البابا ان يلقي في مجلس الكرادلة ، خطبة طويلة ، يشهر فيها بالملك فرنسوا الاول ، ويفضح جرائمه ويجمع له المسؤول الاول عن الحرب ، « هذا التركي » مضطهد اللوثريين . وقد تمت ترجمة هذه الخطبة الى كل اللغات وجرى توزيع نسخ منها في كل البلدان ، بواسطة مطابع أنفوس . وقد راح حزب الامبراطور يلقب فرنسوا الاول بـ « تركي » . أما فرنسوا الاول فقد عهد الى الاخوة *Du Belay* ان ينظموا له اشبه ما يكون بمكتب صحفي يكون فيه من الكتاب والسكرتيرية من بحسبون الفرنسية واللاتينية والالمانية ، مع مراسلين له في جميع انحاء اوروبا ، من أبرزهم جان سليدان ، في ستراسبورغ ، فاغرقوا البلاد بطائفة من المنشورات والاهاجي ضد شارل الخامس الظالم الظلوم .

كان فرنسوا الاول هو اول من حرك ار اطلق النظرية التي تقول بوجود موافقة الرعايا بحرية ، على اي قرار يتملق بمصيرهم . فكل حوادث دمج ولايات البروفانس وبورغونيا وبريتانيا ، الى املاك العرش التي وقعت منذ اواخر القرن الخامس عشر ، انما تمت بناءً على اتفاق نص صراحة على حق تصرف الشعوب بنفسها بحرية . الا ان تنازل فرنسوا الاول عن مقاطعة بورغونيا لشارل الخامس ، بموجب معاهدة مدريد ، عام ١٥٢٦ ، بعد انهزامه في معركة بافيا ، لم يتحقق ولم يحصل ، لان عقد هذه المعاهدة جاء مخالفاً لهذا الحق . ففي عام ١٥٢٦ ، اعلان سكان دوقية بورغونيا بانهم يرغبون « في البقاء على ولائهم لعرش فرنسا وليس للامبراطور » ، متمسكين بالمبدأ القائل بأنه لا يجوز نقل شعب ، من سلطة الى سلطة اخرى ، بدون رضا هذا الشعب وموافقته .

وكما ان اللغة راحت تفرض نفسها في كل انحاء المملكة ، فقد أُلْمِت الرقعة التي سيطرت عليها لغة ما ، وطنياً او جنسية . ففي سنة ١٥٥١ ، قدم الامراء الالمان للملك هنري الثاني الوكالة على مدن الامبراطورية التي تتكلم اللغة الفرنسية . وهذا التصرف حمل الملك هنري الرابع على ان يصرح فيما بعد : « أرغب في الصميم ان تذهب المقاطعات التي تتكلم الالمانية الى المانيا ، كما اهم جيداً ان تكون لي كل المقاطعات التي تتكلم الفرنسية » .

غلبت الاصلاح احياناً ، الشعور الديني على الشعور الوطني او القومي ، الاصلاح والامم كما يشهد على ذلك بوضوح ، تاريخ اوروبا بين ١٥٦٠ - ١٥٩٠ . فقد راح اتباع الدين الواحد يظهرون بعضهم بعضاً ، ايضاً كان البلد الذي ينتمون اليه ويحملون السلاح الى جانب ابنا ملتهم ولو كان موجهاً ضد مواطنيهم . غير ان الاصلاح راح يشجع ، على الاجمال

ظهور القوميات . فاسبانيا وحدها بين الدول الكبرى في الغرب ، قضت على الهرطقة الجديدة بسرعة ، وراح الاسبان يعتقدون ، في قرارة انفسهم ، انهم شعب السيد المسيح الخاص وجندا لله . فالقيصرية الاسبانية ، في عهد شارل الخامس وفيليب الثاني اعتبرت نفسها صليبية اسبانية ، فالشعور الديني هنا وطد كثيراً الشعور القومي وقواه .

اما في انكلترا ، فحرب المائة سنة غذت في البلاد شعوراً وطنياً صحيحاً ، انما كان شعوراً فاتراً لأن البلاد لم تكتوِ بنا هذه الحرب ولم تتعرض بويلاتها ، وبقيت الاراضي والممتلكات سالمة لم تتعرض لاعمال السلب والنهب والاستبزاز ، كما ان الاهلين بقوا بعيدين عن ويلاتها . فقد جاء الاصلاح الديني فيها يلهب الشعور القومي في النفوس ويؤججها حقاً وموجدةً على البابا والدول الكاثوليكية . ولم تلبث انكلترا ان اصبحت حامية الاصلاح والمناضلة دونه ضد فيليب الثاني بعد ان تفجرت فيها الروح القومية .

اما في المانيا ، فقد تحسست البلاد بشعور عام ضد العرش وابطاليا ، فقد شطرها الاصلاح شطرين اضعفا من شأنها كدولة ذات بأس ونفوذ . وبعثت حركة الاصلاح فيها الى الوجود ، قوميات جديدة ، تركزت وتراصت دينياً حول اميرها او ملكها . وعلى هذا قس ، الاصلاح في البلاد الواطية ، اذ فرض على هذه البقية الباقية من القومية البورغونية فخلت فيها قوميتين متباينتين .

ففي اواخر القرن نرى الشعور القومي يتغلب ويسيطر في كل مكان ، ففي عام ١٥٩٨ ، يشكو بوسفين من ان الرهبان اليسوعيين الفرنسيين لم يقبلوا برئاسة رئيس ايطالي عام عليهم ، وراح الرهبان اليسوعيون يستبدلون الكتب الاجنبية الموجودة في التداول بينهم بكتب من وضعهم هم . وهكذا فالحركة الانسانية نفسها تأمت ، والفردية القومية فازت بالنهاية وتغلبت على الروح الشعبوية والدينية .

٣ - قيادة الحرب والمير بها

كانت الحرب 'تشهر' رسمياً 'يعلمها نذير الجيش او رائده ، بين الحرب الطوية والحرب القصيرة . اشتهر منهم غويين في فرنسا ، وكلارانس في انكلترا ، وبورغونيا ، لدى شارل الخامس ، فيقوم احد الفريقين المتحاربين بهاجمة الآخر . وقد يحدث احياناً ان ينهض منافس لأحد الفريقين فيحاول التوفيق بين اعداء خصمه ويضرم فيهم الحماسة ويوضع تحت تصرفهم ما يلزم من المال . وكثيراً ما عمد فرنسوا الاول ، حتى في اوقات السلم ، الى تغذية الحقد والضغينة في خصوم الامبراطور شارل ، كما فعل بعد معاهدة كمبريه ، ويؤلب عليه الامراء الالمان الذين يؤلفون حلف شمالكلاند ، والهنگاريين والعثمانيين ، وغيرهم .

التحرم الآسيوية . تجري الحرب في القارة الأوروبية ، يفصلها عن الآسيويين من اترك وتتر ، منطقة حصينة تجملها في منأى عنهم . فقد قامت على جنبات البحر المتوسط سلسلة من الحصون والقلاع ، كهذه الحاميات تقيمها البندقية على سواحل إستريا ودماتيا والبانيا حتى الجزر الايونية ، وفي جزيرة كريت وقبرص ، وهو خط امعن الاتراك في مهاجمته وإيهانه فضعف وتفتت . وهناك خط آخر من الحصون قام على جبهة نابولي وصقلية يؤلف مضيق مسينا منه الباب ، والرتاج . وقام خط آخر من الحصون الاسبانية على طول سواحل افريقيا الشمالية . وقام في البر الاوروي خط من الحصون الالمانية امتد عبر مقطعات كرواتيا والساف الاوسط ونهر الدراف الاوسط ومنطقة فيينا ، والسور الروسي على نهر الاوكها بحاذيا الغابات الظليلة . ومنطقة المدن الحصينة التي اخذت شبكتها بالاتساع والامتداد نحو الجنوب والشرق ، وكلها قلاع وحصون ركزت فيها المدافع لدرء خطر الفرسان بنقضتونها عليها من آسيا . وكانت المسافات والابعاد نفسها سلاحاً يلعب اصلحة المسيحيين . الا ان الصعوبة ، كانت تقوم في تموين هذه الحاميات وتوفير ما يلزم لها من هذا العدد العديد من حيوانات الجر التي لم يكن بد منها . كل هذه العوائق والصعوبات ، سببت الشلل في هذه الهجمات التي اعتاد الاتراك شنها واوهنتها اذ كانت حديتها تتكسر على هذه الحصون وكثيراً ما انتهت الى غير نتيجة .

المعليات الحربية
ليس من جبهة لها مينة
لم تكن للحرب من جبهة مينة بالمعنى الحصري : فالجيوش لم تكن عديدة ، اذ لم يكن المقصود تغطية الحدود التي لم تكن لتتلف عند نقطة مينة . وقد وضعت على مر الاجيال ، شيئاً فشيئاً ، خطوط من الحدود ، في مناطق مينة ، فصر واضمو الخرائط وراسموها على تحديدها ، والحدود التي قامت على نهر السوم ، اثر الاعمال الحربية .

مفراتيجية التتابع
فلما كانت الحملات العسكرية حاسمة ، اذ لم يكن القصد منها اباده جيش العدو كما حدث في معركة ورينيان ، مثلاً عام ١٥١٥ ، وفي معركة بافيا عام ١٥٢٥ ، ومعركة سان كنتان ، عام ١٥٥٧ . ومن النادر جداً ان يحمل ضياع معركة ، العدو على طلب الصلح . ولذا كان من المستحيل محاولة استثمار النصر واستغلال الظرف . فالمسافات الشاسعة وصعوبة تموين الجيوش عن طريق فرقة التجهيزات الحربية ، وتأمين أود الجيوش المحاربة في ارض العدو المستباحة ، كل ذلك كثيراً ما اضطر الجيش سعه الى الانكفاء او التوقف . ولهذا فلما خطت قادة الحرب لهجوم صاعق يبلغ معه الجيش قلب البلاد والمراكز الحساسة فيها . فالجرب هي ، بالاحرى ، حرب حصار ، وضمت مفاصليها على اساس إنناك المراكز التتابع بطريقة منهجية ، وذلك باحتلال الحصون ، ومراكز الدفاع ومستودعات التموين ومخازن الميرة الواحد تلو الآخر ، والانتظار ريثما يضطر العدو لطلب الصلح ، بعد ان تقل لديه الميرة والتجهيزات وتشتد لديه الحاجة للتغذ . فالجرب هي حصيلة آخر ليرة في خزينه الدولة .

ولذا لجمت على المحاربين السمي والعمل لاحتلال ثغور العدو ، وهي بمثابة الابواب
الثغور والنوافذ التي تقضي الى قلب البلاد ، والمسالك الطبيعية التي تؤدي اليها : كمقاطعة
الساقوى - بيامونت مع سوز ، بنيارول وتورين ، ومقاطعة ميلانو ، والسوم الاعلى (سان -
كنتان - برون) مزير ، والثغور المؤدية الى نهرى الموزيل والموز (مدن : ماتز وقول وفردون) .

قطع « المواصلات الحربية الكبرى » اي هذه الطرق التي تسلكها الجيوش ، وقطع
الطرقات موارد النقد على العدو وغير ذلك من الوسائل ، هي من بعض نقاط الخطة الحربية
التي عرضت احيانا للمنيين بامور الاستراتيجية ، وان لم تتضح لهم يوماً بجلاء . وقد جرت محاولات
جريئة ، خلال القرن ، ضد سلسلة المواصلات الطويلة التي ربطت امبراطورية آل هابسبورج ،
في العالم الجديد ، بالبلاد الواطية ، عبر المحيط الاطلسي . فالقرصان الفرنسيون الذين اتخذوا من
رأس سان فنسان في جزر الازور والجزر الخسالدات (جزر كناري) كانوا ينقضون فجأة على
قوافل السفن البرتغالية والاسبانية ويستولون عليها . وفي سنة ١٥٢٢ ، تمكن جان فلوري ، من
سكان مدينة هونفلور ، من الاستيلاء على ثلاث سفن من سفن الكرافيل التي كانت تنقل الكنوز
التي جمعها كورتيس في مكسيكو . وفي اواسط القرن ، اضطر شارل الخامس ان ينظم عبور
السفن في المحيط الاطلسي ، بواسطة قوافل محروسة فاصبحت هذه الطريقة القاعدة التي عمل بها
باستمرار . ثم ظهر القراصنة الانكليز ، امثال درايك وهوكنز وفروبيشر وراحوا يتعرضون
للسفن الاسبانية في خليج برزخ بناما الذي كان صلة الوصل بين الممتلكات الاسبانية في العالم
الجديد على سواحل كل من المحيطين الاطلسي والهادي ، الا ان السفن الاسبانية استطاعت ، مع
ذلك التملص بمحملتها وتقادي الوقوع بين ايدي القراصنة الانكليز ، فبقيت المواصلات بين هذه
المستعمرات مؤمنة ، على الاجمال . وقد قطع الانكليز والهولنديون خط المواصلات بين بلباو
وأفئرس ، منذ عام ١٥٦٨ ، وبقيت الطريق الرئيسية الطريق التي تمر بالبحر المتوسط من اسبانيا
الى ايطاليا لتأخذ الطرق التي تمتد من ايطاليا الى مقاطعات الرين ومنها الى البلاد الواطية ،
مارة بمجازات الألب ومقاطعة الكونتية ، واللورين ، او عبر الازراس والبلاطينا . وفي سبيل
تأمين سلامة هذه الطريق ، راح شارل الخامس يحاصر عام ١٥٢٤ ، مرسيليا ، كما انه هاجم ،
عام ١٥٢٦ ، مقاطعتي البروفانس واللانغدوق . ولكي يتمكن من قطع هذه الطريق ، عند
عقدتها الاساسية راح لوتريك ، عام ١٥٢٧ ، وغيز عام ١٥٥٧ ، يهاجمان نابولي . فبعد عام
١٥٥٩ ، وهبوط شأن فرنسا ، استطاع الاسبان ، ان يستعملوا خط برشلونة - جنوى مباشرة .

الاتصال بين
كثيراً ما وقفت الموارد الاقتصادية حائلاً دون نهوض شارل الخامس
ساحات العمليات الحربية بالحروب التي شنتها على عدة جبهات . فبعد الانتصار الساحق الذي
تاله في افيا ، عجز عن متابعة هجموه حتى حدود فرنسا ، حاسباً حساب الخطر التركي
والاضطرابات القائمة في المانيا ، والمدارة التي انطوى عليها الايطاليون ضده ، وحاجته

الملحة للمال ، كل ذلك فت في عضده . فبعد انتصاره في معركة سريزول (١٥٤٤) احدى قرى مقاطعة البيامونت ، اضطر فرنسوا الاول ، الى سحب بعض فرقته من هذه المقاطعة دراً للخطر الذي يهدد مقاطعة الشيمانيا . والجهد الضخم الذي بذله فيليب الثاني لتأمين النصر على الاتراك في معركة ليبانت (١٥٧١) اضطره هو الآخر للاسترخاء في موقفه من البلاد الواطية . ان تعدد ساحات القتال والاعمال الحربية ، وبطء المواصلات ، والصعوبة التي كانت تمتاز بها جلب الامدادات ، وتأمين الاعتمادات اللازمة للنهوض بالحرب ، في الوقت المناسب ، وتأمين التنسيق والتعاون فيما بين هذه العناصر ، كل هذا يفسر لنا الفشل النسبي الذي لحق بمشاريع شارل الخامس وفيليب الثاني .

لا تزال تقاليد الفروسية ، مرعية الجانب محترمة . فها هو شارل الخامس
اعمال المبارزة
يلصق بفرنسوا الاول تهمة عدم الوثوق به ويدعوه للمبارزة ، فيرد عليه
ملك فرنسا بان الامبراطور يكذب . وهو يقبل التحدي . كثيراً ما نرى زعماء لهم شهرتهم
الواسعة يتبارزون علانية بمرأى من الجيوش ، ايام الهدنة بين الطرفين ، حتى اننا نرى دوق
ده غيز يميز عام ١٥٥٢ ، والحصار قائم حول مدينة متر ، لبعضهم القيام باعمال مبارزة .

كان المتحاربون يحرصون جهدهم ، على اخذ اكبر عدد من أسرى الحرب ، طمعاً
الاسرى
منهم بغدية الافتكاك ، مما ادى الى قيام صفقات ومساومات راجحة . ففسي
سان - كنتان ، اشترى ضابط اسباني من احد الجنود ، نائب قائد الجيش الاعلى في فرنسا .
وكانوا يأخذون بجد السيف كل من وجدوه في قلعة حصار فضل المقاومة على الاستسلام
للعُدو . تكون الحرب جد « موفقة » ، اذا ما تم الاتفاق بين المتحاربين ، على احترام اسرى
الحرب ، وتعيين المبالغ المترتبة عليهم ، وفقاً لمراتبهم . وقد ادخل الاسبان عادة الافراج عن
الاسرى ، اذا ما تمهد هؤلاء او أقسموا الا يعودوا لحمل السلاح من جديد ضد محرريهم .

كثيراً ما حوّل القواد البلاد قفراً يباباً ليحولوا دون تقدم الجيوش
الحرب واعمال التخريب
العدوة وتغلغلها في البلاد (مقاطعة بروفانس ، عام ١٥٣٦ ، مقاطعة
ايسن عام ١٥٥٦) . وكم احلوا للجنود ان يقوموا ، تشفياً وانتقاماً ، باعمال السلب والنهب
والتمثيل والتعذيب والحريق ؟ فقد كان الالمان اسانذة في هذا المجال . ففي كل فوج او كتيبة
من كتائبهم وأفواجهم ، تولى ضابط تنظيم هذه الاعمال وتنفيذها وفقاً لخطة يضعها ويشرف على
الأخذ بها بكل دقة ، فلا يستثنى من القرى والديساكرالا ما دفع منها قدية قفادياً لاعمال التمسك
والابتزاز والاعتصار ، اذا ما تملكوا الاملون عن دفع ما يترتب عليهم او تردوا في ذلك . ومن هنا نشأت
عادة الوصول الى شيء من التفاهم بين سكان القرى ورجال الحرب . فاذا ما ساهم المدنيون بدفع
مساعدات مالية او عينية ، اصبحت قراهم بمنأى من النهب والسلب وغير ذلك من أعمال العنف .

الحبياد
كان من عادة الدول المحايدة ان تسمح للمحاربين المرور باراضيها ، نتيجة لهذا التفتت الجغرافي الذي اصاب اوروبا اذ ذلك . وكان الجانب المتحارب يتعمد خطياً باحترام حياد البلد وعدم مس الاهلين باي اذى ، وذلك عملاً بالقاعدة المرعية *Transitus Innoxius* . أما المقاطعات السويسرية ، فكانت ترفض حق المرور للمحاربين . فمنذ سنة ١٥٢٢ اعلنت مقاطعة فرانك كونتية محايدة لا يجوز اجتياحها ، وفقاً لنصوص المعاهدة التي عقدت بين فرنسا والبلاد الواطية .

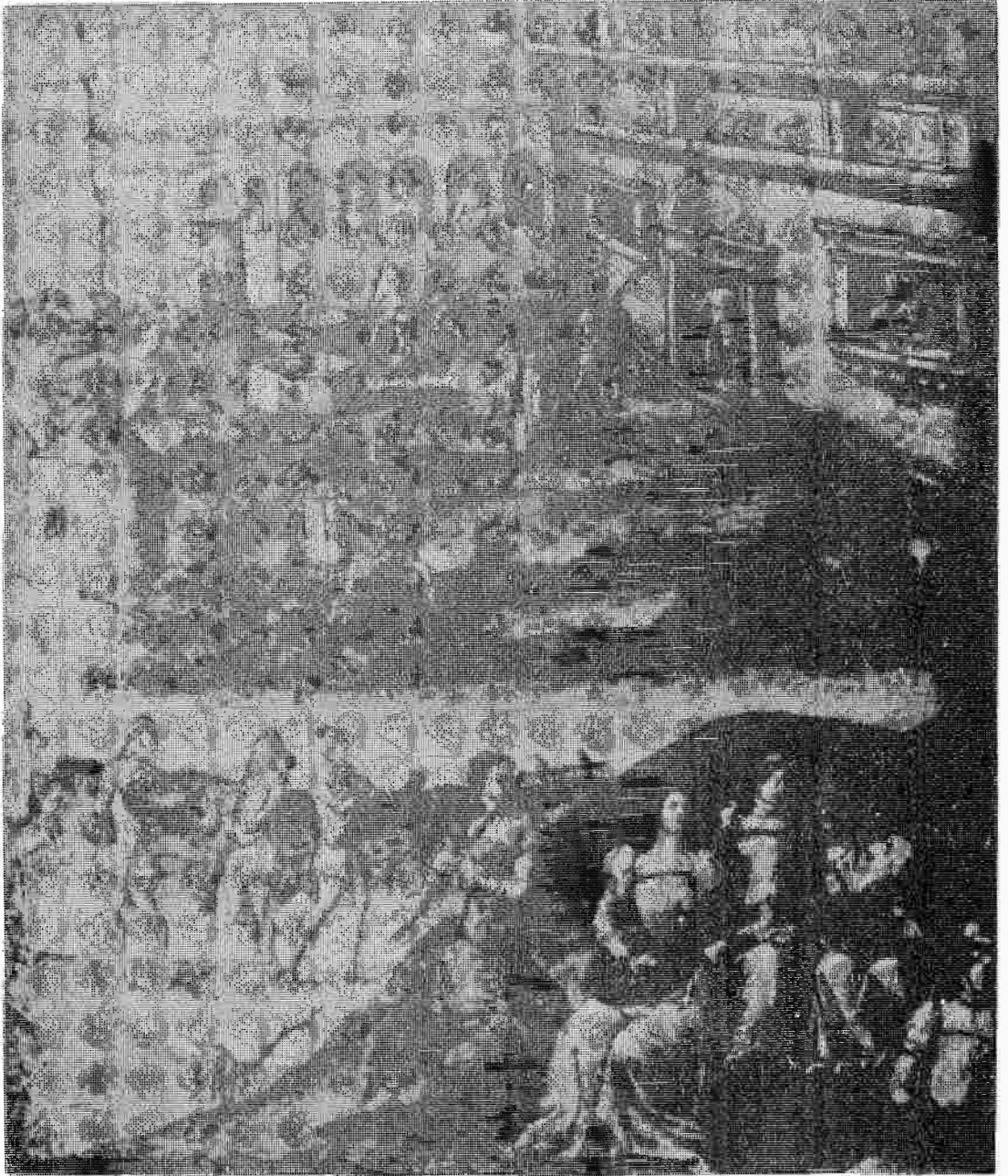
التدخل الاجنبي
من العادات المألوفة ان تتدخل عناصر وقوى أجنبية في الحروب الاهلية الداخلية : فتدخل الفرنسيون في ألمانيا ، والانكليز والبروتستانت الالمان في فرنسا ، والاسبان الى جانب أعضاء المصيبة (*Ligue*) الفرنسية . وتمترف الملكة اليبابات ، عام ١٥٨٠ ، بهذا المبدأ اذ تقول : من الواجب كذلك المبادرة للوقوف الى جانب ابناء المذهب الواحد الواقمين تحت الاضطهاد .

الدعوة للسلام
اطلقت الحروب وما تجر وراءها من الويلات والحن والاحن ، اللسنة والاقلام للطالبة ان لم يكن بوقفها والغائها ، فاقله بالتخفيف من شرورها فقد جاء في كتاب ايراسموس : « شكوى السلام » (١٥١٧) دعوة الى إقامة سلام عام فالحرب تحط من قيمة الانسان العاقل وتنتقص من شأن المسيحي . كل واحد يدعي ان مطلبه هو حق . ولدا كان لا بد من اجراء تحكيم في الامر . فمهما يكن رأي الحكم ، فالقاعدة الذهبية هي ان سلاماً لا يتسم بالعدل خير من حرب عادلة .

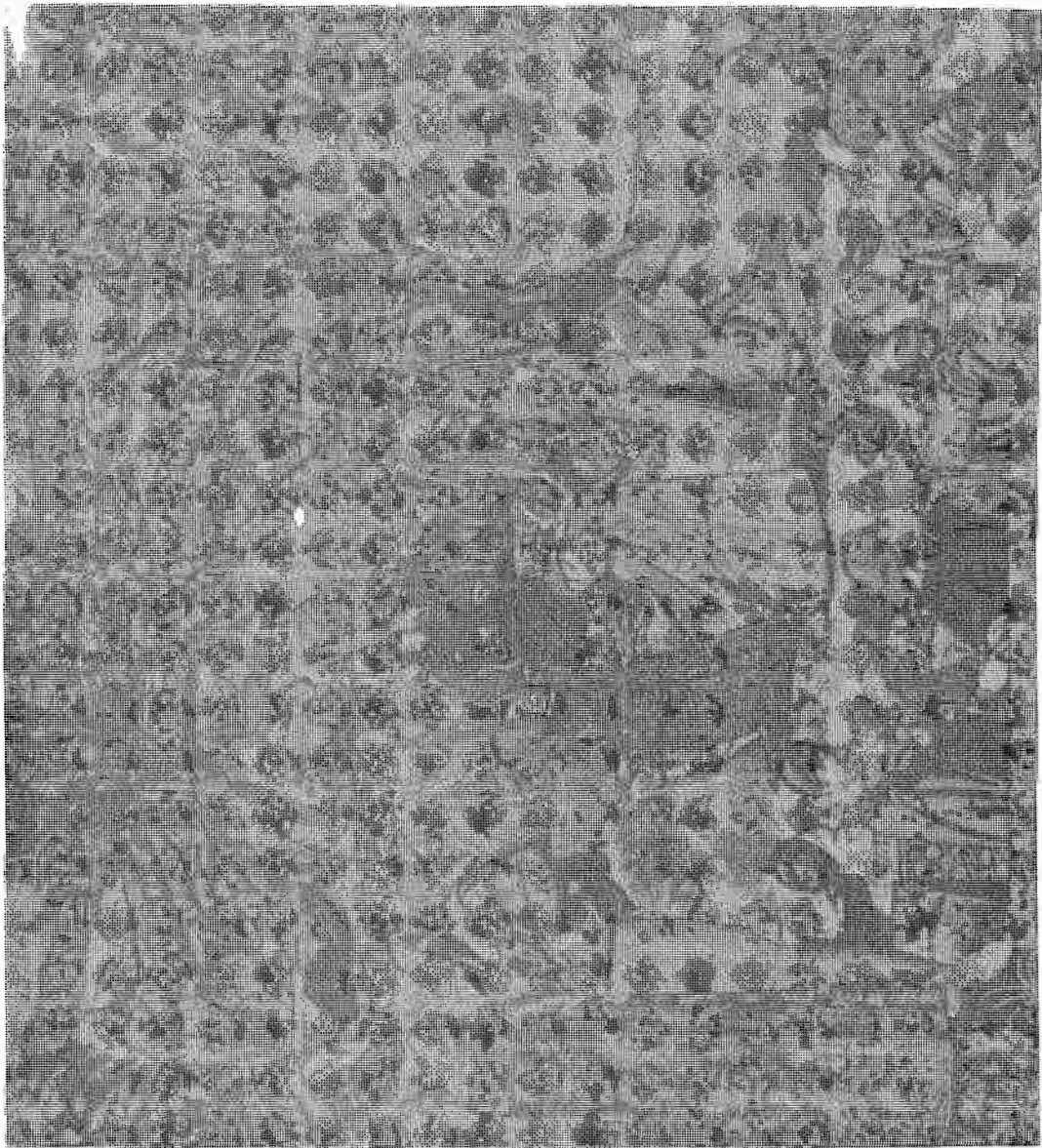
الحق الدولي
أجاز معظم الفلاسفة والمفكرين قيام حرب عادلة ، وكلهم أمل بان يتم إلغاء الحروب وذلك عن طريق إيقاف الضمير الدولي ، وعن طريق الحق الدولي . ولعل اشهر هؤلاء جميعاً هو الاستاذ الكاثوليكي فيتوريو ، احد اساتذة جامعة سلنكا الذي تمثل حلمه في هذا السلام الباسط رواقه على العالم ، هدف الانسانية الاعلى ، كما رأى في الحرب ، الشر الاكبر . ومع ذلك ، فهو يسلم بالحرب اذا كانت ترمي لتجنيب الانسانية شرأ اكبر ، او كانت في سبيل الدفاع عن النفس ، أو رمت الى ارجاع الحق إلى نصابه اذا ما رفض المعتدي التمويض عن الاضرار التي سببها ، أو لانقاذ الشعوب المسيحية ، الواقعة تحت اضطهاد المسلمين . فالحرب ليست بعبادة إذا ما أريد منها نشر الديانة المسيحية بالقوة لان الله لم يكلف أحداً من الناس لينتار باسمه من المظالم التي تقع ، اذ ان الحرب التي يتدلع لهيها تسبب من البلايا والشرور أكثر من تلك التي ترمي الى اجتثاث هذه البلايا . فالدول الأوروبية متساوية ، وكل واحدة منها هي كف، للآخرى ، ومتكافئة الواحدة منها مع الاخرى ، وعليها ان تتعاون لازالة الحيف النازل بها والضرر الذي يصيب الجميع على السواء . « فالبشرية جمعا تذهب فريسة المظالم أياً كان الفاعل ،

فعلى الدول ان تؤمن حرية التجول والانتقال ، ولا تمنع في إقامة الاجانب بين ظهرانيها ، شرط
الا يلحقوا اي أذى أو ضرر بأهل البلاد الاصليين . عليهم ان يؤلفوا جميعاً ، مجتمعاً بشرياً واحداً
وبشرية واحدة .

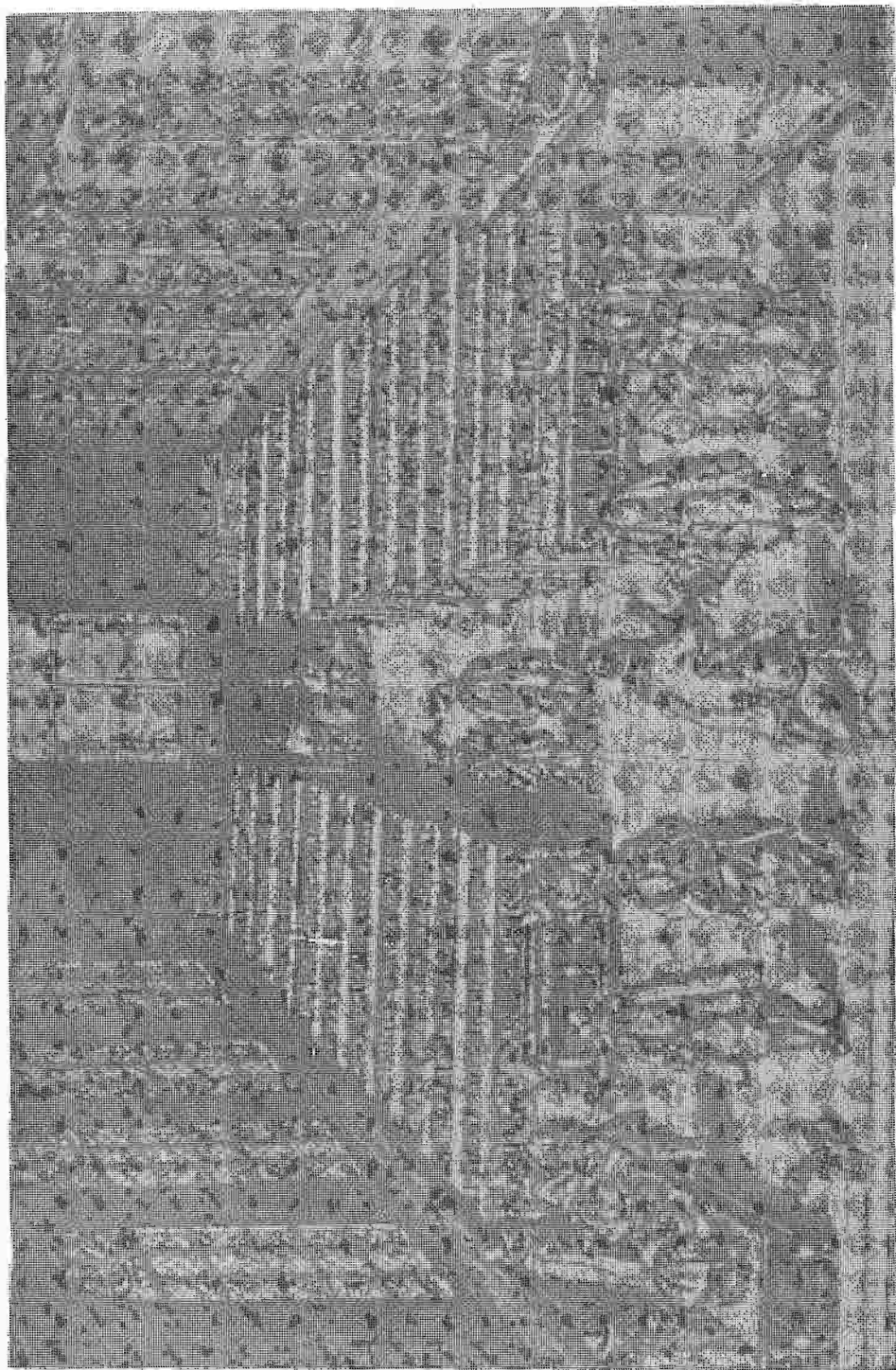
وهكذا نرى كيف ان هذا الجيل حاول ان يطلع من اشتداد الروح الفردية بين الناس ،
وذلك باشاعة المساواة في الحقوق والتضامن وبث الاخوة الانسانية بينهم .

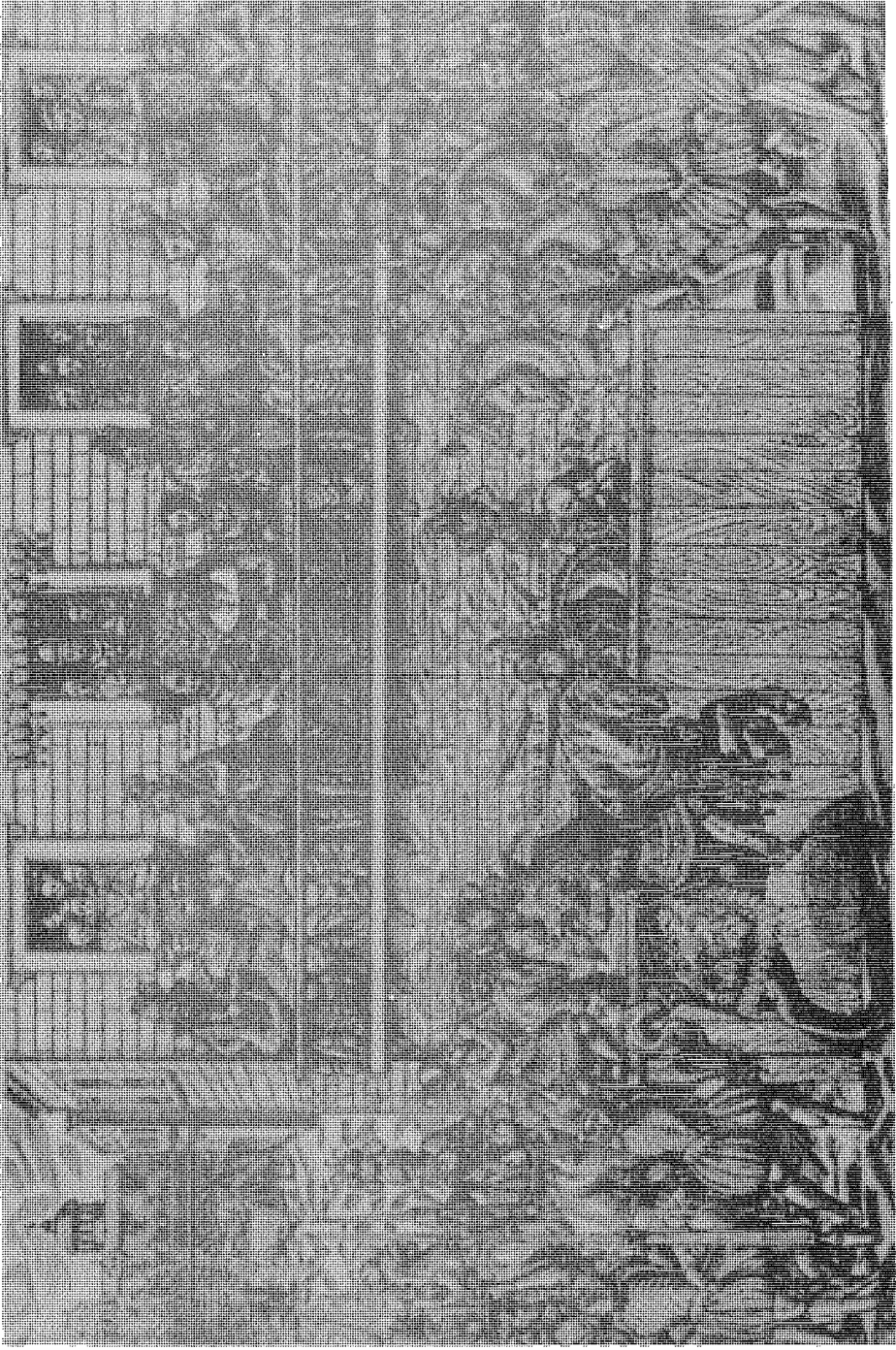


١- الفضلة الموسيقية

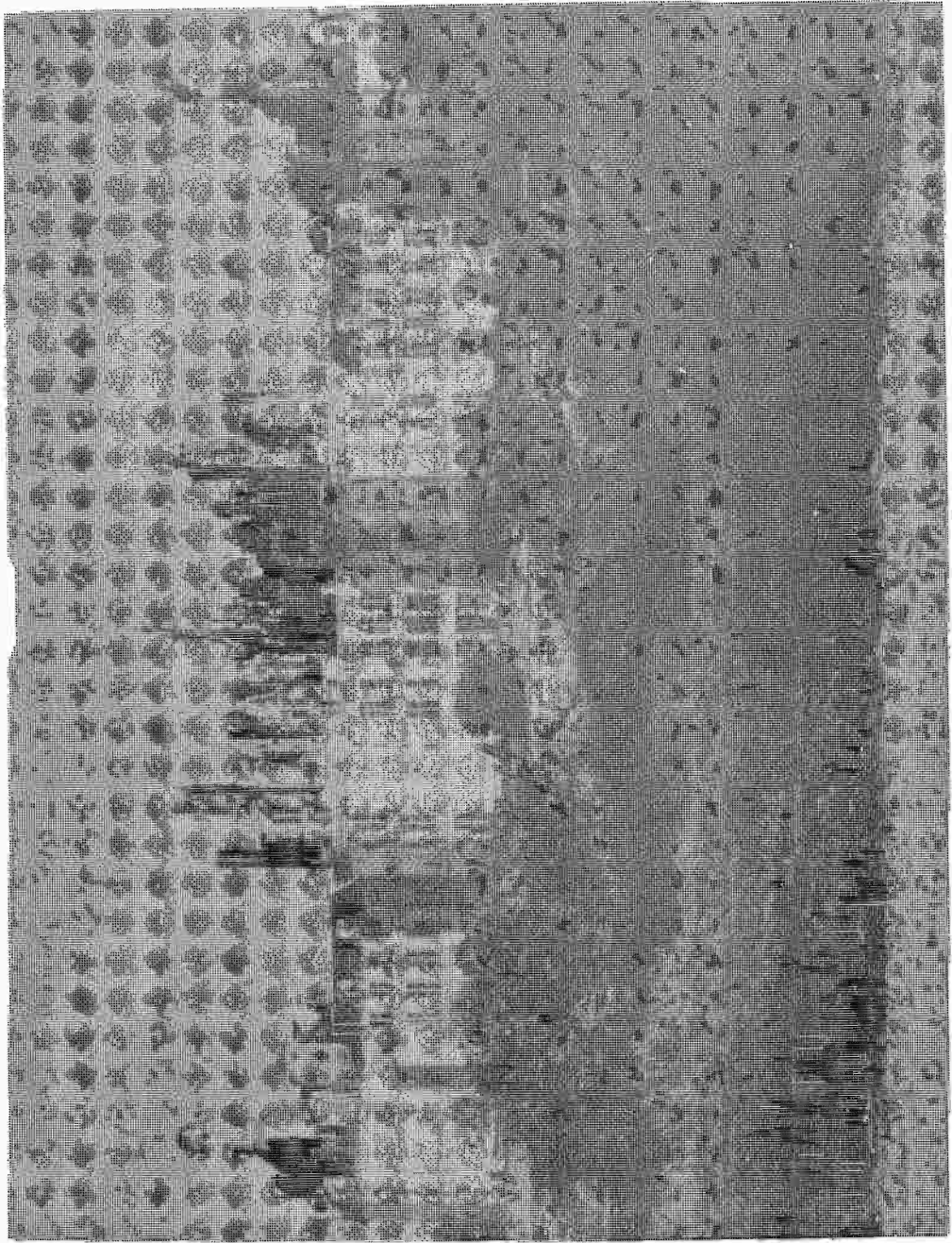


٢- عميد العمياء مغربي الشافعي ولانزون دي مديس اكلنا لسفراء بولونيا

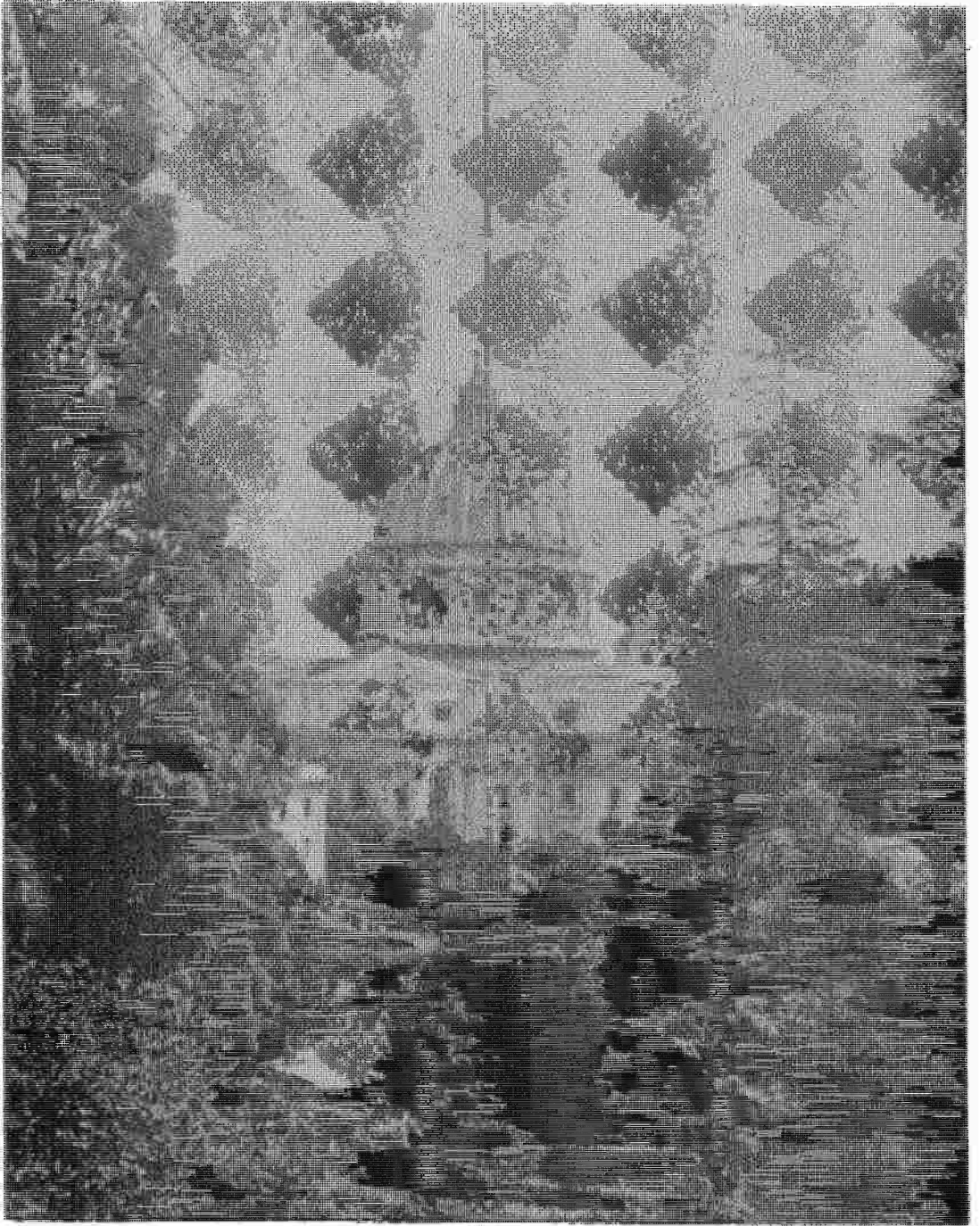




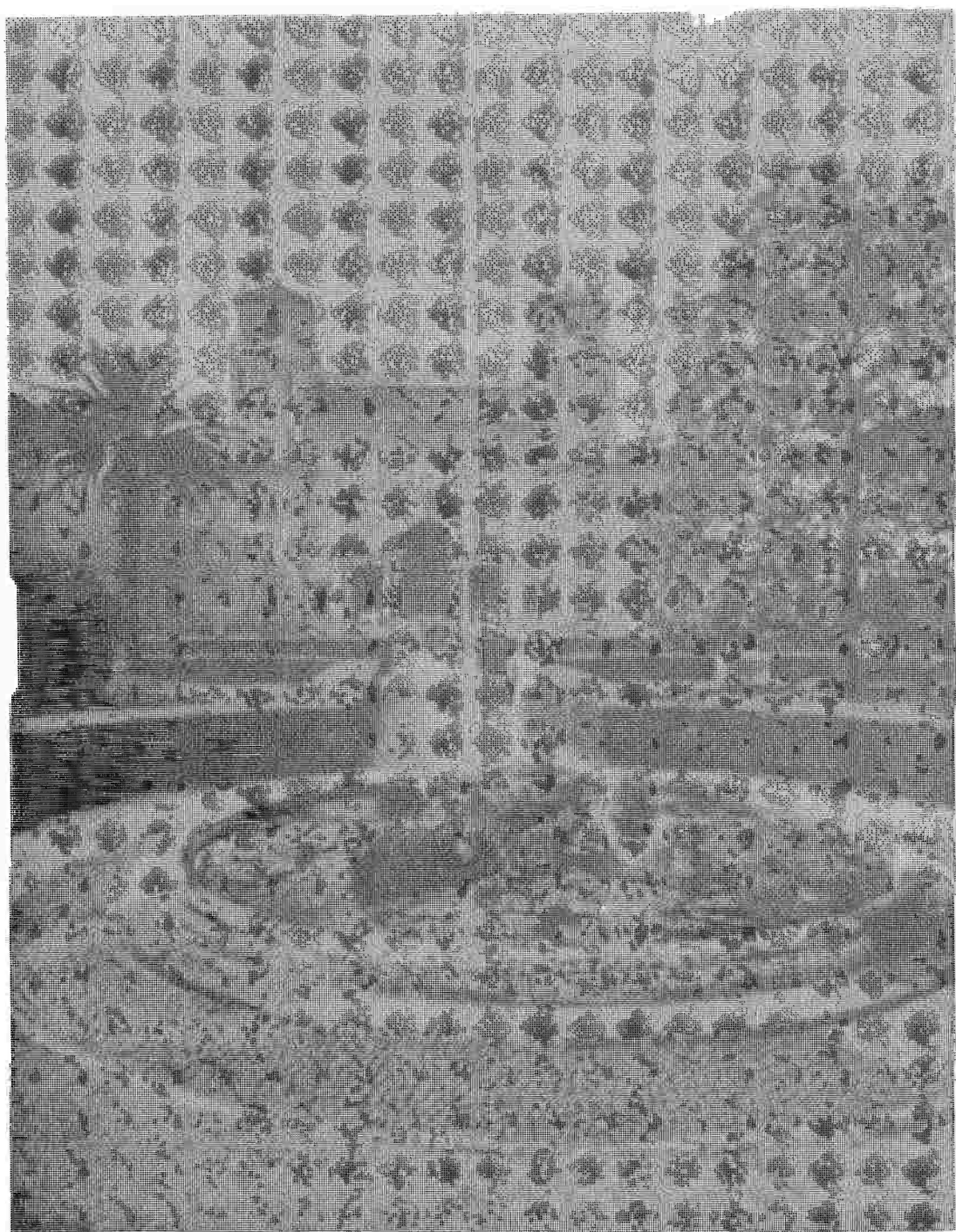
٤ - المباراة التي أصيب فيها الملك صديري الشاذلي بجرح مميت في أكتوبر ١٩٥١ من حوزيران من السنة ١٩٥١



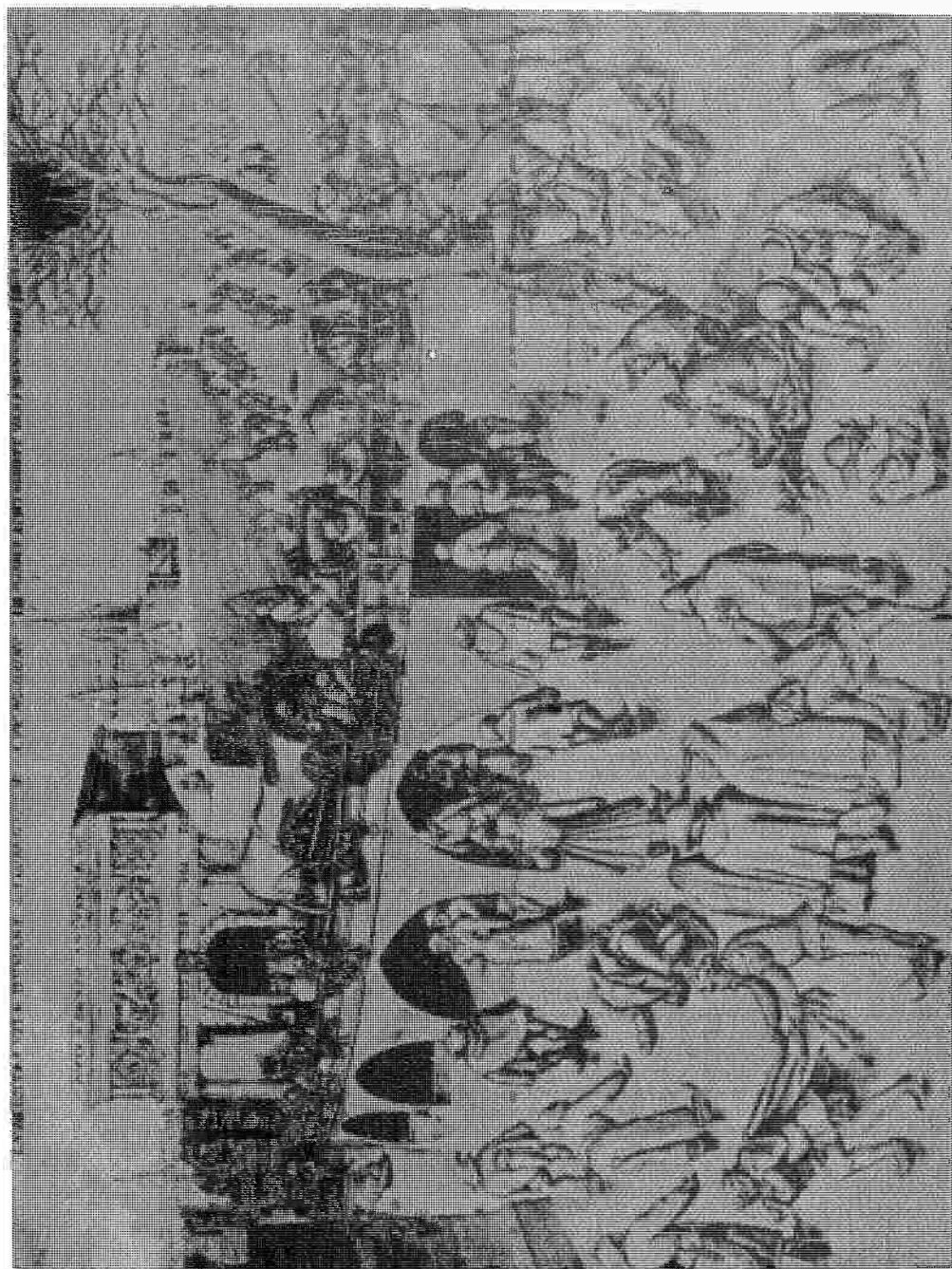
۵- منظر عام لتصميم شامبور



٦- قبة كنيسة القديس بطرس في روما، كما تشاهد من حدائق الفاتيكان



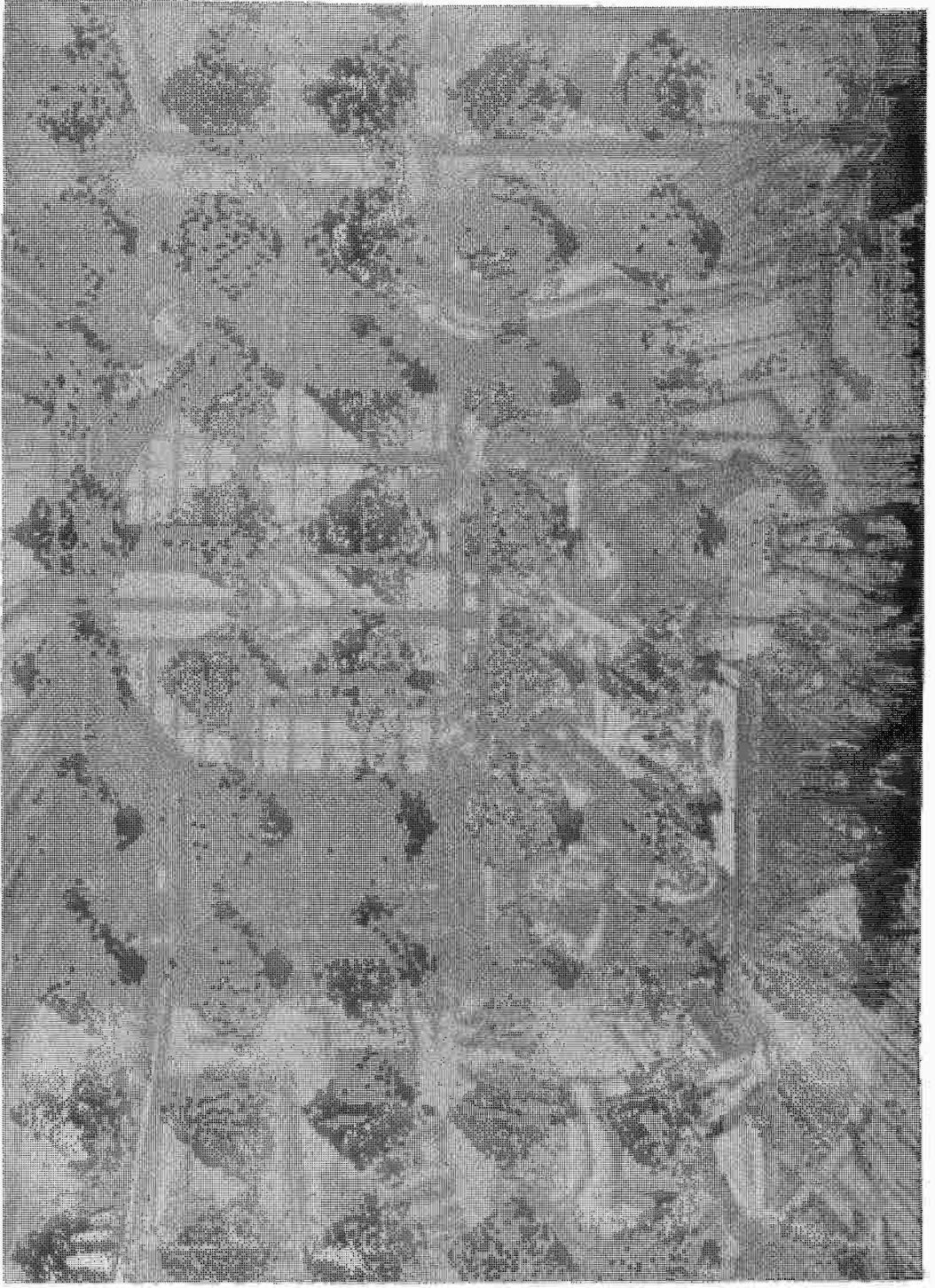
logica Impresio J. H. M. S. 1878.

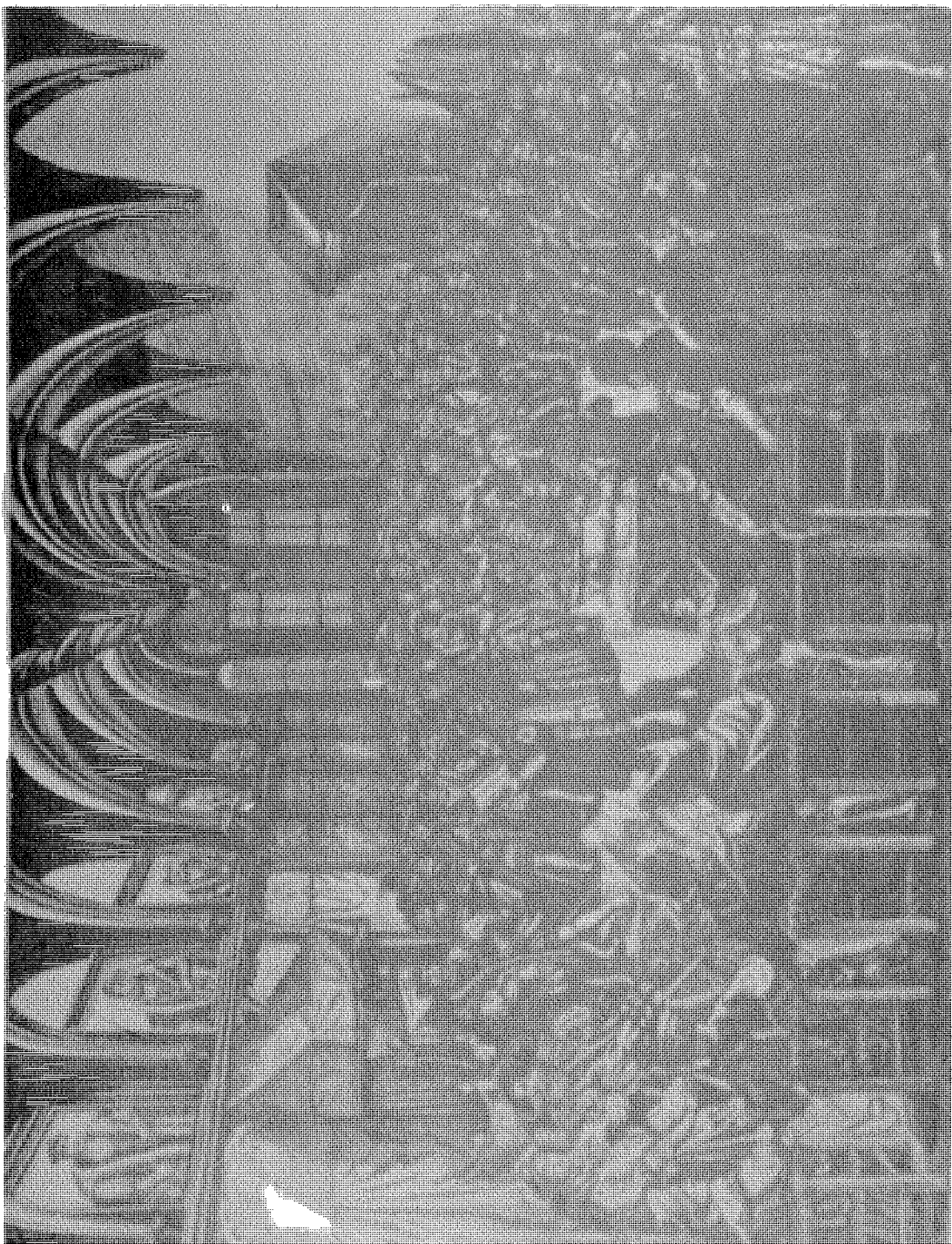


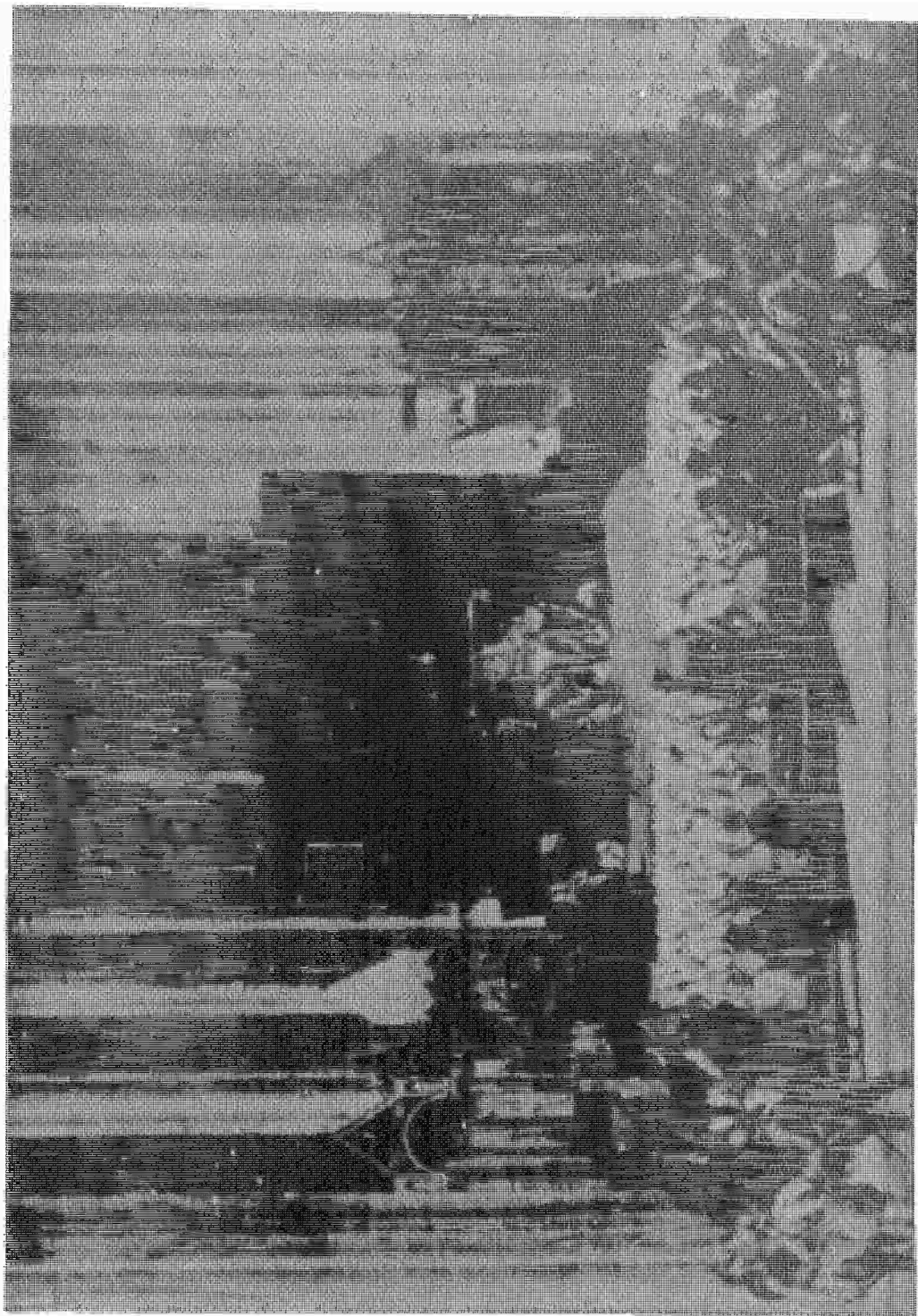
٨ - مترجلون في تجاويف باب كنيسة القديس جرجس في انفرنس (١٥٥٣)

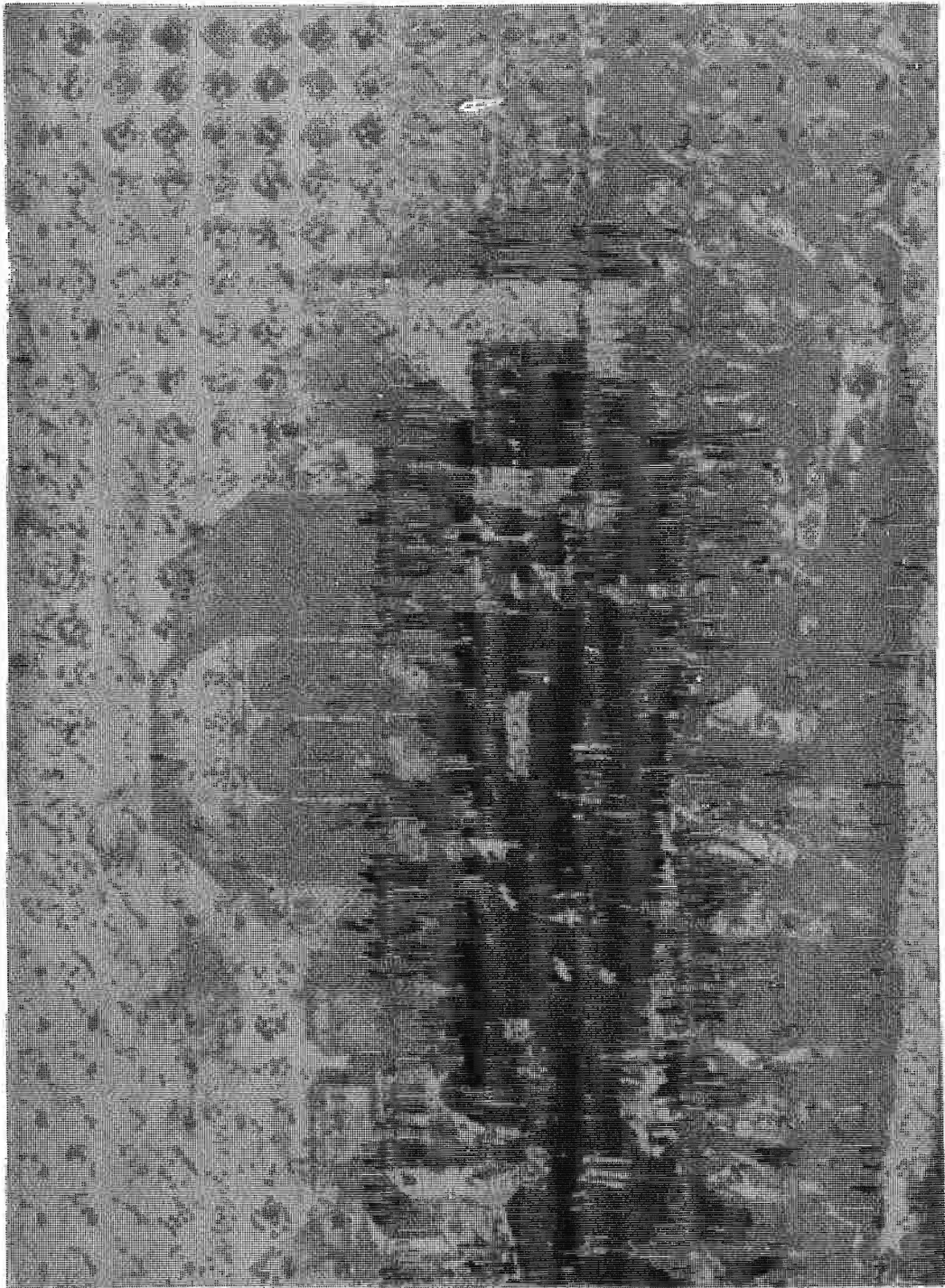


٩ - منحوتة في أواسط القرن السادس عشر

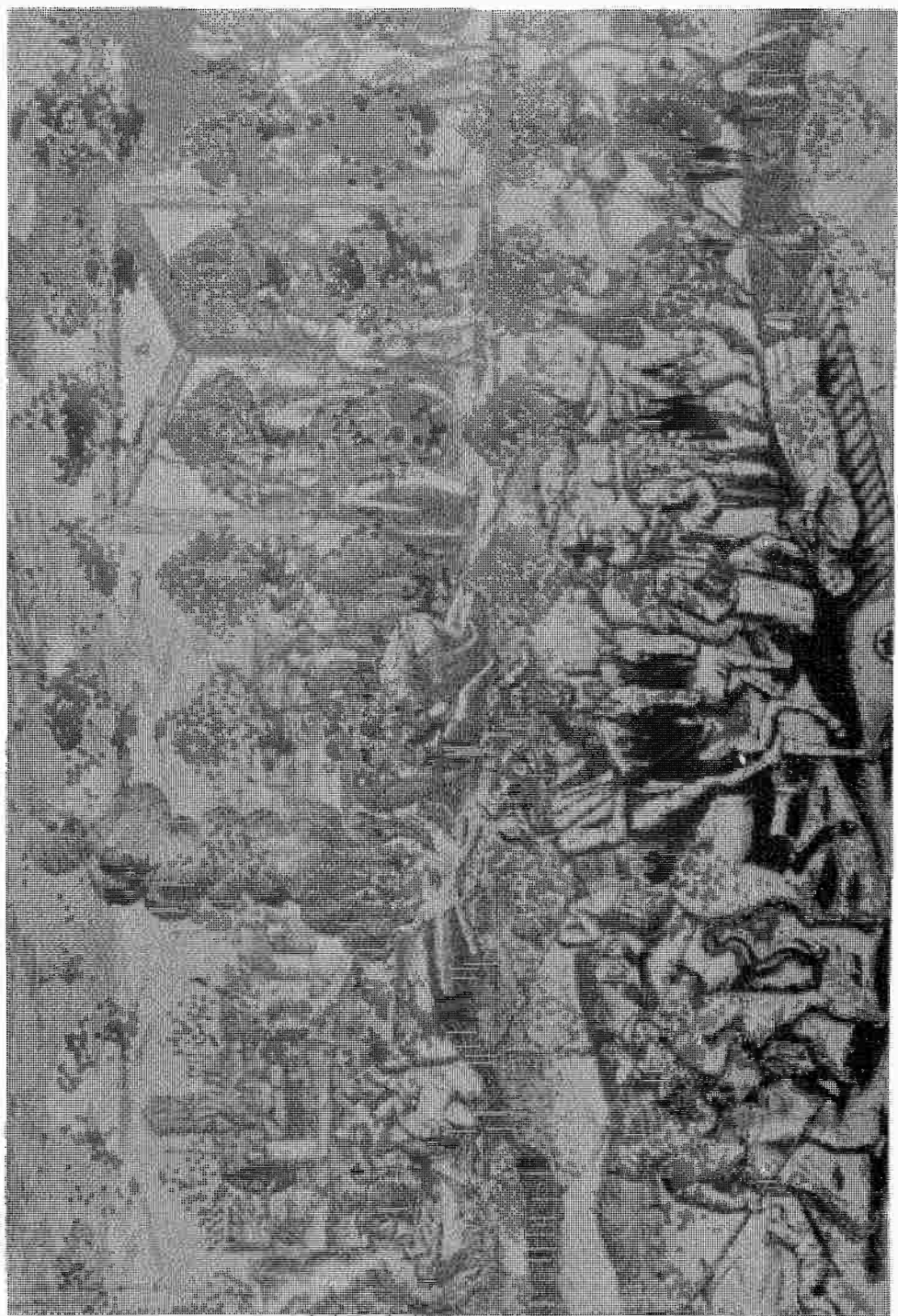


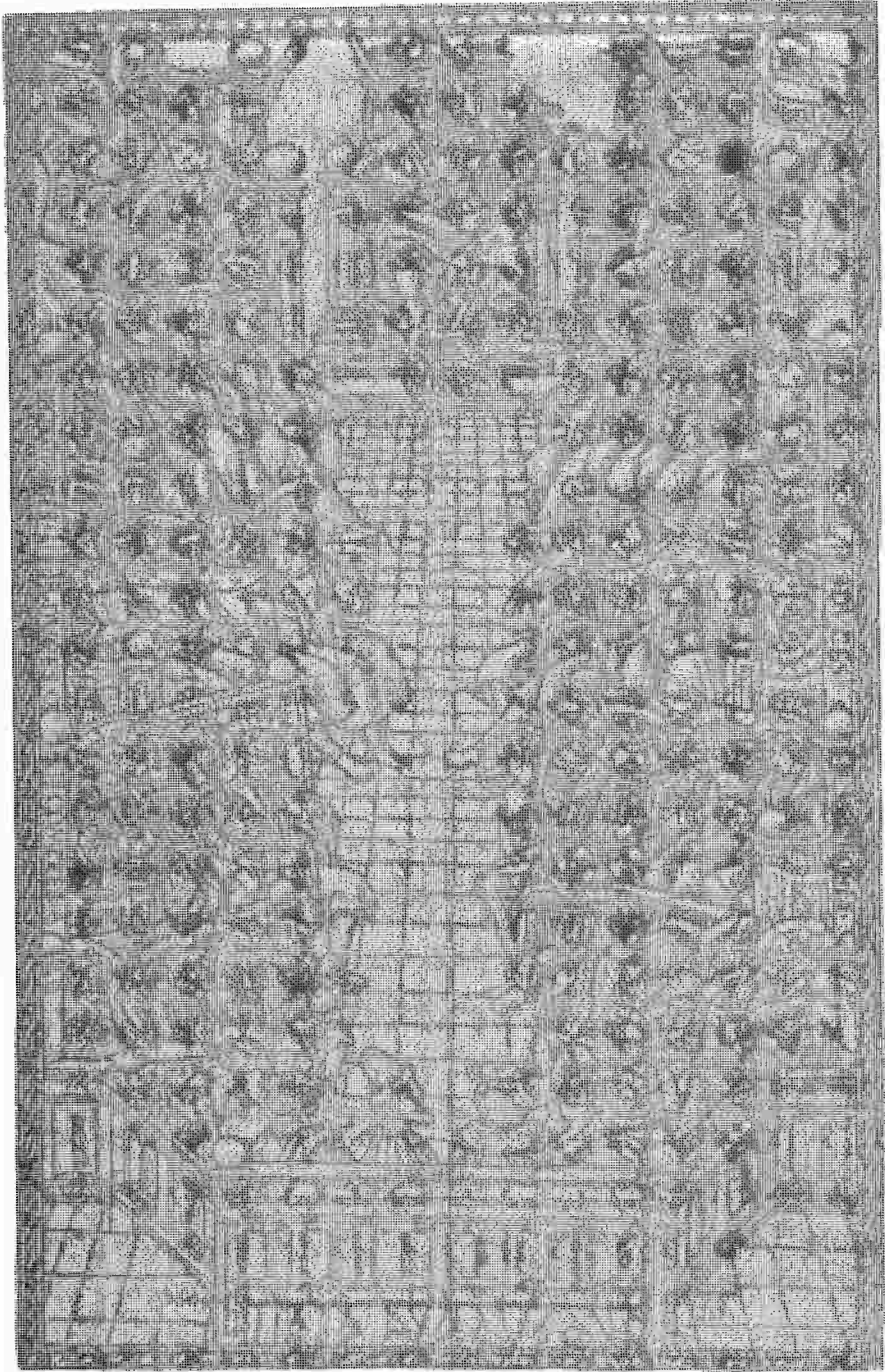




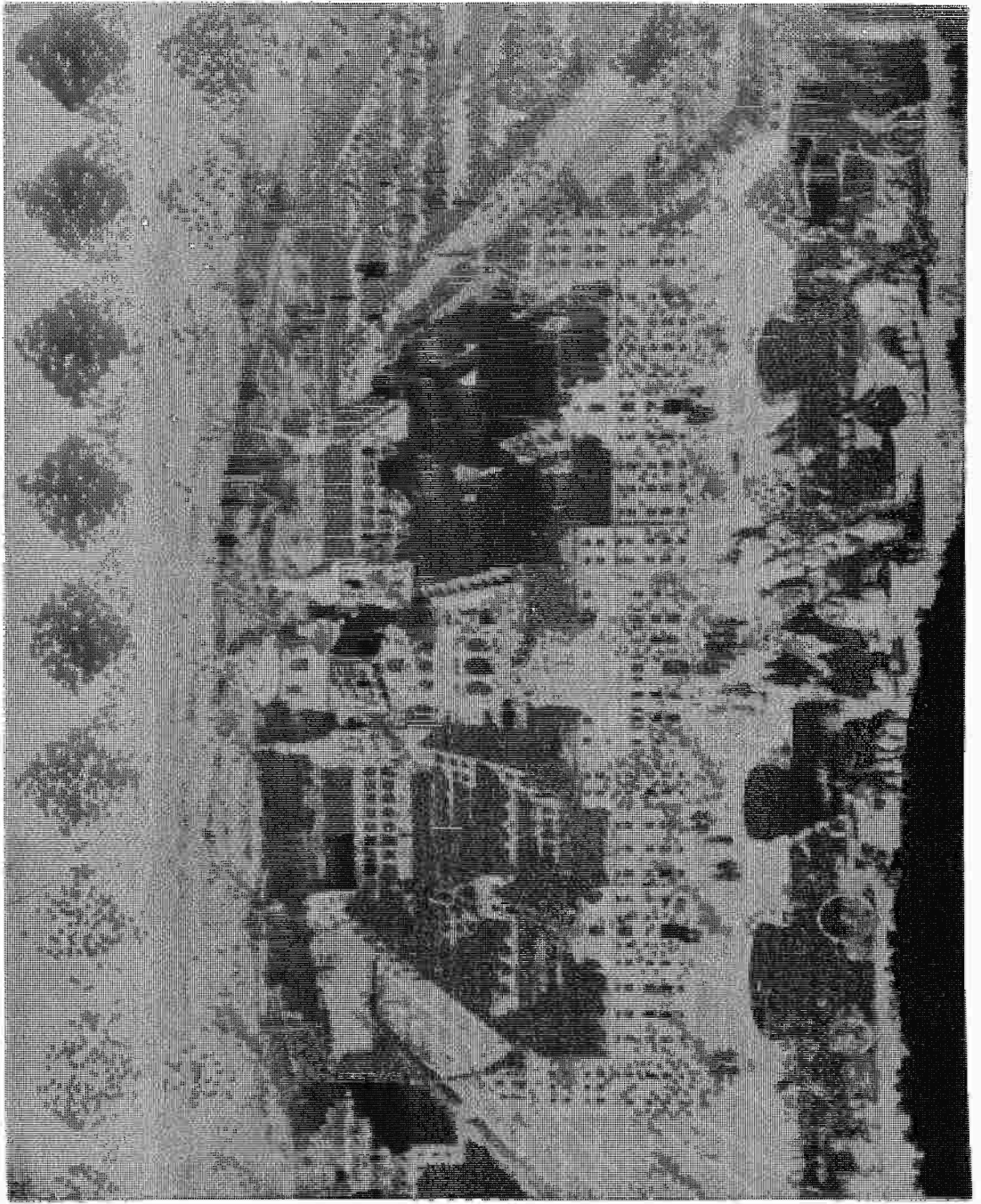


٣٤ - النفطين في إسكافيا ، في فالادوليد





۱۵ - جميعه ملوك اوروبين سرانسة الاميراطور وصلك منما وملك اسبانيا



الكتاب الثاني

القرن السابع عشر

(١٧١٥ - ١٥٩٨)

القرن السابع عشر هو مهد أزمة نزلت بالإنسان في كافة نشاطاته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية والعلمية والفنية ، وفي كل كيانه، أي في أعماق قوته الحسوية وحسه و ارادته . وكانت أزمة مستمرة ، اذا صح التعبير ، تتميز بثورات عنيفة احياناً . فان نزعات متناقضة « قد تجانبت طويلاً وتشابكت معاً وانصهرت حيناً وتصارعت حيناً آخر ، دون ان يكون في معتركها تحول او تاريخ حاسم يسهل تحديدهما . وهي لم تتجانب في اوروبا في عهد واحد فحسب ، بل في الدولة الواحدة والطبقة الاجتماعية الواحدة والانسان الواحد ايضاً ، الذين خيم عليهم التناقض والانشقاق . فالدولة والطبقة الاجتماعية والانسان يناضلون لاستعادة النظام والوحدة الى بيئتهم والى ذاتهم . انها لمركة ضارية مستمرة ، في سبيل توازن زائل ابدأ ، تقدم فيها اوروبا على تحول حاسم ، وعلى تعديل النوع كما يقول بعضهم ، وعلى هذه الطريق التي يستهويننا تخيلها والتي قد تنتهي الى السمو وتخطو خطوة كبرى الى الامام في الدم والدموع والالام النفسية المبرحة ، وفي الامل والثقة والبهجة .

الفصل الأول أزمة القرن

١ - الازمة الاقتصادية

ان ما خلفته النهضة الاقتصادية، والتطور الجديد في الاسعار، قد ابرز بقوة المساوي، الدائمة التي ينطوي عليها نظام تناسل وزراعة لم يتبدل قط في خطوطه الكبرى، منذ القرن الرابع عشر حتى اواخر القرن الثامن عشر. باستثناء نقاط معدودة (هولندا والاقالم المتحدة، انكلترا الوسطى، أزراس، الخ.) .

فالاقتصاد ما زال زراعياً، وعدد السكان يميل أبداً الى تجاوز السكان ومواد التغذية امكانات التغذية، والمجاعة تنتشر عملياً مع ما تتصف به من شمول مفاجيء، يستوقف الانتباه بين حين وآخر. ولا غرو فالسكان لم يحدوا الولادات. وليس نادراً ان تضم عيلة واحدة ٢٠ او ٢٢ ولداً، وكان من الممكن جداً ان يتضاعف عدد السكان في اقل من خمس وعشرين سنة لولا الارتفاع الهيب في نسبة الوفيات. ومرد ذلك الى ان التقنية الزراعية لم تسمح بعد بإنتاج يسد الحاجة.

لما كانت الضرورة تقضي بتقنية عدد كبير نسبياً من البشر، كانت الزراعة^(١) التقنية الزراعية الاساسية زراعة «البلاد» أي الحبوب، الحنطة والجاودار والشعير والقرطمان والذرة البيضاء والحنطة السوداء والذرة الصفراء، اذ ان الحبوب هي الانتاج الزراعي الذي يوفر اكبر كمية من الوحدات الحرارية في وحدة مساحة معينة. والفلاحون يزرعون في الدرجة الاولى الحبوب التي ندعوها اليوم بالثانوية، الجاودار، القرطمان، الخ.. لان محصولها في وحدة مساحة معينة يفوق محصول الحنطة الى حد بعيد، لا سيما في الاراضي المجدبة،

(١) ففي انكلترا المتقدمة صناعياً على سواها، قدر ان اربعة ملايين ونصفان اصل خمسة ملايين، اعتمدوا الزراعة سيلاً للعيش، حوالي سنة ١٦٨٨.

وتقوم التغذية بنوع خاص على الحساء والخبز . وفي سنوات الاقبال يستهلك الناس مزيجاً من الحنطة وحبوب اخرى . خبز الحنطة مادة بدخية ؛ اما خبز الجاودار فوقف على ذوي اليسار من المستهلكين . ولكن الحبوب تستنزف قوى اخصاب التربة بسرعة . لذلك فقد عمد الفلاحون الى اراحة الارض ، سنة بعد سنة في الجنوب ، وسنة بعد سنتين في الشمال ، على ان استراحة الارض قد تستمر سنوات أحياناً . وكان المحصول متوسطاً ، أربعة أو خمسة للواحد أحياناً ، واثنين أو ثلاثة غالباً . ولا عجب في ذلك فالاسمدة غير متوفرة والزبلة نادرة . وكانت الماشية قليلة العدد ، لان الاراضي يحرث جلها ولان المروج والمراعي ضيقة رقعتها . ولم يفكروا بالاستفادة من الارض المراحة بزراعتها بمحاشيش تغذية المواشي ، الا في هولندا ، وما كانوا يستطيعوا الى ذلك سبيلاً ، على كل حال ، لان عرف المراعي العمومية الذي اجاز لكل فرد ان يرعى ماشيته في الاراضي البائرة ، كان يحول دون ذلك . وكان فراش الماشية من الموص على غير كثافة : فقد استخدم الموص للاغمية ، واللبن والحصير والكراسي ، وحتى كوقود للافران . اضيف الى هذا ان العمل لم يكن متوفراً . وكانت الحيوانات هزيلة لا تقوى على العمل الطويل . واستخدم الفلاحون محارث غير مجهزة بالمحجلات تحدش الارض خدشاً بدلاً من ان تفلحها ، او محارث غير معدة للارض التي يطلب منهم زراعتها . فبحث الزارع عن التهويز عن نقص الاسمدة وعن التقنية بالاكثر من البذار . فحسر بذلك الحب وخسر الموسم لان مصير الجذوع النابتة كان الضعف والذبول بفعل تراصها . ولم يعمد الى تنظيف الحبوب وغسلها بالكلس للحؤول دون مخزها . وعند الحصاد اعوزته اليد العاملة . اما الحصاد فالمنجل اداته الاولى واستخدامه عمل طويل وشاق . وكان حتى التقاط السنابل وراء الحصادين يستهوي العديد من الناس لأن نتيجته لم تكن دون العمل نفسه مما زاد في ندرة وجود العمال . وخارج فصل الحصاد لم يكن العمل متوفراً للجميع . فلم يكن السكان من ثم مشغولين بعلاقة متينة الى الارض ، فتشرد العديد منهم هائمين على وجوههم .

توزيع السكان يتضح بالتالي ان سوء التغذية قد آلى ، عند سواد السكان ، الى ضعف الصحة والموت في سن مبكرة . فقد تراوح معدل الاعمار بين ٢٥ و ٢٥ سنة . وكان نصف الاطفال يموتون قبل ان يبلغوا السنة من عمرهم . اما الباقون فعالباً ما كانوا يموتون بين الثلاثين والاربعين سنة . ولم يتجاوز الملوك انفسهم والاسياد العظام وكبار البورجوازيين ، على الرغم من تغذيتهم الجيدة ، حدود الـ ٦٥ سنة . بيد ان هذا الجيل لم يكن بالجيل الفتي لان شيخوخته سريعة الخطى . فالرجل يصبح كهلاً في الاربعين . وفي المناطق الفقيرة قد تكون الفلاحات ، في سن الثلاثين ، متفضنة و متمكنة كالمجائز . ويحافظ عدد السكان على مستوى غير مرتفع ، لانه ما ان يرتفع حتى تدنى كمية الغذاء للشخص الواحد وتزداد نسبة الوفيات . لم يتجاوز سكان انكلترا الملايين الخمسة ، وبلغ سكان فرنسا ٢٠ مليوناً كحد اقصى اي بكثافة ٤٠ في الكيلومتر المربع . يضاف الى ذلك ان هذه الاعداد

عرضة لتبديلات كبيرة جداً .

إذا كان الحصاد سيئاً، ارتفع ثمن الحبوب ، وتحول مستهلكو الحنطة الى الجاودار نسبة الوفيات ومستهلكو الجاودار الى الحبوب الاخرى . لذلك فان اسعار الحبوب الدنيا ترتفع اكثر من الحبوب النبيلة والطبقات الشعبية هي التي تتأثر اكثر من غيرها . قد لا ترتفع نسبة الوفيات في السنة الاولى لان تأمين أود المعيشة يدفع الفلاح الفقير الى بيع بقرته والصناعي الى بيع ادواته وارثك الذين خزنوا بعض المواد الى استهلاكها وبيع بعضها . اما اذا عقب الحصاد السيء الاول حصاد سيء آخر فتلتشر الجماعة مع ما يرافقها من اوبئة ، « الطواعين » الجسدري ، والتيفوس ، والكولرا ، والطاعون بمناه الحصري ، وكلها امراض تسدو وكأنها امراض الاقاليم الحارة بصورة خاصة مع انها امراض واقع حضاري قبل اي شيء آخر . يتدنى عدد الولادات ، ويرتفع عدد الوفيات وقد يبلغ ٣٠٪ من السكان في سنة واحدة ، ويصيب الموت الارياف اكثر من المدن : اذ ان البلديات تستطيع تخزين المواد وشراءها في المناطق النائية والبورجوازيين يملكون الاراضي وبالتالي المؤن الشخصية . ثم ان الموت يصيب الفلاحين والصناعيين اكثر من النبلاء والضباط واعضاء المهن الحرة والتجار . وقد يشمل الهول احياناً دولاً كاملة او مناطق شاسعة من اوروبا . تلك هي الجماعات الكبرى التي اثرت في نخبة المؤرخين : في فرنسا جماعات السنوات ١٦٢٩ - ١٦٣٠ ، و ١٦٤٨ - ١٦٥١ ، و ١٦٦٠ - ١٦٦١ ، و ١٦٩٣ ... ١٦٩٤ . بيد ان سنة واحدة لا تمر دون ان تحدث جماعة في بعض المناطق . ومن المسير جداً التقلب عليها بمعالجة او مداواة ، وربما كان من العبث والخطر توزيع مداخيل الاغنياء على الفقراء . فهذه المداخيل كانت كمية مهمة اذا ما قيست بعاجات مجموع السكان . وكان ذلك بمثابة اضعاف جميع الاهالي للتساوي في البؤس ، في حال ان موت الاغنياء والميسورين قد يؤدي الى تفويض الاطارات الاجتماعية ، وبالتالي الى المزيد من الولايات والفوضى والى تسدن جديد في مستوى حياة المجموع ، وتقهقر في الحضارة . اجل لقد جلبا الناس الى الشراء من المناطق الغنية ولا سيما من « البلدان الجديدة » ، بولونيا وليتوانيا . ولكن صعوبة النقل البري وارتفاع اكلافه لم يسمحوا باستحضار المواد المتباعدة الا الى الاماكن القليلة على مقربة من طريق مائية وكانت هذه المواد تصل متأخرة وبكميات محدودة وباسعار باهظة . الا انها قد حالت دون وفيات كثيرة بفعل عظمة مقاومة الانسان . زد على ذلك ان تنمية المصناعات اليدوية والصناعات الريفية المنزلية الصغرى كانت تعني زيادة في كمية النقود التي تدخل البلاد وفي قدرة الطبقات الدنيا على الشراء . ولكن السكان ، في السنوات الحيرة ، كانوا يزدادون بازدياد الموالي وتدني الوفيات ، فيصبحون اشد تأثراً بالسنوات الماسحة . وباستطاعتنا التساؤل هنا عما اذا لم يؤد تقدم الصناعات ، وهو نتيجة النمو الرأسمالي للنهضة الاقتصادية ، الى طبع وضع هذه المجتمعات بمزيد من التقلب وعدم الاستقرار . وهكذا فان عدد السكان كان يتأرجح بسرعة نسبية بين حدود ثابتة . ولا يبدو ان سكان فرنسا الذين لم يتجاوزوا قط العشرين مليون نسمة قد هبطوا

يوماً الى ما دون ١٢ - ١٤ مليوناً .

المجاعة والازمة الاقتصادية النتيجة الطبيعية للمحول هي الازمة الاقتصادية : فهي تشوش الحياة الزراعية وتقتل العملة وتقضي على اعمال فصل الصيف وتؤدي الى احوال الاراضي وتكوين طبقة كادحة بائسة لا قدرة لها على الشراء . وبفعل ارتفاع الاسعار الزراعية يقلتل النبلاء والبورجوازيون من نفقاتهم . وتنتشر البطالة في المدن وتشل حركة البيع لدى اصحاب الانوال والحوانيت ولدى التجار احياناً . يزول الكسب ويستحيل توظيف الاموال ، ويزيد المحول الدوري من التقلب الاقتصادي العام ويمجد حركة الاقتصاد .

ان التقلب الدائم هذا ، الذي يرد الى النظام السائد ، قد ازداد خطورة في حركة الاسعار القرن السابع عشر بازمات ظرفية مردها الى حركات الاسعار . فقد عقب الارتفاع السريع والمستمر في القرن السادس عشر فترة من الارتفاع البطيء ثم من الانخفاض ولا سيما من التقلب البارز في الاسعار .

النقص المتزايد في المعدن الثمين في الواقع تأخر انتاج المعادن الثمينة في العالم كله . ويعتقد « سوتير » بان هذا الانتاج اخذ بالانخفاض منذ السنة ١٦٢٠ . ولكن ما يلفت الانتباه بصورة خاصة هو ان المعدن الملقى في التداول ، اذا ما قيس بالمعدن الذي سبق انتاجه ، يمثل نسبة مطردة الانخفاض . فبينما يتضاعف مخزون المعدن الثمين عشر مرات في الارجح خلال القرن السادس عشر ، لم يتضاعف سوى مرتين في القرن السابع عشر ، فبرزت بزيد من السرعة الحاجات الى النقد للمبادلات التجارية . ويرى « هاملتون » ان استيراد المعادن الثمينة من اميركا الى اسبانيا ، وهو المصدر الرئيسي لتموين اوروبا عن طريق الاتجار مع اسبانيا ، قد بلغ الذروة ما بين السنة ١٥٩١ والسنة ١٦٠٠ (فضة : ٢٧٠٧٦٢٦ كيلو) ثم اخذ بالهبوط . وزادت سرعة هذا الهبوط بعد السنة ١٦٣٠ (١٦٣١ - ١٦٤٠ ، فضة : ١٣٩٦٧٥٩ كيلو) . اما بعد السنة ١٦٥٠ ، فقد انهار الاستيراد انهاراً (١٦٥١ - ١٦٦٠ ، فضة : ٤٣٣٢٥٦ كيلو) . واذا كانت الفضة المستوردة الى اسبانيا منذ السنة ١٥٥١ حتى السنة ١٥٦٠ تمثل ٢٠٪ مما استورد منها منذ السنة ١٥٢١ حتى الفترة المذكورة ، فان الفضة المستوردة منذ السنة ١٦٢١ حتى السنة ١٦٣٠ لا تمثل في الظروف نفسها سوى ١٨،٧٪ ، والفضة المستوردة ما بين ١٦٥١ و ١٦٦٠ ، ٢،٨٪ فقط . يضاف الى ذلك ان قسماً من هذا المعدن كان يجمع ويكتنز ، وقسماً آخر يجمد في اعمال الصياغة وقسماً آخر يصدر الى آسيا تسديداً للمشتريات الاوروبية .

الارتفاع البطيء ثم الانخفاض في الاسعار ان ما نشاهده اذن في اوروبا هو ، على العموم ، ارتفاع بطيء جداً حتى حوالي ١٦٢٥-١٦٦٠ . اما المستوى الادنى الذي تبلغه

الاسعار فيمكن تحديد فترته ما بين السنة ١٦٦٠ والسنة ١٦٨٠. يلي ذلك ارتفاع لا يذكر بين السنتين ١٦٨٠ و ١٧٠٠ ثم انخفاض بسيط جديد بين السنتين ١٧٠٠ و ١٧١٥. ولكن الانخفاض اعظم شأنًا مما يبدو في عدد من البلدان اذا نحن لم ننظر الى الاسعار الاسمية المعبر عنها بالنقد المتداول فقط ، بل نحسبها على اساس وزن المعدن الثمين المقابل. وفي الواقع فاننا نرى تضخمًا نقدياً في بلدان كثيرة ، المانيا واسبانيا منذ الثلث الاول من القرن ، وفي فرنسا في القسم الاخير منه . فالمبلغ نفسه من نقد التعامل غذا يقابل ، في القطع النقدية ، معدناً ثميناً اقل وزناً . وكثيراً ما يحدث ، والحالة هذه ، ان يكون الارتفاع الاسمي انخفاضاً في الواقع .

وهكذا فان الارتفاع الاسمي حدث في مونيخ في السنة ١٦٢٢ ، وهو الذروة التي بلغت فيها الاسعار ، هو في الواقع هبوط سقطت خلاله الاسعار بالمعدن الثمين الى ما كانت عليه بين السنتين ١٥٥٠ و ١٥٦٠ . فحوالي ١٦٦٠-١٦٧٠ كانت الاسعار في الواقع ، في هذه المدينة ، ادنى منها حوالي السنة ١٥١٠ . وخضعت بعض البلدان ، كانكلترا وألزاس ، الى حركة عامة على بعض الاختلاف ، ففي انكلترا لا يزال الارتفاع سريع الخطى حتى حوالي ١٦٤٠-١٦٥٠ . وتلي ذلك على العموم فترة من الاستقرار النسبي . بيد ان الارتفاع الذي صدق في النصف الاول من القرن قد توقفت حدته توقفاً يلفت الانتباه . فهناك ١٦٥ نقطة زيادة بين السنتين ١٥٥٠ و ١٦٠٠ ، بينما ليس هناك سوى نقطة فقط بين السنتين ١٦٠٠ و ١٦٥٠ . واذا نظرنا الى حركة تجارة اشبيلية مع اميركا الاسبانية ، وهي ما يقاس به جزئياً مدى نشاط اوروبا الاقتصادي بالثمن والاسواق ، اتضح لنا ان سببها ينكش بانخفاض الاسعار . ففي نصف المقد ١٦٠٦ - ١٦١٠ بلغت الواردات ٢٧٣٥٦٠ برميلا بينما هي لم تبلغ سوى ١٢١٣٠٥ براميل فقط في نصف المقد ١٦٤٦ - ١٦٥٠ . وتوقفت حركة التجارة عن التقدم حوالي ١٦٠٨-١٦١١ ثم اخذت تخفف بوضوح خلال السنوات ١٦١٩-١٦٢٢ وتدهورت اخيراً في السنة ١٦٣١ . وفي منتصف القرن ، بلغ النقص ٥٠ ٪ . ويبدو بعد السنة ١٦٤٠ ان الانخفاض في القيم كان اسرع منه في الاحجام . وسلكت الاسعار الطريقة نفسها . فهالك تبدل متواز قد لا يسمح لنا بالكلام هن سببية حقيقية ، ولكن ذلك محتمل اذ ان عنصراً اساسياً من تجارة اميركا الاسبانية نحو اوروبا كان المعادن الثمينة ، التي تقلصت كمياتها .

بطء الانطلاقة الراحالية . لقد نتج عن ذلك ، في معظم الحماه اوروبا ، بطء في الانطلاقة الاقتصادية التلقائية وفي انطلاقة الرأسمالية . فان ارتفاع الاسعار يؤدي الى نقص في حجم الكسب . وتلفد آفاق المستقبل بعض جمالها في نظر الرأسمالي الذي يبيت اقل اقداماً . ويتدنى عدد المشاريع الجديدة وتضائل حركة تقدم المشاريع الراحنة ، ويتقلص حجم الانتاج . اما حين لتدنى الاسعار فيقبل الكسب وقد يزول بالكلية . فيسيطر التردد على متعهد المشروع الذي يحاول تحديد نفقائه ويسرّح العمال . وينقص الانتاج وتنتشر البطالة . ويتضخم عدد المشردين . وتضطر المشاريع الصغرى او المشاريع التي لا تزال في طور

التأسيس الى اقفال ابوابها . ولا تصمد سوى المشاريع المجهزة تجهيزاً حسباً . ولكن الصعوبات عظيمة . ويجب البحث عن التحسينات التقنية التي تؤدي الى تخفيض سعر الكلفة . فيمكننا القول ، اذا استعنا بتمبير « سيمباند » ، ان المرحلة A في القرن السادس عشر قد عقبها مرحلة A على بعض البطء ، ثم مرحلة B .

تطلب الاسعار واسبابه ولكن القرن السابع عشر نفسه قد عرف ايضاً تقلباً خفيفاً في الاسعار وفي تأرجح الارتفاع والانخفاض يفوق الى حد بعيد ما حدث في القرن السادس عشر . وفي العدد الاكبر من البلدان برزت هذه التأرجحات الموسمية والدورية (عشر الى عشرين سنة) الضخمة منذ اوائل القرن . فهناك في كل مكان تقريباً ، حوالي ١٥٩٥-١٦٠٠ ، انقلاط وانخفاض عظيم حتى حوالي ١٦١٠-١٦١٥ ، ثم تدوم التآرجحات القسوى بعد ذلك طيلة القرن . ولا يسعنا القول ان الارتفاع الذي طرأ في القرن السادس عشر يتأدى طيلة الثلث الاول من للقرن السابع عشر الا في انكلترا وبعض الاقاليم الاوربية الضيقة . فنحن في المناطق الاخرى امام ارتفاع من نوع آخر . لا بل ان انكلترا نفسها ، بعد ١٦٤٠-١٦٥٠ ، عرفت شأن غيرها نظام التآرجح في اقصى ابعاده .

ليس باستطاعتنا بعد ان نمثل هذه الظاهرة تمليلاً وافياً . فجل ما نستطيعه توفير بعض عناصر التفسير فقط . ليست الحروب اسباب هذه التقلبات اذ ان مرور الجيوش وحده كاف لان يؤثر في الاسعار اذا ما اخذنا بعين الاعتبار ان المقايضات دون مقايضات اليوم شأنها الى حد بعيد وان الاسعار تختلف كل الاختلاف في وقت واحد بين منطقة واخرى ، ولا يطرأ ارتفاع عظيم على الاسعار الا اذا اصطدمت الجيوش في الاقليم نفسه . ولكن يجب ان نأخذ بعين الاعتبار الظروف الجوية السيئة طيلة سنوات عدة ، ونتائج الحصادات الماحلة التي تدفع بالاسعار الى الارتفاع حتى عودة الطقس الجيد والجنياث الوفيرة . ويجب كذلك ان نأخذ بعين الاعتبار ازدياد عدد السكان الذي يضاعف الافواه الواجب تغذيتها ولا سيما وان المنطقة تجمع العديد من الممال والصناعيين ، ويسبب ارتفاعاً في الاسعار الى ان تصبح حصة الشخص الواحد غير كافية والى ان « تحد » الوفيات من الطلب وتؤدي بذلك الى انخفاض الاسعار . وقد ثبت بالدليل ، فيما خص المانيا الجنوبية ، ومدن مونيخ واوركسبورغ ونورمبرغ بنوع خاص ان الاسعار كانت ترتفع فيها بازدياد عدد السكان ، وان انطلاق الزيادة كان يسبق ارتفاع الاسعار . وهكذا فان جهود الدول في سبيل تنمية صناعتها كانت سبباً في زيادة السكان وعاملاً من عوامل تقلب الاسعار احياناً . ويجب اخيراً ان نأخذ بعين الاعتبار الاعمال في الحقل القدي . فلم تعد الدول الكبرى لتجد الموارد الضرورية لتقود المعادن الثمينة التي تستوجبها سياستها ؛ فلجأت بصورة طبيعية الى التضخم . واصدرت الحكومات الاوامر بإعادة النقود الى دور ادارة المالية . واعدت شكلها بالقيمة الاسمية نفسها دون كمية المعدن الثمين عينها ، او اعطتها قيمة اسمية عليا دون ان تنقص فيها نسبة المعدن الثمين . واصدر بعضها كميات

كبرى من المسكوكات النحاسية واعطتها قيمة اسمية تحكّية ومرتفعة جداً بالنسبة لقيمة النحاس المستعمل (اسبانيا) . وهكذا سددت الحكومات بسهولة ما توجب عليها للدائنين وتجار الاموال والموظفين والجنود والمتمارين ، ولكنها غدت بدورها ضحايا هذا التدبير عند جباية الضرائب . وجر التضخم الى ارتفاع الاسعار . وزاد من هذا الارتفاع ان النقد السيء يطرد النقد الجيد . فالقطع النقدية الاجنبية ، من ذهب وفضة ، تتوارى عند ظهور القطع النقدية النحاسية . كما ان الافراد لا يضعون في التداول سوى النقد السيء وحده . وهم يفرضون سعراً مرتفعاً اذا حوسبوا بالنقد السيء فارغمت الحكومة بسبب حدة ارتفاع الاسعار ، على تخفيف التضخم . فخفضت قيمة النقود الاسمية وانهارت الاسعار . وهكذا فان تضخم السنة ١٦٢٦ في اسبانيا عقبه تخفيف السنة ١٦٢٨ ، وتضخم السنة ١٦٤١ تخفيف السنة ١٦٤٢ .

أثره المشؤوم في الاقتصاد يستدل من ذلك ان القرن السابع عشر ليس مرحلة B حقيقية . في هذه المرحلة تتدنى الاسعار بانتظام مع تأرجحات متضائلة . وهذا يعني انها مرحلة شاقة دون ان تتسم بطابع الكارثة . فباستطاعة المشاريع ان تبذل الجهود لتحقيق انتاج افضل ، وتقدم تقني يغدو مصدر رفاهية عند عودة البجوحة النقدية . وباستطاعة الاجور ان تصمد في وجه تخفيف التضخم ، كما باستطاعة بعض الطبقات الناشطة ، ان تنجو من البؤس والمفاجآت . وهذا ما حدث ، على ما يبدو ، في اقليم فالنيس الالبيرية . ولكن القرن السابع عشر ، في معظم انحاء اوربا ، يبدو واقفاً على شفير الكارثة . فان ارتفاع الاسعار بسرعة قصوى قد حد من الاستهلاك وتسبب في ازيمات الصفقات الخاسرة وادى الى البؤس والالم ، وقد لا يتمكن اغني المتهمدين من الاستفادة دائماً من هذا الوضع بالاستعاضة عن تدني المبيعات بمضاعفة المكاسب وتجميع رؤوس الاموال لتابعة توظيفها في المشاريع . فمرحلة ارتفاع الاسعار قصيرة الاجل ، يعقبها الهبوط ، فيزول الكسب ، ويسرح المتهمد عماله ، ويتأخر عن تسديد الدائنين اموالهم . اضع الى ذلك ان تأرجحات الاسعار لا تترك مجالاً لاي تقدير . فيسيطر اليأس على المتهمدين ويقرون بمعجزهم . ويستحيل تحسين المشاريع ، لابل ان الكثير منها ينتهي الى الزوال .

فالقرن السابع عشر هو من ثم ، بين مرحلة ارتفاع الاسعار في القرن السادس عشر والمرحلة الممثلة في القرن الثامن عشر (بعد ١٧٣٠) ، مرحلة ازمة مستمرة مختلفة الحدة .

٢ - الازمة الاجتماعية

ان المنازعات الاجتماعية ، التي تنميا النهضة الاقتصادية ، لا تتبدل طبيعة ، بل تشتد حدة . فهناك فئات بوجوازية تسير قدماً في تقوية شأنها بالنسبة للطبقات الاخرى ، بسرعة اخف منها في القرن السابق ، ولكن بصورة ثابتة اكيدة .

المثال الفرنسي
تحويل رؤوس الاموال الى العمليات
المالية الرسمية
وارتقاء رجال المال والضباط

غير انه يبدو ، في فرنسا والدول المماثلة لها ، وبسبب عدم الاستقرار الاقتصادي ، ان ذلك قد تم خصوصاً باستغلال حاجات الدولة المتعاظمة التي يتوجب عليها تأمين موارد دخول جديدة والحصول على سلفات لمواجهة نفقات الحرب بسرعة . ويبدو ان العمليات التجارية والصناعية ، وهي اقل فائدة وضمانة ، قد لعبت دوراً قليل الأهمية نسبياً . فهم رجال المال وموظفو الدوائر المالية من جهة ، وموظفو القضاء والشرطة من جهة ثانية ، من برزت اهميتهم الاجتماعية بصورة خاصة .

ان موظفي المالية ، ولا سيما خزنة فرنسا العظماء ، هم كبار دائني الملك . فهم يؤمنون له المال بفائدة باهظة بانتظار جباية الضرائب . ولا يتورعون عن التعلل بتأخير جمع الضرائب حتى يقرضوا الملك ماله الخاص . ويشركون في عملياتهم بعض اعيان الاقليم فيستجمعون بذلك رؤوس الاموال المحمّدة ، اما رجال الاموال الذين يعقدون اتفاقات مع الملك فيلتزمون بجمع الضرائب غير المباشرة وادارة الاحتكارات واستثمار أملاك الملك وبيع الوظائف العامة والمناصب . ويسهم في عملياتهم ، من طرف خفي ، بعض النبلاء والقضاة والتجار . وقد انصرف رجال المال انصرفاً مطرداً عن التجارة والصناعة . وحين اعوزت هنري الرابع رؤوس الاموال للمصانع الملكية اضطر الى ارغام « زامت » و « دي مواسه » و « بوله » الى تقديم مبالغ غير ذات أهمية نسبياً .

بيعت الوظائف العامة على تفاوت في النسبة ، في كل مكان تقريباً . الا ان بيع المناصب في فرنسا قد بات نظاماً وبلغ الذروة . فالملك يحدث ويبيع مناصب عديدة ، وهو انما يصدر بذلك صكاً بدخل تدفقه الدولة : فالضباط مثلاً يستوفى فائدة رأسماله رواتب وتوابل وحقوقاً ومواد مسعرة . ويفرض الملك دورياً على الضباط ، لقاء دفعة من المال ، زيادات على الرواتب ليست في الواقع سوى قروض اجبارية . فلما كانت المبالغ الواجب دفعها باهظة جداً ، يضطر الضباط الى البحث عن الدائنين فيمسي بمجموع الضباط وكأنهم آلة ضخمة مهمتها تعبئة رؤوس الاموال المحمّدة لخدمة الخزانة الملكية . ولكن الملك ، مقابل ذلك يتيح للضباط في النهاية جعل مناصبهم وراثية . وقد اضيف الى حق الاستقالة وتعيين الخلف نظام هو اشبه ما يكون بالتأمين على الحياة ، يضمن الوظيفة للعائلة اذا كان للضابط ولد في سن الخدمة ، او رأس المال الذي يمثله المنصب اذا لم يكن للضابط اولاد . فبعلي من ثم ان طبقة الضباط باجمعا قد توطدت وتمكنت .

ارتقاء التجار الصناعيين
ولكن طبقة التجار - الصناعيين استمرت في الارتقاء . ففي باريس غدا
ارباب الهيئات - الست (صانعي الاجواخ ، والعطارين - الصيادلة ،
والعقادين ، وصانعي القلنسوات ، والفرائين ، والصاغة) من كبار التجار . كما ان « سنكتو »

و « نقول له كامو ، الذي جمع ثروة تقدر بتسعة ملايين واستولى دفعة واحدة على ٢٠٠٠٠٠ دينار من الفضة في سوق فرنكفورت الدورية ، وصانع الاجواخ « كلود بارفكت » ، وتاجر الانسجة ، الخفيفة ادوار كولبير عم الوزير العتيد ، وكثيرين غيرهم في كافة المدن الكبرى ، اسسوا مصانع لانتاج المدافع والاسلحة وملح البارود والفروش والحرائر والاجواخ والادوات المعدنية . واقتنوا الاراضي ودفعوا بعائلاتهم الى وظائف الدولة والمدينة والكنيسة . فعين اخو « شارل بارفكت » خازن فرنسا ثم رئيساً بديوان النقود وتولى افراد عائلته وظائف هامة في ادارة مدينة باريس . وهكذا انضمت عائلات الصناعيين والتجار الى عائلة الضباط في ممارسة الوظائف العامة واشتركت كلها مع عائلات النبلاء في امتلاك الاقطاعات .

ان ما نشده جميع هؤلاء البورجوازيين هو النبالة وشرف النسب . النبلاء ضد البورجوازيين فهم يعمشون ، في الدرجة الاولى ، « عيشة الاشراف » دون اي نشاط مأجور ويمارسون الجندية : الجد تاجر والاب ضابط والابن جندي . كثيرون من قضاة المحاكم العليا اشراف ، الرؤساء فرسان والمستشارون حاملو سلاح . ويتوفق بورجوازيون كثيرون الى الحصول على براءات شرف . ولكن نبلاء الجندية القدامى يمتقنون هؤلاء الخانوقتين البلهاء الذين لم يحسنوا التخلص من ذنوبهم . وقد اوصدت ابواب المناصب في وجه نبلاء - الجندية لانها غدت وحقاً على ذوي الثروات . لا بل ان الملك اخذ يعين المزيد من البورجوازيين حتى في الوظائف التي لا تباع بيعاً . فبورجوازيون هم باغليبتهم منذ هنري الرابع أعضاء المجلس الملكي السياسي الذين كانوا اشراف جندي في الدرجة الاولى في عهد هنري الثالث . وبورجوازيون هم امناه سر الدولة اولاً والوزراء تدريجياً امثال « كولبير » و « لوفوا » . ولكن البورجوازيين ، اسبداً اشراف اصبحوا أو بارونات ، لا يزالون يحتفظون بذهنية وعادات واخلاق لا يقرها اشراف الجندية . ولا يمترف لهم هؤلاء النبلاء بـ « الصفة » ولا ينظرون اليهم الا نظرهم الى « بورجوازية حقيرة » ويتظاهرون حيالهم بمزيد من الرفعة والازدراء . وقد حدث في اجتماع مجلس وكلاء المملكة الفرنسية في السنة ١٦١٤ ، حين قال النائب المدني « هنري دي مسم » « ان الطبقات الثلاث هي اخوات ثلاث امهن واحدة هي فرنسا » ، ان نهض بعض الاشراف واعلنوا « انهم لا يرضون بان يدعوم ابناء السكافين والحرازين بالاخوة وان الفرق الذي يميزنا عنهم هو نفسه الفرق الذي يميز السيد عن الاجير » .

تعاظمت المضادة بين كافة الاسياد ، الاشراف والضباط والتجار ورجال المال ، وكلهم يمتلكون الاقطاعات ، من جهة ، وبين الفلاحين من جهة اخرى ، على الرغم من وحدة مصالحهم وارتباطاتهم الاقطاعية . فالاسياد يعمشون من عمل الفلاحين بالدخول عينا ونقدا وبالانوات المختلفة التي يجمعونها من ضرائب يدفع جلتها الفلاحون . ولكن الدخل الزراعي سريع التأثر بجملة الاسعار . وقد تقدمت الفرائض والحقوق الاميرية واجبات عديدة جداً اذا ما اتسمت هوة اللامسواة بين الافراد . ويجب التمييز

بين حالة الضرائب والكراءات والدخول والفرائض الاقطاعية المسددة نقداً وبين حالة الدخول والفرائض الاقطاعية المسددة عيناً بالنسبة الى الحصائد ، وبين حالة الاسياد ، والمزارعين ، والشركاء وصغار الملاكين .

ان السيد والمزارع الكبير يحققان المكاسب عندما ترتفع الاسعار بسبب ندرة المواد الغذائية لانها يحتفظان على الاجمال بفائض الحصائد او بمخزونات يتمكنوا من بيعها باسعار عليا . ولكن الشريك والملاك الصغير يريان ان حصادهما يكفيهما للبخار والخبز فيستحيل عليها والحالة هذه ان يدفعوا الضرائب والفرائض . والضريبة توزع على الرؤوس ، لا بنسبة الانتاج . ولا تتبع الدخل الذي قد تتمدها . والفريضة او الضريبة الكنسية تقرران بالنسبة للانتاج قبل اسقاط النفقات ؛ ولكن النفقات المهنية (بخار ، الخ .) لا تتغير قط وقد لا يبقى من الانتاج ، بعد اسقاطها ، ما يغطي الفريضة .

اما اذا كان مرد ارتفاع الاسعار الى اسباب اخرى ، فالجميع يحققون المكاسب ، ولكن السيد والمزارع الكبير الذين يستطيعان ارتفاع الوقت المناسب للبيع يفيدون ، بصورة طبيعية ، من هذا الارتفاع ، اكثر من الملاك الصغير والشريك . ويربح السيد بالنتيجة فوق ربح المزارع الكبير لان بمكنته ، كلما جدد عقد الضمان ان يرفع قيمة الضمان بحيث يصادر كسب المزارع .

واذا انخفضت الاسعار ، فالمزارع المرتبط بمقد ضمان ينكب بضمان وافق عليه حاسبا حساب الاسعار العالية . اما الملاك الصغير والشريك فيدفعان دونما صعوبة الدخول والفرائض العينية اذا نجم الانخفاض عن حصاد وثير ، وبصعوبة كلية اذا اضطروهم الانخفاض الى بيع المزيد من حصادهم للحصول على النقد ؛ ولكن الضريبة والدخول والفرائض النقدية قد تتجاوز الدخل مجدداً ، لاسيما وان الملاك الصغير والشريك يرغمان ، امام الحاجه ، على البيع بعد الحصاد مباشرة ، حين تكون الاسعار في ادنى انخفاضها . ويصاب العمال الزراعيون اسوأ اصابة . فبالنظر الى ركود التقنية الزراعية يمدد تخفيض سعر الكلفة الا بتحديد السيد العاملة . اجل ان الاجور لا تتدنى ، ولكن هنالك مزيداً من العاطلين والمتشردين والهائمين على وجهم .

وهكذا فان التفاوت والمضادة بين الطبقات يتماظمان باطراد . يضاف الى ذلك ان الدخول والفرائض والضرائب قد تتمدى وسائل المستثمر الصغير في حالتين ظرفيتين غير نادرتين في ظل هذا النظام الاقتصادي : ثورات الفلاحين والحروب بين الفلاحين .

يقف الاشراف ورجال المال والضباط موقفاً متزايد العدا من الكبار ضد ارباب المهن والمهال
صغار ارباب المهن ، اسيااد المهن الصغيرة ، ومن عمال المدن ،
بمقدار خضوع هؤلاء للضرائب لان باريس معفاة من ضريبة الاقتطاع ، ومدنا اخرى معفاة
ايضاً او مشتركة . وقد اعتمدت هيئات الضباط المالكين والمجالس التمثيلية والمحاكم ووزراء
الدول ، من جهة ثانية ، سياسة عاطفة حيال اوليغارشية كبار التجار الصناعيين ومضرة

بصالح صغار ارباب المهن، الحبازين والقصابين والقشاشين، وصالح العمال والصناعيين المستقلين الذين باتوا اشد انفعالا وحقدا. واحتفظت الدولة للتجار الصناعيين بالوظائف البلدية والسلطة في المدن. وناصرت الدولة كافة ارباب المهن على العمال في مجهودهم الرامي الى ازالة التنافس وتخفيض لاجور وبلوغ الحد الاقصى من الانتاج. وامتت التعاونيات في النهاية آلة في ايدي ارباب المهن للتضييق الخناق على العمال. واقوقف ارباب المهن الانخراط في جمعيتهم. فاقفلوا ابوابها في وجه غير ابنائهم واصهارهم بفرض شروط تحدد السن والاقامة وانقاص عدد المترنين واطالة مرحلة التميرن للرفاق وتعقيد التحفة الفنية وغلأها والتحيز والاختلاسات وافساد ضمائر لجان الامتحان ورسوم الانضمام الباهظة وضخامة نفقات ولائم الدخول. واتفق ارباب المهن على اعطاء ادنى الاجور الممكنة، حتى يدفعوا عليها رسوماً خفيفة للتعاونيات والسلطة العامة. وارغوا العمال على ان يشتغلوا ما بين اثنتي عشرة ساعة وستة عشر ساعة في اليوم. وطلبوا من الدولة تخفيض عدد ايام العطلة وتحريم التسرر العمالي ومنع العمال من الاختلاف الى الحانات، حتى يتاح لهؤلاء الاكتفاء بالاجور المتدنية. وحظرت التكتلات والاضرابات على العمال. فاسس هؤلاء نقابات سرية: ابناء سليمان (الذئاب)، ورفاق الواجب (المفترسون)، وابناء السيد بجاك (الذئاب المتنكرون)، وابناء السيد سوبيز (السكرارى). وكان لهم رؤساؤهم، وجمعياتهم المنتظمة، وصناديق مال تغذيها اكتتابات اجبارية، والاسلحة، والحراب، والبنادق القصيرة. ولم ينظر الرأي العام اليهم بعين راضية لانهم اهتموا بالتسبب في ارتفاع الاسعار بفعل متطلباتهم. ولكنهم ازدادوا قوة بازدياد عددهم. ففي السنة ١٦٣٧، بلغ عددهم في باريس ٥٠٠٠ عامل ومتمرن. والفوا في ليون ثلثي سكانها المائة الف وتراوح عدد العاطلين منهم بين عشرة آلاف واثني عشر ألفاً، فحين تتوقف جماهير المتسولين والمشردين من الارياف الجائسة نحو المدن وتضم الى جماهير العاطلين المتصورين جوعاً وذوي الاجور المتدنية، حينذاك تبدأ الفتن والثورات.

وتتفاقم الخصومات الاجتماعية بالخصومات الدينية. فعلى
 الاجتماعية بالخصومات الدينية
 الرغم من البراءة المعروفة ببراءة نانت، وعلى الرغم من
 التقارب بين الكثيرين من البروتستانت والكاثوليك الذي انتهى الى قبول الزواج المختلط فيما بينهم
 استمرت الخصومة على حدتها اقله في الاقليات المتشددة. الاكليروس يوجه الى البروتستانت
 التهديد تلو التهديد. ويقدم بعض الكاثوليك على تمكيز احتفالات ترتيب الزامير واحراق
 مساكن البروتستانت المنفردين. وتثير «جمعة قربان المذبح» القضاة على المنشقين.

مقابل ذلك يتصرف بعض البروتستانت المهوسين تصرفا غير لائق عند مرور قربان
 المقدس ويسبئون معاملة المرسلين في القرى. ويمتنع البروتستانت في «ميلو» عن تسليم الصكوك
 للكاثوليك وفي «نيم»، لا يمدح الصناعيون الكاثوليك لا مسكناً ولا عملاً. وقد اقدم بعض
 الاسياد البروتستانت، بفضل ما يتمتعون به من سلطة، على ارغام ابناء قراهم على تغيير
 معتقدهم بالقوة احياناً. وفي مقاطعة «ساتونج»، عطف ملاكو المراكب البروتستانت بالتفضيل

على البحارة من ابناء دينهم . وعاش كاثوليك الجنوب تحت كابوس الخوف الدائم من الاقصاء . ففدا الصراع الديني شيئاً فشيئاً صراعاً طبقياً . وكان البروتستانت في « تور » و « روان » وعدد كبير من المدن الصناعية تجاراً - صناعيين اثرياء يرتبط بهم الوف العمال الكاثوليك في نطاق تأمين معيشتهم .

سارت انكلترا قدماً في حقل التنمية الرأسمالية المرتكزة الى الثورة الصناعية الاولى في انكلترا التجارة البحرية الكبرى . فزادت تجارتها الخارجية عشرة اضعاف ما بين السنة ١٦١٠ والسنة ١٦٤٠ ، فبدل الاقتصاد التجاري الاقتصاد الزراعي تبديلاً اعمق منه في فرنسا الى حد بعيد . واستمرت الثورة الصناعية الاولى التي انطلقت في القرن السادس عشر . وقد باتت الصناعة الكبرى ، قبل الحرب الاهلية ، شيئاً مألوفاً في مناجم استخراج المعادن . ويطلب على الظن ان الصناعة الكبرى ، حوالي ، السنة ١٦٤٠ كانت اوسع انتشاراً في انكلترا منها في اي مكان آخر من اليابسة . فبرزت مؤسسات تتطلب رؤوس اموال ضخمة . وفي عهد جاك الاول استخدمت مصانع الشب على مقربة من « هوني » في مقاطعة « يوركشاير » ، هياكل خشبية كبرى ومصاهر قرميدية وصهاريج وافران معدنية يشتغل في كل منها ستون عاملاً ويستهلك كل سنة فحمًا حجرياً وخشباً وشباً بمبلغ ١٠٠٠ جنيه استرليني . وضم مصنع الورق في « دارتفورد » (كنت) ستاية عامل ، ومصنع المدافع في « برنديل » (كنت) مائتي عامل ، الخ . وقد باتت ضرورياً ، لزيادة انتاج مناجم الفحم والنحاس والحديد والرصاص القصدير السير قدماً في الحفر والحؤول دون غزو المياه وانفجارات الغاز . ولكن رواقاً عميقاً يكلف الوف الجنيهات ، ومضخة تسيرها الاحصنة تكلف الف جنيه سنوياً . كما باتت لازماً استخدام مئات المندمين لان مناجم الفحم اصبحت تنتج بين عشرة وخمسة وعشرين الف طن حوالي السنة ١٦٤٠ ، بعد ان كان الانتاج السنوي في منجم الفحم لا يتعدى بضع مئات من الاطنان الا نادراً في السنة ١٥٥٠ . وكانت المصاهر الكبرى والمطارق المائبة الضخمة لصناعة الحديد شيئاً مألوفاً قبل الحروب الاهلية . ثم تكاملت بعض الصناعات : فمادت معامل الحديد مثلاً لارياب المصاهر الكبرى . وتعاظم شأن رؤوس الاموال المتجمعة . ففي عهد جاك الاول ، بلغ رأس مال احد مصانع الجمعة اللندنية عشرة آلاف جنيه بينما لم يتطلب سير مصنع الجمعة الكبير ، قبل السنة ١٥٤٠ ، اكثر من ٢٥ جنيهاً . وسيطرت الرأسمالية الصناعية على الصناعة المنزلية التي ما زالت قاعدة عامة . ووفرت صناعة المعادن الكبرى المتعاظمة المادة الخام للصناعيين اليدويين الذين ينتجون المراسي والادوات وقطع التبديل للآلات والفؤوس والمهاميز والمواسر والمسامير والاقفال وبواسن المهارث ومغالي الماء والآنية المعدنية والمقالي . وبرزت تعاظم الصناعة التجاري في النسيج اذ استخدم بعض « الاسياد » ٥٠٠ وحتى ١٠٠٠ عامل في منازلهم . وفي مقاطعة « لنكاشاير » ، وفر التجار - الصناعيون القطن لالوف الفزالين والحاكة الملتصتين هنا وهناك . وفي صناعة القطنيات ، كما

في صناعة الاجواخ ، نهضت بعض المعامل بالاعمال التكميلية : الصياغة والتلييد والصقل . ولكن هذه الانطلاقة لم تخل من الازمات . فالبطالة غير نادرة في صناعة الاجواخ خلال القرن السابع عشر . وقد حدث في تجارة الاقشة ، قبل السنة ١٦٢٠ ، هبوط استمر سنوات عدة . وطورت الرأسمالية التجارية الزراعة تطوياً بطيئاً . وفي سبيل توفير الصوف للصناعة واللحوم للمدن ، تابع الملاكون ، ولو على نطاق اضيق ، تحويل اراضيهم الى مراعي بتسييجها ومنع الدخول اليها ؛ واتسعت رقعة المروج الصناعية ؛ واستحسن الكرنب الساقى ، الذي المحصرت زراعته من قبل في البساتين ، لتغذية المواشي في بعض الدورات الزراعية .

الرأسماليون والسيطرة
على المجتمع الانكليزي
لقد حدث انقلاب في توزيع الثروات والعلائق بين الطبقات . الا ان الصراع بين الطبقات اختلف عنه في فرنسا ، بسبب نمو الرأسمالية السريع ولان طبقة الاشراف لم تنظر الى مزاوله التجارة والصناعة والزراعة التجارية نظرتها الى عمل مشين . فقد استهوت هذه النشاطات عدداً كبيراً من الارستوقراطيين ؛ ولا غرو فان شطراً من طبقة الاشراف الانكليزي لا يختلفون بعاداتهم وذهنيتهم عن البورجوازيين ، ولكن سواد الاشراف لا يزالون يعيشون عيشة الاسباد في اراضيهم بين شركائهم الزراعيين ، وقد حسد اشراف الطراز القديم هذا اولئك الذين جمعوا الثروات بفضل النشاطات الجديدة وتقدموا عليهم ؛ ومقتوا الرجال الجدد ، من تجار وتجار-صناعيين ، الذين يتفوقون الى اقتناء املاك واسعة ، ويتوصلون ، بفضل عقاراتهم ، الى شغل مناصب قضاة الصلح ، ويسهمون في ادارة البلاد ويتعاطف شأنهم في انتخابات المجالس التمثيلية ، ويطالبون ، لغير الابكار من ابنائهم ، بوظائف الكنيسة والجيش والدولة وينافسون الاشراف القدامى في كافة المجالات . وقد اتهم اشراف « الطراز القديم » الرأسماليين بالمراباة وطالبوا بان تتدخل الحكومة لتضع حداً لتصرفاتهم .

وكان الرأسماليون المستقلون على خلاف مع رجال بطانة الملك . فقد استفاد بعض هؤلاء من نفوذهم لمل الملك على ان يعهد اليهم بعض الاحتكارات . ولدينا مثل اللورد « شفيد » ، رئيس مجلس الشمال ، الذي حصل من جاك الاول على احتكار صناعة الشب لمصلحة نقابة من الاعيان المتهدين الذين كان يمثلهم في البلاط . ولدينا ايضاً مثل الاميرال السر « روبرت مانسل » ، الذي استعاد بالشراء ، في السنة ١٦١٥ ، احتكار الزجاج المنوح لبسعة متهدين ، الخ . فطالب الرأسماليون ، يساندم صغار ارباب المهن وتجار المدن والمناطق الصناعية ، بالغاء كافة هذه الاحتكارات وباطلاق حرية العمل .

ودفع نمو صناعة الاجواخ وتصدير الحنطة بالرأسماليين الى اقتناء املاك واسعة امنوا بعد ذلك ديمومتها بتخصيص ابيكارهم بها عند زواجهم . وقد دب الخلاف بين هؤلاء الملاكين ومزارعهم وفي سبيل استعادة ما يتفقون حولوا المزارعات الدائمة الى مزارعات مؤقتة ورفعوا نسبة

الفرائض والاجور متجاهلين كل حق وقانون . واستمروا بتسييج اراضيهم مستندين الى القانون الصادر في السنة ١٥٩٧ ، الذي اجاز تحويل الارض الى مرعى لراحتها ، وسرحوا الفلاحين المناكيد واكتفوا مكانهم ببعض الرعاة . وتضاعفت قيمة الضمانات بين السنة ١٦٠٣ والسنة ١٦٥٠ ولكن عدد المستفيدين منها قد تدنى . اما الذين حرروا حقوقهم فقد انضموا الى صفوف المتشردين الذين يختار من بينهم عمال الصناعة الكبرى . وقد تقدم المزارعون بالعريضة تلو العريضة الى المجلس الخاص مطالبين هؤلاء الملاكين الرأسماليين بحقوق مهضومة .

ودب الخلاف بين العمال وارباب الصناعات على قضايا الاجور والبطالة واستخدام العمال غير المؤهلين . وكان نظام الصناعيين اليدويين الصادر في السنة ١٥٦٣ قد قضى بان لا يستخدم اي عامل ما لم يخضع للتمرين القانوني ، ولكن نمو الصناعة السريع قد حمل ارباب المصانع على استخدام يد عاملة اقل كلفة من بين الفقراء والعاقلين الذين لم يتمرنوا في يوم من الايام . وفي سبيل التوصل الى تسريح هؤلاء غير النظاميين ، تحالف الرفاق والمتمرنون ولجأوا الى اعلان الاضرابات كما حدث في « نورويش » (١٦١٠) .

اصطدام المفاهيم الاجتماعية
ادى كل ذلك الى ايجاد التنازع بين فئتين . فمن جهة ، الرأسماليون والمستفيدون من نشاطهم : الارستوقراطيون والاشراف الريفيون وصغار ارباب مهن الحياكة والمزارعون المستقلون في المقاطعات الصناعية « نورفولك » و « سوفولك » و « اسكس » ولندن ، ومدن صناعة الاجواخ في « لنكاشاير » ، « برادفورد » و « ليدس » و « لفاكس » ، ومدينتي « برمنغهام » و « ونيستر » في « مدلانديس » ، ومدن « غلوسستر » و « توفتول » و « اكستر » في الغرب . ومن جهة ثانية اسباد الطراز القديم ومزارعهم وطبقات الشعب الفقيرة .

قالت هذه الفئة الثانية بمفهوم المجتمع القديم : الجسم الاجتماعي مركب من اعضاء متكافلة يتوجب عليها تبادل الخدمة والمساعدة ؛ وليس ما يملكه كل فرد الا لخدمة القريب . وقالت كذلك بتنظيم القرية القديم : حقول مستطيلة غير مسيجة ، زراعة مشتركة ، دورة زراعية كل ثلاث سنوات ، اراحة اراض ، مراعى عامة ، اي كل تلك الحياة الجماعية التي تحد من سلطة الغني وتأخذ بنصرة الفقير . وقالت اخيراً بمبدأ الفلسفة المدرسية : الاعمال على انواعها خدمة عامة ؛ فلا يجوز من ثم مزاوله تجارة قد تؤدي الى افقار الغير ؛ بل يجب البيع بالسعر القانوني ، والامتناع عن البيع بأعلى الاسعار ، والتنبيه الى انخفاض الاسعار المحتمل ، والاقلاع عن تخزين المواد بانتظار ارتفاع الاسعار ، وعدم استيفائها الا اذا شارك الدائن الخاطر التي قد يتعرض لها المدين ، وعدم استيفائها كذلك من الفقير والدائن المنكود الحظ ، وتخفيف الشروط المفروضة على المزارع ، وابقاء الاراضي دون سياج ، ورفض كل كسب على حساب القريب .

اما المستفيدون من الرأسمالية ولا سيما الملاكون الجدد المنحدرون منها ، فقد تبنا ، على

نقيض ذلك ، مفهوم الملكية البورجوازي : كل فرد سيد مطلق على ما يملك ، وله ملء الحق في استثماره لخدمة فوائده المادية ، دون أي موجب يضطره الى تقديم مصلحة القريب على كسبه الشخصي ، فالملكية حق راهن غير مشروط ودائم كانت هنالك واجبات ام لم تكن وقام بها المالك ، ام لم يتم . وجلي ان هذا المفهوم الفردي للملكية يزيل كافة الواجبات الاجتماعية : فيجب من ثم ان تتحرر المصلحة الاقتصادية من كل قيد ، اذ ان غاية كل نشاط ، بالنتيجة ، هو ارضاء للشهوات . وان هذا المذهب ، كما نرى ، يقود الى مادية لاواعية .

رقد وجد المفهوم البورجوازي عضداً له في مذهب القائلين باتباع قوانين صارمة في الدين . أجل لقد تمسك بعض الكلفينيين المتشددين بأراء « كلفين » الشبيهة كل الشبه بأراء الفلاسفة المدرسين . ولكن الدين المسيحي غدا ، عند عدد كبير من القائلين باتباع القوانين الصارمة ، مجرد فردية مصلحة . فجوهر عقيدة هؤلاء هو وحي الله لروح الفرد . والدين ليس سوى معاملة شخصية بين الانسان وخالقه دونما وساطة بشرية . كل انسان حر على مسؤوليته الخاصة . غير ان نظام الكون العقلي ، من جهة ثانية ، هو عمل الله ، والمخطط الالهي يفرض ان يعمل الفرد لارضاء الله . الايمان وحده يخلص ، ولكن الايمان يتحيز بالاعمال . كل فرد مرغم على القيام بأعمال رسالته . وهو مدعو للتفويض بعمل خاص في سبيل مجد الله والخير المشترك . وعلى اولئك الذين تكون رسالتهم مزاولة الاعمال ان يعتبروها صلاة لله . ويترتب عليهم معالجتها خير معالجة وينظروا اليها نظرهم الى نظام زهدي والى نضال روحي طويل الأمد . والكسب هو دليل النجاح والبرهان على ان الواجب قد قيم به بموجب وحي الضمير . والواجب من ثم هو الكسب . والنجاح في الاعمال هو دليل النعمة الروحية . والله قد بارك كل من يستجيب استجابة حسنة لرسالته . والفقر والبؤس هما عقوبة الخطايا . والمرعى العمومي والقانون على الفقراء يشجعان البطالة والخطيئة . يجب الا يساعد الفقير ، بل ان تصلح سجيته حتى يتخلص من الخطيئة ، وبالتالي من البؤس . وهكذا فان الفردية المتطرفة قد آلت الى الانانية والقساوة .

صراغ الطبقات افضت تجارة العمولة ، الى اراء طبقة بورجوازية كبرى من التجار . في الاقاليم المتحدة
فنجم ، عن ذلك تضاد واختلاف بين الطبقات في اطار الاقليم الواحد
وتضاد واختلاف بين اقليم واقليم . وكانت هولندا وزيلندا المستفيدين الاكبرين من استثمار التجارة البحرية الكبرى ومن انهيار الموانئ البلجيكية . فاصبح لدى هولندا ، منذ السنة ١٦١٤ ، بحاره يفوقون عدداً بحارة انكلترا واسكتلندا واسبانيا وفرنسا معاً . كما اصبح لديها شركات بحرية قوية ، كشركة الهند الشرقية مثلاً (١٦٠٢) . وقد توفر لها المال الذي أتاح لها اجتياز الازمات بفضل مصرف امستردام (١٦٠٩) . وقد اتاحت لها الهدنة مع اسبانيا (١٦٠٩) دخول العالم الاستعماري واستثماره استثماراً منظماً . فازدهرت فيها الصناعات ، من بناء سفن ، وصناعة حرير ونممل وكتان وجوخ ، وقيشاني . وارتفع عدد سكانها . وبات لزاماً

توسيع زراعة البقول في السباخ واعتماد الدورة الزراعية كل ثلاث سنوات دون اراحة الارض فتوطد نفوذ البورجوازية في المدن : «امستردام»، «دروتدام»، «هارلم»، «مدلبورغ»، «الكرن» . وتمكنت اوليفارشية بورجوازية من الاستئثار بالسلطة كلها . وكان هؤلاء البورجوازيون كلفينيين معتدلين ، متساهلين بالضرورة لاجتذاب التجار الاجانب ، وقد ساروا على آراء الراعي ارمينيوس الذي لم يكن متشدداً في موضوع القضاء السابق بالنسبة لمصير الانسان . ولم يبق في هولندا وزيلندا اشراف قط : سبعة في هولندا وواحد في زيلندا . أما الفلاحون ، وهم بنسبة واحد لاثنين من أهل المدن ، فلم يتمتعوا باي حق سياسي . وتكونت في المدن طبقة كادحة من البحارة والعمال والمتمرنين ، المحرومين كل حق ، استغلت ايما استغلال ، وسارت على مبادئ الراعي « غومار » المتصلب وقاومت بعنف الاوليفارشية البورجوازية . وقد دفعت هولندا ٥٥٪ من ضرائب الاتحاد ولكن نبرها كان ثقيلاً على الاشراف الفقراء في « غلدر » و « اوفر - ايسل » وزبائنهم شبه الاقطاعيين من الفلاحين ، وعلى ديموقراطيي اقليم « فريز » . وهكذا فان الصراع الطبقي قد تقاوم أمره في كل مكان .

٣ - ازمة الدولة

كانت الثورة كامنة في كل مكان لا بل انها اعلنت اكثر من مرة . لذلك فان الحرب الاهلية كانت شبه مستمرة ، خامدة احياناً ومستمرة اخرى .

المثل الفرنسي ثورات الفلاحين والعمال
 في فرنسا خاض الملك صراعاً دائماً لاجل الاستقلال ضد محاولات آل هابسبورغ المتكررة لبطس هيمنتهم فاقومه ذلك في المعجز المالي . فالامكانات التي وفرها له الانتاج محدودة جداً ، والضريبة غير كافية ابسداً ، والمعجز مزمن وزيادة الضريبة ثقيلة الرطاة وبعبدة الاثر . لذلك ما عتمت الحقوق الاميرية ان غدت سبباً او مبرراً او حجة لاندلاع الثورات .

ألفت ثورات الفلاحين سلسلة متصلة الحلقات . فلا تمر سنة الا وتندلع ثورة في احدى الولايات . ولكنها تزداد خطورة ويتسع ميدانها في بعض الاحيان . وبين السنة ١٦٣٦ والسنة ١٦٣٩ ، حين افضت الحرب المعلقة التي نهض بها ريشليو الى ائقال وطاة الحقوق الاميرية ، انفجرت هنا وهناك وهناك حروب فلاحية حقيقية . وروي عن الفلاحين في بعض المناطق انهم كانوا يرعون الاعشاب ويتنقلون عراة ويتشعرون ، وشكل « الرعاع » منهم في اقاليم « ميموسين » و « بواتو » و « الجوموا » زمراً من سبعة أو ثمانية آلاف رجل تنقض على جبسة الضرائب وتمزق مأمور المساعدات اربا . وفي السنة ١٦٣٧ ، شقوا عصا الطاعة في غسكونيا و « بريفور » ، فتوجب تجنيد جيش لتأديبهم . ولكن ألفاً ومايتي رجل من بينهم آثروا الموت وزاء المتاريس . وفي السنة ١٦٣٨ ، أدى فرض الضريبة على الملح ، في نورمانديا السفلى ،

الى اندلاع ثورة « الحفاة » . فقتل هؤلاء الفلاحون جبابة اشغل الضرائب المباشرة وطأة ، اعني بها ضريبة الاقتطاع . وادادوا منع جمع كافة الضرائب التي فرضت بعد وفاة هنري الرابع .

وثار عمال المدن بدورهم ايضاً كلما ارتفع سعر الخبز وانتشرت للبطالة وزيدت الضرائب . وتعددت الفتن بعد السنة ١٥٩٨ ، ثم تحولت ثورات في ليسان في السنوات ١٦٢٣ و ١٦٢٩ و ١٦٣٣ و ١٦٤٢ ، وفي باريس في السنة ١٦٣٣ ، وفي روان في السنة ١٦٣٤ ، اذ قاد أحد الحرّازين العمال الحبالين والوراقين وهجم معهم على « مكتب المزارع » ، وفي السنة ١٦٣٩ ، اذ هاجم عمال صناعة الاجواخ ، وعمال الصباغة ، بقيادة احد الساعتيين ، مأمور الرقابة على صباغة الاجواخ . فنقب الشعب المأمور بالمسامير وأرغم العجلات على ان تمر فوق جسمه ، ثم خربوا مكتب وزراء مال فرنسا ودخلوا عنوة مسكن « نقول له تلييه » رئيس جبابة ضريبة الملح .

وجملة القول ان الفتن بين السنة ١٦٣٠ والسنة ١٦٥٩ ، خلال حرب الثلاثين سنة حتى السنة ١٦٤٨ ، ثم خلال الحرب مع اسبانيا ، أكثر من ان تعد وتحصى .

وليست هذه الثورات حرباً يعلنها الفقراء على الاثرياء . فالاعتداء يتناول جبابة الضرائب ، ولكنه قلماً يستهدف القصور والدور البلدية ، واذا ما أحدث ذلك ، فغالباً ما يكون المقصودون بعض حديثي النعمة من ضباط ورجال مال . ان ما استهدفته الثورات هو الادارة الاميرية . وما كانت لتصبح خطراً حقيقياً على الحكومة الا اذا اشتركت فيها الطبقات الاجتماعية الاخرى . وقد استطاع الملك على العموم اعادة النظام الى نصابه بسهولة بمقدار قيام قضاة المجالس التمثيلية وقضاة المحاكم ورؤساء دوائر العدل وغيرهم من المسؤولين بواجباتهم ، ووقوف قوى الامن بوجه الشعب وعزوف طبقة الاشراف عن الانضمام الى الفلاحين . ولكن جماهير من كل الطبقات اشتركت احياناً في اعمال العنف فاحدق الخطر اذ ذاك بالدولة .

طالب « السيد » اخو الملك والامراء الملكيون ، ورثة التاج من

ثورات الكبار
اهمية الروابط الاقطاعية

بعده ، بان يشتركوا في الحكومة ويلعبوا الدور الاول في

مجلس الملك ويتولوا السلطة في الولايات كحكام وراثيين وبالا

يكون الملك سوى الاول او الرئيس بينهم ، وغالباً ما تاروا على سلطة الملك المطلقة . ولكن ثوراتهم كانت تجر شيئاً فشيئاً الى اندلاع ثورات جماهير كثيرة من الفلاحين احياناً . في هذا المجتمع ما زالت المشاعر الاقطاعية على حيويتها والروابط الشخصية بين انسان وانسان وروابط السيد بالفداوي على قوتها . وكان للامراء الملكيين والكبار زبائن كثر من الاشراف وعامة الشعب انتسبوا لهم ونذروا لهم امانة كلية واخلاصاً مطلقاً ونابو عنهم في المبارزات والمنازعات والمعارك والكلام والكتابة والديسيسة ، وتبعوهم في الضراء وسجنوا وقتلوا من اجلهم . وبالمقابلة ، وفر لهم السيد الغذاء واللباس احياناً ووضع فيهم ثقته وساعدهم ابداً على التقدم في المجتمع واوجد

لهم مراكز العمل وزوجهم ووضعهم تحت حمايته واخرجهم من السجون وضمت المعاهدات التي عقدها مع الملك لانهاء الثورات شروطاً تحفظ لهم حقوقهم . وقد تقدمت هذه الواجبات المتبادلة على كل واجب آخر ، حتى واجب الطاعة للملك وخدمة الدولة . ولم يكن باستطاعة الملك نفسه ان يفرض سلطته الا بواسطة أمثال هؤلاء « المتفانين » وأمثال هؤلاء « الطفيليين » من رجاله .

تمكن الامراء الملكيون والكبار من جمع الزبائن من حولهم بفضل الخدمات الجمة التي كانت في متناول يدهم : « السيد » ، والملكة ، والامراء والاميرات ، في بيوتهم واقطاعاتهم ، والامراء الملكيون والكبار كضباط كبار في بلاط الملك الذي تكاد تنحصر وظائفه الكبرى بالعائلات نفسها ، مما جعل بعضهم يخشون من ان لا يسيطر الكبار الملك الا بالسلابن والقتلة . اصف الى ذلك ان الامراء والكبار كانوا حكام الولايات نفسها طيلة اجيال . فماد اليهم حق تعيين حكام المدن وضباط الحصون وضباط الفرق والاقواج وضباط عدلين ومالين كثيرين . وقد قامت في عدد من الولايات ، كنورمنديا فيما خص آل « لونغفيل » ولنفدوك فيما خص آل « مونورنسي » روابط مصلحة وتغان بين الكبار والوف العائلات على اختلاف نسبا . وكانت الوف العائلات ، ابا عن جد مرتبة « للكبار » و « ملازمة » ، و « متفانية » ، تخدمهم قبل الملك نفسه .

وغالباً ما يحتل هؤلاء الاوفياء انفسهم منصب متمهدي الاملاك الملكية الذي فازوا به مع حق شغل الوظائف الملكية وتعيين الاسياد الذين يقضون بالعدل والضباط السديين . فكسبوا بذلك نقوداً على صفار الاشراف وبورجوازيي المدن الصغرى والفلاحين الذين يسمون وراء هذه الخدمات المختلفة الكثيرة حتى في قلب الارياف .

اتفاق الطبقات الاجتماعية على الدولة
كان لهؤلاء الاسياد اخيراً تأثير عظيم على فلاحهم . فالروابط الاقطاعية تجمعهم ، وغالباً ما يشعر الفلاح شعور « الوفاء » و « التفاني » نحو سيده . ولا ينمو الحقد وروح العنف في قلب الفلاح الا اذا كان سيده رديئاً حقاً ، يضاف الى ذلك ان السيد يستطيع ، بواسطة ضباطه الذين ينظمون كل نشاط ، ان يجعل حياة فلاحه مرضية أو ثقيلة لا تقاوم . والسيد والفلاح من جهة ثانية مصالح مشتركة ضد الملك والادارة الاميرية . فالضريبة الملكية ترغم على حفظ الاجور دون مستواها في حال زوال الضريبة ؛ والضريبة الملكية تعرض للخطر ، في سنوات المحول ، جمع الدخول والفرائض واموال المزارعة . فكم من مرة اقدم الاشراف انفسهم على دعوة الفلاحين للثورة ضد جباة الضرائب ؟ والاسياد ، كما نعلم يحمون فلاحهم ، ويتدخلون لاعفائهم من المكوس واعمال التسخير ، ويزرعون عليهم الاسلحة ابان الحروب الاهلية ، ويفرضون بمساعدتهم احترام المواشي والحصائد . ويندر ان يكون من مصلحة الفلاح مقاومة سيده في حين ان الجيوش الملكية ، كغيرها لا تعف عن الاستلاب والنهب وان الفلاح ، دون حماية ، متأكد من انه سيكون الضحية . لذلك تبع الفلاحون اسيادهم في اغلب الاحيان .

زد على ذلك من جهة ثانية ان كل ثورة كانت تمتد بسهولة بالنظر الى ان الحد لم يكن فاصلاً بين الطبقات الاجتماعية . فليس نادراً ان نرى في العائلة الواحدة افراداً قضاة و افراداً جنوداً ، و افراداً صاهروا التجار و افراداً صاهروا اعضاء المجالس التمثيلية ، و افراداً ارتقوا الى طبقة الاشراف و افراداً ما زالوا في طبقة عامة الشعب ، و قد ارتبط بعض التجار من عليا الاشراف بروابط متمددة متشابكة متينة ، في عهد تميز بتنظيم عائلي قوي جعل عرف العلائق بين الحامي و الحمي ، بالاضافة الى ذلك ، من رابطة النسب ، دماً أو مصاهرة تمهداً بالخدمة من جهة اخرى مها بلغ من بعد درجة النسب .

دور الضباط
المجالس العليا والدستور

لم يطمئن الملك الى ضباطه انفسهم ، و قد اعتبر اعضاء المجالس العليا و لا سيما اعضاء المجالس التمثيلية انهم جد مغبونين باحداث الوظائف التي تقلل من قيمة مهامهم و شأنها و زيادات الضمانات التي الجأتهم الى قروض باهظة الفوائد . فهم قد ارهقوا برفع الضرائب كاصحاب دخول سنوية من الارض و بالضرائب غير المباشرة كمكلفين . فرفضوا من ثم توقيع البراءات الاميرية و شلوا عمل الملكية حتى اثناء الحروب ، و ادعى مجلس باريس التمثيلي بانه وريث مجلس الملك السابق . و اراد الاشتغال بصورة بديهية بالامور السياسية ، و دعوة الامراء الملكيين و الدوقة و الامراء و ضباط التاج للتداول في شؤون الدولة ، كما حاول ذلك ، دون جدوى ، في السنة ١٦٦٥ و السنة ١٦٤٨ . و كان ادعاؤهم هذا بمثابة اعادة تشكيل مجلس الملك السابق و جمعية الاقطاعيين ؛ كما ان القول مبدئياً بمحهم في الاجتماع بمطلق ارادتهم و اتخاذ المقررات الشرعية ، كان بمثابة اقامة ملكية تقيد بها الارستوقراطية ، في حال ان الملك قد اراد لنفسه ان يكون مطلق الصلاحية و شعبياً .

و ادعى مجلس القضاء لنفسه ، في السياسة و التشريع ، بالتمتع بسلطة مستقلة عن الملك و بالعمل تلقائياً بمبادرته الخاصة و للتشاور بمعزل عن اي رأي آخر و فرض مقرراته . و قد اراد جمع ضباط الملك الآخرين للوقوف على شؤون الدولة المختلفة (قرار الاتحاد ، في ١٣ نوار ١٦٤٨) . و حاول هذا المجلس اعادة النظر ، و حده ، في البراءات المقررة في حضرة الملك ، و ذلك في الاجتماعات القضائية التي اعادت مجلس الملك السابق ، و قد حور أو القى بقراراته براءات أو بنوداً من براءات اقرت في هذه الاجتماعات . و لم يسلم بالاجتماع القضائي في حضرة الملك الا اذا كان حضور الملك بمثابة زيارة يقوم بها لاستطلاع آراء المجلس في موضوع سياسي عام . و قد اعلن ان في حضور الملك انتهاكاً لحرية التصويت ، و ادعى لنفسه حق التشاور و اقرار البراءات و الاوامر بمعزل عن الملك .

الدعوة التلقائية لمثلي المملكة ، و الاطلاع على كافة الشؤون ، و الشرائع السنونة بمعزل عن الملك ، كل ذلك كان بمثابة اقامة جمعية منفصلة عن الملك تتمتع بالسلطة التشريعية و بحق رقابة السلطة التنفيذية ، و بمثابة محاولة اول للفصل بين السلطات المختلفة . فسار المجلس ، بذلك الى

ملكية مقيدة ، لا بل مهد الطريق أمام الجمهورية . وجاء عمله متناقياً وكيان الملكية بالذات التي الف الملك والمملكة في نظرها كلا لا يتجزأ . فحضور الملك لم يكن انتهاكاً لرأي اعضاء المجلس الملكي ، لأن المجلس ، الذي يمثل المملكة ، لم يكن ليوجد بدون الملك . وكان الملك يستجمع الآراء بواسطة مستشاره ولكنه يستخلص بنفسه بعد ذلك حقيقة رغبة المجلس ويتبناها كما لو كانت صادرة عنه . وكان ممكناً ان تختلف هذه الرغبة عن الرغبات المعلنة ، فيبقى للملك الحق آنذاك في اتخاذ قرار نهائي يعارض اغلبية الآراء . فكان موقف المجلس التمثيلي من ثم موقفاً ثورياً . وكان انقلاباً ، وفصلاً مصمماً بين عنصرين متحدين في الواقع يتكاملان ولا يتجزآن ، الملك والمملكة ، الملك والامة . وكان بالتالي رفضاً للملكية .

المجالس العليا وثورتها الرجعية

ولكن هذه الثورة السياسية وسيلة دوام اجتماعي . ولم يستهدف عمل المجلس التمثيلي سوى المحافظة على اوضاع اعضائه الراهنة وأوضاع أنسابهم وحلفائهم ، وأوضاع امثاله ، وأوضاع متولي الوظائف والاقطاعات ، في وجه ثورة اخرى مركزية تقول بالمساواة الى حد ما ، هي ثورة الملكية المطلقة . فالمجلس التمثيلي انما قاوم محاولة احلال المفوض محل الضابط ومجلس الملك محل المجالس العليا والوكيل محل مختلف الهيئات القضائية والمالية . وانكر على مجلس الملك وحده ، في غياب الملك ، حق التصرف وكأنه كتيبة المملكة الاولى ، وحق ابطال كل قرار يصدر عن المجالس التمثيلية ويتعارض مع السلطة الملكية والمنفعة العامة . وطالب بالغاء وظائف الوكلاء الذين لم يكتفوا بالنظر في الشؤون الطارئة قبل احوالها الى القضاة العاديين بل بتوا بالامور الجوهرية بانفسهم بتفويض من مجلس الملك واقصوا كثيرين عن وظائفهم ، اولئك الوكلاء الذين زاولوا وظائف ضباط المال وخزنة فرنسا و المختارين ، وغيرهم . وطالب المجلس التمثيلي بان يعود الضباط الى ممارسة مهامهم وان لا يجرموا وظائفهم بناء على مجرد أمر ملكي بل بموجب حكم قضائي كما تقضي بذلك الانظمة . فكان الموضوع من ثم معرفة من سيتولى ادارة المملكة : موظفون ملكيون يعينون ويعزلون عند الحاجة ويعملون باسم السلامة العامة وسياسة الدولة العليا في سبيل خدمة مصلحة الملك التي لا تختلف عن مصالح الدولة العامة ، ام هيئات من الضباط تعود لهم ملكية وظائفهم ، لا يتفادون من ثم بسهولة ولا يعزلون علماً ، يهتمون للمصالح التي يمثونها فوق اهتمامهم للمنفعة العامة ، ويملكون وظائفهم واقطاعاتهم بالوراثة ويتمتعون بكافة سلطات السيد ، ويرتبطون باواصر النسب او المحالفات باشراف الجندية ، ويفقدون قوى اقليمية أو محلية ، ويمثلون الاقاليم والمصالح الخاصة في وجه الملك فوق تمثيلهم الملك امام المصالح الخاصة والاقاليم .

وقد توفرت للمجلس التمثيلي وسيلة ممتازة للعمل: الاعتراض على الضرائب واقناع الفرنسيين بانهم يدفعون رسوماً باهظة غير عادلة لمجرد مجد الملك ومجرد بذخ البلاط ، بينما تعرض مطامع آل هبسبورغ في السيطرة الشاملة للخطر وجود الدولة بالذات وبينما يفترق البلاط البائس الى

المال الضروري لتأمين غذائه . وكان من شأن ذلك حمل الجماهير على التعلق العاطفي بالمجالس التمثيلية وعلى احترامها واجلالها . ويصح الكلام نفسه عن بورجوازيي المدن المثقلين بالرسوم والقروض الالزامية والاحتكارات التجارية واستيراد المصنوعات الاجنبية . يضاف الى ذلك ان أعضاء هذه المجالس كانوا ضباطاً لفرق الميليشيا البورجوازية وأسياداً ينعمون بملء السلطة على الفلاحين في أملاكهم . فقد حدث في باريس ، ابان « ثورة المرجام » ان استدعى الالسياد من البورجوازيين الباريسيين فلاجي « سانتوان » وقرى اخرى فلبوا الدعوة وحاربوا في صفوف بورجوازيي العاصمة .

الدور الثوري
للحزب البروتستانتي .
ان التنظيم السياسي للحزب قد اعطى اسياده وبليدياته قوة نادرة . منحت براءة « نانت » البروتستانت مراكز سلامة وحمايات عسكرية . ولكن البروتستانت لم يكتفوا بما منحتهم اياه البراءة فأسسوا ، بالاضافة الى ذلك ، جمعيات اقليمية وجمعية عامة . وكانوا قد قسموا فرنسا ثمانية قطاعات عسكرية ، كما كان على رأسهم قائد عام ، ومثلهم سفير في البلاط الملكي . فآلفوا من ثم دولة داخل الدولة وجعلوا من فرنسا اتحاداً مؤلفاً من دولة كاثوليكية واخرى بروتستانتية ، وشعبين مختلفين لا يجمع بينها سوى الخضوع للملك واحد ، وثنوية سياسية . الا ان هذا المفهوم الاتحادي الذي كان في صميم الحركات الارستوقراطية « الاقطاعية » ايضاً ، لم يكن لينتق وحاجات الدولة . فاستفاد الالسياد البروتستانت منه للانضمام الى كل حركة ينهض بها « الكبار » وثاروا كلما كان الملك بحاجة الى السلم الداخلي ابان صراعه مع الاجنبي .

الثورات العامة
وقام في بعض الفترات اتحاد يستهدف مقاومة الملك و « أوفياته » ضم الاشراف والضباط وجماهير المدن والفلاحين . فكان كافياً ان يعطي أحد الامراء الملكيين الاشارة المتفق عليها حتى تندلع الثورة وتشمل نيرانها تدريجياً ولايات كاملة . فيدعو الاشراف آنذاك الفلاحين لحمل السلاح وتعطي المجالس التمثيلية المثل فتفتح الامراء التي يجمع فيها الوكلاء الحنطة للجيش « دوفينه » ، « ١٦٣٠ » وخزائن الملك ليستولوا منها بانفسهم على مرتباتهم المهجوزة للحاجات العسكرية (تولوز ، « ١٦٣٠ ») وتشجع اعمال الفوضى وتتقاعس عن الرشاية بالثائرين وتقاوم التدابير المتخذة بحقهم وتتقاضى عن اعمال الجماهير اذا لم تعرض الا للضباط الملكيين وتملكاتهم لا لاملاك رعايا الملك الاخرين .

أما هذه الفترات فهي فترات القصور الشرعي في الدرجة الاولى ، قصور لويس الثالث عشر ، وقصور لويس الرابع عشر . وتبدو الروابط السياسية وكأنها تتحطم تحطيماً خلال هذه المراحل فيشقى العديد من الرعايا عصا الطاعة ويتحصن العديد من الاشراف وعامة الشعب في مساكنهم ويؤلفون الزمر ويهاجمون ويستلبون ، كما لو كانت تمهدياتهم محصورة في شخص الملك الراحل وكما لو كانوا غير ملزمين باي واجب نحو خلفه القاصر ، وكما لو لم يعد هناك لا دولة ولا قانون بعد

وفاة الملك . فتسنع الفرصة المواتية لمطالبات الامراء الملكيين . ثم ان هذه الفترات هي سنوات المحول والمجاعات ايضا أو فترات الحروب ، حين تغدو الادارة الاميرية ثقيلة الوطأة وحين لا ينقطع حبل الدسائس الاجنبية لاستالة الامراء الملكيين . ويبدو حينئذ ان الروح الوطنية تفسد ويفسد مفهومها . فعملاً بالرأي القديم القائل بان لصاحب الاخاذة حق انتخاب سيده ، نرى « غاستون دورليان » ، و « سنك مارس » ، و « كونده » يتفقون وملك اسبانيا . وبلغت النظر ان المجلس التمثيلي والضباط الآخرين والبورجوازيين والشعب باجمعه ينسون العسود الخارجي . وتتسابق الولايات والمدن على اعلان الثورة . فيبدو الملك وكأنه لم يعد سوى سيد لا يقوى على المقاومة الا بفضل بعض المخلصين ، وبعض العسكريين الاوفياء الذين يحتفظون له ببعض الكتائب ، وانشقاقات الامراء الثائرين . وتعلق مصير المملكة مرراً عدة بمصادفات المارك . فقد احرز النصر في معركة « لنس » (١٦٤٨) على اسبانيا مثلاً ولكن لا يستطيع أحد التكهن ، في ثورة المرجام الناشئة هذه ، بالاحداث الممكنة لو تحولت هذه المعركة الى هزيمة . فان ما نرجعه نحن هو تجزئة المملكة وزوال فرنسا .

أما في انكلترا ، ففي عهد جاك الاول (١٦٠٣ - ١٦٢٥) ،

المثال الانكليزي
الدولة على الفردية البورجوازية
وعهد شارل الأول حتى الحرب الاملية ، وعهد جاك الثاني بين
السنة ١٦٨٥ والسنة ١٦٨٨ ، نرى كل المضررين بنظام تسييج

الاراضي بثورون دونما انقطاع على نتائج الرأسمالية . والصورة النموذجية لهذه الاضطرابات هي ثورة السنة ١٦٠٧ في « مدلاندس » فقد أقدم الالوف من الرجال والنساء والأولاد والعمال الزراعيين وصغار الفلاحين الذين أفقرهم زوال طرائق الزراعة التقليدية والصناعيين اليدويين والقصابين والحدادين والتجارين والبنائين الذين أفقرهم نزوح السكان عن القرى ، على مهاجمة جدران صيانة المراعي وقطيع الأسيجة الشائكة ومد الحنادق . وقد قدم لهم السكان الأغذية الضرورية . ولكن هذه الحركات التي تستهدف الاشراف الريفيين الذين يسبحون أملاكهم لا تشكل خطراً على الملك الا لانها تخرج موقفه امام الرأسماليين . فالملك يميل بالتفضيل الى الثائرين . والدليل على ذلك ان التحقيقات الملكية في الحوادث الثورية لا تنتهي غالباً الى نتيجة والمحاكم الملكية تدين المالكين الذين يغالون في التسييج او في رفع الضرائب . وقد حافظ المملكان الاولان من سلالة « ستوارت » دون اي تغيير ، على مفهوم المجتمع : جسم منظم متسلسل السلطات تقوم فيه كل طبقة بالمهمة المسندة اليها وقضن بالمقابلة نمطاً حياتياً يتناسب ومرتبها . تلك موجبات روحية يفرضها الله . ويتوجب على الدولة ، التي هي تمييز زمني لهذه الموجبات الروحية ، ارغام الجموع على احترام ارادة الله والحرص على ان يؤمن لكل فرد ما يحتاج اليه في ميعشته فقط . وجلي ان هذا الدور السامي الذي تلعبه الدولة يؤدي الى السلطة الملكية المطلقة . فحاول الملوك من آل ستوارت ان يحتفظوا لانفسهم بالسلطة التشريعية

والصلاحيات القضائية الخاصة وحق جميع الضرائب دون موافقة الرعايا وجيش دائم يخلص لهم الوفاء .

الا انهم اصطدموا بالمتشددين البوريتانيين من البروتستانت .
تقدم الفردية البورجوازية فقارومهم التجار المتشددون الذين منوا بجائز مالية بفعل الاحتكارات الممنوحة لرجال البطانة الملكية ، والدائون المتشددون ، من رجال كنيسة أو أسياد الذين تعاقبهم المحكة الكنسية العليا بسبب مراتبهم والذين يسخرون من تدخل الاساقفة في الشؤون الزمنية ، والجواخون المتشددون الذين يشكون من ايفاد المفوضين الملكيين لمراقبة الصناعة والاسعار ، والاشراف الريفيون المتشددون الذين تهرمهم اللجان بسبب نزوح السكان عن الارياف ، ولكنهم تأقموون على قرارات الندوة المكوكبة والدائرة القضائية في المجلس .

فقد ولى الزمان الذي كان الملك فيه يحسد المثل القومي ، وبات باستطاعة الطبقات المتنافسة ان تتألب عليه . والمجتمع الذي يحيط به بات مجتمعا بورجوازي العادات والميول . فتجار الشركات التجارية البحرية الكبرى يستخدمون اشقاء الاشراف الريفيين وابناء الاثرياء البورجوازيين على السواء . ويزاول بعض النبلاء التجارة الكبرى . وينتج كبار الملاكين الارستوقراطيين و صفار الاشراف للتصدير المباشر وللصناعة على السواء . وغالبا ما يكون العمال المتمرنون في لندن ابناء اسياد عقارين . فتنحقق بذلك الوحدة بين المدن والارياف . في مدوسة القرية وفي مدرسة المدينة التجارية القريبة ، يجلس ابناء العائلات المسيطرة في المقاطعة على مقاعد واحدة الى جانب ابناء المزارعين والتجار والصناعيين اليدويين . وليس نادرا ان يتزوج ابناء الالسياد العقارين الذين لم يخدمهم الحظ من بنات الالسياد العقارين الاثرياء . ويقبل في طبقة صفار الاشراف اولاد ابناء التجار وابناء كبار الملاكين الذين يتزوجون من بنات الالسياد العقارين . اصف الى ذلك أخيراً ان الروح البوريتانية المتشددة ، وهي في جوهرها ذاك الشعور الداخلي بان المسيح يحبني وباني احب المسيح ، تملأ قلوب افراد ينتمون الى كافة الطبقات وتجمع بين طبقات مختلفة في احترام تطيري للشخص البشري الذي يسيره عمل الله ، وفي الوقوف موقفاً حذراً من السلطات والنظم التي تستطيع الحد من حريته ، وفي مقت السلطة المطلقة .

ان وجود هيئة تمثل الانكليز اليسوريين ، ونعني بها المجلس ، قد أتاحت
الاختلاف الدستوري لهذه المناجم ان تتصادم في صراع كان في البداية دستوريا . اختلف المجلس مع الملك ومعاونه . فاعاد اصول « المنع » . فاشتكى مجلس العموم الى مجلس اللوردات واستصدر حكماً على المستفيدين من الاحتكارات الملكية اولائهم على مستشاري الملك ، اللورد - المستشار « بيكون » (١٦٢١) واللورد - الخازن « سترافورد » (١٦٢٤) و « لود » (١٦٤٠) . واعلن المجلس مرة اخرى حق الانكليز في الامتناع عن دفع ضرائب لا يسلم بها

ممثلهم وكافة الحقوق التي كان معترفاً لهم بها عند بدء ولاية هنري السابع (عريضة المطالبة بالحقوق ، ١٦٢٨) وحاول تأمين دوريته (١٦٤١) ، وتوسيع حقوق الانكليز بحيث تشمل الضرائب الغير مباشرة نفسها، والفي الندوة المكوكبة والمحكمة الكنسية العليا (١٦٤١) وحرر المالك الرأسمالي . ويتضح من ذلك ان الانكليز حاولوا من ثم ان يحلوا محل ملكية مطلقة تسمى الى تحقيق التوازن بين الطبقات الاجتماعية ملكية يقيدها مملو النزعات الرأسمالية المزودون بالسلطة التشريعية وبحق الرقابة على السلطة التنفيذية والادارة المحلية ، ودولة تسند اليها مصالح الطبقات البورجوازية ومن ينسب اليها . وقد بلغ من بعد وجهات النظر بين الملك والمجلس التمثيلي ان الحرب الاهلية قد اندلعت في السنة ١٦٤٢ وان القرن قد قدر له ان يشهد ثورتين (١٦٤٠ - ١٦٦٠ ، ١٦٨٥ - ١٦٨٨) .

في الاقاليم المتحدة، بقيت السلطة المركزية متميزة بضعفها. والاقاليم المتحدة
 المثال الهولندي اتحاد مؤلف من سبع ولايات حافظت على حقوقها في السيادة . اجهزتها المشتركة الهامة هي مجالس الطبقات ومجلس الدولة الذي يشترك فيه مندوبو الولايات بصفة سفراء حقيقيين حافظت كل ولاية على ضرائبها وجيشها واسطولها وقائدها العسكري المسؤول عن النظام ومجلس الطبقات ومجلسها الخاص . ولا بد من اجماع رأي الولايات . وفي سبيل ذلك يراجع مندوبو مجلس الطبقات مندوبي المجالس الاقليمية الذين يراجعون بدورهم منتخبيهم . فنحن هنا امام استفتاء دائم يتطلب اقناع كل مدينة في كل ولاية ؛ وفي كل مدينة الحكام المسؤولين عنها . ويجب الحصول على موافقة ١٢٠٠ شخص تقريباً قبل التوصل الى اتخاذ قرار . وهذا للمعري وضع يقارب الشلل .

أما الذهنية فتتميز بالآثرة . فالبورجوازيون يسيطرون في مجالس هولندا وزيلندا و « اوترخت » و « فرين » و « غروننغ » وبين المندوبين الى مجلس الطبقات . أما طبقة الاشراف فلا تسيطر الا في « غلدر » و « اوفرايسل » . ولكن هؤلاء البورجوازيين حديثو النعمة تسترهم ذهنية المدينة الصفري والاناية التجارية الضيقة . فاستحال تفاهمهم واتفاهمهم حتى في زمن الحرب . وقد رغب الهولنديون في العمل على الانهر ، على مصب نهر اسكو ، بغية افكار « انفرس » ، ورغبت « غلدر » في العمل على الرين لاقفال ابواب الاتحاد في وجه الاعداء . أما امستردام فقد باعت الذخائر والبارود والقنابل لاعداء الاقاليم المتحدة ، للاسبانيين اولاً ، ثم للويس الرابع عشر في عهد متأخر .

ان واجب العيش قد انمي قوتين وحدويتين متعارضتين . فقد قدمت عائلة « اورانج » للاتحاد قاداته العسكريين الذين جعلتهم حاجات الحرب يميلون الى حكومة ملكية . كما ان الخدمات التي اداها امير اورانج قد فرضته قائداً عسكرياً مسؤولاً عن النظام في خمس أو ست ولايات . ووقع الاختيار في ولايات اخرى على احد افراد العائلة . وقد مثل امير اورانج

الدفاع القومي ، ومن ثم فكرة الوحدة . واستند الى طبقة الاشراف في غلدر و « اوفرايسل » التي كانت اقل تعلقاً من البورجوازيين بالمصالح المادية والشؤون المحلية ، ولكنه استمال كذلك جميع اعداء البورجوازية الرأسمالية ، اي الفلاحين والعمال والبحارة والجيش .

أما البورجوازية الهولندية المحسدة برئيس سلطتها التنفيذية ، والقديمة بتجارها العالمية والثنافة يماجمتها في ليدن ، فقد سارت على برنامج اوليفارشبي يحقر الفقراء ، والاشراف في عدادهم ، وبرنامجاً جمهورياً صمته ضد الملكية التي اعتبرتها غير منطقية وبدائية ومتسمة بطابع الاستبداد العسكري ، وفي كلا البرنامجين انتقام تقدم عليه طبقة لم تعد لتحظى بمركز مرموق في الاقتصاد وفي المجتمع . وقد أراد البورجوازيون الهولنديون تحقيق وحدة الوطن المشترك بهيمنة ولاية هولندا التي كانت أوسع الولايات ثروة واعظماً نشاطاً واشدها حزماً واعمقها ثقافة . وعلى رئيس السلطة التنفيذية في هولندا ان يلعب ما يشبه دور رئيس الجمهورية الاتحادية للاقاليم المتحدة .

ادى هذا الوضع الى قيام نزاع دائم بين رئيس السلطة التنفيذية والقائد العسكري المسؤول عن النظام رافقته ازمات حادة تقابل فيها « اولدنبرفلت » و « موريس دي ناسو » ، و « جان دي فيت » و « غليوم دورانج » . فكانت الغلبة للقائد العسكري في فترات الحرب ، ولرئيس السلطة التنفيذية في فترات السلام ؛ للأول حين تنازمت العلاتق الخارجية وحين يكون النزاع المسلح أمراً مرغوباً فيه ؛ وللثاني حين يرغم العياء على طلب التهدئة . وقد اتخذ النزاع طابعاً دينياً بين البورجوازية الارمينية وبين الاشراف وافراد الشعب الغوماريين . ان هذه الدولة المتمزقة تبدو للمراقبين الاجانب وكأنها مسخ غريب الحلقة . وهكذا تبدو الدولة في كل مكان ناقصة غير مكتملة .

٤ - الازمة السياسية الدولية

تخلت اوروبا شيئاً فشيئاً عن حلم الجمهورية المسيحية والوحدة الدينية الكاثوليكية والوحدة السياسية للامبراطورية - المقدسة الرومانية كما ان دولاً « عصرية » مستقلة وسيدة ومستقرة وخاضعة لنظام اقليمي وانظمة سياسية ثابتة انجبت فيها الوحدة والمركزية ، بصرف النظر عن كل اعتبار ، الى التغلب على الاثرة المحلية الخاصة والتجزئة والبلبله ، قد سارت قدماً في اثبات كيانها ووجودها . وقد صممت كلها كذلك على اثبات قوتها ، فتصادمت في محاولاتها التوسعية والتسلطية .

وكانت اخطر هذه المحاولات محاولة سلالة هبسبورغ ، هبسبورغ اسبانيا وخطر آل هبسبورغ وهبسبورغ النمسا . اما الفرع النمساوي ، وقد أسسه فردينان ، شقيق

« شارل الخامس » الثاني ، فقد سيطر على ممتلكات اقليمية واسعة الاطراف : النمسا العليا والسفلى التي تسيطر على مجرى الدانوب الأوسط قبل « فيينا » وبعدها ، وامارات « ستيريا » و « كارنتيا » و « كرنبول » و « تيرول » ، وملكة « بوهيميا » وملكة « هنغاريا » التي الفت قوة ضخمة داخل الامبراطورية وسوراً حصيناً لها في وجه الاتراك . وكان الجالس على العرش في فيينا من هذه الاسرة الحامي الطبيعي للمسيحية في وجه غير المؤمنين ، تلتف حوله المانيا كلها التفافاً تلقائياً حين يلوح الخطر التركي في الافق الشرقي .

في الواقع ، اختير الامبراطور ابدأ من سلالة هابسبورغ . ولكن
 في الامبراطورية « شكل دولة غير منظمة اشبه ما تكون بالسخ » .
 فالبلدان التي تحمل كلها اسم المانيا موزعة الى « امم » ناشطة
 مختلفة اللسان . وهي مقسمة الى « امارات ودول الامبراطورية - المقدسة » التي تفوق « الامم »
 عدداً والتي لا تقوم فيها اية رابطة بين « الامم » والكيانات السياسية . فهذه الكيانات المتداخلة
 تداخلاً غريباً مختلفة كل الاختلاف من حيث المساحة والشأن وشكل الحكومة : الدوقيات
 وولايات الحدود والكونتيات وراثات الاسقفيات والاسقفيات والاديرة والمدن الحرة والاملاك
 الضغرى الخاضعة لفرسان الامبراطورية . وبلدان المانيا مجلس تمثيلي هو مجرد اجتماع سفراء .
 ويقسم المجلس التمثيلي الى ثلاث هيئات : هيئة المنتخبين وهيئة الامراء وهيئة المدن . وهو مصاب
 بالشلل عملياً . فالامبراطور هو وحده من يستطيع دعوته للاجتماع ، ولكن « لمنتخب ماينس »
 الرئيس ، حتى معارضة الدعوة ومنع ادخال المسائل التي يعرضها الامبراطور في جدول الاعمال .
 وباستطاعة الامبراطور من جهة اخرى التمتع عن نشر قانون اقره المجلس . ولكنه لا يستطيع
 حمله على اعادة النظر فيه . ويسود الرأي كذلك بان العضو الامبراطوري ليس ملازماً بالخضوع
 لقرار مشترك اذا لم يوافق هو عليه . ويمكن اخيراً ، في المواضيع الدينية ، ان ينحل المجلس
 التمثيلي دون ان يتوصل بعضه الى فرض قرار على البعض الآخر . وهذا الخواء العاجز هو ما
 اراد ابن سلالة هابسبورغ ان يجعل منه دولة .

محاولات الامبراطور السلطوية
 من ثورة التشيك في بوهيميا الذين كانوا قد انتخبوا فردريك
 الخامس ، المنتخب البالاتيني ، لسحق التشيك في « الجبل
 الابيض » (١٦٢٠) . فقدت بوهيميا ملكها وراثياً لسلالة هابسبورغ واعادها اليسوعيون الى
 الكاثوليكية ثم فرضت عليها الحضارة الالمانية . وفي شهر كانون الثاني من السنة ١٦٢١ ، رسم
 فرديناند باقصاء المنتخب البالاتيني عن الامبراطورية ، وهو تدبير يجر الى حجز ممتلكاته
 وسقوط حقه في الانتخاب . فتصرف الامبراطور بذلك تصرف السيد . وبالإضافة الى هذا
 نقل حق الانتخاب ، والبالاتينا العليا الى « مكسيميليان دي بافير » الذي كان قد قدم له

جيشاً . فتصدعت من ثم المساواة في الاتحاد الانتخابي ، اذ اصبح المثلون البروتستانت اثنين فقط (ساكس وبرندبورغ) مقابل اربعة من الممثلين الكاثوليك . وعبر الامبراطور ، وهو تلميذ اليسوعيين ، عن استعداده للقضاء على البروتستانتية في الامبراطورية . واخذ في تفسير « صلخ اوغسبورغ » بوجهة النظر الكاثوليكية . واعتبر البند الذي حظر كل علمنة جديدة منذ السنة ١٥٥٢ بنداً مقبولاً شرعاً، بينما اعتبره البروتستانت لاغياً وباطلاً . وشرع الامبراطور في اعادة اراض مملوكة كثيرة للكنيسة الكاثوليكية . ورسم مجل الاتحاد البرتستانتي او الانجيلي . ونظم في أوائل السنة ١٦٢٥ جيشاً خاصاً به هو جيش القائد المأجور « والنستين » . وفي السنة ١٦٢٨ انتزع من دوقية مكلنبورغ املاكهم واراد ان ينشئ قوة بحرية . وفي السنة ١٦٢٩ ، فرض على الالمان براءة « الاعادة » التي قضت باعادة كل ما عُلمن منذ السنة ١٥٥٥ ووضعت هذه الممتلكات عملياً بتصرف الامبراطور ، فاحدثت حركة واسعة جداً في انتقال املاك البرتستانت الى الامراء الكاثوليك من ابناء الامبراطور او انسابه او حلفائه واختلالاً كبيراً جداً في ميزان القوى الراهنه . اضيف الى ذلك ان شكل الوثيقة القانوني قد كان ثورة مجد ذاته . فلم تقتزن اية وثيقة فيما سبق بقوة القانون الا بعد قرار يتخذه المجلس التمثيلي ويبرمه الامبراطور . ولم يسبق للامبراطور ان اتخذ اي قرار يتناول الامبراطورية بأجمعها الا بعد اتفاق مسبق مع مجموع المقترعين . وها نحن نرى الامبراطور ، بعد ان تجاوز حد السلطة في السنة ١٦٢١ ، يقدم مرة اخرى ، بوثيقة شخصية ، اقرار بتبديل عميق في وضع ملكية الاراضي الامبراطورية ، فبات له « التحفظ الكنسي » قوة القانون . وبدأ الامبراطور وكأنه مصمم على الاستغناء عن المجلس التمثيلي والاتحاد الانتخابي معاً . وسنراه ينفذ مقرراته بواسطة جيشه الخاص ، جيش « والنستين » . فقدت السلطة الامبراطورية سلطة ملكية مطلقة ، وغدا الامبراطور خطراً اشد تهديداً لاوروبا .

هسبورغ النمسا وهسبورغ اسبانيا : وزاد في شدة الخطر ان عمل الامبراطور وعمل السيطرة على الطرق العسكرية والبحرية هسبورغ اسبانيا كانا مرتبطين ، وان التسلطين تبادلا مد يد المساعدة . وبقي فرعا السلالتين متحالفين بالمصاهرات . ودرج اشقاء الابكار في العائلات النمساوية على البحث عن الثروة في بلاط اسبانيا . ومنذ السنة ١٦١٧ ، عقد اتفاق وضمت بموجبه الاسس لتحالف وثيق ، كانت اسبانيا آنذاك في حالة حرب مع جمهورية الاقاليم - المتحدة المؤلفة من رعاياها السابقين الثائرين . توقفت الاعمال الحربية في السنة ١٦٠٩ بهدنة الاثنتي عشرة سنة ، ثم تجددت في السنة ١٦٢١ . فكان من الضرورة بمكان لاسبانيا ، التي لم تكن سيدة البحار ، ان تؤمن نقل جيوشها من منطقة ميلانو الى لوكسمبورغ . فاجاز ملك اسبانيا للقائد « سبينولا » ان يتنزع حصون البالاتينا الريفانية عنوة من فردريك الخامس . ويمكن المال الاسباني من احراز النصر في الجبل - الابيض . أما السفير الاسباني فقد دفع فردينان الى اتخاذ هذه التدابير بحق البلاتيني لأن من شأنها اطالة الحرب وتوسيعها . وفي السنة

١٦٢٠ ، استفاد حاكم ميلانو من ثورة كاثوليك « فالتلين » ، رعايا « الاحلاف الغبراء » ، ليحتل الروادي والممرات الالبية ، بينما قام فرد آخر من آل هبسبورغ ، هو ارشيدوق « انسبروك » بالاستيلاء على « انغادين » على المنحدر الآخر من جبال الالب . فاتيح اذ ذاك للجيش الاسبانية في مقاطعة ميلانو ، والجيش النمساوية في مقاطعة تيرول ، القيام باعمال عسكرية مشتركة عن طريق « مالويا » و « انغادين » و « ستلفيو » . وفي السنة ١٦٢٧ ، أرسل فردينان جيوشاً الى ايطاليا العليا ، وفي السنة ١٦٢١ ، قرر فيليب الرابع و « اوليفاريس » المقرب اليه العودة إلى سياسة فيليب الثاني ، وهي سياسة كاثوليكية تهدف الى تحقيق الهيمنة الاسبانية واجهت في الدرجة الاولى واجب سحق مقاومة « الاقاليم - المتحدة » . وكان اوليفاريس بحاجة ، في سبيل ذلك ، لأن تطول الحرب في المانيا . فالجرب تتيح له اقامة حاميات اسبانية في البالاتينا ؛ وهو كان مصمماً على احتلال بعض المواقع في الازس وتأمين مرور الجيوش الاسبانية بين « فرانش - كوتيه » وهولندا عن طريق « سندغو » و « بريزاخ » وفضة الرين اليمني و « فيليبسبورغ » و « سبير » و « ماينس » و اقليم « تريف » ولوكسمبورغ ، او بين ميلانو وهولندا عن طريق « فالتلين » و « بحيرة كنستانس » والمدن « الحرجية » (« والدشوت » و « ساكنجن » و « رينغلدن ») و « فريبورغ » (في بريسغو) وفضة الرين اليمني . ثم أدرك اوليفاريس ، بعد السنة ١٦٢٥ ، ان ما يؤمن سلامة الاقاليم - المتحدة هو اسطول هولندا الحربي والسيطرة على البحار الشمالية . فكان لا بد من ثم ، لطرد المراكب الهولندية من هذه البحار من ان تتمكن الاساطيل الاسبانية من دخول مرافئ الشواطئ الالمانية لتؤمن التمون والاحتماء فيها . وكان لا بد كذلك من ان يحتل الامبراطور دائرتي وستفاليا وساكس - السفلى . والى هذا ترد عمليات والنستين العسكرية في السنة ١٦٢٧ ، والانعام عليه بلقب « قائد البحار الاوقيانوسية والبلطيقية » و « دوق مكلنبورغ » ، في السنة ١٦٢٨ .

جاءت هذه المطامع تماكس مطامع ملوك آخرين وتهدد بالخطر استقلال
 الممثلة البلطيقية
 بمالكهم . ويأتي بين هؤلاء ، في الدرجة الاولى ، ملك الدانمرك
 « كريستيان » الرابع ، دوق « هولستين » ، وبالتالي احد امراء الامبراطورية ، الذي كان
 يجلس ويقترح في المجلس التمثيلي ، وهو احد أعظم الأمراء شأناً في دائرة « ساكس -
 السفلى » . وكان ابنه الثاني قيماً على اسقيتي « فردن » و « هالبرستات » بين مجرى « الفيذر »
 الاسفل ومجرى الالب ، وخلفاً مقررأ لاسقيتي « بريمين » و « اوسنابروك » . وقد راقب ملك
 الدانمرك ، بفضل الرسوم الباهظة التي استوفها ممثلوه في جمارك « السنور » ، تجارة البلطيك
 من خروج الحبوب والاشخاب من بولونيا وبروسيا ودخول المواد الغذائية و « المصنوعات »
 التي تستوردها المانيا الشمالية والشرقية من اوروبا الغربية . وكان مصمماً كذلك على ان يراقب
 بواسطة « بريمين » و « فردن » ، تجارة كل من الالب والفيذر وتأمين الشطر الاكبر من السهل
 الالمانى ايضاً ، فتوصل ، باستقلاله تجارة الآخرين عن طريق الجمارك ، الى مضاعفة مداخيله ،

ومضاعفة قوته بالفعل نفسه . وكان عمله هذا نوعاً من التسلط الجرمي . ولكن وسائله العسكرية كانت محدودة جداً . لذلك فقد افل نجمه منذ السنة ١٦٢٩ (صلح « لوبك ») .
ومنذ السنة ١٦١١ ، حارب ملك اسوج « غوستاف - ادولف » قيصر « موسكوفيا » وملك بولونيا ، فاعطاه صلح السنة ١٦١٧ « كاريليا » و « انغريا » واستونيا الى الجنوب من فنلندا الاسوجية . وكان في نيته أن يبسط سيطرته الشخصية على الشواطئ الالمانية على بحر البلطيك ويضمن فوز البروتستانتية يجمع كافة الأمراء البروتستانت الالمان . وقد طمع هو ايضاً في نقاط الجمارك المثمرة في مرفأء البلطيك الالمانية . اضعف الى ذلك أنه اعتبر اقامة ملوك آل هبسبورغ على الشاطئ البلطيك خطراً يهدد اسوج .

المعضلة التاريخية
امتدت الى الغرب والجنوب ، بين الدول الكبرى في اوربا الغربية ، وبين الامبراطورية ، منطقة غير واضحة المعالم كانت موضوع تنازع دائم . فالاقاليم المستقلة كانت قانوناً تحت سيادة ملك اسبانيا وعضواً من اعضاء الامبراطورية المقدسة في دائرة بورغونيا في آن واحد . ولكن نصوص هدنة الاثني عشرة سنة اقرت في السنة ١٦٠٩ باستقلالها المؤقت . ولم يكن الامر بالنسبة لبورجوازي هذه الاقاليم قضية حرية فحسب ، بل قضية حياة أو موت ايضاً . فقد تحقق لهم الازدهار بالحصار المطبق على مرفأ انفرنس . وبات لزاماً من ثم ان يبقى مرفأ انفرنس مقللاً اقتصادياً .

وما زالت الاقضية السويسرية مع حلفائها ورعاياها ، تابعة قانوناً للامبراطورية المقدسة . أما في الواقع فقد أنتت استقلالها عن النمسا . ولكن وضعها كان مكتنفاً بالصعوبات . فاذا هي عرفت كيف تفتح او تغلق المجازات الالبية وفاقاً للظروف ومقابل مكاسب مضمونة ، فقد تعرضت لان تصبح هدف المارك ولأن تحتل الجيوش الاسبانية او النمساوية أو الفرنسية الطرق المؤدية اليها . لذلك فان استقلالها كان رهناً بتوازن المناقشات الاجنبية حول المجازات .
وخضعت ايطاليا لسيطرة ملوك اسبانيا من آل هبسبورغ الذين امتلكوا فيها « صقليا » و « نابولي » ، وها مصدر تموين شبه الجزيرة الايبيرية بالحنطة ، وراقبوا ، بواسطة « سردينيا » جزيرة « البابا » والحصون التوسكانية (« اوربيلو » و « بيومينو » و « بورتو - اركولي ») وطريق نقل الجيوش بمرأ بمحاذاة شواطئ ايطاليا الوسطى ، وسيطروا ، بواسطة دوقية ميلانو ، على سهل البو ومنافذ الطرق الالبية الرئيسية ، واستخدموا جمهورية جنوى لانزال الجيوش المرسله الى مقاطعة ميلانوا .

الخطر يهدد فرنسا
بات النزاع ، في هذه المنطقة الوسطى ، امراً محتوماً بين فرنسا وآل هبسبورغ . فقد احتاطت بفرنسا بمتلكات ملك اسبانيا . وكان باستطاعة الجيوش الاسبانية المنتقلة ، على مقربة من حدودها ، من منطقة ميلانو الى فرانش - كوتيه ، ومن فرانش - كوتيه الى هولندا ، عن طريق الازراس والبالاينا ، ان تحتشد وتهاجم « ابواب »

فرنسا . كما كان يمكنه ملك اسبانيا، بعد احراز النصر على الاقاليم المتحدة ، ان يرتد على فرنسا . فعدا ضرب الطريق العسكرية المؤدية من اسبانيا الى ايطاليا الشمالية ، الى فالتين ، الى الزاس ، ضرورة ملحة وحيوية . ولكن فرنسا ، اذا ما اقدمت على هذا الضرب ، تدخل في نزاع مسلح مع هبسبورغ النمسا .

القوميات وضع الملوك نصب أعينهم أهدافاً موضوعية ، ولكنهم اضطروا في سياستهم ان يحسبوا حساباً لمشاعر الطبقات المثقفة . فقد طالب الالمان بكل البلدان الالمانية اللسان ، « جرمانيا العظمى » ، وحتى بغيرها . وهي دليل على وجود حركة قومية نادت بالوحدة الجرمانية الشاملة . فان « فيليب كلافييه » ، البروتستانتي الدانزيغي، واستاذ الجغرافية السياسية في جامعة « ليدن » في السنة ١٦٢٩ ، قد نشر كتاب « المدخل الى الجغرافية العامة » الذي طبع اكثر من ست وعشرين مرة . وقد تطرق هذا الالمانى بايجاز الى موضوع فرنسا . ولكنه استشهد بـ « بلين » و « قيصر » و « تاسيت » ليطالب ، بعد تأويلات شتى ، بالمانيا العظمى : الزاس ، لورين ، برابان ، غلدر ، هولندا ، منطقة دانترينغ ، بروسيا ، بوهيميا ، « ليتونيا » ، سكنديناويا .

ولم يكن الفرنسيون دونه الحاحاً بالمطالبة . فان « جغرافياتهم » المنشورة بين السنتين ١٦٣١ و ١٦٤٦ قد شدت الكلام عن فرنسا الغالية و غدت الشعور بان حدود فرنسا يجب ان تكون حدود غاليا القديمة .

حين تشرب باريس من مياه الرين تكون غاليا كلها قد بلغت حدودها القصوى وضم « مسرح المناطق الغالية » ، المنشور في السنة ١٦٤٢ ، خريطة لاوروبا الفرنسية تمثل التوسع السلامي للكابيتين خلال القرون السابقة . وقد ورد تحت « لوحة للمناطق الغالية » : وصف جديد « للامبراطورية الفرنسية » تحت سيطرة الامبراطور لويس الثالث عشر العادل .

القيصرات البحرية وامتدت مطامع القيصريين الى البحار ايضاً . فطالب الهولنديون ، وهم السباقون في الملاحة والتجارة ، بحرية البحار . وفي السنة ١٦٠٩ ، نشر « غروتيموس » كتابه « البحر الحر » الذي انطوى على ان لكل امة الحق في الاتصال الحر بكل الامم الاخرى والاتجار معها بحرية . أما الانكليز الذين دخلوا تدريجياً ميدان التنافس الاقتصادي ثم دخلوا في نزاع مسلح مع الهولنديين ، فقد عارضوا هذا المبدأ . وفي السنة ١٦٣٥ ، نشر « جون سلدن » كتابه « البحر المقل » . ففي الوقت الذي اعلن فيه شارل الاول السيادة الملكية على البحار الاربعة المحيطة بالارخبيل البريطاني ، اعلن « سلدن » ان مبدأ حرية البحار لا ينطبق على البحار البريطانية حيث للملك الانكليزي حقوق سابقة لحقوق الامم الاخرى .

الجيش والحرب الزمنية تحولت الحرب الالمانية اذن الى حرب عامة طويلة الامد . فالجيوش الالمانية لم تستطع التوصل الى نتائج حاسمة . يضاف الى ذلك ان تأليف

الجيش كان يجد ذاته مضاربة مالية . فالقائد كان يعقد مع الملك ، الذي يسند اليه القيادة ، اتفاقاً يدعى امتيازاً ، ويستلم منه شهادة بذلك ، ثم يعقد الاتفاقات مع الزعماء العسكريين الذين يتفقون بدورهم مع الضباط . فيؤلف مجموع الضباط من ثم ما يشبه نقابة من الشركاء الذين يتقاسمون الخسائر والارباح . واذا كان للقائد ممتلكاته ، شأن « والنستين » ، فإنه يفترق منها الحبوب والاعلاف للجيش ، كما أن انواله تصنع له اجواخ الملابس العسكرية .

كانت اجور الجنود ضئيلة تدفع بغير انتظام ، وكان الهرب من الجندية أمراً غير نادر . فكانت عملية التجنيد من ثم عملية دائمة ترافقها الاضطرابات واعمال العنف . وتوجب السماح للجنود بتأمين غذائهم على حساب الاهالي ، أو فرض المساهمة في نفقاتهم على البلاد . وما كان الجنود ليتراجعوا عن الاستلاب والاعتصاب والتعذيب واشعال الحرائق ونشر الرعب . وقد جرّت اعمال التخريب والتغييرات الدائمة التي تدخل على عدد الجنود الى فترات توقف طويلة الامد في سير العمليات العسكرية . وحدث احياناً ان ارغمت الجماعة الجيوش الظافرة على الجلاء عن المناطق المغزوة . ثم ان صفار الامراء الذين كانوا يعيشون من الحرب ، من امثال الكونت « دي منسفلد » والدوق « كريستيان دي برونسويك » ، قد باقوا عاجزين ، منذ السنة ١٦٢٢ عن احراز النصر بقوة السلاح ، فلم يبق امامهم سوى اقتراف الاجرام الفظيعة . وكان هؤلاء يعبثون الجنود حين يستطيعون الى ذلك سبيلاً ، ويقومون بمجملاتهم العسكرية حين يتجمع لديهم بضعة آلاف من الرجال المسلحين ، ولكن جيشهم هذا كان يزداد ويتماظم اذا ما احرزوا نجاحاً أو انتصاراً . الا ان هذا الجيش كان عبئاً ثقيلاً على البلاد . فالجنود يستلبون المواشي ويقتلعون سنابل القمح ويتلفون ما لا ينقلونه معهم ويقطعون الاشجار وجفون الكرمة ويحطمون الابواب والنوافذ والمواقد وينهالون ضرباً على السكان . ولم تنج من استلابهم ممتلكات الامبراطور نفسها . فلا يبقى أمام الفلاحين الا ان يتغذوا بالأعشاب وقشور الأشجار والأثمار البرية وان يخبثوا في الاحراج . وقد تمرض المسافرون للنهب على الطرقات العامة الرئيسية . وعندما يدخل فصل الامطار ، يشتت المرتزقة الأجورون اذا لم يكن باستطاعة قائدهم توفير ممسكات جيدة لهم . ولم تكن الجيوش في الممسكرات أقل خطراً على الاهالي من الجيوش المشتركة في الحملات العسكرية . وكان لزاماً على القادة تأمين ممسكات شتوية جيدة دونما اعتبار للاصدقاء والاعداء ، فيجبر ذلك إلى توسيع نطاق الحرب واطالتها . ولم يكن الهدف من ذلك خطأً استراتيجياً بل الحؤول دون تشتت الجيوش .

ان حروب الابداء لم تحصل الا نادراً . وكان من الصعب احراز نتائج حاسمة حتى بواسطة الجيوش الدائمة القومية الطابع كجيوش « مكسيميليان دي بافيير » بقيادة « تيلي » . ونشبت المارك ابدأ بموافقة متبادلة . وكانت الصفوف المتعاقبة عميقة جداً ، وربما بلغت السبعين كما فعل « والنستين » في ليزينغ . وأعززت الجيوش سرعة الحركة . فالمناورات التي من شأنها ان تجر ال تصدع جيش العدو والمطاردة التي من شأنها الاجهاز على تنظيمه وابدته ما زالت

بطيئة وغير ذات فعالية . فكانت الحروب أبداً ، وقبل أي شيء آخر ، حروب حصار طويلة الاجل .

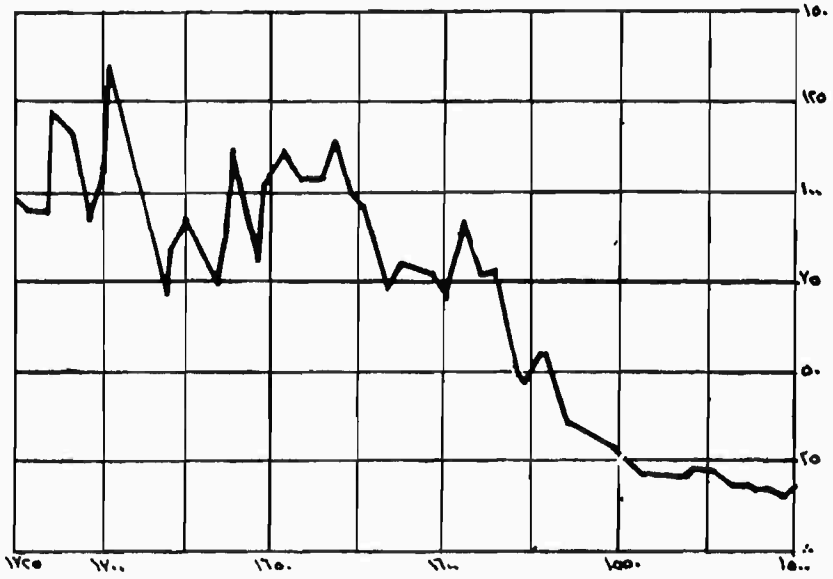
أما على البحر فقد ظهرت للمرة الاولى البارجة الحربية ، المدفعية العائمة . ولكن القادة البحريين لم يتوقفوا بمد الى استخدامها الافضل . فقالباً ما أطلقت مدافعها المرعبة من مسافات بعيدة دون ان تصيب المرمى ، « فلا يفقد البحر شيئاً من ملحه » .

اجتاحت اوربوا الوسطى اذن حروب لا نهاية لها وانتهكت الدول المجاورة التي اشتركت فيها .

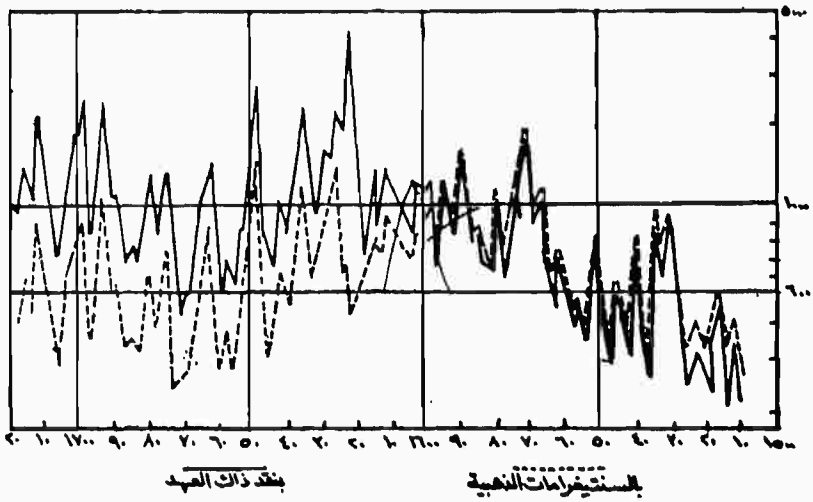
٥ - ازمة الحس الفني

شاهد القرن السابع عشر ذروة ازمة الحس التي برزت بوادرها في مصادر الفن المستهجن . وقد أطلق عليها اسم « الفن المستهجن » الذي يمكن اطلاقه على كافة مظاهر الفن . وقد ظهرت دلائل الحس المستهجن ، دونها شك ، في ايطاليا بعد نهب مدينة روما (١٥٢٧) واتضحت بميزاتها في الثلث الاخير من القرن السادس عشر بصورة خاصة . وكان مركزها مدينة روما حيث شيد « جاك فينيول » ، في السنة ١٥٦٨ ، كنيسة يسوع ، وهي الكنيسة - الام لجمعية اليسوعيين ، التي كان لها اكبر اثر في اوربوا . ويعتبر هذا الفن ، فن الحركة الاصلاحية المضادة ، ومعبراً عن فكرة الجمع التريدينتي . انطلق من روما وأشع ، عن طريق الكرادلة والاساقفة ورؤساء الجمعيات الرهبانية والسفراء وحاشياتهم ، في البلدان الاوروبية التالية : ايطاليا ، اسبانيا ، فرنسا ، فلاندر ، المانيا الجنوبية ، النمسا ، بولونيا ، أي كافة البلدان الكاثوليكية . أما البلدان الاخرى فقد اغلقت ابوابها في وجهه . ولكن فن الحركة الاصلاحية المضادة ليس سوى مظهر من مظاهر الحس الفني المستهجن . استخدمت الكنيسة نزعات كان مقدراً لها ان تفرض سيطرتها ؛ ولم تتناف هذه النزعات وعمل الجمع التريدينتي ، ولكن حالها في ذلك حال نزعات اخرى ايضاً . اصف الى ذلك ان الحس الفني المستهجن قد ظهر بعد ذلك في بلدان غير كاثوليكية ايضاً . وقد تأثر بالازمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية التي أحدثتها أشكال النهضة المختلفة والتي اتسع نطاقها في القرن السابع عشر . وكان بالنسبة لهذه الازمات ، علة قارة ومعلولا اخرى .

الفن المستهجن هو مظهر من مظاهر الحس ، وبالتالي مظهر من مظاهر الفن المستهجن السجية ، نشاهده في عهود مختلفة . وهو يقابل ، في الشخصية البشرية ، فترات المحطاط القوى التي فيها تضعف وحدة الشخص ، فتحل فيه محل « انا » الواحد اشكال مختلفة من الـ « انا » . فتصمد حينذاك تدريجياً ، الى مستوى الوعي ، مكونات اللاوعي



الشكل ٤ - سعر الاسمي للمنطقة في اوروبا الغربية والوسطى
(نقلًا عن السرو . بفرديج)



الشكل ٥ - سعر الجاردار في مونيخ بين السنة ١٥٠٠ والسنة ١٧١٥
(نقلًا عن إلساس)

الكثيرة والغامضة ، وبمجموع الدوافع التي يكتنفها الايهام والدفعة المتعددة الاشكال لكافة القوى الحيوية . فالفن المستهجن اذن يستهوي الحرية ويحتقر الانظمة والاعتدال واللياقات . وهو لا يخضع للمنطق بل يجمع المتناقضات . ليس يدري ما يريد ولكنه يريد الاجمال والخلاف في آن واحد . ينطوي في ذاته على المضادات ويعبر عن الكثير من النوايا . فاذا ما نظرنا الى تمثال ملاك من انتاج هذا الفن يتوج حاجزاً حديدياً في احد معايد سلامنكا ، نرى الساعد يرتفع كما لو كان ذلك لرفع شيء ما ، ونرى اليد تنخفض كما لو كان ذلك لوضعه في مكانه : هنالك اتجاهان متضادان في المعصد الواحد ، وازدواجية في النوايا . وهذا ما نشاهده كثيراً عند « غريكو » الذي يمثل اتجاهين مختلفين في ساق واحد من ساقى تمثال المسيح . فالعقل عنده في حالة انقصاص داخلي ، يزدري بموجبات مبدأ التناقض . أما الاعمدة فغالباً ما يصنعها ملتوية أو مفتتلة .

يستهوي الفن المستهجن كذلك الغموض وما فوق الطبيعة والتأثر والمواطف ومفاتيح الطبيعة والفولكلور . و يبحث عن الاتحاد بقوى الكون الحفية ، ويستسلم أمام هذه القوة ويحترمها . فهو كوني يقول بالوهية الكون ؛ و يبحث عن اندفاع الطبيعة الحيوي ، فيغدو متقلباً ، صاحباً ، أشوه ، منتفخاً ، ويغدو في الوقت نفسه زاخراً ومكثراً ، يضحى بالدقة على مذبح الحاسة ، وبالجلود على مذبح المغالاة . أما قوته فيتركها تتبعثر .

مثال الفن المستهجن : روبنس
ان روبنس ، ولعله الرسام الذي يمثل الفن المستهجن خير تمثيل ، يملك في الدرجة الاولى قوة الحيوية ، والاجزال في العطاء ، وفورة الحياة . « فهو يسلي اخصابه بخلق العوالم ، على غرار إله هندي في أوقات فراغه » . يعالج أوسع المواضيع تشعباً ، تاريخ ملك ، مثلاً قديماً ، العهد القديم ، حياة المسيح ، الدينونة الاخيرة . كل شيء يكبر ويتسع في روحه العظيمة . يخلق الواقع خلقاً جديداً . صور لوحاته تتعدى حدود الواقع . وصور نسائه مستوحاة من الفلنكيات ، ولكنهن فلنكيات كونيات . ليس من وجود للجسام الجميلة التي تولدها عبقريته الا في تخيلته . ان التمثيل الصحيح نادر في انتاجه . فمسيح لوحة « ضربة الحربة » في متحف انفرس ، المسيطر في النور الذي يغمره ، ليس مسيحاً معذباً ، بل مسيحاً هزم الالم والموت . وعالم روبنس الخيالي هو عالم المواطف في ذروة حداثتها . ففي لوحة « القنص » نرى سورة الغضب ضاربة تتأهب للتمزيق . وفي لوحة « معارك النسوة المترجلات » ، نشاهد اصطفاق غريزة الابداء . وليست لوحة « السوق الخيرية » في متحف اللوفر على شيء من الابتهاجات الشعبية : فاحتماء الخمرة فيها ابتلاع ، واستلام الراقصة خطف ، والقبة تلاقق او اقتراس متبادل ؛ ان اندفاعاً جنونياً الى الشر يززع هذه البشرية التي تحرقها روح روبنس . يحمل الالوان الطبيعية سمياً وراء قوة التعبير : فاجسامه غبراء واشجاره برتقالية . يكثر من المضادات المفاجئة والالوان الجارحة والاضواء الساطعة .

ان موافقات سرية تجمع بين الاشياء والكائنات . والاشكال تفقد حدود هياكلها الواضحة

فيتم نوع من الانصهار بين الاجسام وجوها . ويسري النور سريان الاجسام السائلة أو سريان تيار الحياة الكونية بالذات . والاولاد السامنون المثلون في اكليل من الاثمار هم انفسهم أطيب اثمار الطبيعة المغذية . لحم حورياته مادة سائلة ، حارة ، مختلجة ، مشعة ، متجددة باستمرار ، بل هو ذوبان نبيذ الكرم . فالدم الذي يملأ الشرايين ويحيي العضلات ويجعل النظر متوقداً ، في « قنص اجلالنا » و « الحوريات » ، مماثل للنسغ المحيي الذي ينبجس من الارض متموجاً ومخصاباً ويحول في الاغراس والنباتات .

وعلى نقيض التناسق والتوازن في فن النهضة نرى ان انشاء حركة كله واندفاع وارتقاء . يصعد سيل اشخاصه في اتجاه منحرف . ولا فرق عنده في تحديد مركز صورته الرئيسية من اللوحة ، فقد يضعها في الخلفة او المقدمة ، الى اليمين أو الى اليسار ، أو في الوسط . وعوضاً عن ان يقابل مجموعاً بمجموع ، وصورة بصورة ، نراه لا يتردد في مقابلة الصور المنفردة بالمجموعات . أما التلاحم الذي نلسه في مجموع متشوش فمصدره النسق العام الذي يستولي على المشاهد ويخلق وحدة الانطباع . ففي لوحة « الصعود الى الجلجلة » المعروضة في المتاحف الملكية في بروكسل ، نرى ان ما يعطي المشهد مغزاه ، مع ان المسيح قليل الظهور فيه ، هو صعود الموكب الحزين منذ الزاوية السفلى الى اليمين حتى الزاوية العليا الى اليسار . وفي لوحة « سقوط الملكى » المعروضة في مونيخ ، نرى بشرية تننة قدوب وتنساقط شلالات من اللحم الذي لن يلبث ان يختلط ، في النار الجهنمية المتأججة ، بالبورق الصهباء والادخنة الكبريتية .

ان فنه يعبر عن كون نختمر فيه اختاراً مستمراً قوى تتجدد ابداً ، وعالم يتحول تحولاً دائماً وتلاشي أشكاله السائحة بعضها بعضاً وتتجدد في فضاء لا نهاية له وفي ديمومة لا حدود لها ، وفاقاً لحركة الحياة الازلية .

الفن المستهجن عند ممارسيه ان روبنس هو رسام الحركة الاصلحية الماكسة ، مصور النهضة الادبية الورعة التي أصلحها الجمع التريدينتيني . ولكن حس الفن المستهجن يبرز حتى في البلدان التي اعتبرت مراكز مقاومة هذا الفن .

الفن المستهجن عند رمبرانت ان رمبرانت الذي نغصر الكلام . عليه هنا يتميز ، في الاقاليم المتحدة ، بفن مستهجن قد يبرز به الايطاليين والاسبانيين وحتى روبليس نفسه . فالمتنسبون الى هذا الفن من الجنوبيين يحطمون الخطوط بالحركة ويزعزعون السطوح المستوية والاجسام ويحطمون الاقمشة وأجسام الملائكة تخفق وكان ريحا زعزعا تعصف بها . اما رمبرانت فيجعل الحركة تتفلفل الى دقائق مجموع اللوحة باحكام توزيع الاضواء والظلال . ان « تنتوريه » و « غريكو » يحطمان الخطوط ، ولكنها يبقيان على ابعاد عريضة من الخطوط الساكنة . اما رمبرانت فيمزق الخطوط بالارتجافات . يتميز الجنوبيون بتمسدد النوايا التي تتعاقب بسرعة . اما رمبرانت فيتميز ، في كل برهة ، بنوايا متناقضة تتجانب في

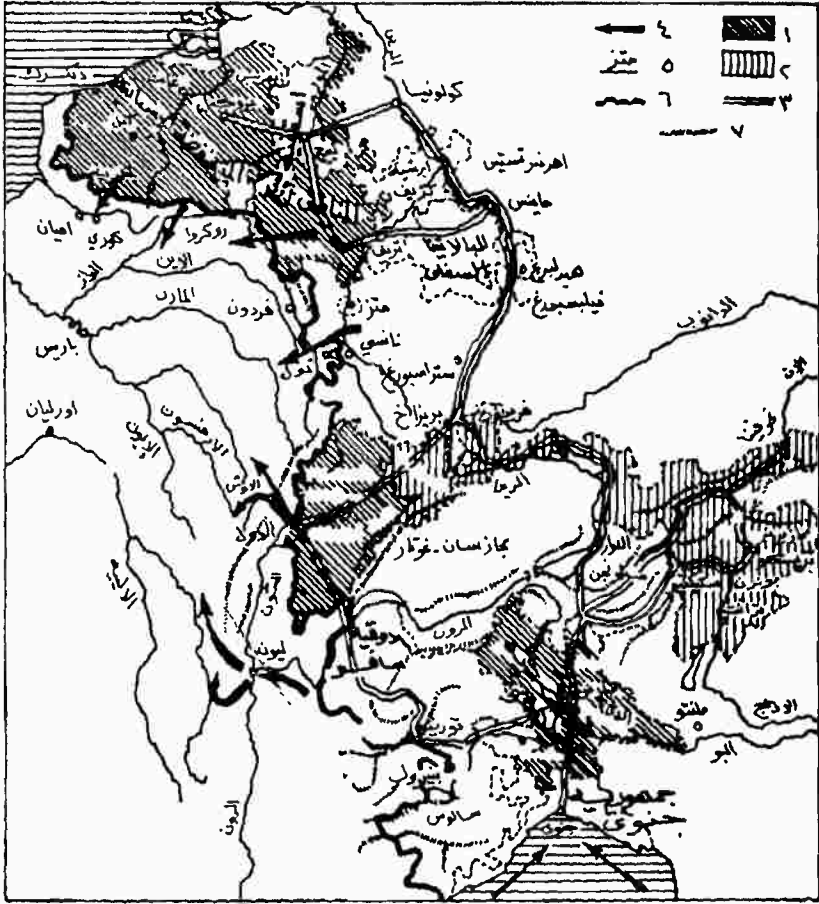
آن.واحد . يستعجب النور في الظل حيث يبقى حائراً دون ذوبان ينتشر انتشاراً سريعاً
ويصطفق اصطفاً فجويًا في داخل الظل . ان رمبراندت يذهب بميزات الفن المستهجن الى
حدود الافراط .

الفن المستهجن الفرنسي انتشر حسن الفن المستهجن في هندسة العمارة الفرنسية ، في ولايتي
هنري الرابع ولويس الثالث عشر ، انتشاراً مائلاً في هندسة
العمارة الايطالية أو الاسبانية في العهد نفسه ، ولا سيما في عهد شريفرا ، (١٦٥٠ ، ١٧٢٣)
ولكن دونه افراطاً في الاستهجان . فقد نشر روبنس ، بعد عودته من ايطاليا ، « قصور
جنوى » وشيد لنفسه في أنفوس بيتاً مستوحى من الفن المستهجن . وادخلت النقاشة بعد ذلك
الاشكال المستهجنة الى فرنسا حيث اعتمدت فوراً وعلى نطاق واسع نسبياً بسبب حاجة
عميقة اليها .

حطم الفن المستهجن المثلثات في أعلى الابنية ونضدها وأضفى الحياة على الخطوط ولوى
الاعمدة ولف النقوش الحزونية واعجب بالنمط الكورنثي المتفعل، وثنى الاقسام النائفة كما تنسى
السيور ونفضها الى ان غدت محدبة وبرز المصائب وقمر النحور وضخم القواعد وصغر الصور
الغريبة التي تغدو أفوامها أنسجة قطنية وآذانها أبقا ترمز الى الوفرة ووجناتها وأذقانها نباتات مختلفة .

وزخر هذا الفن بالقوة الطبيعية . فأكثر من أوراق النباتات القوية الملتفة ، التي التصقت
بكل المساحات وقفوست سعواً وتساقطت شلالات وتعلقت أكاليل وتفلكت تيجاناً . واكثر
من التماسيح واللقطي والأضب والدلافين والأرانب البرية والنسور . وزعزع شعباً من التنايل .
فالملائكة والقديسون والآلهة يتزلون فوق الافاريز والمذابح والمثلثات في أعلى الابنية ، ويأوون
الى المشاكي أو يجرسون حول القبة والصحن . اما تماثيل الجدران النصفية المعلقة بأوراق النبات
فتتحول الى قواعد ، والرؤوس تزين الأغلاق وتسم الافاريز وتستخدم تيجان أعمدة . فكان
الحجر يسو ويميش بنوع من الحياة المسيخة .

ولكن هذا الحس لا يختلف عن ذوق الكتاب . فان تكلف «فواتر» وفخفة « بلزك »
وبطولة « كورنابي» وغزارة « اونوريه دورفيه» ومخزلق «سكودري»، كل ذلك يبرز في الاطارات
المزينة والمثلثات المطولة والتنايل العاضلة . كما ان تعابير النقاشين هي نفسها التعابير التي نجدتها
في لغة « رينيه » المبرقشة . اضف الى ذلك ان الجميع شغفون بالمرح الذي كلف به البلاط
والمدينة . ولكن ضوابط المسرح غالباً ما يفرها النسيان ، فلا وحدة زمان ولا وحدة مكان
ولا وحدة لهجة . كما أن احاديث السكارى والاغتيالات ، ومشاهد الهول والمشاهد الخلاعية
تتعاقب تعاقباً مطرداً . والاهواء البشرية تنتقل الى الطبيعة باسرها . ففي نهاية تمثيلية « بيرام
وتيسبيه » يتوجه كل من الحبيبين بصلوات صوفية الطابع الى القمر والجدول والزهور . وتتدخل
القوى الفائقة الطبيعية ، وثنية حيناً ، كفينوس وديانا وكوييدون وإلهات الجمع ، أو مسيحية



الشكل ٦ - الحدود الفرنسية في السنة ١٦٠٢، والطرق العسكرية الإسبانية
 ١ - ممتلكات سلالة هابسبورغ إسبانيا ٢ - ممتلكات سلالة هابسبورغ النمسا ٣ - الطرق العسكرية
 الإسبانية ٤ - نقاط الضعف في الحدود الفرنسية ٥ - مدينة استولت عليها فرنسا
 ٦ الحدود الفرنسية ٧ - خطوط المرتفعات الرئيسية

حيناً آخر ، كلاك وإبليس والشيطان . وينتشر السحر انتصاراً باهراً : الاثرية ، والجواهر المسحورة ، والمراهم العجيبة ، والاموات المبعوثون احياء . وتكثر الاحلام واجوبة هاتفي الغيب وظهورات الظلال والارواح . وتلمب المصادفة دوراً غريباً : احداث طارئة ، فراقات ولقاءات تسببها العواصف أو القراصنة ، حوادث غرق تنتهي بنجاة الغرقى ، جروح سريعة الشفاء ، مسدسات لا يلبي زنادها ، خطف النور للاطفال .

يطالب المشاهدون بالتأثرات القوية . لذلك نرى الممثلين يتضاربون ويتقاتلون على المسرح ، ونرى الجثث والرؤوس المقطوعة والقلوب . ويلعب الممثلون ادوار مضطربي الحواس وأدوار المجانين اليائسين التأثيرين . وتعرض على المسرح المدافن والاسفنج المسليء بالدم والاجواخ السوداء الملطخة بالدموع البيضاء . وتنتهي المأساة احياناً بانتحار علني يقدم عليه كافة الممثلين .

ويسمى المؤلفون وراء تصوير السجايما الغريبة والاهواء في ذروة سحتها : انتقامات هائلة ، كانتقام « ميداي » ، وانتقام « قياست » ، ورغبات شديدة كتبادل القبة بملء الفم والاعتصام على المسرح ، الزنى والافراء ، وهما امران عاديان ، الزنى بسين الأقارب : كاغتصاب الشقيقة وتسرر الأب وابنته .

وتزيد الهبة من عزم العاشق . واليك مثلاً عن ذلك في مثل هذا الادعاء بالبسالة :

... وكان بمكنتي ، في سبيل امتلاكك ، أن أقدم على ما هو اسوأ من ذلك .
ففي سبيل الفوز بهذا الكنز العظيم والثمين .

حاربت الملوك ، وما سكنت لأتردد في محاربة الآلهة .

كما ان العزم يبحث عن اشد العقبات هولاً والمواقف الحرجة التي من شأنها اقنساط النفوس العادية ؛ فبطل المأساة رجل عزم من الطراز الاول . ولكن المشاهد يرغب في ان يرى ، الى جانب العزم ، ما يقابل العزم بمنق من اشخاص يثيرون ضحك الاستخفاف والسخرية أو يدهون بالبسالة ، وكهول متيمين ، ومدعي علم ، ومجانين .

بالفن المستهجن يتصل التصنع أو الكلفة . والتصنع هو على غرار الفن المستهجن ، نمط حياتي ، ومطالبة فردية بالاستقلال ، ويظهر بين وقت وآخر في عالم بلاطات الحب وردهمات الاستقبال . وقد دفع به الى الامام ، في القرن السابع عشر ، ظهور قصة من وضع « اونوريه دورفيه » ، « استريه » ، التي أضافت اليه اثر الافلاطونية الادبية والعالمية في النهضة . يبذل المتصنعون جهدهم للانفصال عن العامة كي يصبحوا نادرة ويشيروا الدهشة في كل شيء . فهم في الهبة كهان الحب العذري ، الحب الطاهر ، المرفوع الى مستوى الدين ، البعيد عن المخالطات الجسدية والملذات والزواج . وبسبب رغبتهم في التميز الارستوقراطي ، انتهى الأمر بالمتصنعين في اسلوبهم الكلامي ، الى الطمطمانية ، الى طريقة تمبير خاصة بفتهم . فكل ما هو شعبي ،

وكل مفردات المن ، وكل ما يشتم منه المماحكة والتظاهر بالعلم قد اقصى عن هذا الاسلوب ، وبلغ من هذا الاقتصاد ان « انجليك دايجين » قد اغمى عليها اكثر من مرة عندما كانت تسمع كلمة غير مقبولة في بيتها . والكلمات المقبولة ، على نقيض ذلك ، هي تلك التي تعبر تعبيراً قويا يبلغ حد الافراط : فالمتصنعون يحبون « بحرارة » ؛ ويحتقرون ما هو من شيم « آخر » بورجوازي النخ . . أما في الأدب فهم يتلهون . يبحثون عن كمال المبنى وعماء يثير الدهشة . ولكنهم يلزمون أما الألوان الصغرى ، كالرسالة وقصيدة الهجاء والقصيدة الغزلية وما شاكل ذلك ، وأما القصة الراعوية وقصة المغامرة . وكتبت الأنسة « دي سكودري » قصصاً شهيرة عرف اعرها البقاء ؛ « كورس العظيم » (١٦٤٥) ، « كليبي » (١٦٥٤) . وهدف التصنع في هذه القصص الى التميز باللباقة والمهارة : النكات ، والتقابل ، والاستعارة ، والصور الرمزية ، وكل ما هو بديع وغير مرتقب ومفرط . وفي اللون الرمزي ، عرفت الجغرافية العاطفية ، التي تمثل « بخریطنة الحنان » ، في الكتاب الأول من الجزء الاول من قصة « كليبي » ، شهرة عظيمة ما بين السنة ١٦٥٤ ، والسنة ١٦٦٤ . ومن حيث ان التصنع يسمى وراء الصعوبة والغرابية ، فهو قد استهوى التحليل النفسية الدقيقة ، فميز وعزل وقسم وأحصى وحدد ؛ فهد الطريق ، من حيث لا يدري أمام الكلاسيكية ، بحرصه على الاتقان والوضوح .

لقد سعى الناس ، في المسرح ، وراء فتنة التزيين ، والاعمدة الفخمة ،
 الدن المستحسن اليومي
 والحدائق السحرية . ولكن الاغنياء بحثوا في حياتهم اليومية ايضاً ،
 عن المفروشات المتعددة الألوان والحزائن المزدانة بالمينا والحزفيات الصينية والأواني البلورية والصناديق المشجرة والمدبجات والتذهيب ومرايا البندقية والمخمليات والحرائر والاقمشة المطرزة بالذهب والفضة والعربات الفاخرة والطنافس التركية والصينية والسقوق الخشبية المصورة . وفي العصور بهرت الاروقة الميون بنفائسها المتقلبة الألوان وأدهشت العقول بكل براعة تخدع الميون . وجملة القول ان الغرابية والقوة وشدة التأثير تسيطر على الحياة اليومية .

أو ليست مصادر هذا الاضطراب الداخلي ، وهذا الجري وراء الحياة التي
 الدن المستحسن
 تبدو وكأنها هاربة ، وهذه الحاجة الى التأثيرات القوية وامواطف العنيفة
 والاستفادة من الحياة الى آخر حدود الاستفادة ، هي البؤس والحروب والمجاعات والابوثة وكافة اسباب الابادة التي تهدد كل شخص في كل وقت ؟ أو ليست مصادر الصراعات الطبعية والحزبية والمشادات الدينية والسياسية التي تزعم الانسان على الوقوف في وجه مواطنيه وأعضاء عائلته واصدقائه ونفسه بالذات ؟ أو ليست اعترافاً بالقلق ووسيلة للتخلص منه في آن واحد؟ أو ليس من شأنها ان تصبح بدورها سبب اضطراب فكري واضطراب اجتماعي وسياسي ؟

٦ - الازمة الاخلاقية والدينية

البطل ساعد الفن المستهجن ، في الارجح ، على بعث أزمة عقلية عامة برزت في الاخلاق في الدرجة الاولى . ففي هذا المجتمع ، حيث توجب على الفرد ، المهذب باستمرار ، ان يثبت انه عدو خطر ، وفي هذا المجتمع الذي ما زال ارسوقراطياً ، وحيث المثل الاعلى هو الانسان النبيل ، الجندي الممتاز ، الفارس ، وحيث ساعد فقدان التوازن بشتى انواعه على اضطراب الـ « أنا » ، وبالتالي على الاندفاع في الكبرياء ، نرى ان الانسان الفاضل هو الماهر الماهر والبطل البطل ، اي القدرة والمجد . أما الواجب ففي اشباع الحاجة إلى المجد . ويقوم المجد بالتقيد بقوانين الشرف الاجتماعي الذي هو الشرف الاقطاعي ، أي النبيل . ويقود إلى التضحية بالاهواء التي تتعارض وهذا الشرف : فالاميرة في تمثيلية « السيد » تضحي بمحببتها على مذبح واجبها نحو نسبها ومرتبها اللذين يحرمان عليها الزواج من شريف ريفي عادي . فيصبح المجد من ثم موجباً باطنياً ، شريعة داخلية . والواجب يقضي بالانتصار لا على العقبات الخارجية فحسب ، بل على الاهواء والخوف والحجل والحنان في صميم داخلنا أيضاً . والفضيلة بالذات ، والحالة هذه ، هي السخاء ، أي السمي بسخف وراء المجد ، واخضاع الاهواء للمجد . والبطل هو ذلك الذي أقسم أمام نفسه بان لا تعوزه الشجاعة البتة في السمي وراء المجد ، حتى ولو كلفه ذلك التضحية بنفسه لأجله .

ولكن هذه التضحية هي تضحية الاهواء الاخرى على مذبح الهوى الأعظم ، أعني به الكبرياء . هذه الفضيلة هي إثبات كيان الفرد ، كما يتضح من صرخة « ميداي » : « ماذا تبقى لك في هذه الداهية الدهيئة ؟ - أنا . » ان عقل البطل وقوته المعنوية وإرادته وعزمه اللفظ وبسالته ، كل ذلك ينبع من شعوره ، في الحق والانتقام والطموح والحمية والوطنية والحب والاهواء « الرجولية » « النبيلة » « المسيطرة » ، وهي تعبر عن القوة الحيوية التي تجيش في الفرد وتدفعه إلى اثبات قوته والسيطرة على الآخرين والامتياز والتفوق على البشر الآخرين الذين سينتهي بهم الامر إلى إحاطته بهالة اعجابهم أو بنوع آخر من التكريم هو البفضاء والدسائس الدائمة والافتراءات المقيتة ، التي يمكف بها المتوسطون حول البطل .

ان البطل يبحث عما هو جميل وجليل وغريب ، وعما « لا مثيل له » ، وقد يجده في الجريمة نفسها . فد « رودوغون » تطلب إلى أخوها قتل امها . وكليوباترا تصرخ قائلة « أخرجني من قلبي أيتها الطبيعة ... » ان البطل ينطلق وراء العظمة وتجاوز الحدود . أجل ان أخلاق البطل دالة مجتمع أرسوقراطي ، ولكن يبدو انها تتفوق على مثل الفروسية الأعلى ومثل النهضة الأعلى ، وان سعيها وراء قفتح الانسان في كافة نشاطاته ، ووراء نجاحه في كافة أشكال الجمال ، أقل منه وراء ارضاء الكبرياء بالقوة ، وانها على مزيد من العصبية والتور والقلق المترجرج ، أي انها في حقيقة واقعا مظهر من مظاهر الاستهجان .

كان المجمع القريدينتيني ، في الحقيقة ، قد كرس ، في وجه الإصلاح ، التفسير المسيحي للنهضة الأدبية . ومنذ الثلث الأخير من القرن السادس عشر ، نشر علماء الآداب القديمة الورعون مئات « المداخل إلى الحياة التقوية » ، و « الأبحاث في محبة الله » . إن الإنسان انعكاس للشبه الإلهي ، والطبيعة البشرية هي من ثم آية الخلق . ويغلب أن جرح آدم القديم لم يفسد كل كياناتنا . فإن أهواءنا ثمرة طبيعتنا ، وخلقنا حكمة الله ، جيدة مجرد ذاتها . وواجباتنا الأرضية هي نحو أنفسنا : فمليننا أن نسمو إلى أعلى ذرى السمو بجبال الطبيعة التي منحنا إياها الله ، وهو عقلنا ، انعكاس العقل الإلهي ، ما سيعين لنا مبادئ سلوكنا .

العالم جيد . وقد خلق ليعدونا إلى الله ، و « الجمالات الدنيا » هي بمثابة درجات يجب أن تتسلقها محبة الإنسان درجة درجة إلى أن تصل إلى الاستمتاع بالجمال المطلق . « صنع الله الخلائق في وجوده نستمتع بها » . فيتوجب على الإنسان أن يكون « إنساناً شريفاً » ويجب جمال الطبيعة وجماليات الفنون والتماثيل والموسيقى والعطور والأعياد والأفراح ، ولا سيما الجمال النسائي ، لأن المحبة الزوجية إشباع من المحبة الإلهية وتقدم تدريجي نحوها : « لماذا الحفر من المحبة ؟ .. فهل من خجل في التعلق بصورة الله ، وخلقنا عاقلة وشخص شريف حسن التربية يتباهى بالشرف والفضيلة ؟ » (كامو ، اسلف بلي . وقد درج روبلس على تحديد فنه : « تمجيد قوى الإنسان وابتغائه » .

ويقدم الله ابداً لهذا « الإنسان الشريف » نعمة الفداء . يترك الإنسان حراً في الإجابة بالقبول أو بالرفض . ومن حيث هو محبة كله ، لا يستنكف البتة من موقف الإنسان . والإنسان يستجيب لهذه الجودة الحنون بالمحبة . أو لم تموده النهضة الأدبية العيش في بهجة ربيع حنان شامل ؟ إن هذا المذهب الأفلاطوني قد حطم قيود الحسن الفني المستهجن . فإن المديد من اليسوعيين وكهنة الرعايا قد نشروا الموسوعات ، « عجائب الطبيعة » . كما أن المديد من الكهنة واللمانين قد تأثروا إلى حد بعيد بالشراء الذينيين . فإن المثات من الرهبان والقضاة ورجال القانون وعظام الأسياد ، قد نقلوا شعراً ، في نشوة كلامية ، المزامير والتأملات والصلوات :

« ابتها النجوم المضيئة ، ابتها الصفائح الذهبية

التي يزدان بها الليل

وينثرها ماساً في اشرعته ،

ايازهور الحدائق اللازوردية ... »

باركي الرب ، كما انشد السكسبوشي « مارسيال دي بريف » . وإن هذه المحبة الشاملة تقود إلى محبة الله :

لا تغيروا مزاجكم بل غيروا أهدافكم ؛

أحبوا ، ولكن أحبوا الله الذي يبادلكم محبة ثابتة (الرئيس فافر) .

وباستطاعة الانسان ، اذا ما تخلص بالمحبة الطبيعية من تسلط الانانية والدناءة وتعود نسيان نفسه والتواري في الاشياء المحيطة به والاستسلام حتى التضحية بشخص عزيز ، ان يحب الله محبة حقيقية تنسى نفسها ولا تحرص الا على ارضاء الله ، دونها خوف أو أمل ، وتدعن الى كل ما يريده الله « حتى اذا كان ما يريده لنا عذاب جهنم » . وباستطاعته آنذاك ان يحب الله « محبة خالصة » . وكانت مريم المجدلية ، من هذا القبيل ، بطلة القرن السابع عشر المفضلة . وهكذا فان النهضة الادبية الوردية قد عززت التيار الصوفي .

ان الصوفية ، وهي الحياة مع الله وفي الله ، هي جوهر النهضة الكاثوليكية
الصوفية والحركة الاصلاحية المضادة . فان جماهير تنتمي الى كافة الطبقات ، عامة الشعب ، والرعاة ، والراعيات ، والبقارين ، وفقراء المدن ، والقضاة ، والاشراف الريفيين ، عاشت منذ السنة ١٥٧٠ تقريباً عيشة تأملية ، تحت نظر الله ، وبتوقه ، متحمدة به ، ضحايا الانخطافات والرؤى التي هي في غالب الاحيان فدية ضعف الجسم البشري ، ولكنها شامتة الله بفعل نور باطني سرّي . وبثت حركة اوروبية تعاليم الصوفيين الريتانيين من امثال هارفيوس وتولر ، والصوفيين الاسبانيين والايطاليين ، وكلاسيكي الحياة الروحية في القرون الوسطى ، من امثال كاسيان والغديس برناردوس ، الذين نشرت مؤلفاتهم واعيد نشرها تكراراً باللغة اللاتينية واللغة الشعبية ، بفضل علماء الآداب القديمة . ونظمت شعراً غنائياً وضع اسمى صوفية في متناول النساء الفقيرات الجاهلات انفسهن ، واشيحت بفضل المرشدين الكروتوزيين من امثال « دون بروكوزين » او الكبوشيين من امثال « بنوا دي كنفلد » . ونجمت عن هذه الصوفيات مدارس قديمة حقيقية اقلقت بالوزراء والملوك انفسهم الذين عاملوها معاملة القوى الكبرى . فان « ماري دي فالنس » الامية قد تولت تهذيب الاشراف الريفيين ورجال الكنيسة ، وحتى الاب « كوتون » اليسوعي مرشد هنري الرابع ، واستقبلت ريشيليو الذي زارها ماتربيا . وتفوقت مدام « اكارى » (١٥٦٦ - ١٦١٨) ، وهي ابنة محاسب وزوجة محاسب ، في الارشاد الروحي ، وبلغت من تفوقها ان اليسوعيين وراهبان الغديس فيلبس النيري وكهنة الرعايا كانوا يتوجهون اليها بنية معالجة الحالات الصعبة . وقد التف حولها « كنفلد » ، « بروكوزين » ، فرنسوا دي سال ، « بيروول » مؤسس جمعية « ماريلاك » الراهبانية ، دوغال ، الدكتور في جامعة السوربون . وحرص هنري الرابع على ان لا يفقد حظوته لديها . وقصد جمعت في منزلها فتيات كن نواة الراهبات الاورسوليات والراهبات الكرمليات في فرنسا . وهي من اسهمت في ادخال هاتين الجمعيتين الى فرنسا ، فبدأ بذلك اصلاح اديرة الراهبات . ويمسود الفضل في استكمال « فرنسوا دي سال » تربيته الصوفية الى مراقبة الصوفيات الكرمليات في دييون ومراقبة راهبات الزيارة من بعدهن (بعد السنة ١٦١٠) ، وليس « البحث في محبة الله » سوى وصف اختباره للفتيات المتدينات .

ولما كان التأمل يتيح تجديد احوال يسوع المسيح الباطنية في نفس الصوفيين ويحمي المسيح

فيهم ، فانه قد جر قسراً الى اصلاح الاديرة . فبات من ثم مستحياً على الراهبات اللواتي كن يعشن فقر المسيح وآلامه ومحبته ان يرتدين ملابس بيضاء صوفية ناعمة او كتانية مفضنة وان يتنافسن في اقتناء اجمل لباس واحسن مسبحة واكبر عدد من الجواهر الكريمة ؛ وبات مستحياً عليهن كذلك ان يعشن كل على حدة وبأكلن على هواهن في حصنهن مع صديقاتهن ، ويستقبلن الزائرين ويتقبلن الهدايا والمعاشات ؛ وبات مستحياً عليهن اخيراً ان يستقبلن الاشراف الريفين الآتين للاطلاعن ، وان يخرجن متنكرات بملابس الراعيات بغية حضور اعراس القرية او الاجتماعات الريفية ، كما بات مستحياً على الرئيسات في هذه الاديرة ، وهي تمتلكات عائلية تنتقل من عمّة الى ابنة شقيقتها ، ان يستقبلن انسابهن بين راهباتهن الخضبات والمسكات والكاشفات عنقهن وكتفيهن واعلى صدرهن ، ويرفهن عنهن بالموسيقى والنزهة والولائم . وبفضل الاثر الذي تركته السيدة « اكارى » باشرت « ماري دي بوفيليه » ، رئيسة دير « مونارتر » ، اصلاح ديرها الذي غدا مدرسة للرئيسات الاخريات . كما ان رئيسات الاديرة البندكتية ، وكلهن فتيات نبيلات يحسن ممارسة السلطة ويتميزن بحزم زول معه فكرة المقاومة عند المرؤوسات ، قد اقدمن بمشورة جماعة السيدة « اكارى » والكرتوزيين والكبوشيين والبندكتيين واليسوعيين على فرض التأمل الالزامي ، في ساعات معينة صباحاً ومساءً ، وفحص الضمير والرياضة الروحية السنوية والحياة مع الله وما تستوجبه من احترام القانون والتحصن المشدد ، واضفن الى كل ذلك منع الزيارات العالمية ، والفصيل المشترك ، والمائدة المشتركة ، واللباس الاسود ، والصلوات الليلية ، والصيام ، والقطاعة ، والبرد ، والامانات على انواعها . وحدث اصلاح نفسه في الرهبان من كرميلين وكبوشيين وغيرهم ، ثم انتقلت حياة التأمل من الاديرة الى المعلمانيين بفضل المرشدين وواضي المؤلفات الروحية . فقد نشر القديس « فرنسوا دي سال » ، المدخل الى الحياة التقوية ، في السنة ١٦١٠ و « البحث في محبة الله » في السنة ١٦١٦ .

ولكن هؤلاء الصوفيين، الراعين الضعف البشري، والمنتظرين

النهضة الادبية الورعة تعرض للخطر بفصل الابان عن الحياة

كل شيء من نعمة الله بفضل استحقاقات القادي، والموحدين حياتهم بادخال الانجيل كله اليها ، قد اشتبهوا آنذاك بما قد

تنطوي عليه النهضة الادبية الورعة من تعلم مذهب الطبيعيين . او لم تقض ثقها بالعقل البشري الى الفصل في اغلب الاحيان ، عند علماء الادب الورعين ، بين الحياة والدين ؟ او لم يشاهدم الناس ، على الرغم من تصلبهم في موضوع العقيدة ومواظبتهم على الاحتفالات الدينية ، يسترشدون حكاء العصور القديمة ، ويقتدون بهم ، ويستنجدون امام الموت بالوثنيين من امثال افلاطون وسنيكا ، كما لو كانت الطبيعة تكفي نفسها بنفسها ، وكما لو كان حكم الانسان قانون الحياة الاوحد ؟ اصف الى ذلك التناقضات الغريبة التي نجمت عن هذه المواقف . فقد تغلبت المصلحة على الله في قلب القاضي الورع « بوشار دي شامبيني » ، كبير اخوته الرهبان الكبوشيين والكرتوزيين ، فقاوم دعوة ابنته الى الحياة الرهبانية وارغما على زواج يحسن وضع ابها

الاجتماعي ؟ واوجب القائد « دي غوندي » على ابنه ، « رتس » الشهير ، وهو ايمد الناس عن التدن والمعبادة ، ارتداء ثوب الكهنوت ، بغية الاحتفاظ لعائلته بمرکز رئاسة اساقفة باريس . فكانت نتيجة مثل هذه التصرفات افساد الكنيسة عن طريق الدولة ، وتمييز اساقفة سياسيين وعلمانيين ، ورتبا كنسية تسند الى العلمانيين ، وحتى الكلفينيين منهم ، واساقفة في سن الطفولة ، وكهنة اميين يعجزون عن توزيع الاسرار ، ولا يعطون ولا يبشرون ، ويتركون المؤمنين في الارياف جاهلين وجود الله ويفسدونهم ويقنعونهم ، كما حدث في ابرشية « كوثانس » بانه خير للفتيات ، في اية حال من احوالهن ، ان ينجبن الاولاد من ان لا ينجبنهم .

النهضة الادبية الورعة
تعرض للخطر بفعل تطرفاتها
ودفع الحس الفني المستهجن ببعض علماء الادب الورعين ، من لا
مأخذ عليهم ، الى تطرفات احرجت مراكزهم . فالمصور القديمة ،
في نظرم ، تحمل ، في ما خلفت ، حقائق الوحي الاولي وتبشر بالحقائق المسيحية . وما الامثال
القديمة سوى رموز . فميرفا هي الكلمة وكوييدون هو صورة الهبة الالهية . وقد غنى الناس :

يا قديسة احراجنا ، ديايا
يا سيدة نفسي الوحيدة ،
ايها العذراء والام ، اسمعي صوتي .

وقد رأوا في افروديت ترفض الحورية الهرطقة التي ترفض الكنيسة . الا ان جميع هذه الرموز كانت مثقلة ، لسوء الحظ ، بشهوانية محومة من شأنها اثاره الاضطراب في الضائير .

فهل كان احتراماً حقاً ان يرى الناس في الله ، على غرار الكثيرين من علماء الأدب الورعين ، الصديق والاخ في الدرجة الاولي ؛ وهل كان موافقاً للسيادة الالهية ان تبدو وكأنها تعتبر الانسان مطلق الحرية ، وان يكون الله مرغماً ، نوعاً ما ، على منح نعمته اذا كان الانسان قد اختار طوعاً ان يعمل الخير (مولينا) أو مرغماً على العفو بجمحة انه قد يحطم صورته بالذات اذا ما حطم الانسان ، وقد يتلاشى اذا ما لاشى الخاطيء (كامو) ؟

وهل كان من اللائق نظم وصايا الله والصلاة الربية والاسرار ابيات شعر مقتضبة وغناؤها الحاناً رائجة ، والاكثر من النكت والتصنع في اللطف والاضحاك والتكلف وكل لون ادبي مستهجن ، والطلوع بمثل هذه الكتابة : « ان هذا القديس المبارك قد غذى بحبة قلبي » ، أو اقدام اسقف ، من امثال « كامو » ، على تأليف قصص غرامية حتى ولو كان القصد منها دفاعاً عن العقيدة ، أو تمضية الوقت كله في احكام التأمل بالطبيعة ودرس العلوم الدنيوية لأن العالم عمل الله ؟

قامت في وجه النهضة الادبية الورعة ردة فعل استهدفت اتمام عمل الجمع
الجنسية
التريدنتيني باستيحاء روح القديس اوغسطينوس . ولكن تأويل الاروغسطينية
أوقع البعض آنذاك في تطرف آخر هو الهرطقة الجنسية . وقد أطلق عليها هذا الاسم نسبة

لـ « جنسن » اسقف « ايدر » الذي نشر في السنة ١٦٤٠ كتابه العقائدي الهام « اوغطينوس » الذي وسع وكمل نظريات لاهوتي كاثوليكي آخر « بايوس » ، المحكوم عليه في السنة ١٥٦٧ . وغدت الجنسية حركة اوروبية تميزت قوتها في فرنسا منذ ان نشر « أرنو » (١٦٤٣) كتاب « تناول القربان المتواتر » : وكان مركز الجنسية دير الراهبات في « بور روبال » وجماعة « السادة » الذين كانوا ياقون ويمارسون حياة العزلة في جوار الدير . ولكن الجنسية جمعت حولها انصاراً وأصدقاء في اوساط الاكليروس كلها ولدى العديد من المؤمنين . أما المؤلف الذي يعتبر اليوم اشهر مؤلف جنسيني النزعة فهو « الحطرات » التي جمعها باسكال بين السنة ١٦٥٨ والسنة ١٦٦٢ ونشرت جزئياً في السنة ١٦٧٠ وكان لها اثرها العظيم في القرن التاسع عشر .

يمثل الجنسية نزعة دائمة للفكر البشري هي تأويل الدين المسيحي تأويلاً تشاؤمياً . وهي نزعة لوثر بالذات . فان المتشائمين الذين يكونون اسمى فكرة عن عظمة الله وقدرته الكلية ويتأثرون بالغ التأثير بضعف الانسانية وبؤسها ، قد كوتوا لنفسهم فكرة اله رهيب يعجز العقل البشري عن ادراك مقاصده واحكامه . بدونه لا يستطيع الانسان شيئاً . يذهب الى حيث يجد لذته ، وهو لا يجد لذة ، منذ الخطيئة الاصلية ، الا في الشر . ذهنه يدور في حلقة مفرغة ولا يستطيع التوصل الى اية حقيقة (نتيجة مذهب الاسمية) ، عقله المتناقض والمتقلب سخريه ؛ وارادته عجز . الانسان لعبة . القوى الخارجية الساحقة ، واتفاق الظروف ، والمعادن تقوده وتلعب به كما تلعب الريح بدوارة الهواء . الانانية وحب الذات والقابلية الفردية هي وحدها ما يحرکه .

« ان هوج رياح الشهوانية

تجعل لحد يصطفق اصطفاق علم قديم » .

لا حول للانسان . ولكن الله الكلي القدرة يجعل الانسان ، بفعل نعمته ، يجد لذته في التقيد بالوصايا . وهو يمنح هذه النعمة اناماً اختارهم منذ الازل للمجد الساهوي . وقد مات المسيح لاجل هؤلاء دون غيرهم وفدام وخدم فقط . وعديد هؤلاء قليل جداً . وليس بكنتمهم التهرب من هذه النعمة لانها تفرض نفسها عليهم . الانسان ليس حراً ، بل هو عبد الله ويقضي من ثم على الانسان ، في حريته الوهمية ، ان لا يصنع شيئاً . دون ان يشعر « بتحريك خاص من الله » ، « بدعوة من الله » . ويقضي ان يستقبل هذه الدعوة للتقدم نحو الاسرار ، كما يجب ان يخاف ويرتجف من التقدم نحوها بدون الدعوة . ولا يجوز ان يصبح كاهناً ويتدخل في عمل رهيب هو تقديس جسد المسيح ودمه الا اذا كان « مدعوا من الله بصوت يكاد يكون مرئياً ومحسوساً ولا يرقى اليه ارتياب » . لا كاهن بدون « رسالة باطنية » من قبل الله . فكيف يصح الاقدام على الكهنوت ؟ ويجب ان لا يتقدم الانسان من محكمة التوبة الا اذا شعر من لدن الله

بمركبة صادقة للذهاب إليها وبتوبة حقيقية وأسف تام على الخطايا لاجل محبته ، والافضل لمن الخطايا يكون باطلا . ويقتضي فوق ذلك الشعور بميل وهجة لتناول القربان المقدس ، ومحسن احيانا الامتناع عن تناوله تواضعا على ان يكون سبب الامتناع تواضعا حقيقيا ، لا تكاسلا . فكيف يصح الاقدام على الاقتراب من الله ؟

يجب العمل وفاقا لصوت الله . ويقتضي ، لسماعه ، الصمت والانفصال والتجرد والكفر بالعالم والموت بالنسبة له . يجب على المسيحي ان يوجد الفراغ في داخله بتعمرية باطنية . يجب ان يكون امام الله ، حين يصلي ، كإناء مفتوح حتى يكرر الله نعمته فيه ، شيئا فشيئا ، وبحسب ارادته . لن يفرط المسيحي يوماً في الاتضاع والانحناء امام كمال الله وقداسته . ولن يحترز البتة احترازاً كافياً من دوافعه الداخلية ، لأن الفضائل ليست في الغالب سوى قناع حب الذات ، ولأن العاطفة الوحيدة التي لها قيمتها هي العاطفة الخالصة الطاهرة ، والعمل الوحيد الذي له اعتباره هو ما توحى به محبة الله وحدها . هذا هو الدافع الى الخوف من حب الذات وحسب فحص الضمير ، والقلق اندائم . ولن يعرف الجنسني في النهاية فترة هدوء الا حين يجد ، لاعماله ، مبرراً انسانيا ، انانيا ، قد لا يكون له من وجوده البتة . فيدفعه رأيه الوهمي للتشاؤمي الى حرمان الانسانية من خير ما لديها .

أراد بعضهم اعتبار الجنسنية حركة بورجوازية موجبة ضد الاشراف وتعبيراً عن صراع بين الطبقات . والواقع هو ان السيكولوجية الجنسنية تقضي على مثال « البطل » . وان من يفتنح بمحبة هذه السيكولوجية لا يستطيع بعد ذلك ان يؤمن بهذه الصورة المثالية المتفوقة للانسانية التي حلم بها علماء الأدب القديم والارستوقراطيون . ولكن هنالك ارستوقراطيين كثيرين بين الجنسنيين والعاطفين عليهم : الدوق « دي ليانكور » ، الدوق « لاروشفوكو » ، المرشيزة « دي سابلية » ، الخ .. فالهولة ، كما نرى ، لا تأخذ وجودهم بعين الاعتبار .

أما ما هو ممكن ، فالتساؤل عما اذا لم ينبع التطرف الجنسني من الحس الفني المستهجن ، وعما اذا لم يكن الجنسنيون من هواة الاستهجان . ففي رأيهم ، « لا شيء فاضل اذا لم يكن بطوليا ، ولا شيء مسيحي اذا لم يكن عجائبيا ، ولا شيء مطاق اذا لم يكن منقطع النظير .. كل ما يمكن تحسينه هو في نظرم شيء الصنع ؛ كما ان الاعتدال في نظرم نقيصة ؛ وكل ما ليس نجاحاً هو اخفاق ؛ وكل ما ليس فريداً من نوعه هو مبتذل . وهم لا يستكبرون الا ما هو عظيم الجسامة . ولا يحترمون الا ما هو اخاذ مدهش .. ويزدرون بمصنوعات كل فن تكون دون المثل الاعلى .. كل كلمة من كلماتهم مبالغة واغراق ؛ وكل حكمة مغالطة ، وكل تعبيرهم جسارة ؛ وكل آرائهم متطرفة ، وكل وعودهم جزيلة ؛ فهم جبابرة الشيع » . (الاب « فرنسوا بونال » ، ١٦٥٥) .

كان من نتائج الجنسنية إثارة جدالات حادة بين الكاثوليك حول النعمة ، اعمات محبة القريب

وادت ، على الرغم من فضلها على الادب ، لاننا مدينون لها بـ « اقليميات » باسكال ، الى بلبله الضمائر والاضرار بالدين .

وكان من نتائجها كذلك تشجيع تيار الالحاد . فقد ادعى الملحدون ايضا بان ما يحرك الانسان هو اللذة وحدها : فوجدوا تبريراً وتشجيعاً لهم في السيكولوجية الجنسية ، وكانوا جد مرتاحين للقول بالاختيار السابق للملكوت السماوي :

« لقد اختل عقل رجال البلاط والعالميين بمد هذه التأويلات حول النعمة ، لانهم يقولون في كل حين : ما هنا مهما فعلنا لاننا سنخاص اذا كانت النعمة فينا وسنهلك اذا لم تكن . ثم ينتهون الى القول : ليس كل ذلك سوى ترهات .. فقبل بحث هذه القضايا ، كانوا ، اذا قرب عيد الفصح يصابون بدهشة صاهري الاجراس لا يملعون اين يختبئون وتتشكك ضمائرهم ؛ أما اليوم فانهم يرحون ولا يفكرون بالاعتراف ويقولون : ان ما كتب كتب . هذا ما فعله الجنسينيون حيال العالميين » (السيدة « دي شوازي ») .

٧ - ازمة العلم

ما زالت السيطرة ، في اوائل القرن السابع عشر ، وعلى الفن المستهجن والكنيسة والجامعات والامراء والعلماء الرغم من جهود النهضة ، للارسطاطاليسية القريبة كل القرب من الاختبار اليومي وللطبيعة التي كانت تحمل على الايمان بالمعجزات والطيرة والرقية والتنجيم والسحر ومناجاة الارواح . فقد بلغ هنري الرابع ملك فرنسا ، في احد الايام ، خبر اكتشاف مؤامرة حاك خيوطها مرشده الاب كوتون . في البدء هدأ روح الملك بعض الشيء في أعقاب تكذيب صريح ، ولكنه ما لبث ان عاوده الخوف حينما ظهرت في الافق ، بصورة مفاجئة ، غمامة قائمة السواد مضرجة ببقع حمراء : انها مقاصد الاب كوتون المظلمة الدموية تمكر الطبيعة التي تشي به . الا ان اليسوعي قد دافع عن نفسه . وجاء في الوقت نفسه من يفيد بان الغمامة قد اختفت . فكان ذلك انتصاراً للبراءة .

وسار استكشاف العالم قدماً تشجعه ذهنية الاستهجان على تحقيق اوسع الفتوحات ، تلك الذهنية التي حملت « بيكون » على ان يرسم على غلاف كتابه : « *Novum Organon* » (١٦٢٠) صورة سفينة منشورة الاشرعة تحاول اجتياز مضيق جبل طارق ، الحد الاقصى للعالم القديم . كانت الاكتشافات ثمرة اعمال الفلكيين والاطباء . وغالباً ما انتسب المكتشفون الى البورجوازيين ، كـ « كبلر » ، ابن احد موظفي الدوق « دي ورتمبرغ » . الا ان « غاليليو » ، و « نابير » مكتشف علم انساب الاعداد ، كانا ينتسبان الى الاشراف الريفيين . فخرجوا من الجامعات وغالباً ما مارسوا فيها عمل التعليم : فان الطبيب غاليليو قد درس الرياضيات والطبيعات في جامعة « بيزا » ، ثم في جامعة « بادوا » ، وكان « هارفي » استاذاً في كلية لندن

الملكية للطب ، الخ . ولكنهم يصطدمون بالجامعات وغالباً ما يضطرون الى مغادرتها .
 فـ « الفلسفة » ، أمة اللاهوت ، والجامعة أمة الكنيسة ، وقد بدت الاكتشافات خطراً حـدد
 الايمان ؛ اصف الى ذلك أخيراً ان عادات الآخرين من أساتذة الجامعات قد تبلبت وان أنانيتهم
 قد جرحت في الصمغ امام بواذر عبقرية المكتشفين . الا ان حسن طالع العلماء جعلهم يدخلون
 في خدمة الامراء كمنجمين وأطباء . ففدا كبلر رياضياً امبراطورياً ، وهارفي طبيباً لجاك الاول ،
 و « جلبرت » طبيباً للملكة « اليزابت » ، وغاليليو في كنف دوق « توسكانا » .

كانت المهمة الاولى متابعة عمل « كوبرنيك » . فتولاها الالماني « جان كبلر »
 سنن كبلر من « شتوتغارت » (١٥٧١ - ١٦٣٠) . بعد ان أصبح معارناً لـ « تيخوبراهي » ،
 ترك له هذا الاخير ، وهو على سرير الموت ، ما دونه من ملاحظات وطلب اليه وضع تقاويم
 حركات الكواكب السيارة وبناء نظرية فلكية تتفق وتعاليم كوبرنيك . وكان كبلر يشاطر
 كوبرنيك آراءه البيثاغورية والإفلاطونية . وقد استوحى منذ البداية اعتقاده بان الله انما خلق
 العالم وفاقاً لنظام سابق يجب ان نكتشف ظواهره في عدد مدارات السيارات وابعادها وفي
 حركات السيارات . وقد استطاع استعمال المرقب الذي اخترعه في السنة ١٦٠٨ ، كما نرجح ،
 طبيب عيون هولندي من « مدلبورغ » ، هو « هانس ليبرش » . فوضع اولاً نظام
 المساحات المحدودة . وأثبت ، بعد ان درس مدار الارض ، ان الارض تجتاز اقسام قوس مدارها
 في اوقات متناسبة لطول الاشعة بين هذه الاقسام والشمس . وانتقل بعد ذلك الى درس حركة
 المريخ فلم تسمح له ملاحظاته برسمها مستديرة وفاقاً للآراء السائدة . فتوصل بعد تردد ومحاولات
 كثيرة الى القطع الاهليلجي ، الذي طابق ملاحظات « تيخوبراهي » ونظام المساحات المحدودة ،
 واتاح لكبلر تحديد النظامين الاولين لحركة المريخ اللذين نشرهما في السنة ١٦٠٩ في كتاب « علم
 الفلك الجديد » .

١ - يسير الكوكب السيار في مدار اهليلجي تمثل الشمس احد محترقيه .

٢ - ان سرعة الكوكب السيار الزاوية ، في كل نقطة من مداره ، متناسبة عكساً لمربع
 المسافة بينه وبين الشمس ؛ تزداد السرعة كلما اقترب الكوكب من مركز حركته
 وتنخفض كلما ابتعدت عنه (١) .

وفي السنة ١٦١٨ ، طبق النظامين ، في كتابه « موجز علم الفلك الكوبرنيكي » ، على
 السيارات الاخرى وعلى القمر ، باعتبار ان الشمس تحتل محترقا مشتركا بدارتها الاهليلجية .
 واخيراً ظهر النظام الثالث في كتاب « انظمة الكون » :

١ - صيغة هندسية اخرى ماثلة : ان الشعاع الموجه بين الشمس والكوكب السيار ينطوي ، في اوقات متساوية
 مساحات محدودة متساوية .

٣ - ان مربعات الاوقات التي تستغرقها دورات السيارات المختلفة متناسبة لمكعبات
معدلات مسافاتها الخاصة الى الشمس .

واستند الى مكتشفاته في وضع « التقاويم الرودولفية » ، التي لم يُستغن عنها ، طيلة قرن
كامل ، للانباء بمواقع السيارات . وتضمنت التقاويم ، بالإضافة الى ذلك ، جدولاً بالنجوم من
وضع « تيخوبراهي » ، وجداول من وضعه هو بالمحرفات الاشعة ، وجدولاً بانسب الاعداد
التي كان قد اكتشفها مؤخراً نابير في سكوثلندا (١٦١٤) و « بورجي » في سويسرا ، فسملت
عليه عمله بتحويلها عمليات الضرب والقسمة الى عمليات جمع وطرح ؛ و عملية استخراج الجذور
الى مجرد قسمة بسيطة .

ان كبلر ، بعمله هذا ، قد قوّم ما توصل اليه كوبرنيك و كرس مركزية الشمس بتعديده
الشمس « مركزاً » لحركة السيارات ، لا مركز حركات الارض كما ساد الرأي . واكمل كذلك
وصف الحركات الحقيقية المتهبئة وراء الظواهر ، فتوصل الى نظام هذه الحركات .

وحدة الكون : صنع غاليليو (١٥٦٤ - ١٦٤٢) في السنة ١٦٠٩ ، بفضل توسع معرفته
غاليليو وشاينر لانظمة علم البصريات ، مرقباً بفضل مرقب الهولنديين الى حد بعيد . وفي
السنة ١٦١٠ اكتشف الاقمار الاربعة التابعة للمشتري ، ثم اقنعه مراقبة هذا الكوكب مع
اقماره ، عن طريق المائلة ، بحقيقة مركزية الشمس . واكتشف في اواخر السنة ١٩١٠ ان
الزهرة ، كما للقمر ، اوجها ايضاً . وتحقق له ان القمر شبيه بالارض . ورأى فيه الاربعة
والجبال وقدر ارتفاع هذه الاخيرة . واحصى اربعين نجماً ثابتاً في برج الثريا ، حيث ما كانت
العين المجردة لترى سوى ستة فقط ، واستدل بذلك على بعدها الحقيقي . واعتبر المجرة والنجوم
الضعيفة الضوء مركبة من نجوم كثيرة . واخيراً اكتشف بقع الشمس في شهر تشرين الاول من
السنة ١٦١٠ . واكتشف هذه البقع ايضاً ، بفضل المرقب ، اليسوعي « شاينر » استاذ الرياضيات
في « انغولستات » . وقد اخترع شاينر المرقب الشمسي ، وهو مرقب موجه نحو الشمس في
غرفة معتمة ، صورة الشمس مع بقعها على مساحة بيضاء . فاستطاع من ثم اجراء اكثر من
٢٠٠٠ مراقبة واستدل بها ، في السنة ١٦٢٦ ، على دوران الشمس والنجوم كلها على محاورها
الخاصة .

ولكن مذهب كوبرنيك بدا متناقياً وملاحظة ما يجري
مولد علم الاليات : غاليليو وعلم القوى
عادة امام اعيننا على سطح الارض ، ولا سيما في تقاطع
الاجسام الثقيلة . فما كان مسلماً به دون منازع انذاك ان كرة يلقى بها من أعلى الصاري في
مركب متحرك لا تسقط عند قدم الصاري ، بل على بعض المسافة الى الراء . وقد استدلو
بذلك على ان ما يلقى به عمودياً لا يمكن ان يعود ، في حال دوران الارض ، الى المكان الذي بقي
به منه ، بل يجب ان يسقط ابعد الى الغرب لان الارض ، أثناء وجوده في الهواء ، تكون قد

دارت نحو الشرق . فواجهت مركزية الشمس من ثم ، مسألة الحركة قبل كل شيء .

استرشد غاليليو ، على غرار كوبرنيك وكبلر من قبله ، بوحى فكرة سابقة البحث والتحقيق : هنالك نظام خفي تحت تنوع الطبيعة ، وهو نظام رياضي ؛ وسنن الطبيعة هي سنن رياضية ، والواقع هو تمييز الرياضي تمييزاً مادياً ؛ فالطبيعة تجيب من ثم على المسائل المطروحة في اللغة الرياضية . واستوحى غاليليو أرخميدس الذي لم يكتب اسمه مرة واحدة دون ثناء وتقريظ . وقد اعترض الارسطاطاليسيون على تعاليم كوبرنيك باسم الحركة . فتابع غاليليو درس الحركة للاجابة على اعتراضاتهم .

كان كبلر قد توصل ، بعملية تجريد ساعدته عليها ملاحظات لا يحصى لها عدد ، الى استشفاف سنة الجماد : كل حركة هي مستقيمة ومتساوية السرعة بقوة الطبيعة وحدها ؛ كل جسم يخضع لتأثير قوة واحدة ، تعمل فيه فجأة ، يتحرك تحركاً مستقيماً ثابتاً وبسرعة متساوية لا تتبدل . فقد تأكد لكبلر ان الجسم لا ينحرف عن الخط المستقيم الا اذا عملت فيه قوة ما ، وان سرعته لا تتدنى الا اذا اعاققت تقدمه قوة ما . واستدل من ذلك على ان الحركة تحافظ ، الى ما لا نهاية له ، على استقامتها وسرعتها المتساوية ، اذا ما ازيلت القوى المضادة .

اكتشف غاليليو منذ السنة ١٦٠٤ ، الحركة المستقيمة الاطرادية السرعة وسنة المسافات . « ان النسبة بين المسافات التي يمتازها الجرم المتحرك الهابط ، في اوقات متساوية ، هي نفسها النسبة الكائنة بين الأعداد الوترية المتعاقبة انطلاقاً من الوحدة » ، ١ ، ٣ ، ٥ ، ٧ ، الخ . وفي الواقع ، ان جسماً يهبط ٥ أمتار في الثانية الاولى ، يهبط ١٥ متراً في الثانية الثانية ، و ٢٥ متراً في الثانية الثالثة . فكانت الصيغة التي توصل اليها غاليليو معادلة لسنة المسافة التي تخضع لها الحركات الاطرادية السرعة : المسافات المقطوعة متناسبة لمربع الاوقات ، وفيما يلي بيان ذلك : اذا قطعت خمسة امتار في الثانية الاولى ، تكون المسافة المقطوعة في آخر الثانية الثانية 2×5 أي ٢٠ متراً (١٥ + ٥) ، وفي آخر الثانية الثالثة $3 \times 5 = 15$ متراً (٢٥ + ١٥ + ٥) . وقد استخدم غاليليو سطحاً منحدرأ احدث فيه فرضة مستقيمة . فكان يترك كرة تتزحلق في الفرضة ويحصى الوقت الذي يستغرقه ترحلها من اعلى الفرضة الى أسفلها ، ثم يحصى الوقت الذي يستغرقه اجتياز الكرة لربع المسافة : كان الوقت الثاني نصف الوقت الاول ؛ فخلص من ذلك سنن المسافات . وقد استخدم ، لاحصاء الوقت ، ساعة مائية ، وزن السائل المتجمع في الاحواض اثناء الاختبارات المختلفة .

اقضت مضجعه مسألة الحركة ، فأكب على درس رقاص الساعة الذي لفت انتباهه اليه ، على ما يروى ، ذبذبة احد المصابيح في كاتدرائية بيزا . وتوصل الى تحديد السنن الاساسية :

١ - ان مدة الذبذبة لا تتعلق بسعتها . فان ذبذبة رقاص يبلغ متر أو واحداً طولاً لا تستغرق المدة نفسها سواء كان المحرافه عن الخط العمودي ، عند الانطلاق ، ١٠ او ٢٠ او ٣٠ او ٤٠ سنتيمتراً .

٢ - ان مدة الذبذبة لا تتعلق بمادة الرقاص ولا بمجمعه . فان رقاصين متساويين طولاً ومختلفين ابعاداً مثقلين في طرفيهما المتحركين، الاول بقطعة فلينية والثاني بقطعة رصاصية يستغرقان مدة الذبذبة نفسها .

٣ - ان مدة الذبذبة تتعلق بطول الرقاص ، وهي هي لكل الرقاصات المتساوية الطول . فكر غاليليو منذ ذلك الحين بساعة يتحرك فيها دولاب مسنن بفعل حركة الرقاص المزدوجة ؛ ولكنه لم يحل مسألة دوام حركة الرقاص . الا ان المهم في الامر لم يقم في هذا التقدم التقني ، بل في ملاحظة تشابه عظيم بين حركة الرقاص وحركة كرة تترحل على سطح منحدر . فاذا كانت السطوح مختلفة الانحدار ، وترحلت الكرة من ارتفاع واحد ، كانت السرعة النهائية متساوية ، لان السرعة النهائية تختلف باختلاف ارتفاع نقطة الانطلاق ، لا باختلاف انحدار السطح. وهذا ما حمل على القول ان ذبذبة الرقاص الواحد تستغرق المدة نفسها في ساعات مختلفة لانه في الواقع يهبط هبوطاً متساوي السرعة على كل السطوح المنحدرة المتعاقبة ، المختلفة الانحدار ، ب١٠، ب٢١، ب٣١ ، التي تؤلف ذبذبته . فاهتمدى غاليليو في الرقاص الى حركة الكرة على السطح المنحدر .

ولكن اذا كانت قطعنا الرصاص والفلين تهبطان هبوطاً متساوي السرعة على السطوح المنحدرة المتعاقبة المتساوية لخط مسيرها ١٠، ١١، ٢١ ، فيصبح باستطاعة غاليليو ان يستدل بذلك على ان سقوطها يستغرق وقتاً واحداً فيما لو كان هبوطها طليقاً وعمودياً . فوجد نفسه مرة اخرى امام اختباره في برج بيزا في السنة ١٥٩٢ . وقد تأيد بذلك ان سرعة الثقل هي واحدة لكل الاجرام .

٤ - ووجد غاليليو اخيراً ان مدة الذبذبة تختلف باختلاف الجذر المربع لطول الرقاص . فاذا كانت اطوال رقاصات عدة متناسبة لـ ١ ، ٤ ، ٩ ، كانت مدات الذبذبة ، فيما بينها ، متناسبة لـ ١ ، ٢ ، ٣ . ان ذبذبة رقاص طوله ٢٥ سم تستغرق ثانية ، وذبذبة اخر طوله متر تستغرق ثانيتين ، وذبذبة ثالث طوله ٢٥ م تستغرق ثلاث ثوان . ولكن هذه النتيجة هي بالذات ما توصل غاليليو اليه مع الكرة المتدحرجة على السطح المنحدر . فخط مسير الرقاص ، وهو ينقل حركة مطردة السرعة من قوة هي الثقل . وهكذا تمثلت ذبذبة الرقاص بحركة الاجرام الهابطة .

حاول غاليليو حينذاك تمثيل حركة القذائف ايضاً بحركة الاجسام الهابطة . فاستهدفت ابحاثه عندما ميداً ثبوت الاجرام والمبدأ القائل بان كل قوة تعمل في جرم ما تعطي نتيجتها بشكل مستقل عن غيرها من القوى الفاعلة . وقد استخدم المسطح المستطيل للسرعات واكتشف بواسطته مبدأ المسطح المستطيل للقوى . افترض جرمماً منتقلاً على سطح افقي ا ب . الجرم سيتحرك في اتجاه واحد وبسرعة متساوية طالما لا تعمل فيه اية قوة اخرى . فاذا انتهى المسطح

فجأة في ب ، فان الثقل سيفعل فعله حينذاك ويدخل حركة جديدة هي الهبوط.الممودي ب ل . ولكن الحركة الافقية المتساوية السرعة لم تبطل . لذلك فان الحركتين تتحدان والجرم ينتقل على المسيرة المنحنية الاضلاع ب ط و ح حيث د و = ٤ ج ط لأن ب د = ٢ ب ج ولأن المسافة التي التي يقطعها جسم هابط مختلف باختلاف مربع الاوقات . ويمكننا الاستناد الى البرهان نفسه في المعادلة : ه ج = ٩ ج ط . فحركة القذائف تخضع من ثم لسنن نفسها التي تخضع لها الاجسام الهابطة . وقد اوحى ذلك بان حركة الاجرام السهوية تطابق الشروط نفسها .

اتاحت هذه الاكتشافات دحض حجج الارسطاطاليسيين على سنن كبلر . فقد نجح عنها ، لعمرى ، مبدأ استقلال القوى أو وجودها معاً : كل حركة مشتركة بالتساوي بين كل الاجرام المختلفة فيما بينها ، اذ ان هذه الحركات تستمر في الحدوث كما لو كان مجموع النظام عارم الحركة . وبات جلياً من ثم ان الكرة التي يلقي بها عمودياً من اعلى صاري سفينة متحركة لا يمكن ان تهبط الا عند اسفل الساري لأن الكرة تخضع للحركة الافقية نفسها التي تخضع لها السفينة . والسفينة تشاركها من ثم في قوة الدفع نفسها التي تتلقاها هي . وبات جلياً كذلك وهن الاعتراف على حركة الارض ، لأن الجرم الهابط في الهواء يدور مع الارض .

أما هذه النتائج ، ونتائج كثيرة اخرى ، وسنة الجهاد التي حددها ديكارت بوضوح ، فقد نشرها غاليليو في السنة ١٦٣٨ في كتابه « احاديث حول علمين جديدين » . وقد استلزمت اعماله منذ البدء سنة الجهاد . وكان « بيكن » ، صديق ديكارت ، على علم بسنة دوام الحركة منذ السنة ١٦١٣ . « ان ما يخضع للحركة مرة يبقى متحركاً الى ما لا نهاية له » . ولكن ديكارت هو من عبر بوضوح وجلاء عن سنة الجهاد: الجسم الساكن يبقى ساكناً اذا لم تعمل فيه اية قوة؛ واذا تحرك فانه لا يتوقف من ذاته، ان لم تفد حركته اية قوة، كما افترض الارسطاطاليسيون، ولكنه يستمر في حركته بالسرعة نفسها وفي الاتجاه نفسه ، فحركته مستقيمة ومتساوية السرعة ؛ واذا ما اخضع هذا الجسم لعمل قوة ثابتة ، فتحدث اذ ذاك نتيجة جمية لأن القوة تعمل في الجسم بشكل واحد سواء كان ساكناً او متحركاً ، يحتفظ في كل هنيئة بالحركة التي خضع لها في الهنيئة السابقة، والقوة تدخل عليه سرعة جديدة، فتصبح حركته متساوية السرعة .

ولكن الطبيعة كلها بدت وكأنها خاضعة لسنن الحركة . ففي السنة ١٦٤٤ ، اثبت توريشلي ، تلميذ غاليليو ان فوارة ماء تخرج من ثقب في جانب سفينة مملأ بالماء تتبع مسيرة عدسية الشكل شبيهة بمسيرة القذيفة ، وان حركة الماء هي نفسها حركة الاجسام الهابطة الاخرى .

كان الانكليزي هارفي (١٥٧٨ - ١٦٥٧) قد نشر منذ السنة ١٦٢٨ كتابه « حركة القلب ، حول حركات القلب والدم » ، الذي عرض فيه اكتشافه للدورة الدموية الكبرى . كان الارسطاطاليسون من قبله يعتبرون الدم وكأنه و كأنه وراكد في حالة توازن، والارواح الحيوانية كأنها تتمثل في مستنقع الدم هذا . وكان

هارفي
والدورة الدموية

هارفي قد واطلب في بادوا على دروس « فابريش داكوابندنتي » الذي كان قد ميز صمامات الأوردة ، وهي الشرط الضروري لاكتشاف هارفي . راقب هذا الأخير ، في البدء ، حركات القلب بفضل تشريجات أجراها على حيوانات مختلفة : كلاب ، خنازير ، ضفادع ، افاع ، علاجيم ، رخويات ، سراطين ، اسماك . فتمكن بذلك أولاً من ان يرى التشابه بين حركات القلب والتقلصات العضلية وان يرى بعد ذلك عند كل الحيوانات وصول الدم بواسطة الأوردة وخروجه بواسطة الشرايين . عند ذلك تأمل ملياً في كبر وتناسب بطينات القلب وكبر وتناسب الأقبية التي تخرج منه وكمية الدم التي تمر في القلب وسرعة مرورها . وكان جلياً ان الأوردة تنتهي بسرعة الى الفراغ والشرايين تنفجر بفعل تدفق الدم اذا لم يستطع هذا الأخير العودة من الشرايين الى الأوردة وبالتالي بلوغ البطين الأيمن في القلب . حينذاك افترض هارفي وجود حركة دموية دائرية ، وتأكد من وجودها بعدد من الاختبارات : ان ربط مجاري الدم في اعلى العضو ربطاً غير مشدد يسمح بتدفق الدم بواسطة الشرايين ولكنه يمنع عودته بواسطة الأوردة ؛ أما اذا كان الربط مشدداً ، فهو يوقف كل دورة دموية ، فيتخدر العضو وينتابه الألم ويختفي النبض ويبرد العضو ولا يلبث ان يتقرع ؛ وضغط على الأوردة باصابعه فأظهر الدورة في طريق العودة وجزم بان الصمامات تقاوم عودة الدم نحو اقسام الجسم الدائرية .

واكتشف الطبيب الفرنسي « جان بكيه » (١٦٢٢ - ١٦٩٤) ، في السنة ١٦٤٨ ، دورة الكيلوس اثناء قيامه بتشريح احد الكلاب . فاعتراضوا عليه ان هذه الدورة لم تكتشف في جسم الانسان . ولكن الطبيب الجراح « جارغان » اكتشف الاقبية الكيلوسية وحوض « بكيه » في جسم جندي لاقى حتفه في اعقاب اقتتال اشترك فيه .

وهكذا امتست الحركة عنصراً اساسياً في الطبيعة كلها وفي الكون . وكانت هذه الحركة خاضعة لسنن معينة ، وكانت هذه السنن رياضية .

اصطدام الكوبرنيكيين
بالارسطاطاليسيين

كانت هذه الاكتشافات كلها بمثابة ثورة حقيقية . فقد وجهت اشد الضربات لنظام ارسطو الذي ما زال مسيطراً . تصور الارسطاطاليسيون عالماً منظماً ، محدوداً ، محصور الابعاد ،

الارض ساكنة في وسط العالم ، وكافة الاجرام السماوية متممة حول الارض ، خلال اربع وعشرين ساعة ، حركات دائرية اعتبروها طبيعية لانها اكمل الحركات طراً ، وكل الكواكب مصنوعة لاجل الانسان ، من مادة خالصة لا تقنى ، وقد جعلوا فيها مقراً للكالم غير القابل للتغير والفساد ، فاذا بكوبرنيك وكبلر وغاليليو يقضون على مفهوم مركزية الانسان هذا وعلى كل هذا الكون المنظم خير تنظيم . فكان الكوبرنيكيون على خلاف مع الارسطاطاليسيين في كل النقاط . احووا الحركة الاهليلجية محل الحركة الدائرية . وقضت سنة كبلر الثانية على الاعتقاد

السائد بان الحركات السماوية متماثلة . واطهر الكوبرنيكيون السماوات خاضعة لسنة لا محيد عنها هي سنة الولادة والشيخوخة والموت . وبرزت نجوم جديدة ، وتبين ان القمر شبيه بالأرض من حيث تكوينه ، واثبتت بقع الشمس ان الشمس قابلة للفساد . وحين اراد الارسطاطاليسيون وضع نجم جديد اكتشفه كبلر في دائرة القمر لأن كل تغير . مستحيل بعد القمر ، اوضح الكوبرنيكيون ان النجوم ابعد من الشمس عن الارض بعشرة آلاف مرة ، وان دورانها حول القمر في اربع وعشرين ساعة يتطلب سرعة فائقة في حال حصوله ، وان خلا جسيماً يطرأ اذ ذلك على الطبيعة لأن مدة دورة السيارات تزداد بازدياد المسافة : القمر ينجز دورته في ثمانية وعشرين يوماً ، والمريخ في سنتين ، والمشتري في اثني عشر سنة ، وزحل في ثلاثين سنة ، فكيف يصح ان تتجزز النجوم دورتها في يوم واحد وهي ابعد من هذه السيارات الى حد بعيد جداً ؟ وذهب غاليليو الى ابعد من ذلك . فهاجم عقيدة الاستقرار وعدم التغير ورأى فيها دلالة على النقص والعيب . واطهر ان في التغير والانسال مزيداً من النبل والروعة ، وان التبدل واقع شامل حتى في السماوات ، ولكنه يحدث في كل مكان وفاقاً للسنن الطبيعية نفسها ، وان النوع الواحد من الاحداث الطبيعية يحصل من الحما الكون ، وان مادة السماوات مماثلة لمادة الارض ، لا تقنى ، وانما يتحول شكلها تحولا مستمراً . وحطم الكوبرنيكيون العالم الارسطاطاليسي القديم ؛ واحلوا محل العالم ، وهو وحدة مقفلة منظمة تنظيمياً تسلسلياً ، الكون وهو مجموعة غير مقفلة ولا حدود لها مرتبطة بوحدة سننها ، ففتحوا بذلك ابواب اللانهاية أمام الانسان . فمنذ الان وصاعداً ، سيسترشد الفكر البشري مثال اللانهاية ، وهو فتح حقيقته الازمنة المعاصرة . فانهار من ثم انهاراً نهائياً منطق الكليات (المثل العامة) القديم ، ومنطق ارسطو ونظريته في علم الطبيعيات ، ومنطق المفاهيم المرتبط بعدد ثابت من الانواع المكونة من أجناس وفروق محدودة العدد ، وبالعالم متناه في الفضاء مكوّن بحيث تبقى الانواع ثابتة على الرغم من تغير الافراد . اما في نظر الكوبرنيكيين ، فكل مفهوم لا يتناول اللانهاية مفهوم مجرد ناقص ؛ وليس من واقع الا ما يدرك كله .

عارضت هذه الاكتشافات حرف سفر التكوين واعتماد الكنيسة ، منذ
الكنيسة تقارم المجددين
زمن قصي ، نظام ارسطو الذي اعتبر ، دونما سبب ، وكأنه احد اعمدة
الشريعة . وحين اعترف الاب شاينر لرئيسه الاقليمي باكتشافه بقع الشمس لم يرد هذا الاخير
تصديقي شيء من ذلك . ويروي انه قال له اذ ذاك : « لقد قرأت مؤلفات ارسطو تكررراً
وباستطاعتي ان اؤكد لك اني لم أجد فيها شيئاً من ذلك . فاذهب يا بني واطمنن بالا وتأكد ان
ما اعتبرته بقعاً في الشمس ليس سوى عيوب في عدساتك او في عيونك » . ولم يؤذن للاب
شاينر ، في البدء ، الا باطلاع صديقه « فليسر » ، العالم في الادب القديم ، على اكتشافه ، في
ثلاث رسائل حول « البقع الشمسية » ، لم يلبث فليسر ان نشرها . فعلا حينذاك صراخ
الارسطاطاليسيين ، وهم الكثيرة الساحقة ، لأن السهاء قد استغذفت بهذا القول ، وصرحوا بان

الفلسفة قد « اهيئت امانة محقرة » . « كانت (البقع) المخداع نظر وأواماً مصدرها العدسات » لانهم لم يستطيعوا تصور « رأي أبعد غواية من ذلك الذي يضع قذارة في عين العالم التي أوجدها الله لتكون مشعل الكون » .

كان الكرسي الرسولي قد نشر في السنة ١٦١٦ ما يلي : « ان القول بان الشمس ساكنة في وسط الكون قول جنوني ، باطل فلسفياً وهرطوقي ، لانه لا يتفق والكتاب المقدس . كما ان الرأي القائل بان الارض ليست في وسط الكون وأنها بالاضافة الى ذلك تخضع لحركة محورية يومية قول باطل فلسفياً واعتقاد أقل ما يقال فيه انه ضلالة » . لذلك فان غاليليو ، حين نشر في السنة ١٦٣٢ « الحوار حول نظامي العالم الهامين ، النظام البيطيموسي والنظام الكوبرنيكي » ، الذي هاجم فيه المذهب الارسطاطاليسي ، استدعي الى روما بطلب من ديوان التفتيش . فذهب اليها ووقف في شهر شباط من السنة ١٦٣٣ واخضع للفحص في شهر حزيران . وحين هُدد بالتمذيب ، رجع عن قوله ، وحكم عليه بالسجن وبتلاوة مزامير التوبة السبعة كل اسبوع طيلة ثلاث سنوات . واستحلف بان يصرح عن كل ما قد يبدو له مريباً في نطاق العقيدة . اما « حوار » فقد ادرج في فهرس الكتب المحرمة .

التحول الفكري كانت الارسطاطاليسية ، في هذه الاثناء ، آخذة في التصدع شيئاً فشيئاً . وكانت العلوم الطبيعية الجديدة تكييل لها ضربات لا تقل شدة عن ضربات علم الفلك . في نظر ارسطو كانت الحركة الرئيسية تبديلاً ، وكان مثال التبديل الولادة ، اي تكون كائن غير موجود من قبل . فعلمت كل ظاهرة طبيعية بسبب بمائل أبداً لذلك الذي يجعل الحيوانات تتناسل وتتكاثر . وكان للكائنات الطبيعية في ذاتها مبدأ حركتها . وهذا المبدأ الداخلي الذي يسبب الحركة في كل كائن حي هو الروح . فالروح من ثم هي المثال الاصيلي للطبيعة ، المثال الاصيلي للشيء الخاص الذي يدرسه العالم في الطبيعيات . وفي المواد الطبيعية ، المركبة شأن كل كائن ، من مادة وصورة ، تكون الصورة المبدأ الجوهرية المولّد . وطبيعة شيء ما هي صورة هذا الشيء . والصورة هي المبدأ الداخلي للحركة ، وهو مبدأ شبيه بالروح . فكانت هذه الصورة الجوهرية ، من ثم ، مفاهيم غامضة يتراوح ما تشمله بين الفكر الداخلي والمادة . كان الثقل صفة داخلية تجذب الجرم نحو وسط الارض ، فهو قد عرف من ثم وسط الارض او أحس به ، وكان بالتالي روحاً سوية . وكان الثقل صفة من صفات جوهر الجرم ، مستقلاً عن المساحة أو الحجم ، شبيهاً بمفهوم المادة غير الهبولية ، اي انه كان روحاً ، لانه كان موجوداً في آت واحد في كل جزء من اجزاء الجرم وفاعلا فعله فيه ، بصورة خاصة ، بواسطة جزء واحد من أجزائه ، كالجزء الذي يلتصق بالحبل من وزن معين يستند الى هذا الحبل . وكان هذا احد الاسباب التي حملت ارسطو على القول باستحالة اخضاع الصفة والواقع للعلوم الرياضية : فالكائنات الرياضية لا تتحرك : انها أزلية وغير محدودة بزمان . ولم يتوصل ارخميدس نفسه الا الى علم توازن الاجسام : اي انه اخضع الكون للعلوم الرياضية . ثم ان الاشكال الهندسية ،

من جهة ثانية ، لا تعطي صورة كاملة عن المادة الارضية . فليس في عالم الواقع خطوط مستقيمة ولا سطوح ولا مثلثات ولا اجسام كروية . ليس لاجسام العالم الهولي مسن اشكال هندسية منتظمة . ولذلك يستحيل تطبيق السنن الهندسية على موجوداته .

الا ان ما توصل اليه غاليليو في علم الطبيعيات قد أظهر ان الحركة تخضع لسنن رياضية . وبدا ان الزمان والمسافة مرتبطان بسنة العدد . واعلن غاليليو ان عالم الواقع وعالم الهندسة ليسا عالمين مختلفين . وان الطبيعة تحقق الشكل الهندسي . وان للحجر غير المهندم شكلا هندسيا ليس دون شكل الكرة احكاماً وضبطاً . وان الاشكال الهندسية مجانية للمادة . وان السنن الهندسية تنفذ الى الواقع وتسيطر على المعلوم الطبيعية . وان الطبيعة انما تتكلم لغة رياضية ، فيجب ان توجه اليها الاسئلة بهذه اللغة . وان النظرية الرياضية تتقدم الاختبار . وان سنن الطبيعة سنن رياضية . وان النظرية تعبر عن جوهر الظواهر .

استغنى الغاليليون عن الصور الجوهرية ولم يأخذوا بعين الاعتبار سوى الحركة والمسافة . واطهر غاليليو ان الجسم الجامد لا يطفو بالنسبة لشكله ، بل بالنسبة لثقله النوعي ، وانه يطفو في السائل اذا كان ثقله النوعي ادنى من ثقل السائل النوعي . استند الارسطاطاليسيون الى ظاهرة مالوفة هي طفو الصفائح المعدنية الرقيقة على سطح الماء . اما غاليليو فقد اثبت انها انما تطفو في الواقع على الهواء وانها تنزل حتماً الى القمر اذا ما عَطِطت في الماء . لا شأن للشكل ، فالأهمية للثقل والحركات التي يسببها وسنن هذه الحركات . الحركة والسكون يستلزمان قوة خارجية وغريبة عن الجرم . ويبدو لنا هذا المفهوم جلياً وطبيعياً . وهذا الجلاء يرقى الى ثلاثة قرون ونيف . واعتبر الارسطاطاليسيون كذلك ان الاجسام الثقيلة والخفيفة تتحرك بفعل الخفة والثقل الكامنين فيها اللذين هما كائنات نصف هيولية ونصف روحية . أما في نظر الغاليليين ، فان ثقل الجسم هو قوة الدفع التي تتلقاها حركة الجسم الوزان الى اسفل في الهنيئة الاولى ، وهو من ثم القوة التي تتحملها المساحة القائمة مباشرة تحت الجسم الوزان . فليس وارداً من بمد سوى تنقلات المادة . والغاليلي يبيح عن جوهر الحركة ، عن نسبة رياضية .

ان ما يجب عمله ، في رأي غاليليو ومدرسته ، هو استخلاص الحركة ثم التأكد من الاستخلاصات الهندسية بالتحقق من الحركة . فالهندسة والحواس هي أدوات الاكتشاف . ولكن زملاء غاليليو رفضوا النظر في مرقبه ، ومعارضه هارفي رفعوا الاكتاف تهكماً حين اعلن هارفي انه لم ير الارواح قط في الدم . اعتبر الارسطاطاليسيون ان « كل كلمة تقابل مثلاً ، وكل مثال كائن . فلم الصرف والنحو من ثم هو المنطق ، والمنطق هو العلم . لماذا درس الطبيعة والملاحظة والاستقصاء ؟ يجب ان ننظر الى العالم في فكرنا .. فنرى الحقيقة والواقع . كل تركيب كلمات تركيب اشياء ووقائع . وتنسيق الكلمات هو المعرفة .. » . أما الغاليليون فقد قاموا بتحويل فكره :

استمرار الارسطاطاليسية
فقدان نظام كوني آلي

بيد ان الارسطاطاليسيين لم يهزموا بعد . فالمجددون لم يتوصلوا بعد
الى ايجاد نظام يسير الكون كله بموجبه . اجل تخلخل البناء
الارسطاطاليسي وتهدمت بعض اجزائه ، ولكنه ما زال قائماً ولم

يستبدل بسواه . أما الكوبرنيكيون فقد آلوا الى مذهب الطبيعية . فان كبلر ما زال يفترض
وجود روح محرّكة مكانها في الشمس ترسل أشعة قوّة ، هي نوع من التفريغ المغناطيسي ، أشبه
بأشعة الدولاب . وان الشمس تدور حول محورها . وان هذه الأشعة تتناول بقوتها كل السيارات
فتنقلها حول الشمس . وان السيارات ترسم مداراً اهليلجياً لأن قطبي كل منها يتماقبان تماقباً
مطرداً أمام الشمس التي تجتذب احدهما وتدفع الآخر . وان الجاذبية « تواد بين جرمين
متجاورين يميلان الى الاتحاد أو الاتصال ، شبيه في طبيعته بالمغناطيسية » . وسلم غاليليو ، اقله
قبل السنة ١٦٣٠ ، بان علة الحركة التي كان يبحث عن جوهرها لها تفسيرها في ذلك . وقد
تأفرا كلاهما بطبيب اليزابت ، « جلبرت دي كولشستر » (١٥٤٠ - ١٦٠٣) وبمؤلفه حول
المغناطيس (« الفن المغناطيسي » ، ١٦٠٠) . فان اختبارات جلبرت على الحجر المغناطيسي
قد قادت الى اعتبار الارض ، بالمثالة ، كمغناطيس ضخم . واعتقد بالمثالة ان الشمس والقمر
وكافة الاجرام السماوية اجسام مغناطيسية تنشر قوة مغناطيسية في الفضاء الذي يكتنفها . وان
هذه القوة المغناطيسية تولّد حركاتها . وانها روح . وان للاجرام حياتها . وان الاجسام
المغناطيسية حية ويتحرك احدها نحو الآخر تحركاً تلقائياً .

فلم تزل الحاجة ماسة ، من ثم ، الى تعميم سنة الجهاد وتفسير الكون كله بالمسافة والحركة .
ولم تزل الحاجة ماسة كذلك الى اخضاع الواقع للعلوم الرياضية . ولم يزل ممكناً الاخذ على
غاليليو ان الاختبارات التي فسرت استخلاصاته الهندسية كانت باطلة . فهو لم يأخذ بعين الاعتبار
مقاومة الهواء وقوة الثقل والاحتكاك . ويعمل تجريدي ، ابعد العوارض وتخيّل سطحاً مسطحاً
تسطيحاً مطلقاً وكرة كلية الكروية ، كلاهما كلي الصلابة ، جسمان مجردان ، موضوعان لا في
الفضاء الحقيقي ، بل في الفضاء المجرد الاوقليدي ، حيث لا تتأثر الاجسام بحالة السكون أو
الحركة ، وحيث لا شأن إلا لسنة الجهاد فقط . واستند الى مفاهيم لم تستخلص من الاختبار بل
فرضت عليه فرضاً . وكان بالامكان ان يعاب عليه عند اللزوم أنه يبعد كل البعد عن الواقع .
فما زال هنالك شك . وكان من الواجب تقديم البرهان القاطع النهائي على ان العلوم الرياضية
مبر عن الواقع وانها حقيقة الواقع بالذات .

تصير بيكون
اجل كانت هنالك طريقة الانكليزي بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦) الذي
كان قد فكر بوضع بحث في العلم الجديد واجزائه وطريقة كل منها وشروطها .
فجمع بعض النبذ واحمها اثنتان : « النظام الجديد » (١٦٢٠) و « تقدم العلوم » (١٦٢٣) .
وقد هاجم بيكون ارسطو ، « ابا السفسطائيين » ، وافلاطون ، « ذاك المازح » . واوصى
بالتوجه مباشرة الى الطبيعة بالاختبار للتوصل الى التسلط عليها باطاعتها اي بمعرفة سننها .

فأحدث بذلك صدمة عنيفة وأثار شعوراً قوياً واسهم في إعطاء الأبحاث العلمية اندفاعاً شديداً . ولكن كتبه كانت مجرد كتب منهجية ، فلم تتضمن نظرة شاملة على العالم كان من الضروري إحلالها محل نظرة الأرسطاطاليسية . أضاف إلى ذلك أنها كانت مشوشة ككتب منهجية . فإن يكون لم يسائل نفسه قط عن شروط الملاحظة بحد ذاتها وعن الاحتياطات الانتقادية الواجب احترامها . ووقف موقفاً حذراً من العلوم الرياضية . فأول ما فكر به هو تنويع الاختبارات وتوزيعها على ثلاث فئات : فئة الوجود ، فئة الفقدان ، فئة الدرجات . أما الصورة ، أو الجوهر التي تولد طبيعة الظاهرة النوعية فتوجد ، كما هو طبيعي ، في الدردي . فلنأخذ الحرارة مثلا : تحدث في ٢٧ حالة ؛ ولا تحدث في ٣٥ حالة ؛ وتنسوع في ٤١ حالة ؛ والدردي هو حركة الارتجاج التي نرى نتيجتها في الماء الفسالي . الحركة هي صورة الحرارة ، وهي عنصر محسوس نلاحظه ولا نستنتجه استنتاجاً . زد على ذلك أن الدردي عند يكون هو ابدأ اعتماد آلي ثابت في الطبيعة . وإن جوهر كل شيء في الطبيعة هو تركيب هندسي دائم . يبحث بكون عن التراكيب والحركات الخفية ولكنه يعتبر كل تركيب مطلقاً لا يقبل التفسير . فهو اختبائي لا يستطيع أن يصنع العلم . والاختبارية لا تقود إلى شيء . الاختبار يفرض النظرية ويفرض الكلام لأنه سؤال يطرح على الطبيعة . إلا أن يكون قد اقتصر إلى هذا الكلام الذي هو العلوم الرياضية . فاختق . ومنذ السنة ١٦٢٥ أخذ عليه الأب « مرسين » أنه ساذج وأنه يقترح أنظمة لا يحلها العلماء واختبارات اجري بحلها من قبله وتماير جديدة لم تأت بأي جديد حقاً . فإن يكون ، وشأنه في ذلك شأن الأرسطاطاليسيين ، قد وضع الأرواح في كل مكان . وقال إن الأجرام ترغب في أن تتلامس خوفاً من أن يحدث فراغ ومن أن تتجزأ الطبيعة ؛ وإنها ترغب في العودة إلى حالتها الأولى ، حالة العظمة والصورة ، التي كانت حالتها حين اعتدي عليها وابتعدت عن استعدادتها الطبيعية ، وفي أن تتحد مع اجرام الكون وأجزائه المختلفة التي هي من طبيعتها ، الخ . فلم يكن باستطاعة هذا المجدد المزيف أن يعطي الحلول الضرورية .

كانت الاكتشافات ، التي فتحت أبواب اللانهاية ، ووضعت الحركة في كل
أزمة العقل
مكان اعتبر فيه من قبل سكوتنا ، وكانت الحركة التي انزلت منزلة الكمال ،
تبريراً عقلياً للفن المستهجن . فقد قامت هنالك ماثلة ، دوغما مشابهة ، بين مهندسي العمارة
الذين يضعون الحركة في الابنية باعتماد « الأشكال التي تطير » ، وبين العلماء الذين يضعون الحركة
في كافة أجزاء الكون ، وبين الرسامين روبنس ورمبراندت من جهة وبين الرياضيين كبلر وغاليليو
من جهة ثانية .

وكانت اختلاطاً وتشوشاً أيضاً . فإن في التناقض بين نظام قائم للعالم وبين الاكتشافات
الجديدة ، والنظريات العقلية والمسامي الفكرية الكثيرة التي بدت وكأنها الجلاء نفسه والعقل
عينه ، والتي أمست بين ليلة وضحاها نظريات ومسامي هرمة وباطلة ، والصدمات والتناقضات

الكثينة ، ما بدا تبريراً لمذهب التشكك في الكل ، واعترافاً بسقم العقل المضل وتشريع باب امام الارتيايين والملحدون :

٨ - الملحدون

اتسمت بعض الجماعات ، التي جمع بينها اسم واحد هو اسم « الملحدون » ، بطابع مشترك هو التنكر للمسيحية ، نظرياً وعملياً ، واعتماد الحياة الوثنية أو مفهوم الحياة الوثني . وسارت من ثم على خطى نقاد النهضة العقليين ، من امثال « بومبونازي » و « ماكيافلي » ، وأمير الارتيايين « موتاني »^(١) . واستندت ، على غرارهم ، على القداماء . ونقلت تعاليم القداماء بمخاديفها الى برامج التدريس . فوجد الطالب الفتى عند المؤلفين اللاتين واليونانيين كل ما هو ضروري للحياة : وكوّن لنفسه ، بذلك ، روحاً قديمة معادية للدين المسيحي .

أما ما أبعده هذه الجماعات عن الدين المسيحي فهو ، في الدرجة الأولى ،
ظرف
الاحقاد السياسية
الاخلاق السيئة التي تميزها الاكليروس ، المعين من قبل الدول لغايات
سياسية : كهنة جهلة نسوا حتى صيغة الحل من الخطايا ، راهبات كثيرات
الاهتمام بجسادهن ، رئيسات اديرة عالميات ، احبار لم يسلكوا سلوكاً يقتدى به ، رؤساء اديرة
في سن الطفولة ، كهنة قانونيون على مقاعد الدراسة ، وخدمة رعايا سكيرون ، « لافردين »
اسقف « له مان » المتظارف ، « لاريفير » ، الذي انتقل مباشرة من « مجلس خلاعة » شقيق
الملك (السيد) ، الى اسقفية « لانفر » . وقد قال احد المصلحين : « ان اسوأ ما يفعل ...
يفعل في أوساط الكنسيين » . وما زاد في الاشتمزاز وتقرزز النفوس المشادات الدينية ومجادلات
اللاهوتيين ، كاثوليك وجنسينيين ، وغومارين وارمينيين ، وقد جرت على مرأى الجماهير
ومسممها وخلت من مبادئ الهبة الاولى . اضعف الى ذلك ان الحروب الدينية قد اذلت الدين
وافقدته اعتباره . فباسم الانجيل تشاتم اطراف النقيض وتحاسدوا ونشروا القذارة في مقالات
حاقدة عنيفة مشينة وخانوا وقتلوا . وانتهى الامر بالناس الى الارتياب من وجود حقيقة
دينية والتفكير شيئاً فشيئاً بان الدين قد يكون مشؤوماً . وجاءت الحروب الاهلية والخارجية
اخيراً لتحمل عنف الفرائز من بمقاله وتقضي على البقية الباقية من احترام الدين فخلال الحملات
العسكرية ، لم يتورع الجنود عن تحطيم ابواب الكنائس وسرقة اللحل الكهنوتية وتخريب بيوت
جسد الرب واستلاب حلق القربان وتدنيس القربان المقدس . وشجعت الحياة في المسكرات
اشباع رغائب الهواس والاستسلام لابتغاهات الجسد والسلب والنهب والاعتصاب ومغازلة
النساء والانصراف الى المسكر ؛ وابعدت عن دين طهارة يحاول توجيه كل قوى الفرد الى محبة
الله الخالصة والقداسة الكاملة التي لا يشوبها عيب .

١ - موتاني ؛ حياته ، فلسفته ، منتخبات ، صدر عن منشورات عويدات . (الناشر)

اسهمت الحركة الارتيازية في ابعاد الناس عن الدين المسيحي الذي يرتكز الى البراهين . فقد ادعى الدين المسيحي ، من جهة ، بأن وجود الله يمكن اثباته عقلياً بالارتقاء من الخلق الى الخالق ، ومن جهة اخرى بأن الوقائع التاريخية التي نستطيع بواسطتها الاستدلال على ألوهة المسيح قد اثبتتها نقد تاريخي عقلي . ولكن الملحدين كانوا كلهم على مذهب الشك بالكل . ففي السنة ١٦٣٠ قال « لاموت له فاييه » في حوار « اوراسيوس توبرو » .

« ليست حياتنا كلها ، اذا ما فحصناها من كل وجوها ، سوى اسطورة ؛ وليست معرفتنا سوى غباوة ؛ وبقيننا سوى خرافة ؛ وبمجل القول ليس هذا العالم سوى تمثيلية مضحكة ومهزلة داغة » .

تأثر هؤلاء الاشخاص بالحس الفني المستهجن ، فتوسعوا في تعليم عظماء النهضة الايطالين وتعليم « مونتاني » . شرع « غاسندي » في السنة ١٦٣٤ باحياء المذهب الابيقوري في كتابه « دفاعاً عن ابيقور » . فرأى غاسندي ، مخالفاً بذلك ابيقور ، ان الذرات ليست أزلية ولكنه رأى ، كما رأى ابيقور ، ان الكون مركب من ذرات دائمة الحركة تتساقط في الفضاء وتكون عوالم شبيهة بعالمنا لا يحصى لها عدد . وان كل الاشياء وكل الاجسام مركبة من ذرات متحركة . وان جسمنا مركب من ذرات ايضاً ، وان روحنا اقرب ما تكون الى النفحة ، او اللهب ، وهي مجموع ذرات صغيرة جداً منتشرة في كافة أجزاء جسمنا . فالنفس تتأثر من ثم بكل ادواء الجسم . تتحرك ذرات الجسم بفعل اخيطة تنطلق باستمرار من ذرات الاجسام الاخرى ، وتتحرك الروح بفعل حركة الجسم ، فيتولد الشعور . شاعرنا صحيحة ابدأ ولكن احكامنا عليها قد تكون مخطئة ، فالخيطة تقرب معطيات الحواس وتنظمها وتقارن بينها وتنقصها وتوسعها ثم تستخلص منها الاحكام . لذلك كانت اسباب الخطأ متعددة في هذه العمليات . ان ما فوق الطبيعة حكم سيء على معطيات الحواس بل انتاج من انتاجات الخيطة . يجب اعادة العمليات ومقابلة الاحكام وامتحانها باستمرار ، فيما بينها وبالنسبة لحواسنا . فغاسندي ، وشأنه في ذلك شأن الارتيابيين الآخرين ، كوبرنيكي وغاليلي لا غش فيه . وحين ينحل جسمنا المركب من الذرات ، تنجاب النفس وتضمحل . فلا يبقى حينذاك شعور ولا عاطفة ، ويموت الفرد بكليته .

افضت هذه المادية الى نتائج عدة . وفي مقدمتها استحالة ادراك كنه الاشياء . لا نبلغ بواسطة حواسنا سوى حقيقة نسبية كافية عملياً . أما طبيعة الاشياء الحقيقية فلا ندركها . فما هي من ثمة قيمة الآراء النظرية حول طبيعة الكائن ، حول طبيعة الله ؟ وما هي قيمة البراهين على وجود الله ؟ وما قيمة هذا البرهان على وجود الله في تسليم الشعوب كلها بذلك ، على انها تفعل ذلك انقياداً لرأي مطبوع ؟ لا وجود لرأي مطبوع بل كل شيء يصل الينا عبر الحواس ، والخيطة تركيب معطيات الحواس تركيبات مختلفة جداً بحيث لا تتكون عند اناس كثيرين اية فكرة عن الله كما اعترف بذلك بعض الملحدين . وقد رأى غاسندي ان

فكرة الله هذه ، مع ما تنطوي عليه من مفاهيم اللانهاية والازل والكمال والقدرة الكلية والصلاح الكلي ، ليست سوى توسيع وتعظيم كالات الجنس البشري ، اذ ان افكارنا العامة تأتينا من الحواس . فالاله هو الانسان متحلياً بمنتهى كالاته .

وافضت كذلك الى الوقوف موقف الحذر من الشهادة التاريخية . فكيف تصح الثقة بشهود تتكون آراؤهم تكوناً يترك مجالاً لبقاء مثل امكانات الخطأ هذه ؟ قام « نوديه » ، امين كتب الرئيس « دي مسم » ، وخريج جامعة بادوا ، بتهديب النقد التاريخي . فتوصل منذ السنة ١٦٢٥ ، في كتابه « دفاعاً عن عظام الرجال المتهمين بالشعوذة » ، الى وضع سلسلة المراجع والعودة الى المصادر ودرس قيمة الشهادات . فبحث عن المستند الاول ، والزمان الذي كتب فيه ، ووضعه ، واتجاهه ؛ ومحص قيمة تأكيداتاه وفسرها بحسب النزعة المادية للفلسفة الابيقورية . فأعيد كل شيء الى روابط طبيعية بين علة ومعلولات ، واعيدت كل دوافع الانسان الى مصلحته المادية . تظاهر « نوما بوميلوس » بالتحدث الى الحورية « ايجيريا » بنية توطيد سلطة انظلمته . كما ان مؤسسي الامبراطوريات وقادتها قد ادعوا بانهم آلات في ايدي الآلهة ، بنية ارساخ سلطتهم . واختلق نساك صحراء طيبة روايات باطلة عن معارك مزعومة ضد الشيطان للتوصل الى الشهرة والاحتفال على اموال السذج . وليس تنصر كلوفيس ودعوة جان دارك والوحي المنزل على محمد وموسى سوى حيل سياسية . ولكن ماذا يكون اذ ذلك من امر الدين المسيحي والشهادات الانجيلية ؟

ووفرت الاكتشافات الجغرافية اسلحة جديدة . فقد سبق ان اتاح برابرة الشعوب القريبة والديانة الطبيعية المسيحية . ووفرت الصين وسائل العمل نفسه للمحدي القرن السابع عشر . ففي السنة ١٦٤٢ ، قال « لاموت له فايه » ، في بحثه حول « فضيلة الاوثان » ، ان التلقيم واجب ، ما دامت الكنيسة لا تستبعد امكانية خلاص الفلاسفة الاوثان الذين عاشوا عيشة صالحة بحسب السنة الطبيعية قبل شريعة موسى ، بان حكاء الامم ، التي لم يبشر الرسل فيها بالدين المسيحي ، قد يكونون خلصوا ايضا . فالمسيح لم يبشر به في الصين . ولكن الديانة الصينية انغمس من ديانة الاغريق أو الرومان أو المصريين لانها لا تستشهد بالمعجزات ولأن الصينيين منذ القدم ، آمنوا باله واحد . فان كونفوشيوس ، سقراط الصين ، قد آمن بوجود اله واحد واتخذ مبدأً مبدأً السنة الطبيعية بالذات ، اي الامتناع عن معاملة السوى بغير ما نريد ان يعاملنا به . ومن ثم فان كونفوشيوس والصينيين قد يخلصون أيضا . أما الفكرة المركزية في كل ذلك فكانت رفق الطبيعة الذي يميل الى هدم الاعتقاد بالخطيئة الاصلية وضرورة القداء بواسطة المسيح وضرورة النعمة ، اي بأسس المعتقد المسيحي .

واتشر الاعتقاد كذلك بان شعوب اميركا وآسيا والمناطق الجنوبية لم تنحدر من آدم وان للتوراة لا تسرد من ثم تاريخ الانسانية وعلائقها بالله ، بل تاريخ شعب واحد فقط هو الشعب

اليهودي . فليس للتوراة ، والحالة هذه ، تلك القيمة السامية التي تعزوها الكنيسة اليها .
أما رجال الكنيسة من امثال غاسندي ، استاذ اللاهوت في « دينيه » ، وذوور الفطنة من
من امثال « نوديه » أو « له فايه » ، أمين سر ريشليو ، فقد تخلصوا من الورطة باعتماد تعاليم
بومبونازي حوّل اولوية الايمان على العقل ، وفصل العقل عن الايمان .

ولعل ما كان ابعد خطورة من كل هذه الحملات ان الاقدمين وفروا
وسيلة الاستغناء عن الديانة المسيحية ، فهل نحن نتوخى ادارة بيت
وتربية اولاد ؟ هوذا « كسينوفون » . أم نتوخى الحكم ؟ هوذا
ارسطو وافلاطون وقاسيت ، ام نقوض معركة سنن الكون ؟

الاقدمون
يبحرون على الديانة المسيحية
الايبيقوريون والرواقيون

هوذا بلين ولوكريس . أم الاستدلال على حدود الطبيعة والمعجزة ؟ هوذا كتاب « معرفة
الغيب » لشيثرون . أم التفكير بخلود النفس ؟ هوذا « فيدون » و « حلم شيبون » . وتوفرت
عند الاقدمين ، بصورة خاصة ، تعاليم تتيح للانسان ان يكفي نفسه بنفسه لمواجهة صعوبات
الحياة وآلامها وقلقها الشديد ، تعاليم يملئ فيها العقل ما تنفذه ارادة حرة . ورأى ابيقور ان
قوام السعادة شرطان : « جسم بدون ألم ، وروح بدون اضطراب » . وان هاتين الحالتين
هما التمتع ، غاية طبيعتنا الاولى وخير الانسان الأول . وان العقل السليم يملئ علينا الاشياء
والآراء التي يتوجب علينا تجنبها أو السمي وراءها بفية بلوغ هاتين الحالتين . وانه سيحدو بنا
الى رفض ملذات كبرى . اذا ما تبين لنا ان آلاما اكبر ستمعقها ، ومعاينة آلام كبرى وطويلة
اذا ما ثبت ان ملذات اكبر ستمعقها . وانه سيظهر لنا ان القناعة والزهامة والعدل تضمننا في
الحالات التي يصدر عنها التمتع ، وان الغبطة والفضيلة شقيقتان لا تفترقان ابداً . ففدا من ثم
دستور الملذة حسابا نفعيا متحذراً . وكان ذلك جوهر كتاب « الحكمة » لبيير شاروت
(١٦٠١) الذي ادرج في فهرس الكتب المحرمة في السنة ١٦٠٦ وسار سواد الملحدن يهدي
هؤلاء المرشدين .

وآثر غيرهم الرواقيين ، ابيكتيت ، سينيكا الذي حملت رواقيته طابع الابيقورية . هنالك
أشياء يناط امرها بنا ، كالرأي والارادة والرغبة والكرامية ، وبصورة عامة ، احكامنا
وقصوراتنا . نحن نسيطر عليها . نحن احرار .. عقلنا يولينا القدرة على تصور الاشياء ، ورؤية
صلاحها وسوءها ، وابتعادها أو النفور منها ، والسعي وراءها أو الانصراف عنها . القدرة على
الحكم والارادة لا تخضع لاي قيد .

وهنالك اشياء لا يناط امرها بنا ، الجسم ، الممتلكات ، الصيت ، الكرامة . انها غريبة عنا
وأمرها منوط بالآخرين .

اذا ابتغينا ما هو منوط بنا فقط ، اي احسان الحكم والتوفيق بين ارادتنا وحكمنا ، فسوف
نكون سعداء لأن للسعادة هي في الحصول على ما نبتغي .

ولم يكن الرواقيون نذرة بين القضاة والاشراف الريفين . لا بل ان احد الرهبان قد طلب ان يدفن والى جانبه كتاب لسينيكاً لم يفارقه في يوم من الايام . ولكن الابيقوريين كانوا اكثر عدداً ، وباتت الابيقورية ، بسهولة ، نفعية وقعت موقع الرضى من الذهنية البورجوازية . فاعتنق هذه التعاليم رجال قضاء اشراف من امثال « دي فير » ، و « دي تو » ، و « دي مسم » ، و « مونمور » ، و « سيفيه » ، و « هارلي » ؛ وبورجوازيون ، ابناء تجار اطباء وضباط ملكيين ؛ وكنسيون ومهذبون ووكلاء خزائن كتب وامناء سر وزراء ومستشارون وسفراء واحبار وأمرأء ملكيون ، من امثال غاسندي ، ابن المزارع واستاذ اللاهوت في دينيه ، ونوديه وكيل خزانة كتب الرئيس « دي مسم » ، و « لاموت له فاييه » امين سر ريشليو (١٦٣١ - ١٦٤٢) ومهذب لويس الرابع عشر (١٦٥١ - ١٦٥٨) ، اجتمعوا نوادي ثقافية حول قضاة ناصروا الادب ، كـ « بيرسك » في « اكس » ، وقد كان على صلة بجميع انحاء اوروبا والرئيس « دي مسم » في باريس والرئيس « دي تو » في قصره حيث عمل وكيل خزائن الكتب ، « بيير » و « جاك دي بوي » (١٦١٧ - ١٦٥٦) .

ولكن الانسياق وراء الطبيعة ، اي البحث عن التنعم ، قد عنى في نظر الكثيرين الفجور بتأثير فن الحس الفني المستهجن ، انفلات غرائز ، وحميا ارادة دون رقابة ، وتمخبطيا لكل الحدود . فكانت فترات القصور الشرعي وفترات الاصابة وعهد « ماري دي ميديسيس » وعهد « آن دوترويش » عهود مغالزات خطيرة وقبح جنونية انصرف خلالها بعض الاشراف الريفين ، من امثال الكونت « دي بلغارد » ، والدوقية « دي غيز » ، والمارشال « دي روكور » المقربين الى هنري الرابع والمدربين على المكامن والسلب والاعتصاب والاحراق بدافع من امواء فظلة ، الى العيش في اجواء الفجور الجنوني والمقاتلة والمبارزة والسكر والتجديف ، وتلهوا وانكروا الله وعاشوا عيشة من لا يؤمن . وبات مألوفاً في بيئة بعض الشبان اعتبار الدين مخاتلة وخداعاً . وقد حدث ، اثناء حصار « لاروشيل » ، ان ضباطاً تمادوا في سخريتهم من رفيق لهم تكلم عن الله الى ان ارغموه على طلب تسريحه . ولم تختلف الحال ابان ثورة « المقلع » (*La Fronde*) . ولفت الالحاد الانتباه بين النبلاء من حاشية « غاستون دورليان » و « كورديه » . فما هو عددهم يا ترى ؟ اجاب « مرسين » على هذا السؤال منبهراً بقوله : « ان باريس وحدها مبتلاة باكثر من ٥٠٠٠٠ ملحد » . وحوالي السنة ١٦٣٠ ، ذرف « بوشيه » الدمع اسفاً على « مليون عقل مفقود » . ولكن كلا القولين صرخة الم لا قيمة احصائية لها . وبين السنة ١٦٢٣ والسنة ١٦٢٥ حدثت ازمة حقيقية . فقد صدرت خلال سنتين المؤلفات التالية : « قصة فرانسيسون » ، « عروس الشر اللعوب » ، « حجرة الهجاء اللاذع » ، « ديوان شعراء الهجاء اللاذع » ، « صفة الهجاء اللاذع » . وتنازلت هذه الكتب مواضيع معادلة التقوى والرتاء وحق اللذة في التغلب على القانون . فكانت النتيجة موجة من الرعب . واعتقد المتدينون بوجود مؤامرة مبيتة . وبات « الالحاد » واقعاً معترفاً به وقوة يجب محاربتها .

٩ - أثر الحركات الفكرية والعاطفية في السياسة

أثرت كل هذه الحركات العاطفية والفكرية في الازمة السياسية والاجتماعية فجعلتها تتفاقم وتزداد خطورة . قال ريشليو : « ان نظام الدولة يفرض بعض التساوي في السلوك » . الا ان الاستهجان والاحقاد والجلسينية ومركزية الشمس قد ابرزت ووسعت الاختلاف والتفاوت والفوضى . ووفرت وسائل المعارضة السياسية . وليس مصادفة أن يكون قادة الملمدين بين الاشراف الريفيين ، من امثال كونديه وغاستون دورليان ، قادة في الوقت نفسه لحركة مقاومة الملكية المطلقة . وليس مصادفة كذلك ان يكون الكثيرون من أدباء الاستهجان ، وهم الاعداء اللدءاء لكل نظام وسلطة وقسر ، في عداد « خدم » العطاء و « المتفانين » في سبيلهم ، مستمدين لخدمتهم بالتعليم كما يخدمهم غيرهم بالسيف . أو لم تغد الوان الفن نفسها مظاهر مقاومة؟ فها هو علم الاخلاق الارستوقراطية قد حث على الثورة بدافع من الحس الفني المستهجن ، والأدب قد بات وسيلة دعاوة . وها هو كورثاي في « نيكوميدي » و « رودوغون » ، و « روثرو » في « الامانة البريئة » و « بليزير » و « لاروشفوكو » و « رترز » في « مذكراتها » ، قد مجدوا هوى المظلمة ، ورفض الخدمة ، والطباع الفظة التي تنكسر ولا تتحفي ، والنفوس الكبيرة التي تستهوي المغامرات البطولية . لا بأس في ان تكون المغامرة اجرامية إذا هي انطوت على احتقار الموت وافضت الى السلطة . ان ما يفقد المرء اعتباره هو تحذره ، وتوسطه ، وبخه باله وحياته ، وعيشته مغموراً في الخفاء . كما ان الخطر الكبير هو السبيل الى المجد الكبير . أما الخير الاسمى فهو في ان نرغم الغير على عبادتنا ومحبتنا ومهابتنا ومقتنا .

المقصد الجيد شرعي ابدأ

واذا اعتبر شراً ، فمرد ذلك الى تقدير ضعيف

صادر عن نفس موعوكة

القلب الكبير لا يدهش البتة أمام المخاطر الكبيرة

ومن لا يقدم على جريمة تتوج بالفار

يتقيد على حسابه بفضيلة فاشلة

(الامانة البريئة)

كل الجرائم جميلة اذا كان لها العرش ثناً

(الامانة البريئة)

ان القلب الكبير يشترى الاعتبار الكبير بأي ثمن

وكل جريمة حلال حين تقضي الى أكبارنا

(بليزير)

أما الملمدون فقد تظاهروا باحتقار الجماهير الجاهلة الميقاتة ، اي عامة الناس . ولكنهم من جهة ثانية حطموا البطل ، وهو احد المثل الاساسية في الملكية المطلقة . فقد توسع « رينييه »

« وتيوفيل دي فيو » ، بشكل شعري ، وبمزيد من العنف والتشاؤم ، في تعلم « مونتاني » ، وجزموا بأن الانسان ليس ملك الكون ، بل نتاج قوى عياء ، وامتزاج هواء ووحل ، خاضعاً لضغط الضرورة ، متحركاً باهوائه ، العوبة الهبة والضعف والخطأ . فاني لمثل هذا الانسان التوق الى السلطة المطلقة ودور المحلص ؟ العقل الكوني خرافة . فعلى كل فرد ان ينقاد لطبيعته ويخضع لسنته الباطنية فقط . ليس للذيلة من علة سوى الجهد الذي نبذله بغية السلوك بمقتضى الظروف ، ومن ثم بغية خيانة ذاتنا . واذا كان هنالك طماعون وجشعون ومراؤون ، فمرد ذلك الى ان الانسان لا يريد ان يحد في ذاته غاية اعماله . يجب ان تتعلم « التمتع بذاتنا » . فقدت لحكومة والمجتمع من ثم السببين المسؤولين عن ضعف الافراد وكان معنى ذلك ان كل نظام وكل ايمان قويم وكل قانون اجتماعي وكل تضحية وكل مجهودات موضوع سخريه وقضي عليه ، وان اسس المجتمع نفسها قد تخلخلت وتزعزت .

واقضت الجنسانية ايضاً الى تحطيم البطل . فهي قد صورت الانسان العوبة شعوره والعادة والمصادفة ؛ وصورت ابتغاء المجد غريزة تلك والسمي وراء الخير الاسمي حركة نفعية لاواعية وعمى قلب . فليس باستطاعة الملوك وقادة الحرب والوزراء ، من بعد ، ان يكولوا انصاف آلهة . وقابل الجنسينيون السلطة الخارجية بوصايا الضمير ، المستقل ، لأن الله نفسه يحركه . وانتزعوا من السلطة الحكم المانع في المسائل التي تقع تحت الحواس أو ترتبط بقوة العقل . ونظروا الى الرأي القائل اننا لا نخطيء حين نطيع ، نظرهم الى شرك تنصبه محبة الذات ، معلنين خطأ السير ، والعيون مغمضة ، ووجوب التوجه الى الله مباشرة فوق السلطات القائمة ، الكنائس والملوك ، بغية سؤاله عن السلوك الواجب سلوكه ، وقد برهنوا في كل شيء عن تقلقل ومعارضة . وحلم واضعو نظرياتهم البورجوازيون ، في سبيل مقاومة السلطة البابوية المطلقة ، بارستوقراطية اساقفة تختارهم مجالس الكهنة القانونيين ولا يتلقون الوحي من البلاط أو من القاصد الرسولي ؛ وفي سبيل مقاومة السلطة الملكية المطلقة ، وبطبعة شريفة من علية البورجوازيين تكون لها السيطرة في نظام دستوري .

وهكذا كان باستطاعة كل فرد ، في نضاله ضد غيره من البشر أو ضد الحكومة ، التوصل الى مبررات فكرية . فلم يكن القرن ، والحالة هذه ، سوى اضطراب وبلبله وتشوش . وبدت المجتمعات الاوروبية وكأنها صائرة الى الفوضى والانحلال والزوال .

الفصل الثاني

مقاومة الأزمة

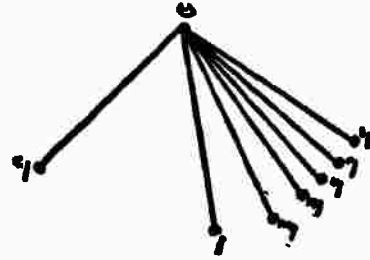
كان رد الجسم الاجتماعي ، على فوضى الحس المستهجن التي كادت تقضي عليه قضاء تاماً ، بذل الجهود بنية استعادة الوحدة المضوية ،الوحدة الكلاسيكية ، وهي شرط لا بد منه لحياته . كان الرد تلقائياً في البداية ، فنسج من نوع من التوازن بين النزعات البورجوازية ونزعات اشراف الجندية . وصدر بصورة خاصة عن ائس منحدرين من الاوساط البورجوازية ، كأعضاء المهن الحرة ، ورجال القانون ، والقضاة ، والنبلاء الحديثي العهد الذين ما زالوا قريبين من البورجوازية ، وقد تعودوا كلهم بممارسة النظام والاقتصاد والسيطرة على الاهواء الخاصة بالبورجوازي . وما زالوا يحرصون على بقاء العاقبة والملكية ويتمشقون الشرعية ويحترمون تسلسل السلطات والرئاسات القائمة ، ويتعلون بروح كلاسيكية بفضل تربيتهم الادبية . ولكن هذه الطبقة الصاعدة لم تتوصل بعد الى وعي ذاتها وعياً كاملاً . فان هؤلاء الناس ، الذين كانوا خدام الملك ، الشريف الاول في المملكة ، و « اجراء » العظام ، واسياداً حديثي العهد ، ورغبوا في ان يُعتبروا نبلاء وحججوا باعينهم الى المثل الارستوقراطي ، قد حاولوا ان يعيشوا حياة البطل الابي الذي يبذل نفسه في سبيل الهه وسيدته وسيدته والدولة والفكرة ، بسخاء كريم ، هو هوى نبيل يرتفع على ما غيره من أهواء ، وينظمها ، ويوحد الوعي . من اوساط هؤلاء بصورة خاصة ، ومن الندوات وقاعات الاستقبال التي يتم فيها الاتصال باشراف الجندية ، انبثقت نظرية مركزية الاله الاوغسطينية ، والكلاسيكية الادبية والفنية والاخلاقية ، والكروتزيانية (الديكارتيية) ، والحكم المطلق ، والروح التجارية والاهتمام بالاستقلال القومي والعظمة القومية . ولكن العمل التوحيد الكلاسيكي لم يتمكن من تحقيق النتائج الا بفضل الدولة الملكية المطلقة التي تبنت هذه النزعات وشجعتها بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، وعلى غير قصد أو وعي منها احياناً ، وأماحت لها التفتح وأمنت لها نجاحاً عرف بعض الديمومة .

١ - المدرسة الفرنسية ،
ونظرية مركزية الاله الاوغسطينية

بيرول
انتهى الاصلاح الكاثوليكي الى الاكتمال في نظرية بيرول (١٥٧٥ - ١٦٢٩)
حصول مركزية الاله بحسب التعليم الاوغسطيني . كان بيرول ابناً لأحد
المستشارين في مجلس باريس التمثيلي وابن اخت لاربعة مستشارين آخرين في هذا المجلس وابن عم
لمستشار فرنسيا ، « سيغويه » . واصبح مرشداً لـ « هنرييت دي فرانس » ملكة انكلترا
(١٦٢٥) ، ثم كردينالاً (١٦٢٧) ، ثم رئيساً لمجلس الملكة الام « ماري دي مديسيس »
(١٦٢٩) . وكان روحانياً ، من فئة مدام « الكري » ، يمارس الحياة الداخلية والحياة التأملية .

الاروغسطينية
رجع بيرول الى القديس
اوغسطينوس . وعن طريقه

الى افلاطون والمثل المطبوعة ، بنية التمكن من
مقاومة الاحاد والمهرطقة والفتور . فاذا كانت
طريقة المعرفة الاكويينية قد غدت حجة للابتناد
عن الله ، فلنرجع الى ذاتنا ولنخلق جوا من
السكون الداخلي ، فتظهر امامنا المفاهيم الالهية
ويظهر الله . فكا حدث في كل عهود الصوفية ،



الشكل ٧ - رقاد غاليليو
(انظر صفحة ٢٦٠)

وفي عهد « برنيد » ، فوجب على الانسان ، في مقاومته التشتت والتمدد ، ان يعتمد عن العالم
المحسوس ويحاول ان يشاهد ، في ذاته الكائن ، الواحد ، ويلاسه ، اذا صح التعبير ، ملامسة
المادة للمادة . وهكذا شاهد القرن السابع عشر كله حركة اوغسطينية كبرى اسهم بيرول
فيها .

ان بيرول ، الذي تقيد من جهة ثانية بالتعلم الكاثوليكي حيال الحرية ، اقتبس
مركزية الله
عن القديس اوغسطينوس شعوره بعظمة الله اللامتناهية وفناء الانسان .

فاستخلص نتائج ذلك في « خطبة حول معالي يسوع » (١٦٢٣) . واراد ان يقوم بثورة
كوبرنيكية ، تقول بمركزية الله . « اراد عقل نير من عقول هذا القرن ، نقولاس كوبرنيكوس
الدفاع عن ان الشمس هي مركز العالم ، لا الارض ، وانها ثابتة وان الارض ... تتحرك امام
الشمس ... ان هذا الرأي ، الذي لم يعمل به كثيراً في علم الكواكب ، لا يخلو من الفائدة ويجب
ان يعمل به في علم الخلاص » .

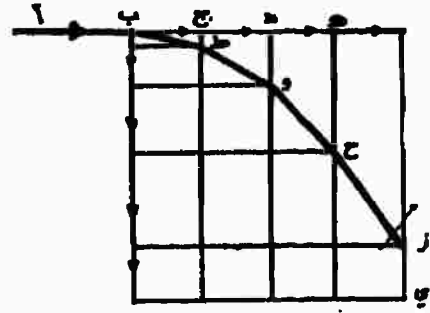
كان بيروول تلميذ اليسوعيين وتشبع ، عن طريق القديس اوغسطينوس ، من التأمل الاسامي حيث يقول القديس اغناطيوس : « يجب ان ننظر الى الله أولاً لا الى ذاتنا . وان لا تصرف بوحى نظرنا الى ذاتنا والبحث عن ذاتنا بل بوحى النظر الخالص الى الله . فييروول يريد ان يود كل شيء ، لا الى استفادتنا ومنفعتنا الروحية ، بل الى مجد الله فقط ، دون اعتبار لمصلحتنا او لقضاء حاجتنا الخاصة » ، وان يحملنا الى الله « بمباداة عظمته وقداسته عبادة عميقة » فقط ، لان « الهه المسيحين عظيم » . فلا يليق من ثم ان نعتبره كصديق واب فقط . يجب ان نعامله باحترام نادر ، دون ان ننسى يوماً المسافة اللامتناهية التي تفصل بينه وبين الانسان . بذلك احيا بيروول الفضيلة الاولى ، اي فضيلة العبادة .

يقود بيروول الانسان الى هذا الاله المثلث الاقانيم بالتعبد للاقنوم الثاني ، الكلمة المتجسدة ، يسوع المسيح . فبالتجسد تأملت ، في شخص المسيح ، كافة الحالات البشرية التي افسدت واذلت في شخص الانسان الاول . ولم يبتغ بيروول من ثم سوى يسوع المسيح ولم يفكر الا بيسوع المسيح متأملاً ومشاهداً اياه في اقل ظروف حياته شأننا : « لنذهب الى بيت لحم ، لنذهب الى الاسطبل . لنشاهد يسوع طفلاً ، لنشاهد مريم امه ، ويوسف معاوننا الام والطفل . لنشاهد الاسطبل والثور والحمار . ولكن لنشاهد بصورة خاصة حالاته الداخلية في كل دقيقة من دقائق وجوده على الارض . فحياة المسيح ليست تتابع احداث تاريخية فحسب . ان اسرار يسوع المسيح سوف تستمر وتحيا في الارض حتى آخر الدهور . انها من عالم الماضي من حيث وضعها . ولكنها من عالم الحاضر من حيث قوتها » . العيش مسيحياً هو ان نميش الاسرار ونتقفى حالات المسيح وتمثل بالمسيح . يجب الانسعى وراء الفضيلة لانها جميلة بذاتها ، متفقة مع العقل ، ضرورية لكامل الانسان ، كما يجب ان لا نبحث عنها للتميز عن الغير ، لاشباع رغبة شخصية ، لانتزاع الثناء او لتأمين المصلحة : فالوثنيون والهرطقة والكاثوليك المزيغون هم الذين يسعون وراء كل ذلك . ان ما يجب عمله هو تجسيد يسوع ، وفي سبيل ذلك ، « الاستمرار في ممارسة الفضائل التي مارسها على الارض ، وفي هذا بالذات تقوم الفضيلة المسيحية . السير على خطى المسيح . اتمام فضائل يسوع المسيح » . يجب ان نموت لذاتنا كي نتيح ليسوع ان يوجد ويجيا فينا .

بذلك يبطل اعتبار الصلاة مجرد فحص ضمير ، وتعبيراً عن رغائبنا وطلباً الصلاة البيروولية لاجلنا . فهي تصبح نظرة وضيمة للاعراب عن الخضوع والاعتزاز والمحبة الهياية ، واقتضاعاً ونكران ذات ، وانخطافاً في الاعجاب ، في البهجة ، في عرفان الجميل الاسمي ، ونشيد اعجاب وثناء . ولا تنطوي الصلاة من بعد على اسلوب لبلوغ الكمال أو للانتصار على الذات ، فهي ليست اذ ذاك سوى اقرار بخضوعنا لله ، وهبة ذاتنا لروح يسوع ، وعرض نفسنا أمام قدرة يسوع المسيح الذي يطبع بذاته ، في النفس ، آلامه ، وفضائله ، الالهية ، الفاعلة ، بايجاد ما يشبهها فينا . فضائل المسيح : « لننظر اليها بانتباه ، لنعظمها بتواضع ولنتنظر من الله

بصمت ما هو مفيد لخلاصنا الابدي ؛ لنطلب بعض التأثر والاشراك في فضائل يسوع المدهشة والالهية هذه ... ولنتوسل اليه ان يمد ساعد قدرته الكلية كي يطبعها فينا .. ، ولترتض ارتضاء كلياً بالعمل الالهي . لنقلع عن فحوص الضمير الخاصة ولا نتوقفن عند الفحص العام . يجب الا ننظر طويلا الى نقائصنا وخطايانا ، لاننا بذلك قد ننسى المسيح : « لا تنظروا الا الى ما هو جميل ... وما القصد من جمال يسوع الفائق الا اختطاف حياتنا في سبيل اسعادنا » . لنكرم في العذراء مريم « السمة الطاهرة » ليسوع ، وفي القديسين حالات يسوع التي احيوها في ذاتهم . هكذا سوف يُطعم الانسان في يسوع الحي ، ويشمر في يسوع الحي ، كالجن في الكرمة . ويجب كذلك الا ينتهي الى مذهب التجرد لأن الفضائل لا يبرهن عنها الا بالاعمال ، والعمل هو غاية الحياة ، والنعم كلها تسبغ علينا حتى لمحقق هذه الغاية . وكما ان حركة الآب الالهية التي تكون ابنه هي مصدر سر التجسد ، الذي يهب فيه ابنه الطبيعة البشرية ، كذلك نحن سنذهب ، بواسطة يسوع ، الى الثالوث الذي هو مصدر ومبدأ كياننا وكمال وغاية كياننا .

ان بيرول قد سار في ذلك على لاهوت القديس بولس والقديس يوحنا ، وتعليم القديس بولس حول الجسم السري . الذي لم يؤثر تأثيراً عظيماً في القديس اغناطيوس والقديس « فرنسوا دي سال » . اي انه شرح رسالة القديس بولس الى الرومانيين . وبعد ان هدم اساس مجادلة الملحدين بافلاطونيته الاوغسطينية ، لم يترك للبروتستانت اي موضوع شكوى بتعبده الداخلي في الروح والحق ، الذي رد فيه كل شيء ليسوع ، ويسوع للاله الواحد المثلث الاقانيم . ، والذي دعا ، لتقفي آثار المسيح ، كل البشر ، العلمانيين منهم والرهبان على السواء .



الشكل ٨ - نظرية غاليليو في العذائف
(انظر صفحة ٢٦١)

اذا ما اردنا التعبير عن فكرنا تعبيراً بشرياً ، أمكننا القول انه تخلى عن تدريب الارادة بحسب طرائق القديس اغناطيوس و « رودريغيز » ، التي كانت متشابهة كل التشابه بطرائق علماء الاخلاق العلمانيين ، بغية الاستماعة عنها بطريقة مرتكزة الى الايماء لأنها اعظم فاعلية في الارجح . فان وعي الحالة الداخلية والدوافع والاسباب ، والضوء الملقي على الطبيعة ونتائج شتى المقررات الممكنة ، والاختيار الحر الصادر عن عقل نير ، وكل ما كان متعلقاً بإرادة انسان سيد نفسه ، قد ابدل بتوفيق لاواع بين الكائن بكليته وبين مثال أنعم النظر فيه ، بتقضية هذا المثال وتهذيبه للاوعي أو للوعي القامض . وهكذا فان تحويل جوهر الفرد قد خلف مقاومة الاعراض والظواهر .

رهبانية المبد
جاءت مركزية الله البيرولية تنمة للنهضة الكاثوليكية. وقد عرفت الانتشار بفضل رهبانية المبد التي أسسها بيرول في السنة ١٦١١ وضمت كهنة عالمين فرض عليهم احياء حالات يسوع المسيح الكهنوتية ، وهو « الكاهن الاسمي » ، في انفسهم ، واعطاء المثل عن كهنوت كامل مقدس . وضع كهنة المبد انفسهم تحت تصرف الاساقفة فقاموا بما انتظره منهم مؤسسهم . ونشر تلامذة بيرول روحه بمؤلفاتهم ايضاً (« ب . بورغوان » ، « حقائق يسوع المسيح ومعاليه » ، ١٦٣٦ ؛ « املوت » « حياة الاب شارل دي كوندرن » ، ١٦٤٣ ؛ « ج . ج . اوليه » « كتاب التعليم المسيحي للحياة الداخلية » ، ١٦٥٥) وبتحقيقاتهم . فان جان جاك اوليه ، الذي كان ابناً لاحد كبار الماشرين في فرنسا ، وحفيداً لأحد التجار الجواخين ، ومنتسباً لعائلة ضمت العديد من رجال الشرع وارتقت الى طبقة النبلاء منذ خمسين سنة ، قد أسس ، في السنة ١٦٤١ ، الكليريكية سان - سوليس . منذ السنة ١٦٥٠ ، غدت خورونية سان - سوليس في باريس ، وهي خورونية بيرولية كلها قدوة لخورنيات اخرى كثيرة . وناقست كليات جمعية المبد كليات الآباء اليسوعيين . وانتسب الى البيرولية فترة من الزمن كل من القديس « فنان دي بول » و « بوسويه » و « سان - سيران » نفسه . وكانت هنالك يسوعيون بيروليون ايضاً . ولكن العداء ما لبث ان قام بين البيروليين واليسوعيين ، لأن البيروليين ، الذين ساروا على خطى القديس أوغسطينوس ، قد ناهضوا المولنيين وعطفوا على الجفسينيين مع انهم استردلوا هرطقات الجفسينية .

أثر البيرولية
الشامل
ان هذه الحركة التي انبثقت من رزامة البورجوازيين ومنطقهم وصدق نزاهتهم ، وتحولت الى الله بفضل عاطفة بيرول الحارة ، قد تحسنت الورع واوجدت في الكثيرين ، لا سيما في فرنسا ، احترام الله ومحبة المنزعة عن الغرض ، والتفاني في سبيل القريب ، ووسمت تقوam وحياتهم بطابع من الوقار والحشمة وحقت فيهم وحدة الايمان والمواطف والاعمال ، وجعلت منهم مسيحين حقيقيين . فتأثر القرن كاد بالبيرولية . وكان لبيرول ، على ما يبدو ، تأثير كبير على ديكرات . وأدت البيرولية الى تعزيز الكلاسيكية . فان مشاهدة اعظم الاسرار سموأ قد اعطت البيروليين معنى العظمة الحقنة والظاهرة ، ونفرتهم من الغلاظة والتجبر ، فاسهموا في انتصار العقل والعفة والبساطة والطبيعية . وقد لوحظت اوجه التشابه بين ادب البيروليين الفائق الطبيعة نحو الله وأدب المتكلمين في العالم ، بين تعابير بيرول وتعابير التكلف ، بين مركزية الله البيرولية ومركزية المرأة ، اي عبادة المتكلمين للمرأة . ويصعب التمييز هنا بين ما اذا كان هنالك تأثير متبادل او بادرة لجهود واحد سعيأ وراء وحدة منظمة في نشاطات مختلفة . ومن هو الذي يستطيع ايضاح النتيجة الممكنة التي كانت لمركزية الله على الخضوع للملك ، صورة الله على الارض ، ولأثر فضيلة العبادة على توسع السلطة المطلقة ؟ لا ريب في ان أثر اليسوعيين كان كبيراً عن طريق كلياتهم ومرشدهم ، ولكن ربما كان أثر مركزية الله البيرولية اعظم شأنأ وابعد عمقأ .

ان الحركة المهائلة للحركة البيرولية ، في اوساط بروتستانت الاقاليم المتحدة هي الغومارية الحركة الغومارية . فالسينودس الدولي الذي انعقد في « دوردرخت » (١٦١٩) وهو اشبه بمجمع كليني عام ، جاء ردا على المجمع التريدينتيني ، قد اقر واشهر علنا مبادئ الراعي « غومار » . فاذا بها ابعاد نظريات الكلفينية عبوسة : عجز الانسان عجزاً كلياً بدون نعمة الله ؛ القدبة باستحقاقات يسوع المسيح وحدها ؛ القول بالاختيار للعهد الساهوي منذ الازل بقرار لا يدرك غوره يصدره الله الكلي القدرة . واضيف الى ذلك مثل ثيوقراطية تمارس بواسطة كنيسة ديموقراطية ، وادانة الرأسمالية ، الخ ..

٢ - الكلاسيكية الادبية والفنية والاخلاقية

اكملت مركزية الله ، عند بعضهم ، التربية التي وضع اليسوعيون . اليسوعيون والكلاسيكية اسما . ومن جهة ثانية ، وجدت النزعات الكلاسيكية ، في التربية اليسوعية ، الوسائل التي تميزها . هذبت الكليات اليسوعية عقول وقلوب العدد الاكبر من الاشراف الريفين والاثرياء البورجوازيين في البلدان الكاثوليكية . فديكارث وكورناي « وبوردالو » وكولبير و « اود » واوليه كانوا من تلامذتها . وسعى اليسوعيون وراء انتصار هوى معين في الفرد ، هو محبة الله . ولكن هذه المحبة يجب ان تنتصر بالارادة . ارادة الانسان حرة . اجل لقد فقد الانسان حرية التصرف بالخطيئة الاصلية : ولم تعد ارادته محررة من كل مقاومة تبديها الاهواء . ولكنه احتفظ بجرية الارادة : فباستطاعة ارادته ان ترفض او تقبل ما تعرضه الاهواء عليها . يتمتع الانسان بالعقل ، وهو القدرة التامة على تقدير قيمة افكاره على ضوء المعرفة الطبيعية . وفي أثناء مذاكرة داخلية ، يقترح العقل على الارادة ، بشكل مفاهيم مجردة وشاملة ، حلولا تقبلها او ترفضها . وهكذا يستطيع الانسان ، حتى بدون النعمة ، تجنب الخطيئة وتحقيق كاله .

اعد كل شيء في التعليم والتربية بحيث تحقق ارادة التلميذ انتصار ارادة الله في ذاته ، وبحيث يموت الانسان الصغير لنفسه ويتحول الى انسان جديد . ودُرب الولد والفتى على الركون الى الهدوء ، وتجنب التأثرات العنيفة ، كالحزن والجزع ، التي تشوش العقل وتضعفه ، واعتبار الاحداث المفضة وكأنها مرسلة من السهات لخير الاعظم ، والانصراف ابدا الى التأمل والاستجمام . وكانت فحوص الضمير ، الخاصة والعامة ، كثيرة جداً . فكان من الواجب الحساو بالنفس ، واستبطان الحياة الداخلية ، واستجلاء الرذائل والنقائص الاخلاقية والشهوات والافكار الاثيمة والميول السيئة ، والقاء نور ساطع على منبع الشر ، وما كان الحل من الخطايا ليعطي الابناء على تعهد المعارف تمهداً صريحاً بالعمل على تقويم اخلاقه .

نظمت كل الحياة المدرسية بغية خلق عادة اخضاع كافة النشاطات لاوامر الضمير . ففرض

النظام الشديد ، في المكان والزمان ، كتهذيب يعود بالخبر على العقل . واعتبرت الدقة في التقيد بالمواعد كتمرين للارادة يكبح جماح الهوى الفردي وجماح المخيلة ويروض الشهوانية . وتوجب التدريب على عمل ما يجب عمله ، لا عمل ما يرغب فيه الانسان. فرنة الجرس المؤذنة بالنهوض من النوم انما هي صوت الله الذي ينادي ، والتقيد بالنظام ، انما هو واجب التلميذ الاول .

وحافظ على التهذيب كما على النظام . فعظرت الصيحات والقهقهات والاحتدادات لأنها اعتبرت تخلياً عابراً عن السيطرة على النفس . واعتبر التهذيب زهر الهبة : ان المسيحي يفضل الملك لأنه ابن الله . وكان من الواجب ملاطفة الآخرين واظهار الهبة بمبادرات الجملة ، وبالابتسامه .

لم تكن كل هذه الانظمة اذن كبعاً لجماح قوى داخلية ، بل توجيهها . والمنافسة كانت مذهباً وطريقة . فقد استنهنض الشرف والعزة والطموح الى المجد، ولكن هذه المفاهيم حوات نحو تحصيل مجد القديسين ومجد القادة الظافرين في خدمة وطنهم والتضحية بالذات على مذهب الدولة. وهكذا فقد علّمت الآداب الكلاسيكية بعد تكييفها وفاقاً للذوق المصري ، وازيل الفاسد من مؤلفات المؤلفين الدنيويين ثم فسرت تفسيراً مسيحياً . وحصر الانتباه في فضائل الانسان الاساسية : العدل ، الوفاء ، احترام الوعود ، الشجاعة . وفي الاعياد المدرسية ، دارت مواضيع التمثيليات والخطب حول التاريخ القومي : جان دارك ، استيلاء الصليبيين على اورشليم ، استيلاء بودوين على القسطنطينية ، سجايا ملوك فرنسا ، الخ . وهكذا فان المسيحية لم تُدِنَ غرائز الطبيعة العميقة ، وهي من صنع الله ، بل نظمتها ووقفت بينها .

ان هذه المميزات جميعها : توجيه الاهواء القوية واستخدامها بعد تنميتها تنمية مطردة ، الاهتمام الشديد بالحياة الداخلية ، تشغل البال بما هو شامل وواضح ومتميز ، سيطرة العقل والارادة ، انما هي مميزات كلاسيكية . وقد اسهمت هذه التربية الدينية اليسوعية الطراز في انطلاقة الكلاسيكية .

ان القواعد ليست الكلاسيكية ، مع ان اللبس بينها سهل الحصول .
الكلاسيكية الادبية :
القواعد والكلاسيكية
افتخر الكلاسيكيون باحترام القواعد واستخدموها . ولكن
الكتاب الذين استمعدوا لها كانوا ضحاياها ، وربما خالفها كبار
الكلاسيكيين اكثر مما احترموها ، الا انها قد اسهمت في اضاءة بمض طباعهم على المؤلفات
الكلاسيكية . وهي اسهام في مقاومة الازمة نهض به اناس كلفوا بالنظام الاجتماعي كلفهم بالادب ،
ولكنهم افتقروا الى القوة الخلاقة ، وهي ليست سوى مظهر خارجي وثانوي من مظاهر
الكلاسيكية .

أما منشأها فيعود الى تبني ارسطاطاليسية اصحاب النظريات الفنية من الايطاليين المولمين
بالفن الشعري ، من قبل الجيل الذي رأى النور حوالي السنة ١٦٠٠ واقضت مضجعه الحاجة الى

الوحدة . ويعود الفضل الاكبر فيها ، في فرنسا ، الى شابلين (١٥٩٥ - ١٦٧٤) . فعمل بهذه القواعد بين السنتين ١٦٣٠ و ١٦٤٠ ، ثم املت بعض الاعمال ابان اضطرابات منتصف القرن الى ان عمل بها مجدداً بين السنتين ١٦٦٠ و ١٦٨٠ .

على العقل ان يراقب الفن ويبرر القواعد ويمنع الحرافات الخيطة ، القوة الدنيا المشتركة بين الانسان والحيوان . العقل ثابت وشامل ومسلم به في كل زمان ومكان . والذوق السليم هو العقل في وظيفته النقدية . العقل يمل على الفن غايته . وغايته تهيئية : تنقية الاهواء وتوفير الامثلة الصالحة والحسك الفراء . والعقل يمل قواعد من شأنها اتاحة خلق الجمال وابقاظ التأثيرات والمواطف المتوخاة . قاعدة استخدام الطبيعة : ولكن الواجب يقضي بالنسج على منوال طبيعة مثالية وانتقاء المميزات الواجبة الحفظ في الطبيعة الحام ، وبراازها وتنظيمها ، والنسج بصورة خاصة على منوال الطبيعة البشرية ، أجل الطبائع طراً . قاعدة تقفسي القدماء ، لانهم يصفون في مؤلفاتهم الطبيعة المثالية دوننا نقص والتباس . ومن الصواب على كل حال ان لا ننقل عن القدماء ألا ما يمكن تطبيقه على الزمن الذي نحن فيه . قاعدة الاحتمال العقلي ، وقياسها الرأي المشترك ، تنتهي الى ما يجري اعتياديا . قاعدة اللياقة : الامتناع عن الجمع بين الجسد والمزاج ، وتحلية الاشخاص باخلاق لا تتناسب وخصتهم ، والاخلال بالحشمة وآداب المجاملة ، وعرض الاخلاق البربرية والمستهجنة ، والقديمة . يجب الاعتدال في عرض ما هو مدهش وعجيب واقصاء الاعمال السحرية والمعجزات المسيحية . ويجب التقيد بوحدة الموضوع ، اي وصف موضوع تام واحد لا يمكن انفاص اي من أجزائه دون تفكيك الاجزاء الاخرى . ويجب التقيد تقيداً صارماً بوحدة الزمان والمكان . فلا يجوز ان تمثل المسرحية احداثاً تستغرق اكثر من دورة شمسية ، وقصة تمتد الى اكثر من سنة وقصة راعوية غنائية تدوم اكثر من ساعة . ولا يجوز اخيراً ان تتشابك الالوان ، المساءة والتمثيلية المزينة المضحكة والمهزلة ، والقصيدة الجدية - المهزلية ، والقصة ، والشعر الراعوي والشعر الغنائي والشعر الهجائي : ان لكل من هذه الالوان نمطاً مثالياً يجب التقيد به .

حاول الفنانون الكلاسيكيون العمل بمقتضى هذه القواعد لانها سارت ومسام نحو الوحدة في اتجاه واحد . ولكنهم خالفوها مراراً كثيرة فتناولهم النقد العنيف . ولعلها ادّت لهم خدمات جلي كصعوبة اضافة وجب التغلب عليها . فالفنان الحقيقي انما يبحث عن المادة الصلدة التي ترغمه على تركيز قواه . ولكن القواعد ليست الكلاسيكية . فالكلاسيكية حياة هي

انتجت الكلاسيكية خير ما انتجت في فرنسا . وقد حددها « ماليرب »
العلاسيكية
وديكرت في الوقت نفسه الذي خرجت فيه الى الوجود بفضل الجهود الخلاق
الذي حققه كورناي وبلزاك وباسكال وراسين وموليير وبوالو .

ان الكلاسيكية هي في الدرجة الاولى قوة داخلية ، وثبة حيوية ، ثورة أهواء ، حاجة

الى توفير القوة ، والى الانتاج والخلق . اذا كان الكلاسيكي اقل قوة ، فقد يفدو مستهجنناً بسهولة كما يشاهد ذلك في مؤلفات ماليرب وكورناي ويوستويه في مراحل فتورهم وتكاسلهم . فعين يتغافل ذهن ماليرب نراه ينفخ الواقع ويشوهه ويفخمه ويضخمه كما فعل روبنس واذا كانت رحلة ماري دي مديسيس ، « الصيرفية الكبرى » ، من توسكانا الى مرسيليا ، رحلة طويلة وشاقة فرد ذلك الى ان نبتون (اله البحر) الذي اصيب بسهم الحب قد اراد الاحتفاظ بها في امبراطوريته . وحين تصود « شارلوت دي مونمورنسي » الى البلاط ، بقول بلسان هنري الرابع :

« لقد عادت هذه الكواكب المعبودة
التي يستمد اوقيانسي مدته وجزره منها »

ولكن قوى الكلاسيكية الداخلية ، اكبر من ان تبقى في اجواء الجلبة . فان قدرتها تتيج لها ان تجعل من الهدى حمة متلظية عن طريق المشاهدة في السكون الداخلي والتعقل الذي يربط بهذا الهوى شتى انواع البواعث . الهوى المسيطر يتغذى بغيره من الاهواء وينظمها . هذا هو مصدر المميزات الاساسية للمؤلف الكلاسيكي . فهو في الدرجة الاولى تركيز قوى . الكلاسيكي لا يضعف قدرته الداخلية بل يوجهها . يفني بعض الاهواء خوراً ويضعف بعضها الآخر بغيبة تحويل قوتها الى الهوى الرئيسي الذي يصبح بركانياً . يحمل من الاهواء الثانوية خدماتاً للهوى الرئيسي . الكلاسيكية هي القوة بمحدودها القصى .

من هنا تتبع الوسائل التي تستطيع تحقيق تركيز القوى ومن ثم مضاعفة الحياة الكلاسيكية علم سنن جمال الوحدة . والمؤلف الكلاسيكي ، كما كتب ديسكارت الى بلزاك في « الرسالة اللاتينية » (١٦٢٧) ، هو جهاز عضوي ، كل نابض بالحياة ، ترتبط جزئياته بالجموع ويتوجب على كل قسم من اقسامه ، وكل عنصر من عناصره التماضد في سبيل بلوغ الفاية المنشودة ، اعني بها التأثير الواجب خلقه والحقيقة الواجب اثباتها . هكذا يتم وضع المؤلف . وهو ينطوي على منطقتي داخلي ليس رقة كلام مدرسية بل اكتشافاً لنظام عميق وطبيعي في الاشياء وفي تركيبها الداخلي وعلائقها الشاملة والضرورية يعبر عنه بفكرة عامة تتفرع عنها الفكر الثانوية ، فيحظر من ثم الخروج عن الموضوع وغمر الجوهر بتفاصيل لا طائل تحتها . يجب التوسع في ما هو جاف جداً ، وتخفيف ما يكون كثيفاً وملتفا . ويجب ان يبرز المؤلف تقدماً تدريجياً منتظماً يظهر في الانتقال من برهان الى آخر ، ومن فترة ازمة الى اخرى يجب ان يكون الفكر منسقاً والتسلسل خالياً من كل عيب . يجب اقصاء ما هو تقريبي ، وما هو غير متلاحم ، والبرهان الرهمل ، والوقائع التي ترتبط ارتباطاً سيئاً بالجموع ، والاستدلالات التي ليست نتائج طبيعية للوقائع . ويجب ان تكون اللغة مهذبة وجلية وصحيحة .

الكلاسيكية حقيقة سامية . القوي يريد ما هو كائن . نبتشه احب القرن السابع عشر . الكلاسيكي يريد في الدرجة الاولى ، وفي كل شيء ، ما هو حقيقي ، لا واقع الظواهر ، بل

الحقيقة العميقة ، حقيقة مصادر الالهواء ، حقيقة علل الكون. هذا ما يفسر حرصه على النظام الذي هو التعبير عن النظام العميق في الاشياء . وهذا ما يفسر الحرص على التحليل الداخلي والهمة في استبطان ادق انواع العواطف والالهواء والارتقاء الى اسبابها الخفية . وهذا ما يفسر السعي وراء ما هو شامل وازلي ، اي اعتمق ما هو حقيقي ، الذي يستحيل التعبير عنه اذا لم نبلغ التناسق والنبل والعظمة والاتقان والنجاز والكمال. وهذا ما يفسر تجنب الفلاظة المضحكة والواقعية الفظة أو الشعبية التي تمت بصلة الى الاستهجان وتعمد الفظاظاة السهلة . وهذا ما يفسر النفور من المجازات الشعرية . ففي « رسالته الاولى الى الملك » اظهر « رينيه » فرنسا توجهه من أعلى الطبقات الهوائية ، خطبة الى الناشرين ، فسأل ماليرب عن زمن حدوث ذلك : فهو قد بقي في فرنسا منذ خمسين سنة ولم يلاحظ قط انها ارتفعت من مكانها . وهذا ما يفسر الحشمة في التعبير . فالكلاسيكي يبحث عن الكلمة التي تنطبق انطباقاً كلياً على الواقع دون ان تشوهه أو تضيف شيئاً اليه . لا بل يفضل البقاء دون الواقع والاشارة اليه اشارة فقط خوفاً من ان يحسمه . لذلك يجب البحث ابدأ عن الكلاسيكي وراء تعبيره . وهذا ما يفسر اخيراً الحاجة الى الوضوح ، لأن الابهام لا يسمح بمعرفة ما اذا كنا على صواب أو على ضلال . المهم قد يكون حقيقياً مثل الواضح، ولكننا لا نستطيع التثبت من ذلك . الكلاسيكي يبذل ما بوسعه حتى يأتي فكره قريب المثال مباشرة ودون جهد . لذلك يتجنب اللبس والاضمار والتعريف والمفردات النادرة أو الغامضة والكلمات المائة والتعابير الفنية . فان ما أراداه « ماليرب » ، حين طالب بمجمالي « بور اوفوان » لاسياده ، لم يكن سوى رفض التعابير الصعبة ، لان اسياده كانوا في قاعات استقبال البرلمانيين ، في قصر « رامبويه » وفي البلاط . الكلاسيكي يريد لغة جليلة ، كلمة واحدة لفكرة واحدة، ومعنى واحداً لكلمة واحدة. انه يبسط ويوحد ويحدد معنى الكلمات وتراكيب الجمل .

ان الكلاسيكية والحالة هذه حياة عميقة القرار . ولا عجب من ثم اذا ما ازدرى الفنانون بالقواعد الضيقة والمفصلة التي لا تستجيب لغاية المؤلف الكلاسيكي . فهم لا يسلون الا ببعض القواعد الكبرى العامة التي تفرضها طبيعة الأشياء ويقبل بها العقل البشري . وهم محدثون دونما وجل . يرفضون سلطة الاقدمين ويعجبون بهم ويتذوقونهم في آن واحد ، ولكنهم لا يريدون منهم سوى الروح الحية ، لا الصيغ ، وجوهر مؤلفاتهم ، لا طرائقهم . الكلاسيكيون يبتغون الحرية ، ويهتمون في الدرجة الاولى للارضاء ، لان المطلوب هو ارضاء عالم محدود من الهواة في البلاط والمدينة الذين يعيشون الكلاسيكية ؛ فيغدو الاركان حينذاك الى ذوقهم وحكمهم ، والى روحهم الرقيقة بالفضيل على روح النقاد الهندسية ، اكبر ضمانة لهم ، « القاعدة الكبرى بين كل القواعد هي الارضاء » ، حين نكون أمام جمهور كلاسيكي . لا بل ان الكلاسيكيين يخلقون اشخاصاً احياء خلقاً ثانياً . كما ان هوامم المركز يجي في ذاتهم صور وعواطف اولئك الذين يكتبون عنهم . يعيشون حياة الاشخاص مرة ثانية، ويتأثرون باهوامهم ، ويتصرفون ويتكلمون

ككل فرد منهم مداورة . اضعف الى ذلك ان مبدأهم في الوحدة هو نفسه مبدأ الحياة . وليس من حياة دون مبدأ تنظيم الكائن الحي . فان ارغطوس واغنيوس و « هرباغون » و « فيدر » يجيئون حياة ازلية وشاملة .

ان هذه المميزات الاساسية توجد في الفن ايضاً . فلننظر الى بوسين (١٥٩٤ - الكلاسيكية
١٦٦٥) مثلاً . انه يحسد الفن الكلاسيكي في التصوير . في السنة ١٦٦٧ ، في الفن
حلل الجمع الملكي للتصوير لوحاته في اجتماعات خاصة عقدت لهذه الغاية كما
يفعل اللاهوتيون في تحليل نص مقدس . كان زينه من بسين الاشراف والبورجوازيين : الملك
لويس الثالث عشر الذي كان بوسين رسامه الاول (١٦٤١ - ١٦٤٢) ، الدوق دي ريشليو ،
الدوق « دي كريكبي » ، رئيس المحاسبة « باشار » ؛ ناظر المالية « موروا » ، الصيرفي الباريسي ،
برانتيل ، التاجران اليونيان « سيريزيه » و « رينو » . ولكن زين هذا الفرنسي ، الذي قام
في روما منذ السنة ١٦٣٤ . كانوا من غير الفرنسيين ايضاً : البابا اوربانوس الثامن ، آل بربريني ،
صاحب المقام الرفيع « كاسيانو دل بوزو » ، الكردينال مسمي . وأما لوحاته الممددة للدور
الخاصة فوسيلة ثقافة للعقل .

كان شهنوياً تميز بالرغائب العنيفة ، المتنوعة ، المتناقضة . استهواه المري اللعيم الجميل .
حسد حورياته وآلهاته يعقب لذة وتنعماً . احب الطبيعة . ففي لوحاته ، التي باتت قائمة جداً ،
يرى النظر تأجج الافق عند مقبب الشمس تأججاً بطيئاً يتميز بانواره المنعكسة الصبهاء . ولو
استسلم الى ميوله ، لانتهى حتماً الى الاستهجان .

ولكنه يركز قواه . فهو ينشد الحقيقة اولاً . ويعرف ان طريق الوصول اليها هي الانطلاق
من الظواهر . يجمع معلوماته بضبط كلي . في السنة ١٦٣٨ ، اكتشفت فيسفا « بالسترينا »
التي تمثل الاحتفالات المصرية . فعمد اذ ذاك ، وهي المرة الاولى والاخيرة في حياته ، الى الاحتذاء
مثالها . صور كل تفاصيلها ثم استنسخ هذا أو ذاك منها في لوحاته استنساخاً لا يتميز عن الأصل
وكانه عالم آثار ينشر مكتشفاته . قاس ابعاد تمثال « اتينوروس » وتمائيل يونانية شهيرة
اخرى ليستوحي نسبها الصحيحة . استضاء بنور التاريخ ، فوجد في مؤلفات « بلوتارك » ،
التاريخ الصحيح لوفاة « فوسيون » ، أي ١٩ مونيخيون . وعلق بذكريته ان الفرسان نظموا
يومذاك تطوافاً اكراماً لـ « زفس » . فأدخل من ثم ، في « ماتم فوسيون » ، موكب زهية
الفرسان بين الاشجار البعيدة تحت اسوار اثينا . وهو ، على غرار الكلاسيكيين ، لا يقبل
بالكذب ، « هؤلاء الشمرء يتقيدون بنظام اشبه بنظام العلماء » .

بيد ان بوسين ؛ وشأنه في ذلك شأن الاوغسطينيين وديكارت وكافة الكلاسيكيين ، يتخطى
الظواهر ويحد في أثر المنطق الداخلي والمطابقات العميقة والنسب الضرورية وسنن الكون ، الى
ان يصل من بعدما الى مبدئها المشترك . « ان الفتيات الحسنارات اللواتي يمررن في شوارع « نيم »

لسن دون جمال اعمدة « البيت المربع » بهجة للعقل لان الاعمدة ليست سوى صور قديمة للفتيات . فهو لا يستنسخ لمحب ، بل يلاحظ . ينظر الى الاشياء بقوة ويكثر من الملاحظات حول الابعاد والاشكال والالوان . ثم يترك الحس يتحول الى تمثيل ، والصور تتبسط وتتوحد ، والعنصر الاساسي ينبثق وينبعث . حينذاك ، وحينذاك فقط ، يستلم الصورة الداخلية ويرسم رسوماً اعدادية يبحث فيها لا عن مجرد التشابه بل عن النسبة العميقة . اصف الى ذلك انه يهتم في الدرجة الاولى للانسان الداخلي ويبرز المواظف يجلسات الاجسام ويعبر عن التحاليل السيكولوجية بالاشارات . ويؤنس المناظر الريفية حيث ترتدي الاشجار طابع الاعمدة .

يركز ويوحد ، شأن كل كلاسيكي . ان التصوير ، في رأيه ، هو قبل كل شيء اثبات وجود ارادة انسانية . « لا يجوز ان ترسم يد الانسان خطأ واحداً لم يتكون في عقله من قبل » . فبوسين يتجنب كل ذكرى وكل تقليد وحتى تقليد نفسه : يجب ان نخلق لا ان نعيد . ينضج موضوعه على مهل في ذهنه . يبحث اولاً عن « فكرة » اللوحة ، عن معنى ما يصور . ثم يترك جلبة الصور الداخلية تهدأ وتسكن الى ان تتراءى له كل النسب ونتائج الفكرة التي ينطلق منها . ينظم موضوعه بحسب المنطق الداخلي الذي يقتضيه اخضاع الاجزاء للفكرة العامة والتفاصيل للمجموع . ثم يقذف بما حققه في الداخل الى الخارج كما يفعل ديكارت في حقل العلم ! . وحين يشرع بالرسم يكون كل عمله منجزاً . وضمن اطار وحدة قوية ، يجمع في تركيب مترابط الاجزاء كل ما من شأنه خلق التأثير المنشود والتعبير عن الحقيقة السيكولوجية ويقصي كل ما يبدها ويماكسها ويضعفها . كل شيء عنده مصدر اختيار معلل بنية بلوغ الخاوص والصفاء . فلوحته « الطرفان » هي تصوير الصلاة المرفوضة وبأس الانسانية المهمة : الذراعان المرفوعان في حركة المصلي يعبران عن الصلاة ، ولكن السماء الوحيدة اللون ، المقفلة ، العمياء ، وتساقط الرماد الاربدة العابس ، بدلاً من تساقط المطر الطبيعي بالوانه اللامعة ، واخذود الوميض الشاحب كل ذلك دليل غياب ورفض اجابة : ما عاد الله ليعرف الانسان .

يتميز بكل ما يتميز به الكلاسيكي . فهو مليء بالحياة ، يهتم ابدأ للارضاء ، ولا يسهى عن باله البنية ان غاية التصوير هي « الاستمتاع » ، التنعم بالضوء والاشكال . خبتاً في لوحاته كنوزاً سيكولوجية صحيحة . تحلى بحشمة التعبير . قد تبدو لوحاته ، في الرحلة الاولى ، جامدة ومعتمة : ولكن لننمّن النظر : كل ما فيها يحيا ويشتمل ويهتز كما لو كان التصوير يحتوي على « المطلق » الحي .

الاخلاق الكلاسيكية الكلاسيكية حياة . فهي لا تستلزم من ثم مفهوم جمال واسلوبا للبحث عن الحقيقة فحسب ، بل فكرة عن الخير ووسائل صنعه ايضاً . ولذلك فان علم الجمال يشمل منطقاً وعلم اخلاق ايضاً .

ان منطلق الاخلاق الكلاسيكية هو في ابتغاء القوة ، التي يريدتها الكلاسيكي قوة كلية .

فالكلاسيكي يريد ان يكون حراً ، اي ذا قلب لا تجد تعديت الغير وسهام القدر والاختافات والخوف من الموت الى قلبه سيلاً . يريد ان يكون متفوقا . لا يريد ان يخضع الا لقراره الخاص ولحكمه على قيمة الاشياء . فالكلاسيكي من ثم ينكش على نفسه ويركز انتباهه الى اهوائه والافعال التي تقترحها على ارادته ، ويصدر احكاماً حازمة ومعددة على هذه وتلك وعلى قيمتها بالنسبة لارادته . ويقابل في حوار داخلي بين الدوافع والمبررات والنتائج . ويقرر الاختيار بحكم يعين ما هو صالح ومرغوب فيه . ويصوغ حكمه مبادئ واضحة رزينة معدة لان توجه كل الاهواء نحو ما حكم هو بصلاحه . قد يسيء الكلاسيكي الاختيار وقد يخطيء في حكمه ، فيندفع اذ ذاك نحو الجريمة . ولكن مبدأ الاخلاق هو في التقيد بالحكم . ومرد ذلك ، في حال اتضاح بطلان الحكم ، الى ان الموضوع ينقلب او يتحول ، كما حدث لاوغسطس « وسناً » و « اميليا » . وفي تصميمه هذا على فعل كل الاشياء الفضلى ، يجد الكلاسيكي سعاده القصوى :

ايها الحظ ، مها تكن الشرور التي يوجهها جفاؤك الي
فقد اهتديت الى وسيلة لاستخلاص البهجة منها .

(هوراس)

ان هذا التصمم الحازم الثابت على العمل بوحى حرية الارادة ، هو الفضيلة السامية ، النجابة المنبثقة من تفوق قوة البطل ، النجيب . القوة الداخلية تدفع بالنجيب لان يخرج من ذاته ويهب نفسه ويحب . ويحب النجيب في الآخرين ويريد في الآخرين ، قبل اي شيء آخر ، خير ما عندهم ، اي لمجابتهم الخاصة ، وحرية ارادتهم الخاصة ، ويسمو بحبته شيئاً فشيئاً نحو « الكائن » الواحد المطلق الحرية ، المطلق النجابة ، اعني به الله . وتنتهي الاخلاق الكلاسيكية الى اخلاق محبة وانعتاق ، كما نرى ذلك في التندرج الجليل الذي يقود من الـ « سيد » ، عن طريق « هوراس » و « سناً » ، الى « بوليكت » . الواجب يقود السيد الى قتل والد خطيبته ، ويقود هذه الاخيرة الى المطالبة بموت من تحب ، وكل ذلك بوحى نخوة بطولية ترفض الضعف وتضن بكرامة العائلة : الفضيلة هنا هي هبة الذات حتى الموت في سبيل ما يعتبر خيراً . ثم يحقق هوراس تقدماً الى الامام . ينقطع بكلية لدولته ، لاستقلالها ، لسلامتها ، لعظمتها ، ومن ثم لحرية مواطنيه الجماعية . وهو لا يجيئ الا في سبيل الدولة ، ولكنه يقدم فرحاً ، بوحى ذلك ، على قتل ثلاثة اشخاص يجهم . ثم يحقق اوغسطس تقدماً آخر ايضاً . يريد ان يسيطر في نفسه ، نهائياً ، على الخوف والانتقام . لا يريد الانتصار الا بفعل حرية ومحبة متفوقتين ، يريد ان يوقظ ، في سناً وفي اميليا ، محبة الخير الحقيقي والمنافسة ، اي الرغبة في ان يصبحا نظيره . ويستلم « بوليكت » ، اخيراً بلاء ارادته الى الله ، الكائن الكامل ، الذي يوفر للانسان النجيب ، اكثر من المرأة والوطن والانسانية ، موجبات الخدمة والتفوق على النفس وتناسي الذات . المحبة الالهية تحول نفسه . بولين تخضع

لسلطتها ، فتتغل عن محبة « ساربروس » وتندفع في محبة بوليكت لأنه يحسد المشل الأعلى الذي كانت تهاه وتبحث عنه ، ولأنها تراه كما تتوخى هي ان تكون « بوليكتي ... » : فبوليكت هو هي لأنه كما تتوخى ان تكون . « صور كورناي البشر كما يستطيعون ان يكونوا ، كما يكونون » ، عندما يصممون بشجاعة على ان يكونوا بشراً .

انطلق الكلاسيكي من الاخلاق الارستوقراطية والبطولية ، ولكنه تعمق فيها واندفع نحو الحقيقة السامية بفعل القوة الداخلية . فتوصل الى اخلاق كافة البشر مها كانت طبقتهم وجنسهم وزمانهم وبلادهم ، الى الاخلاق المطلقة الحقيقية ، النابعة من اعق ما في الانسان الذي تتمتع بحرية ارادته بقوة لا حدود لها ، الى الاخلاق الانسانية .

٣ - الكرتزيانية (الديكارتية)

ابتكر ديكارت المذهب الاجالي والعلم الشامل الضروريين لاجهاز هزيمة
تدفد ديكارت
الارسطاطالينية بالحلول محلها . ولد في فرنسا وانتسب لعائلة بورجوازية كانت في طريقها المساعدة نحو طبقة الاشراف . كان اجداده من جهة ابيه اطباء وابوه مستشاراً في برلمان بريطانيا ، ووالد جده من جهة امه وكيل عاماً لمحكمة بداية « بواتيه » . طمعوا كلهم بان يصبحوا فرساناً وغالباً ما اعلن ديكارت انه احد اشراف بواتو الريفين . تلقى تهذيب طبقة الاشراف في كلية « لافليش » للآباء اليسوعيين . وبعد ان تلقى بعض الدروس القانونية ، عاش عيشة اشراف الجندي وخدم في جيش « موريس دي ناسو » في السنة ١٦١٨ ، وفي جيش « موريس دي بافير » في السنة ١٦١٩ .

منذ هذا العهد ، وعلى غرار غاليليو ، أخذ يعالج العلوم الطبيعية بالرياضيات ، وفي تشرين الثاني من السنة ١٦١٨ ابعث صورة التقل الجوهرية ورد التقل الى الحركة . ومنذ سنة ١٦١٩ - ١٦٢٠ كان قد وضع أسس علومه الطبيعية في منهجه وفي ذهنه وردها المادة ضمناً الى المساحة فقط . ولكنه ، شأن كل معاصريه ، لم يتوصل بذلك الا الى مزيد من الشك والارتباب والتشويش . الا انه كان انساناً متديناً جداً ، فبدأ له ان هذا الوضع اثقل من ان يطاق . فأنصرف الى التأمل ، في أحد المسكرات الشتوية ، في جوار « اولم » ، بعد تتويج الامبراطور . ورأى هنالك ، في العاشر من تشرين الثاني ١٦١٩ ثلاث رؤى في منامه . سمع ازيز الصاعقة فأفاق من نوميه ورأى شرارات نارية منتشرة في الغرفة . ففسرها بانها روح الحقيقة النازلة عليه لتتسلط عليه . ثم رأى « مجموعة قصائد » . فرأى فيها الشعر والحكمة مجتمعين معاً لان حمية الشاعر هي فيه حضور الهي يظهر له الحقيقة فوق ما يظورها العقل للفيلسوف . في بحران الصوفية هذا ، تجملت له حقيقة رسالته : البحث في ذاته عن مبادئ العلم لانها فينا مثلاً مطبوعة ؛ خلق العلم الشامل بتطبيق البرهان الرياضي على ظواهر الطبيعة ؛ وضع النظام الحقيقي للكون . في اليوم

التالي توسل الى الله كي ينيره ويرشده في البحث عن الحقيقة ، ونذر على نفسه للمذراء القديسة ان يزور « لوريت » سيراً على الأقدام .

في السنوات التالية ، وضع أسس منطقته وعلومه الطبيعية الرياضية . ولكن توجب عليه تبرير هذا العلم الجديد ، وفي الوقت نفسه ، وضع أسس اليقين والايان بالله . يروى انه قصد القاصد الرسولي في باريس في شهر تشرين الثاني من السنة ١٦٢٧ ، وطلع أمام بيرول بأراه لفتت انتباه هذا الاخير ، وان بيرول انذره بتنفيذ مشروعه وجعل له من هذا التنفيذ واجباً ضميرياً . ومهما يكن من أمر هذه الرواية فان ديكرات كان منتصباً الى الحركة الاوغسطينية . وكان بيرول ، وتلميذه « جيبوف » و « سلون » ، في ما كتب بين السنة ١٦٢٦ والسنة ١٦٣٤ ، ومرسين ، اخلص اصدقاء ديكرات منذ صدور « مسائل حول التكوين » في السنة ١٦٢٣ ، قد تبنا رأي افلاطون في المثل المطبوعة لانه اضمن وسيلة لاثبات وجود الله . فانضم ديكرات اذن الى جماعة لن يلبث ان يستلم قيادتها . انطوت الكرتزيانية على حركة صوفية كما حدث للحركة البيشاغورية من قبل . السبيل الى وضع اسس علم جديد شامل هو محبة المطلق وروح الغامرة والشغف والحرارة في البحث ، والقلق ، والتمطش الى الجدة ، وهي سميات كبار الصوفيين فالصوفية التي تقول بركزية الله والكرتزيانية حركتان متوازيتان يجمع بينهما المصدر نفسه والارتباطات والمميزات عينها .

في السنة ١٦٢٥ ألف ديكرات لمنفته الخاصة كتاب « قواعد توجيه العقل » ثم لجأ الى هولندا حيث أقام من قبل ، ليتمكن من انجاز عمله الكبير . وجد في هذه البلاد الرأسمالية الحريرات التي تؤمنها بوجوازية تدين بها « في وسط جماهير شعب كبير قوي نشيط هم لشؤونه الخاصة فوق اهتمامه لشؤون الغير » ، استطاع العيش في عزلة واختلاء لا يتوفران الا في الصحاري النائية . ومنذ السنة ١٦٢٩ ، حرر فيها « التأملات » التي تتضمن أسس تعليمه حول ما وراء الطبيعة .

لم يبق ديكرات ، شأن « مونتاني » والملاحدين ، في حالة رخية من الارتباب . هدف ديكرات احداث علم سام فكما كان يشته بسوء مقاصد الملاحين الذين ينقلونه ويستل سيفه ويواجه الخطر الذي يستشفه ويخضعهم لارادته ، نرى هذا الجندي الذي لا يتنازل عن نبهه الربيفي يواجه اكبر المسؤوليات الفكرية والاخلاقية وينقض على الصعوبة . يستخدم الشك محكا ويذهب به الى اقصى حدوده حتى يرى ما اذا كان كل ما بناه سينهار أو سيبقى منه بعض اليقين الذي يتيح الحياة . فانما هدفه العمل ، اي « المعرفة الواضحة الثابتة لكل ما هو نافع للحياة » . وهو يريد ذلك للجميع كما لنفسه . ولما كان نجيباً ، فهو يعمل لكل الناس حيث نرى الملاحدين الارتيابيين المزدرين بالجماهير والمهتمين لانفسهم فقط يثنون كفهم على الحقائق التي يمتقدون بانهم اكتشفوها لانهم اعتبروا انفسهم المؤهين الوحيدين للتمتع بها . وقد كرس ديكرات

كل حياته في سميهِ وراء الحقيقة زاهداً في الثروة والمراتب الرفيعة وكل شيء ، مجابهاً العقبات والمحاولات الظاهرة والعداوات . ففضى حياته كلها في هذه المطاردة : فاما الاهتداء الى اليقين والله ، واما كارثة الظلمة والعدم ، اما كل شيء واما لا شيء . ان هذا الانسان لعظيم بعقله بين العظماء ، ولعله اعظم بقلبه ايضاً . وقد احرز نجاحاً رائماً بتوصله الى ان يسمو مثل الشريف الريفي الاعلى ، حتى البطولة ، بالميل البورجوازي الى المعرفة العملية وبالعداء البورجوازي في السمي وراء النجاح .

مؤلفات ديكارت
في الخامس من حزيران ١٦٣٧ ، صدر عن مطابع « جان مير » ، في « ليدن » ، كتابه « خطاب حول اسلوب توجيه العقل والبحث عن الحقيقة في العلوم ، يضاف اليه بحث انكسار النور ، والنيازك ، والهندسة ، التي هي اختبارات لهذا الاسلوب » ، الذي يقع في ٥٢٧ صفحة . أما الخطاب فمقدمة بشكل اعترافات على طريقة القديس اوغسطينس . وقد دان للمحاولات العلمية الثلاث بشهرته الواسعة وبأثره ، لأن ديكارت على نقيض « بيكون » قد قدم العلم الذي بشر به واسلوبه قد اوجز استخدامه ، والتطبيق الحسي قد أتاح ادراك المعنى الحقيقي والعميق للقواعد التي صاغها صياغة على بعض الابتدال . وانه لمشين حقاً ان يعاد طبع الخطاب ، في ايامنا ، دون الاختبارات . فالخطاب ، مع الاختبارات ، يتضمن جوهر آراء ديكارت . وهو قد اوضحها واكملها في كيان « تأملات حول ما وراء الطبيعة^(١) » (١٦٤١) وكتاب « المبادئ » ، المعد لطلاب المدارس وكتاب « اهواء النفس » اخيراً ، تضاف اليها رسائل وافرة تلفت الانتباه من بينها تلك الموجهة الى « اليزابت دي بوهيم » .

العلم الشامل
ان ديكارت مصمم على انجاز العمل الذي تراجع أمامه غاليليو : الارتقاء الى المبادئ الاولى للعلم الجديد ، العلوم الطبيعية الرياضية ، واستخلاص علم شامل منها : الفلسفة كلها اشبه بشجرة جذورها علم ما وراء الطبيعة ، وجذعها العلوم الطبيعية ، واغصانها المتفرعة من هذا الجذع كافة العلوم الاخرى التي ترد الى ثلاثة علوم رئيسية : الطب ، و علم الآليات ، و علم الاخلاق .

الاسلوب
اسلوبه هو جوهر التفكير الرياضي . على الذهن ان يدرك الحقيقة بالحدس الذي هو ادراك ذهن صريح ويقظ ، لا يحققه سوى نور العقل ، ولا يبقى معه اي ارتياب لأنه ادراك يتصف بالمزيد من السهولة والتميز والجلال . أما نموذج هذه الآراء الواضحة فهو الآراء الرياضية من هذا الحدس يستخلص الذهن النتائج بالضرورة ، وعن طريق الاستدلال ، في حركة تفكير متواصلة مرتقياً ، بحسب العقل الرياضي ، من ابسط الأشياء الى اكثر التركيبات تعقيداً . ولا يلجأ الى التعداد أو الاستقراء ، اي البحث عن كل ما يتعلق بمسألة معينة ، الا اذا

(١) تأملات ميتافيزيقية ، تأليف رنيه ديكارت . صدرت في منشورات هيردات بالعين الفرنسي والعربي . (الناشر)

استحال رد معرفة ما الى الحدس . فالقضايا المستدل بعضها مباشرة من البعض الآخر ترد ، عند كل خطوة ، الى استقراء حقيقي اذا كان الاستخلاص جلياً . أما اذا كان الاستخلاص انطلاقاً من عدد كبير من القضايا المنفصلة ، فلا يعود الادراك كافياً للاحاطة بها بمحدس واحد . ويصبح التعداد ، آنذاك ، امراً واجباً . ثم ينشئ الذهن ، بين الاشياء الخاصة ، علائق ذات نسب واضحة ، ويقارن هذه العلائق احداها بالآخرى ، وينظمها فنان بحسب ترتيب انشائها ، بحيث ترتبط كل منها بسابقتها وتمين لاحقتها .

ديكارت يبحث عن يقين . فيرى نفسه محاصراً بالشكوك . كان طفلاً قبل ان الشك المنهجي يصبح رجلاً . مهدوه حشوا منه الرأس بالمفاهيم الغامضة . وتراكت لديه مفاهيم اخرى عن طريق الحواس . ولكنه اختبر ان حواسه تخدعه أحياناً ، فلا يستطيع من ثم ان يركن اليها . فيلجأ مرغماً حينذاك الى عملية يتوجب على كل انسان اجراؤها مرّة في حياته : الشك في كل شيء الى ان يصادف شيئاً لا يرقى اليه الشك . وهكذا يستند ، عند الانطلاق ، الى تأكيد تافؤلي : قيمة العقل البشري كحك لما هو حقيقي . لانه لو توصل جسدنا الى ان كل الأشياء مشكوك فيها ، لما كان توصل الى ذلك الا بالنسبة لشيء غير مشكوك فيه ، ولما كان علم بان كل شيء مشكوك فيه ، الا لأن كل شيء لا ينطوي على مميزات ما هو حقيقي . لذلك فانه يقر ، كمبدأ اساسي مسلم به ، ان هنالك ما هو حقيقي وان العقل حكم في ذلك . ان تليذ اليسوعيين هذا يتق بالانسان كما يتقون .

ديكارت يشك في كل شيء . ففرفته وطاولته ومصباحه : حلم ؛ ويداه وذراعاها وجسمه : ارقام . لا وجود لشيء . وليست كل الأشياء سوى طيف يبتكره جنّ خداع . ولكنه اذا شك ، وانكر وجود كل شيء ، وأصدر حكماً ، وكونت قوة ادراكه فكراً وانكرت ارادته وجود هذا الفكر كشيء خارج عن ذاته ، فمن الضروري الطبيعي ان يكون هو ، وهو من يفكر ويتصور ويؤكد وينفي ويريد ولا يريد ويتخيل ويمس ، موجوداً . « افكر ، اذن انا موجود » . ان هذه الحقيقة الاولى ليست قياساً تفرق كبراه ، اي « كل ما يفكر موجود » ، مجردة الكائنات المفكرة ؛ وصغراه ، أي « انا افكر » ، تحقق الفكر في الفرد ديكارت ؛ ونتيجة اي « انا موجود » اثبات وجود الفرد ديكارت . بل هي الادراك المباشر في ذاته بفضل المعرفة الطبيعية ، هي توقع (حدس) وجود ارتباط لا يرقى اليه الشك ، بين هذين الواقعيين : افكر ؛ وانا موجود . بالفعل نفسه ، وفي الوقت الذي يتوصل فيه الى حقيقة يستحيل الشك فيها ، يكتنه هذا الحدس من قاعدة اسلوبه الاولى : كل الافكار التي يدركها العقل في ذاته دفعة واحدة بكل جلاء ووضوح ، على ضوء النور الداخلي الساطع ، هي حقيقية ، وكل ما يراه ، بكل جلاء ووضوح ، مختصاً بشيء ما ، يختص في الواقع بهذا الشيء : افكر ، اذن انا موجود ؛ $2+3=5$ ، الكل اكبر من الجزء ، الخ . فيجب من ثم ان ينطلق من الداخل الى الخارج ، من الذهن الى الأشياء .

الانكار المطبوعة
الله
ضمانة المعلم

اذن يحذ ديكارت في ذاته افكاراً . قد يصدر بعضها عن حكمه الخاص الذي
تؤلف الارادة بواسطته بين توقعات قوة الادراك . ولكن هنالك افكاراً
اخرى ، كفكرة المساحة والحركة والديمومة ، هي شرط لا بد منه لغيرها ،
ولا يمكن تخيلها الا افكاراً اولية ، او وحياً داخلياً ، او افكاراً مطبوعة .
وهنالك افكار ، كفكرة اللانهاية التي لا يمكن ان تصدر صدوراً اكيداً عن الانسان ديكارت ،
الكائن الناقص المتناهي ، ولكن يجب ان تطوي الملة على القدر ذاته الذي ينطوي عليه المعلوم .
لذلك فان افكار اللانهاية والكمال لا يمكن ان يضمها فيه سوى كائن هو نفسه لامتناه وكمال
اي الله . الانسان يعرف اللانهاية والكمال قبل اي شيء آخر ، ولا يعرف ما هو متناه الا بعد
ذلك . ان هذه الافكار تثبت وجود الله . ان مجرد فكرة الله تثبت وجود الله . لان الله يتحلى
بكل الكمالات ، فهو من ثم يتحلى بكمال الوجود . الوجود يدخل في جوهر الله . فن جوهر
المثلث الزوايا ان تساوي زواياه الثلاث زاويتين مستقيمتين ، لا ان يوجد خارج فكري الذي
يدرك هذا الجوهر . اما الله فيستحيل علي ان افكر به جوهرأ دون ان افكر به موجوداً ،
ولكن الله كامل ، وليس من ثم بخداع . اذن كل ما ادرك وجوده بجلاء ووضوح موجود حقاً .
اذن العالم الخارجي موجود . التركيب الرياضي للعالم حقيقي . وجود الله هو في الاساس من
حقيقة العلوم الطبيعية الرياضية .

ديكارت يعرف نفسه كفكر ، كشيء يدرك ويثبت وينفي ويريد ولا يريد ويتخيل ويحس .
وهو موقن من وجود هذا الشيء دون حاجة منه لأن يعلم ما اذا كان هذا الشيء مرتبطاً بجسد .
فيستخلص من ذلك ان هذا الشيء مادة لا أبعاد لها ، أي النفس ، التي تستطيع ان تبقى دون
الجسم ، والتي لا يدركها فساد الاشياء التي تحددها الأبعاد ، وانه من ثم دائم البقاء . ولكنه
موقن من ان له جسماً ومن ان هناك أشياء خاوجية ، لانه يشعر ، حين يتخيل ادراكه هذه
الاشياء بما هو صلب ورخي وبارد وساخن ولذيذ ومؤل ولا يتعلق بإرادته ان يشعر به او لا
يشعر ، لانه يفرض نفسه عليه فرضاً . أضف الى ذلك ، من جهة ثانية ان الله ليس خداعاً . فوجود
الله هو من ثم في الاساس من واقع العالم الخارجي .

الفكر والأبعاد
ما هي معلومات ديكارت الثابتة عن هذه الأجسام ؟ لناخذ قطعة من الشمع .
انها جسم جامد ذو شكل معين ولون معين ورائحة معينة . انها صلبة .
تحدث صوتاً معيناً اذا قذف بها الى الطاولة . لندنها من الحرارة . فترنجي وتذوب وتصبح سائلاً
ويتغير لونها وتقدر انحتها ولا تعود تسمع صوتاً وتحتل مساحة اكبر . لنخضعها لمزيد من الحرارة .
فلن تلبث ان تتحول بخاراً . على اننا نستمر في القول انها شمع على الرغم من تبدل كل ما يقع
تحت حواسنا . ونحن نعلم بانها شمع لا بالنظر ولا باللمس ولا بالشم ولا بشيء آخر غير الفحص
الذهني . ان ما يمره ذهننا معرفة اليقين في الاجسام هو مادة تتسع طولاً وعرضاً وعمقاً . وتقوم
طبيعة المادة بهذا الاتساع طولاً وعرضاً وعمقاً . كل ما هو فكر يوجد في الله وفي النفس غير
متسع ، غير متجزى ، غير هيولي ، غير قابل للفساد ، دائم البقاء . وكل ما هو جزء متسع

طولاً وعرضاً وعمقا وقابل التجزؤ الى ما لا نهاية له . فيتوجب من ثم ، عند درس الاجسام ، اقصاء كل ما قد يشبه الروح ، وحتى كل ما هو صفة الصلب والرخي والحرار والبارد الخ . لأن كل ذلك ليس سوى تأويل في حواسنا للواقع الذي هو غير ذلك . ان حواسنا لا نعلمنا الا بما هو مفيد ان نعلمه عن الاشياء لا بما هي عليه في الواقع . واقمها هو الاتساع والحركة اللذان يقبلان القياس . لا بل ان الطريقة الصحيحة لمعرفة ما هي قياسها . وهكذا فان المعرفة الصحيحة للطبيعة هي رياضية . ولكن في الهندسة بعض النوعية ايضا . فيجب اقصاؤها ورد كل شيء الى الكمية . الاتساع المرسوم هو موضوع الخيلة . اما موضوع الادراك فهو الكمية الخالصة . ديكارت يعبر عن الخطوط والمنحنيات بالارقام ، وعن النسبة القائمة بينها بالمعادلات . يدخل فكرة الحركة التي اعوزت الهندسة اليونانية . يحدد مكان النقطة في المسطح بابعادها عن محوريه الثابتين . تختلف هذه الابعاد باختلاف مكان النقطة . تنسق فكرة التمثيل الهندسية مع فكرة المتحولين الجبرية في معادلة تقبل عدداً غير محدود من القيم في آن واحد . فيصل بذلك الى مفهوم الدالة ويتكسر احدى ادوات العلوم الطبيعية المصرية ، اعني بها الهندسة التحليلية . الرياضيات هي جوهر الواقع . فهي تلفت الانظار الى النظام العميق الذي يسير الكون . حقيقتها مبنية على وجود الله . وهكذا تأيدت تعاليم غاليليو ، وأمن ديكارت في الوقت نفسه نار افلاطون من ارسطو .

علم الآليات الشامل
كل جسم يحتل جزءاً من الفضاء . وباستطاعته ان يحتل مكاناً آخر . ولكن الفضاء الذي غادره لا يبقى فارغاً بمعنى هذا التعبير المألوف . الفضاء الموصوف بأنه فارغ لا يمكن تصوره الا بابعاد الطول والعرض والعمق : فهو من ثم شيء متسع . وهكذا يجب ان ينظر الى الكون كله كما الى شيء ملآن . الاتساع الكوني يقبل التجزئة الى ما لا نهاية له دون ان نستطيع التوصل يوماً الى تصور ذرة لا تقبل التجزئة . فالذرة من ثم غير موجودة . اما ما يوجد فصغريات اجزاء الاتساع المتباينة الابعاد والمتنوعة الاشكال والمليئة بالمسام . في هذه الاجزاء وفي ما بينها توجد مادة رقيقة جداً ومائعة جداً تمتد دونما انقطاع في كل الكون . الله يعطيها الحركة التي تنتقل في هنية واحدة الى كل مكان . الله لا يقبل التغير ، وكمية الحركة ثابتة اذن في الكون ، ومن عدم قابلية الله للحركة ومن بساطة العمليات الالهية تنجم سنن الحركة ، سنة الجماد ، لا يستطيع اي جسم ان يبدل من ذاته حالة حركته او سكونه ؛ سنن الحركة المستقيمة المتساوية السرعة ، وسبع سنن لتسام الاجسام بعضها بالبعض الآخر .

من هذه الحركات ينجم تنوع الاشياء في الكون . الكون حقل آليات واسع الارحاء . فالنور مثلا ليس سوى حركة في الاجسام المضيئة ، تنتقل بسرعة كلية وبلهمان كلي الى اعيننا . النور يرسل اشعته في برهة واحدة من الشمس الينا ، كما يحدث للاعشى الذي يسترشد عصاه ، اذا عملت الاشياء المحيطة به في طرف عصاه ، ينتقل عملها حالا الى طرف العصا الآخر . وهكذا فلا فائدة في تفسير الرؤية من اللجوء الى الصور الصغيرة المرفرفة في الهواء ، أو الانواع العمدية ، كما يدعواها الفلاسفة . ان هذه الاشعة الضوئية تكون مستقيمة كل الاستقامة حين لا تمر الا في جسم

شفاف واحد . أما اذا صادفت اجساماً اخرى فتنحرف عنها ، كما تنحرف حركة الكرة أو الحجر . هذه المقارنة بحركة الكرة وجراًة ديكارت في تحليل القوى قد ساعدته على ان يوضح كيف ان عمل النور يخضع لسنن الحركة نفسها ، وان عمود المرآة ، في الانعكاس ، هو منصف الزاوية المتكونة بالشعاع المنعكس والمرآة والشعاع المنعكس ، وان الشعاع المنعكس بكاسرة الاشعة والعمود والشعاع المنعكس تكون في سطح واحد وان جيب زاوية الالتقاء ، حين يمر الشعاع من الهواء الى الماء ، يبلغ $\frac{4}{3}$ جيب زاوية الانكسار . وهكذا فقد ردت سلسلة من الظواهر الطبيعية الى حركات مادية وجدت صيغة سننها .

الحركة الآلية شاملة . الماء والارض والهواء والاجسام كلها مركبة من عدة اجزاء صغيرة متباينة الاشكال والاحجام تفصلها مسافات مليئة بمادة رقيقة ؛ الاجزاء الصغيرة المستطيلة الملساء الزلجة تكون الماء . الاجزاء غير المهندمة والمعقبة تكون الاجسام الصلبة ، كالارض والخشب الخ . . المادة الرقيقة تتحرك باشعة الشمس فتتحرك بدورها الاجزاء الصغيرة التي تهز دقات اعصابنا وتجملنا نشعر بالحرارة .

ان المادة الرقيقة الموجودة في مسام الاجسام الارضية ، التي تحركها اشعة الشمس بقوة ، تحرك بدورها الاجزاء الصغرى في هذه الاجسام ، التي لا تجد حينذاك مكاناً يتسع لحركتها ، فقرتفع في الهواء كما يحدث في السهل للغبار الذي تثيره اقدام المارة . هذه الاجزاء الصغيرة تكون الانجرة والنفحات المتصاعدة ، والغائم المختلفة على انواعها . اذا انخفضت هذه الغائم فجأة تسبب في حدوث وعاصفة ، واذا هبطت غمامة على اخرى ، نجم عن هبوطها الرعد والبروق والزوابع والصاعقة .

المادة الرقيقة تملأ الفضاء الكوني . وتتحرك حكماً تحركاً دائرياً ؛ ان جسماً الزوابع يفادر جزءاً من الفضاء ليحتل آخر يطرد جسماً آخر من جزء الفضاء الذي يبلفه ، لان الكون ملآن ، والجسم الآخر يطرد جسماً ثالثاً ، وهكذا دواليك الى ان يحتل جسم اخير جزء الفضاء الذي تركه الجسم الاول المتنقل فارغاً . فالحركة من ثم دائرية حكماً . لذلك فان الكون مليء بزوابع المادة الرقيقة التي تحمل النباتات حول الشمس . هذه الزوابع تفسر كل الحركات التي وصفها كوبرنيك وكبلر وغاليليو وهارفي .

كل شيء آلي اذن في العالم ، وليس في علم الآليات سوى عناصر هندسية أو شبه هندسية .

ان جسم الحيوانات وجسم الانسان آلتان باستطاعتها التحرك دونها
الحيوان - الآلة
والانسان - الآلة

نفس . الحيوانات آلات محضة . للانسان وحده نفس ولكنها متحدة بآلة .
يوجد في الانسان انسان - آلة يقابل الحيوان - الآلة . ليست النفس ما يعطي الجسم الحرارة والحركة ، والموت لا ينجم عن انفصال النفس عن الجسم ، بل عن فساد احد اجزاء الجسم الهامة . حرارة الجسم تقلل كثافة الدم انشط الاجزاء حياة تصعد الى تجاوبف الدماغ ، حيث تنفصل ادق الاجزاء رقة وتكون التأمير الحيوانية . هذه التأمير تمر ،

كالنسيم البالغ الرقة ، في انايب صغيرة ، الاعصاب ، وتوزع لتحريك العضلات : الاشياء الخارجية تحرك الاعصاب التي تحرك الدماغ ، وهكذا تنبج التأمير الى بعض العضلات بالفضيل على سواها . وهكذا تدور الآلة دوماً حاجة الى نفس .

ليس في النفس سوى افكارنا .. ان حركات الدماغ التي تسببها الاشياء
الاهواء والارادة الخارجية أو حركة اتفاقية للتأمير الحيوانية تستطيع ايضاً ان تُزي النفس عواطف مختلفة هي أهواؤها . أما اعمال النفس فهي ابتغائها . النفس متعددة بالجسم كله دون ان تحتل منه جزءاً معيناً . بيد انها تعمل بصورة خاصة في الدماغ بواسطة الغدة الصنوبرية . فهي تستخدم هذه الغدة لتدفع بالتأمير الحيوانية ، عن طريق مسام الدماغ ، نحو العضلات التي تريد هي تحريكها . وكذلك تحرك التأمير الحيوانية التي تفعل في النفس وتولد فيها الاحساسات ثم تولد ، بمناسبة ، الاهواء : الاعجاب ، الهبة ، البغض ، الشهوة ، الفرح ، الحزن ، الجراءة ، الخوف . الاهواء تمدد بالنفس الى ابتغاء الاشياء التي تعد لها الجسم : فالخوف مثلاً يبحث على الهرب .. وهي كلها صالحة في طبيعتها .

الا ان ارادة الانسان حرة . ولا يمكن البتة ان تحمل على شيء اكراها . تستطيع استخدام أهواها بـ « احكام حازمة وجازمة حيال معرفة الخير والشر » . تستطيع اثاره هوى أو اقصاء آخر بتمثلها « الاشياء التي ترتبط عادة بالاهواء التي نرغب فيها والتي تناقض ما نرغب في رفضه » . فلا تارة الجراءة في ذاتنا واقصاء الخوف « يجب الاجتهاد في بصر الاسباب أو الأشياء أو الامثلة التي نتمننا بان الخطر ليس عظيماً ؛ وان الضمانة في الدفاع اكبر منها في الهرب ، وان في احراز النصر عزة وبهجة وان عاقبة الهرب ندامة وخزي ، وما الى ذلك . » وهكذا فان فكرة الخطر ، بدلا من ان تكون مرتبطة بكان الغدة الصنوبرية التي تمد الطريق أمام التأمير الحيوانية بحيث تعد العضلات للهرب ، تنتهي الى الارتباط ؛ بفضل المادة ، بكان الغدة التي تعد العضلات للمركة . فيكون الانسان قد بات شجاعاً . وباستطاعة كل فرد على بعض المهارة ان يغير حركات الدماغ ويحقق السيطرة المطلقة على كافة الاهواء وبلوغ السعادة .

سبيل السعادة الوحيد الينا هو الفضيلة . وتقدم الفضيلة في التوق الى الاشياء
حرية الارادة
النجابة التي تتعلق بنا ، اي بحرية ارادتنا . لقد ارادت العناية الالهية ، بقرار ثابت منزله عن الضلال ، ان تتعلق بعض الاشياء بحرية ارادتنا وان يحدث لنا بعضها بضرورة حتمية . فيجب علينا من ثم ان ندرك مقصدها ونحصر اهتمامنا باستخدام حرية ارادتنا ونبتج هذا الاستخدام معها كان من أمر النتيجة . اذا كانت لنا حرية الاختيار بين طريقين البت الاختيار ان احدهما ضمن من الثانية ، يجب ان يحدو بنا عقلنا الى اختيار الاولى حتى اذا كان من مقاصد " نية الالهية ان نتعرض فيها للحرقة ، ونعتبر انفسنا سعداء ، بعد

السرقه ، لاننا سلكنا بوحى عقلنا . على الانسان ان لا يهتم الا الى تميم كل الاشياء التي حكم عليها بانها الفضلى « فيسر بذلك سروراً يبلغ من عظمتها في اسعاده ان اعنف جهود الاهواء تعجز ابدأ عن تمكيد طمأنينة نفسه . فالانسان لا يستطيع ان يعتبر ذاته الا بسبب استخدام حرية ارادته التي تجعله شبيهاً بالله من زاوية معينة . ويكون الانسان نجيباً حين يدرك انه لا يملك سوى هذا التصرف الحر بابتغائه وانه لا يستحق المديح أو اللوم الا اذا احسن أو أساء استخدام حرية ارادته وان عليه « ان يعزم عزمًا حازماً وثابتاً على ان ... لا تعوزه الارادة في مباشرة وتنفيذ الاشياء التي سيحكم بانها الفضلى » ، وهذا يعني الاهتمام بالفضيلة اهتمام كلياً . ومن المستطاع التوصل الى النجاة بالتأمل في فوائد العزم الحازم على حسن التصرف بحرية الارادة وفي بطلان الهوموم التي ينشغل بها الطماعون . هكذا يتمكن المرء من ان يشير في ذاته هوى النجاة التي تاق اليها الكلاسيكيون .

انتصار ديكارت
 ان المذهب الكرتزياني ، ولا سيما فكر ديكارت ، قد احزرا انتصاراً . فان بوسويه و « سبينوزا » و « مالبرانش » و « ليبنيذ » وكافة العلماء ، لا بل كل من تحلى بذرة تفكير ، كانوا تلاميذه او تأثروا بنفوذهم . اصف الى ذلك ان الندوات الاجتماعية نفسها قد اولعت بالكرتزيانية لا سيما بعد السنة ١٦٦٠ . فقد ديكارت « ذاك الآدمي المائت الذي لو عاش في ايام الاقدمين لجعلوا منه الها » (لافونتين) . وان رينزي الذي لقن مذهبه في « دفنتر » و « ليدن » قد دعاه « نوري وشمسي والهي » ، ووصفه « هيرورد » بانه « اعظم الفلاسفة وحارس الحقيقة والفلسفة وحرية الفكر ، ومنقذها والمنقتم لها » (١٦٤٧) . وقد تلام الطلاب من اجل آرائه . ودرج هويجنس العالم الهولندي الكبير على القول : « لم يولد مثيل له في يوم من الايام » مقدماً بعض البراهين على نجاحه الشامل :

« ان ما نال كل الرضى ... حين اخذت هذه الفلسفة بالظهور ، هو ان الناس كانوا يفهمون ما يقوله ديكارت ، بينما كان الفلاسفة الآخرون يستعملون كلمات لا يفهم منها شيء البتة ، كتمايير الصور الجوهرية ، والانواع العمدية النخ ، ولكن ما فرض فلسفته قبل كل شيء هو انه لم يستمر في اثاره الاشمزاز من الفلسفة القديمة ، بل اقدم على سد مسد الماضي بعقل يمكن ادراكها انطلاقاً من كل ما هو موجود في الطبيعة » .

وفعل ديكارت اعظم من ذلك . اعاد الى الانسان مبررات الحياة والنضال والخلق . اهتدى الى اليقين واعاد الثقة بارادة الانسان وعقله ، وبقية العلم ، ووطد الايمان بالله والامل بحياة ازلية سعيدة ، واحيا الوحدة في الانسان الذي بات لديه تفسير عام للكون ، بسيط في مبدئه ، ومثل اعلى لحياة داخلية منظمة في هدوء حرية الارادة المطلقة . وجاز الاعتقاد بانه اعاد اساس الديانة المسيحية ، كما ارتأى بوسويه فترة من الزمن . كما جاز الاعتقاد بانه بر مفهوم البطل ، المرتكز السيكلولوجي للملكية المطلقة ، وانه حين شدد على تفوق المؤلفات الموضوعية من قبل شخص

واحد وعلى ترتيبها وثناسقها وكألها ، وحين هاجم ممارضيه وشرع بمفرده في إعادة بناء صرح الفلسفة والعلم ، انطلاقاً من مبدأ مسلم به ، انها كان متفقاً وروح السلطة المطلقة .

٤ - الملكية المطلقة

كانت السلطة المطلقة امنية الجماهير التي رأت خلاصها في جمع السلطة في يدي انسان يجسد الملكة ويكون رمزاً حياً للنظام والوحدة المشودين . وأراد الناس كلهم ان يروا في الملك صورة الله : « انت اله على الارض .. » وقد انضم الى هذا المفهوم ، لدى اناس كثيرين حلم علماء الادب القديم : يجب ان يكون الملك بطلاً يتعشق المجد ، على الطريقة القديمة ، يحمي الآداب كاوغسطس ويحمي الكنيسة كقسطنطين ويسن القوانين كجوستينيانوس ، على ان يمتاز « بحب تفضيلي للأسلحة » لأن « صفة الفاتح تعتبر أنبل واسمى الالقب » برأي كل المعاصرين .

ومن حيث ان الملك وكيل الله ، فهو سلطة سامية . « الامير السامي يسن القانون ، فهو من ثم لا يقع تحت سلطة القانون » . يتصرف كما يطيب له التصرف . وينتج عن ذلك ان للملوك « حقاً طبيعياً في التصرف تصرفاً مطلقاً يجمع الممتلكات ، سواء عادت للعلمانيين أم للكهنسيين ، بغية الاستفادة منها كما يفعل الحكماء المقتصدون ، اي بحسب حاجيات الدولة » : السلامة العامة تتقدم حق الملكية ، وينتج عن ذلك ايضاً ان الكنيسة تخضع للملك ويتوجب عليها ان تدفع له الاتوات على املاكها التي اعطيت لها « لخير الملكة العام » وينتج عن ذلك اخيراً :

« ان عظمة الضباط هي لمان عظمة الامير المطلقة ، كما ان عظمة الامير السامية هي شعاع عظمة الله المطلقة ولعانها » .

فقدت المقارنة بالشمس امراً طبيعياً ، وليس ما فعله لويس الرابع عشر سوى اصرار على رمز ملكي قديم .

ولكن الملك ، صورة الله ، يجب ان يكون « عناية الهية » على الارض . عليه ان ينشر المدل « تلك الامانة الثمينة التي أودعها الله ايدي الملوك كاسهام منهم في حكته وقوته » . عليه ان يسمو الى الكمال بكل من المهن التي تكون المجتمع ، لأن « لكل منها وظائفها التي يصعب جداً على المهن الاخرى ان تستغني عنها .. لذلك يتوجب علينا لا ان نحقر احدي هذه الحالات أو رفع احداها على حساب غيرها ، بل الحرص على ان نسمو بها كلها ، اذا امكن ذلك ، الى الكمال اللائق بها » ، وهذا هو المثل الاعلى لمجتمع يوجه فيه العمل الاجتماعي وتنظم المهن بحسب حاجات الانسان . وعلى الملك اخيراً ان يحمي الضعفاء و « يبدي للشعوب الخاضعة لنا مظاهر العطف الابوي نفسها التي يبديها الله لنا كل يوم » ، و « لا يتم بشيء فوق اهتمامه بوقاية الضعفاء من ظلم من هم اقوى منهم ، وبتأمين المزاء للضعافين في بؤسهم » .

سلك لويس الرابع عشر بمقتضى هذه الآراء ، ولكن هنري الرابع ولويس الثالث عشر لم يكونا اقل منه تسميماً على ان يكونا البطل والسيد المطلق و « العناية الالهية » .

مارس الملك سلطته بممارستين مختلفتين بحسب العهود . فحين
اسلوب الحكم الوزاري
واسلوب الحكم الذاتي
يكون قليل القدرة ، كلويس الثالث عشر ، او حديث السن جداً ،
كلويس الرابع عشر بين السنة ١٦٤٣ والسنة ١٦٦١ ، يقوم حكم
وزاري ، حيث رئيس الوزراء ، كالكردينال دي ريشليو والكردينال مازارين ، في فرنسا ،
والكونت - الدوق اوليفاريس ، في اسبانيا ، الخ ، يحكم باسم الملك ، ويؤدي له حساباً .
وحين كان هذا الملك لويس الثالث عشر ، لم يكن هذا الاسلوب قاعدة :

« ان السيطرة على كافة ساحات الوغى في اوروبا لاسهل علي من السيطرة على مكتب الملك » .
ولكن الوزير ، في أيام الاقطاعية والتبعية هذه ، يسلك سلوك وزير الملوك في اواخر عهد
الميروفنجيين . يحيط الملك برجاله ويعين اتباعه الخالص في المناصب الهامة ويؤسس سلالة ويحمل
من انسابه مشيري فرنسا وقادة بوارج ودوقية وامراء ، ويزوج بنات أشقائه وشقيقاته الى
الامراء الملكيين ، ويملك ، كريشليو مثلاً ، مراكز محصنة ، ك « بروج » و « له هافر » ،
يوصي بها لورثته . ويتصرف ببعض الجيوش ، فرقة مشاة وفرقة اشراف ريفيين .
فيرى الملك ضباطه يتخلون عنه شيئاً فشيئاً ويدخلون في خدمة الوزير ، كما يرى مستقبلاً
قريباً يمسي فيه وحيداً وعاجزاً امام وزيره الذي يدين له الجنود بولائهم ولا يستطيع فرض
سلطته على المملكة الا بواسطة الوزير ورجاله . لذلك كانت وفاة الوزير فرجة للملك .
وهكذا ، فان لويس الرابع عشر ، الذي بنى مذهباً مما مال اليه هنري الرابع بالفطرة ،
عزم على ان يكون هو بالذات رئيس وزرائه ويلم وحده بكافة الشؤون ويكون الشخص الضروري
الوحيد : فانتهى به ذلك شيئاً فشيئاً الى حياة بيروقراطية منتظمة ومنظمة في سبيل خير
انتاج . « كان بالامكان ، بواسطة التقويم والساعة ، معرفة ما يفعله ، على مسافة ٣٠٠ عقدة
منه » . كما انتهى به الى الانفراد ، في « فرساي » ، في قصر ومدينة لم يكن تشييدها لاجل عمل
الملك اقل منه لاجل دعاوته وملذته . أراد البعض ان يروا في هذه الحياة البيروقراطية تقليداً
لاسبانيا ، بينما هي ظهرت ، في الواقع حيثما اتسعت السلطة المطلقة . فمردها من ثم الى
الضرورة .

في عهد الحكم الوزاري ، تربت الانظمة . ولكن توسع
الانظمة كرس حقوقاً لبعض اناس خطرین ، العظام ورئيس
الوزراء . فدبر لويس الرابع عشر حركة ارتداد الى الوراء
تقدم الانظمة في عهد الحكم
الوزاري وتقهرها في عهد الحكم الذاتي
ستخلي الجو للارادة الملكية . ما زالت الحكومة ، في عهد الحكم الوزاري ، اختصاص عائلة
ونسب والقاب ووظائف . يدخل المجلس الاعلى اعضاء الاسرة المالكة والامراء الملكيون

والدوقية والامراء والمستشار وناظر المالية . الوزراء يتسلمون وظيفة تسند اليهم بشهادات رسمية يمنحها الملك « تقييمهم » فيها وتجمعها « ملكا » لهم . فأحدث لويس الرابع عشر ثورة حقيقية . اقصى عن المجلس الاعلى كل من قد تحدته نفسه بسلطة سياسية بالاستناد الى نسبة او لقبه او وظيفته . تناول تديبيره ، في الدرجة الاولى ، امه وأخاه والامراء الملكيين : فزالت عن الحكومة صفتها العائلية وامست ذاتية حقاً . ثم تناول مستشار فرنسا والاحبار وكبار الاسياد . وتناول أخيراً كبار الموظفين . فأمناء السر لم يمينوا كلمهم وزراء . ولم يعد مركز الوزير حالة دائمة . وليس من بعد لا رسائل ولا شهادات ملصكية باسناد وظائف الوزراء . يصبح المرء وزيراً حين يدعوه الملك الى مجلس الوزراء بواسطة أحد حجابيه ، ويفقد منصبه حين يكف الحاجب عن دعوته . وفي بعض الساعات يتداول الملك في شؤونه مع من يناسبه من الرعية . ليس لاحد غير الملك حق مكتسب في الحكم . كل شيء مركز في شخص الملك .

بذلت في عهد الحكم الوزاري جهود كبرى لتنمية آلة السلطة الملكية ، اي المجلس . فأحدثت فيه اقسام جديدة ، مجلس البرقيات للداخل ، ومجلس الوعي . أما القسم السياسي ، اي مجلس الشؤون أو المجلس الاعلى ، والاقسام الادارية ، اي مجلس المالية ، ومجلس الشورى والمالية ، والمجلس الخاص ، فقد سبق وحددت اختصاصاتها وادخل على وظائفها توزيع اجده واجدى . بيد ان لويس الرابع عشر ، بالمقابلة ، قد وقف موقفاً حذراً من المجالس . وحين اتضح له انه لا يستغني عنها ، حاول اقصار اعمالها على ما هو شذشنة ونسق مطرد . واخذ يعمل وحده مع كل من امناء سر الدولة ومراقب المالية العام على التوالي . كما اخذ يبت في كافة الشؤون الهامة التي لم تمد لتمر أمام المجالس الا مروراً شكلياً ، أو لا تمر البتة . وصدرت الوف القرارات المجلسية حاملة ، « بأمر المجلس » ، توقيع احد امناء سر الدولة والمستشار ، دون ان يعلم بها المجلس الاعلى أو مجلس البرقيات أو مجلس المالية الملكي .

ووقف الملك موقفاً حذراً من وزرائه وأمناء سر دولته ايضاً . فأعاد النظر في تقسيم العمل وحاول اثقال اعباء العمل حيث تشابك الامور بحيث لا يستطيع اي اختصاصي اقامة العقبات في طريق ارادته . واوجد الخلاف بين معاونيه واوغر صدورهم غيظاً بعضهم على بعض ورمى الفتنة فيما بينهم و« اشمل نار احسادهم المتبادلة » ، ورأى في كوايبر و« لوتليه » ضماناً لسلطته .

ان المعضلة التي واجهها الملك في العهدين لم تكن الفوز بطاعة رعاياه فحسب ، بل باخضاع ضباطه انفسهم لارادته ايضاً ، لا سيما وقد غدوا مستقلين بفضل بيع الوظائف ، وبممارسة ملء السلطات التشريعية والقضائية و« البوليسية » أو الادارية .

لجأ الملك ، في سبيل بلوغ هذا الهدف الى الاوامر الملكية بالسجن

التي يعلن بها مباشرة عن ارادته للأفراد أو الهيئات . فبموجب هذه الاوامر ، يوقف الملك من يشاء أو يسجنه أو ينفيه؛ ويماقب

الاورام الملكية بالسجن
ومفوض الشرطة السياسية

الابن أو الزوج على سوء سلوكها بناء على عريضة تتقدم بها العائلات ؛ ويستدرك المقاومات ، ويقاص مثيري الفتن والمتآمرين مع العدو دونما محاكمة . واذا تكلم الملك نفسه ، فما على الرعية سوى الانحناء أمام سلطته ، مصدر العدالة الشرعي .

ولجأ الملك لجوءاً مطرداً الى مفوضين يعينهم ويعزهم على هواه ، وما مستشارو الدولة في المجالس الادارية سوى مفوضيين على كل حال . وفي عهد الحكم الوزاري ، منح الملك هذه المجالس صفة « الفرقة الاولى » في المملكة واولاها سلطة على المحاكم المعروفة بالمحاكم العليا ، حتى في حال غياب الملك . كان باستطاعة المجالس ، منذ السنة ١٦٣٢ ، ابطال كل قرار ، حتى ولو كان صادراً عن المجالس التمثيلية ، اذا ثبت ان صدره يتنافى والانظمة أو السلطة الملكية أو المنفعة العامة أو حقوق التاج . كما كان من حقهم طلب المعاملات والبث بها وحرمان المحاكم العليا من وظائفها . أما في عهد لويس الرابع عشر ، فقد ابقى على سلطة هذه المجالس ، اقله كأسم وهي مفيد ، لان قرارات المجلس غالباً ما تنبثق في الواقع عن الملك ومعاونيه المباشرين ، أي امناء سر الدولة ومراقب المالية .

خلال العهدين ، توطدت سلطة الملك على المحاكم العليا ، على الرغم من انحصار عملها في مجلسه مبدئياً ، في السنة ١٦٤١ ، احتفظ لنفسه شرعاً بحق الاطلاع على شؤون الدولة ، وانزل عدد الاعتراضات الى اثنين قبل التوقيع في المعاملات المالية ورفضها بعد التوقيع في شؤون الدولة . واحتفظ لويس الرابع عشر لنفسه ، مرة اخرى ، بشؤون الدولة ، وفرض على المحاكم العليا ، في السنة ١٦٧٣ ، توقيع المراسم حالاً كما ترد عليها ؛ ولا تقبل الاعتراضات الا مرة واحدة وبعد التوقيع فقط . فآثرت المحاكم ابداء رأيها . وهكذا وجدت المحاكم العليا نفسها مقصاة عن السياسة العامة وعن المسائل الدستورية . فتميزت بالفعل بنفسه سلطة الملك في الحقل السياسي وسلطته التشريعية المطلقة ، ومن ثم قدرته على فرض الضرائب على هواه والتصرف بالاموال المجموعة دون تأدية حساب . واتيح للملك ان يطلب الى لجان تشكل من بين اخصائه وضع قوانين (النظام المدني في السنة ١٦٦٧ ، والنظام الجزائي في السنة ١٦٧٠ ، والنظام التجاري في السنة ١٦٧٣) اعطاها الملك وحده قوتها التشريعية دونما تسجيل ، ودونما استشارة احد من الموظفين المسؤولين ، ودونما اسهام من قبل الهيئات الخاصة ، وانطوت على نزعة واضحة الى الوحدة والمساواة وجاءت عملاً ثورياً حقيقياً .

عين الملك لجاناً من المجلس للحكم في قضية والتأكد من تنفيذ مرسوم ، كغرفة الـ « ارسنال » في السنة ١٦٣١ ، واللجنة التي حاكمت حكام « لاشابيل » والـ « شاتليه » بعد مهادنة الصلح

في « كوربي » ، الخ . ولم تكن هذه اللجان مجرد اجهزة تحضيرية ؛ بل أصدرت في الواقع احكاماً مبرمة .

واستخدم الملك وكلاء جيش ووكلاء قضاء وشرطة ومالية . كان هؤلاء ، في الدرجة الاولى مفتشين كلفوا مراقبة الضباط ورعايا الملك وتأدية حساب عن ذلك للمجلس . وكان باستطاعة المجلس حينذاك ؛ اما الفصل في التضيية بموجب حكم ، واما اعطاء الوكلاء السلطات الضرورية للفصل والحكم والتشريع . وكان من ثم باستطاعة الوكيل حضور مجلس الحاكم وابداء رأيه ، وتروؤس المحاكم القضائية ، واصلاح القضاء من حيث الأنظمة ، والتثبت من ان الضباط ينفذون مهام وظائفهم ، وكف أيديهم في حالة السلب ، وتلقي شكاوى رعايا الملك ، وإحقاق حقهم بواسطة القضاة . وتروؤس الوكيل جمعية المدن وراقب الانتخابات واستثبت ديون الجمعيات وسهر على تطبيق الأوامر والأنظمة : فكان ذلك مقدمة للوصاية الادارية . وراقب الوكيل جباية الضرائب ، وتصدر مكاتب المالية ، وسهر على تطبيق الأنظمة والقوانين، ولكنه لم يتمتع بسلطة عامة مطلقة وبحق اصدار احكام من الدرجة الاخيرة الا في حالتين : اختلاسات ضباط المالية؛ الجمعيات المنوعة ، المصيان ، الفتنة ، تجنيد الفرق .

وكان الوكيل اداة طيبة جداً . وكان باستطاعة المجلس ، في أيام الحرب أو الأزمات الداخلية ، اعطاؤه صلاحيات واسعة جداً تجعله يقوم بكافة مهام الضباط ولا يترك لهم سوى الاسم فقط . في هذه الساعات المصيبة يقم الوكلاء ، بمساعدة مرؤوسيهيم ، ادارة مفوضين في وجه ادارة الضباط . ولكن الحكومة الملكية ، وريشليو وكولبير ، يعتبرون هذه الفترات فترات استثنائية وضرورات مؤسفة . ومحاول الملك في زمن السلم الاحتفاظ بالوكيل ويميل أبدأ الى توسيع صلاحياته في دوره التفتيشي . يحظر عليه الحلول محل الضباط ، ويرغب اليه في مراقبتهم فقط ، ويوجب عليه ، اذا ما قصروا في واجباتهم ، اطلاع المجلس على ذلك وانتظار الحصول على الصلاحية اللازمة لمعالجة أوضاعهم .

ولجأ الملك الى عمل بوليسي سياسي ، مارسه الوكلاء والجواسيس والعلاء المنتشرون في كل مكان ، في باريس حيث عينهم حاكم الباستيل ، الوكيل المجرم ، ثم وكيل الشرطة العام « لارنيي » ، منذ السنة ١٦٦٧ . وكان يكفي ان يساء تفسير كلمة واحدة حتى يمس المرء في الباستيل ، دوقاً كان ام خادماً . وقد استند الوكلاء والمجلس الى دلائل وامية حتى يوجهوا التهم بالجناية على الملك ، وكان الحكم يصدر بالاستناد الى مجرد ظنون لان ريشليو ولويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر قد جاهروا بان الحصول على براهين حسابية في موضوع التآمر يكاد يكون مستحيلاً وبان انتظار الحدث يؤدي الى ضياع كل شيء . لا بل لقد لجأ الملك الى السجن الوقائي ، غير المحدود بزمن ، بمجرد كتاب مهور بخطاته .

وامن تنفيذ الاوامر الملكية جيش من المرتزقة تدفع لهم اجورهم بانتظام ويخضعون لنظام صارم .

لويس الرابع عشر
سيد أوحده

ما عاد لويس الرابع عشر ليقبل ، في كل الوظائف الهامة ، كوظائف الوزراء وامناء سر الدولة والمراقب العام ، الخ .. سوى « بالخلصين » الذين يقومون بخدمات منزلية بالإضافة الى وظائفهم العامة وينقلون على غرار كولبير مثلاً ، رسائل الملك الى عشيقاته أو يستلمون منهن ، عند الولادة ، أولاد الملك غير الشرعيين. وقد لجأ الى الشواغر الاقطاعية، ولكنه اراد ان يكون هو مرادها وغايتها. وأراد تحقيق السلطة المطلقة بربط كافة الفرنسيين بالملك ربطاً مباشراً ، بواسطة رباط ذاتي ، كما ارتبط الفداديون بسيدهم . وأراد أن يكون السيد الأوحده المطلق أو اقله الحامي المطلق و كل العيون شاخصة اليه وحده ؛ واليه وحده ترفع كل الاماني ؛ هو وحده يتقبل كل احترام واعتبار ؛ وهو وحده محط كل الآمال ؛ وبدونه لا يطلب ولا يسمع ولا يعمل شيء. ينظر الناس الى نعمه كما الى المصدر الوحيد لكل الخيرات ؛ ولا يؤمنون بالارتقاء الا بمقدار تقربهم من شخصه واعتباره ؛ وكل ما عدا ذلك جذب ومحول . روابط المواطنين والمصالح كلها تتوجه الى الملك الذي يحدد من ثم اماني رعاياه وآمالهم وبذلك ، كما بممارسته السلطة الذاتية ، يركز الدولة في ذاته ويحقق في ذاته وحدة الدولة ، كما يحدد رعاياه ، باستغلال مشاعر قديمة جداً ، للانتقال الى مفهوم الدولة المجرده . وهكذا فان لويس الرابع عشر قد أعد الدولة العصرية بواسطة روااسب القرون الوسطى .

اعد الملوك الدولة العصرية باعداء طبقة اجتماعية على اخرى و برفع الاستفادة من البورجوازية . البورجوازية في السلم الاجتماعي . فخلال القرن ، اختار الملك وزراعه ومستشاريه ووكلاءه ، اكثر فأكثر ، من بين رجال القانون البورجوازيين . خلائقه هذه « تنحدر من عامة الشعب » ولكنها « تعظم فرق كل عظمة » . رفع الملك الى طبقة النبلاء « لوتلييه » و كولبير وجعل منها مركيزين اي سيدين يسميان باسم اراضيها ، على غرار « لوفوا » و « بريزيو » و « كرواسي » و « تورسي » وخلق سلالات تنتمي الى الوزراء من الانساب والانسال « البورجوازيين » الذين استفاد من قوتهم في وجه الانساب والانسال النبلاء . في السنة ١٦٩٥ ، احلّت قائمة الضريبة الشخصية وزراء الدولة في الطبقة الأولى وسارت المستشار ومراقب المالية العام بالامراء الملكيين . وارتفعت في الأقسام الادارية التابعة لمجلس شوري الدولة نسبة رجال القانون . فقد حدد نظام السنة ١٦٧٣ عدد المستشارين الأصليين بـ ٢٤ مستشاراً من رجال القانون و ٣ من رجال الكنيسة و ٣ من اشرف الجندي . ويحدد لنت الانتباه هنا ، بصدد هؤلاء الاخيرين ، الى ان شرط العدد المعين من درجات النبيل لم يعد وارداً : فقد بات باستطاعة ابن أحد رجال القانون من النبلاء أن يتولى هذا المنصب . وفقد الدوقية والامراء ، شيئاً فشيئاً ، مراكزهم بين المستشارين الذين كان لهم الحق ، قانوناً ، بعضوية المجلس الخاص لا بل ان قانون السنة ١٦٧٣ قد اهل ذكرهم امالاً تاماً . وحصل مستشارو

الدولة على حق الارتقاء الى طبقة الاشراف الذي جاز انتقاله الى انساب الدرجة الاولى . وكانوا بعد ذلك يقدمون الى الملك مع نسايتهم ويسمح لهم بالتزلف اليه ، وتملكوا الاقطاعات فعدوا اسبداً . وغالباً ما اختار ابناءؤهم عمل الجندي وخدموا في فرق الملك ، اقله لفترة معينة ، قبل ان يدخلوا عالم الوظيفة . وهكذا فان الملك قد رفع رجال القانون المكرسين لخدمته رفعاً مطرداً وجعل منهم اشرافاً . فعدت خدمة الملك ، الذي يجسد الدولة ، رويداً رويداً ، مقياس تصنيف طبقات المجتمع .

رريض النبلاء
تذمر الاشراف من تصرف الملك هذا ، فهم يحتقرون هؤلاء «البورجوازيين» وقد دمدم « سان - سيمون » قائلاً : « كان هذا الملك ملك بورجوازية حقيرة » . وتألموا من تسوية بين الطبقات اقدمت عليها دولة حصدت المقاومات حصداً . فالسجون ملأى بالسجناء المرموقين : الكونت « دي كرامين » ، والمرشال « دي باسومبيير » و « باراداس » احد المقربين الى لويس الثالث عشر . لذلك حاول الملوك ان يوفروا لطبقة النبلاء المراتب الرفيعة وسبل العيش . فاحتفظوا لهم بمناصب الحكام وبمدد وفير من رتب الجيش ولانشائهم بمعظم الوظائف الكنسية ، وادخلوهم في خدمتهم ، وارسخوا في ذهنهم روح النظام والطاعة ودربوهم شيئاً فشيئاً على حياة الوظيفة . واتم لويس الرابع عشر تنظيم البلاط . فجمع حوله في « سان جرمين » و« فونتينبلو » و« فرساي » كافة ذوي الشأن من النبلاء . واجهز على ثروتهم بتعاقب خدمتهم الباهظة الاكلاف في المعسكرات وبجبايتهم البذخية في البلاط . ولم يتورع عن خوض غمار الحروب كي يوجد لهم عملاً وظروف مجد وشهرة . واسترقهم بما خصهم به من معاشات وأمهار وخيرات كنسية . « قد يحدث اثناء التزلف الى الملك ان يجد المرء نفسه تحت ما يلعبه » كما قالت مدام « دي سيفينييه » بوصفها كلباً أميناً . ووفر لهم تعويضاً سيكولوجياً . ففي سلسلة من الاعياد المدهشة الغاتنة كان الملك يظهر بشباب ايله الاولب وافراد حاشيته بشباب الآلهة الثانويين أو الابطال . واستطاعوا بذلك نقل سراب حلمهم بالقوة والمظمة الى تقليد حياة الخالدين هذا مرتفعين فوق الانسانية العادية وخاضعين ، اذا وجب الخضوع ، لـ « الرب جوبتير » ، الملك الاله . وعلمتهم آداب البلاط ان يروا في الملك كأننا يفوق قدرة البشر . ودرج الرجال على رفع قبعاتهم أمام سرير الملك ، والنسوة على الركوع كما يفعلن أمام المذبح في الكنيسة . وتباهى الامراء الملكيون بالامساك بكم قميصه عند نهوضه من النوم . واحيط نهوضه ونومه ووجباته وحياته كلها بمراسم حافلة بمظاهر الاحترام والتكريم . وقد عبر احد رجال البلاط عن كل شيء اذ قال ، حين وفاة لويس الرابع عشر : « بعد وفاة الملك ، جاز تصديقي كل شيء » .

وتجد الاشارة هنا ، من جهة ثانية ، الى ان آداب البلاط ، والبلاط نفسه ، لم تكن تتأثر بما شوهد آنذاك في اسبانيا بل فرضها الوضع الاجتماعي وطبيعة الاشياء .

وهكذا فان الملك ، بفضل تقسيم الوظائف بين الطبقتين ، والاحتفاظ باهما للطبقة الدنيا ، اي البورجوازية ، وبفضل رفع هذه الاخيرة رفعا مطردا وايقافها في وجه الطبقة الاخرى ، الاعظم قوة ، قد اعاد الصراع الطبقي الى نقطة توازن بين الطبقات امنت سلطته الشخصية و امنت الوحدة والنظام في الحكومة والدولة . اضع الى ذلك انه اعتمد التسوية والمساواة ، اكثر فأكثر ، في خدمة الدولة والخضوع التام والطاعة العمياء ؛ ولعله اضطر الى ذلك اضطرارا بفعل الازمة والحرب دون ان يستهدف تغيير نظام الملكية اجتماعياً . فقدت سلطته ، مع لويس الرابع عشر ، مطلقة وثورية .

حاول ملوك سلالة ستيوارت في انكلترا تحقيق السلطة المطلقة ، واستطاعوا الى ذلك سيلا خلال فترات طويلة . فقد حكم جاك الاول (١٦٠٣ - ١٦٢٥) ملك انكلتري المطلق الصلاحيات الى حد بعيد . وكرر شارل الاول محاولته من بعده (الاستبداد ، ١٦٢٩ - ١٦٤٠) . ويمكن ان يعتبر شارل الثاني ، منذ السنة ١٦٢٩ ، اي بعد الثورة (١٦٤٠ - ١٦٦٠) والاصلاح ملكا مطلق الصلاحيات عمليا . وقام جاك الثاني (١٦٨٥ - ١٦٨٨) بالمحاولة الاخيرة . وقد سعوا كلهم ، باستثناء شارل الثاني ، ليس وراء السلطة المطلقة عمليا فحسب ، بل وراء جعل السلطة المطلقة نهائية بتحويلها الى وضع قانوني .

اراد ملوك سلالة ستيوارت عن طريق السلطة المطلقة ان يوجهوا التطور نحو الرأسمالية ويبقوا على التوازن بين الاسباد المحافظين ، والمزارعين والفقراء ، وبين الطبقات الرأسمالية أو الطبقات المرتبطة في حياتها بالرأسمالية . وفي رأي ملوك سلالة ستيوارت ومستشاريهم من امثال « لود » رئيس اساقفة كنتربري ، وعضد الاستبداد ، ان الدولة انما هي تعبير زمني عن الموجبات الروحية . « الله والملك لم يهبانا التز السير الذي نمك الالاجل استعماله في خدمة قريتنا » . وما هدف الحكومة الاخير سوى المحافظة على التعاون الوثيق بين مختلف اجزاء جهاز المجتمع . لكل من هذه الاجزاء ، اي لكل طبقة ، وظيفة محددة يتوجب عليها القيام بها ، على ان يؤمن لها بالمقابلة مستوى حياتيا يتناسب ومرتبها في السلم الاجتماعي . فيتضح من ثم ان ملوك سلالة ستيوارت كانوا معادين للاحزاب السياسية : « الاحزاب تستهدف ابدأ غايات خاصة » . وكانوا معادين للافراد الذين تمرقل مصالحهم الشخصية لتحقيق الخير العام ، ومعادين للفردية الاقتصادية المقوتة وللبردية الدينية ، التي تفوقها فظاعة ، لان الدين يجب ان يكون اداة في يد الدولة لتنفيذ مهمتها . وهذا ما يفسر عطف ملوك سلالة ستيوارت على الكنيسة الكاثوليكية التي نظرت نظرات مائلة الى المجتمع والتي كان باستطاعتها وضع امكانات تنظيمها تحت تصرف الملك .

كانت اداة الملك مجلسه الخاص المؤلف من مستشارين يمينون ويمزلون كما يجلس الخاص يطيب للامير ويلزمون باطاعته اطاعة كلية . بلغ اعضاؤه ، حوالي السنة ١٦٣٠ ، ٣٨ عضواً يدخل في عدادهم رئيس اساقفة كنتربري ، المستشار ، وزير المال ، بعض عظام

الاسياد ، رجال قانون ، امينا سر الدولة . لا يعرض الملك عليهم الا ما يطيب له عرضه ، ويصغي الى آرائهم ثم يضع صيغة قراره بنفسه . يتشاور المجلس الخاص وينفذ بواسطة الاعلانات والاورامر التي تقر في الاجتماع . وتدخّل في صلاحياته السياسة العامة والتشريع والقضاء والمالية والحرب وشؤون الاسطول ، ودعوة المجلس التمثيلي للاجتماع وتعيين مأموري الاحكام المدنية والتعليقات الى القضاء والضباط المحليين والبث بالرسائل والعرائض . ويحضر عمل المجلس وغالباً ما تتخذ القرارات مسبقاً ، في الديوان ، للشؤون السياسية ، وفي لجان المجلس للشؤون الجارية والادارة . أما الديوان الذي ليس معترفاً به رسمياً فيضم بعض مستشاري الملك السريين . ونرى في كل ذلك اوجه التشابه مع فرنسا على الرغم من ان تطور الانظمة هنا لم يبلغ ما بلغه في فرنسا .

فهي الاسس نفسها التي اقتضى تأمينها في هذه البلاد التي كانت ملكها دون ملك فرنسا سلطة مطلقة .

سلطة الملك التشريعية
 حاول ملوك انكلترا الاحتفاظ لانفسهم بالسلطة التشريعية . وسن جاك الاول القوانين بالاعلان والمناداة . وفي السنة ١٦٠٧ ، كتب « كوكل » ، استاذ القانون في جامعة كمبردج ، ما يلي : الملك « فوق القوانين بسلطته المطلقة . . يستطيع تعديل أو تعليق كل قانون يبدو له مضرراً بالخير العام » . فاضطر جاك الاول لأن يتبرأ من الكتاب ولكنه استمر في سياسته . وصرح شارل الأول دون مواربة بان لاعلاناته قوة القانون . واخذ جاك الثاني يحمل القضاء على الاعتراف بحقه ابي اعفاء الفرد من التقيد بهذا القانون أو ذلك (قضية ادوارد هيلز) ، ثم افرط في الاعفاء من القوانين ، ثم اصدر في السنة ١٦٨٧ بياناً حول حرية المعتقد جاء فيه ان « ارادته الملكية وهواه ... قررا ، منذ الآن ، تعليق كافة القوانين الجزائية في الدعاوى الكنسية » . وكان باستطاعته ان يفعل الشيء نفسه بصدد كافة القوانين وان يرغم المجلس التمثيلي على ان لا يقر سوى القوانين التي يوحى بها الملك .

السلطات القضائية الخاصة
 وحاول ملوك سلالة ستيوارت تأمين تنفيذ ارادتهم بسلطات قضائية خاصة . فان جاك الاول وشارل الاول اكرها الشعب على اطاعة اعلاناتها بواسطة « الفرقة المكوكية » ، والمحكمة العليا . أما الفرقة المكوكية ، وهي الدائرة العدلية في المجلس الخاص برئاسة المستشار ، فقد حاكمت المتهمين الذين سبق للمجلس ووقفهم واستجوبهم وأحالمهم عليها . وقد دخل في صلاحياتها كل حوادث الاخلال بالنظام العام والاخلال بالاورامر الملكية . وشملت الفئة الاولى الفتن والمنازعات ، لا سيما بمناسبة تصوين المراعي ، والحروب الخاصة بين الاشراف الريفين ، والمؤامرات والاعتداءات على القضاء والاهاجي والشتم . وهكذا استطاع « ونتورث » اثناء عهد الاستبداد ، ملاحقة منتقدي

مساعدته في ايرلندا بغية خلق جيش دائم في خدمة شارل الاول . وشملت الفئة الثانية مخالقات الاعلانات الملكية ، كتلك التي حظرت زيادة عدد البيوت والمساكن في لندن ، مركز الرأسمالية الكبير ؛ وتلك التي اوجبت على الاشراف الريفيين ، مالكي الاراضي في الارياف ، العيش فيها وعدم مغادرتها الى المدينة ، وقد حكم على احدهم ، « بلر » ، في السنة ١٦٣٤ ، بالسجن وبيع / ١٠٠٠ / ليرة جزاء نقدياً ، لهذا السبب ؛ وتلك التي حظرت تخزين المواد الغذائية ورفع الاسعار ، وقد حكم على ١٥ شخصاً من اصحاب المصابن ، في السنة ١٦٣٤ ، بالجزاء النقدي والسجن واقفال المصانع لاستخدامهم زيت السمك بدلا من زيت الزيتون ولاتفـاقهم على سعر ادنى معين لا يجوز تخفيضه . وكان عمل الغرفة المكوكبة مباشراً على المواطنين وعرضاً على القضاة الذين يخشون آنذاك مغبة الامر ويتشددون في تطبيق الاعلانات . وحين برزت مقاومة « مال الاسطول » ، في السنة ١٦٤٠ ، استدعى مأمور الاحكام المدنية في سبع كوتيتات لاهلهم في شؤون التحصيل وصدرت بحقهم احكام مختلفة . فغدت هذه الهامك تجسيدا للسلطة المطلقة .

وأعاد جاك الثاني المحكمة العليا . كانت برئاسة المستشار وشملت صلاحيتها كافة رجال الكنيسة وكل كلية ومدرسة تلقن دروس الصرف والنحو . وكان من حقها اصدار احكام مبرمة في دعاوى المعتقد الديني ، كالالفاء والعزل والحرم ، التي كانت بمثابة الحرمان من الحقوق المدنية والسجن مدى الحياة .

وتهرب ملوك سلالة ستيوارت من مبدأ « المثول أمام المحكمة » . فلا يوقف رعابا الملك الا بسبب دين مدني أو بتهمة جرمية . وباستطاعة كل انسان حر سجين ان يلتمس من محكمة الملك « امراً بالمثول امام المحكمة » ، يوجب على السجن احضار السجن والادلاء بسبب سجنه حتى تتمكن المحكمة من اعادة السجين الى السجن أو اخلاء سبيله بكفالة أو تبرئته . ولكن ملوك سلالة ستيوارت اوجبوا على السجنائين انتظار امر ثان وثالث ثم نقل السجين الى سجن آخر حيث تتجدد المهزلة . ودرج القضاة الملكيون على تحديد الكفالة بمبالغ باهظة جداً يعجز السجين ابدأ عن دفعها . وادعى الملك اخيراً بان « امره الخاص » كاف لتبرير السجن ، واستند الى هذه الحجة حتى السنة ١٦٧٩ ، في عهد شارل الثاني . فكان ذلك مائلا للأمر الملكي بالسجن في فرنسا .

سلطة إحداث الضرائب كانت المسألة الهامة تأمين موارد مالية دون تدخل المجلس التمثيلي ، فباع جاك الاول وظائف امناء الصناديق والقضاة والمدعين العموميين وامناء سر الدولة ، الخ . وحذا خذوه شازل الاول ، ثم شارل الثاني ولكن على نطاق اضيق . غير ان الامم كانت ان يتمتع الناج بحق فرض الضرائب من تلقاء نفسه مباشرة . فأمر جاك الاول ، في السنة ١٦٠٦ ، بفرض رسم جرمي جديد . رفض « جون بيتس » ، احد تجار شركة الشربق ، ان يدفع هذا الرسم لانه غير شرعي . فأداتته المحكمة المالية : « سلطة الملك مزدوجة » عادية ومطلقة . أما سلطته العادية فلتنفم الافراد ... ولا يمكن ان يدخل عليها

أي تعديل بدون المجلس التمثيلي . واما سلطة الملك المطلقة... فلخبر الشعوب العام ... وتعرف بالسلطة البوليسية ... تتنوع ، بحسب حكمة الملك ، للخير العام . القضية موضوع البحث قضية دولة ويجب أن تعالجها سلطة الملك الفاتحة بحسب الانظمة البوليسية . كل الرسوم الجزئية ناجمة عن التجارة الخارجية ؛ ولكن التجارة والشؤون الأخرى مع الأجانب من اختصاص سلطة الملك المطلقة ... ، فأمر الملك من ثم بوضع « كتاب الرسوم » (١٦٠٨) الذي فرض موجبات مالية باهظة .

بعد السنة ١٦٢٦ ، فرض شارل الاول الضرائب تلقائياً وفرض على كل رعاياه قرضاً يعادل ما دفعه كل فرد من الضريبة الاخيرة . فكان عمله خطوة اولى نحو الضريبة المباشرة التي تجسب بارادة الملك . ولكن المقاومة برزت عنيفة . فأعلن الملك الاحكام العرفية ، وارسل الفرق للاقامة في بيوت السكان وسجن بعض النبلاء وكبار البورجوازيين ، واكثر من عامة الشعب في القوى البحرية . وخلال الاستبداد اعاد من تلقاء ارادته الاحتكارات التي الفاهما المجلس التمثيلي في السنة ١٦٢٤ ؛ وامر باحترام الحدود القديمة للاخراج الملكية واستصدر أحكاماً بقرارات نقدية على الملاكين الممتدين . وفي السنة ١٦٣٤ ، أعاد « مال الاسطول » الذي يوجب على قضاة المرافعة تقديم عدد معين من السفن الحربية أو ما يعادلها مالا ويمطيمهم حتى فرض الضرائب على السكان . تمنع « هامبدن » ، فادين في السنة ١٦٣٧ . واستند القضاة الى سلطة الملك المطلقة والى عجز مجلس التمثيلي عن حصر امتيازات التاج العليا . « الملك هو القانون » . و « للملك الحق في فرض الضرائب على رعاياه في سبيل الخير العام ... وللملك الحق في تجاوز كل قانون اذا اقتضت الضرورة ذلك » .

وبدأ جاك الثاني ، في الاتجاه نفسه ، باعلان أوجب فيه ، من تلقاء نفسه ، الاستمرار في تادية الرسوم التي أعفي بعضهم منها في حياة الملك المتوفي (١٦٨٥) فقط .

الجيوش الدائم
اقتضى لفرض ارادة الملك وجود جيش دائم يأتمر بأمره وحده . وكانت هذه على الدوام اكثر النقاط ضعفاً : فقد نبت طبع الانكليز عن ذلك ، وبالنظر الى ان البحار تحمي انكلترا لم يحظ الملك ، شأن ملوك الياسة ، بمساعدة إلاح ضرورات الدفاع عن الحدود . وغالبا ما قنع الملك بحرس خاص قليل العدد وببعض الحاميات الضعيفة . فلجأ شارل الاول الى « الاكثر » من المتطوعين بينما كان « وتوورث » يحاول تأليف جيش دائم له في ايرلندا . وفي أواخر عهد شارل الثاني ، استدعيت حامية طنجة الى انكلترا فارتفع الجيش النظامي الى سبعة آلاف من المشاة والفرسان . ورفع جاك الثاني عدد الجندين الى ٣٠.٠٠٠ رجل وأقام معسكراً في « هونسلو » للسيطرة على لندن .

وهكذا توصل ملوك سلالة ستوارت ، على مراحل ، الى تركيز اهم مستلزمات السيادة المطلقة في شخصهم ، وتوفقوا ، بمراقبة دائمة استهدفت الرأسماليين والاشرف الريفيين المتجهين

الى الزراعة التجارية، الى الابقاء بعض الوقت على التوازن بين المجتمعين القديم والجديد قبل السنة ١٦٤٠ ، وحاولوا مراقبة التطور نحو رأسمالية حرة بعد الاصلاح .

أتاح الصراع الطبقي لرئيس سلالة « اورانج » استلام ادارة الحكومة ،
مثال الاقاليم المتحدة وجعلت منه الحروب ملكا مطلقا ، وان لم يحمل هذا الاسم .

منذ السنة ١٦١٩ ، وقب امير اورانج ، « موريس دي ناسو » ،
سلطة امراء اورانج المطلقة قائد الجيش ، الى جانب الغومارين المتحيزين للمجتمع القديم ، والى
جانب الاشراف والفلاحين والصناعيين اليدويين والملاحين ، اي الى جانب اعداء البورجوازية
والرأسمالية . فاستحال بتصرفه هذا قمع الفتن الشعبية التي أخذت تندلع في كل مكان تقريبا .
ولجا الى حملة مقالات انتقادية عنيفة مفرضة جعلت الناس يعتقدون بخيانة رئيس الحكومة
« اولدبرنفلت » الذي اتهم ، في هذه المقالات ، ببيع بلاده من فرنسا واسبانيا . فاعلن رئيس
الحكومة مجرماً واعدم في ١٢ - ١٣ ايار من السنة ١٦١٩ ، وأقصى بجمع « دوردرخت » كل
تفسير حر للتعاليم البروتستانتية وأدان الارمينيين بالهرطقة . فنزح عدد كبير من الرعاة
الارمينيين عن البلاد . وخسر الجمهوريون الاكثرية في كل مكان ، في مجالس المدن والجمعيات
الاقليمية والجمعيات العامة . وتكون في الرأي العام تيار فكري لمصلحة الامير ، الذي اعتبر
منقذاً ، كان من نتيجته احلال الاورانجيين في كافة المراكز المرموقة . ولم يلبث تجدد الحرب ،
والخطر المحدق بالحدود ، والحاجة الملحة الى تركيز السلطة ، بغية تعهد الجيوش وادارة العمليات
العسكرية والدبلوماسية ، ان رفعت سلطة امير اورانج الى منتهاها ، فامس « موريس دي ناسو »
حتى السنة ١٦٢٥ ، ثم فرديريك - هنري من بعده ، سلطة ذاتية مستندة الى الجيش والطبقات
الشعبية المطمئنة والاكليروس العادي للرأسمالية . وبات امير اورانج متمتعاً بسلطة مطلقة
اتاحت له ادارة كل السياسة الخارجية بمعاونة مجلس يضم بعض الانجية . لابل ان ممثلي المجالس
العامة قد سمحوا لامين سرهم في السنة ١٦٣٤ بحضور اجتماع هذا المجلس واعترفوا بشرعية مقرراته .

انتهى الصلح المعقود في السنة ١٦٤٥ والنصب الذي عقبه بسلالة اورانج
الجمهورية البورجوازية المعاصرة الى الضعف والوهن . فلجأ غيليوم الثاني الى قلب نظام الحكم ،
ولكنه توفي في السنة ١٦٥٠ ، ولم تضع له امرأته ابناً الا بعد وفاته بعدة أشهر . غدت سلالة
اورانج دون زعيم آنذاك ؛ فانهار الحزب الاورانجي . تأسست الجمهورية البورجوازية مرة
اخرى تحت سلطة اقليم هولندا ورئيس سلطتها التنفيذية « جان دي فيت » الرئيس الحقيقي
لجمهورية الاقاليم المتحدة . فقعدت سلالة اورانج كل سلطة . والفت مهام القائد العام في اقليم
هولندا ، في السنة ١٦٦٧ ، اذ جاء في البراءة الدائمة ان مهام الضابط العام والاميرال العام
تتناهى ومهام القائد العام . الا ان الجمهورية البورجوازية برهنت عن ضعفها وعجزها
عن تأمين سلامتها ومصالحها . فان الحريين اللتين اندلعتا بين الانكليز والهولنديين انتهتا

في السنة ١٦٥٤ بتعقر تجارة الهولنديين الذين اضطروا للقبول بوثيقة السنة ١٦٥١ حول الملاحه، وبفقدان المستعمرات الهولندية الاخيرة في اميركا الشمالية في السنة ١٦٦٧. وأخيراً اجتاح لويس الرابع عشر الاقاليم المتحدة في شهر حزيران من السنة ١٦٧٢. ومرد كل ذلك الى ان البورجوازيين الجمهوريين لم يعملوا بتحذيرات « جان دي فيت » ، بل انشغلوا ، قبل أي شيء آخر ، بالتجارة والكسب السريع ، وحرصوا على ان لا يتجاوزوا حداً أدنى في دفع الضرائب ، فرفضوا الاعتمادات المطلوبة للجيش وقاوموا احداث الضرائب المباشرة وأهملوا صيانة التحصينات التي تداعت وتهدمت وباعوا الذخائر من فرنسا . وكانوا قد قضاوا على نظام الجيش لغايات سياسية . فاضطر الضباط المدربون ، وجلبهم من النبلاء والاورانجيين ، الى تقديم استقالتهم ، واستبدلوا ببناء البورجوازيين الذين أعوزتهم الخبرة والروح العسكرية .

تصاعد شعور الجماهير القومي ضد الجمهوريين . وانفصل عنهم بعض امير اورانج المطلق سلطة غليم الثالث
البورجوازيين من تضررت مصالحهم بفقدان المستعمرات الاميركية .
الا ان ذكريات الماضي المجيد واقصاء سلالة اورانج عن كافة الوظائف المدنية والعسكرية في اقليم هولندا ، الذي فرضه الاسكيز في السنة ١٦٥٤ كخبر ضمانه للحوول دون عمل ثاري ، قد عينا أمير أورانج الشاب ، البالغ من العمر اثنتين وعشرين سنة ، لان يكون المنقذ . فتسلم تحت ضغط الرأي العام الشعبي ، منذ الرابع والعشرين من شهر شباط من السنة ١٦٧٢ وظيفة الضابط العام والاميرال العام في الاتحاد . واعادت المدن كلها ، ثم الاقاليم ، ثم المجالس العامة ، ووظيفة القائد العام ، والفت البراءة الدائمة وعينت غليم اورانج ضابطاً عاماً وأميراً عاماً مدى الحياة ، كما كانت الحال قبل السنة ١٦٥٠ . وتجددت الحملة المفرضة ، التي استهدفت « أولدنبرنفلت » ، فيما سبق ، على « جان دي فيت » وأخيه « كورناي » ، فمزقتها الجماهير تمزيقاً . ومنحت المجالس غليم الثالث كافة السلطات التي طلبها وغدا تابعه « فاجيل » رئيس السلطة التنفيذية .

تمتع غليم الثالث بسلطة لا ينازعها منازع حتى صلح « نياج » . إلا ان النصب العام والوضع السلمي قد زادا مرة اخرى من شأن البورجوازية الجمهورية الكبرى الداعية للسلام والراغبة في التعاون مع فرنسا . فتجدد الصراع الطبقي ، كما بين السنة ١٦٠٩ والسنة ١٦١٨ ، على الصعيد الديني .

بيد ان سياسة ضم الاقاليم الى فرنسا التي انتهجها لويس الرابع عشر ، ثم ابطال براءة « فانن » ، الذي أوغر صدور كافة هؤلاء البروتستانت غيظا ، قد أزالا نفوذ البورجوازيين أصدقاء فرنسا . وفي السنة ١٦٨٨ ، جعلت الثورة الانكليزية من غليم الثالث ملكا على انكلترا . فأكسبه ذلك نفوذاً واسعاً ، اذ انه بدأ وكانه المدافع عن الحريات في جميع أنحاء اوروبا وحامي الدين البروتستانتي . ولم تلبث حرب تكتل أوغزبورغ ان اندلعت . فقد غليم

الثالث مرة اخرى ، في الاقاليم المتحدة ، اميراً سيداً حقيقياً كما كان موريس دي ناسو وفرديريك - هنري من قبل . ولجأ إلى الضغط بغية تأمين انتخاب أنصاره قضاة في المسدن ، فامسى الاورانجيون اكثرية في المجالس الاقليمية والمجالس العامة . وحل محل « فاجيل » ، الذي توفي في السنة ١٦٨٨ ، على رأس السلطة التنفيذية ، هنسيوس المتفاني في خدمة الاورانجيين . فمارس غليوم الثالث حتى وفاته (١٩ اذار ١٧٠٢) سلطة تكاد تكون مطلقة .

ان الأقاليم المتحدة تقدم لنا ، من ثم ، على مراحل ، مثل نظام نرى فيه الصراع الطبقي والخطر الخارجي والضغط الشمي تجمل السلطة تتركز في أيدي قائد حرب يتمتع ، بفضل نسبه ، بما يشبه حقاً تفضيلاً ، ومثل نظام اشبه بنظام مطلق مستند الى الرأي العام ، دون ان تحدث تبديلات ذات شأن في النظم الجمهورية البورجوازية . وهكذا فان هذا النظام يتوسط الملكية والدكتاتورية ويتقرب من دكتاتورية « كرومول » حامياً انكلترا بعد فوضى الجمهورية الانكليزية . وعلى الأنظمة الجمهورية البورجوازية ، أمام الازمات الداخلية والخطر الخارجي ، ان تفصح المجال للأنظمة السلطوية .

٥ - الروح التجارية

فكرة عامة ان الهدف الاول هو رفع قوة الدولة ، وبالتالي مواردھا ، الى الذروة ، عن الروح التجارية والتزود بالاسلحة والذخائر والسفن تزوداً مستقلاً عن الخارج . ولكن وسيلة المقايضة الاولى هي النقد المعدني الثمين . فهو ما يتيح ، قبل اي شيء آخر ، الشراء والبيع ، ومن ثم انهاء همة المنتج ، وتنمية الاقتصاد ، والحد من خطورة الجماعات والاضطرابات الاجتماعية والسياسية التي تنجم عنها ، وزيادة قدرة المكلف على الدفع ، وتمكين الدولة من دفع تخصيصات جيوشها ، ومرتببات موظفيها ، والحفاظة على النظام الداخلي والسلامة الخارجية ، وانهاء همة المنتجين مرة اخرى بتسديد ممتاريا . النقد المعدني الثمين هو « دم الاقتصاد » ، لا بل دم الدولة بالذات . ولكن حجمه محدود جداً . فقد توصل بعضهم الى تقدير المعدن الثمين المتداول في اوروبا ، حوالي السنة ١٦٦٠ ، بنحو مئتين ملياراً من الفرنكات (سعر ١٩٢٨) . وهذا يعني ان الدول الاوروبية تصرفت كلها ، حوالي السنة ١٦٦٠ ، بحجم من الذهب والفضة المسكوكة يعادل النقود المعدنية في مصرف فرنسا وحده في اواخر السنة ١٩٢٩ .

اما نتيجة ذلك فقومية اقتصادية وشبه حرب مالية دائمة بين الدول . كل دولة تحاول ايجاد تجارة يكون ميزانها موازياً لاجتذاب المعدن الثمين والاحتفاظ به فيجب من ثم ان تمنع الاستيرادات البذخية ، وان يحد من استيراد المصنوعات جهد المستطاع . لا سيما وانها تنقص حجم عمل المواطنين . يجب ان تلتج المصنوعات في البلاد حتى ولو كلف انتاجها اضعاف الاسعار الخارجية . يجب ان تشرع ابواب البلاد لدخول الحامات ، وانما يجب جهد الامكان

ان تنتج في البلاد المصنوعات الضرورية للدفاع الوطني ، كالصواري ، وخشب البناء ، والقار والقنب ، والقطران ، الخ . في هذا العهد ، وفرت الزراعة معظم المواد الاولية الضرورية للصناعة . فوجب من ثم ، بدون تردد ، ان يعتمد ، عند الانقضاء ، نظام جبركي قاس حيال مزارعي البلاد وفرض رسوم ضئيلة على المنتوجات الزراعية المنافسة او اعفاؤها من كل رسم وتحظير تصدير المنتوجات الزراعية الوطنية او ائصالها بالرسوم ، بغية الحصول على محاصيل زراعية وفيرة بأسعار متدنية تضمن انخفاض سعر كلفة المصنوعات المعدة للتصدير .

فالمهم انما هو زيادة حجم التصدير ما امكنت الزيادة ، وبالتفضيل ، تصدير المصنوعات لان العمل قد رفع قيمتها . ويجب من ثم توفير اكبر عدد ممكن من المنتجين واعتماد سياسة تشجيع زيادة النسل . الا ان التغلب على المنافسة يستوجب بيع النوع الافضل بالسعر الادنى . فيجب من ثم ان تكون نسبة الفائدة متدنية حتى يتفوق المتعهد الى رؤوس اموال لا تجر عليه نفقات باهظة . كما يجب ان يدفع للعامل اجر زهيد وان يبقى مستوى حياته متدنياً . ولكنه اذا لم يسلم بهذا الواقع واستسلم للبطالة في بلاد تفرها المصنوعات الاجنبية اولاً ، والاقتصاد الراكد ثانياً ، ينتهي حتما الى البؤس ، كما ان الدولة التي تفتقر الى القوة ، تتعرض لشر الاخطار اي الغزو والسيطرة الخارجية . اما المتعهد الرأسمالي فيجب على تقيض ذلك إنهاض مته بكاسب وفيرة .

يجب ان يكون هنالك مستعمرات تقدم للوطن الام المواد الاولية ومنتجات الاستهلاك التي تفتقر اليها ، على ان تستغرق بالمبادلة منتوجات الوطن الام للمحافظة على الميزان التجاري . ويجب ان توفر مواد غذائية ، خامات او مصنوعات ، بسم مرتدن ، حتى يتاح اعادة تصديرها . اما المستعمرات المغرية فهي مستعمرات المناطق الاستوائية لان منتوجاتها تختلف عن منتوجات اوروبا . وتعتبر المستعمرة قبل كل شيء مؤسسة تجارية توفر لتجارة الوطن الام المحاصيل التي تفتقر اليها البلاد المنافسة او محاصيل تكون اقل كلفة من محاصيل البلدان المنافسة . هذا كان اساس مذهب الحصرية . تحتفظ الدولة بكافة العلائق مع مستعمراتها . فهي تضمن بذلك اسواق المستعمرات لتصريف محاصيلها الخاصة التي يمكن بيعها بأسعار مرتفعة ، وتشترى فائض محاصيل هذه المستعمرات بأسعار متدنية ، وتميد تصديرها وتستجمع اموال الدول المتعاملة معها ، ولا تعطى المستعمرات سوى قسم من هذه الاموال . وقد نظرت الدول الى المستعمرات ، في الدرجة الاولى ، كما الى وكالات تجارية على السواحل او الجزر ، او حقول مزروعات ، يتعمدها المهاجرون في مناطق اعظم اتساعاً . وليس سوى رجال الدولة الاسبانيين والفرنسيين ، وبين هؤلاء ريشليو وكولبير ، من رأوا ان سكان المستعمرات يجب ان يتمثلوا ويحوتوا الى اسبانيين او فرنسيين وان المستعمرات يجب ان تؤلف ولايات الوطن الام في ما وراء البحار .

ان التجارة بمفهومها هذا تدويل اقتصادي او اقتصاد موجه . فبمقدور الدولة وحدها

تنظيم الاقتصاد والدفع به الى الامام كما هو لائق . وهي تفعل ذلك ، في مرحلة اولى ، في سبيل بلوغ هدف سياسي ، هو قوتها . وهي لا تسعى وراء الازدهار بحد ذاته ، وليس رفع مستوى الحياة غايتها الاولى . فالازدهار وسيلة ورفع مستوى الحياة نتيجة مباركة ثانوية . الجوهر هو قوة الدولة . السياسة تتقدم الاقتصاد . وتعدو الدولة ، في مرحلة ثانية ، تميراً عن البورجوازية التجارية والصناعية الثرية التي هي انتمها وانجحتها ، فيصبح إغراء هذه البورجوازية غاية وقوة ، وقوة الدولة نتيجة . الاقتصاد يتقدم السياسة . الاقاليم المتحدة مثال المرحلة الثانية ، وفرنسا مثال المرحلة الاولى . اما انكلترا فلا تزال بين السنة ١٦٠٣ والسنة ١٦٨٨ ، مثال المرحتين معاً .

مثال الاقاليم المتحدة : جواله البحار فليس للبلاد من ميزة سوى مركزها الجغرافي على البحار الضيقة عند مصب طريق الرين النهرية الكبرى بين بلدان البلطيك وبلدان المتوسط ، وسهولة بلوغ المحيطات . وحين افاح الانتصار السياسي على اسبانيا ، واقفال مصاب الـ « اسكو » ، وتقهر أنفوس ، ان يستفيد شعب نشيط من ذلك ، جعل الهولنديون والزيلنديون والفريزون من انفسهم وسطاء تجارة العالم . انصرفوا الى تجارة تخزين البضائع ، وجمعوا لديهم منتوجات العالم اجمع لمقايضة بعضها بالبعض الآخر بواسطة النقد ولعاده تصديرها . فامسوا جواله البحار . واعتمدوا مبدأ الحرية الضروري لتجارهم . فخالقوا الانكليز بقولهم بحرية البحر . وكانوا في بلادهم ، اقله في المدن الكبرى ، متساهلين نسبياً حتى خيال غير المؤمنين . ومنحت المعاهدة المقودة مع ملك فارس في سنة ١٦٣١ جميع الفارسيين اجازة عامة بالتجار مع الاقاليم المتحدة ومستعمراتها في المحيط الهندي ، كما منحت الحصانة الدولية لملك فارس ، والسكنى على نفقة الجمهورية للتجار الفارسيين والاعفاء من الضرائب غير المباشرة ، على ان يأتوا باعداد كبيرة ويستحضروا مالا وقيراً للشراء وإذناً بممارسة العبادة الاسلامية سراً . هكذا لجأ الهولنديون الى وسائل مختلفة وتوسطوا بين المنتج المحلي والشاري الاجنبي .

الشركات التجارية والدولة ولكن اقتصادهم ليس بالاقتصاد الحر الصرف . فالتجارة البحرية تخضع في الاساس لقوانين الشركات التجارية ولرقابة متبادلة بين الشركات والدولة . ولا عجب في ذلك اذ ان تجارة الافراد الحرة وخيمة العاقبة في عهد يتميز بندرة المعادن الثمينة . فان الافراد ، الذين يسمون كلهم وراء الكسب ، يلقون في اسواق اوروبا وآسيا كميات ضخمة من المنتوجات بالنسبة لكمية النقد المتوفرة . فتتخفف الاسعار ويفلس الافراد وتنتحر التجارة . وفي فترات الحروب الاوروبية ، والمنازعات التجارية في المحيطات ، والصعوبات التي يثيرها الامراء المحليون ، والازمة الاقتصادية ، يكون الافراد عاجزين وقشل التجارة . وليس لدى الدولة من جهتها ، بسبب افتقارها الى الموارد المالية ،

الموظفون والسفن والجيوش والوسائل اللازمة لتنظيم تجارة ما وراء البحار . وبات من ثم لزاماً على التجار ان يتجمعوا ويوسموا الشركات . فتجمعت ست غرف من التجار في السنة ١٦٠٢ وأست شركة الهند الشرقية . وقد ضمت ٧٣ مديراً من مدراء الشركات التجارية . اسندت ادارة الشؤون المشتركة الى هيئة من سبعة عشر شخصاً تمينهم الغرف ، على ان تعين غرفة امستردام ثمانية منهم لانها تتحمل وحدها نصف النفقات المشتركة . وعاد لكل غرفة امر البت في تجارة اعضائها والصفقات الواجب اجراؤها في الهند والمبالغ الذهبية الواجب ارسالها وبيع البضائع المستلمة . وعاد لهيئة السبعة عشر امر البت ، باكثرية الاصوات ، بتنظيم الاساطيل وتحديد خط سيرها وتمرفة البضائع . واستفادت من احتكار الاتجار مع الهند . واعتمدت في المستعمرات مبدأ البحر المغفل وادعت بتحريم دخول الهند على الانكليز والبرتغاليين والفرنسيين . ومارست حقوقاً ملكية ، كالحرب والسلم والمعاهدات مع الاوثان وتمين حكام ومجالس يكون له سلطة القضاء المدني والجزائي في الوكالات التجارية التابعة للشركة . وتجمع لديها اخيراً في الهند ، جيش بري مؤلف من عشرة آلاف الى اثني عشر الف رجل وجيش بحري وضعت تحت تصرفه بين اربعين وستين سفينة ، وباتت ترسل سنوياً الى اوروبا بضائع تتراوح قيمتها بين عشرة ملايين واثني عشر مليوناً ، وتوزع ارباحاً تعادل ٢٥ الى ٣٠ ٪ ، فارتفعت اسهمها من ٣٠٠٠ فلورين الى ١٨٠٠٠ فلورين حوالي السنة ١٦٧٠ .

ولكن صلة وثيقة قامت بين الشركة والدولة . فقد عين حكام المدن المدراء الجدد مدى الحياة . وكان كل المدراء اعضاء في مجالس المدن والمجالس الاقليمية والمجالس العامة . وسيطرت غرفة امستردام في هيئة السبعة عشر كما سيطر اقليم هولندا في المجالس العامة . وكان مصرف امستردام ، الذي يعود تأسيسه الى السنة ١٦٠٩ ، مصرفاً بلدياً . واختير مدراء المصرف من بين الاوصياء على المدينة (الحكام ورؤساء البلدية) ، الذين كانوا في الوقت نفسه مدراء شركة الهند الشرقية . فكان هنالك ، الى حد ما ، تشوش والتباس بين الدولة والشركة والمصرف ، وغالباً ما خطت كلها الخطوات نفسها . ان السياسة والحرب هما اداة التجارة التي تديرها موافقة من الرأسماليين .

اما شركة الهند الغربية ، التي تأسست في السنة ١٦٢١ ، فقد خضعت لتنظيم مماثل ، ولكنه ابدى حرية . يقدم المساهمون الفرنسيون ، كل سنتين الى الحكام ، مرشحيهم لتولي مهام المدراء . ويمين المساهمون لجان مراقبة ترغم المدراء على عرض كافة المسائل الهامة على جمعيات المساهمين . اما مجلس التهمة عشر فيكاد أن يكون عاجزاً . وتقوم الاحزاب في الجمعيات . لذلك كانت سياسة الشركة مترددة وحائرة وكان أقول نجمها سريعاً . اضيف الى ذلك ان البرازيل فقدت في السنة ١٦٦١ وامستردام الجديدة (نيويورك) في السنة ١٦٦٧ . فاقتضى تصفية حسابات الشركة في السنة ١٦٧٤ .

تجارة المادن افقت التجارة البحرية الكبرى الى تكديس المادن الثمينه في
 الثمينه ومصرف امستردام الاقاليم المتحدده ، ولا سيما في امستردام . فقد نقل الهولنديون
 بضائعهم الى غينيا وعادوا منها بالذهب . وموتوا اسبانيا ، حتى اثناء الحرب ، اذ ان نصف
 منتوج مناجم الفضة الاميركية كان يصل سنوياً الى امستردام . وكانت للهولنديين السيطرة على
 تجارة قادش . وبسبب نظام الحصرية اضطروا الى ان يودعوا البضائع لدى الاسبانيين الذين كانوا
 يبيعونها في الهند الغربية ويمودون بآئانها . ومارسوا التجارة المنوعة ايضاً انطلاقاً من جزيرة
 « كوراساو » المجاورة لقرطجنة . فكانت المراكب الهولندية تتخذ من « كوراساو » قاعدة
 لها وترسو على مقربة من الشواطئ الاسبانية ، فيقصدھا السكان في زوارقهم ويتبعون ما
 يحتاجون اليه . بفضل هذا الممدن كله ، كان الهولنديون من الوسطاء بين الهند واوروبالان
 الشرقيين نادراً ما ارتضوا من الاوروبيين بغير المادن الثمينه .

وصدر الهولنديون النقد الممدني ايضاً . فان دور النقد عندم قد ضربت نوداً تجارية شرعية
 الوزن والقياس وثق الناس بها وتهافتوا على طلبها ، كالدنانير التي تحمل رسم الأسد ، في مرافئ
 الشرق الادنى وفي آسيا الصغرى ، والركدالات الفضية في البلدان البلطيقية ، و« الدوقيات »
 الذهبية في روسيا ، و« الدوقيات » الفضية الصغرى ، في الهند والصين . وكان على التجار
 الاوروبيين الراغبين في الاتجار مع هذه البلدان أن يحصلوا على القطع النقدية الهولندية ويأتوا الى
 امستردام ، لهذه الغاية ، ببضائعهم او بسبائهم الممدنية المستطيلة أو بقطعهم النقدية الخاصة .

وكان مصرف امستردام ، الذي تأسس في السنة ١٦٠٩ بناء على طلب تجار امستردام ، يزيد
 من امكانيه الاستفادة من كمية المادن الثمينه هذه بوسائل الدفع التي يوفرها للتجار . فكان
 مصرف تخزين تودع فيه النقود والسبائك الذهبية والفضية المستطيلة . وكان من شأن الثقة التي
 أوحاها ان تدفقت الودائع عليه حتى من الخارج . وكان مصرف صرافة ايضاً يوفر للتجار نقد
 أية بلاد من البلدان ، ويتيح بذلك شراء البضائع من كل منشا ، ويحتذب من ثم التجار الاجانب .
 وكان مصرف دفع بحري توفّر مقابل ، بتحويل حساب لآخر ، ودونما نقل الممدن الذي يستغرق
 وقتاً طويلاً ويستلزم نفقات باهظة ، كافة عمليات الدفع التي يحتاج اليها التجار ، ضمن حدود
 ودائعهم . وقد استخدم المصرف ، في عملياته ، نقداً حسابياً هو الفلورين « بنكوه » ، ثابت القيمة ،
 يعتبر بمثابة كفالة للتجار . ثم أصبح مصرف امستردام ، شيئاً فشيئاً مصرف دين اخيراً . فبدأ
 بإعطاء السلفات لمدينة امستردام في حالة الحرب ، ولشركة الهند الشرقية بغية تجهيز أساطيلها .
 وانتهى ، بعد السنه ١٦٨٣ ، إلى إعطاء السلفات للأفراد أنفسهم .

واستمرت ، إلى جانب المصرف العام ، المصارف الخاصة ، التي كانت تملّك التجار المبالغ
 الضرورية لآكال شحناتهم ، وتحمس السفنجات التي تدفقت عليها من كل مكان وأضيفت الى
 رؤوس الاموال المتكدسة في أيدي الهولنديين .

كانت نتيجة هذه المناصر كلها وفرقة في وسائل الدفع الممتازة التي جعلت البائع يفضل الشاري الهولندي على كل شار سواه ، وأتاحت للهولنديين، في أي وقت، اجراء صفقات كبرى ، وعرض شتى أصناف البضائع بكيات كبرى وبأسعار دنيا . وجرت هذه الوفرة إلى انخفاض نسبة الفائدة . وكان باستطاعة الهولنديين البيع بسعر أدنى وتجميع أموالهم مدة طولى ، كأن يسيبوا التجار الانكليز والفرنسيين إلى تخزين بضائهم في قادش ، ويتفاوضوا في موضوع الصفقات قبل منافسيهم ، ويحددوا آجالاً بعيدة للدفع . وكان باستطاعة الصيارفة الهولنديين أخيراً اقراض ملوك فرنسا وانكلترا وأمراء ألمانيا . وقد أتاحت سلفات المصرف لمدينة امستردام وشركة الهند الشرقية تجهيز الاساطيل والجيوش في الظروف الصيرة . وقد سهلت كميات النقود الكبرى القروض والضرائب وتجهيد الجيوش البرية والبحرية والتحالف مع الدول . وجعلت وفرة رؤوس الأموال من هذه البلاد الصغرى قوة سياسية كبرى .

تتردى الروح التجارية الانكليزية طابعاً مشتركاً . لقد دهش الانكليز من المثال الانكليزي نهوض فرنسا السريع في عهد هنري الرابع . فبرزت فكرة التنظيم ، الموروثة عن عهد اليزابت ، بروزاً شديداً ولفئت انطلاقة التجارة الهولندية الانتباه إلى فوائد حرية التجارة النسبية وفوائد الشركات صاحبة الامتياز . وبدا نمو التجارة ، الذي كان أقل منه في الاقاليم المتحدة ، أشد حاجة إلى تدخل الدولة ، ولكن انطلاقة الرأسمالية التجارية والصناعية الهامة قد أوحى لبعض التجار ، منذ ذلك الحين ، بالحقد على الانظمة والاحتكارات ، وبالميل إلى الحرية ، وبأن التجارة يجب ألا تخضع الا لتشريع عام وبأن هذا التشريع هو من شؤون المجلس التمثيلي .

بذل الملكان جاك الاول وشارل الاول جهوداً كبرى في سبيل التدخل في وثائق الملاحة الحياة الاقتصادية . فقد انصرف إلى هذا العمل المجلس الخاص بعباونه وبنسبة تجارة ، منذ السنة ١٦٢٦ وتسانده الغرفة المكوكبة . وبقيت التجارة البحرية حرة في المناطق القريبة من انكلترا وأسبانيا وفرنسا، وقد استطاع صغار مجهزي المراكب ممارستها دونها صعوبة . أما التجارة البحرية في البلدان النائية أو في البلدان التي ليس بلوغها بالأمر اليسير ، فقد نظمت في البدء بسلسلة من وثائق الملاحة التي لا تختلف وثيقة كرومول الشهيرة (١٦٥١) عنها اختلافاً جوهرياً . فقد احتفظت بتجارة انكلترا مع ممتلكاتها في آسيا وافريقيا وأميركا لسن الانكليز والارلنديين أو للسفن المبنية في المستعمرات التي يملكها المهاجرون . وأوجبت ان يكون القبطان وثلاثة أرباع الملاحين انكليزاً أو رعايا ملك انكلترا . وانقصت عدد السفن التي كانت رهن الطلب ، فرفمت بالفعل ذاته أجور نقل البضائع ووجهت رؤوس الاموال نحو بناء السفن وأفضت شيئاً فشيئاً إلى زيادة عددها وبعده البحارة .

الشركات التجارية
فتأسست بعض الشركات التجارية . وكانت على نوعين : الشركة « المنظمة »
والشركة المساهمة . استفادت الشركة المنظمة من احتكار تجاري اقصى عنها
المنافسين . كل عضو من أعضائها يتجر بامواله الخاصة وينصرف إلى أعماله التجارية الخاصة . الا
ان كل عضو مقيد ببعض الانظمة : البيع بسعر أدنى معين، وعرض أصناف ممتازة . لذلك كانت
المنافسة بين الاعضاء محصورة وكانت الشركة شبيهة بجمعية الصناعيين التي تستهدف اتقاء الكساد
أو فرط الانتاج . انتمى إلى هذا النوع تجار لندن المغامرون وتجار شرقي انكلترا وتجار
« نيوكسل » المغامرون ، والشركة التركية . واستفادت الشركة المساهمة كذلك من احتكار
محصول معين أو منطقة تجارية معينة، ولكن رؤوس الاموال تجمع كلها فتضاعف قوة المشروع .
وقد تأسست في البدء لرحلة واحدة او لمدة محدودة . ثم عدت دائمة بعد السنة ١٦٦٠ ، فاستطاعت
الشركات الاقدام على مشاريع طويلة الاجل . انتمت الى هذا النوع الشركة المسكوبية والشركة
الافريقية وشركة الهند الشرقية الشهيرة التي تأسست في السنة ١٦٠٠ واستفادت من احتكار
التجارة الانكليزية بين رأس الرجاء الصالح ومضيق « ماجلان » ، في المياه الشرقية ، وتمتعت
بمقوق ملكية . وقد درج الملك على منح مساحات كبرى في المستعمرات للافراد أو للشركات
التي توطن فيها المزارعين او المكترين .

الرقابة الاقتصادية
وحاول جاك الاول وشارل الاول تنمية الصناعة عن طريق شركات احتكارية
وانظمة جديدة ومنع الاستيراد . واسند الى عدد غفير من الضباط امر
مراقبة النوعية . ولعل التنظيم في عهد الاستبداد لم يكن دونه شأنًا في عهد كولبير . فقد
صحب السر « جون كولبير » في المجلس التمثيلي جام غضبه بقوله : « ها... ان سيلا من الطفيليات
قد غزا كل البلاد . اعني بذلك المتكربن ... على غرار الضفادع المصرية ، احتلوا بيوتنا ولم يبقوا
لنا غرفة واحدة ليسوا فيها ؛ يشربون في طاسنا ويفترفون من صحيفتنا ؛ يجلسون قرب نارنا ،
ولجدم في طستنا ... وسمونا وختمونا من رأسنا حتى أخص قدمينا » .

ثم استقرت الحرية مع الثورة . فانهار المجلس الخاص وزالت المكوكبة وتلاشى التنظيم
والرقابة . ولكن نوعية المنتوجات انهارت ايضاً . الفت الجمهورية عملياً كافة امتيازات
الشركات . ولكن التجار ، الذين ارتفع عددهم ارتفاعاً كبيراً ، ملأوا الاسواق بالبضائع .
وهجزت الدولة عن تأمين سلامة السفن . فافضت حرية التجارة الى نتائج سيئة .

فرجع شارل الثاني في مهد الاصلاح الى نظام تدخلي ممتدل لأن الطبقات الرأسمالية خرجت
ظاهرة من الثورة ، مع ان هذا الظفر لم يكن حاسماً . تدخلت الدولة ، بصورة خاصة ، بتدابير
عامة ، كالتشريع والجمارك والمعاهدات . واستعان الملك بمجلس تجارة مؤلف من بعض اعضاء
المجلس الخاص وبعض اعضاء الشركات التجارية . قدم هذا المجلس تقاريره للملك الذي اصدر
قراراته النهائية . وتدخل شارل الثاني باعتماد سياسة معاهدات تجارية مع البرتغال واسبانيا

والاقاليم المتحدة وفرنسا والدانمرك (١٦٦٧ - ١٦٦٨) . ونظم التجارة البحرية بوثيقة السنة ١٦٦٥ حول الملاحة ، التي استوحاها من وثيقة السنة ١٦٦٣ التي توسع فيها . فحصر كل تجارة بين المستعمرات واوروبا . غدت انكثراستودعاً ضخماً للسكر والتبغ والقطن والنييلج والزنجبيل واخشاب الصباغة الخ . التي تشتري باسمارمنخفضة في المستعمرات وتباع باسمار مرتفعة للخارج . وغدت المستعمرات سوقاً لا تباع فيها سوى المصنوعات والمواد الغذائية البريطانية . وتواصلت سياسة الشركات صاحبة الامتيازات . وخصت شركة الهند الشرقية ، بصورة خاصة ، بامتيازات جديدة في السنة ١٦٦١ شملت احتكاراً جديداً وسلطات ملكية .

أما في الداخل فقد انخفض عدد الشركات الصناعية الاحتكارية ، التي كانت مدينة بامتيازها لصلك صادر عن المجلس التمثيلي لا لشهادات رسمية صادرة عن التاج . واملت قوانين تنظيم الحياة الاقتصادية . فلم يعد هنالك من تحقيق ولا من رقابة نوعية المنتوجات ورقابة الاسعار والاجور . فباتت الحرية الاقتصادية شبه تامة ، وسارت الاعمال التجارية على هذا المبدأ : الكسب هو وحده ما يوجه عمل التاجر . فبقيت نوعية المنتوجات متدنية .

دانت انكثرا لتدابير التوجيه الاقتصادي بالازدهار الذي بقي دونه في الاقاليم المتحدة على كل حال . وبقيت تجارة شركة الهند الشرقية ادنى الى حد بعيد من تجارة منافستها الهولندية ولم تشكل سوى جزء ضئيل جداً من تجارة الهند البحرية . فهي قد بلغت ، حوالي السنة ١٦٤٤ ، ٥٠٠٠٠٠ جنيه استرليني تقريباً ، كما بلغ عدد السفن المائدة كل سنة من « سورات » الى لندن ٢٠ الى ٢٧ سفينة معدل حمولة كل منها ٥٠٠ طن .

ان النظام الاقتصادي والاجتماعي في فرنسا قد جعل الحاجة الى تدخل
 المثال الفرنسي:
 الكولبيرية الدائمة
 الدولة اشد الحاحاً . فالذهب الذي طلع به « برتلي دي لانفاس » في عهد هنري الرابع ، و « مونكريتيان » (الاقتصاد السياسي ، ١٦١٥) ، وريشليو ، وكولبير ، هو لم يتغير ، كما لم تتغير اساليب الحكم في عهد هنري الرابع ولويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر . ولم يأت كولبير يجديد سوى التوسع في تطبيق نظام كان ملكاً مشتركاً وتقليداً بسبب تماظم سلطة لويس الرابع عشر المطلقة وبسبب حاجات سياسته ، وانخفاض الاسعار المضر بالانتاج ، والازمة الاقتصادية التي كانت نتيجة طبيعية لارتفاع نسبة الوفيات في السنتين ١٦٦١ و ١٦٦٢ . فقد احدث عدة مئات من المصانع الملكية بيتاً لم يكن في فرنسا قبله سوى عدة عشرات منها فقط . ولكن « الكولبيرية » شمل القرن بكامله ، وتنشط كلما توطدت السلطة المطلقة ، في عهد هنري الرابع بعد السنة ١٥٩٦ ، وفي اثناء وزارة ريشليو ، اقله قبل « الاختيار العظيم » الذي آثر الحرب (١٦٣١) ، وفي عهد لويس الرابع عشر بعد السنة ١٦٦١ .

الهدف سياسي قبل اي شيء آخر . يجب الحؤول دون خروج « هذا الذهب وهذه الفضة

من خزائن فرنسا ليثري بها اعداء الدولة ، ومحاربة الاعداء الخارجيين الذين لن يكون
« المكوك » واداة صناعييننا « اقل وبالأ عليهم من السيف » (لافاس) .

« الشركات التجارية هي جيوش الملك ومصانع فرنسا هي رديفه » (كولبير) .

ان باستطاعة الدولة وحدها التغلب على « الصعوبات التي لا يحاول التجار
الادارة الاقتصادية التغلب عليها بنشاطهم الخاص » . لذلك تنظمت ادارة اقتصادية رسمية
كاملة . وكان جهازها الرئيسي مجلس الملك الذي عاونه مراقب التجارة العام ، « لافاس » ،
منذ السنة ١٦٠٢ حتى السنة ١٦١٢ ، ولجنة التجارة منذ السنة ١٦٠١ حتى السنة ١٦١٦ ،
وريشليو ، ناظر الملاحة والتجارة ورئيسها وسيدهما الاعلى . ولكن السلطة المركزية ما زالت
متشعبة . فقد احتفظت المجالس التمثيلية وغرف المحاسبات ، الخ .. بصلاحياتها الاقتصادية ،
وليس بعد من اجهزة ادارية جديدة ذات اختصاص في الولايات . أما بعد السنة ١٦٦١ فقد
انتقلت معظم الصلاحيات الاقتصادية تدريجياً الى مراقب المالية العام ، كولبير . الا ان المستشار
وأمين سر الدولة في بعض الولايات ولو تلييه لوفوا في مصالح الجيش الصناعية ، قد احتفظوا
ببعض المهام الاقتصادية . وقد عاونهم مجلس ملكي للتجارة ، واسندت امور التحقيق الى
الوكلاء ومفتشي المصانع العامين .

نظمت الدولة الاستهلاك بقوانين تقيد النفقات المفرطة ، والتجارة بتحظير المعادن الثمينة
والنقود المعدنية ، ومنع الاحتكار ، وصفقات العينات ، وشركات المشترين وتحديد عدد الوسطاء
بالابقاء على المنافسة بفضل ايجاب البيع للاسواق في ايام ومواعيد معينة . ونظمت الدولة
الصناعة بقواعد عامة تحدد الطول والعرض والوزن والنوعية والصقل . وقام المفتشون العامون
وكتابة المصانع بزيارات متكررة الى المصانع والمساكن . أما المعقوبات التي تعرض لها المخالفون
فقرامات نقدية وحجز وهدم ، واخيراً (١٦٧٠) نصيبة وغل .

كان الهدف الأول ، بحسب التسلسل المنطقي ، منع اخراج الأموال .
لذلك بات من واجب الدولة احداث صناعات جديدة حتى لا تضطر الى
الشراء من الخارج . وانما قد يحدث ان لا تكون لهذه الصناعات سوق
داخلية فتصبح الدولة اذ ذاك زبونها الوحيد . والفلاحون لا يبتاعون مصنوعات حديدية كثيرة
كما ان أدوات زراعية كثيرة ، كالمساحي والمقالب ، تصنع من الخشب . وغالباً ما تصنع البواسن
نفسها من الخشب الصلب . فالدولة تكاد تكون السوق الوحيدة لصناعة الحديد ، لاجل سفنها
واسلحتها ومعداتها وقصورها حيث يعالج المهندسون الحجر بالحديد . وكانت الدولة ، منذ السنة
١٦٦٥ حتى السنة ١٧٢٦ ، الزبون الوحيد لصناعة التنك في « بومون » . وخلاصة الكلام ان
النقطة الاولى ، في التسلسل المنطقي ، هي ان يدور المال في داخل المملكة ، وهي الدولة من
ينظم حركته الدائرية الضرورية للحياة : ضرائب ، صفقات الدولة ، تسديد حساب الميآرة ،

الدولة
معدنة الصناعات

اجور العمال ، ضرائب ، وهي حركة تفضي الى توفير المصنوعات والمواد الغذائية في كل مكان .
أما النقطة الثانية فهي منطقياً زيادة هذا الحجم من المال بمضاعفة البيع الى الخارج . فيتضح من
ثم ان الصناعة هي أهم عناصر المال الفرنسي .

الدولة تستحث انشاء المشاريع . عملاء الملك يبعثون عن التجار الراغبين في انشائها .
الملك يرفع من مرتبة النشاط الصناعي في السلم الاجتماعي بترقية اصحاب المشاريع الى طبقة
النبلاء ، وبعلاوة ان صناعة الزجاج وصهر الحديد والتجارة الكبرى لا تحط من مقام النبلاء ،
وبزياراته الى المصانع مع حاشيته ، سواء دعوي هنري الرابع أم لويس الثالث عشر أم لويس
الرابع عشر ، وباطلاق اسم الصناعة الملكية على بعض المشاريع والسماح لها باستخدام شعار
التيجان المزدانة بالزئبق .

والدولة تؤمن حياة المشاريع الجديدة بتوفير الوسائل الضرورية لها الى ان يصبح المشروع
قادراً على الحياة بوسائله الخاصة . فعملاء الملك يحثون عليه النبلاء وكبار الاكليروس والمجالس
الاقليمية والمدن على تقديم رؤوس الاموال . والملك يرغم كذلك ، على هذا العطاء ، رجال المال
المحولين جل اهتمامهم الى التزام الضرائب والقروض الملكية ، ووسائل تخزين الاموال ، فيكشف
وجهم ولكنهم يمثلون بكل حقارة . كما ان الملك يخفض نسبة الفائدة القانونية ، الى ٢٦ ، ٦ /
في السنتين ١٥٩٧ و ١٦٣٤ ، والى ٥ . / . في السنة ١٦٦٨ . ويحاول تخفيف الدخول الملكية
والضرائب المباشرة ووفاء ديون المدن والجمعيات . ويمنح المشاريع ذات الامتياز اعفاءات اميرية
ومساكن وابنية وتمويضات ادوات ومساعدات للاتفاق على التأسيس أو لتغذية رأس المال ،
وتمييزات لاسكان العمال والعمال المتدربين وتغذيتهم .

ويوفر الملك اليد العاملة اللازمة للمشاريع . فكولبير يعتمد سياسة تشجيع النسل ، ويعفي
من الضرائب ، الى حين ، المتزوجين في سن العشرين والعائلات المؤلفة من عشرة اولاد فما فوق .
والملك يمنح هجرة العمال لأن عملهم حق من حقوقه . والملك يجمع المتسولين في مستشفيات حيث
يكرهون على تعلم مهنة من المهن . وكولبير يلزم المتعطلين والعوانس وسكان الاديرة بالعمل
للمصانع ، والآباء والامهات في مختلف الطبقات بارسال اولادهم الى التدريب . والملك يستحضر
الاختصاصيين من البندقية و فلاندر ، واسوج والمانيا ويمنحهم ويزوجهم ، ويفرهم بالآلته
ولكنه يشترط عليهم تدريب العمال الفرنسيين والبوح بأسرارهم .

وتضمن الدولة ، للمشاريع ذات الامتياز ، حرية العمل ضد نقابات أهل الحرف الواحدة :
حق استخدام ما يلزمها من عمال وعمال متدربين ، وحق انشاء المصانع والمستودعات التي تحتاج
اليها . ويمررها من الانظمة النقابية ويؤمن لها سلطات قضائية خاصة ، كطلب حكم قصر
العدل أو مجلس الملك .

وتؤمن الدولة ترميم المشاريع بالخدمات بحرية نقلها واعضاؤها من الرسوم الجركية والاجازة

بالتزود بها من الاحراج الملكية .

وتؤمن الدلة التعليم التقني . فالمتدربون يتمرنون في مصانع « اللوفر » و « التويلري » و « غوبلين » والمصانع الملكية ، ومصانع المستشفيات ، ومدارس بناء السفن وعلم المياه السطحية في المرافىء . وبإيعاز من كولبير تولت اكااديمية العلوم اصدار كتاب « وصف الفنون والمهن » (١٦٧٥) وكتاب « مجموعة الآلات » (الجزء الاول ، ١٦٧٧) . وظهرت كتب تقنية : « التاجر الكامل » ، « لجاك سافاري » (١٦٦٩) ، و « الحسابات المضبوطة » « لباريم » ، وتولت « صحيفة العلماء » اطلاع القراء على الطرائق الصناعية الجديدة . وانصرفت الاكاديمية الى محاولات الاختراعات الآلية : الآت رفع البضائع وتنسيقها ؛ آلات البسدر والحصاد والتقنية والطحن ؛ شتى انواع المناويل . فقد رفعت احدى الآلات المثلث القائم في اعلى اللوفر الذي وزن ١٠٠٠٠٠ كيلو غرام . فاعتقد « برّو » ان عهد الآليات سيبدأ قريباً .

وتؤمن الدولة الاسواق للشاريع ذات الامتياز : طلبات ، احتكار البيع لفترة معينة ، حماية المنتوجات في السوق الداخلية بالترعفات الجمركية المرتفعة ، منع البضائع الاجنبية .

هنالك امثلة مختلفة عن المشاريع صاحبة الامتيازات . فالدولة تحمي
أمنة المشاريع
صاحبة الامتيازات
« المصانع اليدوية الملكية » ، وهي مجموع مصانع لصناعة معينة في مكان معين . وما صناعة الفلانس والجوارب في « طروا » سوى مجموع ارباب المهن الذين يعملون في هذه الصناعة في طروا .

وتحمي الدولة شركات التوصية ، ثم الشركات المسامة بعد السنة ١٦٧٣ . يشترك الموصلون باعداد محدودة مع تجار صناعيين : اربعة شركاء في مصنع « فان روبيه » في « ابفيل » . أما في المناجم وصناعة التعدين الكبرى وصناعة الاصواف ، فالشركات شركات حقيقية تضم تسعة مساهمين واثنى عشر وسبعة عشر مساهماً ، كشركة « داليان دي لا تور » ، جابي الاموال العام في مقاطعة « دوفينه » ، التي تخصصت في صناعة المدافع والمراسي والاسلحة والمصاهر . وفي بعض الاحيان تكون الدولة تاجراً - صناعياً في مصانع الدولة . ففي مصنع « غوبلين » وهو مصنع مفروشات التاج ومدبجاته ، اثنان وعشرون رئيس مصنع . الدولة تفاوضهم قطباً . تقدم لهم المناويل وتبيع منهم الحامات وتقرض عليهم الرسوم الايجازية والرسوم النهائية . ويفاوض رؤساء المصانع العمال ويقدمون لهم سلفات مالية .

ومنالك اخيراً ادارات ملكية . فالدولة تحقق احياناً تأميمات حقيقة كما حدث في بعض الصناعات الحربية مثلاً ابان الحرب الهولندية . صودرت المصاهر في مقاطعة « نيفرنيه » . وتولى ادارة الانتاج مهندسون وعمال تابعون للبحرية . وفرض على كل مصهر تسليم وزن معين من المصنوعات . وحددت بكل دقة ارباح اصحاب المصانع والاجور واثان الحامات . وكانت هنالك ادارات اخرى ايضاً .

هنالك ثلاث طرائق مختلفة للانتاج . الانتاج في المصانع الفردية الصغرى
اولاً . ثم انتاج المصانع الصغرى التي تشتغل لمعمل يجري فيه تركيب القطع
والصقل والتحويل . وكانت هذه الطريقة اكثر الطرائق رواجاً لانها تتيح
النقل الهزأ . هكذا استخدمت دار الصناعة البحرية في « روشفور » المدين الذي تنتجه مصاهر
« انغوموا » و « ليموسين » و « بريغور » ومنطقة « اللوار » واصبحت سوقاً له . وهكذا
تخصص كل مصهر في مقاطعة نيفرنه في جزء من اجزاء المرساة التي تجمها مصانع التركيب في
« امفي » و « كوسن » . وفي صناعة الاصواف انجز الغزل والنسج في مصانع عائلية صغرى ،
والصقل والصبغة في المعمل . فازداد عدد الصناعيين اليدويين المستقلين لان صاحب المشروع
الرأسمالي يبحث في الارياف عن يد عاملة اقتصادية وطبعة قارس في المنزل عملاً عائلياً غالباً ما
يكون موسمياً . وفي بيكارديا انشء في الارياف ١٩٠٠٠ منوال من اصل ٢٥٠٠٠ . وأفضت
المشاريع ذات الامتياز الى تنمية العمل الحر . فان عشرة تجار صناعيين في « اميان » يؤمنون
الحياة لـ ١٠٠٠٠٠٠ شخص يجمعون بين عمل المناويل ليلاً وعمل الحقول نهاراً . وهنالك اخيراً
معامل حقيقية تضم عدداً كبيراً من العمال . ففي عهد هنري الرابع ضم مصنع انسجة « فولف »
الكتانية الناعمة في « سان - سفر » في « روان » ٣٥٠ منوالاً و ٥٠٠ الى ٦٠٠ عامل مجموعين في
ابنية يحيط بها سور مقفل . وفي عهد لويس الرابع عشر ضم مستشفى « سلبتيرير » العام ١٨
مصنعا عمل في بعضها أكثر من ٢٠٠ عامل (حتى ٢٩٢) .

وكان الملتزمون من النبلاء أو من كبار ذوي المراتب في الكنيسة أحياناً . وقد يحدث ذلك
في المناجم والمصاهر ومصانع الزجاج ايضاً . اما اصحاب المشاريع ، من أمثال الدوق « دي
لورين » ، والدوق « دي مركور » ، والدوق « دي مونييسيه » ، والكردينال « دي غيزه » والكردينال
« دي ريشليو » ، واعضاء المجالس التمثيلية ، فقد استثمروا مشاريعهم استثماراً مباشراً أحياناً .
الا انهم لزموها تازيماً في اغلب الاحيان . يقدمون الابنية والادوات . اما الملتزمون فبورجوازيون
ابناء تجار يستعينون بخدمات مدراء تقنيين . فهناك من ثم ثلاث فئات : اصحاب المشاريع ،
الملتزمون الرأسماليون ، والتقنيون .

وقد بولغ في تقسيم العمل . فهناك ، في مصانع النسج مثلاً الغزالات ، والفصالات ،
وطارقوا الصوف ، والمنفوشون والحماكة والجزازون والصباغون والحلاجون والقصارون .

نحن نقتصر إلى الارقام حول الانتاج . ففي ليون كان « فورتييه » يصنع اربعمه أزواج جوارب
مقابل ثلاثة يصنعها اصحاب المناويل المهلئين . ولكن الانتاج قد بلغ شأواً بعيداً على كل حال .
ففي اميان ، انتج « فان روبيه » ، في عهد كولبير ١٢٠٠ قطعة من الجوخ الناعم سنوياً . وفي
بيكارديا انتج ١٠٠٠٠٠٠ عامل ١٨٠٠٠٠ قطعة من الاقمشة . ولعل انتاج الملكة كلها ، في جميع
انواع المشاريع ، بلغ مليون قطعة من الجوخ سنوياً .

الدولة والنقابات لم يكن المشروع ، في نظر الحكومة ، سوى تدبير مؤقت ، اذ كان من المفروض ان تتخذ الصناعة ، بعد تأسيسها واستقرارها ، الشكل النقابي . فقد حاولت الدولة تميم النقابة التي رأت فيها ، بانظمتها ووكلائها وحراسها المحلفين وجمياتها وانتظامها ، مساعداً للسلطة . فصدرت في السنتين ١٥٩٧ و ١٦٧٣ ، براءات تجمل العمل النقابي الزامياً ، فاخفقت . الا ان عدد المهن النقابية ، وان بقي متدنياً ، قد ارتفع ارتفاعاً كبيراً وشمل اعظم المهن.شأننا .

فرضت الدولة الوصاية على النقابات. فقد احتفظت لنفسها بحق الموافقة على الانظمة الاساسية ، واخضعت المهن لسلطتها المطلقة . وراقب عملاؤها الانتخابات . كما ان الدولة توصلت الى تقسيم ارباب المهن . وأعادت الى ما لا نهاية له انتخاب قلة من أزياء ارباب المهن للوظائف النقابية . ولم تقبل في الهيئات البلدية سوى اغنياء ارباب المهن النقابية الهامة وجعلت منهم ارستوقراطية تستدعى الى جمعيات الاعيان والمجالس الاقليمية ويسمح لها بارسال وفود لمهابة الملك . واجازت لارباب المهن تخفيض عددهم بالمبالغة في الموجبات المفروضة على من يرغب في ان يصبح رب مهنة . وزاد الملك من خطورة التفاوت الاجتماعي . وحاول ان يحصر الفوائد في عدد ضئيل من ارباب المهن وان يميز بينهم اقلية من الاغنياء المتفانين في خدمة الحكومة . وهذا ما عناه التطور الاقتصادي على كل حال . ففي ليون جعل ارباب التجارة من الملتزمين رفاقاً عاديين . اما الانتاج لاسواق اعظم اتساعاً فقد افضى الى سيطرة الوسطاء .

الدولة والتضحية بالعمال لاجل الانتاج وزاد الملك من خطورة التباعد بين ارباب المهن والعمال . ففسد ضحى العمال مادياً لمصلحة الانتاج وتخفيض كلفة الانتاج . وكان العمال جنوداً في جيش صناعي اسندت اليه مهمة تأمين عظمة الدولة وقوتها . فبات لزاماً ، بسبب تقلبهم وتسردمهم وتبدلهم ، ان يدربوا على عمل متصل ونسق سريع ومستمر وفعوية فضلى . فغضهوا من ثم لنظام حديدي اشبه بنظام الحياة الرهبانية .

أضف او ذلك ان الدين ، الذي يوجب كمال القيام بالواجبات اليومية ، قد كان عوناً للانتاج . ففي المعامل المركزية للمشاريع ذات الامتياز ، وفي المستشفيات العامة ، يحضر العمال القداس يومياً ويباشرون العمل برسم اشارة الصليب وتلاوة صلاة معينة. الاعتراف والمناولة الزاميان في الأعياد الكبرى . وتوافق وجبات الطعام قراءات تلقوية . الثروة متنوعة في المصنع ، الا ان باستطاعة العمال ترتيب الااشيد باصوات خافتة .

يتمتع المدير بجزء السلطة في مؤسسته . العمال يشتغلون تحت رقابته ورقابة معاونيه . يعملون بالقبالة ، مما يضاعف الانتاج. يعاقبون بالغرامات المالية والمجدة والغل والالقاء من اعلى الصواري والتعليق على أعواد المشائق ، على تأخرهم وتبدهم وكلامهم البذيء وتجديفهم وغشهم وعصيانهم وسكرهم وتردهم على البيوت المظفة والحانات والمحارات ووقاحتهم في الكنائس وتسردمهم وكل

ما قد يكون سبباً مباشراً أو غير مباشر لانخفاض الانتاج أو ارتفاع النفقات الذي قد يحملهم على المطالبة بزيادة الاجور .

الاجور ضئيلة . يوم العمل يستغرق ما بين اثني عشرة ساعة وستة عشر ساعة ، ولا يتوقف العمل الا اثناء الوجبات التي يخصص لها ثلاثون أو خمس وأربعون دقيقة . العامل يستغل بواسطة اجره : الشركة تدفع له حقه مواد غذائية او مصنوعات تخمن اثنان كما يطيب لها التخمين . والدولة تشل امكانيات العامل الدفاعية . تحظر عليهم الجميات والدسائيل . ففي « روشفور » طالب « دي ترون » بسجن صاهري المراسي الذين اشتكوا من انخفاض اجورهم . وقد اوجب على ضباط القضاء تقديم المساعدة للمتزمين كلما طلبت بهم . ان كسب رب العمل ، وهو مصدر نشاطه ، يتقدم بالضرورة على كل شيء آخر .

أما عمال المشاريع ذات الامتياز فيمفون من الضرائب والترصد والحراسة والخدمة العسكرية ، وتقدم لهم المساكن مع حديقة صغيرة في الاغلب ويتقاضون منجاً عند الزواج وعند ولادة اباكرهم ويستفيدون من الاسعافات الطبية . وباستطاعتهم ان يصبحوا اربابهم من دون ان يستلزم ذلك منهم طرفة رائحة أو نفقات خاصة .

ويخضع ضباط القضاء رفاق النقابات والعمال المستقلين لنظام مماثل باستثناء الامتيازات . التدريب يستغرق مدة طويلة (خمس سنوات) . التكتلات والاضرابات متنوعة . على العامل ان يتقدم خطياً بطلب صرفه من الخدمة كلما تبدل رب مهنته ، وهذا ما يبادل بطاقة العمل النابوليونية . في السنة ١٦٦٦ التي عشرون عيداً من أعياد البطالة ، فأزل عددها الى ٩٢ . النظام العام هو لا تبدل فيه .

دولة والزراعة وجدت الزراعة تشجيعاً لها في انطلاقة الصناعة وتزايد الطلاب عليها . استورد كولبير الاكباش من انكلترا واسبانيا بنية تحسين الاجناس الوطنية . ونشطت الدولة الزراعات الصناعية ، العظم والقوة والكثان والقنب والتوت ودودة القز . وقدم الملك البذار والماشية للفلاحين وأعفاهم من الضرائب في سنوات القحط وطلب منهم الخنطة والمشروبات الروحية والمحور والمقددات ، لاجل الجيش والمشاريع العامة . فتواصلت من ثم اعمال اصلاح الاراضي تتولاها جمعيات الفلاحين أو البورجوازيون الميسورون كالاطباء والتجار وضباط القضاء السيدي الذين يقومون باستثمار الاراضي الجديدة . وانشأ بعض الاسباب استثمارات جديدة فأحيوا الارض وخططوها وأعادوا تجهيز المزارعين بمحوانات القرن وهموا الاستثمارات المضاعفة الانتاج واستولوا على بعض الاراضي المشاعية بالاختيار ووضع اليد . فالغت الحكومة ملكهم حيناً (١٦٠٠ ، ١٦٢٥ ، ١٦٥٦ ، ١٦٨٣) واجت عليه حيناً آخر (١٦٦٧ ، ١٦٦٩ ، ١٦٧٧ ، ١٧٠٢) بحسب ميلها الى حماية الفلاح الصغير أو الى زيادة الانتاج .

الدولة والتجارة الخارجية
نظمت التجارة الخارجية ، كما في انكلترا والاقاليم المتحدة ، بوثائق
ملاحه (قانون « ميشو » ، ١٦٢٩ ، التعرفة الجركية ، ١٦٦٤)
وشركات تجارية ، وحماية جركية (تعرفه ١٦٦٤ وتعرفه ١٦٦٧) لم يتوصل الملك الى فرضها في
مناطق حدود المملكة ولم تشمل الولايات كلها . وازداد حجمها بفضل المستعمرات . وقد حلم
ريشليو وكولبير يجعل مستعمرات المناطق المعتدلة ، ككندا واكاديا مثلا ، ارضا فرنسية
جديدة .

جاء النجاح عظيما . فاكتمت المنتوجات الفرنسية شهرة النوعية الجيدة . وحوالي السنة
١٦٧٠ صدرت الاجواخ للفرنسية مثلا الى ايطاليا ، واسبانيا ، والمانيا ، وموانئ الشرق
الادنى ، والهند .

٦ - الدعاوة الملكية

لقد سعى الملوك وراء استعادة وحدة المشاعر المواثية للملكية المطلقة . فالآداب والفنون
والدين يجب ان تقرب باستمرار من الخدمة العامة . والقوانين يجب ان تخلق في رعايا الملك ميلا
الى النظام وتسلسل السلطة وتعيد اليهم توازنهم الداخلي وتسهم في توحيد نزعاتهم . فاضطر
الملوك الى تشجيع الكلاسيكية التي تعتبر علم سنن جمال الوحدة . ويكفي هنا ان تقدم مثل
فرنسا . ففي فترتين مختلفتين ، اي بين السنتين ١٦٣٠ و ١٦٤٠ ، والسنتين ١٦٦٠ و ١٦٨٠ ،
رافقت غلبة الكلاسيكيين على منافسهم سيطرة السلطة المطلقة في هذه البلاد بفضل الحماس
الملكية . وقد حاولت الحكومة شيئا فشيئا ، ايقاف اتباع الملك في وجه اتباع الأسياد من
الفنانين وأهل الأدب ، ثم حل التبعيات الثانية بحيث لم يبق من نصير للآداب والفنون ، في عهد
لويس الرابع عشر ، سوى الملك .

الدعاوة الادبية
الدولة تراقب المطبعة والمكتبة . وتحاول تحديد عدد اصحاب المطابع
لمراقبتهم مراقبة اجدى . مستشار فرنسا ، ثم الملك منذ السنة ١٦٦٦ ،
يستقبلان اصحاب المطابع الجديدة . ولكنها لا يستقبلان منهم سوى عدد ضئيل . فمذ
السنة ١٦٦٧ حتى السنة ١٦٧٦ هبط عدد المطبعين المكتبيين ، في باريس ، من ٨٤ الى ٣٦ .
وقد جمعوا في المدن الكبرى وفي احياء خاصة ، تحت رقابة ضباط القضاء . وحظر على الاديرة
والكليات والافراد اقتناء المطابع .

مستشار فرنسا هو وحده من يرخص بالطبع . اسندت مراقبة المطبوعات الى كلية اللاهوت
في باريس اولاً ، ثم مارسها ، منذ السنة ١٦١٢ ، مراقبون ملكيون . منعت كل المنشورات التي
تمالح شؤون الدولة وكل المؤلفات التي تهاجم الجلالة الملكية والاخلاق والدين . وراقب الضباط

الملكيون البيس وبيع التجول والمستودعات وطاردوا مؤلفي الاعلانات الشتمية والاغاني والاهاجي والكتب المنوعة وعاقبهم بالغرامة المالية والسجن والنفي والاشغال الشاقة . أما المؤلفات التي تشكل خطراً كبيراً فيحرقها الجلاد بيده .

الدولة تراقب الصحافة وتوجهها . فهي من اوحى بـ « الماركور الفرنسي » منذ السنة ١٦١١ . كما ان الاب « جوزيف » ، صاحب النيافة الرمادية ، قد اسهم في الادارة . وكان لريشليو صحافيون رهن اشارته ، « فنكان » ، « بليتييه » ، « فرييه » ، « صوفي » ، « رينودو » . وحين اسس « رينودو » « جريدة فرنسا » ، في السنة ١٦٣١ ، اعد له ريشليو ولويس الثالث عشر مقالات غير رسمية .

الدولة تراقب تمثيل المسرحيات . فعلى الممثلين ان يعرضوا المسرحيات والادوار على وكلاء الملك في المحاكم العدلية . ويسهر الضباط الملكيون على الامن اثناء التمثيل .

كان هنري الرابع شعراؤه الخاصون ، « شعراء اللوفر » ، « برتو » ، « فوكلين ديزيفتو » ، « دني برون » ، « مالرب » . وقد نظموا الشعر بناء على طلب الملك ولخدمته ، والفوا الاناشيد والقصائد القصيرة وقصائد المناسبات ، ولادات العائلة الملكية وأمراضها ووفياتها وانتصاراتها . ولكن الملك قد ترك شعراء عديدين يدخلون في خدمة العظمة .

حاول ريشليو ، على نقيض هنري الرابع ، جمع اهل القلم ، ما استطاع الى ذلك الاكاديمية الفرنسية سبيلا ، في خدمة الملك . وجد بين الماربيين اعظم مساعدي الملكية تفانياً ، وبين الملحدين ايضاً ، لأن هؤلاء يطمحون الى ارسنوقراطية الفكر ويزدرون بالجمهير والارتيابين ، فساروا بسهولة وراء السلطة المطلقة الظاهرة . علم ريشليو ، عن طريق « يواروبير » المقرب اليه ، ان اشخاصاً عدة يجتمعون ، منذ السنة ١٦٢٩ ، عند احد امناء مير الملك ، « فالتنين كونرار » ، للتداول في شؤون الادب . ففرض ريشليو عليهم ، في الاشهر الاولى من السنة ١٦٣٤ ، ان يؤلفوا جمعية صاحبة امتياز ، الاكاديمية الفرنسية ، استأثر هو بلقب ودور حاميتها ، وعززها بثلاثة من مستشاري الدولة وبمحافظة اختام الملك . وقد وقعت الشهادات الملكية بذلك في ٢٥ كانون الثاني ١٦٣٥ .

عينت للاكاديميين مرتبات شهرية وخصصوا بانعامات . فتوجب عليهم من ثم التفتي بجد الملك ووزيره . في السنة ١٦٣٥ نشروا « البارناس الملكي » تجيداً « لمآتي الملك المسيحي جداً والفاضل جداً لويس الثالث عشر » ، و « قربان عرائس الشعر » تقريظاً جماعياً « للكردينال العظيم ريشليو » . واليههم ينتسب بعض من وقفوا في وجه الصحفيين الاسبانيين والفنكيين : « هاي دي شاتليه » ، « جان سيلون » ، « مستشار الدولة » ، و « جان سيرمون » ، ابن شقيق مرشد الملك .

اراد ريشليو ان تجعل الاكاديمية من اللغة الفرنسية والادب الفرنسي اللغة والادب الاولين

في أوروبا ، « هذه اللغة التي نتكلمها والتي قد يتكلمها كافة مجاورينا قريباً اذا استمرت فتوحاتنا كما بدأت » . وقرر الاكاديميون « وضع القواعد لمفرداتها وجمعها بقاموس مستفيض واجرومية واضحة جداً ، ثم العمل على « وضع علم بيان وعلم قريض يكونان دستوراً لمن يرغب في الكتابة شعراً أو نثراً » ، واخيراً تقديم نماذج النثر الفرنسي المنمق بخطبة اسبوعية . وفي السنة ١٦٣٧ تقدمت الاكاديمية بملاحظاتها حول « السيد » .

ان حماية ريشليو جعلت أهل القلم يشعرون بكرامتهم ودفعت بهم الى الانتاج . فسياتة وحروريه جعلت الناس يعمشون في جو من التوتر الادبي والتصميم على النصر والمزة القومية ولا « يقنخرون بالانتساب الى شطب عظيم والاسهام في عمل يسجله التاريخ » . ففجرت الانطلاقة القومية المؤلفات الادبية .

ما زالت الاكاديمية الفرنسية جمية خاصة تحميها الدولة . وحسين توفى المستشار « سيفيه » في السنة ١٦٧١ ، امم كولبير الجمعية ، ووضعها تحت حماية الملك ، وقدم لها اللوفر منتدي ، وخصصها باعتادات مالية لكتبتها وقرطاسيتها وقدفتها وانارتها ، وبمكافآت الحضور لاستمجال العمل . فاعتبرت الاكاديمية انها « خادمة » جلالته . واستمرت على جعل الفرنسيين اكثر قدرة على العمل لاجل مجد الملك بمرفتهم اللغة معرفة فضلى » .

« كل مفردات اللغة وكل مقاطعها تبدو لنا ثمينة لاننا ننظر اليها كما الى ادوات يجب ان تستخدم لاعلاء مجد حامينا العظيم » (راسين) .

مجد الملك بشتى انواع التقاريط . وقد وضع شابلين لائحة بالمؤرخين والشعراء الواجب منحهم الانعامات ، ضمت عدداً كبيراً من الاجانب ، الفلورنسيين والهولنديين والامان . فتلقوا سفنجات واشارة لى « السلوك الواجب عليهم سلوكه للاعراب عن امتنانهم » .

دافعت الاكاديمية عن مذهب « النظاميين » . فاذعن له الكتاب الفرنسيون كي يصبحوا اكاديميين . هكذا قضت « الحكمة » . ويتضح من كل ذلك ان الدولة عززت موقف المجتمع من الحس المستهجن .

لم يكن من وسيلة لانطباع عظمة الملكية في النفوس خير من البناء
دمارة الفنية :
هنري الرابع والتعجيل الملكي
وتزيينه الذين كانا سبيلاً « للتأثير على عامة الشعب واستألتها »
ايضاً . أراد هنري الرابع ان يدخل على المدينة نظام الدولة
بالذات . يجب ان يسيطر العقل على المدن سيطرته على الفكر . والعقل يعبر عنه بالهندسة . لذلك
فان الملك يريد تحقيق انشاءات كبرى متناسقة الاجزاء وساحات عامة هندسية الشكل وشوارع
ومجموعات بناية متقابلة ومتناسبة . ولكن كما ان الملك في الدولة يرئس الامة ، وكما يجب ان
تخضع الافكار الثانوية المعارضة للفكر الرئيسي ، كذلك يجب في المسدن ان تنظم المجموعات

البنائية حول بناء مركزي ملكي حتى يحترم التسلسل في المدن كما في الدولة .

لاجل توفير الهواء لاحياء باريس التي يرتفع عدد سكانها بسرعة كلية والتي تنبعث منها روائح كريهة جداً ، قرر هنري الرابع فتح ساحات عامة وشوارع كبرى ومنتزهات . فأمر في شهر حزيران من السنة ١٦٠٥ بإنشاء الساحة الملكية . وقد أنجز بناء الملك وبناء الملكة في السنة ١٦٠٧ ؛ وبيعت لبعض الاسياد العظام والبرلمانيين والضباط اراض تتسع لاربعة وثلاثين بناء . الساحة الملكية هي نموذج ساحات النهضة وساحات الملكية المطلقة . ان الانسان ، بحسب روح النهضة ، يسيطر على هذه المساحة المغلقة ، المحدودة ، المتميزة ببيوت غير مرتفعة . وبحسب روح المجتمع المنظم والتسلسل السلطات ، تحيط الزنازير الحجرية الافقية وشبكات الزوايا الحديدية بالجدران القرميدية وتقابل الاشكال وتتنضض . وبحسب روح السلطة المطلقة تنتظم البيوت المتأصلة انتظاماً متناسقاً بالنسبة لبناء الملك والملكة ؛ الساحة العامة عارية تتجه الشوارع الى وسطها حيث سينصب في المستقبل تمثال الملك وحده ، مركز كل شيء ، المشرف على كل شيء ، الموله ، الاله على الأرض . واحدهت ساحات عامة اخرى ماثلة .

في هذه الاثناء ، اظهر الرسامون للفرنسيين كيف يجب عليهم ان ينظروا الى الملك . ففي اللوفر ورواق الملوك ، روت الصور التي تزين السقوف قصصاً مستعارة من الميثولوجيا والمهد القديم ، ومثلت اباطها بصورة هنري الرابع ، تأليف كلا المصريين القديمين ، الانسان الكامل ، المستنير والمسير بروح الله .

وقد احب هنري الرابع ، على غرار لويس الرابع عشر من بعده ، ان يربي ابنه بنفسه للاجانب ويدهشهم ويرهبهم بجلاله . ولكن كبار اعيان المملكة نسجوا على منوال الملك ، كالدوق « ديبرون » في قصر كاديبلاك . فكان لزاماً على الملك ان يبزم . الا ان ريشليو ، حبال هذه النقطة ، لم يفلح في اقناع لويس الثالث عشر ، الملك المقتصد ، فاضطر الى الاكتفاء بقصر اميري ومدينة جديدة احدثت لتكون له اطاراً ، في ريشليو .

طبق لويس الرابع عشر سياسة هنري الرابع ولكن على نطاق اوسع .

فاشرف بنفسه على اعمال البناء ، يعاونه كولبير ناظر الابنية العام

لويس الرابع عشر
وتأميم الفنون : الاكاديميات

(١٦٦٤) ، و « لويرون » ، الحبير في حقل التزيين ، والاكاديميات

التي تهيء المواضيع وتدرس المشاريع وتوزع العمل وتراقب التنفيذ وتفرض النمط . في السنة ١٦٦٣ ، امم كولبير اكاديمية التصوير والنقاشة . في السنة ١٦٧١ ، تأسست اكاديمية هندسة العهزة ؛ وفي السنة ١٦٧٢ ، اكاديمية الموسيقى . وتحولت جمعيات خاصة في الولايات الى فروع لاكاديميات باريس الكبرى . واخيراً انشئت في السنة ١٦٦٨ اكاديمية روما ووضعت منذ السنة ١٦٧٦ تحت سلطة الاكاديمية الملكية للتصوير والنقاشة . فأسمى الفنانون منذ ذلك التاريخ في مركز يمسدون عليه . كان الرسام يتلقى علوم الاكاديمية ويذهب الى روما لاستكمال تخصصه

ويعود ليدخل في خدمة الملك ويستلم من « لوبرن » المواضيع المطلوب التوسع فيها وفاقاً لقواعد قرضها الأكاديمية . منذ السنة ١٦٦٤ حتى السنة ١٦٧٤ درجت أكاديمية التصوير والنقاشة على عقد مؤتمر شهري ، يدرس فيه المهتمون تمثالاً أو لوحة ويتناقشون وينهون نقاشهم بقاعدة تدون في سجل خاص . فتوطد في الفن رأي مشترك فرض نفسه .

اوحي الملك بلشيد اقواس النصر تمجيداً لانتصاراته (باب سان دنيس التجميل
في عهد السلطة المطلقة ١٦٧٣ ؛ باب سان - مارتين ، ١٦٧٤) . وبرزت ساحات ملكية عامة
معدة لأن تحيط بتمثاله . وشق الدوق « دي لا فوياد » باريس ونصب في
ساحة الانتصارات تمثال لويس الرابع عشر لـ « ده جاردين » : الملك ساحق « سربروس »
المثلث الرؤوس . وعند التدشين ، سار الدوق في مقدمة فرقة الحرس التي يقودها ودار ثلاث
مرات حول التمثال و « قام بكل ما كان يقوم به الوثنيون أمام تماثيل اباطرتهم » . وفي زوايا
الساحة اتقدت باستمرار منائر مقامة فوق الاعمدة في فوانيس من البرونز المذهب تذكر بالمصايح
القدسة أمام الايقونات . وأمر الملك بلشيد قصور واسعة الأرجاء اذهلت سكان الولايات
والاجانب بمظمتها وتناسقها الكامل ايضاً الذي يتم عن نظام حديدي . ان صف الاعمدة
الكبير الذي صممه « شارل برتو » (١٦٦٧ - ١٦٧٤) واشرف على تنفيذه في اللوفر يتميز
بتناسبه الكلاسيكي : فعلى كلا جانبي المحور الوسطي تتوازن اجزاء البناء بقناطر وتقابل .
وعلى كلا جانبي الجزء الوسطي ، من البناء الذي تملوه جبهة مثلثة الزوايا ، ينسط جناحان
كبيران تفسحها الاعمدة الكورنثية الكبرى التي تتعاقب مثنى ومثنى الى اجزاء زاوية تزينها
ركائز ضخمة . كما ان الاساس وسطوح الاعمدة والافاريز تبرز الخطوط الافقية ، فتترك في النفس
انطباع عظمة ثقيلة . الا ان فقدان السقوف ، والدرايزونات الايطالية النمط ، وقفاة وجه
البناء الابيض ، تستجيب لمجتمع تهده الدولة التي تتعلمه ، وتذكر بالتزيين المسرحي الذي استهوى
لويس الرابع عشر في شبابه ، عند « مازارين » ، والذي اضطر مهندسو الممارسة لاضافته الى
الكلاسيكية الفرنسية . ويذكر بالتزيين المسرحي ليضاً وجه قصر فرساي المطل على الحديقة .
ففي فرساي انشأ الملك ، على مراحل ، المدينة الملكية ذات الطرق المؤدية الى القصر الملكي ،
الذي يستدبر المدينة ويطل بوجهه على حديقة « له نوتر » ويمتد على « رقا ص ميب » هو
الخرقة الكبرى ، حيث نسقت الطبيعة ، التي يسيطر عليها الانسان السيد ، تنسيقاً يتناسب مع
شئى ابنيته ، ونظمت لاجل حياته المجتمعية . أما في مقر « مارلي » الملكي (١٦٧٩ - ١٦٨٦)
فقد صمم كل شيء للتذكير بان الملك هو مركز العالم وكوكب الكون الساطع . ففي مشهد
مسرحي ، وحول مسكن جويتير ، انشئ ١٢ بناء اهديت لبعض الرموز الجردة أو لبعض
الآله : الشهرة ، الفرارة ، أبولون ، منيرفا ، الخ ، التي تواكب سير الالهة . وشيدت الكنيسة على
احد الجوانب قبالة البناء المد للحرص ، كما لو كان الرب الاله ، هو ايضاً ، أحد ضباط السيد الملك .

تصوير عهد السلطة المطلقة ان في ترتيب كل هذه القصور لسياسة مستخلصة من كتاب « التحولات » لاوفيد . فرواق المرابا يروي قصة الملك . وقد رسم « لو برون » صور السقف الرمزية تمجيداً للملك . وتلقي « تعليقات » « فيليبيا » على غرفة الملك في قصر « تولري » ضوءاً على فن التصوير في الابنية الملكية : « ان كل هذه الصور المستوحاة من تاريخ ابولون توافق الشمس وترمز ، علاوة على ذلك ، الى ما تي الملك وماآره . فهو صاحب الجلالة من يجب ان نراه في اللوحة الوسطى بصورة ابولون ؛ وهو من نراه محاطاً بهالة من المجد ؛ وهو من يبدو متسامياً فوق كل شيء ومن ينشر انواره على الارض ويثير الاعجاب في كافة انحاء العالم بفضل وقاره وخصاله الرفيعة » . وما عقوبة مارسيا ، الذي سُلخ حياً لتجاسره على مجازاة ابولون ، سوى « صورة القصاص الذي يستحقه اولئك الغلاظ المعجبون بأنفسهم حين يتجاسرون على مساواة انفسهم بأميرونا في فن قيادة الشعوب » .

آلت الطريقة المعتمدة في كل مكان الى تصوّر امثلة عامة والى رد « كل شيء الى المثل المطلق » ، قالت بها الفلسفة المدرسية الاكويبية ، ونادت بها الفلسفة الكرتزيانية التي تتميز بالتجريد واقضاء الفردية والسعي وراء المطلق . اسامت الكنيسة الظن في ديكارت ، وفي السنة ١٦٧١ حكمت السوربون على مؤلفاته وأمرت بان لا تدرس سوى تعاليم ارسطو . كان الملك مقيماً بقسم التكريس ، فعظّم تعليم الكرتزيانية ، ولكنه لم يمنع انتشار هذا المذهب بواسطة الكتاب والندوات الاجتماعية لأن روحه لم تكن بعيدة عن تلك التي تحرك الوزراء والفنانين .

لقد رأى الملك ابدأ ان في الوحدة الدينية تكيل السلطة المطلقة . الدعاء الدينية :
 اضعف الى هذا ان قسم التكريس ألزمه بالقضاء على الهرطقة .
 واعتقد كل رعاياه ، الكاثوليك والبروتستانت على السواء ، « بان الخلاف في الدين يشوه وجه الدولة » : « ايمان واحد ، شريعة واحدة ، ملك واحد » . اضعف الى هذا ايضاً ان فتوراً في الايمان ورغبة في الاتحاد مع الكاثوليك قد برزا شيئاً فشيئاً ، خلال القرن ، في الاوساط البروتستانتية . وقد مال الكلفينيون ، امام تعدد الشيع والكنائس وامام الفوضى البروتستانتية ، لان يروا في الدين مستودعاً موضوعياً لحقائق راهنة جاهزة يتوجب على سلطة منظورة ان تستخلصها من الكتاب المقدس وتفرضها فرضاً . وكانت المجالس الادارية للرعاة البروتستانت تضع انظمة قاسية جداً . فباتت الكالينية سلسلة اوامر ونواهي بعد ان كانت عبادة روحية . فانفصل بعض البروتستانت عن تعليم كلفين واصبحوا ارمنيين ونقلوا بعض عبادتهم الى شخص الملك ورأوا بان للملك حقاً مطلقاً على الاشياء الخارجية ، ومن ثم على العبادة . وامسى معظم البرتستانت لامبالين بالمقيدة قد يكتفون ببعض التنزلات حيال النقاط التي تثير شعورهم : عبادة الايقونات ، الابتهاال الى القديسين ، مناولة العرضين السريين ، الصلوات باللغة العامية . ورأى غيرهم ، ممن كانوا اشدّ تصلباً ، بان مذهب بيرول يقرب وجهات النظر الكاثوليكية والبروتستانتية ويسهل الارتدادات والاتفاقات .

ارتد بعض المظالم الى العقيدة الكاثوليكية منذ عهد لويس الثالث عشر : ابن « سولي » ،
الدوق « دي ليديفيير » ، الدوق « دي لا تريوي » ، وكان ارتداد هذا الاخير ابان حصار
« لاروشل » . وقد اسهم الميل الى النظام في حدوث الارتدادات . وفي عهد لويس الرابع
عشر ، لم يميز « تورين » ، تلميذ تيلينوس الريميني بين المذهب البروتستانتي المشيخي والجمهورية ،
واعتبر هذه الاخيرة مفسدة لكل نظام بشري والهي . « ان استقلال الرعا يتنافى وكل نظام » .
وفي السنة ١٦٦٨ ، كفر بعقيدته .

تعاطم شأن البورجوازيين تعاطماً مطرداً في اوساط البروتستانتية . الا انهم كانوا يخافون ،
في حال اندلاع الثورة ، عامة الشعب من جهة ، ودكتاتورية احد الاشراف ، كـ « رومان » ،
مثلاً ، من جهة ثانية . وكانوا حريصين على الاحتفاظ بمركزهم لانهم تولوا وظائف مالية كبرى
في البلاط ، ووظائف قضائية هامة ، ومحام بدائية كاملة في الجنوب ، ولانهم كانوا بالاضافة الى
ذلك تجاراً وصناعيين . فاكسبوا كلهم روح الحكمة ومحنة النظام والفوارق الاجتماعية . ولم يكن
لدين في حياتهم شأن كبير .

انتهى البروتستانت ، الذين قباها من جهة ثانية بانتسابهم الى ملك عظيم ، الى النظر الى
لويس الرابع عشر كما الى ابن الله ، عطاء الله ، والاعتقاد بان عقم الاثني وعشرين شهراً الذي سبق
الحبل به دليل على تدخل الاله في هذا الحبل . احلوه الى جانب الله . وفي السنة ١٦٥٧ ، قال
له مندوبو كنائس الاصلاح : « رأينا في السياسة لا يختلف عنه في الدين . نحن نعتقد بان الرعية
غير قادرة على استحقاق اي شيء من سيدها وانها ، حتى ولو ادت له كل الخدمات الممكنة ،
لن تستطيع ابتغاء أي انعام من انعاماته الا اذا ابتغته ابتغاءها للنعمة » .

توصل الملك من ثم الى اخضاع البروتستانتية تدريجياً . فقد اتفق
الدولة
واخضاع البروتستانتية اللاهوتيون الكاثوليك والبروتستانت ، بصدد الوسائل ، على اعتماد
تعاليم القديس اوغسطينوس . على الدولة حماية النفوس الضعيفة من جور
العقول القوية حين تسقط هذه العقول في الهرطقة . عليها استرجاع الهرطقة بتدابير قسرية
تكون لها قيمة علاجية . الحقيقة هي شمس الروح . ولكن يجب ان تتوجه اليها البصيرة الداخلية ،
العادة وتأثير البيئة وسلطة السيد تمنها من ذلك . لذلك يجب ازالة هذه العقبات بالتهديد ،
والحرمان من الانعامات ، والقسر والعنف .

قضى الملك في الدرجة الاولى على الحزب السياسي البروتستانتي . اتاحت انقسامات
البروتستانت . لويس الثالث عشر وريشليو احتلال « لاروشل » (١٦٢٨) ثم إلحاق الهزيمة
بشوار الجنوب . رفض الملك التفاوض في الصلح على قدم المساواة بين سلطتين . في ٢٣ حزيران
١٦٢٩ ، منح العفو المعروف بعفو « آليه » . اعفي عن الثورة واعيد العمل ببراءة فانت ،
ولكن بالبراءة وحدها : يجب ان تهدم كافة تحصينات المدن وتحمل المنظمة السياسية والمعسكرة

البروتستانتية . فلم يعد من وجود للجمهورية البروتستانتية . وسلك البروتستانت منذ ذلك التاريخ سلوك الرعايا الأوفياء . فكان جزاء اخلاصهم اثناء ثورة المقلع اثبات براءة نانت في السنة ١٦٥٢ .

حاول الملك بعد ذلك تحقيق وحدة الكنائس . فكر ريشليو برد البروتستانت عن طريق مفاوضة دينية على صعيد قومي . ويقال انه توصل الى اقناع ٨٠ راعياً . عاد لويس الرابع عشر الى المفاوضات منذ السنة ١٦٦٢ . حوالي السنة ١٦٦٥ ترأسها مجلس غير رسمي ضم بين اعضائه تورين وبوسويه . نشر بوسويه كتابه « عرض الايمان الكاثوليكي » (١٦٧١) وهو « روعة الاصلاح المضاد » . اقترح تورين استقالة ٥٠ راعياً وافتتاح مؤتمرات يدعون اليها والتماس الايضاحات من البابا وابطال براءة نانت التي باتت غير ذات موضوع . الا ان الحروب التي حولت انتباه الملك ومقاومات الكلفينيين المتصلبين ادت الى فشل كل المساعي . استخدمت الرشوة منذ اوائل ولاية لويس الرابع عشر ، فاغدت الاموال والانعامات على البروتستانت . ومنذ السنة ١٦٧٤ ، ادار مؤرخ الملك « بليستون » ، البروتستانتى المرتد ، « صندوق الارتدادات » الذي وزع المكافآت المالية ، « قاعد القنوب لعمل النعمة » . واستخدم الملك ارساليات الكبوشيين ودور نشر الايمان ، فحصلت ارتدادات محصورة العدد .

ولكن الملك ، في الوقت نفسه حرم متصلبي الرأي من انعاماته واخذ يفسر البراءة تفسيراً مشدداً ملزماً . بدأ العمل بهذا الاسلوب بعيد عفو « آليه » ثم بلغ في استخدامه . واخذت جمعية القربان المقدس تستحث القضاة . وطالبت جميعات الاكليروس « بمحدود ضيقة » . وقد مهد الطريق أمام هذا الاسلوب كتاب « جان فيليو » ، المحامي في محكمة بواتيه البدائية الذي جمع ، بين السنة ١٦٤٥ والسنة ١٦٦٨ ، كافة القرارات التفسيرية لبراءة نانت ، وكتاب « برنار » ، المستشار في محكمة بيزيه البدائية (« شرح براءة نانت » ، ١٦٦٦) . ليس ما يمنع اسناد وظائف الدولة الى البروتستانت ، ولكن « هذه المادة من براءة نانت تحصر الاهلية لتولي الوظائف العامة برعايا جمهورية لاروشل البروتستانتية ، دون ان يكون هنالك موجب لان يتولوها » . وهكذا خلت البراءة شيئاً فشيئاً من مضمونها واضطهد البروتستانت . واخيراً لجأ الملك الى العنف . منذ السنة ١٦٨١ ، استحصل الوكيل « دي ماريلاك » في « بواتو » ، على اذن باسكان الفرسان في منازل السكان : فعققت اعمال العنف بمض الارتدادات في السنة ١٦٨٥ ، اعتمد هذا الاسلوب في كل المناطق . فكانت نتيجة مآثر الجيوش افلاس الضيوف بفعل متطلبات الجنود ، وشتمهم وضربهم اذا لم يسموا أقوال الكبوشيين ، ونساء يحررن بشمرهن ، وتمديباً باحراق الأرجل بالنار ، وحرماناً من النوم ، واغتصاباً . ارتد البروتستانت آنذاك باعداد غفيرة . فبدت براءة نانت منذ ذلك التاريخ وكأنها غير ذات موضوع والغيت في ١٨ تشرين الاول من السنة ١٦٨٥ ببراءة « فوتينبلو » .

الدولة والجنسية
اعلن الملك على الجنسية حرباً لا هوادة فيها . اعطى صفة القانون ، في
السنة ١٦٥٣ والسنة ١٦٥٥ ، لمراسم البابا اينوشنتيوس العاشر بالحكم على
الهرطقة . في السنة ١٦٦٠ اصدر الامر بان تحرق « اقليميات » باسكال بيد الجلاذ . ثم اوجب على
رجال الكنيسة توقيع قانون ايمان قويم . وأدب دير « بور رويال » ، مركز الشيعة ، بطرد
الداخليين والمبتدئين (١٦٦١) وسجن الراهبات (١٦٦٥) . واخيراً توصل الدبلوماسي « دي
ليون » ، بمهارته ومراوغته ، الى تظاهر الجنسين بالخضوع ، و « سلام الكنيسة » .

الكنيسة الفليكانية
كان الملك مصمماً على قيادة كنيسة فرنسا وتركيز كل سلطة في شخصه
وتحقيق الوحدة الدينية من حوله وارغام البابا على الاكتفاء بسلطة
روحية وهمية . وكان قد شرع عملياً بتعيين الاساقفة ورؤساء الاديرة ، واعطاء أو رفض صفة
القانون لمقررات الجماع : اي ان الكنيسة قد امتست تحت حمايته . وساند الملك في موقفه هذا
الجلس التمثيلي ، والبورجوازية والسوريون وصغار رجال الكليروس ، بدافع عداء قومي
غريزي للبابا ، وطالبوا « باحترام حريات الكنيسة الفليكانية وحقوقها وامتيازاتها » . فالملك في
نظرم يستمد سلطاته الزمنية مباشرة من الله ، كما يستمد البابا سلطاته الروحية . وليست
سلطة الملك من ثم دون سلطات البابا صفة الهية ، بل هي مساوية لها ومستقلة عنها . الملك
حامي الكنيسة وحارس زمنياتها ، فهو يتمتع من ثم بكل سلطة على نظام كنيسة فرنسا
وزمنياتها . لا يحق للبابا ان يجرمه أو يحل رعاياه من قسم الوفاء أو بيت في نظام الكليروس
فرنسا وزمنيته . للمجلس التمثيلي وللملك الحق في ابطال انظمة السلطة الكنسية التي يثبت
قنانيها وقوانين المملكة واعرافها ، والانظمة المتخذة في فرنسا التي تفرض الارادة الملكية .

الا ان الفليكانية قد انطوت على طابع لا يخار من الخطر . فان « ريشيه » ، الفليكاني الهام
ونقيب كلية اللاهوت ، انبرى يؤكد (١٦١١) ان المسيح لم يعط سلطته للقديس بطرس وحده
بل لجميع الاساقفة الذين يخلفون الرسل الاثنى عشر ، والذين يتمتعون من ثم بحق الهي على
غرار البابا ، ويجب ان يكونوا مستقلين عنه . والكهنة كذلك يخلفون الاثنى وسبعين تلميذاً .
فليست الكنيسة من ثم ملكية شاملة بل ارستوقراطية قومية . الا ان ريشيو قاوم تعليم ريشيه :
ان من يرغب في ادخال الارستوقراطية الى الكنيسة لا يمكن ان يقاومها في الدولة . فارغم
ريشيو ريشيه على الرجوع عن تعليمه (١٦٢٩) . ولكن ضرورات السياسة الملكية ارغمت
الكردينال بدوره ، على الرغم من ميوله البابوية ، على الابقاء على التوازن بين الفليكانيين والبابا .
لا بل يبدو انه طمع بلقب بطريرك « غاليا » الذي كان من شأنه منحه السلطة الروحية على
كنيسة فرنسا . ولكن البابا تظاهر بالصمم على ما يبدو .

ان الضرورات السياسية حملت لويس الرابع عشر على محاولة تنظيم كنيسة غليكانية
تكون بمثابة الند للكنيسة الانغليكانية . انطلق في محاولته من حق التعمين في الرتب الكنسية

المرتبطة بعدد من الاسقفيات وجمع دخولها اثناء شغور المراكز الى ان يقسم الاساقفة الاصيلون بين الاخلاص . أراد لويس الرابع عشر ، لاعتبارات مالية ، ان يشمل حقه هذا كل الاسقفيات الخاضعة له . فاصطدم بالبابا انوشنتيوس الحادي عشر . وضمت الجمعية العامة لكنيسة فرنسا « بيان البنود الاربعة » في السنة ١٦٨٢ . ذكر البيان بنظرية السلطة المزدوجة ورفع رقابة الكنيسة وحكمها عن السلطة المدنية ، واكد تفوق المجمع العامة على سلطة البابا ، واعلن ان سلطة البابا مقيدة بالمجمع والاعراف القومية ، ورفض عصمة البابا في مسائل الايمان واخضع صفة مقرراته لحكم الكنيسة . جعل لويس الرابع عشر من هذا البيان قانوناً واضافه الى قوانين الدولة . فاصبح تدريس تعاليمه الزامياً في كافة انحاء المملكة . تمتع الملك من ثم بسلطة زمنية مطلقة على الكنيسة وبات قادراً في الحقل الروحي على رفض رسوم البابا المعاقبة التي لم تقترن بعد بموافقة جمع مسكوني ، ففداً رئيساً لكنيسة قومية تخضع خضوعاً كلياً لسلطة الدولة المطلقة ولا يربطها بالبابا سوى رابطة الاحترام .

ان لهذه الرقابة على الحياة الفكرية والفنية والدينية ما يماثلها في كل البلدان التي الفومارية
تدين بالسلطة المطلقة او تلك التي تحاول تحقيق هذه السلطة . فلم تخل منها الاقاليم المتحدة ، مع انها كانت متساهلة نسبياً . ففي اليهود الفومارية التي توافقت في الزمن عهود توسع سلطات امير اورانج ، سنت قوانين صارمة قيدت المسرح وفرضت حفظ يوم الرب واتخذت التدابير ، حتى في الاقاليم التجارية والبورجوازية ، كهولندا وزيلندا ، ضد الكاثوليك الذين لم يسمح لهم الا بالعبادة الفردية : منع التجمع لحضور الذبيحة الالهية او اي احتفال ديني آخر ؛ منع الكهننة من دخول البلاد ؛ السماح لكل مواطن « بتشويش الممارسات البابوية » ، ليلاً ونهاراً ؛ مكافآت للواشين ؛ عقوبات غرامة مالية وجلد ومصادرة الممتلكات .

٧ - التوازن الاوروبي

والتسلسل في تنظيم اوروبا

احلقت فرنسا الى الهدف : انقاذ الحريات الاوروبية من مدعيات آل
الاحلاف ضد
تسلية آل هابسبورغ
هابسبورغ بالسيطرة الشاملة ، والوسيلة : المحاد الشعوب الاوروبية
باخضاع خلافاتها الدينية ومطامعها الفردية للهدف المشترك . التجهت
السياسة نحو نوع من الوحدة الكلاسيكية . باتت فرنسا مركز المقاومة وشهدت العزائم
ونظمتها . حتى السنة ١٦٣٥ ، قامت بحرب « صامتة » ، مصلحة ذات البين بين خصوم المدو
المشارك ومقدمة لهم المال وواضحة يدها على النقاط الاستراتيجية . في السنة ١٦٣٥ ، دخلت في
حرب معلنة ضد اسبانيا ، وبالتالي ضد الامبراطور .

توصل ريشليو منذ السنة ١٦٢٩ الى حمل اسوج وبولونيا على عقد هدنة بينها، وحذا مازارين حذوه في السنة ١٦٤٥ بحمل اسوج والدانمرك على عقد الصلح فيما بينهما في «بروسبرو». في السنة ١٦٣٦ ، استطاع ملك اسوج ، غوستاف - أدولف ، بعد ان اخلي سبيله ، النزول الى اليابسة في «ستين». ولكنه كان مفتقراً الى المال . حينذاك عقد الكردينال ريشليو الكاثوليكي جداً ، مع غوستاف - ادولف اللوثري جداً ، معاهدة مساعدات مالية (باروولد ، ٢٣ كانون الثاني ١٦٣١) لتأمين الانفاق على الجيش الاسوجي الذي كان مقدماً على غزو المانيا ومحاربة ملك سلالة هبسبورغ الكاثوليكي جداً . دام التحالف الاسوجي الفرنسي حتى السنة ١٦٦٧ ؛ وجدد ريشليو محادثات فرنسا مع كلينيبي الاقاليم المتحدة (١٦٣٠) . ثم جددت هذه الاتفاقات تكراراً قبل السنة ١٦٤٨ . وتوصل ريشليو ، ثم مازارين من بعده ، الى الاتفاق مع ترنسيلفانيا ، الامارة الهنغارية الخاضعة لسيادة الاتراك ، فقام راکوكزي ، امير هذه المقاطعة التابع الخاضع للكفرة ، بغزو النمسا . ووجد ريشليو ، ثم مازارين من بعده ، اغضاداً لها في المانيا على الامبراطور ، لاسيما عضد « مكسيميليان دي بافير » الذي كان متخوفاً من مطامع امير هبسبورغ اسبانيا في البلاتينا ، ونظماً تكراراً ، بين البروتستانت والامبراطور ، ما يشبه فريقاً ثالثاً كاثوليكياً المانيا . وجلي ان هذه الاتفاقات لم تخل من الصعوبات والصدمات . فان غوستاف - ادولف ، الذي احرز النصر في « بريتنفلد » ، قد شرع في غزو المنطقة الريمانية ، متجهاً ببصاره نحو الازاس ومهدداً بتقدمه بفصل فرنسا عن حلفائها ومحاولاً ان يجمع حوله امراء المانيا الشمالية من البروتستانت ليجعل منهم امبراطورية بروتستانتية ليست دون الامبراطورية الكاثوليكية خطراً . الا ان وفاته ابان المعركة في « لوتزن » ، حيث انتصر ولاقى حتفه ، كانت خشية خلاص لريشليو على الرغم من ان ضعف اسوج وهزيمة الاسوجيين في « نورد لنجن » (١٦٣٤) قد ارغما فرنسا ، في عهد لاحق ، على دخول حرب معلنة .

سواء كانت الحرب صامتة أو معلنة ، فهي تعتمد على تشجيع الثورات والمؤامرات عند العدو . فالاسبانيون تحالفوا مع المظاهء الثائرين على ملك فرنسا ، الدوق « دورليان » ، والدوق « دي بوتيون » ، « مونتورنسي » ، وتمهدوا بارسال ١٨٠٠٠ رجل الى « سنك مارس » لدعم ثورته ، مقابل استرجاع الاراضي التي يحتلها الفرنسيون ، وفاوضوا « كونديه » والمقلعين وقدموا لهم فرقاً عسكريت في باريس مع اعلامها الحمراء الحاملة صليب القديس اندراوس واستقبلوا اللاجئين والامير « دي كونديه » والدوق « دي يورك » والملكيين الانكليز الذين حاربوا في معركة الـ « دون » في صفوف الاسبانيين (١٦٥٨) . ولكن ريشليو من جهته قد ساعد الكتالونيين الثائرين على فيليب الرابع الذين نادوا بلويس الثالث عشر « كونت برشلونا » (١٦٤٠) وتحالف في السنة ١٦٤١ مع البرتغاليين الثائرين على اسبانيا وارسل لهم مالا وعتاداً . وساند مازارين سكان نابولي المتمردين على السيطرة الاسبانية (١٦٤٧) .

ستراتيجية الواثق
 ما زال له «ستراتيجية الواثق» دورها الاول في العمليات الحربية. النتيجة الحاسمة ليست سهلة المنال. يقتضي يوم كامل لتوزيع صف من الجنود مؤلف من ٣٠.٠٠٠ رجل على خطوط الجبهة في وجه العدو. اذا رغب العدو عن المعركة، فان لديه متسعاً من الوقت لينسحب انسحاباً منظماً. ويقتضي لمطاردته ان يعيد الجيش صفه، ولكن الجيش لا يستطيع دخول المعركة حينذاك. لا تدور المعركة الا اذا وافق عليها القائدان وصرفاً الوقت اللازم في تنظيم جيشيها وتهيئتها لوجه. يجب اِرغام العدو على دخول المعركة بانتزاع مستودعاته ونقاط مروره. وهذا يصح على الاخص في الرقعة الفلمنكية التي تتشابه فيها الانهار والاقنية. ولا حيلة، امام الحصون القائمة عند ملتقى الانهر، الا في احتلال كل مريع على حدة بالاستيلاء على الحصون والجسور والمستودعات. ويصح القول نفسه عن مناطق النواتيء او الجبال. كالمنطقة الهرسينية في اوروبا الوسطى، والالب والبيرينيه حيث يجب الاستيلاء تدريجياً على حصون المجازات وقاطع الودية. ولكن الحصون كثيرة في كل مكان. فكل تمون يصبح مستحيلاً على مسيرة خمسة ايام من المستودع، ويضاف الى ذلك ان جنود الحملات العسكرية لا يجهزون بأسلحة تمكنهم من الدفاع طويلاً عن أحد الجسور او أحد المواقع. فيقتضي من ثم انشاء موقع محصن في كل منها. وبالتالي فان الحرب قد تدوم زمناً طويلاً جداً.

السياسة
 استراتيجية الابواب
 كان هم المحاربين الاكبر الاستئمان الى «ابواب» الممالك التي يستطيع بواسطتها صد الغزو وشل العدو بخشيته من الهجوم، ثم الاستئمان الى خطوط المواصلات الأوروبية. وقد عمل الفرنسيون قبل سواهم بهذه الاستراتيجية والسياسة التي تنجم عنها بسبب وجودهم في موقع يحتل وسط الصراع. لذلك استولى ريشليو على «بينيرول»، «باب» ايطاليا، التي يستطيع الفرنسيون انطلاقاً منها تهديد ميلانو، مركز التسليح الاسباني، وقطع الطريق العسكرية، المارة في ايطاليا، من أسبانيا الى الاقاليم المتحدة. وقد تصلبت فرنسا حتى ١٦٩٧ في رفضها الجلاء عن هذا الموقع. وأتخذ ريشليو «لافلتلين» ووضعها تحت سلطة أسبانيا القدماء، الـ «غريزون» «البروتستانت» وأمن لفرنسا استخدام الممرات استخداماً مانعاً مطلقاً (١٦٢٤ و ١٦٣٥)، لان «لافلتلين» مهمة جداً للاسبانيين لوصول دول ايطاليا بدول المانيا، وأزلق ريشليو الفرنسيين نحو الرين حيث تتشابه الجيوش الامبراطورية والاسوجية والاسبانية واللورينية، وحيث يتنازع المتحاربون رقبات الجسور. ومنذ السنة ١٦٣٢، أمر ريشليو تدريجياً بالاستيلاء على مواقع اللورين المحصنة واستحصل على حق مرور الجيوش الفرنسية في الدوقية. ووضع «منتخب تريف» تحت حماية فرنسا واستولى لمصلحته على «فيليبسبورغ» و «اهرنبرتستين»، وحمى اسقفية بال وكونتيسة مونبليار لمصلحة دوق «ورتنبورغ»، واقفل بذلك باب بورغونيا. في كانون الاول ١٦٣٣، ادخل الكونت «دي هانو» الفرنسيين الى ثلاثة من مدنه في ألزاس السفلى، «بشولر»، و «انغولر» و «نورلر». وفي كانون الثاني ١٦٣٤، طلب الكونت «دي سالم»، محافظ

مقاطعة « هاغلو » ، حماية فرنسا لهاغنو و « سافرن » . وفي ٩ تشرين الاول ١٦٣٤ تقاوض « هنري موغ » و « كيل المحاد » كولمار » ، في ستراسبورغ مع ملك فرنسا ، باسم كافة مدن ألزاس العليا : فقد قبل بدخول حامية فرنسية على ان تحتفظ هذه المدن بحكوماتها وامتيازاتها الدينية . وأمر ريشليو في السنة ١٦٣٨ بالاستيلاء على بريزاخ ورقبة جررها الهامة . وطلب مازارين الى تورين وكونديه احتلال « فريبورغ » (بريسغو) حارسة المجازات الجنوبية الى « المخرج الاسود » ، و « سبير » و « ورمس » ، و « ماينس » ، (١٦٤٤) . وارسل مازارين جيشا لمهاجمة الحصون الاسبانية في توسكانا بغية قطع طريق ناقلات الجيوش الاسبانية بين نابولي ومنطقة ميلانو (١٦٤٦) .

لم تملك فرنسا هذا السلوك الابوحي الاسباب الاستراتيجية . فلا ريشليو ولا مازارين نهجا سياسة حدود طبيعية . كثيرون من الفرنسيين فكروا في ذلك . فان نقائص الخرائط الجغرافية التي تمثلت الانهاز فيها بخطوط ثخينة والجبال بخط من التلال الصغيرة التي تذكر بحدود متواصل ، قد اشاعت الرأي بان الحدود الثابتة يجب ان تكونها امامات طبيعية كالانهار والجبال ، وقد عينت « تاوريلات » ، قصير ، حدوداً لفرنسا ، جبال الالب وجبال البيرينيه ونهر الرين . ولكن نظرات رجال الدولة الفرنسيين كانت واقعية .

حرب تفريغ الجيوش
ان حرب تفريغ الجيوش العدوة والاندفاع حتى عاصمة العدو لم تعد من المستحيلات . فالجيوش زادت قدرتها على القتال والحركة . واستفاد غوستاف - ادولف من دروس اللاجئين الفرنسيين البروتستانت ، من أمثال « بونتوس دي لا غاردي » ، فأحكم أدوات الحرب واقطاع بذلك اعتماد فن حربي جديد . خفف وزن البندقية ، فبات بمكنة حاملها اطلاق النار بدون اسنادها الى شيء . واستخدم الخراطوش المصنوع من الورق المقوى لحشوة البارود . ومجهزت عدة فرق من فرقه بالبندقية ذات الدولاب . فباتت مرعة اطلاق النار عند الاسوجيين بالنسبة لها عند الامبراطوريين ، تعادل نسبة ٥ الى ١ . وبات حامل البندقية يحشوها في الوقت الذي تستغرقه ثلاث أو أربع طلقات . وبات من ثم باستطاعة غوستاف - ادولف الاكتفاء بستة جنود عمقا من حاملي البنادق ، وبثلاثة احيانا . يرتب الجنود صفوفاً الواحد على مسافة خطوات من الآخر بسبب اخطار الانفجارات المفاجئة التي تحدثها الفتائل المشتملة ، وعلى مسافة خطوات بين الصف والآخر ، للسبب نفسه وحتى يتمكن مطلق النار من الاندساس بين الصفين والوقوف وراء صفه يحشو بندقيته بينما يطلق رفيقه النار ، بحيث يستمر الاطلاق دونما انقطاع . وبات باستطاعة غوستاف - ادولف تقسيم المشاة كتائب صغيرة مستقلة اقل كثافة وأسرع حركة . واصبحت نيران الاسلحة الحربية اكثر فعالية ضد فرق الخيالة ، فبات بمكنته زيادة عدد حاملي البنادق ورفعته الى ضعف عدد حاملي الحراب . واستخدم حشوة البارود الجاهزة بغية الاسراع في اطلاق نيران المدفعية ، وزاد عدد المدافع ، وزود المشاة بمدافع صغيرة من عيار ٤ سم يمكن دفعها بالايدي بغية مواكبة الفرق اثناء الهجوم

ومساندتها بنيران المدافع حتى هجمة الالتحام الاخير . أما مشاته ، وهم ضعفا خيالاته ، فقد حطموا ، بإسلاحتهم النارية وحرايمهم على السواء ، هجيات خيالة العدو ، وانهبكوا بنيرانهم مشاة العدو وقضوا على معنوياتهم ومهدوا الطريق للفارة على خيالتهم . ما زالت فرق الخيالة سلاح النتيجة الحاسمة . توزع على الجناحين لحماية الشاكلتين ، اللتين هما نقطة الضعف عند فرق المشاة ، وتحاول اخلاء ميدان المعركة من فرسان العدو لمهاجمة مشاته جانبياً . تهاجم بنيران الأسلحة ، يساندها حاملو البنادق الموزعون بين كتائب الخيالة ، وتطلق نيران الطبنجات ، ثم تسير خبياً وتكر على العدو بالأسلحة الابيض . وقد تبنى روح اصلاحات غوستاف - ادولف اشهر قادة اوربا العسكريين ، الفرنسيان تورين وكونديه ، وقائدان في خدمة الإمبراطور ، « مرسي » والابطالي مونتيكوكلي . وقد رفع هؤلاء نسبة حاملي البنادق الى اربعة وخسة اضعاف حاملي الحراب .

فاصبح من ثم تدمير جيش العدو اكثر سهولة . واخذ كبار القادة العسكريين ينظرون كلهم الى الحرب كما نظر اليها نابوليون : حصارات قليلة ومعارك كثيرة ، لأن المواقع العسكرية ستستسلم بعد احراز الانتصارات في الأرض المكشوفة ؛ الهدف الرئيسي : العدو اينما وجد . وقد عبر عن الوحدة الكلاسيكية في الفن العسكري بارتباط الاسلحة المختلفة التي تعمل كلها لمصلحة السلاح الاول ، اي الفرسان ، وباخضاع كل الحركات لغاية واحدة : ضرب العدو في الصميم بعد القضاء على جيوشه . ان في هذه النظرة لمجرد نزعة نحو مثل اعلى . فهناك جيوش كثيرة دمرت في ميدان المعركة ، كالجيش الاسباني الذي قضى عليه فرنسيو كونديه في « روكروا » ولنس (١٦٤٣ - ١٦٤٨) والجيش الامبراطوري الذي قضى عليه تورستنسون في ليزينغ (١٦٤٢) . ولكن دون استئثار النصر خرط قتاد . فان الحاجة الى المؤن والمال ما زالت ترغم المنتصر على التوقف في اغلب الاحيان ، وهذا ما حدث للاسبانيين المندفعين نحو باريس بعد استيلائهم على « كوربي » ، (١٦٣٥) ولتورستنسون الذي وصل الى مسافة ٢٥ ميلاً من فيينا (١٦٤٢) ، ولكونديه المتعطش الى الاندفاع نحو عاصمة النمسا بعد معركة « نوردلنجن » (١٦٤٥) . ولكن ريشليو ومازارين واصلا اعادة تنظيم الجيش بمساعدة بعض المدنيين . فشرع امينا سر الدولة للشؤون الحربية « سوبليه دي نوييه » و « لوتليه » من بعده (منذ ١٦٤٣) في معالجة المسألة من جميع نواحيها . حرص وكلاء الجيش على ضبط دفع الاجور وتوزيع المواد الغذائية في اوقاتها ، ونظروا في الجرائم التي اقترفها الجنود ، وارغموا موافي الجيش على انشاء المستودعات المقررة وعلى تسليم المؤن الجيدة . وحين اتفق الاسوجيون والفرنسيون اخيراً على توحيد جهادهم والقيام بعملية هجومية مشتركة ، احرز النجاح تاماً . فقد كان تورين و « رانجل » زاحفين على فيينا ، بعد انتصارهما على البافاريين في « زوسمار سهوزن » (ايار ١٦٤٨) ، حين علما بتوقيع معاهدات وستفاليا .

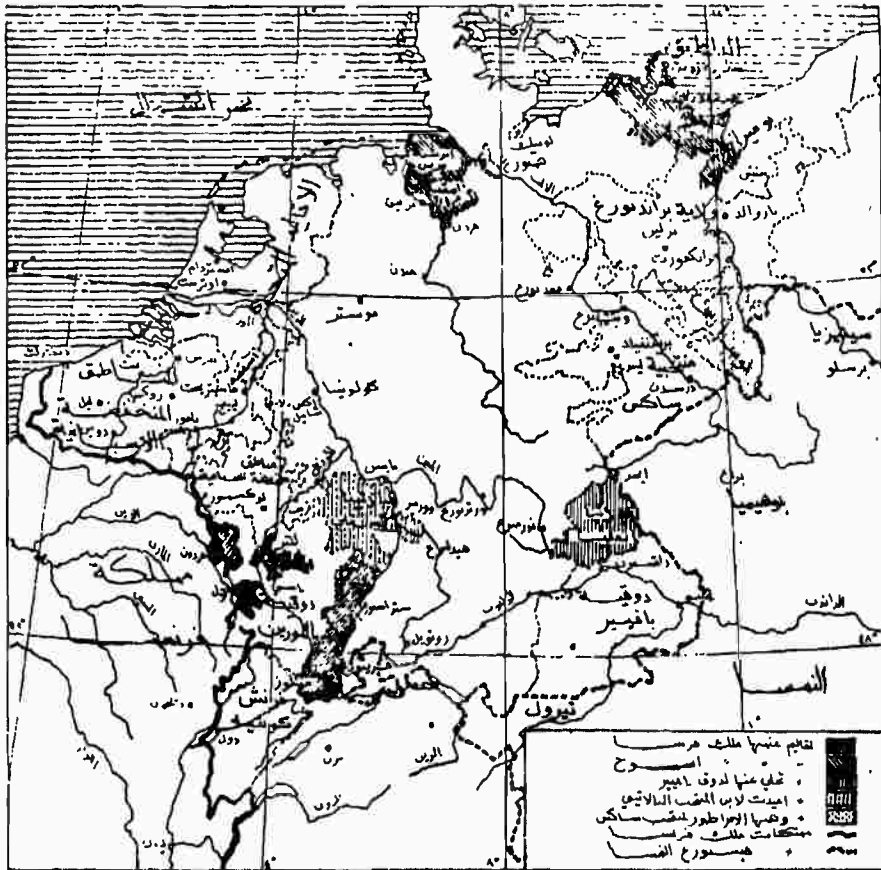
المؤتمرات الأوروبية
كان من المفروض ، بحسب فكرة روجها البابا منذ السنة ١٦٣٥ ، ان
ينعقد مؤتمران في وستفاليا ، احدهما في «مونستر» للدول الكاثوليكية
والثاني في «اوسنابروك» للدول البروتستانتية . ومع ان مواعدهما قد حدد في ٢٣ اذار ١٦٤٢ ،
فانها لم يفتتحا رسمياً الا في ٤ كانون الأول ١٦٤٤ . فكان على فرنسا وحلفائها ، في مونستر ، وعلى
الامراء البروتستانت والدول البروتستانتية ، في اوسنابروك ، ان يجروا مفاوضات مع
الامبراطور وحلفائه . أما في الواقع فقد كان المؤتمر اوروبياً لأن كل الدول تمثلت فيه باستثناء
البيصر والسلطان وملك انكلترا . احتلت المدينتين الصغيرتين جاهير غفيرة بعد ان اعلن حيادهما
اثناء المفاوضات . وتبارت وفود الدول الكبرى فيما اية في عرباتها الفاخرة وملابسها الرسمية
وكرماً فائقاً في استقبالها .

استغرقت المفاوضات وقتاً طويلاً . كانت المسائل المطروحة معقدة . وكان على المؤتمرين ان
يتبادلا استطلاع الرأي في كل شيء وان لا يفصلا في شيء الا بالاتفاق بينها . ولجأ الدبلوماسيون
بصورة خاصة الى التسوية والمباينة املا منهم بنجاح عسكري يحسن موقفهم . عقد صلح منفرد
بين اسبانيا والاقاليم المتحدة في ١٥ ايار ١٦٤٨ . ومرد ذلك الى ان مازارين قد انفرد في اقتراحه
على فيليب الرابع مقايضة كتالونيا التي كان الفرنسيون سائرين في احتلالها ، بالاقاليم المنخفضة
الاسبانية ، رغبة منه في ان يحمل من باريس « حصناً منيعاً لا يرام » . وقد سبق للهولنديين ،
حين كانوا يخشون جانب اسبانيا ، ان اقترحوا على ريشليو تقاسم الاقاليم المنخفضة بغية
الحصول على ايد فرنسا . ولكن ريشليو رفض الاقتراح لانه آثر تيسير استقلال المنطقة التي
اصبحت بلجيكا فيما بعد . أما الآن وقد امسى ملك اسبانيا مستضعفاً والفرنسيون اقوياء ، فرغب
الهولنديون عن مجاورة الفرنسيين لهم . وفي ٢٤ تشرين الاول ١٦٤٨ وقعت في آن واحد معاهدتا
اوسنابروك ومونستر ، اي « صلح وستفاليا » ، « أو « دستور » أوروبا الجديدة .

«الدستور» الأوروبي
كرست المعاهدتان في الدرجة الاولى انقسام الامبراطورية والمانيا وعجزهما .
وقد اعتبرت هذه النصوص قانوناً امبراطورياً ونظر اليها رجال القانون
كما الى دستور الدولة الالمانية . غدا ملك فرنسا وملك اسوج كفيين « للحريات الالمانية » . تمتع
الامراء الالمان باستقلال يكاد يكون ناجزاً . انتفادوا من « الرئاسة الاقليمية » ، الشبيهة بالسيادة ،
وحق لهم التفاوض مع الدول الاجنبية وفيما بينهم لضمان سلامتهم . يضاف الى ذلك ان الامبراطور
لم يعد عملياً ليستطيع شيئاً بدون المجلس التمثيلي للاقاليم الذي سيطر عليه المعجز بدوره بفعل
الحاجة الى اجماع الاصوات في كل المسائل الهامة .

تأمن توازن القوى في الامبراطورية بين الكاثوليك والبروتستانت الذين كانوا حلفاء اسوج
وفرنسا على كل حال . أقر في البدء نوع من التساهل الديني بين الدول . وشمل صلح اوغسبورغ
الامراء الكلفينيين ، واعترف بشرعية الكلفينية اسوة بالوثوية ، واستفاد الامراء من هذا

المبدأ : « الامير يختار مذهبه ويلزم به رعاياه » . ثم تنازل الامبراطور عن براءة الاسترداد وصلاح براغ . ابقى على العائلات السابقة لسنة ١٦٣٤ . استعاد ابن المنتخب البالاتيني لقب المنتخب والبالاتينا السفلى . احتفظ مكسيميليان دي بافير بالبالاتينا العليا وحصل على منتخبة



الشكل ٩ . اوروبا بعد معاهدتي وستفاليا

احدثت لمصلحته . فعدت الهيئة الانتخابية ، بصرف النظر عن الامبراطور ، تضم اربعة من الكاثوليك وثلاثة من البروتستانت ولكن المساواة العددية استعيدت فيما بعد باعطاء صوتين مناوبة ، لكل من المنتخبين البروتستانت .

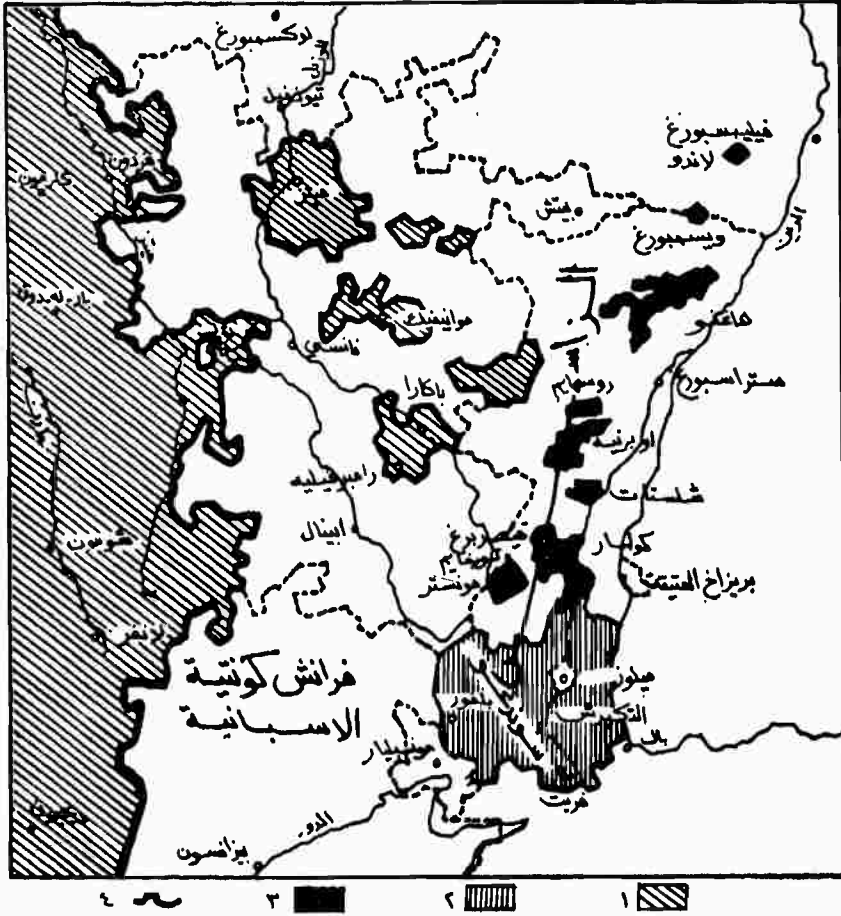
تقدمت جرمانية آل هيسبورغ في كل مكان . سبق لاسبانيا ان اعترفت باستقلال الاقاليم المتحدة وأقصتها من ثم عن دائرة بورغونيا ، وبالتالي عن الامبراطورية . واعلن استقلال الاقضية

السويسرية الناجز . وحصلت اسوج ، تمويضا لها عن نفقات الحرب ، على اقاليم تشجع لها تأمين سلامة « البحيرة الاسوجية » ، بمراقبتها مصاب الانهر الالمانية وطرق التجارة المؤدية الى السهول الالمانية : بومرانيا الغربية مع مصاب الاودر ومرقا ستين ، واسقفينا بريمن وفردن المعلنان ، اللتان تشرفان على مصب الفيرو غربا ومصب الإيلب شرقا . وحصل ملك فرنسا على « ابواب » تقوم على الطرق العسكرية الكبرى . وظفر بالسيادة على اسقفيات « متز » و « تول » و « فردون » المحتلة منذ هنري الثاني . كما ظفر في الازاس بكل ما امتلكه الامبراطور فيها باعتباره رئيس سلالة النمسا وبكل الحقوق التي تمتع بها باعتباره امبراطورا . في هذا المعجاج من الجمهوريات والمدن الحرة والامارات الكنسية والسيادات ، في هذا الاختلاط الالسنى والديني والثقافي ، حيث تكلم ألزاسيو وديان « الفوج » العليا اللغة الفرنسية ، وغيرهم الالمانية ، وسواهم لهجات مختلفة ، وحيث كان ثلث السكان لوتريين والثلثان كاثوليكين ، وحيث سيطرت الحضارة الجرمانية على الرغم من الآثار العميقة التي تركتها السيطرة الرومانية ، نرى بصورة خاصة اماراة الازاس العليا ، ومنطقة صلاحية محكمة هاغزو الكبرى ، وارضى امبراطورية ضمها بعض الاقطاعيين الى اقطاعاتهم ، كاراضي آل « ريبوبير » حول « ريبوبليه » . وقد صيغ تسليم هذه الاراضي بكلمات غامضة ، ومتناقضة في اغلب الاحيان : فقد حسب المفوضون المطلقو الصلاحية ان الاقوى سيفسرها لمصلحته في المستقبل .

كان مقدراً آل هبسبورغان يتخلوا مرغين عن السيطرة الشاملة . ولكن معاهدة البيرنيه وخلافة ملك اسبانيا امير هبسبورغ اسبانيا رفض التسام بالهزيمة . بعد ان عقد الصلح مع هولندا ، استدعى مفوضيه المطلقى الصلاحية . ولما كان دوق اللورين حليفاً لاسبانيا ومستقلاً عن الامبراطورية منذ السنة ١٥٤٢ ، استمر الاحتلال الفرنسي لهذه الدوقية وتواصل النزاع بشكل حزب فرنسية اسبانية . ولكن التشوش النقدي والاقتصادي في اسبانيا ، وثورة المقلع في فرنسا ، جعلها تطول زمناً طويلاً . واخيراً اتفق مازارين مع « كرومول » الذي لم يستطع الحصول من ملك اسبانيا ، فيليب الرابع ، على فتح اسواق الهند الغربية للتجارة الانكليزية . وقع الطرفان معاهدة تحالف صريح في ٢٣ اذار ١٦٥٧ . تمكن تورين ، يسانده الاسطول الانكليزي وقوة ائزال مؤلفة من ٦٠٠٠ انكليزي ، من احراز النصر في معركة « الدون » (١٤ حزيران ١٦٥٨) . لم يبق للملك اسبانيا لا جيش ولا مال . وفقد الأمل بتلقي المون من النمسا . فقد توفى مازارين الى حمل مجلس المنتخبين على الزام الامبراطور ليوبولد بان لا يتدخل في حروب ايطاليا ودائرة بورغونيا . ولضمان تنفيذ هذا التمهيد ، ألتف منتخبو « تريف » و « ماينس » وكولونيا الكنسيون ، واميرا نويبورغ و « هس - برونسويك » خط حياذ كفلته اسوج وفرنسا ، فاضطر ملك اسبانيا الى الانحناء .

نوقشت شروط الصلح على نهر « بيداسوا » ، في جزيرة المؤتمر ، منذ شهر نيسان ١٦٥٩ حتى حزيران ١٦٦٠ . وقمت معاهدة البيرنيه في ٤ حزيران ١٦٦٠ اقلقت بموجبها حدود

فرنسا في وجه الفوز . واستعادت فرنسا او غنمت مناطق « ارقوا » و « روسيون » و « سردانية » التي كان ريشليو قد استولى عليها ، ومواقع هامة على الطرق المؤدية اليها : « غرافلين » ، « لندرسى » ، « لو كينوا » ، « افين » ، « فيليفيل » ، « مارينبورغ » ،



الشكل ١٠ - الممتلكات الفرنسية ، الزاس في السنة ١٦٤٨
 ١ - مملكة فرنسا - ٢ اقاليم تمسارية غنمتها فرنسا - ٣ - المدن الامبراطورية العشر - ٤ - حدود فرنسا

« مونيدي » . واستعاد دوق اللورين دوقيته ، ولكن فرنسا احتفظت « بالارغون » ، « ترويلينا » ، والطريق الحرة لجيوشها .

زد على ذلك ان الاتفاق الفرنسي الاسباني قد اعطى فرنسا امكانية منع امير هابسبورغ النمسا من ان يضم الى ممتلكاته وراثه عرش اسبانيا ويعيد امبراطورية شارل الخامس . فاقضى

اتخاذ بعض الاحتياطات بالنظر الى حقوق الامبراطور في خلافة فيليب الرابع . تزوج لويس الرابع عشر من ابنة ملك اسبانيا البكر ، ماري - تريز ، حتى لا يتزوج منها امير هسبورغ النمسا ، الامبراطور . فرض فيليب الرابع ان تتنازل عن ارث ابيها . ولكن الدبلوماسي الفرنسي « دي ليون » ادخل هذا التنازل في عقد الزواج « مقابل » ٥٠٠ ٠٠٠ دينار ذهباً ، علماً ان الخزينة الاسبانية اعجزت من ان تدفع هذا المبلغ . احتفظت من ثم ابنة ملك اسبانيا بحقوقها التي انتقلت الى لويس الرابع عشر ، زوجها . يضاف الى ذلك ان التنازل كان باطلاً على كل حال : ان حقوق ماري تريز المتصلة اليها بفعل نسبها لا يمكن ان تكون موضوع تنازل ، ولذلك استقبح الاسبانيون انفسهم عمل ملكهم ولم يأخذوه بعين الاعتبار . فكان من ثم باستطاعة لويس الرابع عشر المطالبة بنصيبه من الارث واحباط مطامع الامبراطور عند الاقتضاء .

ان انتهاء الاعمال الحربية أتاح لفرنسا فرض وساطتها في أوروبا . التحكيم الفرنسي في أوروبا كانت اسوج في حالة حرب مع كافة دول السواحل البلطيقية ، روسيا ، بولونيا ، براندبورغ ، الداينرك ، ومع هولندا . فغشي مازارين الامكانيات التي توفرها لامير هسبورغ النمسا خلاقات البروتستانت الشماليين . تفرق الى عقد الصاح بين اسوج والداينرك في كوبنهاغن ، وبين اسوج وبولونيا وبراندبورغ في « اوليفا » (ايار - حزيران ١٦٦٠) . وقد استمر لويس الرابع عشر في لعب دور الوسيط هذا في مستهل حكمه الشخصي .

وهكذا عاد السلم والاتفاق في أوروبا الى سابق عهدهما . اما اسمها
فكانت : تساهلاً دينياً تسيباً ؛ توازن القوى بين دول كبرى تفصل
بينها دول صغرى كانت لها بمثابة القطيعة ، كالأقاليم المنخفضة
الاسبانية بين فرنسا والأقاليم المتحدة ، او كحلف الرين ، الذي تشرف عليه فرنسا ، وبافير ،
بين فرنسا والنمسا ؛ واخيراً التحكيم بين الدول الأوروبية تجريه دولة راجحة السلطة والنفوذ ،
فرنسا ، وبالتالي تكريس المراتب بين دول أوروبا . وحين اقدم لويس الرابع عشر على خوض
حرب نقل الحقوق (١٦٦٧) واعتبرت سياسته محاولة جديدة للهيمنة وبسط السيطرة ، بدا
وضع أوروبا وكأنه خطوة اولى نحو مثل اعلى ، فاستوحاه الفيلسوف الألماني ، لينيز ، ووضع في
السنة ١٦٧٠ مخطط اتحاد أوروبا . اعتبر التوازن مختلاً والمانيا ضعيفة لا تقوى على احباط
مطامع جيرانها ، فاقترح تقويتها بتحويلها الى اتحاد دول متحالفة تتمثل في جمية واحدة يكون
لكل دولة المانية فيها حق الجلوس والاقتراع . بهذا تمنع الاعتداءات المحتملة الوقوع ويصان سلم
أوروبا . ولكن أوروبا تتميز بجمراتها الخلاقة والفاخرة . يقتضي صمام امان لهذه القوة . قد
تحوّل الى استثمار القارات الاخرى . يكون لكل دولة اوروبية نطاق عمل وفتح في هذه
المستعمرات تجنباً للمنافسات والاصطدامات ؛ اسوج في سيبيريا ، انكلترا والداينرك في اميركا

الشمالية ، اسبانيا في اميركا الجنوبية ، هولندا في الهند الشرقية ، فرنسا في افريقيا ومصر . فلن يحاول لويس الرابع عشر حينذاك تحقيق الملكية الشاملة ، والسيطرة بقوة السلاح ، بل يكتفي بممارسة التحكيم الشامل . وتابع بلينير في الوقت نفسه محاولة سلامة كبرى ، هي تحقيق وحدة الكنائس ، بالاتفاق مع بوسويه الذي كان منصرفاً الى توحيد الكنيستين الكاثوليكية والبروتستانتية في فرنسا ؛ وقد نشر بوسويه آنذاك « شرع المقيدة الكاثوليكية في المواضيع المختلف عليها » الذي كان له أثر عم اوروبا (١٦٧١) ، واتصل به « بوفندورف » ، مهذب ولي عهد اموج حيث كان الاجتماع مرغوباً فيه ، وتولى في « سان جرمين » هداية دوق « اوسنابروك » زوج حفيده المنتخب باللاتيني ، وأعد مشروعاً للمناولة تحت العرضين السريين ارضاء للبروتستانت . وفي الامبراطورية بذل الفرنسيون كل ما في وسعهم من اجل « سبينولا » جهوداً كبرى منذ السنة ١٦٧٥ لتحقيق المصالحة بموافقة الامبراطور والبابا « اينو شنتيوس » الحادي عشر . وفي السنة ١٦٧٩ ، وافق البابا على « شرح » بوسويه . فأمكن للبينيز تأمل تنفيذ مخططه ، وهو تحقيق مثالية العمل المنجز في معاهدات وستفاليا والبيرينيه .

الفصل الثالث

المظاهر الجديدة للأزمة

لم تتكشف وسائل مقاومة الأزمة الا عن كفافها الضروري ماوازنتها ، دون ان تمكن من التغلب عليها . فكان لا مناص مثلا من تقنيات زراعية اخرى ، اي من نهاج اخرى للملكيه العقارية ، وبالتالي من انظمة اجتماعية وسياسية غير تلك الممول بها في البر الاوروي ، حتى تزول الأزمة المزمنة في المواد الغذائية . يضاف الى ذلك ان استعمال العلاجات نفسه قد خلق اسبابا اخرى للأزمة .

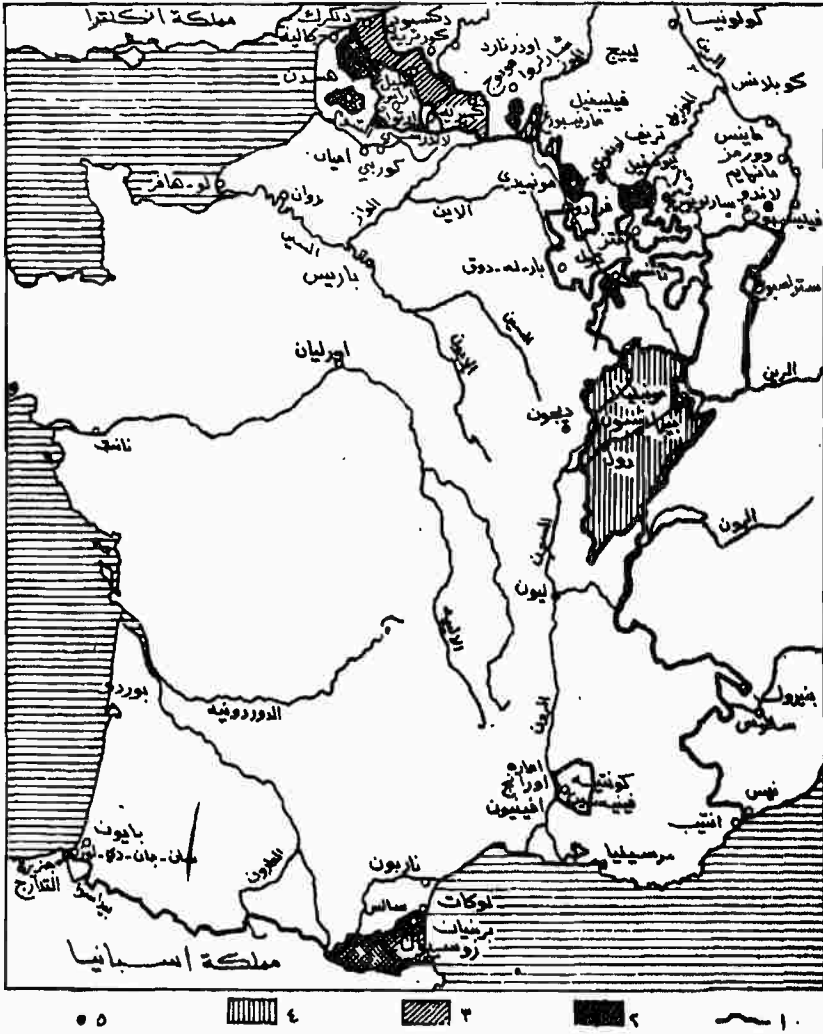
١ - النزاعات الاوروبية

يجب ان يُبحث عن أحد الاسباب الكبرى للأزمة ، وهو ابرزها ان لم النزعات التسلطية القارية يكن احدها ، في الحروب التسلطية ، الاوروبية والاقيانوسية ، في عهد حكم لويس الرابع عشر الشخصي . فالنزعات التسلطية لم تلق السلاح قط . اوقف تسلط آل هابسبورغ ، ولكنه لم يهزم . واصر آل هابسبورغ النمسا على مدعياتهم . فان الامبراطور ليوبولد الاول ، سور اوروبا المسيح في وجه الاتراك ، وقائد جيش الصليبية الطافرة امام فيينا (١٦٨٣) ، ومنتزع هنغاريا وترنسيلفانيا مسن الكفرة (صلح كارلوفيتز ، ١٦٩٩) ، الذي توفق خلال سنوات معدودة الى الاستيلاء على مناطق الدانوب والساف والدراف الواسعة الاربعاء حتى قمم جبال الكاربات وحتى بلغراد ، بينما لم يستول لويس الرابع عشر الا على بعض المواقع المحصنة في الاقاليم المنخفضة ، وعلى منطقة «فرانش - كورنتيه» الصغرى ، الفرنسية لغة وروحاً ، ان هذا الامبراطور ، الذي اوشك تكراراً ان يؤدي للمسيحية خدمة توحيد الكنائس ، التي لا تتدر بثمن ، وان يضع حداً نهائياً لانشقاق الكاثوليك والبروتستانت ، والذي سطع نفوذه العظيم ، وطالبه باسبانيا والمهند ، قد صان اوروبا كما يصان المنص الخاص .

كما ان الحكومة الفرنسية ، التي دافعت عن الحريات حتى ١٦٦٠ ، قد نزعت هي ايضاً الى التسلط بعد احرازها النصر وتوطيد التفوق الفرنسي ؛ فقد حاول لويس الرابع عشر فرض هيمنته وادعى بالتاج الامبراطوري نفسه . . فادى ذلك الى تصادم آل هابسبورغ وآل بوربون . وادى الصراع السيامي ضد الازمة الى ازمة سيامية جديدة .

ان الروح التجارية عززت النزعات التسلطية البحرية وارغمت النزعات التسلطية البحرية التسلطية القارية على الاتجاه بانظارها ، في الوقت نفسه ، شطر البحر . ففي عهد الجمهورية وعهد حماية « كرومول » اولاً ، زاحمت انكلترا الاقاليم المتحدة ، منذ السنة ١٦٥٠ ، على التفوق التجاري والبحري واحتكار تجارة الهند واميركا وتركه الاسبانيين البرتغاليين الذين افل نجمهم . واكرهت الحرب الانكليزية الهولندية (١٦٥٢ - ١٦٥٤) الاقاليم المتحدة على الارتضاء بوثيقة السنة ١٦٥١ حول الملاحة (معاهدة وستمنستر ، ١٦٥٤) ومن ثم بالحد من دورهم كجواله البحار حدًا ملوسًا . وفي السنة ١٦٦١ ، تزوج شارل الثاني من الاميرة البرتغالية « كاترين دي براغانس » التي امهرت بومباي وطنجة . فأتاحت قاعدتها العمليات هذه للانكلز الادعاء بالوساطة بين الاقاليم المتحدة والبرتغال ؛ كان البرازيل البرتغالي قائراً على السيادة الهولندية ؛ فاضطرت الاقاليم المتحدة الى التخلي عن هذه الارض الاستعمارية (١٦٦١) . واخيراً ارغمت الحرب الانكليزية الثانية (١٦٦٤ - ١٦٦٦) الهولنديين على التخلي عن هولندا - الجديدة وعن امستردام الجديدة (التي اصبحت نيويورك) (معاهدة بريدا ، ١٦٦٧) . وهكذا خسر الهولنديون تجارة الهند الغربية واكرهوا على الانكفاء نحو الهند الشرقية . وكانت النزاعات الانكليزية الهولندية هذه فاتحة الحروب الكبرى لاجل السيطرة على البحار والتجارة العالمية . ثم نهجت فرنسا النهج نفسه . كان كولبير طامعاً في السيطرة الاقتصادية وهي شرط السيطرة السياسية . فأقدم ، بتعرفة السنة ١٦٦٧ ، على تلك الحرب الجمركية التي كانت سبباً من اسباب الحرب الهولندية (١٦٧٢ - ١٦٧٨) . بعد الهجوم الصاعق على هولندا ، استطلع رأي كولبير ، في شهر حزيران ١٦٧٢ ، في شروط معاهدة الصلح القريبة ، فاقترح ضم الاقاليم المتحدة ، وبالتالي تجارتها ، واكره الهولنديين ، الفرنسيين الجدد ، على التخلي عن جزء من تجارتهم للفرنسيين القدماء . وقد جاءت هذه المشاريع ، التي لم يعلم بها الهولنديون ، تنمة لمخطط التجزئة الاقليمية والانهيار الاقتصادي والاذلال الذي عرضه «لوقوا» على الاقاليم المتحدة في حزيران ١٦٧٢ . الا ان هذا المخطط وحده كان كافياً : أنتفض الهولنديون سخطاً وصموا على القتال حتى النهاية . وهكذا فان الروح التجارية ، المدة ، فيما خصها ، لمعالجة الازمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، التي تعرضت لها الدولة ، قد أدت بهذه الاخيرة الى حروب كان مقدراً لها ان تثقل وطأة الازمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

استمرت كل النزاعات بفعل خلافة عرش اسبانيا التي سيطرت على
 السياسة الاوروبية منذ السنة ١٦٦٠ حتى السنة ١٧١٣ . لم يرزق
 فيليب الرابع ، ملك اسبانيا ، حتى السنة ١٦٦٠ ، سوى ابنتين ، احدهما تلك التي تزوج منها



الشكل ١١ - الغنم الفرنسي منذ معاهدتي وستفاليا حتى معاهدة اوترخت

- ١ - الحدود ٢ - معاهدة البيرينيه ١٦٥٩ ٣ - ايس لا شابيل ، ١٦٦٨ ٤ - نيبينغ ، ١٦٧٨
- ٥ - اقاليم ربطتها بفرنسا غرف الاجتماع

لويس الرابع عشر ، والثانية تلك التي لن يلبث الامبراطور ليوبولد الاول ان يخنطها . ورزق

بعد ذلك ابناً هو شارل الثاني الذي غدا ملك اسبانيا ، ولكن ضعف بنيته البالغ قد حمل الجميع على الاعتقاد بأنه لن يرزق اولاداً وبأنه سيموت قريباً . فالى من تؤول خلافة العرش يا ترى ؟ اجل ان ماري تيريز ، عقيلة لويس الرابع عشر ، قد تنازلت عن هذه الخلافة في معاهدة البيرينييه . ولكن التنازل ، بصرف النظر عن ان الامير لا يستطيع ان يتنازل تنازلاً صحيحاً عن حقوق تتصل اليه بالنسب ، قد نُسِمَ به «مقابل» ٥٠٠ ٠٠٠ دينار لم تدفع قط : اذن فهو باطل . لذلك فلويس الرابع عشر ، وهو ابن وزوج اميرتين اصغر سناً . واذا ورث ليوبولد خلافة العرش ، فهذا يعني اعادة امبراطورية شارل الخامس ، وتهديد فرنسا بالزوال واوروبا بالاستعباد ، وضياح نتيجة جهود وتقضيات استغرقت قرناً ونصف القرن . واذا ورثها لويس الرابع عشر ، فهذا يعني صيرورة السيطرة التجارية والبحرية الى فرنسا مع الوسائل الموصلة الى الامبراطورية الشاملة . فالقصد انما كان استثار الامبراطورية الاسبانية في اميركا واستغلال المفترقات التجارية ذات الاهمية الحيوية : بحر الشمال الذي تقوم الاقاليم المتحدة على سواحه ، والبحر المتوسط الذي تتيح السيطرة عليه صقليا ومملكة نابولي ، وكلاهما ممتلكات اسبانية . وغني عن البيان ان الدولتين البحريتين ، انكلترا وهولندا ، ما كانتا لتقبلارؤية فرنسا تعيد فتح مصاب نهر اسكو ، وتبث انفرس التي قد تصبح المنافسة البحرية لامستردام ولندن اذا ما رفعت عنها قيود معاهدة مونستر وضمنت مساندة دولة واسعة الاطراف تقوم وراهاها ؛ وبترك الفرنسيين يسيطرون سيطرة نهائية في أفريقيا الشمالية ومرافق الشرق الاوسط ؛ أو بتركهم يحصلون على احتكار في المستعمرات الاسبانية في اميركا ، ويزودونها «وحدم» «بالمصنوعات» والزوج ، ويقصون منافسهم عن التيار التجاري الجديد نحو «شيلي» و«بيرو» و«كاليفورنيا» السفلى عن طريق مضيق «ماجلان» . لذلك راقب الانكليز والهولنديون عن كثب خلافة عرش اسبانيا حتى يكون لهم نصيبهم منها .. قام الخلاف حول الخلافة بين سلاتين ملكيتين ولكنه اثار في وجه كل دولة مسألة خطيرة ذات اهمية قومية لأن الممالك انما تتجدد بلوكها . وكان شعور الشعوب بذلك كافياً لاخفاق وسائل الدبلوماسية العادية . اشترى لويس الرابع عشر محالفة ملك انكلترا شارل الثاني بجمالة شهرية ، وابدادات مالية ، وسرية هي «لويز دي كيروال» الحسنة التي اصبحت دوقة «بورسموث» . واشترى الوزراء وحتى زعماء المعارضة في المجلس التمثيلي . ولكن ضغط رجال المال ومجهزي البواخر والتجار وحقد الشعب الانكليزي على فرنسا البابوية والمنافسة ، اكراها شارل الثاني على التخلي عن حليفته فرنسا ، بينما كانت حرب هولندا على اشدها (١٦٧٤) ، وعلى تزويج ابنة شقيقه ، ماري ، الى «غليوم دورانج» ، ثم التحالف مع هولندا على فرنسا (١٦٧٨) .

فكر الحصان اكثر من مرة بتقسيم مسبق بغية افتتاح التركة . فبموجب تقسيم السنة ١٦٦٨ بين لويس الرابع عشر والامبراطور ، تقرر اعطاء لويس الرابع عشر المناطق المنخفضة ،

وفرانس - كوتيه ، ونافار ، ومملكة نابولي ، وصقليا ، وحصون مراکش ، واخيراً الفلبين ، على ان يعطى الامبراطور ما سوى ذلك . أما بعد اتفاق السنة ١٦٩٨ ، بين لويس الرابع عشر والدول البحرية ، فان اتفاق السنة ١٧٠٠ بين لويس الرابع عشر وهولندا وانكلترا قد اعطى ارشودوق اسبانيا ، شارل ، الهند والمناطق المنخفضة ؛ وولي العهد ، نابولي وصقليا ومواقع توسكانا . وفكر لويس الرابع عشر باستبدال صقليا بنيس وسافوا ، ونابولي باللورين فيستكمل بذلك ارض مملكة فرنسا . ولكن هذه المحاولات اصطدمت ثارة بتصميم الاسبانين الصريح على الابقاء على كمال امبراطوريتهم ، واخرى برفض الامبراطور . فتوالت الحروب .

ثم لم يلبث الاختلاف حول الآراء الدستورية الذي نجم عن اختلاف
مراحل التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي التي بلغتها كل دولة من
الدول ان اصبح بدوره سبباً للنزاع . فبعد الثورة الانكليزية (١٦٨٨)
مثلا ، رفض لويس الرابع عشر الاعتراف بشرعية « غليوم دورانج » الذي اختاره الشعب
الانكليزي ملكاً عليه ، وساند اولئك الذين يعينهم نسبهم لهذه الولاية ، اي جاك الثاني ثم جاك
الثالث ، من آل ستوارت . فكان ذلك تصادماً بين مبدأ الملكية الوراثية المبنية على حق الهي
ومبدأ الملكية المبنية على التعاقد الحر .

النزعة الى
تسلط الدستوري

بدا تسلط الفرنسي أزهب من كل تسلط آخر ، واتهم لويس الرابع عشر
بأنه انما يريد استعباد اوروبا . اما الحقيقة فهي ان سياسته حتى السنة
١٦٧٨ تعتبر دفاعية ، ومكلمة لسياسة ريشليو . ان لويس الرابع
عشر واصل سياسة « الابواب » و « الطرق العسكرية » القديمة ، دونما نظر الى الحدود الطبيعية .
وهذا كان مقصده من الاستيلاء على اللورين ومن استرجاع دنكرك من شارل الثاني بالثراء .
لا بل يمكن اعتبار حرب نقل الحقوق نفسها (١٦٦٧ - ١٦٦٨) حرباً دفاعية لان فيليب
الرابع قد اوصى ، وهو على فراش الموت ، بان خلافة العرش تعود ، بعد شارل ، الى حفدة
ابنته الثانية ، مرغريت - تريز ؛ خطيبة الامبراطور ليوبولد : فبات لزاماً ، والحالة هذه ،
الاستيلاء على بعض بقاع المناطق المنخفضة بغية اقفال حدود فرنسا . ويموز اعتبار الحرب
الهولندية عملاً دفاعياً ضد التسلط التجاري الهولندي ضد السياسة الهولندية التي كان من شأنها
إفاحة استيلاء الامبراطور على المناطق المنخفضة مجدهما من التوسع الفرنسي فيها . زد على ذلك
ان اسبانيا التي حالت الهولنديين على فرنسا قد خسرت ، بالإضافة الى شطر من الفلاندر ،
منطقة فرانس - كوتيه التي قال لويس الرابع عشر عنها : « انها شقت لي طريقاً جديدة الى
المانيا ، يمكنني في الوقت نفسه اقفالها في وجه اعدائي » . فما زال الفرنسيون يعملون بوحى
فكرة ابعاد الغزوات عن فرنسا بالاستيلاء على الطرق المؤدية اليها التي تتترع من المدور وتتيح عملاً
عسكرياً هجومياً اذا ما احذق بها خطر هذا المدور .

المهيلات الفرنسية
والملح . الاوروني

الا ان دخول الفرنسيين الى المناطق المنخفضة ، في السنة ١٦٦٧ ، بينما كانت اسبانيا منهكة بفعل حكمها السيء والتشوش النقدي ، وبينما لم يحرز الامبراطور انتصاره على الاتراك امام الـ « راب » الا بفضل التجربة الفرنسية (١٦٦٣) ، وبينما كان لويس الرابع عشر يمارس حماية حقيقية على الامراء الرينانيين ، باستثناء المنتخب باللاتيني ، قد نشر الذعر في اوروبا . في هذه السنة بالذات ، نشر الفرنسي « اوّبري » ، مدعيات الملك العادلة بالامبراطورية . وقد دافع في هذا الكتاب عن حق لويس الرابع عشر في استعادة القسم الاكبر من « ألمانيا » ارث الاجراء الفرنسيين القديم ، والتي امتلكها شارلمان بوصفه ملك فرنسا ، وفي استعادة المنصب الامبراطوري الذي انتزعتها ألمانيا من فرنسا . وزعم ان كل ما هنالك يؤمل ولي العهد بالسيادة على البحر والبر على السواء وبالملكية الشاملة . وما دور روما اوغسطس سوى اعداد لدور فرنسا لويس الرابع عشر التي ستؤول اليها السيادة المطلقة على الكون .

كان السخط والذعر شاملين . فان السفير الامبراطوري ، « ليزولا » ، قد اشتكى ، في كتابه « ترس الدولة والمدالة » ، من ان عدة لويس الرابع عشر الحربية لا مبرر لها سوى تصميمه على فتح كافة انحاء اوروبا . العالم المسيحي مهدد بالخطر . يجب ان تسلم اوروبا وتتحد ، لو ان تقبل باستعباد الفرنسيين لها . وكان للكتاب صدى عظيم جداً . وقد روي خطأ في حينه ، ان صورة ولي العهد بدلها الامبراطور تملأ كل مكان في فرنسا ، حتى الحانات . ومثل اخذ النفوس فرنسا مدرّعة ، تغطي رأسها ثعابين هائجة ، تتقدم ، وهي تنفخ النار في بوق ، نحو أوروبا بامجتاحة يحتلها جنود فرنسيون مهانقون يطعمون الاطفال طعنات نجلاء برماحمهم ويجهزون على الجرحى بالمساعير ويسحقون المدنيين تحت سنابك جيادهم ، بينما تنهار الجدران المشتعلة وتتصاعد دخان الحرائق نحو السماء . ولعل لويس الرابع عشر ، الذي امر بسجن « اوّبري » ، لم يكن مضمناً تصمياً واضحاً على الضغط والطمعان ، ولكن الرأي العام الاوروبي نظر اليه نهائياً كما الى مجنون او كما الى « هائج نائر » .

بعد معاهدتي ليمينغ (١٦٧٨ - ١٦٧٩) ، لم يبق مجال للارتباب . فان الملك - الشمس وفرنسا - الشمس ضبط الحدود الشمالية ، وضم فرانش - كوتيه ، والاحتفاظ باللورين ، واكتساب فريبورغ (في بريسغو) ، باب الهضبة الدانوبية ، وانقاذ الحلفاء الاسوجيين من الدايمرك وبراندنبورغ المنتصرتين عليهم ، ودور الحكم في اوروبا ، والاقدام في ايام السلم ، بحسب عرف اوروبي قديم على كل حال ، على ضم اقاليم خاضعة لاقاليم اخرى اعطيت لها بموجب المعاهدات ، كل ذلك جعل فرنسا تزدهر وخيلاء وكبرياء . منحت باريس الملك ، في السنة ١٦٨٠ ، لقب « لويس الكبير » . ومن ثم باترى ، في نظر الفرنسيين آنذاك ، حكيماً الرواقين ، وهام ارسطو والانسان الالهي عند اللاكديميونيين ، اذا ما قورنوا بلويس ؟ مجرد ظلال او رموز . « ما كنا لنؤمن بهذا القدر من المعجزات (التي اتاها) لو لم نشاهدها بام العين : فلماذا البحث اذن في الاسطورة عن اعمال « هر كول » ، وفي التاريخ عن اعمال الاسكندر ،

ما دام لويس الكبير يعطينا المثل عن كل الفضائل ؟ ان هذا البطل ، بفهوم البطولة القديم ، يريد السيطرة الشاملة واثباتها الرسمي ، الامبراطورية . ولكن الفرنسيين متفقون في الرأي ويتفنون مع لويس الكبير بفرنسا الكبرى . افلم يكن لفرنسا ، في ما يزعمون ، عظمة وامتياز لا نظير لها ؟ أو لم يكن الفرنسيون اساتذة في كل الفنون ؟ أو لم تكن لغتهم لغة اوروبا ؟ ففي نيميغ حرر سفراء الدانمرك بقرقياتهم باللغة الفرنسية . لا بل ان سفير اسبانيا المتعجرفة كان يجيب باللغة الفرنسية على ترحيب زملائه به . ولم ير الفرنسيون في ذلك ما يثير الدهشة ، فليس هنالك سوى لغة واحدة كاملة وحكم واحد . كاجل ومثل ادبي اعلى واحد ، تتوفر كلها في فرنسا . اللغة الفرنسية شبيهة بمخلق الامة التي تتكلمها : حلوة ، عذبة ، صافية ، نقية ، نبيلة ، عظيمة . ليس لاية بلاد وضع شبيه بوضع فرنسا ، ولا تتوفر لاية بلاد كما لفرنسا الاشياء الضرورية للحياة . الفرنسيون اغنياء بجميع مواهب الروح والجسد . يخوضون الحروب لتحرير الشعوب وتحضرها اذا حالهم النصر فانهم يتهجون بمداللة وعظمة ، كما ان مهزومي فرنسا يستفيدون من هزائمهم فوق ما تستفيد فرنسا الظافره من ظفرها . أو ليس عدلاً ، في زعمهم ، ان تسيطر مثل هذه الامة على العالم ؟ كانت فرنسا لهم ، بالنسبة للكون ، كما هي الشمس بالنسبة للسيارات في نظام كوبرنيك . وكانت فرنسا - الشمس خليفة بالملك - الشمس .

ومن سخرية القدر ان ضم ستراسبورغ ، الذي تم في ايام السلم والذي كان له ما يبرره ، قد احدث اسوأ اثر . سبق لستراسبورغ ، المدينة الامبراطورية الحرة ، وباب الالزاس ، ان سمحت ثلاثة لجيوش الامبراطور بعبور جسر الرين ، على الرغم من حياهما . فاستولى لويس الرابع عشر على المدينة (١٦٨١) لسد هذه الثغرة المفتوحة في جهازه الدفاعي . ولكن هذا العمل فسر بانه تصميم على فتح لا يقف عند حد ، فالقى الذعر في اوروبا . اصف الى ذلك ان لويس الرابع عشر ، رغبة منه في دعم مدعياته بالامبراطورية ، قد رغب في ان يؤدي خدمة جلي للعالم المسيحي يجمع المسيحيين المنفصلين الى الكتلكة ، وفي ان يؤديها وحده بمزل عن اي شخص آخر . فكانت رغبته مدعاة لحشية البابا وفشل انضمام بروتستانت المانيا الذي اعده سبينولا والامبراطور ، والذي كان الامراء ، بتأثير من ليبنيز ، مهيبين للقبول به : الاعتراف بالبابا رئيساً والقبول بالجمع التريدينتي . أما لويس الرابع عشر ، فكان بمقدوره ، بواسطة فرسانه ابطال براءة نانت في فرنسا . وعزيت اليه رغبته في ارسال فرسانه لمساعدة جاك الثاني على اعادة انكلترا الى احضان الكتلكة . فاعتقدت اوروبا كلها بان لويس الرابع عشر انما يريد الاحتلال لتحقيق الارتداد . فارتجف الاوروبيون قلقاً . لا بل ان اصدقائه لويس الرابع عشر القدماء انفسهم ، بورجوازي امسترام المعادين لرئيس السلطة التنفيذية ، والامراء الالمان ، قد تحلوا عنه « لضهان وصيدم » . وثار الانكليز وطردهوا جاك الثاني (١٦٨٨) . واتحدت اوروبا ضد فرنسا .

المحالفات ضد فرنسا جاء رد فعل أوروبا ، امام الخطر ، محالفات بقيادة الدول البحرية . كانت الاحلاف محصورة ، قبل السنة ١٦٨٥ : حلف السنة ١٦٦٨ الثلاثي ، بين انكلترا وهولندا واسوج ، الذي ارغم لويس الرابع عشر على ايقاف فتوحاته في « فلاندر » وعلى توقيع معاهدة صلح « اكس - لا - شابيل » (١٦٦٨) ، وحلف « لاهاي » الكبير (١٦٧٣) بين الاقاليم المتحدة والامبراطور واسبانيا ودوق اللورين الذين انضم اليهم المجمع الجرمانى (١٦٧٤) ، ثم الدايمرك ، وقد انقذ الاقاليم المتحدة والمناطق المنخفضة . ولكنها غدت شبه شاملة ودائمة بعد السنة ١٦٨٥ . فان البروتستانت الفرنسيين المهاجرين حرضوا أوروبا على لويس الرابع عشر وعملوا على توحيد الامراء ضد فرنسا . وكان قلب الاحلاف النابض غليوم دورانج ، رئيس السلطة التنفيذية في الاقاليم المتحدة ، الذي اصبح ملكاً على انكلترا في السنة ١٦٨٩ ، واشتهر بمصيبيته البروتستانتية وعنف عدائه للفرنسيين . تحالفت انكلترا والاقاليم المتحدة مع تكتل « اوغزبورغ » الذي تألف في السنة ١٦٨٦ من الامبراطور وملك اسبانيا وملك اسوج لضمان العمل بمهادتي وستفاليا ونيميسج ، وما ان ارتضى لويس الرابع عشر ، في السنة ١٧٠٠ ، بوصية شارل الثاني ملك اسبانيا لمصلحة دوق انجو ، الذي اصبح ملكاً على اسبانيا باسم فيليب الخامس ، كي لا يترك الخلافة لامير نساوي ، حتى تألف الحلف مرة اخرى من انكلترا والاقاليم المتحدة والامبراطور ومعظم الامراء الالمان والدايمرك . وقد رفعت مغنويات المتحالفين فكرة الحرب الصليبية ضد لويس الرابع عشر . ساعدت الدول البحرية بما لها كل امراء البر الاوروي الموزين الذين ما كانوا ليصمدوا طويلا لولا هذه المساعدة . فبدأت بين الفرنسيين والانكليز حرب مائة سنة جديدة لن تضع أوزارها الا في السنة ١٨١٥ . وكان على فرنسا ، للمرة الاولى ، ان تخوض الحرب وحدها ضد أوروبا كلها ، حتى بعد السنة ١٧٠٠ ، لان اسبانيا كانت مستضعفة ، فالقي عبء الصراع كله على كاهل فرنسا التي واجهت اعداءها على طول حدودها البرية ، من دنكرك حتى طولون ومن برنيسان حتى باتون ، وفي اسبانيا ، وعلى الجبهة البحرية ايضا ، في البحر المتوسط والاطلسي والمانش وبحر الشمال ، وفي المستعمرات حتى في اميركا والهند . فباقت فرنسا ، كما سيحدث لها بعد مرور قرن كامل في عهد مجلس الميثاق « ولجنة الانقاذ المام » ، موقفاً كبيراً محاصراً .

طالت الحروب اكثر فاكثر . فبعد حرب « نقل الحقوق » ديومة الحرب رعبز الجيرش (١٦٦٧ - ١٦٦٨) والحرب الهولندية (١٦٧٢ - ١٦٧٨) ، دامت حرب حلف اوغزبورغ منذ السنة ١٦٨٨ حتى معاهدة ريسويك في السنة ١٦٩٧ ، وحرب خلافة عرش اسبانيا منذ السنة ١٧٠٢ حتى السنة ١٧١٤ ، ومنذ السنة ١٦٨٨ حتى ١٧١٥ ، اي طيلة ثمان وعشرين سنة ، استفرقت الحروب منها احدى وعشرين سنة تقريباً . ويرد ذلك الى ان الحلفاء ، الذين استفادوا من تفوقهم العددي والمالي ومن عضد البروتستانت في فرنسا ، قد تضاربت مصالحهم فانقسموا وطالت المسافات التي تفصلهم عن فرنسا فصعب تنسيق

حركات جيوشهم ، بينما استفاد الفرنسيون من توسطهم اعداءهم ووحدة قيادتهم وقوة مركزية ادارتهم . كما يرد الى ان الجيوش الفرنسية بعد تألب اوروبا باجمعها على فرنسا ، قد فقدت تدريجياً قدرتها على المناورة وعلى احراز الانتصارات الحاسمة .

الاساطيل والصف
قام الفن الحربي البحري اولاً ، ما بين السنة ١٦٥٠ والسنة ١٦٨٠ ، بالبحث عن العدو العائم قبل كل شيء وآخر والسعي الى تدميره بمركبة حامية الوطيس ؛ والمناورة لعزل قسم من الاسطول واضناكه ؛ ومطاردة الفلول بدون هوادة . في سبيل تحقيق هذا الهدف عمد امراء البحر ، الانكليز منهم ، كـ 'مَنك' ، والهولنديون ، كـ 'رويتز' ، وـ 'ترومب' ، والفرنسيون ، كـ 'دوكين' وـ 'تورفيل' ، الى خطة 'اقتصاد القوى' . حتى ولو لم يكن اسطولهم ، في مجموعه ، دون اسطول العدو عدداً ، فانهم كانوا يناوون بحيث يمشدون معظم قوام ضد الجزء الذي يريدون تدميره من اسطول العدو ويحققون التفوق العددي في هذه النقطة . لذلك قادوا الى المركة عدداً من الفرق المتضامنة هدفاً ، المستقلة حركة . واحتفظ قادة الفرق ببعض المبادأة . فكان باستطاعة الفرقة ان تغادر مكانها لتطوق العدو او لتستفيد من ثلثة في صفه . كان الهجوم سبداً .

ولكن صفوف مدافع السفن قامت في جوانبها . فلا مجال اذن للحصول على اقصى فاعلية نيرانها الا اذا صف الاسطول كله ، سفينة بعد الاخرى ، ترفع كل منها صارمها الكبير في المؤخرة وتوجه جانبها نحو العدو . منذ السنة ١٦٥٣ ، امر دوق يورك ، الذي سيصبح جاك الثاني ، باعتماد هذه التشكيلة . الا ان تطبيقها تطبيقاً صارماً يشل الاساطيل التي تعجز اذ ذاك عن المناورة وينحصر عملها في اطلاق نيران مدافعها . ولكن امراء البحر والقباطنة انتهوا شيئاً فشيئاً الى التقلب على كل اعتبار واعتماد الصف المحدود . بعد انتصاره في 'بيتشي هد' ، طارد تورفيل العدو باسطوله كما كان مصفوقاً للمركة ، فلم يتمكن من تطويق وتدمير اجزاء اسطول العدو المتشتتة ، وكان ذلك سبباً هاماً من اسباب اخفاق عملية ازالة الجيوش في انكلترا . في السنة ١٦٩٦ ، نشر الاب 'هوت' مرشده واستاذ الرياضيات ، 'فن الجيوش البحرية او بحث حركات الاساطيل' ، حيث احل الصف في المرتبة الاولى . تشبع الضباط الفرنسيون من هذه المعلومات ، وفي السنة ١٧٠٤ ، طبق الانكليزي 'روك' ، وخصمه الكونت 'دي تولوز' ، هذه النظرية تطبيقاً صارماً في معركة 'فيليز - ملكه' . لم يستفد تولوز من ثلثة احدثها ليحاول عزل مقدمة القوة الانكليزية . كما لم تحاول هذه الاخيرة تطويق مقدمة القوة الفرنسية . لم تتحرك القوتان المتقابلتان . فاطلقت نيران المدافع دون جدوى طيلة سبع ساعات .

بيد ان عدم فاعلية العدد في المارك البحرية ، وجولة تورفيل الذي توفى في السنة ١٦٩١ الى ركوب البحر طيلة خمسين يوماً لتجنب خلالها عدواً يفوقه عدداً ، والى تدمير قافلة اسكليزية هولندية محملة بكل غال ثمين ، ونهكة الحزينة الفرنسية في اعقاب ارتفاع نسبة الوفيات في

١٦٩٣ - ١٦٩٤ وخلال حرب خلافة عرش اسبانيا ، اوحى كلها للفرنسيين بفكرة الاستعاضة عن حرب الاساطيل بحرب القرصنة . ففعل القراصنة البحريون ، « جان بار ، و « دوغي تروين ، وغيرهما ، ما يقضي المعجب واستولوا على الوف السفن المدوة . ولكن العدو قاوم بطراداته . وكانت الحاجة ماسة الى الاساطيل وخوض المعركة البحرية لتنظيف البحار من هذه الطرادات ، ولكن الفرنسيين لم يستطيعوا الى ذلك سبيلا بعد السنة ١٦٩٤ والسنة ١٧٠٤ . فاطلقت يدا العدو ضد القراصنة ، ولم تفلح حرب القرصنة في شل تجارتها على الرغم مما لحقت به من خسائر فادحة .

اما في البر ، فقد بلغت الجيوش اقصى فعاليتها بين السنة ١٦٦٠ والسنة ١٦٨٠ . فقد ازدادت قدرتها على اطلاق النيران باستخدام البندقية استخداماً متعاضداً وبإستعمال القذائف اليدوية لضرب النقاط الساكنة واكتشاف مخابىء العدو ، وتنظيم فرق خاصة من ملقي القنابل ومطلقي نيران المدافع . وأتاح اطلاق القذائف بحيث ترتد الى الارض او الى اي حاجز آخر ، بفعل انحناء المدافع المنحني خاصة ، نشر الفوضى والذعر في صفوف الاعداء وبلوغ هدف خفي بصورة غير مباشرة . وشكلت فرق من المشاة مجهزة خير تجهيز وسريعة الحركة جداً ، هي فرق « الدراغون » . وسمحت البزة ، وهي مختلفة باختلاف الاسلحة والفرق ، للقائد بتمييز شتى فرقته في ساحة المعركة ، وسهلت عليه القيادة . واتاحت المشاة العسكرية قيادة فرق المشاة بكل تنظيم ، وحفظ المسافات والابعاد الملائمة لمعركة بالاسلحة النارية . كما ان تنظيم « لوفوا » لغوافل العربات الصغيرة والكبيرة ، والمخازن على مقربة من الحدود ، ومستودعات الاعلاف ، أتاح للفرنسيين دخول المعركة قبل غيرهم واخذ اعدائهم على حين غرة منذ انتهاء فصل الامطار . ولما حجة المواقع الحصنة ، احكم « فوبان » جهاز الخنادق « الموازية » لتحصينات العدو ، بغية ابواب مدافع النقب ، وجهاز الحفر الموحدة بغية التقدم تدريجياً . اما للدفاع فقد أخفى الجدران في خنادق عميقة لا تبرز منها فوق الارض سوى مناريس ترابية تتفرز فيها القذائف دون ان تخلخل شيئاً ويسهل اعادتها الى ما كانت عليه . وشبك نيران ابراج الحصون . « المدينة التي يحاصرها « فوبان » ساقطة حتماً ، والمدينة التي يدافع عنها فوبان بمنعمة الفتح » . فاستطاع قادة نخبة ، كدوتورين ، وكونديه ، اكثر من أي يوم مضى ، السمي وراء معركة التدمير ، و« حجب » المواقع ك« ما يسترخت » ، في السنة ١٦٧٢ ، والانقضاض خطا مستقيماً على قلب بلاد الاعداء ، كما في هولندا . وكانت الاستراتيجية الفرنسية استراتيجية الحرب الصاعقة . وهي لم تصادف الفشل في هولندا الا بفعل غمر البلاد بالمياه .

بعد السنة ١٦٨٠ اخذت الجيوش ، رويداً رويداً ، تفقد فعاليتها وقدرتها على المناورة . وكان ذلك نتيجة استخدام البندقية التي كملها فوبان باضافة الحربة اليها في السنة ١٦٨٧ ، والتي عم استعمالها في كافة الجيوش الاجنبية منذ حرب حلف اوغزبورغ ، وفي الجيش الفرنسي منذ السنة ١٧٠٣ . والبندقية ، في جوهرها ، قطعة فولاذية تطرقها صوانة حديد يطلق الزنبرك .

يزند الطرق شرارات تشمل النار في بارود الحزنة الذي ينقل النار بدوره الى البارود الموجود في مدفع السلاح ، بواسطة ثقب صغير يعرف بثقب اشعال البارود . ثم اطلق اسم البندقية على السلاح الناري بكامله . جاء هذا السلاح اسهل استعمالا واقل خطراً من البندقية القديمة ذات الفتيل . فما عاد الجندي ليشغل باله بالحوادث التي قد يسببها الفتيل المشتعل اثناء حشوه البندقية ؛ وما عاد ليتقيد بطول معين للفتيل حتى يصادف سقوطه على بارود الحزنة ؛ فقد اصبح باستطاعته ان يحرك سلاحه على هواه بالقرب من رفيقه او في وسط الدوالي والاشجار، وان يحشوه ويطلق النار بسرعة . منذ ذلك الحين ، غسدت نيران المشاة وسيلة المعركة الاولى ، وشكلت فرق المشاة ، وهي ملكة المعارك ، حتى خمسة اسداس مجموع الجيوش . ولكن ما لفت انتباه القادة هو سرعة اطلاق النار في البندقية ، طلقة في الدقيقة، والاطلاقات الكافية الكثيرة (التي أخرت اعتمادها في الجيش الفرنسي) . لذلك كان عنوان الكمال في نظر القادة اطلاق نيران الاسلحة في آن واحد ، وغايتهم المنشودة التوصل الى اطلاقها باستمرار ، ومدت سباط من الرصاص امام جبهة الجيوش ، وانشاء جدار من نار في سبيل بلوغ هذه الغاية . رتبوا الجيوش صفوفاً طويلة متوازية في وجه العدو . ولكن القادة استمروا في اعتماد الصفوف المحسة عمقاً والخطوات الاربع او الخمس مسافة وبعداً ، في حال ان الاطمئنان الى السلاح الجديد كان يسمح باعتماد الخطوة الواحدة مسافة وبعداً بين الجنود ، وسرعة الاطلاق باعتماد الصفوف الثلاثة عمقاً فقط . وبسبب عدم توفر الوسائل للانتقال من الصف المتلاحق الى الصف المتلاحق ومن الصف المتلاحق الى الصف المتلاحق ، توجب ، كما في الماضي ، مجابهة العدو على بضع المسافة والهجوم عليه ببطء ، وتوزيع الجنود هنا وهناك في الحقول . يضاف الى ذلك زوال فرق مطلقي النار بتواتر ، خلال حرب خلافة عرش اسبانيا ، باستثناء خمسين رجلاً في كل فوج . ومرد ذلك الى ان استعمال البندقية قد أمن السلاح الضروري لصد العدو بنيران محكمة التصويب ، بنيران قاتلة ، فلم يمد من مبرر حقيقي لاستخدامهم . الا ان القادة الفرنسيين ، الدوق « دي لوكسمبورغ » ، « لورج » ، « بوفلر » ، « كاتينا » ، « اندادم » ، « لويس دي باد » ، « منتخب بافيير و غليوم دورانج » ، « ابان حرب حلف اوغزبورغ » ، « فندوم » و « فيليه » و « برويك » من جهة ، والامير « اوجين » و « تشرشل » والدوق « دي مارلبورو » من جهة ثانية ، ابان حرب خلافة عرش اسبانيا ، لم يتخلوا يوماً عن فكرة معركة التدمير التي ستنتهي حتماً بسقوط المواقع المحصنة . ولكن الصف جعل جيوش حرب خلافة عرش اسبانيا اقل قدرة على المناورة والحركة مسن جيوش ثورين وكونديه . وقد حافظ لويس الرابع عشر على رباطة جأشه في أسوأ ساعات الحرب لانه كان مقتنعاً ، كما قال مراراً ، باستحالة انهزام هذه الجيوش الجرارة انهزاماً كاملاً .

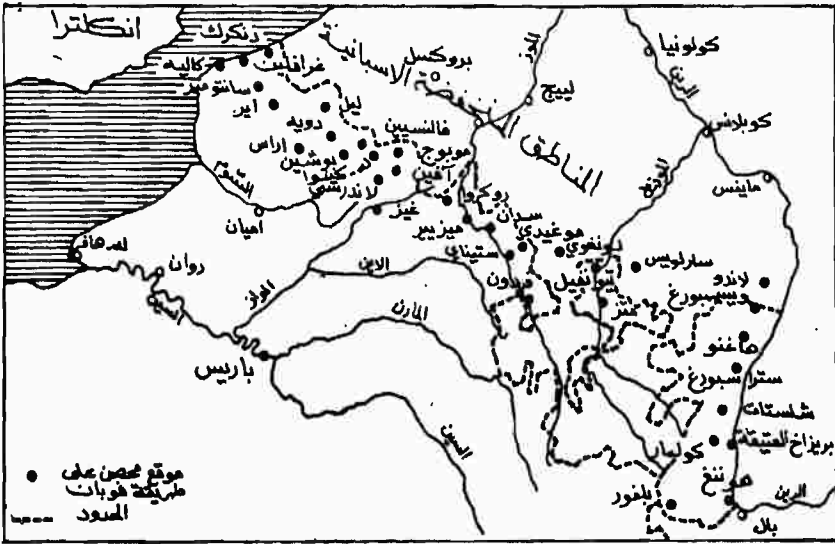
بسبب نقائص جيوش البر والبحر هذه، فشلت كل محاولات الحرب الصاعقة والاندفاع حتى المراكز الحيوية . فشلت في السنوات ١٦٨٩ - ١٦٩١ محاولات ازالة الجيوش الفرنسية في انكلترا ، بينا التزم الفرنسيون حرباً دفاعية على الحدود البرية ، وفشل في السنة ١٧٠٢ الهجوم

المركز على فيينا الذي رسمه لويس الرابع عشر ؛ وفشل الحلفاء في التوصل الى غير فتح الولايات ، « بافير » بعد « بلنهام » (١٧٠٤) ، و « برابان » و « فلاندر » بعد « رامبي » (١٧٠٦) . اضعف الى ذلك ان بعض طرائق الدفاع قد اُخترت تقدم الجيوش . فالفرنسيون قد اجتاحتوا البالاتينا تكراراً لحماية الرين . وفي السنة ١٦٨٩ ، احرقوا هيدلبرغ ، ونسفوا قصرها المائد الى عهد النهضة . ودمروا مانهايم وسبير و « وورمز » و « بنجن » . وبعد اودنارد ، عجز الحلفاء عن الانقضاء على باريس لان جيشاً فرنسياً مؤلفاً من ٨٠٠٠٠ رجل ، هزم دون ان يقضى عليه ، ما زال يهددم من الورا ، ولانهم اصطدموا بـ « الحدود الحديدية » المعروفة باسم فوبان ، وهي جهاز دفاعي بنى فوبان ووضع تصميمه لويس الرابع عشر . تألف هذا الجهاز من سلسلة مواقع محصنة تتصل فيما بينها بمواقع محصنة ثانوية ، ويقوم وراءها وبموازاتها خط دفاعي ثان . وكان الهدف منه اقفال طريق الفزو : مجازات الواز و « سيدان » و « فروار » و « بلفور » وسافوا العليا . وهو ما ساعد فرنسا على الصمود .

وهكذا تحولت الحروب الى حروب انهاء واقضاء . استخدم المحاربون كل التوازن الاوربي وسيلة لتساعدهم على احراز النصر . استخدم الحلفاء البروتستانت الفرنسيين . فقام هؤلاء في كل مكان بالدعاوة ضد الفرنسيين وتجمسوا وتأمرؤا المصلحة الاجانب . وقد نظم « جوريو » ما بين السنة ١٦٩٢ والسنة ١٧٠٥ ، وبأموال الوزراء الانكليز ، شبكة جاسوسية كاملة الحلقات . وحرص « بروسون » و « فيفان » بروتستانت منطقة الـ « سيفين » و « فالديي » اقليم « دوفيني » على التمرد والثورة . وقد هدفا من وراء هذه الثورات الى تسهيل دخول الجيوش الاجنبية ، ووزعا ذهب العدو بوفرة . فساعدت ثورة « كاميزار » « السيفين » ، في السنة ١٧١٠ ، على ازال الجيوش الانكليزية في « سيت » و « آغد » . وقد حسب البروتستانت على الرغم من تحذيرات « بابل » ، ان الحلفاء المنتصرين سيشرطون على لويس الرابع عشر عودتهم الى فرنسا . ولكن الحلفاء لم يأتوا على ذكرهم اثناء المفاوضات . واخيراً وضع الميماء والنهكة حدّاً للنزاعات المسلحة . فاضطر المحاربون الى التسليم بتقاسم الاراضي والسلطة والنفوذ . قبل الحلفاء مكرهين ، في معاهدة ريسويك (١٦٩٧) بالتخلي عن فكرة اعادة فرنسا الى حدود السنة ١٦٤٨ والسنة ١٦٥٩ ، وقبل لويس الرابع عشر مكرهاً ايضاً بالتخلي عن اللورين وعن حصون ضفة الرين اليمنى . وفي معاهدتي اوترخت (١٧١٣) وراستات (١٧١٤) ، قبل لويس الرابع عشر والامبراطور مرغين بتقاسم خلافة اسبانيا . فاحتفظ فيليب الخامس باسبانيا والامبراطورية الاستعمارية ، وامبراطور النمسا شارل السادس بالمناطق المنخفضة ومنطقة ميلانو والحصون التوسكانية وثابري وسردينيا ؛ اما لويس الرابع عشر فكان نصيبه انه حال دون تجديد امبراطورية شارل الخامس واحلّ احد افراد سلالة بوربون على العرش الاسباني . وهكذا لم تتوفق اية قوة برية الى السلطة الشاملة .

انتظمت الحدود بين الدول تدريجياً بموجب معاهدة نيمسغ والمعاهدات التي
 تلتها . تخلت فرنسا شيئاً فشيئاً عن مواقعها المحصنة في اراضي الاعداء ،
 وكانت لها بمثابة « ابواب » لهجوم مستقبل : سالوس وبينيرول في ايطاليا ،
 فريبورغ وبريزاخ وكهل وفيلبسبورغ على ضفة الرين اليمنى ، « شارلوا » و « اودنارد » ،
 « وآت » و « منين » و « ايبير » و « دكسمود » وتورنيه الخ ، في المناطق المنخفضة الاسبانية .
 وازالت فرنسا شيئاً فشيئاً الجيوب الاجنبية في داخل المملكة . فلم يبق في السنة ١٧١٣ سوى
 ثلثة واحدة هامة هي اللورين . فقد جرى الانتقال اذن ، في هذا العهد ، من الحدود - المناطق
 القديمة الى الحدود - الخطوط في مفهوم الدول المعاصرة ، التي تعينها الامات الدفاعية ، كقمم

الحدود - الخطوط
 والدول - القطائل



الشكل ١٢ - حدود فوبان الحديدية

سلاسل الجبال ، والانهار المحاطة بخنادق محفورة في الارض ، كما في الفلاندر ، والحدود المجهزة
 بالحصون ؛ فقد قابلت « الحدود الحديدية » مثلاً حصون « الحاجز » الهولندية . وفكر الساسة ،
 على الرغم من حكمتهم العملية ، يجعل الحدود فاصلاً بين اللغات والحضارات . فبعاءت هذه
 الحدود دليلاً على ان الدول اقتربت من الحد الاقصى لتوسعها وانها ستصادم تصادماً مباشراً ،
 ووضح الدبلوماسيون مفهوم الدولة - القطيعة ، كسافوا ، بيسمون ، وبالاتينا ، ومنتخبية
 كولونيا ، التي بقي على عاقبها عبء الفصل بين الدول الكبيرة وابطاء هجمات الجيوش والحد
 منها . ولكن هذا الدور المرهق قد أخضعها لسنة الاقوى ، اي للانكليزي .

توصلت الدولتان البحريرتان ، انكلترا وهولندا ، في معاهدتي ريسويك
 والحق العام الجديد واورخت ، الى اقرار حق عام جديد مبني على مبادئ العقد . وقد اعترف
 لويس الرابع عشر واوروبا ، على مرتين ، بشرعية ملوك تولوا سلطاتهم ، بعد ثورة السنة ١٦١٨ ،

بموجب عقد مع الشعب الانكليزي لا بموجب حق إلهي يكسبهم اياه نسبهم ، غليوم دورانج وماري ، ثم الملكة « آن » . لا بل ان الانكليز والهولنديين قد ادخلوا هذا الحق العام الجديد ، الى حد ما ، عند جيرانهم في البر الاوروي . ففي ريسويك واوترخت طالب الهولنديون بالحاج بتسجيل المعاهدتين في مجلس باريس التمثيلي ، كما لو كان هذا التسجيل يضيف الى توقيع الملك ضمانا اخرى . وفي اوترخت ، فرض الانكليز تنازل فيليب الخامس عن عرش فرنسا ، وتنازل الدوق « دي برّي » والدوق « دورليان » عن عرش اسبانيا ، وهي تنازلات باطلة بموجب مفهوم حق السلطة المطلقة الصرف ، وطالبوا ، اسوة بالهولنديين ، بتسجيل المعاهدة في المجلس . فاضفوا بذلك اعداءهم ، لا بئس فرنسا من ضم عرش اسبانيا فحسب ، بل بتعزيز مدعيات مجلس باريس التمثيلي ، المؤلف من قضاة يملكون وظائفهم ويتميزون بنزعاتهم الارستوقراطية والاقطاعية ، وبمعارضتهم لتعاضم سلطة الدولة . وبتوسع نطاق حقهم العام ، الملائم لبلاد مرتفعة النسبة البورجوازية ، والتنافي والوضع الاجتماعي في فرنسا ، حيث ما كان ليخدم المصالح الارستوقراطيات الرجعية ، أعاق الانكليز ، على غير علم منهم في الارجح ، تطور الامة الطبيعي واضعفوا الدولة .

أخيراً ، توصل الانكليز الى بسط نفوذهم السياسي والبحري والتجاري . فقد أتاحت انقسامات الاوروبيين التي توفقت معاهدتا اوترخت الى تغذيتها وسماها ، سيطرة الانكليز على

انقسامات اوروبا
ورجعات النفوذ الانكليزي

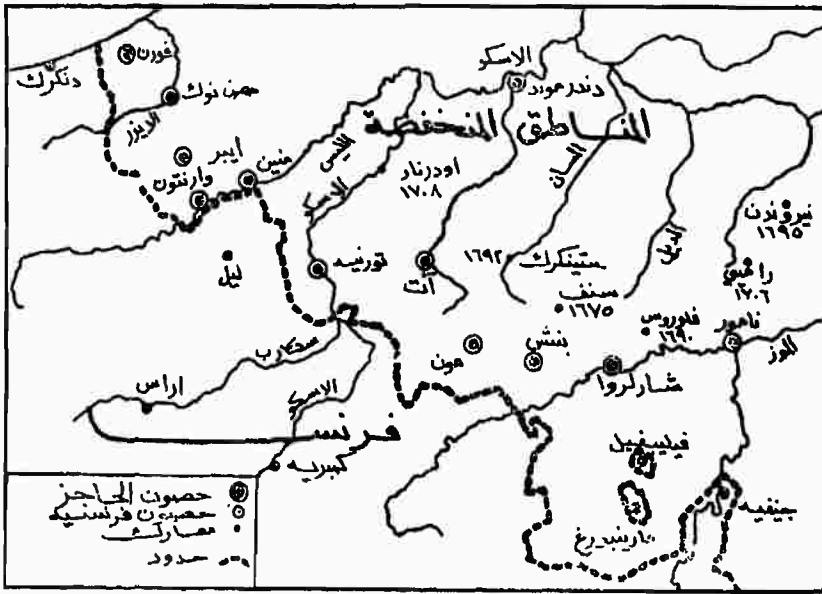
الطرق البحرية الرئيسية والاسواق التجارية الهامة . قسمت شواطئ بحر الشمال المحفوفة بالاختار بين ملكين متعادين هما لويس الرابع عشر وشارل السادس . فبقيت أنقرس مقفلة وسطح نجم لندن . ووفر النزاع بين الاسويجين من جهة وبين الدانمركيين والبروسيين والروس من جهة اخرى ، امكانات المناورة لاحراز المكاسب في بحر البلطيك والمضائق الدانمركية .

قسمت مجازات البحر المتوسط بين عدوين عنيدين هما شارل السادس وفيليب الخامس ؛ اما الانكليز ، مالكو مضيق جبل طارق وجزيرة مينورك ، فقد راقبوا مدخل البحر المتوسط الى الاوقيانوس ، وحوض المتوسط الغربي الى الحوض الشرقي ، واحرزت شركتهم التركية بمض المكاسب في ايطاليا وفي موانئ الشرق الاوسط على الفرنسيين .

منذ السنة ١٧٠٣ ، اعطت معاهدة « ميتون » الانكليز احتكار الاسواق البرتغالية والبرازيلية وانتزعت معاهدتا اوترخت الامبراطورية الاسبانية من الفرنسيين وفتحت امام الانكليز اسواق اسبانيا بتخفيض الرسوم على اقمشتهم الصوفية وباعطائهم الافضية على غيرهم ، واسواق اميركا باعطائهم احتكار توريد العميد الزوج وحق ارسال سفينة محملة بالمصنوعات كل سنة الى بعض موانئ اميركا الاسبانية . وفي الانحاء الاخرى من اميركا ، انتزع الانكليز من الفرنسيين

جون « هيدسون » مع رجحان النفوذ في تجارة الفراء، واكاديا والارض الجديدة مع رجحان النفوذ في صيد الاسماك ، وسان كريستوف مع منتوجها من السكر .

وهكذا توصل الانكليز الى ارساء أولويتهم تحت ستار الدفاع عن الحريات الاوروبية وعن حقوق الانسان ضد لويس الرابع عشر . وبفضل التوازن الاوروبي الذي تحقق في البر بين الدول الكبرى ، وخشية فرنسا ، والارتياحات والمنافسات المتبادلة ، استطاع الانكليز ، أسياد البحار وتجارة العالم ، المحافظة عليها . فللمرة الاولى منذ القرون الوسطى بسطت دولة بحرية نفوذها على البر الاوروبي ، وللمرة الاولى رافقت النفوذ ظروف جعلته يبدو وكأنه تحرير وانقاذ .



الشكل ١٣ - حصون الحاجز التي احتلها الهولنديون (معاهدة اوترخت ، ١٧١٥)

كان من شأن هذه الحروب انها حركت التشامخ القومي . فقد اعترف لاوروبا القوميات في مجموعها بمبقرية خاصة ؛ وانتشرت الكلاسيكية واللغة الفرنسية في كل مكان ؛ ولكن ذلك لم يمنع كل دولة من ان تعتبر نفسها متفوقة على ما سواها ، او بالاحرى جامعة وحدها المجد من اطرافه . وجاء في مؤلف اديسون ، « سبكتاتور » ، ان الازهار هي رمز الامم : فرائحة أزهار ايطاليا ذا فرة تنفّر من يشمها ؛ ورائحة ازهار فرنسا الزاهية والفاقتة ضعيفة وعابرة ؛ أما ازهار المانيا فلا رائحة لها عموماً ؛ واذا انتشرت منها رائحة ما فرائحة كريهة . وتحيل الفرنسي « لو ساج » انكليزا قساة يقدمون الغليون والجة لسيدة أفكارهم ، والمانيا

خلافاً ، مفكوكي الازرار ، سكارى ، غارفيز في قذارة التبغ ، متمرغيز حول طاولة تغمرها فضلات افراطهم في الاكل والشرب . وأكد « بوفندورف » و « لينيز » ان الحق الجرمانى سابق لكل ما سواه من حقوق ومتفوق عليها ، وان اللغة الالمانية ، التي ليست دون اللغة اللاتينية قدماً وجمالاً ، ترتقي الى اصول العالم ، وان الشمر الالمانى لا يعلو عليه شمر آخر . ولعل الاوروبيين لم يموا ما يخدمهم وعيهم للاختلافات والمنافسات القائمة بينهم .

اضف الى ذلك ان الطبايع الفردية جبارة . فالانكليز يقبلون بنتائج الاختبار في العلوم ، ولو لم تسمح بتكوين افكار واضحة كل الرضوح؛ اما الفرنسيون فيتمسكون بهذه الاخيرة ويميلون الى بناء البراهين المتسلسلة المستخلصة خير استخلاص ؛ وأما الالمان فيصعب عليهم القول بالآلية البعثة ويستلمون ابدأ بالقوى الخفية ، وبالارواح تقريباً .

٢ - الحرب وأزمة الدولة

ما زالت طريقة الانتاج ، وحركة تداول المادان الثمينة ، والنقد ، والاسعار ، اسبابا هامة من اسباب الازمة ، كما سبقت الاشارة الى ذلك في مستهل هذه الدراسة حول القرن السابع عشر . وتفاقت كافة اسباب الازمة بفعل الحروب الطويلة وما رافقها من قتلى وخراب ، وهدر القوى والوقت في انتاج ما هو عقيم وزائل (كالبارود والقذائف والاسلحة) ، وتحويل المال عن وظائفه الاقتصادية العادية لاجل حاجات الدولة ، وتحويل توزيع الدخول لمنفعة رجال المال وموافي الجنود . فبرزت مظاهر جديدة لازمة . ولكن الحروب احدثت نتائج مختلفة باختلاف نظام الدولة المعنية ، على انها استعملت في كل مكان تطوراً ما زال في مرحلته الاولى ، فلم يكن الجديد جديداً بصورة كلية ومطلقة ، وغذت الدول والمجتمعات اشد اختلافاً بعضها عن بعضها الآخر .

ما زالت الرأسمالية التجارية سائرة في طريق النمو، يرافقها تصلب الفردية النفعية المادية للمذهب القائل بان الملكية وظيفة عامة. وقد نظر اكثر فاكثر الى مهن التجارة والمزارعين والبخارة كما الى رسالات، او كما الى استجابات لدعوة الله . فظهرت كتب تقرأ من عناوينها : « المعنى الروحي لعمل الحقول (١٦٦٩) » ، « المعنى الروحي للملاحة » (١٦٨٢) ، « رسالة التاجر » (ريتشارد ستيل ، ١٦٨٤) . المسيحي يخلص بالايان، ولكن الايمان الحقيقي هو ذاك الذي يولد الاعمال ، والانسان سيحاكم على اعماله . ان التاجر، كالراعي، مدعو لعمل خاص لاجل الخير العام. فواجبه كمسيحي يفرض عليه من ثم الانصراف بكل قوته الى شؤونه . ولكن الدليل على ان المسيحي قد عمل ما في وسعه وكان اميناً لرسالته ، وان الله قد بارك تجارته ، هو النجاح والكسب . احراز النجاح واجب ؛ واستخدام الفوائد التي

تضعها عناية الله بين يدي المسيحي فريضة الزامية . المسيحي يظفر بالثروة والحياة الابدية في آن واحد ، ويرضي ، على خلاف ما جاء في الانجيل ، ربين في آن واحد : المال والله . الاندفاع وراء الكسب يصبح فضيلة ، والتقدم الاقتصادي غاية ، والانتاج المتزايد ابداً عبادة . فعكس الدين المسيحي ومهد السبيل أمام جشع الغني وتسلط الامة التجاري .

بجاحات الفردية للنفعية كان من نتيجة ثورات انكلترا انها انجحت تدريجياً ، بواسطة النظم السياسية الجديدة ، الفردية الاقتصادية والاجتماعية . ففي السنة ١٦٤١ ، ادى الغاء الغرفة المكوكبة والمحكمة العليا الى تحرير المالك والمتعهد الرأسمالي . انتقلت اراض كثيرة ، بفعل المصادر ، الى ايدي تجار المدينة . وساعدت الحرب الاهلية على نجاح المتطرفين . وطالب « المهدون » بحق التصويت للجميع وهدم الاسيعة والعودة الى الزراعة الجماعية . وطالب « الكادحون » بتوزيع الاراضي وتحريرهم « من السلطة الملكية التي كانت في قبضة الاسياد » . ولكن المالكين والتجار اعتبروا الملكية حقاً سابقاً للدولة التي وجدت لحمايته . وقد ارتأى « ابرتون » و كرومول ان الملاكين دون غيرهم هم الذين يؤلفون الهيئة السياسية وان بمقدورهم استعمال ممتلكاتهم كما يطيب لهم دونما خضوع لرقابة رئيس أو لادعاءات الفقراء الذين ليس يؤسهم سوى قصاص لخطاياهم . رد المجلس التمثيلي المرائض المقدمة احتجاجاً على الاسيعة . ولكن الجمهورية (١٦٤٩ - ١٦٥٣) لم تبد قادرة على حماية الملكية ، وهذا هو احد اسباب دكتاتورية كرومول « الحامي » (١٦٥٣ - ١٦٥٨) . وتغلب الرأي القائل « بان كل فرد سيعمل ما يؤمن له الدخل الاوفر ، على ضوء الطبيعة والعقل ... وان فائدة الفرد ستكون فائدة للمجموع » (١٦٥٦ ، « د ج . لي » ، « تبرير تنظيم حق التسييج ») . فخدم الجميع « اجمل سيدات العالم » ، اي إلهة الاعمال ، وليس وعي ذلك ما اعوز الهولنديين .

بعد اعادة الملكية ، في عهد شارل الثاني ، لم يطرأ اي تغيير على عدة نقاط سبق اقرارها : المجلس الخاص لا يتدخل بين المالكين والمتهمدين من جهة ، وبين الشركاء والاجراء من جهة ثانية ؛ الاشراف الريفيون سيسجون حقوقهم بحرية بغية زيادة انتاج الصوف والحنطة المدين للبيع ؛ بطل العمل ، أو كاد ، بقانون الفقراء ، فاستطاعت الرأسمالية الزراعية ان تتصرف تصرفاً طليقاً ، وكبار الملاكين ان يحولوا المشاركات الطويلة الاجل الى مشاركات اختيارية يسهل زيادة دخلها ، وان يرفعوا عدد المزارعين ويسيجوا الاملاك العامة في القرى . فعدت انكلترا من أم مصدرى الحنطة والصوف واللحوم الى البر الاوروبي ؛ كما ان نقل البضائع في السفن حدا بالمجهزين الى التسليح ؛ وغدت تجارة المستعمرات احدى اهم تجارات العالم ، وقد عززها فتح المستعمرات البرقغالية بمد زواج شارل الثاني من « كاترين دي براغانس » ، والتشدد في العمل بوثيقة الملاحة ، واحداث مجلس التجارة والمستعمرات .

ولكن هذه الانطلاقة جرت الى نزاع تجاري طويل الامد مع

هولندا وفرنسا . رضي الرأسماليون الانكليز عن سياسة شارل

الثاني ضد هولندا ، ولكنهم لم يرضوا عن موقفه ، ولا سيما عن

موقف جاك الثاني ، من فرنسا التي غدت اخطر منافسة في التجارة والمستعمرات . واذا أقدم

جاك الثاني من جهة ثانية على اعادة الكتلحة الى انكلترا بمساندة لويس الرابع عشر ، فيكون

مضى ذلك اعادة مذهب « الملكية وظيفه عامة » ورقابة الدولة في آن واحد . فأدى الصراع

الاقتصادي ضد فرنسا ، والصراع لاجل افضل دين يتفق والذهنية الرأسمالية ، الى ثورة

السنة ١٦٨٨ .

ثورة السنة ١٦٨٨
وانتصار البورجوازية الرأسمالية

تمثل ثورة السنة ١٦٨٨ انتصار البورجوازية الرأسمالية وتجار مدينة لندن والاشرفاء

الريفين المتخلفين باخلاق البورجوازيين بفعل الرأسمالية الزراعية . وقد مثلت عملياً انتصار

نظرية الاتفاق المقود بين الملك والامة . فان اللوردات والعموم قد اعلنوا غلبوم دورانج

وزوجته ماري ، ابنة جاك الثاني ، ملكا وملكة على انكلترا ، لانها يضمنان احترام « بيان

الحقوق » (١٦٨٩) ، وقد منعهما هذا البيان عن كافة الاعمال التي حاول آل ستيوارت

براسطتها الاحتفاظ بصلاحيات السيادة وبلوغ السلطة المطلقة : فلا قدرة لها على الادعاء بالسلطة

التشريعية ، لان ايقاف مفعول القوانين او الاعفاء من تنفيذها اعتبرا تصرفا غير شرعي ؛ ولا

قدرة لها على تجنيد جيش دائم بدون موافقة المجلس التمثيلي ، او جباية اموال لا يقرها المجلس

التمثيلي ؛ ولا قدرة لها على المطالبة بصلاحيات استثنائية او بمحكمة من المفوضين للقضايا

الكنسية ، ولا على تنظيم الحياة المدنية ومن ثم حياة رعاياها اليومية بقرارات بنفردات

باصدارها . واخيرا بات من حق كافة البروتستانت اقتناء الاسلحة وتشكيل ما يشبه حرساً

قومياً بورجوازي النزعة .

لم يبق سوى الاعراب بالافعال عن رجحان نفوذ المجلس التمثيلي المعبّر عنه ضمناً في هذا

النص ، فبعاءت الحرب ضد فرنسا بسبب الثورة تتيح ذلك . ففكر المجلس التمثيلي ، في البداية ،

بمنح غلبوم وماري دخلاً مدى الحياة مقابل ادارة البلاد العادية الطبيعية : اي الادارة المدنية

والمسكوية والبحرية في ايام السلم . فيكون للملك من ثم بعض الاستقلال . ولكن المجلس

التمثيلي ، في ظروف الحرب ، كان يقر سنوياً النفقات العسكرية والبحرية الاستثنائية . فتوصل

من ذلك شيئاً فشيئاً الى اقرار نفقات الجيش والبحرية العادية التي خرجت نهائياً في السنة ١٦٩٥

من اختصاص الملك . ولم يقرر المجلس التمثيلي كذلك مرتب الملك الى لمدة اربع او خمس

سنوات ، وكان من تقديره في تقريره ذلك ان المرتب لم يكن ، حوالي السنة ١٧١٣ ، سوى

دخل شخصي صرف للملك ، دون ان يكون باستطاعة الملك آت تسديد نفقات الحكم .

فجرد الملك ، بكل ما للتعبير من معنى ، من دخوله ، وبات تابماً كلياً للسلطة التشريعية . أما

المجلس التمثيلي ، الذي غدا مسؤولاً في حال المعجز المالي ، فأخذ يراقب الحسابات والخدمات

والجهاز التنفيذي الملكي .

يبد ان المجلس الخاص الذي اندلعت الثورات تكررأ عليه قد استمر لتصرف الاعمال الجارية والادارة ، ولكنه حرم كل سلطة ؛ فانحصر دوره في اثبات القرارات المتخذة شرعاً . رسمت السياسة في الديوان ، وهو اجتماع يضم بعض الوزراء حول الملك . تألف الديوان في عهد شارل الثاني من بعض المقربين الى الملك ، ولكنه لم يضم في عهد الملكة آن سوى بعض رؤساء مصالح يحتل اللورد - الخازن بينهم مركز الصدارة . فبحسب تطور بدأ منذ السنة ١٦٦٧ ، أخذ الخازن شيئاً فشيئاً يتمتع بمزيد من النفوذ والقوة . وتألف الديوان ، الى جانب الخزانة ، من بعض المفوضين . الى هؤلاء عاد ، اثناء الحرب وفي الضائقة المالية ، امر تنظيم الشؤون التي تتوقف عليها السياسة كلها . فمن جهة كان اعضاء الديوان يجتمعون فيه بحضور الملك او غيابه ، بحسب العهود ، ولكن المقررات السياسية الهامة ما كانت لتتخذ بدون رأي الخازن . ومن جهة ثانية كان الخازن يتقدم بالمقترحات من المجلس التمثيلي الذي يجتمع اعضاءه في اللجان البرلمانية . فبدون ان يكون هنالك موازنة ، جرت العادة ، منذ السنة ١٦٩١ ، على تدوين القوانين المالية الصادرة عن البرلمان في مخطط الخزانة العام ، ولكن المجلس التمثيلي كان ينظم نشاط الحكومة والمصالح باقراره قيمة الاعتمادات وتوزيعها . وقد أمنت الخزانة ارتباط الحكومة بالمجلس التمثيلي بحيث يصعب التمييز بين الموجه والموجه .

كان على الخزانة ان تأخذ بعين الاعتبار ما يبيده حاكم مصرف
انكلترا ومدراؤه من آراء . احدث هذا المصرف في السنة ١٦٩٤ ،
بغية تسليف وزارة المال المبالغ التي تحتاج اليها . فكر اللوردات
- الخزانة ، اثناء الضائقة المالية التي أدت اليها الحرب ضد فرنسا ، بتوزيع النفقات على سنوات
عدة بتحويلها الى دين قومي ، بحيث لا يتوجب عليهم سوى دفع الفوائد كل سنة . فقدم بعض
المسكتبين الى وزارة المال سلفة اولى بلغت قيمتها ١٢٠٠٠٠٠٠ جنيهه وتألفت منهم هيئة باسم
« حاكم وشركة مصرف انكلترا » . اعطي المصرف الحق في تبديل السفتجات وشراء السبائك
وبيعها وتقديم سلفات للافراد واصدار نقد ورقي . وكان المصرف على اتصال يومي بالخزانة . وهم
عملوا في أنفوس وامستردام ومبورغ ولشبونا ومدريد والبندقية من أتاحوا للحكومة
تمويل الحرب . وبواسطته كان للرأسماليين الانكليز أثرهم حتى في مجلس الوزراء .

واخيراً ، ساعدت مدينة لندن المجلس التمثيلي والمصرف على فرض وجهات نظرهما على
الملك . ضمت لندن ٨٠٠٠٠٠ نفس ، اي ضعف سكان باريس ، واحتكرت ٩/١٠ النشاط
الانكليزي ، ولعبت دور الوسيط التجاري والمالي بالنسبة للقسم الأكبر من انكلترا . وشعر كل
سكانها متضامنين بقسطهم من المسؤولية في ازدهار التجارة الانكليزية ، وكان مركز الحكومة
قريباً من المدينة . فكان خطر الثورة قوة رأسمالية اضافية .

لم تتلاش سلطة الملك نهائياً. فالوزراء مسؤولون امامه أولاً. ولا يزال في جمعبته
وسيلة قوية للتأثير على رجال السياسة : هي الوظائف العامة ، المتزايدة
تزايداً مطرداً في أيام الحرب ، التي يسندها الى من يشاء في الجيش والبحرية
والادارة المدنية . ولكن سلطته محدودة .

قاعدة
الميزان السياسي

استطاع الرأسماليون العقاريون والتجار ، من ثم ، ادارة الحياة
الاقتصادية . المجلس يوجهها وفقاً لأرائهم بقوانين عامة ، والحرص
على استقرار النقد ، وتميز وثيقة الملاحة ، وحركة الرسوم الجمركية
والضرائب غير المباشرة . فالدولة توفر بذلك الظروف المؤاتية لحرية نشاط اصحاب المشاريع ،
ولكنها تمتنع عن اثبات وجودها بقرارات ادارية يومية . لا تدخل بعد السنة ١٦٨٨ من قبل
الحكومة في شؤون الادارة المحلية . فزمام هذه الاخيرة في ايدي الاعيان ، اسباب الرعاية ،
وحرية تأسيس المشاريع تامة مطلقة . لذلك انطلقت الرأسمالية انطلاقة كبرى . « تجارتنا اعظم
تجارة في العالم » . وتوسعت طبقة الممولين والتجار . ولكن الرأسماليين العقاريين اتهموم
باستغلال الحروب لمصلحتهم ، وثار ثأرهم عندما رأوم يشترون الاراضي ويصبحون قضاة
ومدراء كوتنيات ينافسونهم في مناصب الكنيسة والدولة . الا ان التضاد بينهم ليس عميق
الجدور ، فكثير من مصالحهم مشتركة ، ولم يفرب ذلك الا عن بال القلة النادرة منهم . فليس في
انكلترا جمارك داخلية . انها تؤلف سوقاً قومية تتسع في السنة ١٧٠٧ باتحادها مع سكتلندا
تحت اسم المملكة المتحدة . التاجر يتوجه حيث يريد لشراء الخنطة التي يبيعها في المناطق النائية
ويفتح في كل مكان اسواقاً لتصريف بضائع المنتجين . الصناعة متشتمنة جداً : ففي كل مكان
مناجم ومشاريع مختلفة تشكل اسواقاً للمواد الغذائية . الرأسماليون العقاريون يضاربون في
مصفق لندن ويسهمون في اقراض الدولة وفي عمليات رجال المال . اشقاؤهم الاصفر منهم سناً
يصبحون ممولين وتجاراً . لذلك بات البورجوازي ، في انكلترا ، مثل الانسانية الاعلى . منذ
السنة ١٧٠٩ ، سخر اديسون وستيل في مطبوعتيها الدوريتين ، « سبكتاتور » و « قاتر » ، من
الالقاب التي يمنحها النسب واخلاق طبقة الاشراف والمبارزة والمقامرة ، ومن فئة المنصرفين الى
شؤون الفكر ابضاً ، المنشغلين ابدأ بالفنون الجميلة والآداب . النفع الاجتماعي هو الجوهر . يجب
الانصراف الى التجارة والفنون الآلية والتوفير . فصديق الجنس البشري ، من ثم ، هو التاجر
الذي يشارك كل البلدان في اليسار الشامل .

المشاريع التجارية
الحرية وانسراح البورجوازي

« أما نحن التجار فأشبهه بطبقة من النبلاء تكونت في العالم خلال القرن السابع . . . ان
التاجر التاجر خير من في البلاد من اشراف » .

التاجر هو « الاديب » (Gentleman) . الفقر في نظره دليل المييب . الفقراء كسالي
ومتكبرون . فلاحسان ، فريداً كان أو تطبيقاً لقانون الفقراء ، ليس محبة حقيقية . المحبة

الحقيقية هي اصلاح الطبع بغية اغناء الفقير عن تلقي المساعدة . الاسمار المرتفعة بركة من الله لانها ترمض على مضاعفة العمل ؛ أما الاجور المرتفعة فكارثة ، لأنها تشجع على الفجور الاسبوعي (ديفو ، ١٧٠٤) .

لذلك كانت الحياة الفكرية الانكليزية معقولة وعملية وفعيلة قبل اي شيء آخر . ولذلك نجح العلم الاختباري والفلسفة الاختبارية . نشر « نيوتون » ، في السنة ١٦٨٧ ، « المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية » . وطبق « وليم بتي » و « غريغوري ككنغ » و « دافنت » روح الجهاز الآلي على دراسة المجتمعات واسوا « الحساب السياسي » . ورسم « لوك » المثل الفلسفي والانساني الاعلى لهذا المجتمع البورجوازي في « محاولات » ثلاث : « الحكومة المدنية » ، « العقل البشري » ، « تربية الاولاد » . وقاد مذهب العقلين بعضهم الى الدين الطبيعي وانكار الوحي : « جون تولند » (١٦٩٦) و « كولنز » والملاحدين . وعرفت الصحافة الدورية نجاحاً كبيراً . ففي عهد اتساع النشاطات القومية هذا ، استلمت انكلترا زمام الحركة الفكرية الاوروبية .

الانكليز فخورون جداً بنظمهم ، وهم يعتبرون انهم مدينون لها بانتصارهم وبإثبات تفوقهم على الملكية المطلقة ، وانها المثل الاعلى للحكومة الفضلى . ولكنهم ينسون انهم مدينون بالنصر الى حلف لعبت فيه الملكية النمساوية المطلقة دوراً اولياً . انتصر الانكليز باثارة ملكية مطلقة على ملكية مطلقة ، ولم يأت النصر حاسماً على كل حال .

سبب التطبيع باطباع البورجوازية انهيار الاخلاق الرفيعة ، فبرهنت الطبقات العليسا عن تعطش لا يروى للمال وعن اخلاق فاسدة وداعرة ، وتميز الشعب بالفظاظة والاهواء العنيفة . وهوت الامة في مادية فظيعة . فانفجرت في كل مكان ، حوالي السنة ١٧١٥ ، الشكاوى والفتن والثورات ضد سيطرة التجار ورجال المال . فاضطر المجلس التمثيلي الى اعلان الحكم العرفي في بلاد الحرية هذه .

فبرضت الحرب دكتاتورية غليوم دورانج . ولكنه توفي عقيماً في السنة ١٧٠٢ ، ولم يكن في سلالة اورانج من هو جدير بخلافته ، فاستغني عن منصب رئاسة السلطة التنفيذية . سار الاورالمجيون وراء رئيس السلطة التنفيذية هينسيوس ، خليفة غليوم دورانج ، الذي واصل سياسته بالعداوة العنيفة . وبسبب الحرب انضم الحزب الجمهوري والبورجوازي الى شخصه . فاحتفظت الحكومة حتى معاهدة الصلح بقوة كفية . ولكن الغلبة تأمنت بعد ذلك للاوليغارشية البورجوازية .

كانت الحرب ثقيلة الوطأة جداً على الاقاليم المتحدة . بلغ الدين ٢٥٠ مليون فلورين يقابلها دخل سنوي يقدر بـ ١٣ مليوناً . فأدى ابتلاع هذه الاموال والمنافسة الانكليزية التي اقلقت الاسواق التجارية الى انهيار البحرية والتجارة وصيد الاسماك . ولم توصل الاقاليم الى حفظ

حد ادنى من التوازن الا بفضل المصرف والفروض من الخارج . ففسدت بلد المضاربين وذوي الدخول بعد ان كانت بلد اصحاب المشاريع ومجهزي السفن والتجار والصناعيين . « لم يعرف التاريخ يهوديا أبعد يهودية من بعضهم » (مونتسكيو) . ورافق هذا النوع المتدني من النشاط ، الذي عقب مجهوداً عسكرياً تجاوز قوة البلاد المادية والأدبية ، انهيار المزائم وزوال القوة الخلاقة الذي زال معه كل مثل اعلى . وسمى البورجوازيون وراء المتعة . فبنوا لانفسهم بيوتا وفرت فيها الفروش والمديجات ، والطنافس المفروسة بالذهب ، والمداخن المرتفعة ذات الاعمدة المرمرية ، واللوحات الثمينة ، والاوراق الذهبية والفضية . وكانت روح التضامن العام سائترة في طريق الانهيار الكامل ، فليس بعد من يهتم للمصلحة العامة . وغدت المحسوبية والرشوة قاعدة تمشي عليها هؤلاء البورجوازيون الذين احتكروا الوظائف العامة . كما غدت هدايا ملتزمي الدخول العامة للقضاة أمراً مألوفاً . ولن يلبث أحد المؤرخين ان يسخر من البحارة الذين آثروا اثناء حرب الاستقلال ، نصف العدو لسفنهم على اخفاض البيرق استسلاماً . اما الميل الى الآداب والفنون فقد افسح المجال لليل الى المعارف المفيدة كالفنون والعلوم الاختبارية . وفترت الروح الدينية ، فارتفع عدد العقليين القائلين بالدين الطبيعي . وتدهور الحس الفني القومي : فشيء فندقا.ه قيصر غراخت ، وه هيرغراخت ، والكبيران على الطراز الذي يحمّل اسم لويس الرابع عشر ؛ واعاد الرسامون النازج الايطالية كما لو كانوا مجرد قماشيل متحركة . والحط الشعب بفعل بؤسه المتزايد فغدا متسولا وقعماً . واصيبت الامة بالهزال .

تفجرت في فرنسا ازمة حادة بفعل ندرة النقد وانخفاض الاسعار العام
فرنسا
دكتاتورية الحكم
والواقب الاقتصادية الوخيمة . ا. ه فنامي ، ١٦٩٣ - ١٦٩٤ و ١٧٠٩ -
١٧١٠ ، ولا سيما المجهود الحربي الذي زاد في الطين بلة . الملك يحكم حكماً
مباشراً مطرداً ، بمعاونة مفوضيه ، فتبرز الصبغة التصفية والدكتاتورية للملكية المطلقة . فهو
الملك وحده من يدرس الامور مع احد الوزراء ويتخذ القرارات ويمجري الاصلاحات ويفرضها على
مجالسه التي تناقصت جلساتها تناقصاً مطرداً والتي لا تستشار الا شكلاً . ويبرز انفراد الملك هذا في
الدبلوماسية وتسيق العمليات العسكرية واحداث الضرائب كالضريبة الشخصية والعشر . ويلعب الدور
الاول بين الوزراء مراقب المالية العام ، « بونشارترين » ، « شاميار » ، « ده ماريه » (١٧٠٨ -
١٧١٥) ، الذي يطيب للملك العمل معه بالتفضيل على غيره . يشترك في اعمال المجلس الاعلى
الذي يوجه السياسة العامة ، ولرأيه فيه حول الاساليب والوسائل ، تأثير حاسم .

اضطر اثناء سر الدولة الى زيادة عدد كتبهم بسبب كثرة وأهمية الشؤون
المتزايدة والحاجة الى الاسراع في العمل والضرب بقوة . في فرساي ، احتلت
المكاتب وحدها بنامين طويلين على جانبي الدار الامامية ، أو دار الوزراء . وكان للوكلاء ،
الذين أسند اليهم المزيد من الاعمال ، مكاتبهم ايضاً ، رئيساً كتبة أو ثلاثة ، وعدد من المكتبة ،

قولوا توجيه مراسلات ادارية منتظمة ، لا سيما الى المراقب العام ، وتكونت لديهم محفوظات كبيرة الحجم . ودرج الملك اكثر فأكثر على ابقائهم مدة اطول في مراكز عملهم : « دوجيه دي بانول » ، « ٢٤ سنة في ليل » و « لاموانيون دي بافل » ، « ٣٠ سنة في اللنفدوك . فاصطبغوا بصبغة المدراء الدائمين . اختاروا لهم مندوبين ثانويين بين ضباط محاكم الارياف والمدن ليعيّموا في وجه ضباط المحاكم العليا . وعمت فرنسا شبكة من المفوضين الملكيين يعاونهم وكلاء الشرطة الذين عينوا في السنة ١٦٩٩ في كافة المدن الكبرى والمتوسطة ، بعد نجاح هذه المؤسسة في باريس ، وقد استخدم هؤلاء المفوضون ، لجمع الضرائب وتنفيذ سياسة التعمير ، احصاءات اكثر وفرة وفضل اتقاناً : احصاءات السكان ، تسجيل العمادات ، الزواجات والوفيات ، جداول الاسعار ، بيانات حركة الاسعار .

في هذه المرحلة بالذات ، وبسبب الحاجة الماسة الى جمع الضرائب واستخدامها النظام الاداري لشتريات الجيش ، وبسبب الحاجة الماسة الى العمل في الاقتصاد ، مصدر مطارح الضرائب ، لم تكتف ادارة الوكلاء بمنافسة ادارة الضباط فحسب ، بل حلت محلها احياناً . عمل الوكلاء مع ضباط المالية وراقبهم في كل ما له صلة بالضرائب القديمة . ووقع عليهم وخدم تقريباً عبء الضرائب الجديدة و « الشؤون الاستثنائية الطارئة » . وكان لهم ، في الحقل القضائي ، صلاحية اصدار الاحكام في مادي الامن السياسي والتمرد وكل ما يجر اليه . وقد اعطتهم قرارات عديدة بتجديد مهامهم حق الحكم في كل القضايا التي يبدو من المفيد سحبها من القضاة العاديين . اشرف الوكلاء على « الامن » بمنه الواسع ، أي على الادارة ، واعتمدوا طريقة العمل المباشر ، واصدروا القرارات والانظمة ، فعالجوا الحاجات العامة بنصوص ترتدي طابع الاكراه . نفذ هؤلاء المفوضون مقاصد دون ان يطلبوا اي اذن أو إجازة من القضاة ، الضباط العاديين . ولم يكن باستطاعة القضاة التدخل في اعمالهم أو طلب ملاحظتهم بمادة المسؤولية الشخصية ، خشية من أن تكف يد هؤلاء القضاة لمصلحة مجلس شورى الدولة ، جهاز القضاء الخاص ، الذي يحكم ابدأ ، في هذه الحالة ، لمصلحة مفوضي الملك . وهكذا تعاضم النظام الاداري شيئاً فشيئاً ، بسبب الحرب ، على حساب النظام القضائي ، ووفر سلطة كبرى للحكومة المركزية وتأثيرها حتى في اعمال حياة رعاياها اليومية . أما في انكلترا فقد خضع الضباط والمفوضون للقاضي العادي . وحق للسلطة القضائية التدخل في الاعمال الادارية وتلقي الشكاوى المرفوعة على الضباط والمفوضين وتقدير الاخطاء المرتكبة وحتى دستورية القوانين . اصف الى ذلك من جهة ثانية ان الادارة كلها يمارسها أهل اليسار ، كما أن الاعيان وشتى الهيئات المحلية تمارس الادارة بجزرية ، على انها تكون مسؤولة عن اعمالها أمام المحاكم . الحرية مؤمنة في الجزيرة ، أقله حرية أهل اليسار . أما في فرنسا ، ذات الحدود البرية الطويلة المهتدة بالاططار ، فكل شيء يخضع لفعالية الدفاع ، والملك ، القائد الحربي ، سيد مع مفوضيه . نظام انكلترا بلوقراطي ذو نزعات الى الحرية المدنية والدينية . حكومة فرنسا دكتاتورية الطابع تسلطية

النزعة . الحرب ابرزت الخلافات بواسطة عصبها ، المال ، لأن المجلس التمثيلي امسى في النهاية سيد الضريبة في انكلترا ، وهم أهل اليسار أنفسهم من يجبونها ، بينما يقرها الملك وحده في فرنسا ويراقب جبايتها بواسطة مفوضيه . ملك انكلترا لا يحصل بنفسه على عصب الحرب ودم الاقتصاد العام ؛ أما ملك فرنسا فعلى نقيض ذلك .

البيروقراطية
الا ان ارتفاع عدد المعاملات غالباً ما حال ، اقله بالنسبة للامور الجارية ، دون تمكن الملك ، وامين سر الدولة ، والوكلاء في الولايات ، من اتخاذ القرارات اللازمة بصدها . فهي المكاتب التي تصدر القرارات ، استناداً الى السوابق الماثلة ، وترسل المعاملات جاهزة للتوقيع . وهكذا حدث السلطة الشخصية من ذاتها ، على غير قصد منها ، بالادارة التي انشأتها والتي تسير على غرار جهاز ضخم يمشي حياته الخاصة ويتمتع بقوته الخاصة . فكان هذا مولد البيروقراطية .

الحقوق
الاميرة اثناء الحرب
سيطرت الحقوق الاميرية اثناء الحرب على حياة المملكة في هذه المرحلة . اضطر الملك لأن يحدو حدو انكلترا وهولندا والنمسا وبروسيا ، ولأن يطلع بكل جديد مرعب . فبين السنة ١٦٩٥ والسنة ١٦٩٨ جبي ضريبة شخصية وبذل جهداً كبيراً لجمعها متناسبة ودخل الاشخاص الفعلي فوق تناسبها ووضعهم القانوني ، ثم جدها ابتداء من السنة ١٧٠١ حتى السنة ١٧١٥ . واحداث منذ السنة ١٧١٠ ضريبة العشر ، المستوحاة من الرسوم المحدثه في انكلترا وهولندا وفلاندر ، التي فرضت بالتساوي على جميع انواع الدخول . فكان ذلك تقدماً تدريجياً نحو المساواة أمام الضريبة التي تنطوي على مبدأ المساواة في خدمة الدولة والمجتمع . قوبلت هذه الضرائب بمقاومات ضارية . الا ان الضريبة ما لبثت ان تحولت الى ضريبة تقسط اجزاء من المئه تضاف الى الاقتطاع ، أو الى مجرد وسيلة لتسهيل القروض بشكل اشترك في الضريبة . ووسع الملك الضرائب غير المباشرة ورسوم الجمارك والورق الموسوم ، مستهدفاً من ورائها اسهام ذوي الامتيازات ايضاً في النفقات العامة . ولكن كل ذلك لم يكف لسد الحاجة . فبات لزاماً اللجوء الى دين قومي . ولكن الملك لم يتوفق ، كما حدث في انكلترا ، الى انشاء مصرف دولة . فالصيافة لم يوافقوا على تأسيسه بسبب نقص النقد ، ولا سيما بسبب اعتقادهم باستحالة قيام مثل هذا الجهاز في ملكية مطلقة : أراد الصيافة أن يبقوا اسياذ استخدام مالهم ؛ كما ان انشاء مصرف الدولة يستلزم استبدال النظم السياسية . لذلك أكره الملك على اللجوء الى حيل بامظة الاكلاف كالتحويلات النقدية واحداث الوظائف وتعيين الدخول وتجريبه النقد الورقي (١٧٠١ - ١٧١٢) وابتكار شتى انواع السندات الملكية ، والقروض الالزامية ، دون ان يتوصل في الوقت نفسه الى استهلاكها . استهلاكاً منتظماً . فلا عجب من ثم اذا ما بلغ الدين ، في السنة (١٧١٣) ، ٢٣٢٨ مليون ليرة ملكية ثورية (نسبة الى مدينة تور) ، يقابلها ٣٤٤ مليوناً في انكلترا . فان فرنسا التي

لم تتجمع فيها رؤوس أموال ضخمة ، قد انهكت تحت وطأة مجهود الحرب .

الاقتصاد اثناء الحرب
إذا اقتصت اموال مجهود الحرب الى نتيجة مفيدة، هي ايلاف الفرنسيين النقد الورقي ، فأنها قد انضمت الى « الفناءين » لزيادة الازمة الاقتصادية والاجتماعية سوءاً . فالحروب رفعت نسبة نقص النقد الذي شكت منه فرنسا ، وشأنها في ذلك شأن اوروبا ، في اعقاب تدني انتاج المناجم الاميركية ، والذي آل طبعاً الى تخفيض الاسعار تخفيضاً مكدرأ . وقد صدرت فرنسا النقد بانتظام لتأمين حاجات جيوشها في الخارج . ومنذ السنة ١٦٨٦ ، اشهر « ده ماريه » نتيجة هذا الضرر الوخيمة على الاسعار والتجارة والاقتصاد . وغالباً ما أبعاد النقد المتبقي عن وظيفته الاقتصادية بنقله الى دور النقد للتحويلات النقدية . واذا ما استثنينا ارتفاع الاسعار في سنوات المحول ، جاز لنا القول ان الاسعار بقيت متدنية والارباح محدودة والانتاج منخفضاً ، لا سيما وان التبدلات الدائمة الطارئة على قيمة النقد تحول دون كل حدس أو تقدير ونمحمد نشاط التجار والصناعيين اليدويين والتجار الصناعيين . وجر الركون الاقتصادي الى تعزيز التنظيم المعروف باسم كولبير . ووضعت بالاضافة الى ذلك انظمة لا يحصى لها عد . ولكن الوظائف المحدثة آنذاك عدت وافر من وظائف المفتشين والمراقبين والكيالين والوسطاء والحراس ، الخ . الذين يتقاضون كلهم رسوماً مختلفة مقابل كل عمل من اعمال وظيفتهم . فارتفعت الاسعار عند الاستهلاك بينما هي قدنت عند الانتاج . ابتاع الصناعي اليدوي بالفلاحة نبيذ وخشب وشمعه ؛ وابتاع الفلاح بالفلاحة ، من سوق البلدة ، ادواته أو احذيته ، بينما لم تطرأ اية زيادة على سعر الحنطة . خفت نسبة الاستهلاك ، ثم نسبة الانتاج بدورها ايضاً . وتضررت التجارة والصناعة . زد على ذلك ان مراقبة المحاصيل الزراعية والجهود المبذولة للابقاء على تدني الاسعار قد جرت الى الاجداب وزادت من سعة تبدلات الاسعار . وقد بين ذلك « ده كازودي هاليه » لمجلس التجارة في السنة ١٧٠١ ، و « بواغليبير » للمراقب العام « شاميار » في السنة ١٧٠٤ . اذا عين للحنطة سعر منخفض ومنع بيعها خارج نطاق الولاية ، اكتفى فلاح مناطق زراعة القمح بزراعة ما يكفيه لسد حاجته . واذا ما انحل المحصول ، عمت الفاقة والعوز . يضاف الى ذلك ان نظام السنة ١٦٩٩ مثلاً ، رغبة في منع المضاربة ، قد حظر على التجار شراء الحبوب قبل الحصاد . اي ان القانون حظر الصفقات البعيدة الاجل التي تحد من الارتفاعات والانخفاضات . لذلك كان التاجر مضطراً ، بعد الحصاد الماحل ، الى الشراء والبيع باسعار مرتفعة جداً؛ أما اذا كان الحصاد وفيراً، فيمكنه الشراء من الفلاح باسعار متدنية جداً . وأدى انهيار الاسعار ، بين السنة ١٧٠٣ والسنة ١٧٠٨ مثلاً، واستحالة البيع الى ضيق ذات يد الملاكين والفلاحين وعجزهم عن دفع الضريبة . لذلك طالب العالمون بأصول الاقتصاد ، من امثال « كازو » و « بواغليبير » ، والوكلاء ، بحرية التجارة وتخفيف الحقوق الاميرية ورفع سعر الحبوب الذي سيتيح للفلاحين والملاكين الشراء ، ومن ثم توفير العمل والازدهار للعامل والتجار . فطلعت بعض الآراء القائلة بالحرية الاقتصادية وباعتبار الزراعة

مصدر الثروة الوحيد (*Physiocratie*) . ولكن الرقابة العامة ما لبثت ان اجابت بوغليب
بما معناه : لا بد من مرور سنوات عدة قبل ان تقضي حرية التجارة وحرية الاسعار وتخفيض
الضرائب الى انطلاقة الزراعة والاثراء العام وزيادة مطارح الضريبة ، بينما نحن بحاجة ملحة الى
توفير النظام في المدن بتخفيض اسعار الخبز ، ووسائل الدفاع عن المملكة بحماية الضرائب .
فتوجب الاكتفاء بإجازات تصدير دوريه .

تفانم الصراع الطبقي في مجتمع شكنا من نقص مواد الاستهلاك فبورجوازية
التجار والصيارفة الذين يسهمون في التجارة البحرية والامتيازات الحربية
والعمليات المالية الرسمية قد حافظت على مستوى معين من الازدهار والنموذ .
شيد أعضاؤها الفنادق الفخمة وغدوا خير زين الفنانين واشتروا الاراضي من الارستوقراطية
المقارية وجزاروها وزاحوها . واكرم الملك نفسه في قصر مارلي مثنى الصيرفي «صموئيل برنار»
واسأله للافادة مما له من وجاهة ومكانة وما يتمتع به من ثقة . وأخذ المثل البورجوازي يزاحم
في الادب مثل الرجل النزية ومثل البطل .

أما صفار الاشراف الريفين فقد عظم الزمان بناه ، فتزوجت كريماتهم من الفلاحين .
وأوصى بعض كبار النبلاء بأن يتعلم ابناؤهم مهنة لا تليق بمقامهم . ومال الدهر بعدم كذلك
على صفار المستثمرين الزراعيين و صفار أرباب المهن والعمال .

لذلك بات حقد شتى درجات الارستوقراطية على البورجوازيين حقدأ جافياً وضارياً .
ولكن ثورات العمال والفلاحين على البورجوازيين كانت شبه مستمرة أيضاً . وقد استهدفت في
أغلب الاحيان الجباة بائعي الوظائف و مندوبي ملتزمي الضريبة . وقد لعبت الشائعات دوراً
كبيراً في اندلاع هذه الثورات ، لان الجماهير صدقتها دوتما تردد في عمرة الحقوق الاميرية . ففي
آلنسون ثارت نساء الشعب لانهن اقتنعن بان عليهن دفع « ستة فلوس عن كل قميص بيضاء وعشر
لمحاسات عن ولادة الذكر وخمس لمحاسات عن ولادة الانثى » . وقد حدثت في الارياف ظواهر
بمائة لظواهر « الذعر العظيم » .

ارقد هذا الاستياء كله على السلطة المطلقة وعلى الملك . في السنة ١٧٠٩ ،
مارضة السلطة
المطلقة والثروة الفكرية
سار بعض الباريسيين على قصر فرساي نفسه : فواقفهم الجيش عند جسر
« سيفر » . عادت المجالس التمثيلية الى معارضتها، ولكن بخشية وحياء .
وحاولت المجالس التمثيلية الاقليمية استثبات البراءات واللجوء الى التحذيرات . وآثر مجلس
باريس التمثيلي استمالة الرأي العام بتشيمه للجليكانية . فساند الجنسينيين ضد تدخل البابا في شؤون
فرنسا (١٧٠٥ و ١٧١٣) . ومن جهة ثانية اعاد البروتستانت « انطوان كور » تأسيس كنيسة
كلفينية في الحفاء (مجمع الصحراء الاول ، ٢١ آب ١٧١٥) .

لم يعد الملك سيد بلاطه كلياً . فان مشهد الضباط الاشراف الذين يعودون يوماً من الجيش فاقدين ساقا او ذراعاً ، والجداول الطويلة باسماء الاشراف الذين لاقوا حتفهم في المعارك ، وحسرات كبيرات السيدات ، امهاتهم ، قد دفعت الى الاستفادة من الحياة بالمزيد من الاستمتاع والتلذذ . فكانت النتيجة ذلة الشباب والمخطاطه .

« يتكلمون عن بلعة يتميز شيونها بالظرف والتهديب والادب ؛ أما شبانها فأفظاظ وقساء قلوب ، دونما اخلاق ولا تهذيب ، ينصرفون عن التولع بالنساء في سن الانصراف اليه في البقاع الاخرى ، ويؤثرون عليهن الاطعمة واللحوم والاهواء المضحكة » (لابرويير) .

ظهرت بوادر ثورة فكرية حقيقية على أنظمة الفكر التي بدت مرتبطة بالسلطة المطلقة . الا ان الحكومة المفتقرة الى وسائل عمل دول القرن العشرين ، قد انقضت ظواهر السلطة . يضاف الى ذلك ان بعض كبار الموظفين قد استميلوا : كالمستشار « بونشارترين » الذي رفض الموافقة على التدابير القاسية التي طالب بها « بوسويه » . فبرز مذهب جمع بين الكرتزيانية والغسندية والمذهب الذري ، وتحول الى ذهنية عقلية ونفعية ، وشغف بالعلوم ، وكلاسيكية كاذبة في علم سنن الجمال ، ودين طبيعي ، وتهذيب اخلاق . وكان « فونتيل » و « بيل » من كبار دعاة هذه الثعالم . وانتشرت نظريات « لوك » السياسية والاجتماعية في أوساط البورجوازيين ، بينما حدد الاقطاعيون الغاضبون مثلهم السياسي الاعلى كارستوقراطيين معادين للملكية المطلقة في معية دوق بورغونيا . فتكونت من ثم معظم آراء « عصر الانوار » .

في كافة المحاء اوروبا ، باستثناء بولونيا واسوج ، ادت الحروب الى تقدم
نجاحات السلطة المطلقة في اوروبا
السلطة المطلقة وتوحيد ومركزية الدولة التي سارت شوطاً الى الامام في ارغام كافة طبقات المجتمع على خدمتها . يضاف الى ذلك ، من جهة ثانية ، ان هجرة البروتستانت الفرنسيين ، ونفوذ بلاط لويس الرابع عشر وفرنسا واقتفاء التقنيات والممارسات المفيدة لزيادة القوة أو للدعارة ، ادت الى انتشار الآراء نفسها من اقصى اوروبا الى اقصاها . ولكن هذه الظواهر اختلفت باختلاف نظام الدول الاقتصادي والاجتماعي ووفقاً لتحول الحروب الى انتصار أو هزيمة .

جدد لويس الرابع عشر اسبانيا . فهو من أسدى النصح والمشورة الى حفيده
اسبانيا
وقدم له المديرين المدبرين . تحققت مركزية المملكة ، وألغيت امتيازات كتالونيا وأراغون . واضلحت الحكومة على شاكلة الحكومة الفرنسية : اربعة أمناء سر دولة ، وكيل مالية عام ، مجلس مؤلف من غرف ذات اختصاص ، وكلاء أقاليم ، خزانة مركزية ، ملتزمون عامون ، ولايات تعامل معاملة مالية واحدة . زد على ذلك ان دخول الدولة قد ازدادت بسرعة بفضل النقد الذي ادخلته الجيوش الاجنبية والذي أنعمت الاقتصاد الاسباني ، فاستطاع فيليب الخامس ، في السنة ١٧١٤ ، تجهيز ٢١ سفينة وتجنيد ١٣٢ فوجاً من المشاة ، و ١٣٠ كوكبة من

الحياة . وعلى الرغم من محاكم التفتيش واليسوعيين ، انفتحت أسبانيا للتأثيرات الاجنبية : فقد نقلت مسرحية « سنا » لكورتاي الى الاسبانية في السنة ١٧١٣ ، و« عظات زمان الهبي » ، « لبوردالو » في السنة ١٧١٤ . وأسس الملك أكاديمية ، وكان للموسيقى الابطالية حظوة كبرى عند الاسبانيين . فعادت أسبانيا الميتة الى الحياة .

الملكية النمساوية
استغل الامبراطور ، في ممتلكاته « النمساوية » النفوذ الذي اولته اياه انتصاراته الداوية على الاتراك وصراعه ضد لويس الرابع عشر . فقد حاول خلق شعور هبسبورغي مشترك في هذه الملكية الممتدة الدول المتشعبة في أنحاء اوروبا ، واصدر في السنة ١٧١٣ ، امراً يعلن الوحدة الممتعة الانحلال لختلف بلدان الملكية . ولكن البلدان التي غنمها في السنة ١٧١٣ ، اي لومبارديا والمناطق المنخفضة ، وهي اغناها وانشطها اطلاقاً ، قد عاشت في الواقع حياة افراد . واضطرت هنغاريا المهتلة ، تحت الضغط ، لان تقترع في السنة ١٦٨٧ لحق الذكور من انسال سلالة هبسبورغ في وراثة التاج ، وقضي على ثورة « راکوكزي » . الا ان جوزف الاول اضطر في السنة ١٧١١ الى التمهيد باحترام الكلفينية وضمن امتيازات « الدول » الهنغارية حيث يسيطر كبار الملاكين المقاريين . أما في النمسا وبوهيميا وفي « الدول الوراثة » القديمة ، وهي بلدان زراعية بجمتها مدنها كثيرة وبورجوازياتها فقيرة ، فقد عزز الامير سلطته ولكن بواسطة تقاسم الارباح مع كبار الارستوقراطيين المقاريين . وقد خدم هؤلاء الامير ، وغدوا ، من أوجه كثيرة ، طبقة اشراف خدمة . وفي الجمعيات فرضوا الارادة الملكية على طبقة الاشراف الوسطى وعلى البورجوازية . ولكن الامير احتفظ لهم بالوظائف الهامة في الجيش والادارة وأمن لهم كل سلطة على الفلاحين المزارعين المرمقين باعمال التسخير والاقوات . ولما كانت الدولة تسلسلية السلطات وكل طبقة مسجونة داخل امتيازاتها ، باتت الحياة الفكرية والاخلاقية والدينية مقتصرة على أبسط مظاهرها . فتلقت النمسا سلباً التأثيرات الخارجية : كاثوليكية الجمع التريدينتي ، اليسوعيين ، الاستهجان الايطالي ، والتأثيرات الفرنسية اخيراً . ولكن الغلبة ما زالت للتأثيرات الايطالية . ففي الحضارة كما في السياسة ، ولت النمسا الجرمانية وجهها تولية مطردة شطر ايطاليا والشرق .

ايطاليا
ما زالت ايطاليا مقسمة وخاضعة للسيطرة الاجنبية : فقد حلت النمسا فيها محل أسبانيا في السنة ١٧١٣ . ولكن الكلاسيكية الفرنسية والعلم والفلسفة الفرنسيين ، قد تركت أثراً عميقاً فيها . فقد درست تعاليم غسندني في بيزا وبادوا نابولي وروما . وكان لديكارث حظوة في نابولي ، وتهافت الناس أكثر فأكثر على قراءة مؤلفاته في كافة أنحاء ايطاليا . ومثلت مسرحيات كورتاي وراسين . وكانت مؤلفات « مايبون » و« مونفوكون » الواسعي الاطلاع موضوع اعجاب عام . فاستمادت نخبة ايطالية قوتها الخلاقة ، لا سيما منذ السنة ١٦٩٠ . ونهضت العلوم الاختبارية من سباتها بفضل « ريدي » و« فالسينيري » . وطمح « مافبي » الى

مجاراة الفرنسيين في حقل المآسي . واسس « موراتوري » وذوو العلم الواسع من الايطاليين مدرسة كبرى للنقد والتاريخ . وفرضت الموسيقى الايطالية نفسها في النمسا وألمانيا بفضل « كورلي » و « فيفالي » . وامتزج الغالب الايطالي بالغالب الفرنسي في المؤلفات الالمانية .

تألفت دول سلالة براندبورغ ، في أواسط القرن ، من ست مجموعات من دول آل هوهنزلرن الاقاليم منتشرة بين نهر « نيمن » ونهر « الموز » : دوقية روسيا ، بومانيا الشرقية ، براندبورغ ، امارة هالبرستات ، امارة « مندن » ، كوتية « رافنسبورغ » ، كوتية « مارك » ، دوقية « كليف » . فالدولة اذن مجموعة دول والامير مجموعة امراء يتمتعون بسلطات مختلفة تقيدها ابدأ جمعيات محلية هي المجالس الاقليمية . وليس من رابطة سوى شخص الامير ومجلسه السري . الامير يعيش من دخول املاك لم يحسن استثمارها واحتكارات ورسوم جركية ، على غرار السيد في القرون الوسطى . لا يحصل بسهولة ، اثناء الحرب ، على مساهمات الدول التي تعتبر ان الحرب لا تمنحها اذا توالى فصولها في دولة اخرى من الملكية . وليس لديه ، في أيام السلم ، سوى بضعة الوف من الجنود الموزعين هنا وهناك وهناك .

استفاد المنتخب « فردريك - غليوم » (١٦٤٠ - ١٦٨٠) ، المنتخب الاكبر ، من اشتراكه في الحروب الاوروبية الكبرى كي يحقق انتقال امارة القرون الوسطى الى الدولة العصرية . فعد من صلاحيات الجمعيات المحلية التي عارضت الضرائب الضرورية للحرب وغدا سيد الضريبة وتوصل في السنة ١٦٨٦ ، بعد صراع طويل ، الى وضع الحزانات الاقليمية ، التي ادارها حتى ذلك التاريخ ممثلو المجالس الاقليمية ، تحت سلطة موظفيه المباشرة . واحدت ضرائب غير مباشرة ، كالضريبة على مواد الاستهلاك ، التي كانت ضريبة دائمة وتناولت النبلاء انفسهم . واذا ما احتفظت بعض الدول بحق الموافقة على الضريبة ، فان موافقتها لم تكن سوى اجراء شكلي .

مكن المنتخب نظم الحكومة المركزية اي المجلس السري ، وديوان المستشار للشؤون الخارجية ومجلس الدعاوى للقضاء ، وغرفة المال ، ومفوضية الحرب العامة ، فجمات آلة كبرى تدير كل شيء . وفي الولايات عزز صلاحية الحكام ، ومجلس الوصاية الذي عاون كلا منهم ، وموظفي الدائرة الخاضعين لهم ، وأكثر في كل مكان من المفوضين والمستشارين الاقليميين ومفوضي الرسوم . أما الضباط ، قضاة كانوا أم رتباء عسكريين ، الذين كانوا مرتبطين بالمجالس الاقليمية ومتميزين بروحهم النفعية ، فقد قلت اظافرهم . وهكذا اوجد المنتخب طبقة من الموظفين البورجواريين ، الملتزمين بتحمل اعباء الخدمة العامة الثقيلة مقابل اجر هزيل ، والمقصورين على حياة وضيعة ومتشقة ، والمتحلين بالتهذيب والوقار ، والمستمدين عزة مفيدة من شعورهم بدورهم الاجتماعي . وقد امن تنفيذ الاوامر جيش دائم من المرتزقة يبلغ عددهم ٣٠٠٠٠ رجل ويخضون لنظام صارم .

وفي سبيل تأمين الاموال اللازمة للنفقات ، انصرف المنتخب الى تحقيق مجبوحه رعاياه وزيادة عيادهم بانتهاج سياسة تجارية صارمة. فأمر باصلاح الاراضي وجعل من براندبورغ ملجأ لكل من هاجروا بلادهم بسبب الاضطهاد الديني ، وقدم لهم الاراضي ومواد البناء ، واعفاهم مؤقتاً من الضرائب . وانمى التجارة والصناعة باعتماد انظمة كولبيرية صارمة . فارتفع عدد السكان الى مليون ونصف المليون تقريباً . وأحرز تصدير الاخشاب والجلود والآدمه والحبوب تقدماً سريعاً .

وقد أكمل عمله خليفته فريديك (١٦٨٨ - ١٧١٣) . استفاد من الخدمات التي أداها للامبراطور خلال الحرب ليحصل منه على اجازة بجمل لقب ملك بروسيا . توج في ١٨ كانون الثاني ١٧٠١ . فبات سيداً ، وسما بنفوذه فوق نفوذ كافة الامراء الالمان وعزز سلطته فتعززت قوة دوله ووحدتها . وكان يعد نفسه بمقام الامبراطور . فنشطت مقارمة سلالة براندبورغ لسلالة النمسا ، وتكهن بعضهم بان الملك الجديد لن يلبث ان يقف في وجه النمسا ، لانه هرطوقي وملك أرض انتزعها الفرسان التوتونيون من السلافيين ، أي ملك ولاية ألمانية تنبسط عند الحدود ، فيحق له من ثم ان يجعل من نفسه ممثل الجرمانية ضد النمسا الكاثوليكية التي ترتبط بالبابا وتميل عن المانيا نحو البلدان الدانوبية والبلقانية .

روسيا بعد الحرب الاهلية في « عهد الاضطرابات » واستتباب الامن والنظام
روسيا واروينا في عهد القياصرة ، ميشال فيدوروفتش (١٦١٣ - ١٦٤٥)
« وألكسي ميخالوفتش » (١٦٤٥ - ١٦٧٦) و « فيدور ألكسفتش » (١٦٧٦ - ١٦٨٢) ،
اضطرت الحكومة ، بسبب حروبها الدائمة ضد اسوج وبولونيا والاتراك ، الى اقتباس التقنية العسكرية عن الغرب . فدخلت كتائب من الانكليز والالمان في خدمة القياصرة وتولى بعض الضباط الاجانب تدريب الجيوش الروسية . واحدثت الحقوق الاميرية خلال الحرب تطوراً نحو السلطة المطلقة والمركزية . واحظى القياصرة طبقة نبلاء خدمة على حساب الطبقات الاخرى . وقصد البلاط والمعاصم بعض التجار الاجانب . فانفتحت البلاد لبعض التأثيرات الاجنبية ، التأثير الالمانى في ايام ميشال وألكسي ، والتأثير البولوني في ايام « فيدور » الذي كان اول من تلقى تربية اوروبية . وتسربت اليها بعض الكتب اللاتينية والبولونية . وقد تابع السير في هذه الطريق بطرس الاكبر الذي جلس على عرش القياصرة منذ السنة ١٦٨٢ حتى السنة ١٧٢٥ . امسى سيد روسيا الاوحد في السنة ١٦٨٩ بفضل الضباط الاجانب ، السكتلنديين منهم والسويسريين والالمان ، وحنكته رحلته الى الغرب (١٦٩٧ - ١٦٩٨) ، فكان مديناً للحرب خلافة عرش اسبانيا ، بعد انتزاعه آزوف من الاتراك ، بالاشتراك في السياسة الاوروبية الكبرى . فأرغم دول جنوبي البلطيك الداخلة في صراع ضد اسوج ، التي بسطت سيطرتها على شاطئ هذا البحر ، على قبول التحالف مع روسيا . ووقع كل من « اوغست دي ساكس » ، ملك بولونيا ، وملك الدانمرك ، معاهدة مع بطرس (١٦٩٩) ، ثم تحالفت الدانمرك

مع براندبورغ (١٧٠٠) . فلس الهانوفريون والهولنديون والامبراطور ان توازن القوى في البلطيك لن يلبث ان يختل وان هنالك خطراً كبيراً من ان تبسط روسيا سيادتها على البلطيك والمضائق الدانمركية اذا قدر لاسوج ان تبنى بالهزيمة . ولكنهم كانوا منمكين بمحاربة حليف اسوج ، لويس الرابع عشر . وبينما كان ملك اسوج ، شارل الثاني ، سائراً قدماً في الاستيلاء على بولونيا ، كان بطرس منصرفاً الى احتلال سواحل خليج فنلندا وبلاد ليفونيا وتأسيس « مدينة القديس بطرس » (سان - بطرسبورغ) (١٧٠٣) . وبعد ان محق القيصر جيوش شارل الثاني عشر في بولتافا (١٧٠٩) ، استولى على « ريفا » وفتح استونيا وزوج ابنة شقيقه من دوق « كورلند » واستولى على بومرانيا (١٧١٢) وفنلندا الجنوبية وجزر « آلد » (١٧١٤) ، بينما انتزع الحلفاء ما تبقى من فتوحات « غوستاف ادولف » . فانهارت السيادة الاسوجية على البلطيك وتوجب النظر في خلافة اسوج .

اصلاحات بطرس الاكبر الاول خلال هذه الحروب ، ولأجل هذه الحروب ، طبع بطرس روسيا بالطابع الاوروبي . وقد تم ذلك باصلاحات كثيرة غير مدروسة اجريت بحسب الظروف او الدوافع الظرفية . فبعد عودته من اوروبا اصدر الاوامر بسبد اللحى وتقضييب الاكسية والاكهام وفرض اللباس المنفاري او الالماني (١٧٠٠) واصلح الرزنامة واوجب احصاء السنين لا ابتداء من خلق العالم بل ابتداء من اصلاح الرزنامة . واصبح الجيش جيشاً دائماً بقيادة ضباط من فرقتي الحرس اللتين غذتا مدرسة للاشراف وخلقنا طبقة عسكرية . وبسبب تعدد الفزوات وتكرر غيابه ، هذا القيصر حذو اسوج وانشأ تدريجياً ، منذ السنة ١٧٠٧ ، مجلس الشيوخ المؤلف من بعض اختصاصي بطانته الذين يحلون محله في الادارة ويوجهون الاوامر الى الحكام . واحداثت شيئاً فشيئاً ثماني حكومات يرئسها قائد مندوب يتمتع بكافة الصلاحيات العسكرية والمالية والقضائية . وقسمت الحكومة ولايات والولايات افضية والاقضية مديريات . وتولى ادارة الولاية مفوض اقليمي يعينه القيصر . وهكذا كان مجلس الشيوخ والحاكم ومفوض الولاية كلهم مفوضي القيصر يتمتعون بصلاحيات القيصر نفسها . اختيروا من طبقة الاشراف اما مفوضو الاقضية فقد انتخبهم الاشراف المحليون وكانت مهمتهم الاولى جباية الضرائب . واما في المديريات ، فقد انتخب الفلاحون مجلس قضاء اضطلع في الوقت نفسه بجباية الضرائب . وحق للمدن ان تحدد الضرائب وتسدن توزيعها وجبايتها الى هيئات منتخبة . فكان مفهوم الادارة في جوهره افراداً او هيئات تنتخبها فئات السكان المختلفة المتجمعة طوائف وتراقبها شبكة محكمة الحلقات من مفوضي القيصر . ولكن مجلس الشيوخ تكشف عن عدم الرفاء بالحاجة . فقد تبين ان هنالك حلقة مفقودة بينه وبين الحكومات . وظن بطرس بأنه اهتدى اليها في نظام الهيئات الاسوجي (القضاء ، الشؤون الخارجية ، امارة البحر ، الحربية ، المالية ، التجارة) ، وبدأ منذ السنة ١٧١٢ بانشاء هيئة التجارة .

لجأ بطرس، في كافة الوظائف الهامة وقيادة الجيش ، الى الاشراف الملتزمين بخدمة الدولة . وبالمقابلة لم يعد القيصر ليتدخل بينهم وبين الفلاحين . وبعد ان فشل في تعليمهم مهنتهم بممارستهم لها ، اوجب بطرس على الاشراف الاختلاف الى المدارس المهنية ، مدرسة العلوم الرياضية (١٧٠٥) ، الاكاديمية البحرية ، مدرسة المهندسين ، مدرسة المدفعية (١٧١٢) .

ولكن كل ذلك ما زال في طور البداية . اما الحقوق الاميرية فليست سوى فيض من الحيل المرجحة ، كما ان السياسة الاقتصادية ما زالت مرتكزة الى نظريات وتعاليم غير واضحة . ولن يستطيع القيصر الشروع في وضع تنظيم جديد شامل منسّق الا ابتداء من السنة ١٧١٥ . تسببت هذه الاصلاحات في ازمة داخلية خطيرة . ولعلها ايقظت الفتنة اكثر من الحسارة الرهيبة في الارواح ومن ثقل الضرائب ، لأنها شكلت قطيعة مع نهج حياة وحضارة . فالقديسون يلتعون وليس من سابدي اللحي سوى الملكى . ودخان التبغ دنس لان الانجيل قال ان ما يخرج من الفم يدنس الانسان . افليس هذا القيصر العاري الذقن ، الذي يدخن ويمتطي البحر ويسترق السنوات من الله ، هو نفسه المسيح الدجال يا ترى ؟

هزائم السلطة
استفاد ملوك اسوج من حروبهم الظافرة لتحديد ممتلكات
الاسوجية المطلقة وانبارها كبار الاشراف ، واقصائهم عن الحكومة والادارة ،
واقامة نظام مطلق مركزي وبيروقراطي أتاح حسن ادارته لهذه البلاد الصغيرة الانطلاقة
الاقتصادية ولعب دور هام في السياسة الأوروبية . اسوج بلاد غنية انتجت الحبوب في سكانيا
وقامت فيها صناعات تعدينية متقدمة بفضل مناجها الحديدية والنحاسية واحراجها الكثيفة ،
ومارست تجارة بحرية ناشطة على هذا البلطيك الذي هو « بحيرة اسوجية » . فنمت بورجوازيته
وشاع الميل الى فنون الغرب وعلومه الاختبارية في هذه الطبقة الصاعدة وفي الارستوقراطية .
الا ان هزائم شارل الثاني عشر افقدت السلطة المطلقة حظوتها . فقد خسرت اسوج الاقاليم
الغنية التي أمّنت لها ، الى جانب الموارد الكبرى ، السيطرة التجارية في البلطيك . وشكّت
البلاد من التجنيد العسكري المتكرر ، والضرائب ، وتوقف التجارة ، والسلطة الملكية . وما
عادت الرصاية لتمتكن من اسماع كلمتها اثناء غياب شارل الثاني عشر . وتصرف قادة الولايات
وحكامها ، وكأنهم مستقلون عن السلطة المركزية . واستمدت الارستوقراطية لمعارضة السلطة
الملكية المطلقة والقيام بثورتها بعد وفاة شارل الثاني عشر (١٧١٨) .

يتضح من ثم ، خلال حروب أواخر القرن الكبرى ، ان كافة الدول الأوروبية كانت سائرة
في طريق تبدل الانظمة ، وتطور توازن الطبقات ، وازمة الحس والفكر . وستسهم هذه
الظواهر ، في ام الدول الغربية ، انكلترا ، والاقاليم المتحدة ، وفرنسا ، وفي ايطاليا والمانيا
الغربية الى حد ما ، في انقلاب العلوم والفلسفة والدين وعلم سنن الجمال والمفاهيم السياسية
 والاجتماعية وفي بث بعض الآراء الجديدة في أنحاء أوروبا الأخرى .

٣ - أزمة الفكر والحس

ان للعلم المصري ، والحروب ، و « الفناء » ، والازمة الاقتصادية ،
الكروتزياني والنيوتوني المستبداد لويس الرابع عشر الشامل ، والتهديد الدائم الذي ناء به على
اوروبا ، قد أسهمت كلها في معارضة المذاهب التي بدت وكأنها ادوية
ناجعة للازمة ، مركزية الله الصوفية ، الكلاسيكية ، الكروتزيانية ، السلطة المطلقة ، الروح
التجارية على الطريقة الكولبيرية ، فبرزت الازمة مرة اخرى . ويرجح ان كفة الازمة كانت
صائرة الى الرجحان حتى بمزل عن الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، لان المذاهب
قد حملت في ذاتها بذور تناقض او اتجاهات جديدة . ولكن الظروف ساعدت مساعدة كبرى
على طلوع أو تجديد آراء مختلفة او مناقضة . ادت حالة اوروبا الى سيطرة قلق مقض غامض ،
مادي وادبي معا . ومال عدد متعاطف من الناس الى البحث عن اللذة والرفاهية . ورجحت كفة
فقدان التوازن والوحدة . فكانت الارلوية للعقل والمنطق في الظاهر . أما في الواقع ، فان معظم
الناس قد استخلصوا النتائج منطقياً من مقدمات يفرضها الحس . وفي معظم الحالات تحول هذا
الحس الى البحث عن حياة ارضية فضلى ؛ فسادت الذهنية النفعية .

تؤلف اوروبا جمهورية كبرى من العقول المثقفة . أما مركز الحياة الفكرية
الذي قام في ايطاليا خلال القرن السادس عشر وفي فرنسا خلال الاربع
جمهورية الآداب
الثلاثة الاولى من القرن السابع عشر ، فما زال ينتقل باتجاه الشمال . فهم الانكليز من يلعبون
الآن اكبر دور خلاق بفضل انطلاقتهم الاقتصادية والسياسية العارمة وذهنيتهم البورجوازية
المسيطرة . فان « مبادئ » ، « نيوتون » تعود الى السنة ١٦٨٧ و « مجادلات » « لوك » الى
السنة ١٦٩٠ . منذ السنة ١٧٠٢ ، كانت الآداب الانكليزية في راحة نهضتها ، وفي السنة
١٧١٢ تفوق الانتاج الانكليزي على الانتاج الفرنسي كمية ونوعاً . وكانت السنة ١٧١٣ ، وهي
سنة معاهدتي اوترخت ، سنة عجابية بلغ فيها « بركلي » و « بوب » و « سوينف »
و « اربوثنوت » و « اديسون » و « ستيل » ذروة عبقريتهم .

حافظت فرنسا على مركز عظيم جداً بفضل اللغة التي ابتدعها كلاسيكيوها والتي طابقت حاجات
اوروبا . حلت اللغة الفرنسية محل اللغة اللاتينية . « الناس كلهم يرغبون في تكلم الفرنسية ؛
وهم يرون في ذلك دليلاً على التربية الجيدة . . . هنالك مدينة توجد فيها اثنتا عشرة مدرسة
فرنسية مقابل مدرسة لاتينية واحدة ؛ مؤلفات الاقدمين تترجم في كل مكان ، وقد اخذ
العلماء يخشون من ان تقصى اللغة اللاتينية عن ارضها القديمة » (« اخبار جمهورية الآداب » ،
١٦٨٤) . وقد لعب دور الوسيط الاكبر البرتستانات الفرنسيون المهاجرون الى « ملاحظتهم »
المختلفة في انكلترا و « براندبورغ - بروسيا » و « هس - كاسل » و « سويسرا ونروج واسوج

والدانمرك والمستعمرات الانكليزية، بوسطن ونيويورك، وحتى في موسكو. وكان اهمها اطلاقاً
ملجأ هولندا .

منذ ذاك الحين ، تلاقى في الاقاليم المتحدة، مفترق الامم ، رجال آتون من كافة البلدان .
فقد قصدها الانكليز والسكتلنديون والدانمركيون والاسوجيون والبولونيون والهنگاريون
والالمان لتلقي الدروس في ليدن وغروننغ واورترخت . وتعظم بمجيء البروتستانت الفرنسيين
دور هولندا الدولي الكبير . وأسس البروتستانت الفرنسيون صحفاً اوروبية كبرى : « اخبار
جمهورية الآداب » لبيير بيل ، (اذار ١٦٨٣) و « المكتبة الشاملة والتاريخية » لجان لو كلير
(كانون الثاني ١٦٨٦) ، و « تاريخ مؤلفات العلماء » لـ « باسناج دي بوقال » (ايلول ١٦٨٧) .
فأثروا في الانكليز اللاجئين الذين كانوا يمدون الثورة الانكليزية . وكان « جان لو كلير »
و« باسناج و « دي بوسك » وجورجو عوناً للوك على انضاج الآراء الدينية والسياسية التي برزت
الثورة والتي كان لها تأثيرها الشامل فيما بعد . وبعد الثورة قام اللاجئون البروتستانت الى
انكلترا ، « ايل رويته » و « ده ميزر » و « كوست » بترجمة المؤلفات الانكليزية وادخلوا عليها
ما افتقرت اليه من وضوح وتلاحم واحتشام ورحانة فاستطاعت مجلتها الجديدة ان تقتشر في
كافة المحاه اوروبا . وان بيير كوست الذي اصبح عضواً في جمعية لندن الملكية وناشر مؤلفات
« لايرويير » و « لافوتتين » و « موتتاني » في انكلترا ، قد ترجم « المحاولة الفلسفية » للوك
(١٧٠٤) و « محاولة في علم البصريات » لنيوتون (١٧٠٤) و « محاولة في السخرية » لشافتسبري .
وهكذا فقد تبودلت الآراء وامتزجت وتلقت بفضل الجمهورية البروتستانتية الفرنسية
الكبرى .

انتشرت الكرتزيانية في كل مكان . في السنة ١٦٥٧ ، درس مذهب
انتشار الكرتزيانية
ديكارث علانية في جامعات هولندا . بين السنة ١٦٥٧ والسنة ١٦٦٦ ،
نشر « كليرسليه » ، الهامي في مجلس باريس التمثيلي ، ثلاثة مجلدات من آثار ديكارث اللاتينية
غير المنشورة ، مع ترجمتها الفرنسية ، ولا سيما من الرسائل التي هي اسهل منالاً من الابحاث
المقائدية . استطاعت الكرتزيانية من ثم تثبيت أقدامها في كافة البلدان وكافة الاوساط الراقية .
في فرنسا ، رحب بها كبار النبلاء ، وكبار البورجوازيين في المحاكم المليا والمهن الحرة ،
والجمعيات الدينية الكبرى . تألفت اكاديميات كرتزيانية حقيقية ، والقيت اسبوعياً محاضرات
علمية كرتزيانية في قصر الدوق « دي لوين » ، و « دار الامير « دي كونديه » ، ومنزل مقدم
العرائض « هايبر دي مونور » ، عضو الاكاديمية الفرنسية ، وفي اجمل قصور باريس . فسدان
بالمذهب الكرتزياني المركيزة « دي سابله » ومدام « دي سيفينييه » وابنتها مدام « دي
غرينيان » ومدام « دي لا فاييت » و « لاروشفوكو » و « آرنو » . ودرست الكرتزيانية عند
رهبان القديس فيلبس النيري ، والبندكتيين ، والاوغسطينيين . ويعود الفضل لاحد الفرنسيين
في انتقال الكرتزيانية الى انكلترا ودخولها دخول الفاتحين الى جامعتي كمبردج واوكسفورد .

وانتشرت الكرتزيانية في جنيف واستولت على عقول كثيرة في ايطاليا والمانيا . وقد بلغ المذهب ذروته بكتاب « احاديث حول تعدد العوالم » لفونتنييل (١٦٨٦) .

الكنيسة ضد الكرتزيانية على الرغم من كل ذلك ، لم تتوقف مقاومة الكنيسة لديكار . كان مقصده انقاذ الدين ، ولكن تعليمه ما لبث ان اصبح خطراً عليه . رد المادة الى الاتساع ، ولكن ما هي الطريقة ، والحالة هذه ، لفهم استحالة الخبز والحمر الى جسد المسيح ودمه ؟ كيف يمكن لجسد المسيح ، الذي هو جزء من الاتساع ، ان يكون في خبز الذبيحة ، بينما لا يزال الخبز ، الذي هو جزء من الاتساع ايضاً ، يحتل مكاناً معيناً ؟ ان ما كانت حوشياً في مذهب الماهيات الواقعي ، قد بات مستغلقاً كلياً ، لا بل مستحيل ، في مذهب الاتساع الكرتزياني . كان الله ديكار مهندساً عبوساً ، وميكانيكياً فقط ، لا يستشف فيه الاله الحي الذي عبده اسحق وابراهيم ويعقوب . ولم يكن في مذهب ديكار مكان لشخص المسيح . وكان من شأن ديكار ان يوصل الى الدين الطبيعي الذي قد لا يكون اقل مناقضة للمسيحية من الاحاد ، والذي ربما ادرك فيه « الفيلسوف المنزع » شيخوخته مجروراً بمنطق تعليمه ، كذلك الشريف الريفي ، الذي جرفه مذهبه في الرشد والادراك ، وربما غدا ديوقراطياً .

لذلك وقفت الكنيسة موقفاً صريحاً مناهضاً للكرتزيانية . في فرنسا طالبت السوربون ، في السنة ١٦٧١ ، بتدريس ارسطو دون غيره ، فكان من الملك ، المقيد بقسم التتويج ، ان منسح تدريس مذهب ديكار (١٦٧١ ، ١٦٧٥ ، ١٦٧٨) . فخضع رهبان القديس فيليس الثيري وبندكتيو « سان - مور » وكهنة « سانت جنيفيف » القانونيون . وفي السنة ١٦٨٠ ، منعت محاضرات « ريجيس » الكرتزيانية . وفي السنتين ١٦٩١ و ١٧٠٤ ، ألزم الملك اساتذة الفلسفة في كليات جامعة باريس بالتمهد خطياً بان لا يدرسوا المبادئ الكرتزيانية . وادرجت مؤلفات الاب « مالبرانش » في فهرست الكتب المحرمة (١٧٠٩) . ولكن الملك لم يتخذ اي اجراء ضد المدنيين الكرتزيانيين ، لا بل اقدم المستشار ، في السنة ١٦٩٢ ، على تأنيب مؤلف « مركزور الظريف » ، لانه نشر « شيئاً ما » تعرض فيه لسمعة ديكار .

تشويبات الكرتزيانية ولكن الكرتزيانية التي انتشرت لم تكن ، من جهة ثانية ، مذهب المعلم الصحيح الذي كان ارفع واعز من ان يستطيع الكثيرون ان يدركوه ويحيوه في مجموعه . ان ما احرز النجاح كان كرتزيانية مشوّمة تلتفها الفسندية والمذهب الذري . يتضح ذلك في « الاسس الطبيعية » لـ « ريجيوس » (١٦٤٦) و « التمييز بين الجسد والروح » لـ « كوردمو » الذي عين قارئاً لولي العهد بوساطة بوسويه ، و « بحث في الطبيعيات » الشهير لـ « روهو » (١٦٧١) الذين اعيد نشره تكراراً ، و « املجة الفلسفة » لريجيس (١٦٩٠) . فان هؤلاء الفلاسفة ، الذين تمودوا التفسيرات الآلية ، ولم يروا بعد ضرورة لاثبات قيمة العلوم الطبيعية الرياضية ، وكانوا اقل تحمساً للحقيقة من ديكار ، وحملتهم فطنتهم ، من

جبهة ثانية ، على عرض آرائهم مجزأة وكأنها نظريات او ترجيحات ، قد فصلوا العلم عن علم المعقولات ونادوا باستقلالها الواحد عن الآخرها ولم يعودوا يبحثون عن استخلاص كل شيء من مبدأ واحد ، بل يقدمون مجموع تفسيرات آلية لظواهر منفردة . وتملقوا بالاختبارات تدفعهم اليها رسائل ديكارت التي يتجلى هذا العقائدي فيها مختبراً ذات له الكل بالكثير خلال القرن السابع عشر . وفي نظرهم ان مطابقة الاختبار للنظرية تعطي احتمالاً عقلياً يكتفون به . وهم يبدوون عاجزين عن التفريق بين الفكر والصورة ، بين الفكر والحس . سبق لديكارت ان لفت الانتباه الى اننا قد نكون فكرة واضحة وجلية عن شكل له الف ضلع يستحيل علينا تصوره . أما في رأي ريجيوس وريجيس ، « فالفكرة » لا تمثل لنا هذا الشكل تمثيلاً اوضح من شكل آخر يختلف عنه بعدد اضلاعه . فلا عجب من ثم اذا ما انزلوا نحو مذهب الحاسيين : كل افكارنا تأتينا من الاختبار والحواس . اما الافكار الازلية ، كفكرة الله ، فتتكون بالتجريد والافتراضات الاختيارية . والنفس لا تعمل الا بفعل ارتباطها بالجسد ، ثم تقنى بعد الموت . وانزلوا نحو المذهب الذري ايضاً لأن جزيئات المواد ، كما يقول « كوردمو » تصير حتماً الى الانسحاق لولا وجود الذرات . ونظرت « صحيفة العلماء » الى الكرتزياني ريجيس ، الذي لم يعرف لا نيوتون ولا لوك ، نظرتها الى احد الغنسيين .

تقدم العلوم ضد الكرتزيانية يضاف الى ذلك اخيراً ان اكتشافات علماء الطبيعة قد خطأت الآليون ونقد ديكارت ديكارت في العديد من النقاط ايضاً . يرد ذلك الى ان ديكارت يبدي بعض اللامبالاة حيال الوقائع . انه يستخلص ، وفي رأيه ان الاختبار هو موافقة بين آراء من اوان الاستخلاص وبين التحقق من ظاهرة ما . فسّر بعض الوقائع المعروفة تفسيراً آلياً دون ان يستثبتها دائماً . انتقد التفسيرات السابقة ولكنه نادراً ما انتقد الوقائع . يسلم بأن الصاعقة تتحول حجراً ، وبأن النيازك والمذنبات ليست سوى مجرد انجزة ملتهبة . يشاطر ارسطو رأيه في ان القلب مركز حرارة قوية يضمها الله فيه . هذه الحرارة تغلي الدم الذي تتخثر انجرتة في الرئة . الغليان يسبب حركات القلب . ويدافع ديكارت عن الدورة الدموية ، ويشهر « هارفي » بإيراد اسمه في « الخطبة » ، ولكنه لا يسلم بتفسيره لحركات القلب . اما هارفي فيبين ان حركات القلب دقائق مفاجئة وحركات سريعة لا قدرة للغليان على احداثها . ديكارت يتمسك بنظريته لانها تبرر الفرق بين دم الشرايين ودم الاوردة . ويتمسك بها كذلك لانها تتيح له الحفاظ على تسلسل استخلاصاته ، وينبذ الملاحظة الثانية التي لا تندمج فيها . ويكتب « مرسين » : اذا كان تفسيري خاطئاً ، فكل فلسفي خاطئ ايضاً . ولكن الملاحظين اضطروا لان يقولوا قول هارفي : القلب عضل ينقبض .

رومر وسرعة النور
وانجرت ديكارت كذلك ، بفعل مفهومه للاتساع ، الى اعتبار انتشار النور انتشاراً فواتياً . الاتساع هو جوهر المادة ، فالجرم من ثم جزء محدود من الاتساع ، وهو بالتالي مغلق وعادم الحركة . وليس لحركته او لتوقفه سوى سبب واحد هو الصدمة . عمل الصدمة فواتي ، لذلك فان عمل النور ينتقل من الاجرام

المنيرة الى العين على طريقة انتقال حركة الدفع من طرف عصا صلبة الى طرفها الآخر . ويمان ديكرات ان فلسفته ستتهار كلياً اذا اثبت الاختبار الحسي وجود تأخر ما ، لان مذهبه متأسك الحلقات . ولكن الدانمركي « رومر » لاحظ في السنة ١٦٧٦ ظهور القمر التابع الاول حين خروجه من ظل جوبيتر ، بالنسبة لاوزاع الارض المختلفة على مدارها ، فتحقق له ان النور يتأخر ستة عشر دقيقة عن بلوغ الارض حين يتوجب على القمر اجتياز مدار الارض . وكانت نتيجة العملية الحسابية التي اجراها ان سرعة النور تبلغ ٣٠٨ ٠٠٠ كيلومتر في الثانية . وتقدر هذه السرعة اليوم في الثانية بحوالي ٢٩٩ ٧٧٨ كم في الهواء و ٢٩٩ ٧٩٦ كم في الفضاء .

لينيز والحركة وانتهى ديكرات اخيراً الى الكف عن البحث عن الصيغة الرياضية لسنن الطبيعة . ولا غرو فاليتة آلية الصدمة . ولما كان سبب كل حركة حركة ، لا يمكن ان يجري التبادل الا بالصدمة التي تفسر الصدم والضغط والثقل . العلة الاولى للصدمة هي ذاك الثبات الالهي الذي يستلزمه عقلياً دوام الحركة . من هذه العلة الاولى نستخلص عسلاً قانونية ، مبدأ ثبوت الجماد ، المبدأ العام لتصادم الاجرام الذي تؤلف ملاحظته السنن السبع لتصادم الاجرام ، واخيراً مبدأ الجماد . وقد اعطى ديكرات مبدأ تصادم الاجرام العام الصيغة التالية : « اذا كان الجرم المتحرك الذي يصطدم بجرم آخر اقل قوة لمواصلة الحركة المستقيمة من هذا الجرم الآخر لمقاومته ، فانه يفقد بعض الشيء من مقصده دون ان يفقد شيئاً من حركته ؛ و ... اذا كان اعظم قوة ، فانه يحرك معه هذا الجرم الآخر ويفقد من حركته بقدر ما يعطي منها » .

بيد ان لينيز قد أثبت ، بعد ان اكتشف حساب الكمية الصفري في السنة ١٦٧٦ ، خطأ سنة دوام الحركة التي توصل اليها ديكرات . يفرض ديكرات خطأ ان الحركة مقياس القوة ، التي هي حاصل ضرب الحجم بالسرعة ، اي ح × س ، لان لبرة تهبط اربع اقدام تحقق طبعاً قوة اربع لبرات تهبط قدماً واحدة . ولكن نسبة حركة اللبرة لحركة اللبرات الاربع ، كما يقول لينيز ، هي نسبة ٢ | ٣ بحسب سنن غاليليو ، وان المطابقة في الوزنين هي حاصل ضرب الحجم بمربع السرعة اي ح × س^٢ ، وهذه القوة هي الثابتة الحقيقية التي يبحث عنها ديكرات .

وفي رأي لينيز ان سنن التصادم التي توصل اليها ديكرات تناقض مبدأ الديمومة الذي هو ملحق مبدأ اللانهاية . يعبر مبدأ الديمومة عن خاصية مشتركة بين كافة التنوعات الحقيقية هي التالية : الطبيعة لا تقفز قفزاً ، ولا يمكن لشيء ان ينتقل من حالة الى اخرى الا بوساطة متعاقبة لا يحصى لها عدد . « ان ما يمكن مشاهدته استمرار مركب من اجزاء لا يمكن مشاهدتها ؛ لا شيء يحدث فجأة ، لا الفكر ولا الحركة » . الواقع ديمومة قد نمجز عن استقصاء اجزائها . وقد اعتقد ديكرات ، بسبب انكشافه عن مواصلة التعمق في فكرة

اللانهاية ، وافتقاره الى مبدأ الاستمرار والى الاداة الرياضية الضرورية ، اى تحليل الكمية الصغرى ، والى الاختبارات الكافية ، بأن الجرم ، كلما استوقفه عائق متمطط ، يطفو ويعود الى الوراء بسرعة مساوية عددياً لسرعته الاولى ، لان حركته تستمر ومقصده ينعكس . ولكن هذه الظاهرة لا تحدث الا في بعض الحالات . ولو ان ديكارت فكر بالحالات التي يكون فيها للجسم الصادم قوة تفوق مقاومة الجسم المصدوم بقدر غاية في الصغر ، لأدرك ان الصدمة ليست ظاهرة بسيطة بل معقدة جداً تنطوي على تعاقب تحول حركات طفيفة جداً : خود ، تبادل تشوه الاجرام ، توقف ، استعادة الشكل ، استعادة الحركات . كل هذا الذي يدوم ، على الرغم من انه يبدو فواتياً ، اعتبره ديكارت بسيطاً . فتوصل من ثم الى آلية حركية لا يستطيع ان يحسب فيها شيئاً . واضطر بسبب ذلك لان يتخيل ، لتفسير نوع من الظواهر ، آلية تصورها على غرار الحيل البشرية . ولكن نتيجة واحدة قد تحقق بعدة اليات مختلفة كل الاختلاف بعضها عن البعض الآخر . لذلك فان مكتشف الهندسة التحليلية ، والعالم بعلم الكائنات الذي جملى من الرياضيات جوهر الواقع ، ومنقذ علم الطبيعيات الرياضي ، قد انتهى الى مذهب في العالم لم يعد فيه مكان للرياضيات .

كل هذا اثبت ان الطريقة الكرتزانية تنطوي على خطأ اساسي .

فمنذ نشر الخطب ، راح علماء كثيرون من المقربين الى مرسين وروبرفال وغسندي وباسكال وهوبس يبسمون تهكماً من بمائلة

باسكال
ونظرية رجحان الافتراض

الاتساع للمادة ويحكمون على تولد الظواهر من تقلبات المادة اللطيفة والزوابع حكمهم على مجرد اسطورة . « ان اسفاط البوري ... وماء البحر والخشب العفن تنطوي ، في هذا القدر القليل من النور الذي تولده « على بدائع تفوق كل ما نستطيع معرفته » . واستمررا في التحزب للفراغ ضد الماء الكرتزباني ، وكان اشهرهم « بليزباسكال^(١) » ، ابن احد القضاة في محكمة المساعدات في « كلمون - فران » . نظر الى المادة اللطيفة التي قال بها ديكارت كما الى صورة جوهرية ونظر الى ديكارت كما الى فيلوف مدرسي . ازدرى بنظرية الافتراض الكرتزانية وابعثتادية ديكارت المبنية على مبدأ عقلي اكيد لا يحتاج تحقيقه الى اختبار . في رأي ديكارت ان نظرية النور تستخلص من السنن التي طبع الله مثل مفاهيمها في نفوسنا والتي لا يمكننا ، بعد امان التفكير بها ، ان نشك في انها تطبق بكل دقة في كل ما هو موجود او حادث في العالم . الله أوجد المطابقة بين نفوسنا ، حيث اودعت بذور الحقيقة ، وبين العالم الواقعي الذي يخضع لسنن الله . فالاستخلاص ، من ثم ، سيتيح لنا ادراك الواقع . ولكن باسكال يكتب بخلاف ذلك : « ليس كافياً ، لكي يكون الافتراض جلي الوضوح ، ان تنتج عنه كل الظواهر ... لان كل اشياء هذه الطبيعية ، التي لا يبرز وجودها لاية حاسة من حواسنا ، يصعب الايمان بوجودها بقدر ما يسهل اكتشافها . ليس للافتراض من قيمة ألا اذا امكن استنباطه بالحواس . ويكون محتملاً حين يتفق والحواس كلها . ولكنه قد لا يكون صحيحاً ، فاذا نتج عنه ما يناقض ظاهرة واحدة من

١ - باسكال : حياته ، فلسفته ، منتخبات - صدر عن منشورات عريبات (الناشر)

الظواهر مثلا ، فيكون ذلك كافياً للحزم في بطلانه . قابل باسكال اعتقادية ديكرت ومبدأه العقلي الاكيد بنظرية اختبارية الافتراض ورجحانه . وقد توصل بالفعل الى نتائج جلية . فقد فسر بثقل الهواء صعود الماء في الانابيب الذي عزي حتى ذلك التاريخ الى نفور الطبيعة من الفراغ . وفي السنة ١٦٤٨ ، اثبت ، باختبار « بوي دي دوم » ، افتراض توريشلي ، الذي قال بان الهواء وازن . وفي كتابه « بحث في توازن السوائل وثقل الهواء » ، رد كل الظواهر الى حركات المادة ووضع مبدأ الضغط المائي ؛ وابتكر ميزان الجو ، ووفر امكانية حساب صعود الماء في الانابيب في كل مكان من العالم وحسب وزن كل الهواء الذي يحيط بالارض . ومنذ السنة ١٦٥٧ ، وضع اسس حساب الاتفاق . فجاءت النتائج تبرر مفهومه للافتراض .

ولكن ذلك أفضى بالنتيجة الى ان مبادئ المهندسين غير لازمة الحدوث وانها منهج الآيين مجرد معطيات حقيقية واختبارية تدرك بالحدس ، او بالقلب ، كما يقول باسكال . فلم الطبيعيات ليس من ثم علماً اثباتياً ، استنتاجياً ، مرتبطاً بعلم المعقولات . وفي هذه الحالة ليس علم المعقولات ، وهو علم صوري على غرار الرياضيات والجدل والمنطق ، تحليلاً للواقع . فليس من ثم اي اعتراض اذا لجأ باسكال الى القلب لاثبات الدين . رفض العلماء المبادئ العقلية الاكيدة ومبادئ علم المعقولات وبراهين اثبات السنن . لم يقبلوا بهذه الاعتقادية الجديدة . واكتفوا ببعض القواعد المنهجية البسيطة : رفض التسلط ، واستيحاه العقل في كل شيء ، واعتبار الجلاء مقياساً للحقيقة ، والفصل أبدأ بين المهم والواضح ، والاختبار لاجل المراقبة ، لان لا سبيل لنا الا الى الكائن العلمي ، لا الى الواقع ، ولا سبيل لنا الا الى الكمية التي ليست سوى احد مرثي الظواهر . ليست سنننا سوى أوصاف للطبيعة ، لا براهين على تركيبها . فلنقل : « كل شيء يحدث كما لو ان ... » ولكن الجميع يؤمنون بالسنن الطبيعية ، ومن ثم بالاله السامي الثبات والاستمرار في مقاصده ، الذي خلق العالم على غرار آلة ضخمة تقصي سنة الجهاد عنها مع قاعدة ديمومة العمل ، التي هي القاعدة الذهبية في علم الطبيعيات الجديد ، كل سحر ، وتحمل من العلم معرفة شتى أنواع الحركات المنظمة . وهكذا تخلخل مذهب ديكرت بدوره بفعل هذه الآلية العملية . بيد ان التأليف لا يهدم الا بتأليف آخر توصل اليه نيوتون .

ان نيوتون (١٦٤٢ - ١٧٢٧) ، استاذ الرياضيات في جامعة كمبردج
تأليف نيوتون (ترينتي كوليدج) منذ السنة ١٦٦٧ ، وعضو الجمعية الملكية للعلوم منذ
السنة ١٦٧٢ ، وموظف دار النقود في لندن منذ السنة ١٦٩٥ ، قد قام في وقت واحد ، منذ
١٦٦٥ - ١٦٦٦ ، بأبحاثه الرياضية والآلية والبصرية . في تموز ١٦٨٧ ، نشر « المبادئ
الرياضية للفلسفة الطبيعية » التي طبعها طبعة ثانية في السنة ١٧١٣ . وظهر كتابه ، « بحث في
البصريات » ، في السنة ١٧٠٤ . ولكنه ، منذ السنة ١٦٦٦ ، أطلع اصداقه على اسلوبه في
حساب المدود وأبحاثه الاولى حول الجاذبية الكونية . ومنذ السنة ١٦٧٢ نوقشت في جمعية لندن

الملكية طريقته في تحليل الضوء الى ألوانه الأولية بواسطة المشور، كما فوَّش، منذ السنة ١٦٧٥، مفهومه للهواء الاصفى المعد لتفسير الجاذبية الكونية .

منهج نيوتون
منهجه هو منهج باسكال والالين الاقحاح . ولا يبدو انه استوحى «بيكون» .
ففي رأي العالم الانكليزي « دافيد بروستر » ، ان نيوتون ليس مديناً بشيء لبيكون ، وحتى لو لم يكتب بيكون شيئاً ، لما حال ذلك دون اكتشافاته ، لا سيما وانه من المستحيل ان يكتشف شيئاً بمناهج بيكون .

نيوتون سير في طريق التحليل . يرفض « الافتراضات » ، اي كل القضايا التي لا تستنتج من الظواهر . وهو لا يعني بذلك رفض كل افتراض يستهدف البحث ، وهذا امر مستحيل ، بل كل قضية لا يمكن استنباطها باختبار تقع نتائجه تحت الحواس . على الفيلسوف ان يجري ملاحظات واختبارات ويخلص منها بالاستنتاج الى نتائج عامة واعتبار هذه القضايا صحيحة الى ان تثبتها بعض الظواهر اثباتاً كلياً أو تظهر انها قابلة للاستثناءات . لا يستطيع اي « افتراض » اضعاف البراهين المبنية على استنتاج مستخلص من الاختبار . يجب على الفيلسوف ان لا يسلم الا بالعلل التي هي كلية الضرورة لتفسير الظواهر ، لأن الطبيعة لا تفعل شيئاً دون جدوى ولانها لا تلجأ في عملها الا الى حد ادنى من العلل البسيطة جداً . يجب الا يبحث الا عن العلل الموجودة حقاً ، لا « عن السنن التي كان باستطاعة الكلي القدرة ان يوجد بواسطتها النظام المدهش الذي يسود الكون ، لو رأى من الموافق استخدامها ، بل تلك التي وضعها بعمل حر صادر عن ارادته . فبممكننا ان نعتقد بالصواب بأن المعلول الواحد قد ينتج عن عدة علل مختلفة ؛ ولكن العلة الحقيقية ، في نظر الفيلسوف ، هي تلك التي تحدث حالياً المعلول موضوع البحث : ولا تعترف الفلسفة الصحيحة بغيرها . ومن البديهي ان الفيلسوف يستخدم الرياضيات ، ولكن بحسب رأي غاليليو وباسكال ، بنية حساب وارتقاب عدد كبير من الظواهر ، لا بنية اسدال الستار على جوهر خفي ما ، كالقوة الجاذبة الحقيقية مثلا . هذه البراهين لا توصل ، على وجه مقلع ، الى نتائج عامة ، ولكن يقدو ممكننا ، بفضل هذا التحليل ، الانتقال من المركبات الى البسائط ، ومن الحركات الى القوى التي تسببها ، ومن المعلولات الى العلل ، ومن العلل الخاصة الى علل اعم . ثم يتبع التأليف الانطلاق من هذه العلل المعروفة والمتعنة وعرض نظام وترتيب الظواهر المرتبطة بها .

حساب الكمية الصغرى
ابتكر نيوتون الاداة الرياضية الضرورية للابحاث الجديدة . منذ
السنة ١٦٦٥ ١٦٦٦ صمم طريقة المدود التي اطلع الجمهور على
مبادئها الاساسية في كتاب « المبادئ » ، وعلى علاماتها الخاصة في المجلد الثاني من كتاب جبر
« ووليس » الذي نشره هو . لقد سبق لكبلر منذ السنة ١٦٣٥ ان استوحى مفهوم اللانهاية
الجديد وطلع بفكرة الكليات الصغرى والكليات الصغرى التي نبذتها الهندسة اليونانية . تخيل
الدائرة وكأنها مركبة من عدد لامتناه من مثلثات تجتمع رؤوسها في نقطة الدائرة وتتوزع

قواعدها على محيط الدائرة ؛ والكرة وكأنها مركبة من عدد لامتناه من الاهرام . وسبق
لديكارت ان ادخل على الرياضيات فكرة الحركة التي افترقت اليها الهندسة اليونانية . وسبق
لويليس (١٦١٦ - ١٧٠٣) ، في كتابه ، « حساب اللانهاية » ، ان استخدم سنة الاستمرار
التي تفرق بين الهندسة المصرية والهندسة القديمة . درس نيوتون كبلر وديكارت وفيت وويليس .
فرض ان المحور الافقي يزداد ازدياداً متساوياً بدلالة الزمان ، فاعتبر مساحة المنحني كمية
ناشئة تزداد بنسبة طول المحور العمودي . توصل الى جملة المد ووضحها في حدود متوالية
متناهية او لامتناهية . أما منهجه فطريقة حساب الكمية الصغرى الشبيهة بطريقة ليبنيز .
فقد توصل ليبنيز ، خلال اقامته في باريس ، حيث حوّل هويغنس شغفه نحو الرياضيات ،
الى ان يبتكر بدوره حساب التفاضل وحساب التكامل ، ونشر مبادئه الاولى في السنة ١٦٨٤
ومبادئه الثاني في السنة ١٦٨٦ ، مع العلامات التي ما تزال مستخدمة في ايامنا هذه . ولكنه
اعتقد بأنه اكتشف جوهرأ خفياً حين اهتدى الى ح \times س^٢ ، ولم يتمكن من استخدام اكتشافه
في حساب سنن الطبيعة . ومنذ السنة ١٦٩٩ ، وخلال جدال حاد ، اتهم نيوتون بانتحال ليبنيز
وليبنيز بانتحال نيوتون .

مسألة الجاذبية استطاع نيوتون ، بعد هذا الاكتشاف ، بحجابه مسألة لم يتوفق كبلر وغاليليو
الى حلها . القوة الخارجية ضرورية لتحويل حركة جرم مستقيمة ومتساوية
السرعة . فما هي والحالة هذه القوة التي تحيد الكواكب عن الخط المستقيم في الفضاء وتجعلها
ترسم خطوطاً منحنية يا ترى ؟ منذ السنة ١٦٦٦ فكر نيوتون بحركة القمر حول الارض فلتساءل
عما اذا لم تكن الجاذبية ، التي يُستثبت تأثيرها حتى في اعلى قمم الجبال ، تمتد الى القمر وتؤثر في
هذا الجرم وتبقيه على مداره ، وعما اذا لم تكن الجاذبية هي القوة الجاذبة الى المركز . استند
في براهينه ، بالمثالة ، الى حركة القذائف . فاذا رادت السرعة ، قاومت القوة الجاذبة الى
المركز ، وسقطت القذيفة على سطح الارض في مكان يزداد بعده بنسبة سرعتها . فبمكنتنا من
ثم تصور قذيفة تسير بسرعة فائقة بحيث انها لا تسقط بل تعود الى قمة الجبل العالي الذي يفترض
انها أطلقت منها . واذا كانت سنة كبلر الثالثة صحيحة ، فكما ان المساحات التي يرسمها شعاعها
الى مركز الارض تكون نسبية للوقت ، كذلك تكون سرعتها في طريق عودتها الى الجبل
متساوية لها عند الانطلاق ، فتستأنف دورتها كما تفعل السيارات بالضغط على مدارها . وقد بلور
افكار نيوتون في المسائل المطلوب حلها هيوط تفاحة سقطت على الأرض .

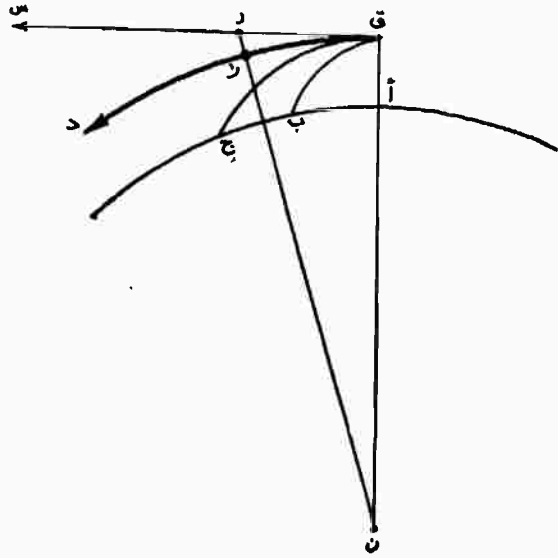
فأخذ نيوتون من ثم يحاول معرفة السنة التي بموجبها تتدنى قوة الجاذبية كلما ابتعد الجرم
عن الأرض .

ان قذيفة تترك وشأنها في النقطة ق تهبط وفقاً للخط العمودي ق ا . ولكنها تطلق وفقاً
للخط الافقي ق س بسرعة تقاوم الجاذبية . كان من الواجب بعد مرور ثانية ان تكون في

النقطة ر ، ولكنها تكون في النقطة ر١ على محيط دائرة شعاعها ن ق . فقد سقطت اذن من ر الى ر١ ي خمسة امتار .

بوجب هذه السنة حسب نيوتون آنذاك مقدار الاسراع الذي تحدثه قوة الجاذبية في جرم يبلغ بعده بعد القمر . ارتأى ، بالاستناد الى سنن كبلر ، انه ، في الارجح ، نسي نسبة عكسية لمربع الأبعاد . فاذا كان الامر كذلك ، ولما كان هذا الجرم ، الموجود على مقربة من سطح الارض ، وتفصله عن مركز الارض مسافة توازي الشعاع الارضي ، اي ٦٤٠٠٠٠٠ متر ، يهبط ٥ امتار أو ٥٠٠٠ مم في الثانية ، فانه حين يكون على مسافة توازي مسافة القمر ، أي على بعد ٦٠ شعاعاً ارضياً ، أو ٣٨٤٠٠٠٠٠٠ متر ، يهبط في الارجح ٥٠٠٠ مم : ٦٠ اي ٣٩ ، ١ مم .

تبقي على نيوتون معرفة ما اذا كان هذا المقدار هو مقدار اسراع الجذب القمر نحو المركز يرسم القمر محيط دائرة في ٢٨ يوماً ، أو ٢٤١٩٢٠٠ ثانية . شعاع هذه الدائرة يوازي شعاع الأرض ٦٠ ضعفاً أي ٣٨٤٠٠٠٠٠٠ متر ومحيطها ٢٤٠٠٠٠٠٠٠ متر . فسرعة القمر من ثم هي دون ١٠٠٠ متر بقليل . فيتضح بعد حساب وتر الزاوية القائمة ن ل في المثلث القائم الزاوية ن ق ل ان القمر يهبط ، بعد مرور ثانية ، من ل الى ل' اي ١ ، ٣٩ مم . فاهتدى نيوتون



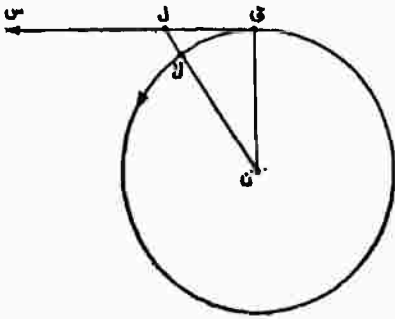
الشكل ١٤ - المقطع الرادي الذي تسقطه في ثانية قذيفة مندفعة بسرعة كافية لأن لا تهبط في ب ارج بل لأن تدور حول الارض وفقاً لدائرة شعاعها ن ق .

تقريباً الى المقدار نفسه الذي اهتدى اليه في حاسبه الاول . واتضح من ثم ان الجاذبية الارضية تتحول كمكس مربع المسافة .

أما الهولندي « هويغنس » (١٦٢٩ - ١٦٩٥) الذي كان والده صديقاً لديكارت فقد حاول بدوره ، بعد ان اكتشف حلقة زحل في السنة ١٦٥٦ ، تركيب ساعة ذات رصاص ، ودرس هبوط الاجرام الوازنة ، ودرس قوة السيارات المبعدة عن المركز ، وغدا على قاب قوسين من سنة الجاذبية . ولكنه اعتمد الهندسة القديمة بصورة خاصة ، فلم يهتد اليها (« ذبذبة الساعة » ، ١٦٧٣) . فاستفاد نيوتون ، بعد ذلك ، من نظريته في القوة المبعدة عن المركز ،

أو الحركة الدائرية ، ليثبت ان قوة الجاذبية الشمسية تتحول ، هي ايضاً ، كعكس مربع المسافة ، ويرتفع الى سنة الجاذبية العامة .

بيد انه لم ينشر استنتاجاته لانه لم يعرف ما اذا كان يقتضي حساب المسافة بين الكواكب و سطح الارض أو بين الكواكب ومركز الارض . وليس صحيحاً انه اضطر الى انتظار نشر قياس خط الطول الذي اجراه الاب بيكار في السنة ١٦٦٩ - ١٦٧٠ ، لمعرفة الشعاع الارضي وحساب المسافة بين الارض والقمر . فقد كان لديه عدة تقديرات كافية لطول الشعاع الارضي نخص بالذكر منها تقدير « غونتر » . ولكنه حل ، في السنة ١٦٨٠ ، مسألة معرفة مسيرة جزء صغير يتحرك في جوار قوة جاذبه تتحول بحسب سنة المربع المعكوس . فظهر ان هذه المسيرة قطع اهليلجي يحتل الجرم الجاذب أحد محترقيه . وأثبت في السنة ١٦٨٥ أن جرماً كروياً ذا ثقل نوعي متساو في كافة نقاطه المتساوية البعد عن مركزه يجذب جزءاً صغيراً خارجياً كما لو كان كل ثقل الجرم مجموعاً في مركزه . فبات من ثم باستطاعته اعتبار كافة أجزاء النظام الشمسي كما لو كانت اجزاء صغرى ثقيلة . وقرر اذ ذاك نشر « المبادئ » .



درس فيها ، أول ما درس ، نظرية نيوتون الحركات التطبيقية للاجزاء الصفري والاجرام الخاضعة لبعض سنن قوى معلومة . فاقر مبادئ أساسية مسلماً بها بدون برهان ، هي وجود زمان « مطلق وحقيقي ورياضي » يجري جرياناً متساوياً دونما اعتبار لاي شيء خارجي ، ووجود فضاء مطلق « يبقى هو هو دون تغير » ، ووجود « حركة مطلقة »

هي « انتقال جرم من مكان الى آخر » ، وقد غدت هذه المبادئ مبادئ علم الطبيعيات حتى « انشتين » . وأقر أخيراً ، كمبدأً أساسياً ، ثبات سنن الطبيعة .

وصاغ سنن الحركة :

- ١ - كل جرم يستمر في سكونه أو في حركته المتساوية السرعة وفاقاً لخط مستقيم ، ما لم تتبدل حاله بفعل بعض القوى . وهذه سنة سبق لديكارت ان صاغها .
- ٢ - ان تبدل الحركة نسبي للقوة ويجري في اتجاه انطلاق القوة . ويستخلص ذلك من استنتاجات غاليليو .
- ٣ - يقابل كل فعل ردة فعل موازية ، أو الافعال المتبادلة بين جسم وآخر متساوية ومتقابلة

ابداً . ويعود الفضل في صياغة هذه السنة الى نيوتون وحده .

قاده حساباته الى تأمل الاجزاء الصغرى الثقيلة . كما ان تجرد السوائل ، واحتفاظ الاشعة الضوئية بخصائص مختلفة في جهاتها المختلفة ، الذي جعله يعتقد بان الاشعة المضيئة اجسام جامدة ، وثبات طبيعة الماء ذاتها وطبيعة الارض عينها واجزائها الصغرى منذ قرون ، الذي يبعد فكرة الدروس التي قال بها ديكارت ، قد حملته على اعتبار كل الاجسام مركبة من اجزاء صغرى متسعة ، صلبة ، ثابتة ، مستقلة ، لا تقسم ، متحركة وذات قوة ثبوت ، اي مركبة من ذرات .

ان هذه الاجزاء الصغرى تتحرك في الفراغ أو اقله في وسط قليل الكثافة جداً . وهاجم نيوتون في المجلد الثاني من « المبادئ » ، زوايا ديكارت ونظرية الملاء . استخلص بالحساب نتائج المبادئ الآلية الكرتزيانية واظهر ان علم الطبيعيات الزوابعي يفضي الى نتائج تتنافى وسنن كبير . فذا دارت كرة صلبة مثلاً في سائل جديس خاضع لحركة دائرية متساوية السرعة ، فان الوقت الدوري لاجزاء هذه الزوابع الكرتزيانية يكون نسبياً لمربعات المسافة الى مركز الكرة . ولكن الاوقات الدورية للاقمار التي تدور حول جوبيتر هي بنسبة واحد ونصف لمسافاتها الى مركز هذه السيارة ، والقاعدة نفسها ترى السيارات التي تدور حول الشمس . فلو كانت هذه السيارات تنتقل بفعل الزوايا ، لحضمت هذه الزوايا للسنة نفسها التي تحضع لها السيارات . ولكن لا شيء من ذلك ، اذن ليس من زوايا .

وبحسب الآلية الكرتزيانية كذلك ، تتحرك الاجرام ، التي تنقلها الزوايا ، وفقاً للسنة نفسها التي تسير اجزاء الزوايا ، من حيث السرعة والاتجاه . ولكن ، لو كان هنالك زوابع لكانت مادة الزوابع ، بتأثير ضغط مادة الزوايا المجاورة ، اشد المحصاراً ، في اقصى نقاط القطع الاهليجي عن الشمس ، منها في ادنى نقاط هذا القطع الى الشمس ، ولكانت مادة الزوابع المنحصرة اسرع حركة في اقصى نقاط القطع الاهليجي عن الشمس منها في ادنى نقاط هذا القطع الى الشمس ، ولغاصت السيارة في الزوابع ايضاً . ولكن السيارة ، بحسب سنة كبير الاولى ، اسرع حركة في ادنى نقاط القطع الى الشمس منها في اقصاها . فليس ثمة من زوايا .

لو كانت الكواكب تنتقل بفعل الزوايا لصعب التوفيق بينها وبين وفرة الزوايا ، وبينها وبين حركة الزوابع الشمسية وحركات زوايا السيارات ، ولصعبت معرفة كيف ان المذنبات ، التي تنقلها الزوايا ، تستطيع ان تجتاز بسرعة فائقة وبسهولة فائقة مدارات السيارات من خلال زوايا هذه الاخيرة .

واخيراً ، لو كانت الفضاءات السماوية ملاء بالمادة ، دون ان يتخللها اي فراغ ، وبالتالي

كثيفة جداً ، مها كان من رقة وسائلة هذه المادة ، لكنت مقاومتها أكبر من مقاومة الزئبق ، ولقدت الكرة الصلبة ، في مثل هذا الوسط ، أكثر من نصف حركتها في اجتيازها ثلاثة اضعاف محورها . « لذلك يقتضي ان تكون هذه الفضاءات السهوية ، التي تتحرك فيها السيارات والمذنبات في كل اتجاه ، حركة طليقة مستمرة ، دون اي نقص محسوس في حركتها ، خالية من كل سائل مادي .

بيد ان ميزان الحرارة الذي يوضع في الفراغ يشير الى الحرارة نفسها التي يشير اليها ميزان آخر يوضع في الهواء ، وفي الوقت نفسه تقريباً . فبمكنتنا التسليم اذن بان الحرارة تنتقل في الفراغ بفعل اهتزازات وسط أرق من الهواء الى حد بعيد يبقى في الفراغ بعد اقضاء الهواء عنه بواسطة المضخة الماصة . وبمكنتنا ان نسلم كذلك بان هذا الوسط هو نفسه ما يكسر النور ويعكسه ، ويدفع النور الاجسام بفعل اهتزازاته . وبمكنتنا اخيراً ان نسلم بان هذا الوسط ، اي الاثير ، يملأ السماوات كلها ويتسرب الى الاجسام كلها .

وهكذا تمكن نيوتون ، بتطبيقه براهينه حيال الكواكب ، بالمائلة ، على أجزاء الاجسام الصغرى ، من بناء آلية ذرية مرتكزة الى الفراغ والجاذبية الكونية . في الفراغ تتحرك كائنات مادية هي عبارة عن نقطة ذات ثقل ثابت . كل من هذه الذرات يخضع لقوة جاذبة تنبثق عن نقطة اخرى ويعمل بدوره في هذه الاخيرة عملاً موازياً يقابل جاذبيتها مباشرة . يتجه هذا العمل المتبادل بين الذرتين وفاقاً للخط المستقيم الذي يصل بينهما . وهو نسبي لثقلهما ويتحول بنسبة عكسية لتربيع المسافة بينهما . اذا كانت هذه المسافة مملوسة ، اصبح هذا العمل جاذبية الثقل التي تفسر سقوط الاشياء على سطح الارض ، وسير القمر ، والسيارات ، والاقمار والمذنبات ، ومد البحر وجزره ، وتسطح الارض عند القطب الذي اثبتته اكتشاف « ريشيه » في « كاتين » في السنة ١٦٧٢ ؛ يجب تقصير رصاص الساعة عند خط الاستواء لا اذن فهو يميل الى حركة ابطاً ، اذن الجاذبية أقل في خط الاستواء ، اذن الرصاص فيه كما على جبل عال ، اذن الارض سميكة في المنطقة الاستوائية ، اذن القوة الجاذبة الى المركز في هذه المنطقة متدنية . اما اذا كانت المسافة قصيرة جداً ، فان هذا العمل يفسر تلاحم الاجسام عند ما تكون الذرات متجانسة تفسيراً افضل من السكون الذي فسر به ديكارت كيفية تلاحق اجزاء الجوامد الصغرى . وفي نظر نيوتون ان هذا السكون صفة خفية او مجرد لا شيء . التلاحم يفسر خصائص الجوامد والسوائل والغازات . واذا كانت الذرات مختلفة كجايوايا ، فان هذا العمل يفسر التقارب الذي يسهم مع التلاحم في تحديد وتظيم التركيب والتحلل الكيماويين .

على الرغم من نفوره من « الافتراضات » ، حاول نيوتون تفسير الجاذبية الكونية . وقد اعتقد ان الاثير يجب ان يكون في الشمس والسيارات والمذنبات والنجوم اندر منه في الفضاءات السهوية . فيجوز الاعتقاد من ثم بان كثافة الاثير تزداد كلما ابتعدنا في الفضاء.

الأجرام السيارية تبذل جهوداً في انتقالها من مناطق كثافة الاثير الى مناطق ندرته ، وهذا ما يسبب الجاذبية المتبادلة بين هذه الاجرام والجاذبية بين اجزائها وبينها بالذات . والخلاصة هي ان الجاذبية ضابقتها ، فساد ، على غرار ديكارت ، الى تصور انتقال الحركة بالتماس ، بالدفع . يضاف الى ذلك انه لاحظ من جهة ثانية ان كل الاجسام البالغة درجة معينة من الحرارة تنشر فوراً مصدره حركة اجزائها ، كماء البحر في الطقس العاصف ، أو كالحشب واللحم والشمك حين يتسرب اليها الفساد ، فتسائل عما اذا لم يكن ممكناً ، بعكس الامر ، ان تتلقى الاجسام نشاطها من اجزاء ضوئية صفرى مصدرها اشعة ماكنة في الاجسام تحرك اجزاء هذه الاجسام .

فقد سبق له منذ السنة ١٦٦٦ ان حلل نور الشمس ، بواسطة الموشور ، ووجد النور ان الطول في صورة الشمس ، عند خروجها من الموشور ، يبلغ خمسة اضعاف العرض ، وان ألوان الموشور تتماقب وفقاً لنظام محدد على الحاجز العاكس : الاحمر في الاعلى والبنفسجي في الاسفل . فالاشعة المختلفة تنكسر من ثم انكساراً غير متساو ؛ ويقابل كل درجة من درجات قابلية الانكسار لون معين . ولكن نيوتون اعتقد ، على نقيض « هويغنس » الذي تصور اللون في « بحث حول النور » كموجات سائل ، أو اثير مختلف عن اثير نيوتون ، يحركه خفتان الاجسام المنيرة ، بان الاشعة الضوئية جسيمات صفرى ، أو ذرات تطلقها الاجسام المنيرة . فمن شأن السائل ان يحول دون ارتجاجات اجزاء الاجسام الصفرى وان يحول كذلك دون حركة الكواكب . وتخضع هذه الذرات بدورها لسنة الجاذبية الكونية وتحدث ارتجاجات في الوسط الذي تعمل فيه .

ولكنه لم يتوقف عند هذه العلل الثانوية ، بل ارتفع الى العلة الاولى « التي « الساطع الاولي » ليست آلية ، ، وذهل منها . فتدبير الفاعل المفكر يبدو ظاهراً في نظام الاشياء . ولا يعقل ان تتحرك كل السيارات في اتجاه واحد وفي مدارات مشتركة المركز بفعل قدر اعمى او سن الطبيعة البسيطة . « يجب ان ينظر الى مثل هذا التناسق المدهش في نظام السيارات كما الى نتيجة اختيار . ويصح القول نفسه في التناسق البادي في جسم الحيوانات . . . لا يمكن ان تكون هذه الصناعة سوى نتيجة حكمة وتفكير فاعل قدير حي ابداء يستطيع ، بفعل وجوده في كل مكان ، ان يحرك الاجسام على هواه في مركز حواسه الثابت اللامتناهي ، وان يكون اجزاء الكون ويميد تكوينها بهذه الوسيلة . . . بيد ان ذلك لا يميز لنا النظر الى العالم كما الى جسد الله ولا الى اجزائه المختلفة كما الى اجزاء مختلفة من الله . . . ، الله هو الله الذاتي ، « سيد الاشياء » ، الكائن اللامتناهي ، الاولي ، الكلتي الكمال ، « الكلتي القدرة والعالم بكل شيء » . العلم يثبت وجود الله لان القول بلازمة الحركة للمادة يتنافى وسنة ثبوت الجداد ، ولو ان الله لا يخلق في كل آن كمية جديدة من الحركة ، لفسد العالم وسقم وفي شيئاً

فشيئاً بفعل تلف طاقته . فقاد العلم من ثم الى دين طبيعي يجب ان يكمله الدين الموحى به . وكما كتب البروتستانتى الفرنسي ، كوست ، الذي ترجم مؤلفاته في السنة ١٧١٣ : « بمكتمنا الآن ان نعبد ونخدم ، بمزيد من الحرارة ، سيد وخالق الاشياء كلها ، وهذا هو اكبر خير نستطيع جنيه من الفلسفة . . . ان هذا المؤلف الكبير لنيوتون سيكون من ثم سوراً ركيناً لن يقوى الملحدون والزنادقة على تقويضه البتة ، وفيه يجب البحث عن الاسلحة اذا اردنا الدخول في حرب ظافرة » .

استقبل مذهب نيوتون استقبالا حماسيا في انكلترا . « كانت الطبيعة وسنن الطبيعة متواريتين في الظلمة . قال الرب : ليكن نيوتون . فكان النور ، (بوب) .

بيد ان الكرتزيانيين الانكليز قد ابدوا بعض المقاومة ، وفي البر الاوروي مقاومة الكرتزيانيين قابل كبار العلماء نيوتون بعنف . فان هويغنس ، وليبنيز ، واكاديمية العلوم في باريس ، وكافة الكرتزيانيين ، فونتيل ، « كستيبي » ، « ريومور » ، الايطالي « بوليني » ، قد وقفوا في وجهه . نعت هويغنس مبدأ الجاذبية بالحال ، ولم يختلف ليبنيز عنه في الرأي .

كلهم نبذوا الجاذبية باعتبارها صفة خفية . « اذا نحن استشرنا افكارنا في موضوع سبب الحركة الطبيعي ، فهي لن تقدم لنا شيئاً جلياً واضحاً سوى الصدمة او الدفع . . . فلا نتخلين قط عن مبادئ آلية واضحة ؛ اذا نحن تخيلنا عنها ، ينطفئ كل النور الذي نستطيع الحصول عليه منها ، ونغرق نحن مرّة اخرى في ظلمات فلسفة ارسطو القديمة ، حفظنا الله منها (سورين ، في اكااديمية العلوم في باريس ، ١٧٠٩) . وعبثاً اجاب النيوتونيون بانه لا يجوز ان نعت بالحقيّة صفات أثبت الاختبار وجودها ، حتى ولو استحال علينا تكوين فكرة واضحة وجلية عنها .

تسرب الشك الى اذهان بعض المؤمنين . ففي نظر ليبنيز ان الله هو العقل الشامل ، بينما يرى نيوتون ان الله يختار الاشياء والسنن الطبيعية بفعل ارادة اختياري ، كفننا اختار ان يتمدد عمل الكون ويحافظ عليه . فرأى ليبنيز في ذلك إهانة للحكمة الالهية ، لان الاعتقاد على غرار نيوتون بان الله قد بنى عالماً لا يستطيع السير بمفرده ، بدون معجزة تدخل الله الدائم لتمدد الحركة ، هو استهانة للقدرة الالهية والكمال الالهي . وتمسك ليبنيز اخيراً بالماء الكرتزياني ضد الفراغ ، لان ازدياد حجم المادة يتيح لله مزيداً من الظروف لممارسة حكمته وقدرته .

بذل الكرتزيانيون اذن جهوداً يائسة للمحافظة على الزوايع . فان الاب « فيلسمو » قد وفق في السنة ١٧٠٧ بين حركة الزوايع وسنن كبلر مهملاً ما ارتآه ديكرات بأن السيارات هي كالسفن التي تسير ابدأ سيراً ابطاً من النهر الذي يجرّها : السيارات والزوايع تخضع لحركة واحدة . وفي السنة ١٧٠٩ ردّ سورين على هويغنس ، الذي اكد بأن سرعة الزوبعة يجب ان تكون ١٧ ضعف سرعة الارض ، وبأن الاشياء كلها ستطير عن سطح الارض ، اذا كانت الارض متحركة بفعل الزوبعة ، بأن كلما ازدادت سرعة السائل كلما تدنت كثافته . فلا يستطيع

من ثم ان ينزع او يقتلع شيئاً . اما المذنبات فكانت ملبكة . كان « هالي » قد حدد عناصر مدارات ٣٤ مذنباً ظهرت بين السنة ١٣٣٧ والسنة ١٦٩٨ . لاحظ التشابه البادي في عناصر مدارات مذنبات ١٥٣١ و ١٦٠٧ و ١٦٨٢ ، فعزاها الى مذنب واحد انبأ بظهوره مرة اخرى في السنة ١٧٥٨ . ولاحظ « لاهير » في السنة ١٧٠٢ ان ظهور واشتفاء المذنبات لا يُرى ان تدريجياً ، بل دفعة واحدة ؛ اذن فهي نيران عابرة تشتعل فجائياً . ولكن كسيفي اثبت انها تزداد حجماً وسرعة ظاهرين . فارتأى فيلمو حينذاك وضما فوق سماء زحل بنية مجنبيها مصادفة زويمة السيارات . ولكن لوحظ ان ارتفاع مذنب ١٧٠٢ كان خمسة اضعاف ارتفاع القمر فقط . عزا ديكارث مد البحر وجزره الى ضغط القمر على المادة الرقيقة التي قال بوجودها بينه وبين الارض . ومن الجلي ان القمر اصغر من ان يسبب هذه النتيجة . فاجاب فيلمو على الاعتراض في السنة ١٧١٠ : « هي زويمة القمر ما يسبب الضغط » . ولكن تأثير الشمس لوحظ بعد ذلك ايضاً ؛ فتوجب اذ ذاك اللجوء الى زويمة الشمس . وفي سبيل الاتفاق مع الملاحظات والحسابات ، مست الحاجة الى تعقيد التفسير الكرتزياني تعقيداً مطرداً ، في حال ان التفسير النيوتوني قد اجاب على كل شيء بمنتهى البساطة . ولكن الكرتزيانيين كانوا ابعد من ان يقتنموا ، حوالي السنة ١٧١٣ - ١٧١٤ ، واستمر الصراع ضارياً بينهم وبين النيوتونيين . فتخبط العالم العلمي في ازمة حادة .

الكرتزيانية والنيوتونية والكيمياء
 « نقولا كسري » الطواهر بمبادئ الفلاسفة المصريين ، اي
 ديكارث ، وذلك خلال دروسه في مختبره (شارع غالنند) ، « المغارة السحرية المضادة باكتفهار الافران » ، وفي « كتاب الكيمياء المدرسي » الذي نشره في السنة ١٦٧٥ . عمل ماء لتحليل الذهب في الذهب مصدره « حدود » هذا الماء ، ومذاق الحوامض الحازر ، والشكل المرّ الذي تتخذُه هند التبلور مصدرها اجزاؤها الصغرى المقرّنة . القلويات تغور اذا ما امتزجت بالحوامض ، اذن اجزاؤها الصغرى مسامية وباستطاعة حدود الحوامض ان تتسرب الى الداخل . الزئبق سائل ابداً لان اجزائه الصغرى مستديرة . ولاحظ « نقولا له فيلر » ، مدرس الكيمياء في حديقة النباتات ، في كتابه « الكيمياء القياسية » ، ارتفاع وزن الاجسام التي تتأكسد ، وكتون فكرة غامضة عن « روح شاملة » عرف خصائصها هي الاكسجين . تنبت هذه الروح الشاملة من الكواكب بشكل لور و « تنجسد » في الهواء وتسبب معظم النتائج المألوفة في المعادن والنباتات والحيوانات . وتعمل الروح الشاملة في النباتات ، وترتق وتبخر كل ما في الدم من سوائل زائدة . وادخل الانكليزي « روبرت بويل » (١٦٢٧ - ١٦٩٧) في الكيمياء « لغاميم ديكارث ونيوتون ، فحدد الجسم البسيط جسماً لا يمكن تحليله بأية وسيلة من وسائلنا . كل ما يحدث في الطبيعة يجب ان يفسر آلياً ، ولا يمكن ان تتعلق الفوارق بين الاجسام المختلفة الا بحجم الاجزاء الصغرى وشكلها وحركتها . الهواء ضروري لاحداث اللمبيد وتغذيته . وهو

يلعب الدور نفسه في الاحتراق والتنفس ، ويشبه « بويل » ديومو حياة الحيوان بديومو لهيب الكحول في اثناء مقل . وعرض بويل. الصلصال والرصاص والقصدير للهب . فتغير منظر هذه الاجسام بعد العملية وزاد وزنها . اذن دخلت اجزاء النور الصغرى الموجودة في اللهب الى الرصاص والقصدير والصلصال وامتزجت بذرات هذه المواد واعطت ، بالاتحاد بها ، اجساماً جامدة . وميز الالمانى « بكر » بين نوعين من الاجسام : الاجسام المركبة والاجسام غير القابلة التحليل . فكان بالامكان صنع مركبات بغية تحليلها واظهار عناصر تركيبها مع صفاتها . وقال مواطنه « ستاهل » (١٦٦٠ - ١٧٣٤) ان الذرات مختلفة بعضها عن البعض الآخر وان لها صفات خاصة اصلية مطلقة ، وان في التجاذب الكيماوي بين الاجسام بعض ما في الاجسام الحية : الذرات المتجانسة تطلب بعضها بعضاً بفعل طبيعتها . وكان اول من اكتشف ان تكليس المعدن ظاهرة مماثلة لاحتراق المواد العضوية المختلفة . الكلس المعدني هو رماد معدن محروق ؛ اذا اضيف بعض الزيت او الشحم او الدهن الى هذا الرماد ، فانه يصبح معدناً مرة اخرى . اذن فان الجزء القابل الاحتراق في الجسم الدهني ينتقل الى الكلس المعدني ويحل محل ما فقده المعدن بالتكليس . ومن ثم فان هذا الجزء القابل الاحتراق مادة تنتشر في الهواء اثناء الاحتراق دون ان تصير الى الزوال . وان هذه المادة سائل كوني هو « السائل اللهب » .

وتسربت الكرتزيانية والآلية والطريقة الاختبارية تسرباً عميقاً الى علوم الطبيعة ايضاً . ولكن الحيوان - الآلة الذي تكلم عنه ديكارتر قد افضى بعلماء كثيرين الى سلوك طريق مضلة . فنقل بعضهم علم الآليات ، بلا شرط ولا استثناء ، الى نطاق وقائع مختلفة . في كتابه « حركة الحيوانات » (١٦٨٠) فسر « بورلي » ، الرياضي والفلكي والمعلم بالطبيعية ، حركة الكائنات الحية من زاوية آلية بحتة . واعجب الطبيبان « بفلفي » (١٦٦٩ - ١٧٠٨) و « بورهاف » بتطبيق « المبادئ الرياضية ومبادئ الهندسة المائية ومبادئ علم السكون ومبادئ الجاذبية » على بنية الكائنات الحية . « فهل هذه الآلات المسلحة بالاسنان شيء آخر غير الكشاشات يا ترى ؟ » المعدة قرعة زجاجية ؛ الاوردة والشرايين وجهاز العروق انايب مائية ؛ القلب زنبرك ؛ الاحشاء مناخل ومصاف ؛ الرئة منفاخ ؛ زاوية العين بكرة ؛ العضلات حبال . فعلق من ثم على الالياف اهمية دونها اهمية الاخلاط . يجب ان تكون الالياف قوية ، والافلررض والموت . لذلك اعتمادا المعالجة بالمهيجات والمقويات : الكمي والدلك والمهجم والحراقة ولصوق الحردل والكينا ، دون ان يتخليا ، من جهة ثانية ، عن المعالجة بكسبريت الرصاص . اغتاط « ستاهل » من امال العلماء للحياة . الا انه رجع للقهرى الى تعليم عصر النهضة . النفس هي مبدأ الحياة . النفس تشرف على سير الاعضاء خير اشراف . فيقتضي من ثم احترام ودود الفمل الطبيعية ، والانصراف عن معالجة الحمى مثلاً لانها مجهود تبذله النفس

للتخلص من المواد التي تمسّها .

احرز التقدم في حقل التشريح بصورة خاصة بفضل بعض المراقبين . استخدموا المجهز ، الذي كمله « روبرت هوك » ، وتقنيات جديدة تقضي بمحقن العروق بسوائل ملونة . وهذا ما فعله « اوستاش » و « مالبيني » و « ربولن » و « غليستون » و « غرال » و « سوامردام » . وكان لدى « رويش » ، في امستردام ، مجموعة من الاجزاء التشريحية تظهر فيها العروق الدموية واللفاوية . وقد قال فونتنييل ان جميع هؤلاء الموتى ، « الخالين من الجفاف الظاهر ومن الغضون ، والتميزين بزهرة الوجه ولدانة الاغشية ، اشبه بالقائمين من بين الاموات » . فاستطاع مالبيني اكتشاف الفليقات الكبدية وجسيمات الكلى وجسيمات حاسة الذوق واظهار اتصالها بالشرابين الكلوية الصغرى . وشرح غليسون عروق الكبد . واكتشف الهولندي « لوينهوك » (١٦٣٢ - ١٧٢٣) في السنة ١٦٧٧ حيوانات الرجل المنوية ، والكرويات الحمراء البالغة الصغر « بحيث لا توازي مئات الالوف منها حجم الرملة الواحدة » ، والعروق الشعرية ، ورأى الكرويات الحمراء تتخذ شكلا مستطيلا لاجتياز العروق الشعرية الدقيقة جداً . فأكمل بذلك اكتشاف « هارفي » .

ولكن « مالبيني » و « لوينهوك » لم يتوصلا الى اقناع الارسطاطاليسيين وانصار المعالجة بكبريت الرصاص الذين قابلوما بالصينغ الفلسفية والاستشهادات بالنصوص الكتابية والكلاسيكية .

تقدم علم الوظائف النباتية بفضل اجاث « ماريوت » و « مالبيني » . علم الوظائف النباتية أظهر ماريوت ، في كتابه « بحث في نمو النبات » ، ان النباتات لا تمتص من التربة غذاء جاهزا يوافق مادتها الخاصة موافقة مباشرة ، بل تحول كلها عناصر مشتركة : « اذا أبرأ شجرة اجاص برية بمئبر من شجرة اجاص زراعية ، فان النسغ نفسه الذي كان من شأنه ان ينتج في الشجرة الاولى اثمارا صغيرة الحجم رديئة الطعم ، ينتقل الى الفصون التي تتفرع عن المئبر وينتج فيها اجاصاً كبير الحجم لذيذ الطعم ... فهو النسغ نفسه ، الذي كان في جذع الشجرة ، ما عين له نتيجتان مختلفتان ، اما بقوة خفية ، يدعوها البعض فرعية ، وتكون في كل مئبر ، اما بتركيب خاص في الالياف والمسام يجعل النسغ يتخذ أشكالاً وأوضاعاً شبيهة بما في هذه المآبر من اشكال واوضاع . وتراعى للمالبيني دور الاوراق في التغذية الذي انكره ارسطو . فقد طمر بالتراب فليقتي نبيطة قرع ذارّة ورأى ان النبيطة ما لبثت ان ذبلت . ولاحظ من جهة ثانية ان اوراقها تتساقط حال تكون الاوراق الجديدة . فخلص من ذلك الى ان الفليقات تقوم بعمل المرصعة وان « الطبيعة أوجدت الاوراق بغية دهم النسغ المنتقل الى قريباتها بواسطة الالياف الخشبية » .

اصغر الاجسام افتتح المراقبون عالم أصغر الاجسام كما افتتح الفلكيون عالم اكبرها ، ورفعوا القناع عن تشابهات تعلق البال بين الجهاز العضوي لكل من الانسان والحيوانات وطرحوا مسائل التوالد والنوع . في السنة ١٦٧٥ ، اكتشف لوينهوك النقايمات ؛ وفي السنة ١٦٧٧ ، وصف حيوانات الانسان المنوية ، كما وصف بعد ذلك بقليل الحيوانات المنوية في الارنب والكلب والضفادع والاسماك والحزون والحمار ، واطهر الاخيطة الدموية في قلب ذكر البط وعضلات الضفدعة . وفي السنة ١٦٨٨ ، اهتدى الى كرويات الدم الحمراء في الحيوانات ، ولاحظ ان كرويات الاسماك والطيور بيضوية الشكل . وبين السنة ١٦٩٥ والسنة ١٧٠٠ استثبت التناسل الذاتي عند الارق . واورد « ماليني » في كتابه حول دودة الحرير (١٦٦٩) تاريخ هذه الدودة الذي غدا مستنداً لمعرفة تنظيم الحشرات . واكتشف أنابيب التنفس في دودة الحرير والزيت وقرن الايل والجراة والنحلة ، ورجم بانها تلمب عند الحشرات دور الرئتين . واورد الطبيب الهولندي « سوامردام » ، في كتابه « ملاحظات حول التحولات » (١٦٦٩) ، تاريخ القمل والصرصور والجراة والبعوضة والخنفساء والفراشة والنملة والنحلة . ووصف « ريدي » (١٦٢٦ - ١٦٩٧) ، طبيب غراندوق توسكانا ، ديدانا معوية كثيرة ، واكتشف الغدتين اللتين تفرزان سم الثمايين . ولكن ما توصل اليه ، انكره « شاراس » (١٦٧٨) الذي زعم بان « السائل الاصفر » الذي تكلم عنه « ريدي » ، قد وضع في الجروح و لم يتسبب في اي حادث . وقد عزا « شاراس » نتائج النهش الى تأمير الثعبان الذي يفضب « فتصعد التأمير الى رأسه ويدخل بسرعة الى الجروح التي أحدثتها الاسنان » .

أسفرت هذه الملاحظات عن تجدد مسألة التوالد. اعتقد معظم العلماء بالتوالدات مسألة التوالد الذاتية . بين « ريدي » في « بحاث في توالد الحشرات » (١٦٦٨) ان الديدان لا تولد تلقائياً من ثفن الجيف . فاذا حوفظ على قطعة لحم من الذباب بشق مقفل اقفالا محكماً ، لن تتولد ديدان البتة . لا تتولد هذه الاخيرة الا من البيوض التي يتركها الذباب . الكائنات الحية لا تتولد الا من الجراثيم . ولكن ما توصل اليه « ريدي » لم يبد عظيم الاهمية ، ودفعت الآلية ماريوت الى الاعتقاد بان النباتات قد تتولد من الحما الجفف بفعل تجمع بعض الاجزاء الصغرى .

دب الخلاف بين أنصار البيوض وانصار الحيوانات المهرية . اعتقد لوينهوك بان الجنين يتكون بالحيوان المنوي ، وبان لا حاجة من ثم الى بيوض بل الى محل موافق . ولكنه واجه اذ ذاك الحالات الوراثية حيث يشابه النسل الابوين معاً . أما أنصار البيوض فقد اعتبروا الجنين سابق التكوين واقصروا دور الحيوان المنوي على دور التحريك فقط . والواقع هوان هؤلاء واولئك قد قالوا بالتكوين السابق . سبق لماليني ان لاحظ في السنة ١٦٦٩ « ان رسم خطوط الدجاجة الارلية موجودة مسبقاً في البيضة ، وان اصل هذا الرسم سابق للولادة » . قادت نظرية التكون السابق الى نظرية تداخل الجراثيم . فان للجنين السابق التكوين في البيضة.

مبايضة المصفرة التي تحتوي على جنين سابق التكوين له مبايضة ، الخ . كل الكائنات اللاحقة ، بعد الكائن الأول سابقة التكوين وتتداخل جراثيمها بعضها في البعض الآخر . « كانت البشرية كلها موجودة في أصلاب آدم وحواء » (١٦٩٢) . وقد حسب « هارتسوكر » في السنة ١٦٩٤ ، ان أول جرثومة تكونت ستصبح « بالنسبة لآخر جرثومة تظهر في السنة الاخيرة من القرن الستين كما هي الوحدة التي يليها ٣٠٠٠٠ صفر بالنسبة للوحدة » ، وخلص من ذلك الى استحالة النظرية . ولكن « مالبرانش » اعلن ان « الفكرة لا يمكن ان تبدو ماجنة وغريبة الا لاولئك الذين يقيسون معجزات قدرة الله اللامتناهية بمقياس وحي حواسهم ومخيلتهم » .

مسألة النوع وطرحت المائلات مسألة تحديد النوع . لم يتحقق التقدم في علم الحيوان بل في علم النبات حيث الاشياء اكثر بساطة ، اذ ان لبنية باديات الواقع مخططا عاما واحداً . ففي السنة ١٦٨٦ ، اعطى « جون كاي » ، في « تاريخ النباتات » ، تحديدأ واضحا للنوع واقترح تصنيفاً مستنداً الى تركيب الطلوع والاوراق الاولى، وادخل التمييز الاساسي بين ذوات الفلقتين وذوات الفلقة الواحدة . وميز « تورنفور » ، الاستاذ في « حديقة الملك » ، في كتابه « السبيل الى معرفة النباتات » (١٦٩٤) بين الاشجار والشجيرات والشجيرات الصغرى والاعشاب ، وعين التقسيمات في كل فئة وفاقاً لميزات النورة . فصادف نجاحاً عظيماً لدى العلماء الفرنسيين والاطاليين والالمان والانكليز بفضل ايجازه ووضوحه . ولكن ست طوائف فقط ، من اصل ٢٢ ، طابقت فئات طبيعية . وفي السنة ١٦٨٩ ، ادخل « مانبول » الاستاذ في « مونبليه » مفهوم « الفصائل » المميزة لا بحسب جزء معين من النبات ، بل بحسب مجموع ميزات كل نبات يدخل في الفصيلة .

العلم الاجتماعي الحساب السياسي الاحصائيات ان الكرتزيانية والآلية اوحيتا بفكرة العلم الاجتماعي ، وانضمنا في البلدان التي تميزت بانطلاقة رأسمالية كبرى ، الى الحاجات المتولدة من توافر الرقبيات ومن نجاح التأمينات على الحياة ، للتسبب في ولادة علم احصاء الجماعات البشرية . فنظم « غرونر » ، في السنة ١٦٦٢ ، بيانات بالرقبيات ، مع حساب ترجيحات بقاء الاحياء ، بالاستناد الى لوائح الموتى في لندن ، ونظم الهولندي « دي فيت » ، في السنة ١٦٧١ ، بيانات مماثلة . واصلح هالي اخطاء غرونر في السنة ١٦٩٣ بالاستناد الى جداول برسلو . بفضل هذه البيانات توصل غرونر و « ولم بتي » وماتيو هايلاز ، في « اصول الانسانية الاولى » (١٦٧٧) ، الى وضع ستة نمو السكان وفاقاً لمتواليه هندسية ، وحدد هايلاز فترة المضاعفة بخمس وعشرين سنة . فلم يتبق أمام « مالتوس » سوى ان يقارن هذه الستة بسنة الايراد غير المتناسب . بذلك انتقل علم احصاء الجماعات البشرية من مرحلة الوصف التاريخية الى مرحلة وضع السنن العملية . وانضمت الكرتزيانية والآلية الى الرأسمالية التي اوجدت عادة التعبير بالارقام عن كل شيء والى حاجات الدول المتعاربة ، عسكرياً ومالياً

فنشأ عنها كلها علم جديد .

ففي سبيل حساب نسبة القوى بين انكلترا وفرنسا المتنازعتين ، اوجد ولم يبق ، تحت تأثير الكرتزيانية والآلية ، علماً جديداً هو الدرس العددي للاحداث الاجتماعية ، « الحساب السياسي » ، (١٦٨٢ - ١٦٩١) ، وهو لمحات في مقارنة ثروات انكلترا وفرنسا . استهدف من وراء ذلك « ايضاح افكاره بمفردات المدد والوزن والقياس ، والاقتصار على البراهين المحسوسة والاسباب المرتكزة الى اسس ظاهرة في الطبيعة ، تاركاً لسواه أمر الاهتمام بما يتعلق منها بذهن البشر وآرائهم وأهوائهم ورغائبهم المتقلبة . . . حلل الظروف الطبيعية بالدقة التي اتاحتها له معطياته العددية المحدودة ، وحسب القوى والجهود ، وحاول رد القوى المركبة الى عملية القوى البسيطة ، الثابتة والقابلة للقياس . ونحا نحوه مواطناه «دافننت» و «غريغوري كنج» ، فاصبح بمكنة السر «دول نورث» ان يكتب في السنة ١٦٩١ ، في مستهل «خطبته في التجارة» ، «امتت المعرفة آلية الى حد بعيد» .

واعطت حاجات الدول العسكرية والمالية علم الاحصاء اهمية جديدة . ففي فرنسا فرضت بعض التدابير التشريعية (١٦٦٧ ، ١٦٧٣) على خدام الرعايا تنظيم سجلات الحالة المدنية . ونشرت مستندات الحالة المدنية في باريس ، بين السنة ١٦٧٠ والسنة ١٦٨٤ ، واستؤنف نشرها بعد السنة ١٧٠٩ ، وتكرر احصاء عدد السكان : استقصاء السنة ١٦٦٣ بناء على طلب كولبير ، واستقصاء السنة ١٦٩٣ في سبيل سياسة تموينية ، والاستقصاء الكبير الذي قام به الولاة منذ السنة ١٦٩٧ حتى السنة ١٧٠٠ ، بناء على طلب دوق بورغونيا ، والذي استخلص منه «فوبان» و «سوغرين» تقديراتهما لعدد سكان فرنسا . نظمت هذه الاحصاءات على اساس «العائلة» ، لا على أساس الشخص في تاريخ معين فجاءت من ثم ناقصة جداً ، ولكن فوبان ، المهندس والمتعهد ، قد برهن عن ادراك حقيقي لما يجب ان يكونه الاستقصاء الاحصائي الجيد . فقد اقترح في «العشر الملكي» الذي حرره في السنة ١٦٩٩ ونشره في السنة ١٧٠٧ ، احصاء عدد السكان كل سنة على اساس مراتبهم ومهنتهم ؛ ووزع جداول الاحصاء على اساس الرعية : الرجال ، النساء ، الفتيان (فوق ١٤ سنة) ، الفتيات (فوق ١٢ سنة) ، الصبيان ، الصبايا ، الخدام ، الخادومات ، عدد البيوت من الفئات المختلفة ، والحيوانات الاليفة من كل نوع ، والاراضي المزروعة والبائرة ، والكروم المزروعة والمهملة ، والغابات على انواعها ، والمطاحن والمحارات .

ما زال العلماء مسيرين قبل كل شيء ، في ابحاثهم ، اما بالحاجة الى حل
النفعية ، الآلات
المسائل الفلسفية والدينية وتوطيد قواعد المعتقدات اللازمة لحياتهم ، واما
بالتمعش الى الفهم الذي هو شكل من اشكال روح النهضة وشهوة القوة وروح السيطرة
والاستمتاع . ولكنهم انشغلوا اكثر فاكثر بتطبيق تحقيقاتهم على الحياة المادية . وجاءت
الانطلاقة الاقتصادية والاجتماعية تبرز في الازدهان تقليد ديكرات . ففي رأي ديكرات ان

غاية الفلسفة هي فائدة الجنس البشري ، الفائدة الكلية . ولذلك فقد سعى وراء تخفيف آلام البشر وتعزيز قدرتهم على الطبيعة . منذ السنة ١٦٣٧ ، كتب لوالد « هويغنس » بحثاً موجزاً في الآلات البسيطة . وتحليل آلات متحركة لتنفيذ الاعمال الشاقة هي اسلاف اجهزتنا الآلية المسيرة بالكهرباء والمغناطيس . وبعد ان رأى مدارس الفنون والمهن في هولندا ، اشار بان تلقى على الصناعيين اليديويين دروس في الرياضيات والطبيعيات والآليات في قاعات تزود بكافة الادوات الضرورية . واتجهت الأفكار نحو اختراع الآلات . اضيف الى ذلك ان اعمال البناء والاشغال العامة في الدول المطلقة ، والآلات المستعملة لرفع الانتقال قد أثارت الاعجاب وحملت على الاعتقاد بان البشرية دخلت في عهد الآلية . وتوصل الفرنسي باسكال في السنة ١٦٤٢ ، والانكليزي « صموئيل مورلند » في ١٦٦٦ ، والالمانى ليبنيز بين السنة ١٦٧١ والسنة ١٦٩٤ ، الى ابتكار آلات حاسبة ، وانهمك هويغنس في اكتشاف ساعة ذات رقاص بغير حل مسألة خطوط الطول ، واخترع « ادوارد سومرست » ، « مركيز « وورستر » ، في السنة ١٦٥٥ ، آلة بخارية رفعت الماء حتى علو ٤٠ قدماً في « فوكس - هول » . وتوصل الفرنسي « دنيس بابين » الى ابتداء صمام الامان في السنة ١٦٨١ ، وأول آلة بخارية مزودة بمكبس يتحرك داخل اسطوانة . قوة البخار المتمططة تدفع المكبس الى الاعلى . يتخثر البخار اذ ذلك فيحدث الفراغ تحت المكبس الذي ينزل ثانية تحت تأثير الضغط الجوي . في السنة ١٧٠٧ استخدم بابين آله في تحريك سفينة : الآلة البخارية ترفع الماء الذي يهبط على دولاب ويحركه ، وتنتقل الحركة الى العنقات . واستحصل المهندس العسكري الانكليزي « توماس سافري » (١٦٥٠ - ١٧١٦) ، في السنة ١٦٩٣ ، على شهادة حكومية حفظت له حقوق استئثار آلة بخارية معدة لضخ مياه المناجم نحو الخارج . فكانت هذه الآلة الاولى التي طبقت عملياً . استخدمت لتموين المدن والمنازل الخاصة بالمياه ، ولانزاح بعض المناجم ، الا ان رفع المياه حتى علو كاف في المناجم يتطلب ضغطاً يبلغ عدة اجواء . ولكن تجاوزه ضغط ثلاثة اجواء كان عملية خطيرة لا سيما وان « سافري » لم يستخدم صمام الامان . فكانت الآلة من ثم خطيرة ، واستازمت من جهة ثانية محروقات كثيرة ، فلم تفلح في التغلب على منافسة الآلات التي تدار بالاحصنة .

تقدمت الابحاث في كل الاتجاهات . ويتكلم اليسوعي « كسبار شوت » في احد مؤلفاته اللاتينية عن غواصة (?) جرت تجربتها في السنة ١٦٥٣ ، على حد قوله ، في نهر الرون .

جاء في احدى فقرات مدخل وضعه باسكال لبحث في الفراغ راجح مخطوطاً في القرن السابع عشر ما يلي : « يجب ان ننظر الى جميع البشر الذين تعاقبوا على مر القرون الطويلة كما الى انسان واحد يدوم ابداً

لكرة التقدم
والثقة الميأء في العلم

ويتعلم دائماً . . معارفنا تفوق معارف الاقدمين ، وهذا يعني ان معارف من سيأتون بعدنا ستفوق معارفنا . وفي السنة ١٦٨٨ ، توسع فونتنيل في الفكرة نفسها خلال المشادة التي قامت

بين الاقدمين والمعاصرين ؛ فتبين ان العلم يمهد السبيل لتقدم غير محدود . وانطوت مقدمته لكتاب « تاريخ تجدد الاكاديمية الملكية للعلوم » (١٧٠٢) على نشيد تهليل للعلم . الى العالم يعود امر توجيه البشر . العالم متفوق على الامراء والفاخرين . وهو سيرع في السياسة لانه متمرن على الحسابات الدقيقة والتركيبات الصعبة . معارفنا ستتوسع ابدأ . سننتهي الى معرفة كافة اجزاء الآلة المدهشة . معارفنا ستمطينا القدرة لا على التفكير تفكيراً صحيحاً وجلياً فحسب ، بل على « اكتشاف الآلات الجديدة والسريعة التي تختصر وتسهل عملنا ، والتبصر في تدبير اعتماد عدة عوامل أو مواد تؤمن لنا منتوجات جديدة ومفيدة يكون باستطاعتنا استخدامها ومن ثم زيادة مجموع ثرواتنا ، اي الاشياء المفيدة لرفاهيتنا » . سيأتي يوم يطير فيه الانسان و « يصل في يوم آخر الى القمر » . الموت سيتقهقر والارض ستغدو فردوساً .

امسى العلم معبوداً واسطورة . فلم يفرق بينه وبين السعادة ، كما لم يفرق بين التقدم المادي وبين التقدم الاخلاقي . واتجه العلم الى الحلول محل الفلسفة والدين . « يسمو علم الطبيعيات الحقيقية حتى يصبح نوعاً من اللاموت » (فونتنيل) .

٤ - ازمة الفكر والحس

جهاليات المعاصرين ، جفاف الابد

نشأت نظرة جديدة الى الجمال ، وقد نشأت عن العلم في الدرجة الاولى . وفسر فونتنيل ذلك بقوله : « لا ترتبط الروح الهندسية بالهندسة ارتباطاً يحول دون نقلها من الهندسة الى معارف اخرى . ان المؤلف السياسي ، والاخلاقي ، او الانتقادي ، أو حتى البياني ، سيكتسب مزيداً من الجمال ، مع حفظ النسب ، اذا ما ديجته يد المهندس . ولعل مصدر الترتيب والوضوح والدقة والضبظ ، التي تسود الكتب منذ بعض الوقت ، تلك الروح الهندسية التي انتشرت انتشاراً لم تعرفه في أي وقت مضى » . ان الروح النفعية ، التي قوامها نمو العلم ، والازمة الاقتصادية والاجتماعية ، وارتقاء البورجوازية ، قد اوجدت الرغبة في المؤلفات المفيدة ، اي المؤلفات الواضحة الدقيقة . وجاءت الروح الهندسية والروح النفعية تعززان عصرية ردهات الاستقبال حيث كان الناس سعداء باكتشاف هذا العون لمهاجمة العلماء والاساتذة وادعياء المعرفة ، اي كل اولئك المبرمين الذين يفرضون بذل الجهود . فقد ولى زمان أثارت فيه سعة الاطلاع ، والعصور القديمة ، حماس الهواة المستنيرين ، وعمت فيه رغبة المعرفة الجماهير ، ان عهد الشغف بمعرفة كل شيء ، بأي ثمن ، قد عقبه عهد نفترقه الانظمة الاجتماعية خلال الحروب الطويلة فأراد التوصل الى بعض الوضوح في كل شيء ، باقل جهد ممكن ، اي الى « صباغ معرفة في أحب المسائل التي تثار في المجتمعات المحترمة » . الشيء المهم الوحيد هو التألق في الحديث ، والتعليق بخلق جميل ولهجة ظريفة ، فيُعف حينذاك عن المعرفة ، اذا كان هنالك من معرفة . المترفون

يزدرون بالملانة . بات التمكن من معرفة المؤلفين الاقدمين وقفا على اقلية ضئيلة . « ليس هناك سوى الملانة تقريباً من يتقنون اللاتينية » ؛ اما الآخرون فامامهم الترجمات ، « الخائنات الحسنات » ، حيث الحذف والتخفيف والتجميل ، التي تموه مؤلفات الاقدمين وتشوهها خدمة للعالمين . هؤلاء فقدوا كلياً معنى الجمال الكلاسيكي . وفي المشادة بين الاقدمين والمعاصرين ، وقفوا الى جانب المعاصرين ، اي الى جانب « شارل برّو » (« قصيدة في عصر لويس الكبير » ، ١٦٨٧ ؛ « مقارنة بين الاقدمين والمعاصرين » ، ١٦٨٨ - ١٦٩٦) ، و فونتنييل (« استطراد حول الاقدمين والمعاصرين » ، ١٦٨٨) وكل من يشبتون تفوق « عصر لويس » على عصري بريكليلس واورغستوس وتفوق الكمال « العصري » على كمال الاقدمين . وكان للمشادة صداها في كافة أنحاء اوروبا . ففي كل مكان ، في « لاهاي » ، و « امستردام » ، وانكلترا ، والمانيا ، صادفت النظرة « العصرية » الى الجمال انصاراً كثيرين .

النظرة الجمالية الجديدة هي انتقال بروح العلم الكرتزياني الى الادب . ان هدف المؤلف الأول هو الإفهام ونقل الحقائق المفيدة . فالصفات الجوهرية من ثم هي « الجملات الشاملة » ، العقل ، والرأي الرشيد ، وقابلية الملاحظة والفهم ، والتدقيق ، والترتيب ، والوضوح ، والمنطق . في سبيل بلوغ الحقيقة ، يجب اعتماد النهج المتبع في علم الطبيعيات حيث يحكم على الاجسام بحسب اتساعها وحركتها ، بصرف النظر عن الصفات الحسية : يجب ان نحكم على الشعر والبيان بصرف النظر عن الاذن والفؤاد . لنقف موقفاً حذراً من الاحساس والتأثر والهوى والحميا الجميلة والحرارة المقدسة والحماس والشمس الشعري . كل ذلك حرارة دم وخيال وهم وجنون . الخلق الشعري العصري عملية حصافة وبرهنة لا تنطوي على اي غرض او ميل . واذا كان « المعاصر » يناقض بذلك كل من سبقه ، فهو الحق والمصيب : فكما ان هنالك تقدماً في العلوم ، فهناك تقدم في الفنون ايضاً ، واذا اختلف الكمال المعاصر عن كالات العصور الاخرى ، فانه متفوق عليها جميعها . لذلك لم يتردد « هودار دي لاموت » في تكميل هوميروس وتنقيته من « النوافل » ، « النعوت » ، الصور ، المقارنات ، السذاجات ، الدنايا ، العوارض التاريخية ، الطابع المحلي ، وكل ما يعيد الى الذاكرة حضارة بربرية . وأقصر المؤلف المركب المتناسق المألوف المليء بالحياة الذي وضعه الشاعر اليوناني على الوقائع والعناصر البينة الشاملة . « ديكارت لحر الشعر في عنقه » (بوالو) . « الشلل ادراك القلب » (دارجنسون) . « لقد ذهب الآلهة . وباستطاعتي القول انني رأيت الآداب تزهر وتموت وانني عمرت فوق ما عمرت (هويه) . افضل كتاب هو « السبجايا » (١٦٨٨ - ١٦٩٤) للابرويير ، المراقب الاجتماعي المعارض . فكانت الغلبة للكلاسيكية الكاذبة المرتكزة في جوهرها الى القواعد والطرائق ، الحذرة من العبقرية ، العاطفة على متوسطي المواهب .

ملاحيه الشعر
الرسم والتزيين
الاوربا ، النظام الخيالي

« يمكنه الانسان ان يعيش ثلاثة ايام بدون خبز ؛ اما بدون شعر فلا . ان الشعر ، الذي أقصي عن الادب ، قد التجأ الى الرسم والتزيين . وفي المشادة التي قامت في فرنسا بين انصار « روبنس » وانصار « بوسين » حوالي ١٦٦٨ ، رجحت كفة الاولين رجحاناً

ظاهراً : حوالي السنة ١٧٠٠ ، بحث المصورون والجمهور عن اللذة في الضوء واللون . جسد الفنان في اثر ما يتميز بحميا الاهواء وقوة التعبير والحياة العارمة والسجيا الفردية . فان « كوابل » ، في كنيسة فرساي ، و « لافوس » ، في « الانفاليد » ، قد اعادا الشباب الى العقود بالوان اوفر صفاء وبهجة وبرسوم ارسخ بروزاً ومثانة . ووصل « فاتو » (١٦٨٤ - ١٧٢١) من « فالنسين » الى باريس في السنة ١٧٠٢ وتلذذ « كلود جيلو » و « كلود اودران » . ورسم لوحاته العسكرية الخالية من التصنع ، « ظهر الحرب » ، وعرض لوحاته المعدة للمهازل والاعباد الانيقة . وتحول التزيين بعد ١٦٨٥ - ١٦٩٠ ، فأحيا « بيرن » تصوير الاوراق المتشابكة واضفى عليه الحفة والرقعة ، واطلق العنان لمخيلته ، فابتدع مواضيعه الجديدة : حنايا الاوراق النباتية ، والرسم الحازونية الانيقة ، وقوائم الدرازونات التي سئد اليها صور الانسان التيس وابي الهول والعنقاء ، ريمض اشخاص المهزلة الايطالية والاوربا ، كالموسيقين المازفين على القيثارة والبوق ، المازين الدفوف بايديهم ، الماشين على ايديهم ، او كالصينيين والترك الذين ابتدعهم خياله . وفي « مودون » ، ملأ « كلود اودران » الثالث السقوف بصور آلهة الحب والقرود والهنود والدلافين . ففرت الجدران رسوم القرود او رسوم المواضيع الصينية كتلك التي حققها « فاتو » في قصر « لاموبت » . وبرزت مرة اخرى الحركة والخيال وتأثيرات الخيلة والحس .

اما الاوبرا ، وهي عيد الالحان والالوان والاوزان ، وتأثر شهواني عذب ، فقد استقبلت استقبالاً حاراً في نابولي وروما وفلورنسا والبندقية وفيينا و « درسد » وليزيغ وباريس ولندن . واخيراً وجد الشعر له ملجأ غير منتظر في احلام عصور ذهبية اورد ذكرها على لسان « البربري الصالح » و « الصيني الحكيم » في الف نظام اجتماعي خيالي نسقت تنسيقاً منطقياً بالاستناد الى معطيات استوقفت الحواس .

المحطات تعليم الآداب القديمة
هبط مستوى الدروس في الكليات بسبب سيطرة الشواغل
النفسية على التلاميذ وآبائهم . فالحياة قد قست على الكثيرين .
اما الاولاد ، المتزايدون تزايداً مطرداً ، والمنحدرون من البورجوازية التجارية ، فيأتون من اوساط تقف موقفاً حذراً من الآداب القديمة : « اعتبرت الدروس اليونانية غير ذات فائدة فضحفت والمحطت . وخلت صنوف الفلسفة : ما هي الفائدة من كل هذه الاشياء الباطلة ؟ »
وإذا كان لغة اللاتينية بعض الحظوة « فبوصفها اجراءاً ضرورياً للوصول الى مهن مختلفة او

دلالة على المركز الاجتماعي المحترم . وطلب حديثو النعمة ، في الدرجة الاولى ، من المدرسة ، تزويد اولادهم بتلك « المعارف الجميلة » ، بتلك « الصباغات » من كل شيء ، بتلك « الآداب اللطيفة » ، التي تتيح كلها البروز في المجتمع . فارضام الاساتذة بفيض من التمارين العامة ، في التاريخ والجغرافيا ، والمراعات باللغة الفرنسية ، والرقصات الرمزية ، وكلها ترضي حب التظاهر العائلي ولكنها تضرب علم الآداب القديمة اضراراً كبيراً .

٥ - ازمة الفكر والحس

ازمة الدين

راجع الصوفيين آخر لأن ليس من يفهمهم . فان « نيقول » (« مدعو الوحي » ١٦٦٥ - ١٦٦٦ ؛ « بحث في الصلاة » ، ١٦٢٩ ؛ « دحض اخطاء مذهب التجرد الرئيسية » ، ١٦٩٥) ، ومالبرانش ، وبوسويه ، وبوردالو ، كاذوا غرباء عن الصوفية او معادين لها . الارغسطينية سيطرت وسيطر معها الاقتناع بأن التمتع واللذة هما محرك الانسان الوحيد وبأن الارادة لا تميل الا الى ما يقع منها موقع الرضى . وذهب الجنسينيون بهذا المذهب الى حد الافراط : كل ميولنا وكل عواطفنا تعود في جوهرها الى حب الذات . ولكن الصوفيين ادعوا بأنهم لا يبحثون في محبتهم لله عن التمزيات الحسية . وقالوا ان هذه المحبة هي ميل الى الله ، قد يبعثه الله دون ان يرفقه باللذة ، في وسط ييوسة هي تطهير داخلي . واكدوا انهم يشمرون بالسعادة ، دونما لذة ، في وسط الآلام . فكانوا من ثم مفررين انفسهم في نظر نيقول والآخرين . وكل ما يعزونه الى النعمة ليس سوى وهم انانيتهم وضع تخيلتهم .

كان خصوم الصوفية كرتزيانيين وآلين ، فاعتقدوا بإمكانية معرفة الله العقلية فقط ، عن طريق الافكار الواضحة والبرهنة . أما الصوفيون فقد تكلموا عن مشاهدة مبهمة ، عن حوار مع الله دونما صوت كلام أو تلامس مادي ، دونما شيء يمكن ان يقع تحت الحواس أو يكون بمعنى الكلمة المادي . كانت معرفتهم لله معرفة سرية ، خالية من المثل ، غامضة ومبهمة . وابتى خصوم الصوفية التسليم بما لا يشعرون به ، اي بتمييز فكرة الله ومعانقة الله . وفي رأيهم ان الصوفيين لم يدركوا ما يقولون ، وانهم ضربوا بالرشد عرض الحائط ، وأنهم معتوهون ومجانين .

احب الصوفيون الله ، وكانت المحبة حياة لهم . أما خصومهم فقد أرادوا ديناً مفيداً ، عملياً ، يستهدف اكتساب الفضائل مباشرة . ورفضوا مناجاة النفس لله ، والتمجد النفس بالله ، وعبادة الله الحاضر حضوراً ذاتياً مباشراً . واقصروا الصلاة على التأمل استعداداً للقيام بواجب ، أو لتسلح ضد التجارب ، أو لتنظيم المشاغل والاعمال ، على فصوص الضمير المتعددة . باطللة كل فكرة عن الله « لا تتضمن اية فكرة عن أمر أو قاعدة يجب التقيد بها ، أو عن رذيلة يجب تجنبها » .

فاتقصر الدين من ثم على مساعدة الاخلاق وبات علماً اخلاقياً نفعياً ، وأنزل الله الى مرتبة معاون للانسان . وكان ذلك انحداراً جديداً من نظرية مركزية الله الى نظرية مركزية الانسان .

انفجر الموقف هذا في قضية مذهب التجرد . ان النظرية التجردية التي طلع مذهب التجرد بها الاب « جان فالكوني » من جمعية سيدة الشكر ، انتشرت في فرنسا مرة اخرى بواسطة « مالافال » (« الطريقة السهلة للسمو بالنفس الى التأمل » ، ١٦٠٠) ، وفي اسبانيا بواسطة « مولينوس » ، أحد كهنة ابرشية « ساراغوس » (« الزمام الروحي » ، ١٦٧٥) . في رأي التجرديين ان من واجب النفس الاستسلام لله في راحة كاملة استسلاماً نهائياً . حينذاك يفعل الله بالنفس ما يطيّب له ان يفعل . في هذه الحالة ، التي تكون دائمة ، لا تستطيع النفس ان تخطيء منها صدر عنها . فيتضح من ذلك ان هذا التعليم انطوى على نتائج خطيرة : فقد رفض التجرديون الصلوات اللفظية ، والوردية ، واشارة الصليب ، والمصلوب ، زاعمين بان كل ذلك يمنعهم من الاتحاد بالله . اعتبروا كل أفكارهم اتجاهات من الله وحسبوا ان كل ما يمر في خاطرهم جائز ومحلل لهم . سجن مولينوس وادين بناء على طلب محكمة التفتيش الرومانية . وأقدم البابا انوشنتيوس الحادي عشر على ما أقدم عليه مكرهاً تحت ضغط لويس الرابع عشر . فان رقيه ، في الواقع ، قد خُطأ مذهب التجرد وخطأ معه ممارسات مشتركة بين التجرديين والصوفيين تتفق كل الاتفاقيات والمعتمد القويم ، كصلاة التجرد أو صلاة الايمان التي هي نظرة محبة مباشرة من النفس الى الله ، دونما صور باطنية وتأمل وبرهنة وتفكير .

أما في فرنسا فقد سبق لاحدى المتصوفات ، السيدة « غويون » ان نشرت « الطريقة الموجزة والسهلة جداً للصلاة » ، ولن تلبث ان تؤلف « السبول الروحية » . وجمعت من حولها بعض الاشخاص الروحيين الذين كان لها عليهم سطوة كبرى . وكان من بينهم الاب « دي فينيلون » مذهب دوق « بورغونيا » . وكانت السيدة « غويون » صديقة للسيدة « دي منتنون » ، فشغفت بأرائها معلمات وآنسات « سان - سير » . الا ان صوفيتها ما لبثت ان اصبحت موضوع ارتياب لا سيما وان من شأن بعض تعابيرها المفرطة أو الخرقاء ان لا يفرق السامع بينها وبين التجرديين . حكم على « الطريقة الموجزة » في روما في السنة ١٦٨٩ . ونبهت السيدة « دي منتنون » الى الخطر في السنة ١٦٩٤ . وتحولت القضية الى مبارزة بين بوسويه وفينيلون دافع فيها كلاماً عن آرائها ، بوسويه في « درس في حالات الصلاة » ، وفينيلون في « تفسير مبادئ القديسين حول الحياة الباطنية » في السنة ١٦٩٧ . وتدخل اخيراً لويس الرابع عشر ، فاعفي فينيلون من مهمة التهذيب في السنة ١٦٩٥ واقصي عن البلاط واسندت اليه رئاسة اساقفة « كمبريه » ، ثم حكم البابا على كتابه في السنة ١٦٩٩ .

بيد ان ما يلفت النظر هو ان « التفسير » قد اثبت بان فينيلون ، المدافع عن الصوفيين ، لم يكن اطول باعاً في فهم الصوفية من خصومه . فقد شدد على طابع التجرد في المحبة الصوفية ،

بحيث ان الصوفي يجب ان يحب الله من كل نفسه حتى ولو حدث ، بفرض مستحيل ، ان الله يجهل محبته ويريد له نيران جهنم الازلية . واستشهد فينيلون بالقدس برناردوس وغيره . ولكن القديس برناردوس قد تبرأ منه مسبقاً . فهو قد سبق له وابان ، ضد « ابيلاز » الذي قال قول فينيلون ، ان محبة الله لا يمكن ان تكون مجردة تماماً . فمحبة الله ، من جهة ، تستهدف الكائن الاعظم ، اي الخير الاسمي والسعادة السمية . أما محبة الخليقة ، من جهة ثانية ، فقد لا تقابلها مكافأة ، وتصبح مجردة في حال تادمياً . ولكن محبة الله مكافأة ابدأ لأن الله احبنا قبل ان نحبه ولا يطلب منا سوى محبتنا كي يسبح علينا نعماً جديدة . يضاف الى ذلك اخيراً ان النفس لا تحب الله من اجل ذاته ما دامت قادرة على فرض المستحيلات ، فان النفس ، حين تحب الله من اجل ذاته ، تنقطع عن الفرض والتفكير وتنصهر في الله . وقد اتضح من كل ذلك ان فينيلون لم يمتجر الصوفية وانه ، هو ايضاً ، قد تكلم عنها كما يتكلم الاعشى عن الالوان .

ولكن النتيجة التي آلت اليها كل هذه المشادات هي تكرية قراءة المؤلفات الصوفية وانقاص عدد النفوس الداخلية حتى في الاديرة ، بينما كان الدين يتعرض لهجمات العقلين والمؤرخين .

التاريخ ضد الدين
استخدم العلم الواسع في التاريخ لغايات سياسية ودينية ، فعارض في نموه التاريخ الخطابي على طريقة « تيت - ليف » مع ما ينطوي عليه من خطب وحكم وتحليل ومقارنات . ولم يزل هنالك ، على كل حال ، مؤرخون من هذا الطراز ، كـ « فروتو » مثلاً الذي ارشد الى مستندات حول حصار مالطة بعد الانتهاء من تحرير نصه ، فأجاب بان المستندات جاءت متأخرة وان الحصار قد تم ، أو كـ « دانيال » الذي ذهب للاطلاع على مجلدات مكتبة الملك ، فامضى هناك ساعة واعتبر نفسه مسروراً جداً . وعارض التاريخ كذلك ، في اتساع اجائمه ، بعض الكرنزيانيين المولمين بالحقائق الشاملة دون غيرها . فقد درج « مالبرانش » على القول ان آدم امتلك المعرفة الكاملة دون ان يعرف التاريخ ؛ وقد اكتفى ، في حقل التاريخ ، بما عرفه آدم . واعجب الكثيرون بهذا الموقف لأن « الجيل الطالع كان راغباً في الرخاء والطيش ومنصرفاً عن كل ما لم يبد له سهلاً » .

لكن جمعية بندكتيني « سان - مور » كانت قد نذرت نفسها للعلم التاريخي البندكتيني الواسع لاجل مجد الله . وكانت مصممة على نشر مؤلفات الآباء وعلى وضع تاريخ جمعية القديس بندكتوس . وقد نظم العمل المشترك ، في دير الرئاسة ، « سان - جزمين » ده بريه ، ما بين السنة ١٦٣٠ والسنة ١٦٤٨ ، « لوقا داشري » الذي خلف غريغوريس تاريس . حوالي السنة ١٦٦٤ ، كانت مجتمع في قلبيته ، أيام الاحاد ، ندوة من العلماء الواسعي الاطلاع في التاريخ ، « دي كانج » ، « بالوز » ، « فيون ديروفال » ، رئيس « هارلي » . ثم جاء تلميذه « مايبون » (١٦٣٢ - ١٧٠٧) فأسس علم « الدبلوماسية » الذي يعين درجة صحة وثائق القرون الوسطى ، « الصكوك » ، المعاهدات ، العقود ، السجلات (« الدبلوماسية » ، ١٦٨١) .

واسهم بفخر في أعمال البندكتيين الذين نشروا ، حتى السنة ١٧٩٢ ، ٧١٠ مؤلفات يضم كل منها عدة مجلدات كبرى : « غالبا المسيحية » ، « مؤرخون من فرنسا » ، « مؤرخو الحروب الصليبية » ، « فن استنبات التواريخ » ، طبعت مؤلفات الآباء اللاتين واليونانيين ، مجموعة الوثائق .

ومن جهة ثانية ، استهدف روح السلطة مهجوم عام زعزع الايمان في وحي الكتب المقدسة والامتياز الديني للشعب اليهودي . وكان مصدر هذا الهجوم ، في الدرجة الاولى ، تطبيق العقلية الكرتزيانية على العلم التاريخي الواسع .

أعلن سينوزا في كتابه « البحث اللاهوتي السياسي » ان العقل
اللاهوتي السياسي « سينوزا »
يثبت عجز الدين وضرورة نبذ كافة المعتقدات التقليدية . الدين غير نافع : اذ يستحيل التمييز بين مسيحي ويهودي ، أو تركي أو وثني . لماذا ياترى ؟ لان الدين لم يعد فعلا داخليا ، مدروسا ، مقتنعا به ، بل عبادة خارجية ، وممارسات آلية ، وطاعة سلبية لا واهر الكهنة . ولكن هؤلاء الكهنة طماع استولوا على الكهنوت بدافع الجشع . يجب التخلص منهم ، والاعتماد على النفس ، واستخدام العقل ، شرف الانسان .

الطاعة مفروضة باسم الكتاب ، في حال ان الكتاب ، كما ثبت ذلك ، ليس عمل الله ملقنا أنبياءه : فهو محشو بالتناقضات والاطغاه . كتب الكتاب القديم ليست اكيدة الصحة . فهي متألفة من وثائق مختلفة المصادر ومتفاوتة القيمة . الوثائق الاصلية افسدت بفعل خرق المستنسخين وأسمي سبكا . الكتب التاريخية البحتة (الاسفار الحسة ، يشوع ، القضاة ، الملوك) معدة لتقديم تاريخ شعب اسرائيل من زاوية موافقة لمدرسة معينة من اللاهوتيين . وهي لا تعود ، في شكلها الحالي ، الى ما قبل عزرا . ولا ريب في ان الشعب اليهودي لم يختر للمحافظة على الشريعة الالهية لانه شعب ولى وانقرض . الدين العبراني والمسيحي ظاهرة تاريخية ذات صبغة عابرة ، لها تفسيرها في زمانها وظروفها .

ان « ريشار سيمون » (١٦٣٨ - ١٧١٢) ، أحد كهنة جمعية القديس فيلبس ريشار سيمون النيري ، الذي سبق له ان قال بالكرتزيانية ، قد تأثر تأورا عميقا بـ « البحث اللاهوتي السياسي » وبمحاجات المؤرخين الذين لم يتوصلوا الى التوفيق بين معطيات التوراة العديدة والمعطيات العددية لدى الشعوب الاخرى . فسما بطريقة سينوزا الى ذروة كالهيا . ووفقا للروح الهندسية الكرتزيانية لم ينظر الا الى جزء من الواقع . فتكون لديه مبدءا اساسي مسلم به دون برهان : اقصى اعتبارات الجمال والاخلاق ؛ وجعل من شرح المتن علما قائما بذاته مستقلا عن اللاهوت وعلوم المعقولات . لم يكتف ، في تحديد درجة الصحة ، الا للمعطيات المادية ، المخطوطات ، خبرها ، كتابتها ، احرفها ، فواصلها ، تقاطعها ، حركاتها . فان تفسير

التوراة عملية تحليل لغوي ، واتباع نهج نحوي جيد ونقد تاريخي سليم ، واثقان اللغة العبرانية ولغات الشرق ، والافتصار على المعنى الحرفي ، ووضع الكتب المقدسة في إطارها ، ومعرفة حياة الانبياء ودروسهم ودورهم ، وزمان وظرف تأليفهم كتبهم ، والشخص الذي وضعوها من أجله ، واللغة التي وضعت بها ، ونصيب كل كتاب ، وكيفية جمعه ، والأيدي التي انتهى إليها ، الخ .

استطاع حينذاك الاجابة على السؤال التالي : هل يجوز النظر الى التوراة كما الى كلام الله ، الموحى به مباشرة ، المدون ختطاً ، المنتقل البنا في حالته الاصلية ؟ وقد اجاب بالنفي ، لان الاسفار الخمسة مثلاً ليست من تأليف موسى ، كما هو ثابت . انها تتضمن استشهادات وامثالا وأشعاراً تم عن لغة وانشاء لاحقين لمهد موسى ، « فهل يعقل ان ينسب الى موسى الفصل الاخير من سفر «ثنوية الاشرع» حيث دون وصف موته ودفنه ؟ » كما انها تتضمن اقوالاً مكررة لا يحصى لها عدد . فهي من ثم مؤلف غير متلاحم الأجزاء وضعت أرقام خرقاء في عهود مختلفة ، ونقع برفل تكراراً ، بحيث يستحيل اليوم معرفة واضعه الاول الحقيقي .

هل يجوز اعتبار العقيدة الكاثوليكية والممارسات الكاثوليكية مستخلصة مباشرة من التوراة ومسوّغة بها ؟ كلا . فقد درس العهد الجديد ووجد ان هذا المقطع من القديس يوحنا : « لي ثلاثة شهود في السماء » ، الذي يؤلف احد مرتكرات عقيدة الثالث ، لا أثر له في المخطوطات الصحيحة . ولا يمكن ان يعزى الى مريم نذر بتولية دائمة ، اذا ما استندنا الى لوقا ، ١ ، و ٣٤ . يضاف الى ذلك ان تفسير «ريشار سيمون» للكتاب المقدس كان تفسيراً عقلياً . فهو ، مثلاً ، يضعف النصوص التي تثبت مجانية انعامات الله . وقد ترجم هذا المقطع : « اعززت يعقوب ، ولكنني غضبت على عيسو » بـ « احببت يعقوب اكثر من عيسو » . وفي حادثة امرأة لوط ، ترجم هذا المقطع : « حولت الى تمثال من الملح » بـ « غدت كتمثال من الملح » ، اي جامدة . الا ان بوسويه توصل الى إدانة ريشار سيمون واتلاف طبعة الكتاب . وشن البروتستانتيون « فوسبوس » و « سبانهام » و « باسناج دي بوفال » و « جوريو » و « لوكلير » هجمات عنيفة على سيمون . وكان في رأي بوسويه ان المهم في الامر هو فائدة القارىء الاخلاقية والدينية ، التي ترتبط بسلطة الكنيسة المؤمنة على التقليد . ان التقليد ، اي ما آمنت به الكنيسة منذ البداية ، يتقدم على النص ، كما ان هذا المعنى او ذلك حقيقي لان الرسل والآباء والجامع والملائنة قد اجمعوا الرأي على ذلك بالهام من الروح القدس ، وعلى علم قواعد اللغة ان ينحني امام اللاهوت . ولكن سيمون لم يردع ولم يتراجع . وحين نشر في السنة ١٧٠٢ ترجمة العهد الجديد ، المعروفة بترجمة « تريفو » ، لم يتوقف بوسويه ، هذه المرة ، الى حمل المستشار على إلغاء الكتاب ، لان الايام كانت قد تبدلت .

ان بوسويه ، الذي تأثر بالكرتزيانية ، قد خلخل ، على غير قصد منه ، الدين الذي كان راغباً في الذود عن حياضه . في كتابه « خطبة في التاريخ العام » (١٦٨١) ، اراد ان يثبت ان الله قد رتب كل تاريخ العالم الوثني استعداداً لمجيء يسوع المسيح . ولكنه لم يلجأ الى الله تفسيراً الا مرة واحدة ، مكتفياً في ما عدا ذلك بالعلل الثانوية ، او العلل البشرية ، لتفسير الاحداث الانسانية . هاجم البروتستانت ، الذين جاھروا ، شأن الكاثوليك ، بان « الدوام دليل حقيقة ، والتحول دليل ضلال » ، فنشر في السنة ١٦٨٨ ، « تاريخ تحولات الكنائس البروتستانتية » المستقى من المصادر . ادى هذا التاريخ الى بعض الارتدادات ، كما انه ادى عند البروتستانت ، كجورجيو ، منذ « الراعويتين » السادسة والسابعة ، و « باسناج » ، و « بورنيه » ، الى ردة فعل شاملة : سلم كلهم بضرورة التحول ، دليل الحياة الداخلية وعمل الروح القدس . ولكن من شأن هذه الحركة ، اذا بولغ يوماً في تسلسلها المنطقي ، ان تفضي الى حرية دينية لا حدود لها . فأوحى بوسويه بذلك الى البروتستانت بنزعة خفية ، او استعداد غير ظاهر في البروتستانتية ، هو مبدأ الحرية لا بل مبدأ الاباحية الذي تنطوي عليه . ومن سخرية القدر ان بوسويه « قد عمل بصورة غير مباشرة على استعجال نشوء تلك المسيحية المبسطة ، المقتصرة على رمزية ملاطفة ومرتحية ومبهمة » ، التي أمتت في القرن التاسع عشر « الدين السري للعديد من الزنادقة الاقبياء » .

نشر « بيل » ، البروتستانتي الفرنسي اللاجئ الى هولندا ، عدة « رسائل وآراء في المذنب » ظهرت في السنة ١٦٨٢ والسنة ١٦٨٣ والسنة ١٦٩٤ . ساد الرأي بان المذنبات دلالات طبيعية يرسلها الله للانبياء بقصاص صارم استحقه البشر . ودرج الناس على التأكيد بان حوادث مشؤومة تعقبها ابدأ : اغتيال ملوك ، زلازل ، مجاعات ، حروب ، طواعين . فأثبت « بيل » ان هذا الرأي لا يستند الى اساس متين . ولو فرضنا جدلاً ان المذنبات تراقفها مصائب عدة ، فلا يعني ذلك انها الدليل عليها او المسبب لها . فلا يحق مثلاً للمرأة التي تنظر من نافذتها ، في شارع « سانت - اونوريه » ، فترى كل مرة عربات تمر امامها ، ان تتصور انها سبب مرورها ، كما ان ظهور هذه العربات ليس ، بالنسبة للجيران ، دلالة طبيعية على ان عربات اخرى لن تلبث ان تمر بعدها . وفي الواقع ليست المصائب في سنوات المذنبات اكثر منها في السنوات الاخرى . فيجب من ثم ان نفرق بين مصادفة وجود شيئين معا وبين علاقة العلة بالمعلول .

لذلك كان من واجب الانسان السليم التفكير ان لا يمتد بقدره المذنبات حتى ولو اجمعت الآراء على ذلك وشهدت الشعوب كلها بذلك . ولكن اجماع الآراء يعطي برهاناً على وجود الله ، كما ان التقليد يعتبر محافظة مستمرة على حقائق الايمان : فاجماع الرأي ، كما قيل عن المذنب ، لا يبرهن شيئاً .

زد على ذلك ان القول بان المذنبات دلالات طبيعية خرافة وثنية قديمة حفوظ عليها في المسيحية . فلو كانت المذنبات دلالات طبيعية ، لاتي الله بالمعجزات ليحفظ الوثنيين في عبادة اصنامهم . وفي الواقع ليس المسيحيون الذين يؤمنون بقيمة المذنبات كدلالات طبيعية سوى عبدة اصنام . المعجزة لا تليق بكرامة الله ، لانها تخلف شرائع الله ، وتخالفها لاجل خلائق بشرية حقيرة . الايمان بالمعجزات والعناية الالهية ، انما هو نتيجة الكبرياء . اذن فعبادة الاصنام تتاكل المسيحيين الحاليين . ولذلك فانهم يقعون في كل الرذائل ، بينما هناك ملحدون صالحون يعلمون بوحى قواعد الشرف . يجوز ان نتصور مجتمعا من الملحدن قد يوازي مجتمعا مسيحيا او يتفوق عليه . ان يكن للالحاد ابطاله وشهداؤه ؟ وفي « قاموسه » ، الذي جاء روعة الاحاد الواسع الاطلاع ، استأنف الارتياحي « بيل » هجماته على الكتب المقدسة والمقائد الروحانية ، فتهاقت الشبان على ابواب المكتبات لاجل قراءة هذا الكتاب « الذي لم يتخله سطر واحد انطوى على تجديف صريح » والذي لم يكن من شأنه ، مع ذلك ، ان يقود الى الاحاد . في فرنسا كانت المشاعر مهياة بفعل فضيحة المناولات الالزامية . فبعد ابطال براءة فانت ، ارغم الوكلاء البروتستانت بالقوة على المناولة . فكان ذلك خرقا للقدسيات لان هؤلاء المنكودي الحظ لم يكونوا مهينين لتقبل جسد الرب بما يليق من عواطف الاحترام والهيبة . استنتج البروتستانت من ذلك ان الكهنة دجالون لا يؤمنون بالوجود الحقيقي . لا بل ان بعض الكاثوليك ، ممن عاش بينهم البروتستانت ، قد تزعزعوا حينذاك في ايمانهم . فكان ان بعض البروتستانت ، الذين جحدوا ممتقدم وتناولوا تحت سطوة الخوف ، اعترفوا في قرارة انفسهم بوثنيتهم وناقضات الخطيئة ضد الروح القدس ، وهي الوحيدة التي لا تغتفر ، فبحثوا عن النجاة من قلقهم المقض بتبني آراء الملحدن ونشروا المدوى في اوساط الكاثوليك .

وقد اثارَت اليابان والصين آنذاك شر المصاعب .

شقت الطريق امام الملحدن الانكليز ؛ فان « تولند » (١٦٧٠ - ١٧٢٢) الملحدون
عدو الكهنة الذين يبتكرون بعض المقائد ، كخلود النفس ، لضمان سلطتهم ،
قد قال بعالم ازلي يسير بمركبة تلقائية ، وبماديه تجعل من الفكر حركة من حركات الدماغ ،
وباخلاق مبنية على العقل . أما « كولنز » (١٦٧٦ - ١٧٢٩) فقد احتج في « خطابه حول
حرية الفكر » على غرابيات التوراة وعلى عجائبيها التي ليست سوى خداع وغش . وجاء في
كتابه « محارلة في طبيعة النفس البشرية ومصيرها » : « لما كان الفكر نتيجة عمل المادة في
حواصنا ، جاز لنا الاستنتاج بانه خاصية من خاصيات المادة أو ظاهرة من ظواهر المادة يسببها
عمل « المادة » .

عبثا حسب نيوتون انه اثبت وجود الله . وعبثا قاوم الراعي « ايلي بنوا » عقلية الملاء
الواسعي الاطلاع ، في السنة ١٧١٢ . فبحسب طريقة « بيل » ، كما قال ، وهي طريقة كرتزيانية

تفرض الوضوح المطلق وتذكر الشهادات ، يمكننا تقديم الدليل على ان « بيل » ليس مؤلف « قاموسه » . انه يؤكد ذلك : ولكن ما هو الدليل على صدقه ؟ انه يقسم على ذلك : ولكن هناك ايماناً كاذبة . قد يستشهد باصدقائه : ولكن يجب اثبات صدق الاصدقاء . قد يتعمل بالكتبي والصفاف والمصحح : ولكن هؤلاء شهود يجب استثبات صدقهم اولاً . في واقع الحياة ، يجب الاكتفاء بالبراهين التي توفر يقيناً أدبياً : ان البراهين الصحيحة من الندرة والصعوبة بحيث تصحح غير ذات جدوى في الامور التي تفرض فيها الحياة ضرورة العمل ، وبحيث يجب التخلي عن كافة وظائف الحياة ، اذا ما طولب ، في سبيل الاختيار ، بوجود توفر البراهين التي لا تنال منها الاعتراضات التي قد يتقدم بها فيلسوف حذق . وليس من مرتكز للفنون والعلوم والمجتمعات والشرائع والتجارة سوى مثل هذه البراهين ... ان المادة غير المخلوقة ، التي تتحرك وفقاً لنظام معين ، سر مستعلق على العقل استغراق اعظم اسرار الدين . الانسان حيوان متدين يميل بالسليقة الى المحبة والتفوق والانصهار في اللانهاية . وحين لا يعبد الله ، فانه يعبد العلم ، أو الوطن ، أو الملك ، لأن العبادة وبذل الذات فرض واجب عليه . ولكن السد كان اضعف من ان يقاوم قوة السيل الجارف .

٦ - أزمة الآراء السياسية والاجتماعية

البيروجوازيون: «لوك» كانت ثورة السنة ١٦٨٨ ، ل «جون لوك» (١٦٣٢ - ١٧٠٤) ، مناسبة لمراجعة ونشر الفلسفة العملية ، لابل النفعية ، التي وافقت انطلاقة العلوم وكانت معدة لتبرير ثورة الاعيان الظافرين وايضاح نزعاتهم العميقة . ولد «لوك» على مقربة من «بريستول» ، والمحدث من عائلة تجار ورجال قانون ، وتلقى الدراسة في اوكسفورد ثم غدا فيلسوفاً ولاهوتياً وطبيباً ، وارتبط منذ السنة ١٦٦٦ ، كطبيب ، باللورد «اشلي» الذي اصبح الكونت «دي شافتسبري» ، في عهد لاحق . حين عين هذا الأخير وزيراً ، اصبح لوك امين سر «دائرة التجارة» (١٦٧٢ - ١٦٧٥) . بعد زوال حظوة الكونت ، سافر لوك الى فرنسا (١٦٧٥ - ١٦٧٩) . عندما اخفق شافتسبري في محاولته الثورة وفر الى هولندا ، لحق به لوك اليها في السنة ١٦٨٤ . حرره بيكون وديكارت وغسندي ، في هذه الاثناء ، من الارسططاليسية التي تدرس في اوكسفورد . في هولندا ، وضع لوك آراءه بمخالطته البروتستانت الفرنسيين اللاجئين . عاد الى انكلترا في السنة ١٦٨٨ . منذ السنة ١٦٧١ ، امتلك آراءه الرئيسية ، ولكنه لم ينشر أهم مؤلفاته الا بعد الثورة الانكليزية ولاجلها : «رسالة اولى في التساهل» ، وقد كتبت في السنة ١٦٨٥ - ١٦٨٦ ونشرت في السنة ١٦٨٩ ؛ «محاولة في الحكومة المدنية» و «محاولة في العقل البشري» (١٦٩٠) .

في رأي لوك ان البشر ، في حالة الطبيعة ، احرار ومتساوون فيما بينهم . يهتدون بهدي

العقل الذي يرشدهم الى حقوق الانسان الطبيعية ؛ الحياة ، الحرية ، الملكية اي حق كل فرد في التصرف بشار عمله بنسبة حاجاته ، العائلة ، السلطة الابوية . كل هذه الحقوق مقدسة . الله وهبها للانسان . وهي سابقة في الزمان لكل مجتمع .

الا ان البشر ، بعد تعرضهم للكوارث الطبيعية وهجمات اعدائهم ، اضطروا لأن يؤلفوا مجتمعاً حتى يستطيعوا التمتع بحقوقهم الطبيعية . هدف المجتمع هو المحافظة على حقوق الانسان الطبيعية . البشر يؤلفون المجتمع بموجب عقد اجتماعي . كل منهم يتخلى للمجتمع عن حقه في تنفيذ القانون الطبيعي . « لا يمكن ان تتخطى سلطة المجتمع حدود الخير العام » . المقررات تتخذ بالاكثرية . القوانين متساوية للجميع . لا يستطيع اي قانون ان يحرم انساناً من ممتلكاته ؛ اذن الضرائب مقبولة . كل انسان يبلغ سن الرشد حر في ان ينخرط أو لا ينخرط في المجتمع ، وفي ان يعقد أو لا يعقد اتفاقاً مع الآخرين ، ولكنه ، اذا ما انتمى الى المجتمع ، لا يستطيع ان يتركه بعد فترة طويلة أو قصيرة من الزمن .

يمكن ان تمارس سلطة الجموع مباشرة ، وهذه هي الديمقراطية . ولكن باستطاعة الجموع كذلك ان يفوض سلطته الى جماعة أو الى فرد ، ويؤسس أما اوليغارشية وأما ملكية . الجموع يعقد اتفاقاً مع مفوضه ، هيئة كان أم فرداً . المفوض مقيد ببند العقد . لا يستطيع التصرف بممتلكات رعاياه تصرفاً تعسفياً . يطبق القوانين التي تسنها جمعية غير دائمة ، لأنه من الافضل الفصل بين سن القوانين وتنفيذها . يمكنه المجتمع استعادة السلطة من مفوضه اذا خالف العقد . الرعايا لا يقاسمون المفوض كمفوض ، بل كمنفذ لارادة المجتمع . اذا لم ينفذ هذه الارادة ، فالرعايا في حل من يمينهم . بمقدورهم ان يثوروا ويستخدموا الاسلحة . جرائم جاك الثاني تبرر الثورة . ليس غليوم الثالث مقتصباً لأن سلطته الملكية تسند الى رضى الشعب . فاطمان بذلك الضمير الانكليزي .

يجب فصل الكنيسة عن الدولة . الدولة مجتمع معد لأن يضمن للمواطنين التمتع بحقوقهم الطبيعية . الكنيسة مجتمع معد لأن يتيح لهم كسب خلاصهم الابدي ؛ « مجتمع » طوعي مؤلف من افراد يجتمعون بملء اختيارهم بغية عبادة الله علناً ، بالشكل الذي يرون فيه ارضاء له وخلاصاً لنفوسهم . فليس الدين ، بالتالي ، من اختصاص القاضي . الكنائس اشبه بتعاونيات الصناعيين اليدويين أو الجمعيات العلمية . تقرر انظمتها وتفرض عقوبات روحية . ليس باستطاعتها التعرض لشخص المؤمنين أو لممتلكاتهم . حرية الضمير وحرية العبادة كليتان . لا حدود لهاتين الحريتين سوى التمديات على الحقوق الطبيعية والآراء المتعارضة ووجود المجتمع الانساني أو القواعد الاخلاقية الضرورية للمحافظة على المجتمع المدني . فلا يجوز من ثم الاغضاء على الكاثوليك لانهم يربطون السلطة الزمنية بنعمة الهية هم مؤمنون عليها ولأن كهننتهم تحدهم رغبة جسمة في السيطرة . ولا يمكن الاطراف على الملحدن لأن العهد المقطوعة لا تخضع ، بالنسبة لهم ، لاية

عقوبة ، ولأن الحقوق الطبيعية لم تمد في نظرهم ثابتة وممتعة الابطال . « ان إلغاء الله ، ولو بالفكر فقط ، معناه ملاءمة لكل شيء » .

في سبيل ضمان التساهل والسلام الاجتماعي ، يطرح لوك جانباً كل المثل التي لا يمكن تبريرها بالاختبار أو التوصل إليها بالتركيب ، أي مثل اللانهاية الحالية ، المادة ، الجوهر الحقيقي ، حرية الإرادة ، الخ . لا نبغض الا عن معرفة ما يمكن ان يفيد في الحياة . قوانا ضعيفة وفضة : لا نسعين وراء معرفة كاملة ومطلقة تعجز عنها الكائنات المتناهية . ولنهلن الافتراضات الميتافيزيقية حول طبيعة النفس وجوهرها وعمل النفس في الجسد وعمل الجسد في النفس . لا نهتمن الا لما هو مفيد . ولندرسن عقل الانسان فقط وكيفية تكون الافكار وتركيبها، فهذه هي المعرفة الحقيقية التي يمكن تطبيقها عملياً .

النظرية الكرتزانية في الافكار المطبوعة تطلق من معرفة مباشرة وباطنية مزعومة . فهي تفسح من ثم مجالاً لكل الافكار الفردية السابقة التكوين . وان كل الآراء التي يجب ان توفر الطمأنينة للعقول ، كبراهين وجود الله مثلاً ، تملق من ثم بالافكار السابقة التكوين لدى كل فرد ، في حال ان تأمين توافق اعضاء الجسم الاجتماعي يوجب ايصالها الى « مفهوم صحيح للاشياء ... وايصال العقل الى طبيعتها المتصلبة وعلائقها الثابتة ، لا السعي وراء ايصال الاشياء الى آرائنا السابقة التكوين » . ليس لدينا ، لحسن الطالع ، مفاهيم مطبوعة ، كمفهوم الله ، واللانهاية ، والازل . فالطفل لا علم له بها ، ونادرين هم الاشخاص الذين يعرفون المبادئ النظرية كمبدأ المماثلة والتناقض ، والتعاليم العملية كـ « عامل الغير كما تريد ان يعاملك » . والعقل من ثم لوحة ملساء تنتظر ان تطبم الحروف عليها ، او غرفة مظلمة تنتظر وصول اشعة الشمس اليها . هو الحس ما يوقظ العقل ويولد الافكار ، الافكار البسيطة الخارجية ، كالحار ، والجامد والصقيل ، والصلب ، والمر ، والافكار البسيطة الداخلية ، الانتباه ، الذاكرة ، الإرادة ، الديمومة . يلجأ العقل الى المقاربة والتركيب ، ويمجمل من هذه الافكار موضوع استدلالته الخاصة ، فتصبح على مزيد من التعقيد والتجريد . اليقين هو ادراك الموافقة بين فكرين بواسطة افكار وسيطة .

بعض الافكار البسيطة ، كالاتساع والشكل والصلابة والحركة والوجود والديمومة والعدد ، صفات اولية ، تمثل الاشياء على علاقتها ؛ والبعض الآخر ، كاللون ، والاصوات ، والطعوم ، صفات ثانوية ، يحدثها فينا ما تطبمه في حواسنا حركات الاجسام المختلفة الصغيرة . ولكن الصفات الاولية نفسها ليست العناصر الحقيقية للاشياء لأنه يتعذر علينا تصور هذه الافكار البسيطة موجودة بذاتها دون مادة تتعد بها لا نعرفها . ونحن ، في الواقع ، نطلق اسماء واحداً على مجموعة من الافكار البسيطة . فان افكاراً بسيطة يرينا اياها الاختبار مجتمعة ابدأ ، كالاخضر ، وقابل الذوبان ، والمطيل ، والكثيف جداً ، الخ ، نطلق عليها

اسما هو الذهب في ما يعيننا هنا . هذه الافكار مترابطة فعلا وتكون كلاً واحداً ، وليس من ريب في تركيب الذهب الخاص ، في جوهر الذهب . الا اننا لا ندرك الجوهر وليس لدينا عنه اية فكرة ؛ لا نستطيع ان نضيف اليه شيئاً فوق ما يوفره لنا الحس والتفكير . فالبحث الممكن الوحيد هو من ثم البحث الاختباري عن الصفات المجتمعة معاً . وهكذا وضع لوك الاسس الركينة للعلم الاختباري واقصى اعتراض مبدأ الجاذبية النيوتونية ، وازال حظوة النظريات الميتافيزيقية ، المضرة بالنظم الاحتجاجية ، التي تركز اليها الكاثوليكية مثلاً .

اوضحت دراسته قيمة العقل وحدوده في آن واحد . الانسان لا يستطيع ان يبلغ ن الحقائق الا ما يتيسر له عقله . فواجبه يفرض عليه من ثم ان لا يقول بحقيقة قضية ، لا يقبل بها عقله ، اي انه يفرض عليه رفض الحال . وعليه بالتالي ان ينبذ النظرية الكاثوليكية المستحيلة حول الحق الالهي . ولكن العقل ، الذي لا يستطيع بلوغ العناصر الحقيقية للاشياء ، اي الجواهر ، لا يلبث ان يلتمس عجزه . لذلك يكتفي الانسان بالحقيقة المرجحة ، ثم يتذكر صعوبة بلوغ الحقيقة ، فلا يرفض ما لا يمكن ادراكه ، ويصبح غاية في التواضع والمحبة . ويتذكر كذلك ان لكل هيئة اجتماعية الحق في اقامة الحكومة التي تبدو لها مفضلة على سواها ، وان ما من شكل حكومة افضل اطلاقاً من سواه ، وان الظروف والمصالح العابرة وتبدل الاشياء الدائم يجب ان تؤخذ بعين الاعتبار .

ولكن الافكار البسيطة الداخلية أتاحت له اثبات وجود الله ، قاعدة مذهبه السياسي والاجتماعي . تعطي هذه الافكار البسيطة عن الذات فكرة مركبة لكائن غير لازم الحدوث . ان وجود مثل هذا الكائن تفرض وجود كائن ازلي ، كلي القدرة ، كلي الادراك ، خلق في خاصية المعرفة ، وخلق المادة ايضاً لأنه خلقت روحه التي يصعب خلقها اكثر من المادة . يتضح من ثم ان نظرية لوك كانت عقلية ، اختبارية ، بورجوازية . لم يكن لوك ديموقراطياً . في رأيه ان البشر الاحرار هم النبلاء والاكليروس وكبار الملاكين الريفيين والبورجوازية العقارية او التجارية . فهؤلاء هم الذين يضمون فيما بينهم المقصد الاجتماعي . وتتفق الملاحظات المدونة في مفكرته في السنة ١٦٧٩ وتقريره المرفوع للجنة التجارة في السنة ١٦٩٩ . فالمشردون الاصحاء الذين تتراوح اعمارهم بين ١٤ و ٥٠ سنة ، والذين يقبض عليهم بسبب تسولهم ، يجب ان يحكم عليهم بخدمة ثلاث سنوات في الاسطول اذا كانوا من الكونتيات البحرية ، او بالمعمل ثلاث سنوات في بيت العمل ، اذا كانوا من الكونتيات الاخرى . اما المتسولون الذين لم يبلغوا سن الرابعة عشرة فيجب ان يولدوا ويرسلوا الى مدارس العمل الخاصة . مذهب لوك هو مذهب بورجوازي كبير مستنير . لذلك غدا هذا المذهب الجيل المجلس التمثيلي الانكليزي والبروتستانت الهولنديين ، كما غدا في وقت لاحق الجيل فولتير وكبار البورجوازيين الفرنسيين .

مبتدع الانظمة الحيايية
الارستوقراطيون الرجعيون
فينيلون

ان عدداً كبيراً من النبلاء المتضررين ، الذين اذلتهم سياسة
لويس الرابع عشر البورجوازية وانتفاخ رجال المال ورجال
الدولة المنحدرين من اصل بورجوازي ، اقاموا مثلاً اعلى لهم كل
نقيض لما يفعله الملك العظيم وانتصبوا خصوماً للملكية المطلقة

التي حاول بوسويه الدفاع عنها في « السياسة المستمدة من الكتاب المقدس » (١٧٠٩) .
بعد وفاة الملك ، زجر الدوق « دي سان سيمون » قائلاً : « كان ملكه ملك بورجوازية
صغيرة » . منذ السنة ١٦٨٩ ، اجتمع حول دوق بورغونيا ، الابن البكر لولي العهد ، اشراف
ريفيون توافقون الى ردة فعل ارستوقراطية ، هم الدوق « دي بوفيليه » مربيه ، والدوق
« دي شفروز » ، والدوق « دي سان سيمون » ، والاب ، « دي فينيلون » ، مهذب دوق
بورغونيا ومرشد الدوق « دي شفروز » . وحين نفي فينيلون رئيساً لأساقفة كمبريه ، لم
ينقطع عن مراسلة اصدقائه وعن الايحاء الى دوق بورغونيا ببعض الآراء . اصبح هذا الاخير
في السنة ١٧١١ ، الوارث المين قبل وفاة والده ، ولكنه توفي هو نفسه في السنة التالية ، كما
توفي فينيلون ايضاً قبل الملك العظيم .

عبر فينيلون عن آراء هذا الفريق في عدة مؤلفات نخص بالذكر منها « منامرات « تلبالك »
(١٦٩٩) ، و « مخططات حكم وضمت بالاتفاق مع الدوق « دي شفروز » بنية عرضها على
دوق بورغونيا ، و « جداول شون » (تشرين الثاني ١٧١١) . انها احلام اشراف ريفيين
ساخطين يستمدون مثلاً اعلى من طراز مجتمع كان تحقيقه ممكناً قبل ٣٠٠ سنة . فان « جداول
شون » تعد لمجتمع فرنسي ارستوقراطي متصل السلطات مستقر حيث ستكون السيطرة
لطبقة مغلقة من النبلاء في مجلس الطبقات وفي الوظائف القضائية والادارية ، وحيث يجد من
سلطة الملك مجلس طبقات يضم بعض كبار البورجوازيين واكثوية من النبلاء . سيجتمع هذا
المجلس مرة كل ثلاث سنوات ولا ترفع جلساته الا بعد انتهاء المناقشات . سيصوت على
الضريبة ويراقب جبايتها ويكون باستطاعته مراقبة كافة شؤون الدولة ويشرف على السياسة
الملكية . سيكون نظام الدولة المحادياً . سيكون لكل ولاية مجلس خاص يتوزع اعضاؤه على
غرار توزيع اعضاء مجلس الطبقات ويتمتعون بسلطات مماثلة .

لن يحكم الملك وحده ، مع كل من اثناء سر الدولة ، بل بحسب مبدأ المملكة القديم ، اي في
مجلس هام يعاونه مجلس شورى يشارك في كافة اعماله ، وستة مجالس اخرى لكافة شؤون
المملكة . هذه هي نظرية تعدد المجالس . سيلفني بيع الوظائف . وسيستغنى عن خدمات
الوكلاء ومقدمي المراض ، ادوات الحكم المطلق الاولى . سيماد الى الضباط القداماء شأنهم
وظائفهم التي حد منها وجود الوكلاء . سيارس القاضي الادارة بأحكامه وبقرارته التنظيمية ،
وبفضل هذا التداخل بين الوظائف القضائية والادارية ، سيدعم القانون على ارادة الامير .

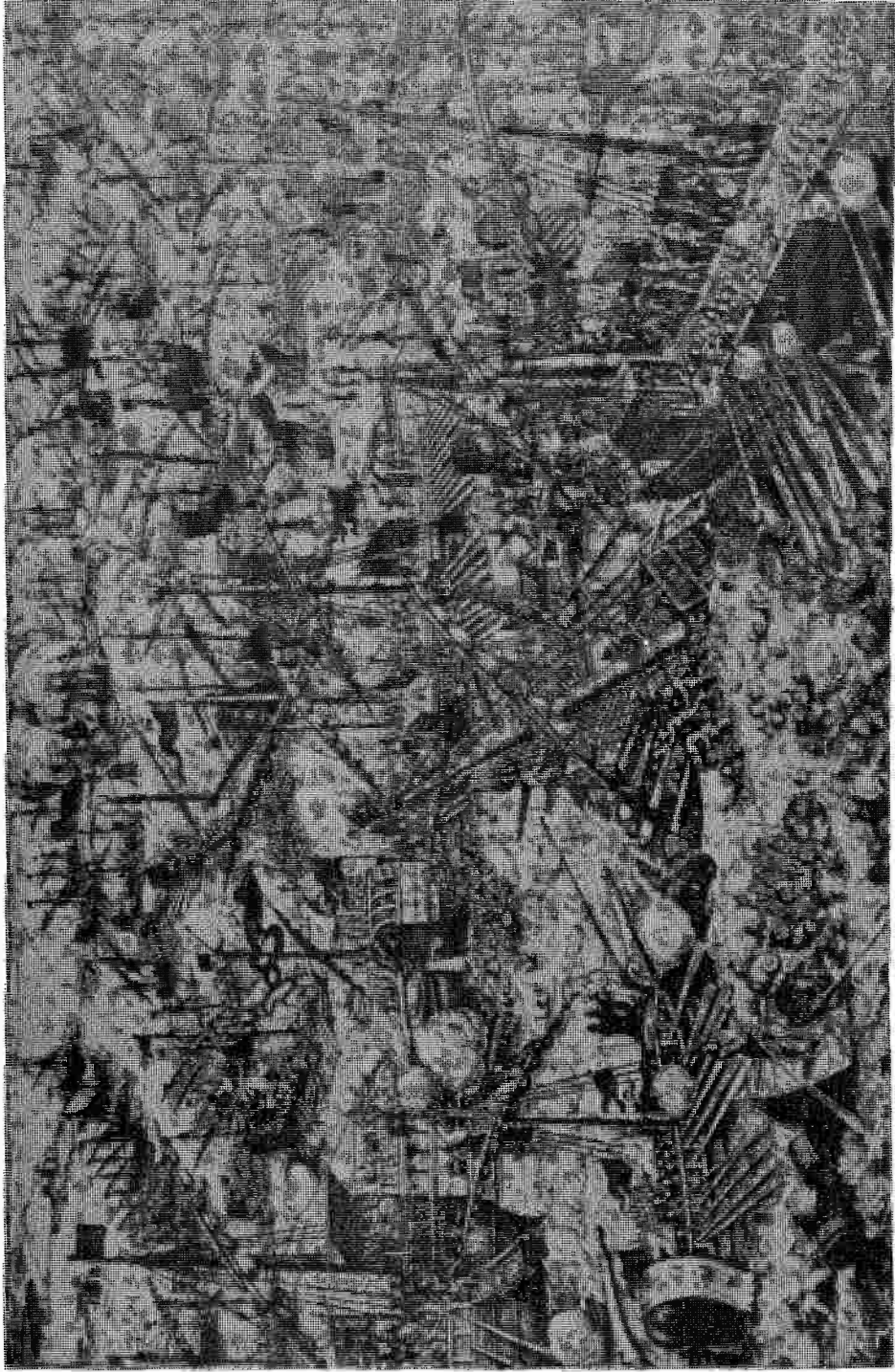
ستعاد الى النبلاء اولويتهم . سينظم في كل ولاية سجل بالاشراف وفي باريس سجل عام .

كل ولد نبيل سيدون اسمه في السجل . سيمنع الزواج من غير النظير . سيعظر الارتقاء الى طبقة الاشراف الاعلى اولئك الذين يؤدون للدولة خدمات جلى . سيعظر كذلك على مشاري اراضي النبلاء انتحال اسمائها . ستكون طبقة النبلاء قوية بثروتها . وسيتمتع في كل بيت ، على غرار اسبانيا ، نظام العقار المتعلق بلقب الشرف ، الذي يرثه مع اللقب بكر الابناء ، تجنباً لتجزئة الثروات بقسمة الارث . نسحق للنبلاء تماطي تجارة الجملة دون ان يحط ذلك من مقامهم . ستكون الوظائف المدنية والمسكزية في حاشية الملك وقفاً عليهم . سيلغى بيع الوظائف المسكزية وتكون الافضلية للنبلاء في تولى المناصب . لن يحق للنبلاء دخول القضاء فمحصب ، بل سيفضلون على ادناء النسب المساوين لهم اهلية في مناصب الرئيس والمستشار في مجالس القضاء العليا ومناصب النائب العام والنائب الجنائي في المحاكم . ستارس هذه الوظائف مدى الحياة ، وسيخلف الابناء الاكفاء آباءهم . فستكون من ثم ، في وقت قريب نسبياً ، هيئة من « القضاة المسكزين » ، اي قضاة وادارة من النبلاء . وبما ان ضباط الفرق سيختارون ، جهد المستطاع ، من بين اقارب واصدقاء كبار الضباط ، وبما ان الاسياد سيكونون قادرين على تسليح فلاحهم ، وبما ان مستشاري الدولة ، « الموفدين السيدين » الى الولايات لاصلاح التجاوزات ، سيختارون من بين القضاة ، فسيغضي كل ذلك الى حكومة وادارة ارستوقراطية غير مركزيين عملياً .

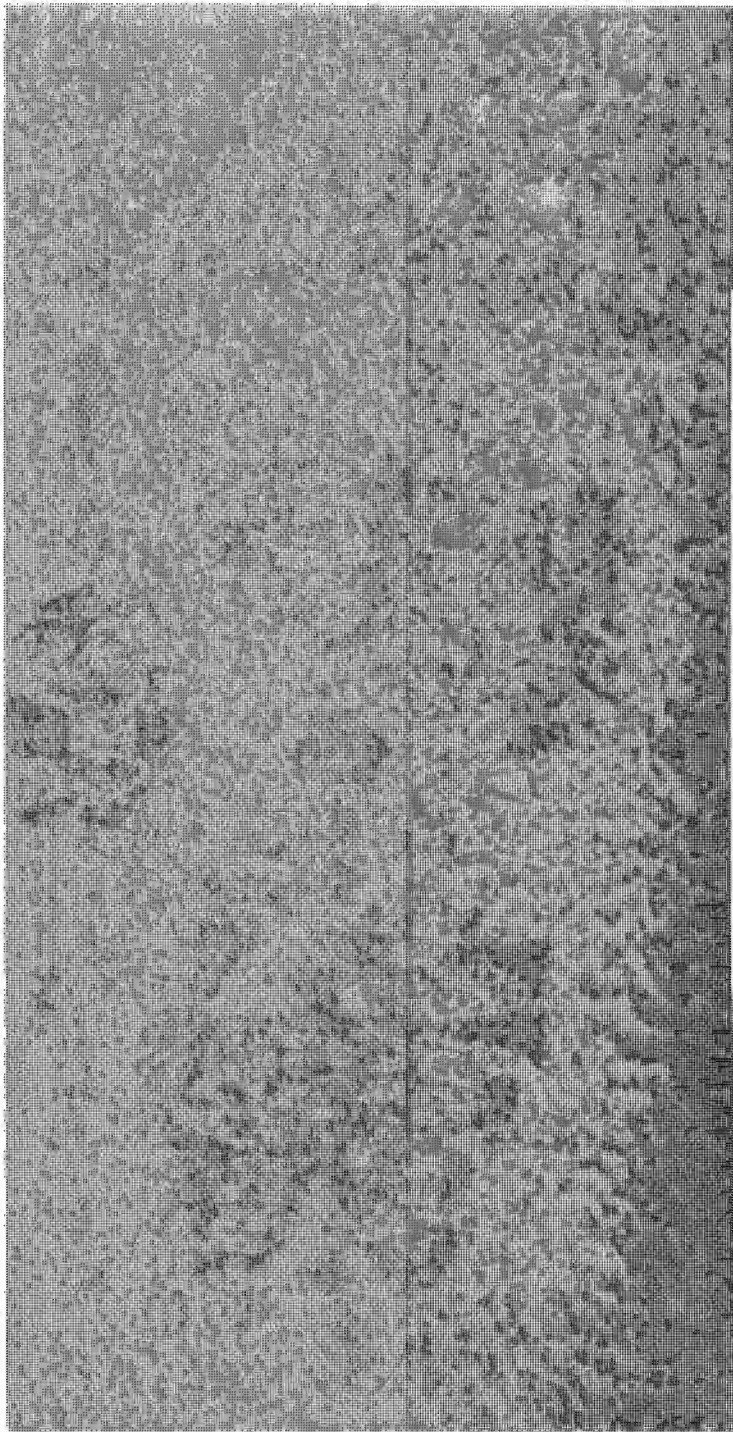
على هذا المجتمع ، حيث لا يثير الطموح نظام ينزع الى نظام الطبقات المغلقة ، ان يمشي في الفقر . سيؤمن الملك حاجاته بدخل املاكه ، على غرار ملوك القرون الوسطى . سيمطي مثل البساطة ويفرض على الجميع التقيده به . ستن قوانين تقيد النفقات المفرطة : « البذخ يفقر النبلاء ويفسد الامة ويثري التجار » . سينظم مجلس الشورى كل التجارة . وسيمن رقباء لمعرفة وسائل ائراء كل فرد . سيوضع بيان بلروات العائلات . ستلغى اعمال رجال المسال . سيحول مجلس الطبقات دون كل مضاربة وكل التجار بالاموال وكل مراعاة . وسيحرص على ان لا تبور قطعة ارض واحدة . ستكون تجارة المحاصيل الزراعية طليقة من كل قيسد . ستثري فرنسا ببيها الحنطة والزيت والحمور والانسجة الخ ، باسعار مرتفعة ، لأن ما ستبتاعه من الانكليز والهولنديين ينحصر في « الافاويه والتحف » التي لا تداني البثة قيمة مبيعات فرنسا .

ان ما طلعت به « جداول شون » هو من ثم مخطط اشتراكية دولة ، زراعية ، لفرضها ارستوقراطية مسيحية برئاسة الملك .

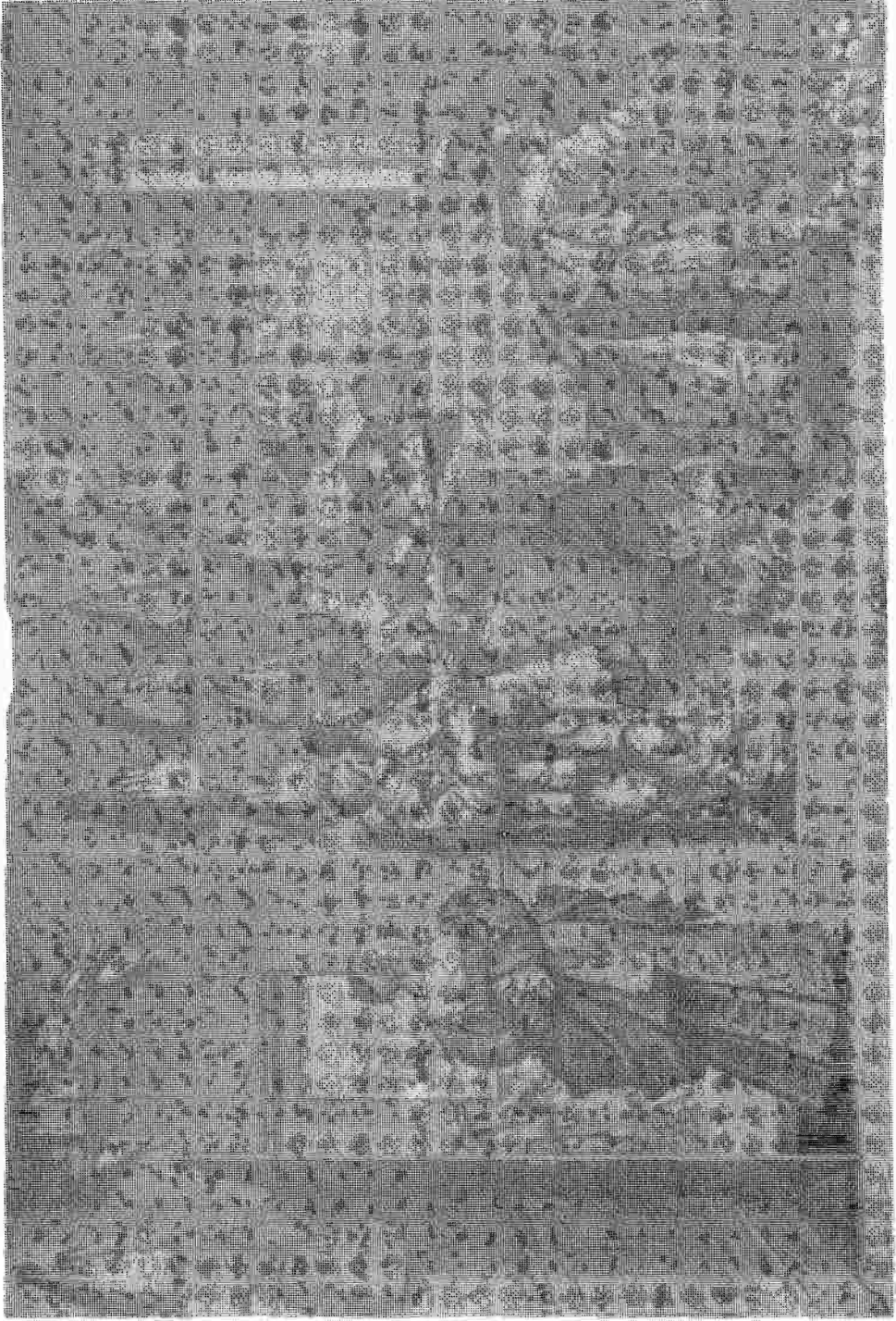
وكان مقدراً لذهنية المقربين الى دوق بورغونيا ان لوحى بفكرة « تعدد المجالس » في عهد الرصاية ، وينظريات « بولنيليه » و « منتسكيو » ، وبمراضة محاكم فرنسا العليا للملك ، وان تلهم كل رجعيي القرن الثامن عشر .

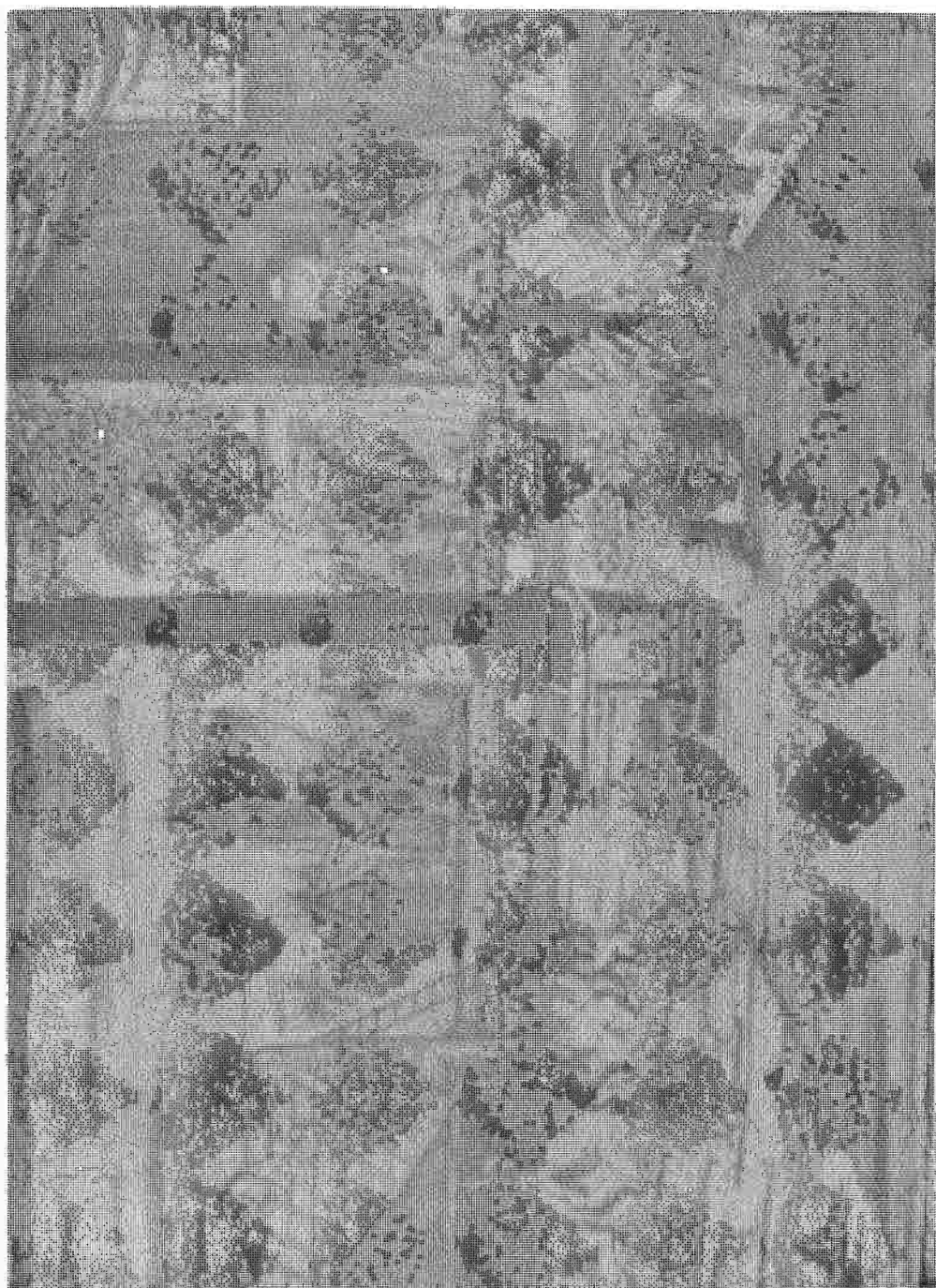


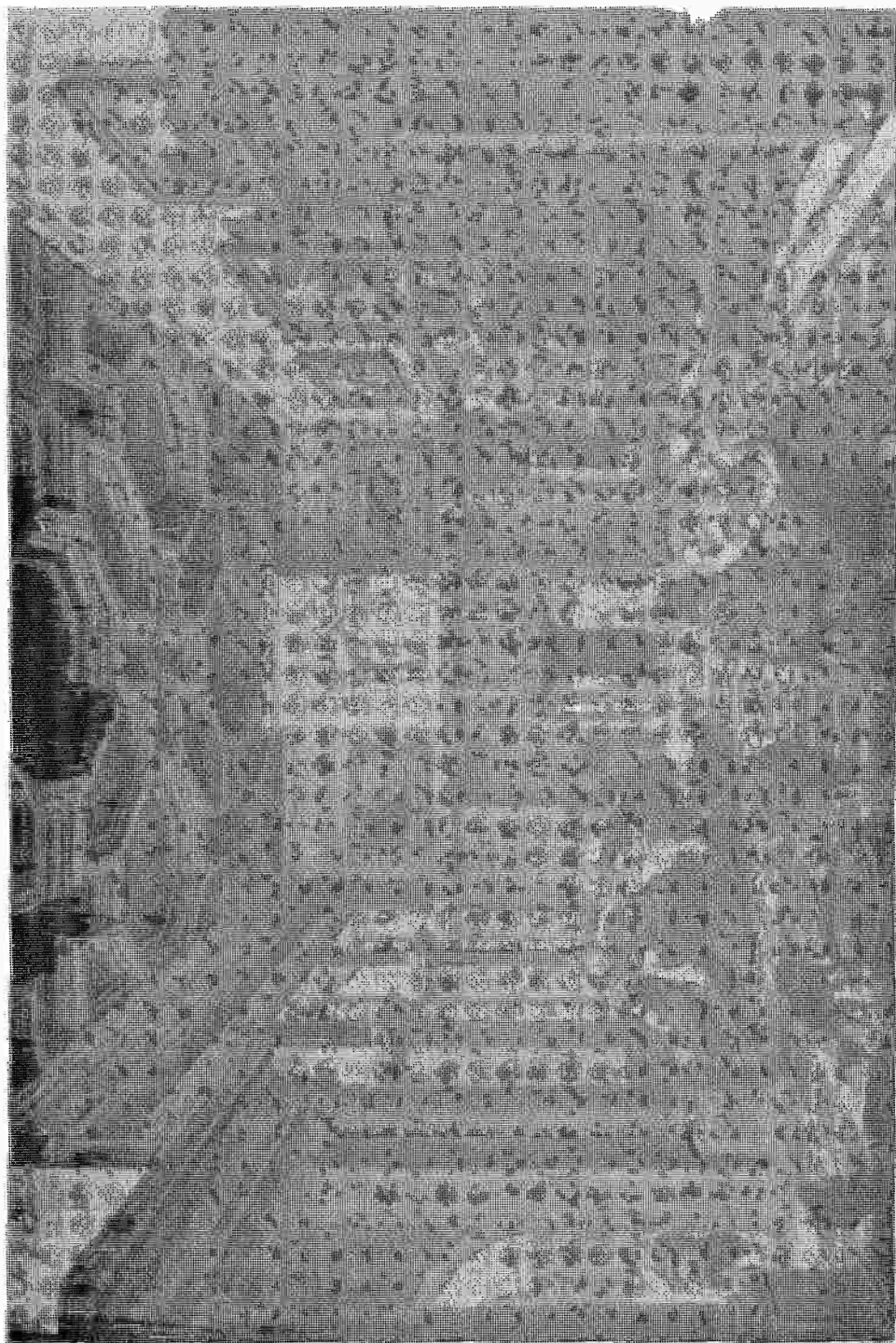
١٧- معركة ليبانت (٧ تشرين الأول ١٥١٧)



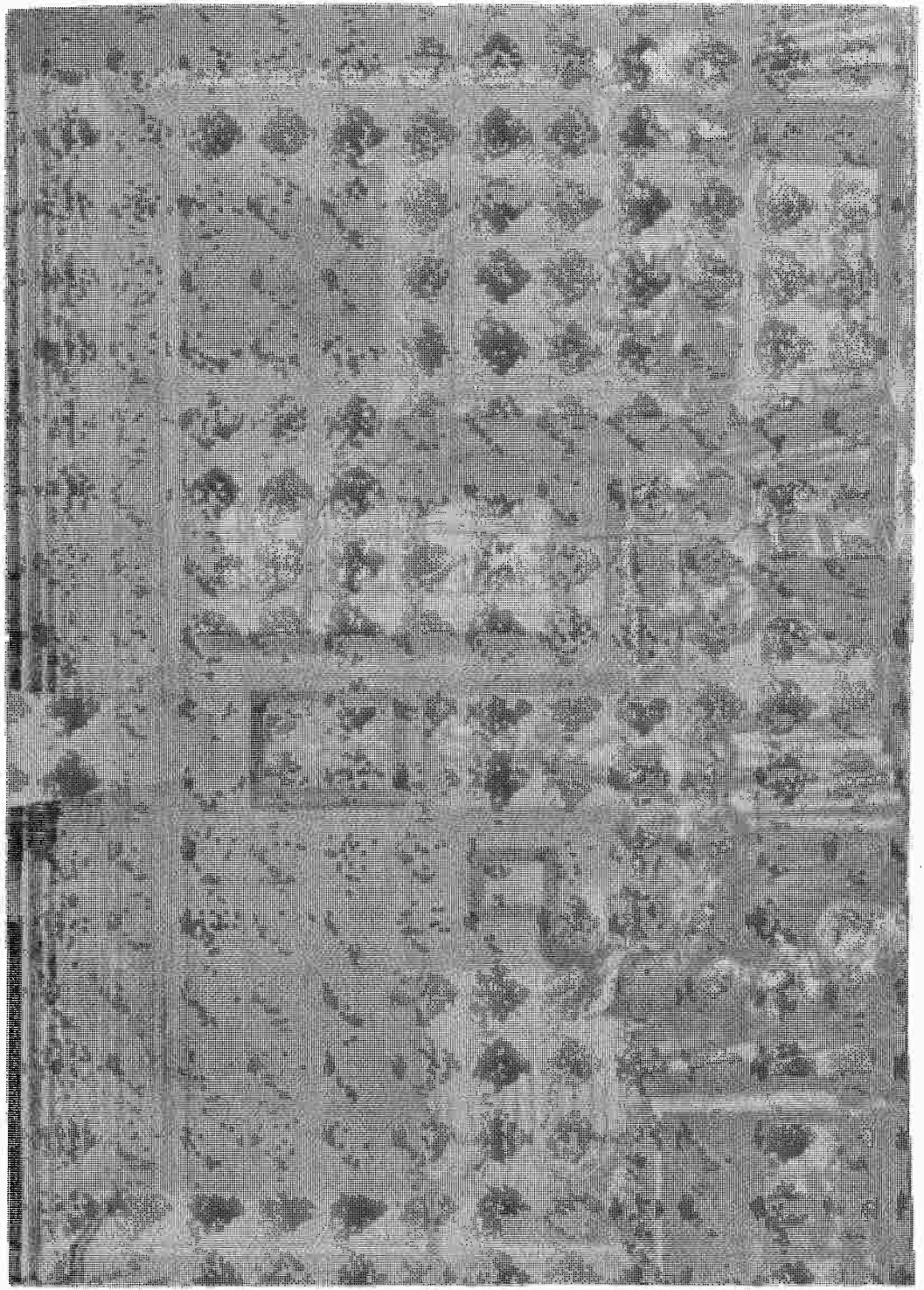
١٨- مجموع الأسطوك الانكليزي على الأرسادا في شهر تموز من السنة ١٥٨٨

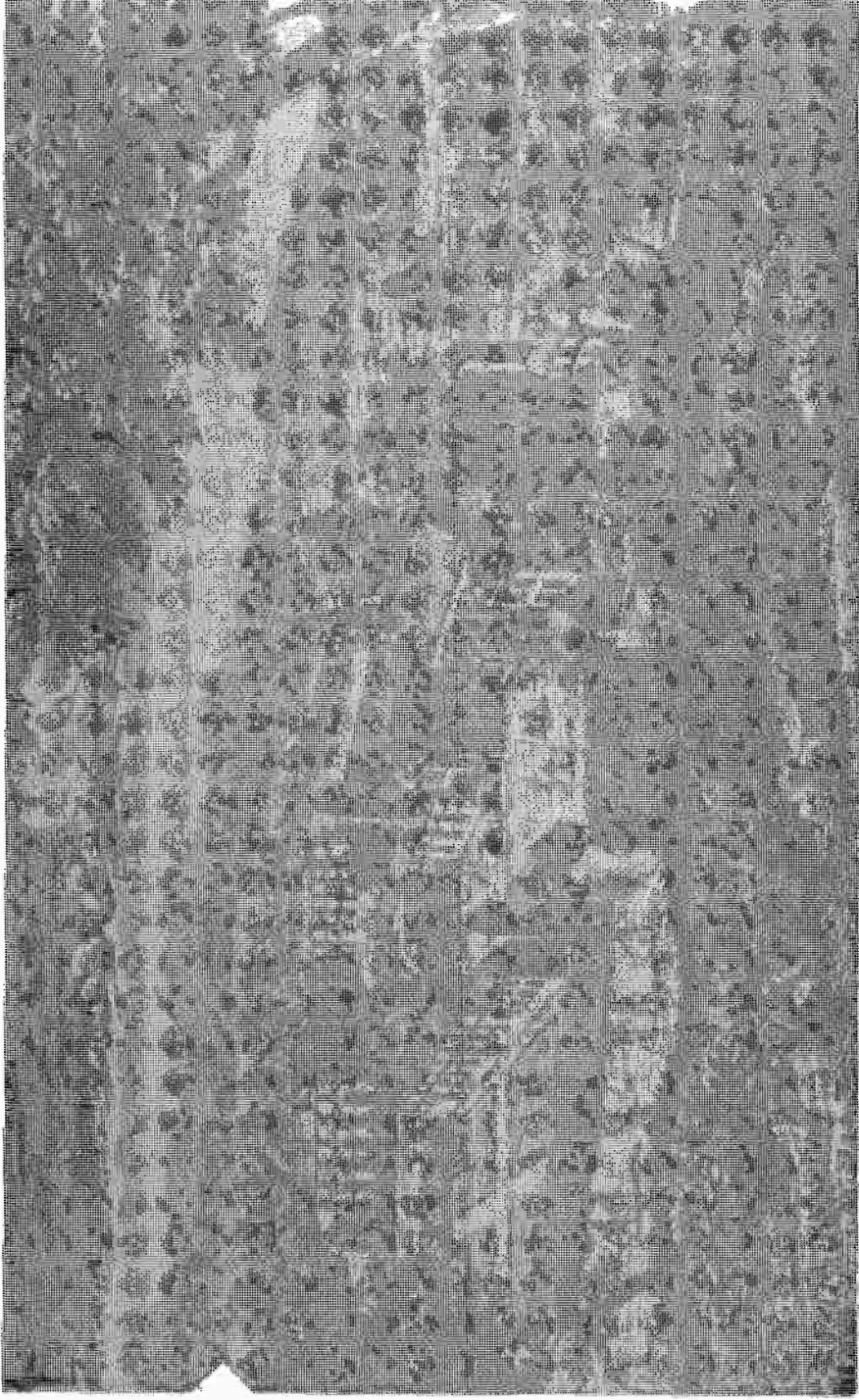


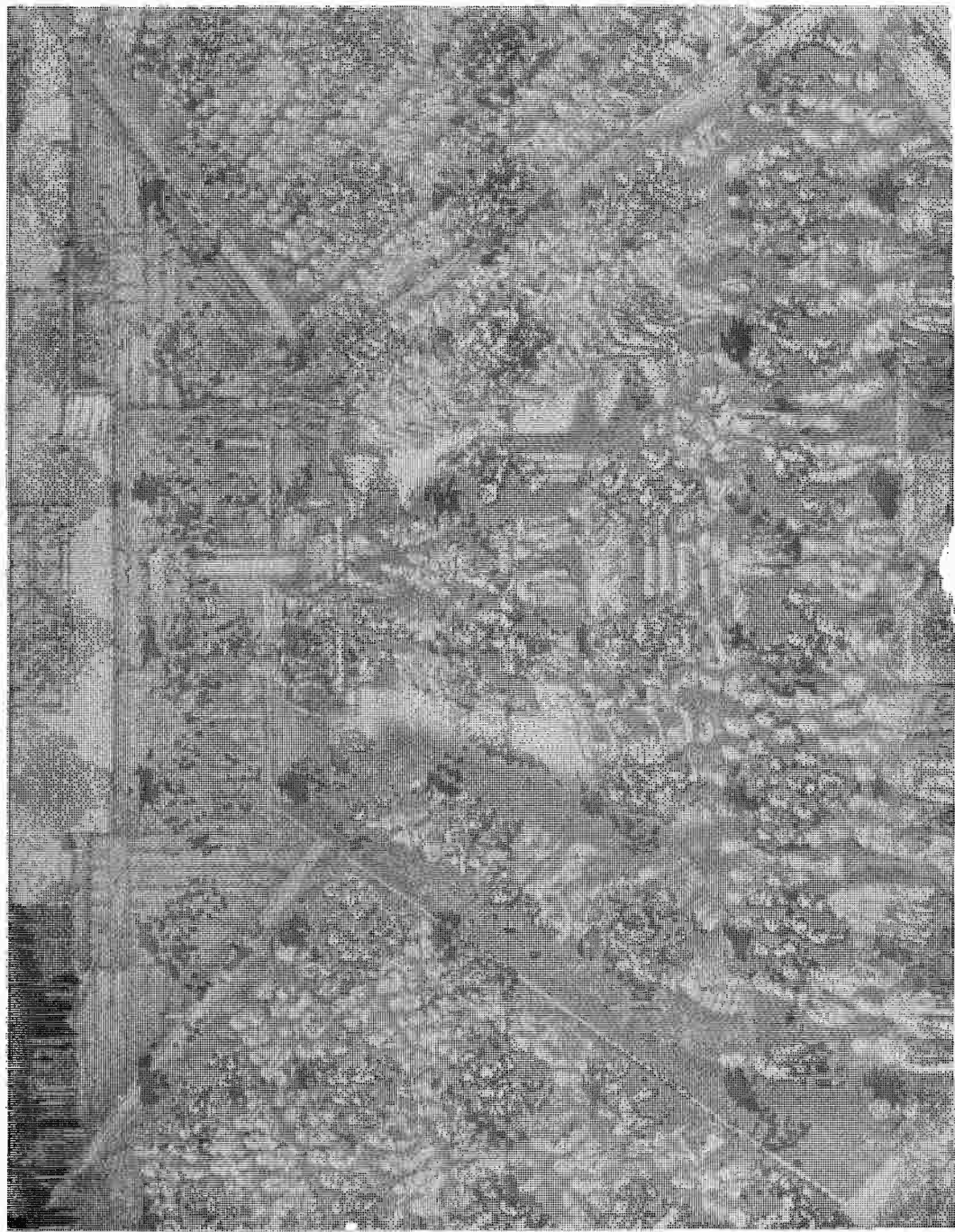


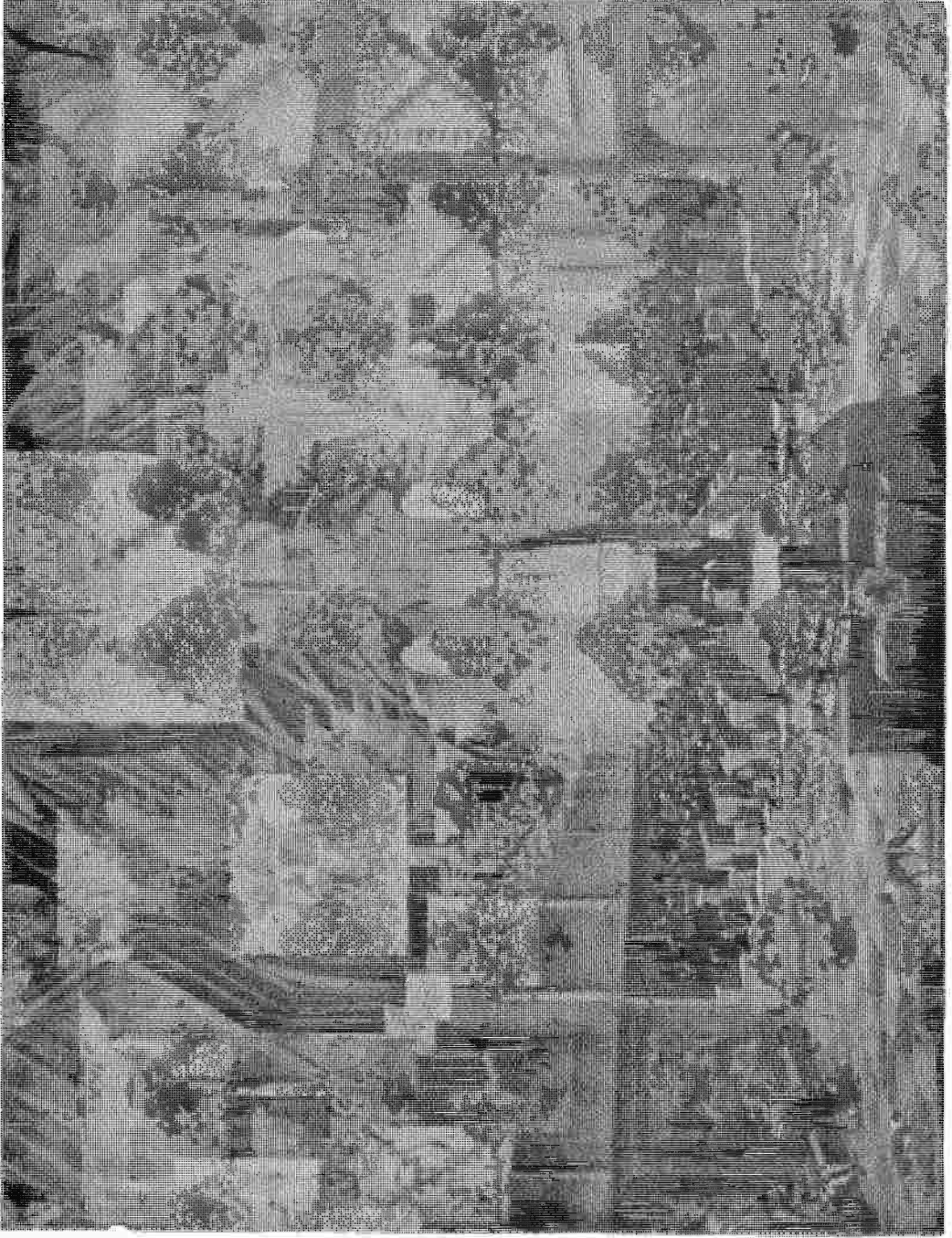


۲۱. داخل منزل بیورجوزای هوسندی، فی اواسل القوت السابع عشر



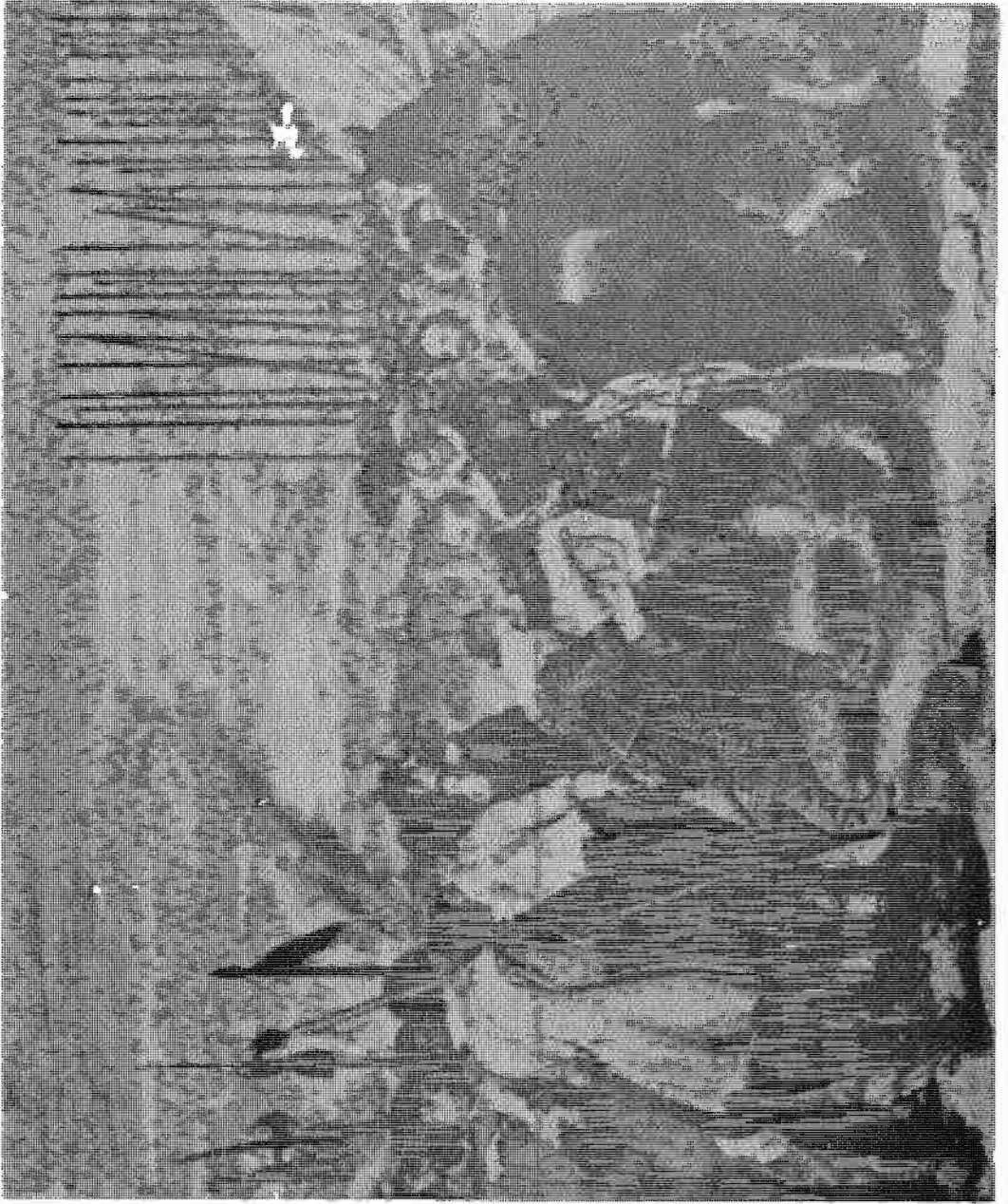


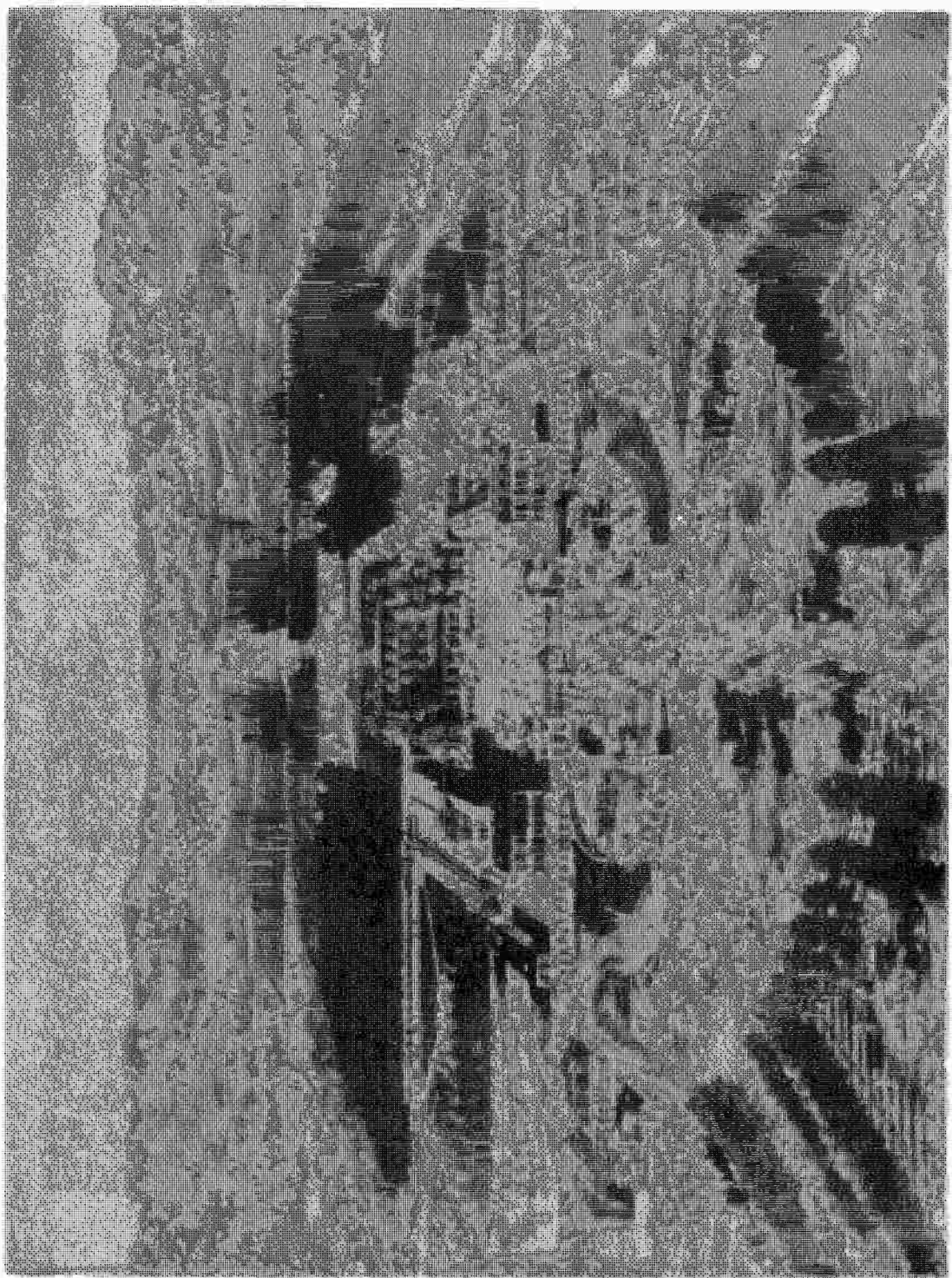


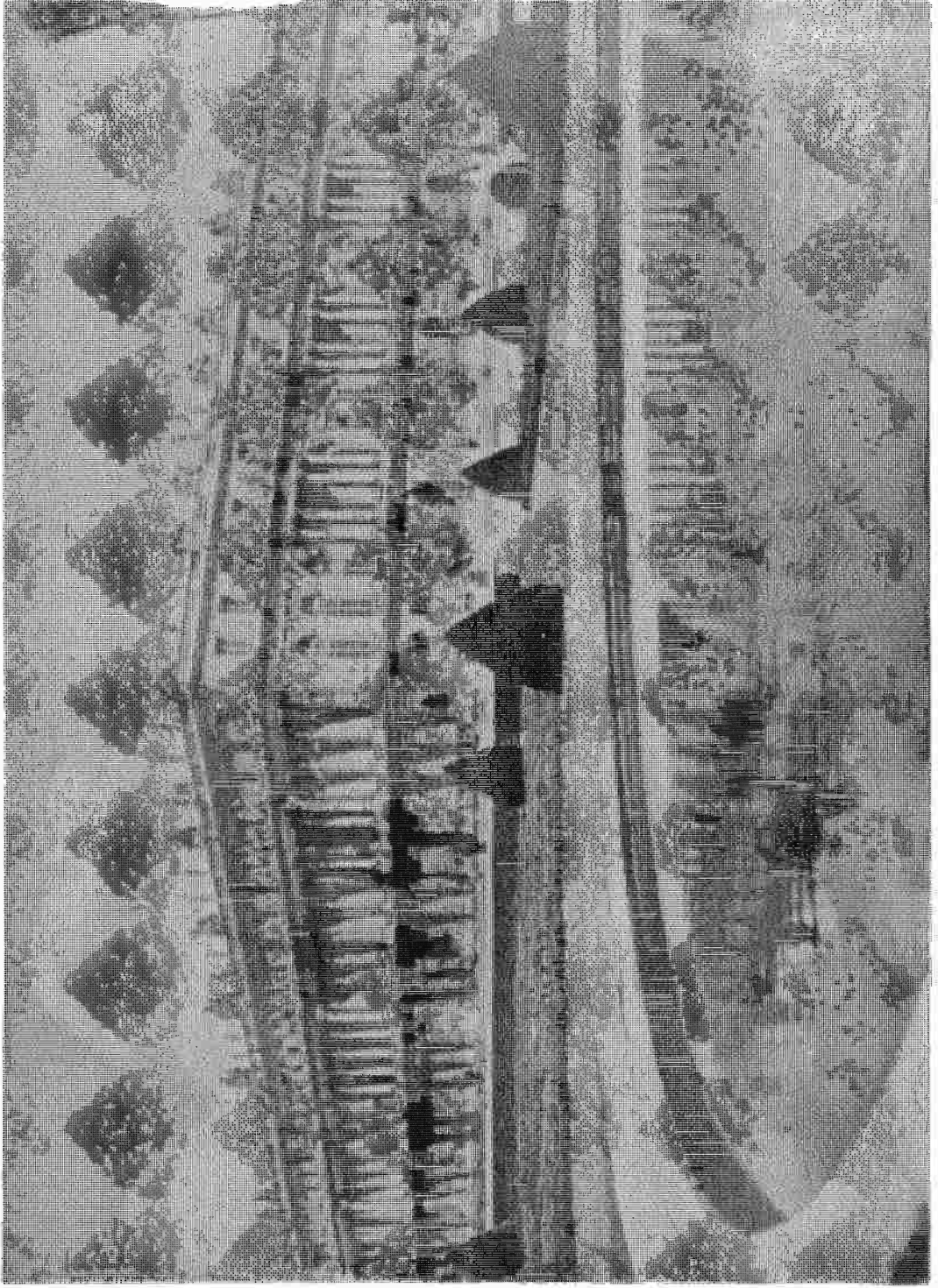


١٥ - قاعة بينهوف الكبرى في لاهاي أثناء انعقاد جمعية علم الطبقة برئاسة حكومتها في السنة ١٧١١

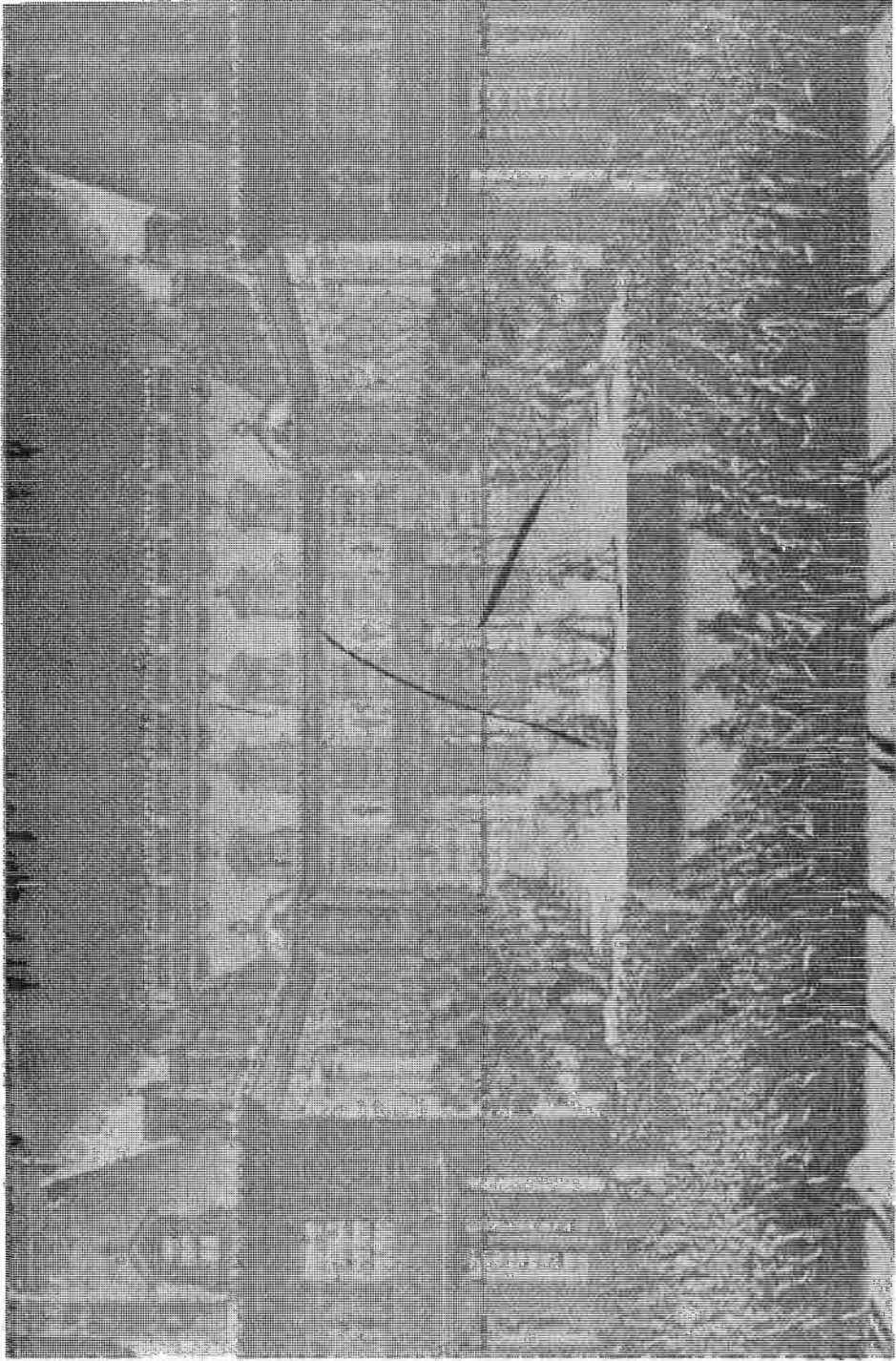




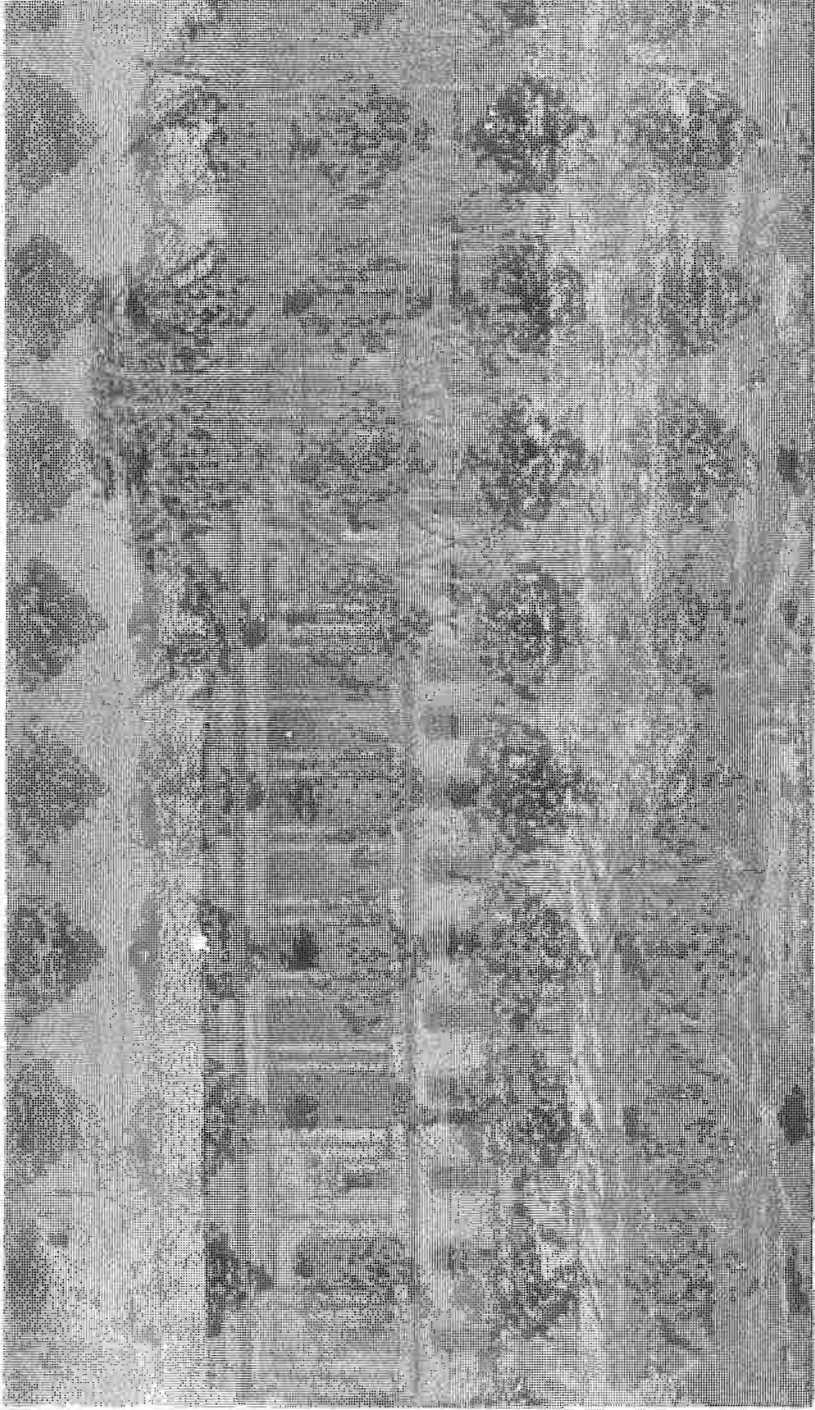




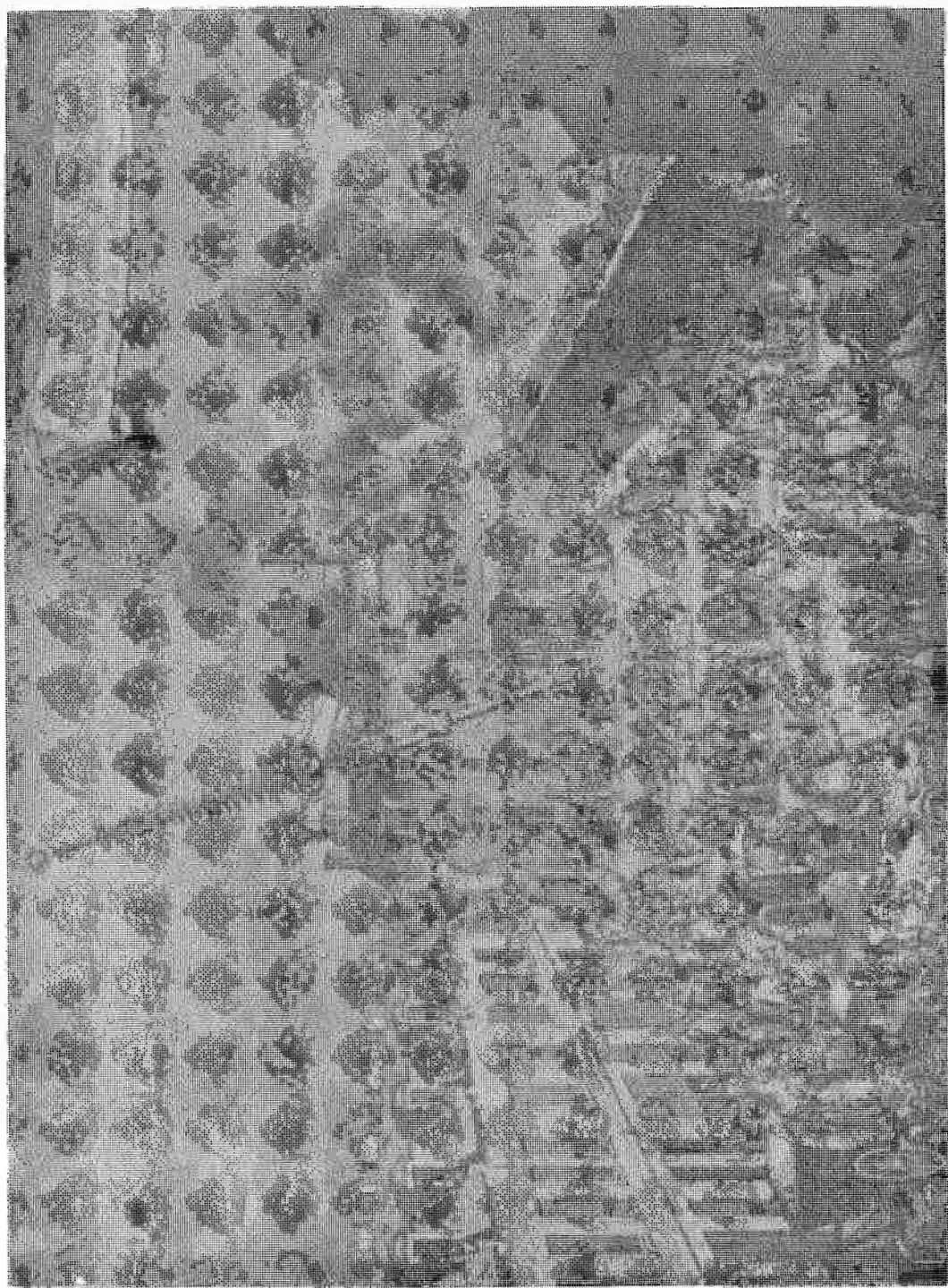
٢٩ - فصر زركاني، منظر القسم الأوسط من الفصر مأخوذ من زكوة البهجة العنبرية



٣٠ - المنزل الأول للمرأة الثانية: الست. دكتور. ولوي. في اليوم السابع في السنة ١٩١٤



١٦- تشييد عمدة الورق



ووضعت مخططات تجديد اجتماعي على ايدي ائاس تألوا من
المجتمع واستخلصوا النتائج ، بصرامة كرتزيانية ، انطلاقاً من
معطيات اختارها حسهم .

مبتدعو الانظمة الخيالية
الرومنطيقية السياسية
الديموقراطيون والاشتراكيون

في « البحث اللاهوتي ، السياسي » ، زعزع سبينوزا اركان
سلطة الكتاب المقدس لان هذه السلطة يستغلها المولك . ولكن ما يدعوه المولك ديناً هو الخوف
الذي يريدونه مسيطراً على الشعوب المستعبدة . النظام الملكي هو فن نخاتلة الشعوب . ان
ما تدعوه الرعية واجب الطاعة هو مصلحة الملك . وهي تعتقد انها تجاهد من أجل خلاصها بينما
هي تضمن عبوديتها . تقوي بدمها سلطة رجل واحد يعاملها معاملة الوسائل ، ويجرمها مبرر
حياتها بجرمانها من الحرية . اما العلاج فهو روح الامتحان التي تظهر ان السلطة تفويض قبل به
الرعية ، وان الديموقراطية هي أقرب شكل حكم الى الحق الطبيعي ، وان هدف النظم السياسية
هو ان تضمن للفرد حرية المعتقد وحرية الكلام وحرية العمل .

واشاد البارون « دي لاهوتان » بالدين الطبيعي والاخلاق الطبيعية والشوعية الاصلية .
البربري هو الجميل والنبيل والسعيد؛ انه ضليع ومشاء وصياد ماهر يقاوم التعب والحمران وينقذه
جهله من ويلات عديدة . المتحضرون هم البرابرة الحقيقية . ليمش البربري الصالح (١٧٠٣) !

وولدت العلائق بالبلدان النائية كذلك الف نظام خيالي اوردت في روايات الرحلات
الخيالية . فوصف ونظم الف مجتمع مقبل بالصرامة الهندسية التي تتميز بها روح المساواة . يجب
ان توزع المساكن بمجموعات وان تضم المجموعة ١٦ حيا ، والحي ٢٥ بيتاً ، والبيت ٤ غرف ، وان
يقيم في العرفة ٤ اشخاص ؛ الشوارع تكون منظمة والبيوت مربعة وذات نمط واحد . يجب ان
ترقب الاشجار في حدائق مربعة الشكل بحسب اثمارها المفيدة او اللذيذة الطعم . فتوالى حلم
التنسيق انتقاماً لاغترار الكبرياء وشهوة التسلط .

من لا يهتم بامور الدولة وامور الدين ؟ من لا يصلح هذا او تلك ؟ من لا يلقي درساً على الوزير
والاستقف ، وعلى البابا والملك ؟ وقد حدث ذلك بمزيد من السهولة لان الكرتزيانية قد ازدادت
انتشاراً في المجتمعات الاوروبية وحملت معها الى كل مكان روح الارتياب والاستقصاء الحر .
أليس الرشد خير ما يشترك فيه الجميع اشتراكاً متساوياً في العالم ؟ الا يحمل كل شخص ، في
ذاته ، العقل الشامل ؟ اليس الانسان أكثر استعداداً لبلوغ الحقيقة بنور الطبيعة كلما قل
درسه وقلت معرفته وقل من ثم « انشغاله » وقلت آراؤه السابقة التكوين ؟ ان حالة ثورة
فكرية دائمة كانت في طور التمحض .

هكذا انتهى القرن السابع عشر بعاصفة هوجاء من الآراء المختلفة . ان قرنا
شاهد البورجوازي يثبت وجوده في وجه البطل والبطانة ورجل الفضيلة ،
والرأسمالية التجارية تتفتح وتزدهر ، والرأسمالية الصناعية تنمو وتتسع ، والروح التجارية

الخلاصة

والملكية المطلقة تبلغان كإلهما الخاص ، واشتراكية الدولة عرتسم ، والنظام التمثيلي يرى النور ، ان قرنا شاهد ذروة الاستهجان والكلاسيكية ، شكسير وراسين ، روبنس وبوسين ، واعطى غاليليو وديكارت ونيوتون ، وعقلية الكية والآلية ، ان قرنا قاطع العقل البشري فيه ارسطو نهائيا وأدرك الكون بالرياضيات والاختبار ، وفتح العلماء والفلاسفة ورجال الدين فيه اللانهاية امام الانسان ووضعوا امام اعينه تقدماً لا حدود له ، ان قرنا انتزع فيه مسيحيون من كل مذهب ، بيرول وباسكال ، وارمينيوس وغومار ، قلمهم الخافق المحتلج كي يمدّوه نحو لانهاية العظمة والقدرة والقداسة والكمال والمحبة ، ان قرنا ربما حقق ابدال النوع البشري ، ان مثل هذا القرن الجدير عن حق وحقيقتي ان يدعى : « القرن العظيم » .

انتهى بازمة متجددة . ولكنه مدين باخصابه ، الى حد بعيد ، لازماته بالذات . فان الانسان ، في مجته عن الدواء وصراعه ضد قوى التفكيك والتهديم ، قد حقق المزيد من الاكتشافات في كل الحقول .

افضى هذا الجهد المبذول الى انماء الفردية . فقد ابرزت الامم والافراد ، بفضل المجاهدة والمنافسة ، المميزات والابتكارات الخاصة ، وتبادلتها واستفاقت بالمقارنة الى ابتكارات جديدة انطلقت منها لتحقيق ابتكارات اخرى . لا ريب في ان الفرد اشد ارتباطاً بالهيئات والجمعيات والمائلة واكثر خضوعاً لسلطتها وتقاليدها وانظمتها من انسان مجتمعات القرن التاسع عشر المتحررة . ولكنه اكثر استقلالاً واقوى شخصية الى حد بعيد من اي انسان في اي مجتمع من مجتمعات القارات الاخرى . ان هذه الفردية ، هذه الحرية النسبية فكراً وعملاً ، هي ما صنعت اخصاب اوروبا وعظمتها وما تتسم بسمة خاصة هي « البحث دونما كلل » .